

سلسلة

يُحكود العراق ذكريات وتنجون

ومقالات اخرى

ا.د. شمويل (سامي) موريه

يهود العراق
ذكريات وشجون
ومقالات أخرى

أ.د. شموئيل (سامي) موريه

هذه النسخة الالكترونية هي تجميع لسلسلة مقالات بقلم الأستاذ والأديب الشاعر البروفيسور د. شموئيل سامي موريه نشرت مسلسلة في موقع "إيلاف" وأعيد نشرها في موقع "الأخبار" الرئيسية.

قام الكاتب بإعادة تنقيح هذه السلسلة ونشرت بكتاب حمل عنوان، "بغداد حبيبي، يهود العراق ... ذكريات وشجون"، عن مكتبة كل شيء في حيفا لصاحبها الأستاذ صالح عباسي بطبعة منقحة ومزودة في ٤٢٤ صفحة تضم ٥٣ فصلا مع خاتمة وفهرس الأعلام. صدر الكتاب في حلة قشبية مع صور من حياة المؤلف وترجمة حياته وقائمة فحلة بمؤلفاته العلمية من كتب ومقالات باللغات الانكليزية والعربية والعبرية وترجماتها الى العربية والعبرية والالمانية والانكليزية والفنلندية، مع قائمة بتواريخ المؤتمرات العلمية التي شارك فيها ومحاضراته في أنحاء العالم إلى جانب قائمة بمنشورات رابطة الجامعيين النازحين من العراق التي أشرف عليها وكتب مقدماتها.

هذه المقالات بأي حال من الأحوال لا تعوض عن نسخة الكتاب المعتمدة والمنقحة المزودة ونشجع المهتمين على شراء النسخة المعتمدة للكتاب الأصل "بغداد حبيبي، يهود العراق ... ذكريات وشجون". هذه النسخة الالكترونية ليست للتداول التجاري.

عن الكاتب

أ.د. شموئيل (سامي) موريه أديب وباحث يهودي إسرائيلي من أصل عراقي. ولد في بغداد عام ٢٢-١٢-١٩٣٢ وعاش فيها حتى جيل ١٨ عام حين هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥١. درس العربية وآدابها في الجامعة العبرية في القدس وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن في بريطانيا. يعمل أستاذا للغة لعربية وآدابها في الجامعة العبرية ويشغل اليوم منصب رئيس دائرة اللغة العربية وآدابها في نفس الجامعة.

له أبحاث عدة في الأدب العربي الحديث، الشعر والمسرح.

عام ٢٠٠٠ حاز على جائزة إسرائيل في مجال الأبحاث الاستشراقية.

آثاره العربية

- المطبوعات العربية التي ألفها أو نشرها الأدباء والعلماء اليهود ١٨٦٣-١٩٧٣ القدس: معهد بن تسيقي لدراسة الجاليات اليهودية في الشرق. ١٩٧٣
- فهرس المطبوعات العربية في إسرائيل ١٩٤٨.١٩٧٢. القدس : مركز جبل سكوبس . ١٩٧٤
- القصة القصيرة عند يهود العراق، ١٩٢٤-١٩٧٨. دار النشر ي.ل. ماغنس، ١٩٨١.
- مختارات من أشعار يهود العراق الحديث . القدس : معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية . ١٩٨١
- بغداد حبيبتني: يهود العراق، ذكريات وشجون. حايفا: مكتبة كل شيء. ٢٠١٢

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (١)

الأيام الأخيرة في محلة حنون صغير في بغداد القديمة

الأثنين ١٢ فبراير / شباط ٢٠٠٧

قضيت طفولتي الباكرة في محلة حنون صغير في بغداد القديمة حيث كنا نسكن مع "سيدي" (جدي) الحاخام مثير معلم رحمين مؤلف كتاب "مقتطفات من كلام الرب" (بغداد، مطبعة شوحيط، ١٩٣٦-١٩٣٩) في سبعة أجزاء باللغة العبرية. وكنت أراه طوال ساعات لا نهاية لها جالسا وهو يؤلف كتابه هذا دون ملل أو تعب، وقد ترك مهنة الصياغة التي اشتهرت بها عائلته ليتجنب الغش الذي يمارسه بعض الصياغ في خلط المعادن الثمينة بالخصيسة، وذلك عن تقوى وحب في الأمانة وطاعة الرب ولتفرغ لواجباته الدينية في سبيل الدين والعلم، يحقق ويؤلف ويراجع المخطوطات والكتب الضخمة. ولكي يكرس وقته لوجه الله والعلم قامت جدتي "مسعودة" بإدارة مشغل للتطريز المقصيات بخيوط الذهب والفضة تعمل فيه ما لا يقل عن ثلاثين عاملة لإعالة العائلة. ولعل أخي مراد ورث منها موهبته الفنية في الرسم ورثت أنا منه هذه المثابرة على المطالعة وحب الكتب والتأليف.

ومنذ صغري أدركت بأني لا أصلح للتجارة التي كان يمارسها الكثير من يهود العراق. كنت في الثالثة من عمري، عاشقاً لكحلا ابنة عمتي ربما، ذهب الجميع وبقينا وحدنا في البيت وقد أصابنا الملل. عرضتُ علي ابنة عمتي عرضاً لا يمكن ليهودي رده: "تالي (تعالى) انبيع!"، قالت: "ميسغ (ممنوع) تطلع للدرب ليكونُ يضغبك المسلم"، قلت: "وليش يضربني المسلم؟". أجابت: "ألم يحذرك والدك؟" لم آخذ تحذيرها بمأخذ الجد، فتشتت عن بعض الملاعق والشوكات والسكاكين الفضية "من شغل العجم"، وهي من مهر والدتي الذي دقق والذي في الحصول على كل حاجة شرطها في وثيقة الزواج. فحسب تقاليد اليهود تقدم عائلة العروس الجهاز والمهر للعريس، تصل تكاليفها في بعض الأحيان إلى أن يقضي والد العروس العمر في تسديد ديونه. فتحت الباب بعد أن سعدت على كرسي ووضعت الملاعق الفضية وغيرها على طبق من الصيني. ضحك بعض المارة لصغر سن هذين "التاجرین": "هذولي غير أيهود؟ والله بعد مفقسوا (لم يخرجوا) من البيضي وقishtغلون بالتجارة!". جاء "ويحد لبيس جراوية وزبون": "ولكم هذا شنهو؟ هذا بيش اتبعونه؟"، قلت: "أبدينار!" حمل لابس الجراوية الطبق وسار في طريقه غير مكترث لصراخي وأنا متشبث بذيل دشداشته: "وين الدينار، وين الفلوس؟"، دفعني ومضى دون أن يجروُ أحد على اعتراض طريقه. عدت باكياً إلى البيت، قالت كحلا، "مقتولك لا تطلع للدغب (الدرب)؟". غضب الوالدان، وقالت أُمي: "وي غماد! (رماد عليك) مقتولك لا تطلع للدغب ليضغبك المسلم؟، الله سواك نيس! (هذه كرامة من الله)، مليح ما طلع خناق الولاد وذبحك!". وقال الوالد: "قتغيد أخلص خبزك هسه؟ قتلوك مغة (مرة) وألف لا تطلع للدغب ابحدك تغا يضغوبك!"، (أتريد أن اقضي عليك الآن! ألم أقل لك ألف مرة ومرة لا تخرج لوحدك، سيضربونك!" علق عمي يونا على الحادث: "هذا أشلون تاجر؟، ما شا الله علينا، من أول غزاته انكسرت عصاته!".

وأدركت منذ ذلك الحين، من تجربتي الأولى الفاشلة في التجارة بأني لا أصلح لمثل هذه المهنة التي مهر فيها يهود العراق خاصة. ثم جاء الإثبات الثاني على عدم صلاحيتي للتجارة حين قالت لي الست فاطمة في مدرسة السعدون ضاحكة، بعد أن فشلتُ في حلِّ مسألة في درس الحساب عندما امتحنتني بالرياضيات: "ولك أنتَ شلون يهودي؟ أشو عجا إنت ما شاطر بالحساب؟"، مو كل اليهود لازمين البنوك والحسابات مال كل الدوائر الحكومية بالعراق والسوق بيدهم وحتى الإسلام يعزلون ويأكم يوم السبت، هاي شلون يهودي انت؟". صدقت الست فاطمة هذه المرة أيضا، فقد فشلت في كل صفقة تجارية عقدتها في حياتي، سوى في زواجي الأخير من فتاة فنلندية "خايفة رُبها وغشيمة" مثلي.

وعندما كنت أسافر في كل عطلة صيفية وفي سنوات التفرغ للأبحاث لإنجاز الكتب التي بدأت بتأليفها (سلالة مثل جدِّي) التقيت ببعض الأصدقاء ممن كانوا متفوقين في الرياضيات في مدرسة شماش، ووجدت ما شاء الله، أنهم قد أصبحوا من أصحاب الملايين في إنكلترا والولايات المتحدة. ثم يسألونني فيما إذا كنت نازلا في فندق هيلتون أو غيره، فأقول لهم بل في مضافة الجامعة، فيتعجبون قائلين: "ما انت صاير دكتور وبروفيسور! وكشخة وقلابغ، لَكُنْ أَحْسَنِلْنَا اشتغلنا بالتجارة! فنحن ننزل في أفخر الفنادق!" وعندما يعلمون بأن عليّ أن أقدم حسابات ووصولات للجامعة ولضريبة الدخل عن كل فلس أصرفه، وخاصة أجرة المواصلات والفنادق وشراء الكتب، قالوا: إذا فألقابك فارغة "ما تُطعم خبز". فإذا نسيت طلب الوصولات من سائق تاكسي مثلا، وكثيرا ما أنسى، "فقد راحت علي!". أما أحد الأساتذة "الشطار" فقد كان يذهب إلى محطات القطار والباصات ليفتش عن بطاقات سفر مهمة

فيأخذها ويضيفها إلى قائمة المصاريف لكي لا تطلب منه ضريبة الدخل إعادة بقية
المنحة.

* * *

بدأت العلاقات بين اليهود والمسلمين تتأزم يوماً بعد يوم بعد أن أخذت أسماء مثل
هتلر وموسليني والنازية والمحور والحلفاء والفتوة وكتائب الشباب، تتردد في نشرات
الأخبار والصحف وفي حديث الكبار، وأخذت العلاقات الحميمة التي كانت تربطنا
بجيراننا من المسلمين والمسيحيين تصاب بالبرودة والفتور ثم تتفاقم فتصبح عدائية
وعنيفة أحياناً.

خرجت أختي كلادس فرحة بثوب الدانتيل الذهبية في يوم عيد رأس السنة العبرية
"التكشخ" (تفتخر) أمام جدتنا بثوبها الجديد الذهبي الزاهي، أمسكت بها "مُسلميَّ
كبيغي" (بالغة) حسداً ومزقت ثوبها قائلة: "إي بنت السبت، اشو روجي عيدي،
دنشوفك!" ورجعت باكياً محمرة العينين وقد أصابها الهلع: "المسلميَّ شقتنا
الدغييتي (مزقت ثوبي) الجديد!".

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢)

انتقالنا إلى محلة البتاويين

الخميس ١٥ فبراير / شباط ٢٠٠٧

استبشرنا بانتقالنا عام ١٩٣٦ إلى دارنا الجديدة التي بناها والدي من مهر أمي بعد أن باع حصتها في بيت جدي بسبب شق شارع الملك غازي الجديد. انتقلنا إلى دارنا الجديدة التي خططها الوالد وأشرف على بنائها بنفسه أمام بستان مامو في محلة البتاويين، وسمي شارعنا فيما بعد بشارع الرافدين وكانت أختي أسبرونس كلما دخلت الدار تذكر رقمها لنستطيع تذكر العنوان للعودة إليه بمساعدة "أولاد الحلال" إذا تاه أحدنا في محللتنا الجديدة وتقول باعتداد لتمكنها من القراءة: "رقم الدار، بستان مامو، ٦ د / ١٣ / ١"، ثم تقرأ ما كتب على تاج الباب: "سنة ١٩٣٦"، وكانت دارنا من أوائل الدور التي بنيت في بستان مامو بالبتاويين، تحتوي على ٥ غرف كبيرة وغرفتين صغيرتين فوق المرافق وغرفة الكيل (المخزن) سكنت في إحدهما جدتي بعد أن تأرملت، وتتوسط الدار حديقة داخلية كبيرة. وفي أيام العزّ هذه كان أبو علوان بائع الحليب الذي كان يسكن في كوخه الطيني أمام بيتنا ويعمل أيضا "بستانجيا" عندنا، يأتي بقراته إلى دورنا ليحلب البقرة أمامنا، فقد كان الباعة يحملون بضاعتهم إلينا، إلى أن شيدت أمانة العاصمة سوقها الحديث الذي بني أمامه كنيس "صلاة مثير طويق" فأصبحنا نذهب إلى السوق. وكانت زوجته أم علوان

تساعد والدتي في بعض أمور المطبخ والتي كانت والدتي "المدامة" مدرسة اللغة الفرنسية سابقا و"التدعي بيها" (فخورة معجبة بنفسها) "تستكف" العمل في المطبخ وحتى الدخول إليه. وكانت باهيزة أم محمد زوجة أبو علوان الثانية خبّازة العائلة. وكانت الوالدة تأخذني إلى تنور باهيزة قرب كوخ أبو علوان وزريبة بقرته لنشتري الخبز. وعندما كانت باهيزة ترانا مقبلين من بعيد كان وجهها المستدير "كالقمر ابو ارباطعش" يضيء بابتسامة رائعة. كانت صديقة حميمة لوالدتي أكثر من أم علوان، وكان الوالدة ترشدهما في تربية الأولاد ومعالجة أمراض الأطفال وتزودهما بما يزيد من الملابس والطعام عن الحاجة، وترسل لهما في الأعياد الحلوى والبخشيش. فإذا رأتنا صاحت باهيزة: "صلوات على النبي صلوات! سامي بيك وأمّه المدامة جاين خطّار عدنا!" ثم تردف قائلة: "صلوات على هل عيون السود، صلوات! والله لأخيزلك حنونة (قرص صغير يخبز للأطفال خاصة) تلوك الحلگك". وتأخذني بين ذراعيها لأري كيف "تستوى الحنونة" ورائحة الخبز الناضج تعبق من ثيابها فأشعر بالحب والعطف يغمرانني وأنا بين ذراعيها، فأهنا من حرارتين، حرارة التنور (الفرن) وحرارة كلمات الترحاب بنا وما تبديه من حب وحنان نحوي وأنا بين ذراعيها وهي تقبل وجنتي. ثم تناولني الحنونة اللاذعة بحرارتها ورائحتها العطرة وهي تقول بحب وعطف: هاي الحنونه لعيون سامي"، فأشعر بأني طفل مدلل لوالدتين تحبانني وتعطفان عليّ.

وكانت هناك امرأة أخرى معجبة "بالعيون السود"، جارتنا راشيل ام حسقيل مدرسة أختي كلادس، فما أن تراني ألعب خارج الدار حتى تطلب من كلادس: "ابدالك لزمينو قداغيد أبوسو" (فداك، امسكيه لأنني أريد تقبيله). لا أدري لماذا كنت أحب قبلات باهيزة الرقيقة برائحة الخبز الحار في ثيابها السوداء الصوفية وغطاء الرأس

الأسود المعقود على رأسها، ولماذا يصيبني القرف من عطر "القلونيا" الذي كان يفوح من الست راشيل بثيابها الأوروبية. هل كان بسبب اعتدادها بنفسها كمعلمة تحصل على كل شيء بالأوامر، كما كان يفعل والدي؟ هل بسبب قبلتها الرطبة المغتصبة الجسورة تأخذها غصبا بدون "حنونة" ودون ترحاب يفيض من القلب. كانت تناديني "سامي تال (تعال) دبوسك!" فأرفض فتطلب من أختي كلادس "أبدالك صيدنيو دبوسو"، وتنصاع أختي كلادس لأوامر معلمتها، وتمطرني الست راشيل بالقبلات الرطبة، فأقلت من يديها، حتى ضجرتُ وصحْتُ بها ذات يوم غاضبا وأنا امسح مكان القبلة: "ولك إنتِ مستحِين تتحاغشين بالغجيل؟" (ويلك ألا تخجلين من التحرش بالرجال؟)، ضحكت الست راشيل ضحكة عالية، "هذا اشلون ولد وكيح (جسور)، ابن أربع سنين وشيف نفسو غجال (رجل)!". ثم تروى لزوجها وللأصدقاء ما قلته لها وهم "يعوصون" من الضحك وتصبح هذه النكتة مدار حديث الرجال والنساء في حَيِّنَا لمدة أسابيع. ومنذ ذلك الحين صار كل من يراها من المعارف، يقول لها ضاحكا: "ويلك! ألا تخجلين من التحرش بالرجال؟"، وهكذا تأدبت وتابت الست راشيل من تقبيل "أبو عيون السود"، بعد أن كانت تظن أن لها الحق في القيام بكل ما ترغب فيه عن طريق الأوامر وبدون مقابل، لا لشيء سوى لأنها معلمة. عندما سمعت عمتي مريم وقد جاء لزيارتنا من العمارة، ما قال "أبو عيون السود" للست راشيل، قالت: "إي، عيونو السامي حلوة، عندو عيون مال عِغْبِي (الإعرابي / البدوي)". وعندما سمع أخي البكر ما قالتها العمّة، صاح: "أي والله! لكنْ (إذن) من اليوم انسميك أبو عيون العِغْبِي"، وقال لأصدقائه فرحا: "من اليوم وغادي انسمينو السامي أبو عيون العِغْبِي!" ومنذ هذه الحادثة بدأ الشقاق بيني وبين أخي البكر، فقد أفسد علي دائما فرحة ترحاب الفتيات والنساء بالعيون السود. وبقي يعدد "أصيات" (جمع صيت) (ألقاب) "الشرف" التي منحها لي حتى بعد أن سافرنا إلى لندن للدراسة

ليل لقب الدكتوراه من جامعة لندن. ثم أدركت فيما بعد بأن هذه عادة عراقية يتمتع بها الكبار بإغظة الصغار وتحقيرهم لكي يشعروا بسطوتهم وجبروتهم على من هو أصغر منهم. واليوم يطبق العراقيون هذه العادة على الأقليات الأخرى، يطبقها السنة على الشيعة وبالعكس والعرب على الأكراد للغض من مكانتهم والتفتيش عن المثالب والعيوب في الآخرين ويزرعون الشقاق الذي ورثوه من سياسة الغزاة: "فَرَّقْ تَسُدْ".

هذه الصداقات الحميمة في البتاوين استمرت سنوات قليلة. وصرنا نحن أطفال اليهود نتكلم اللهجة الإسلامية بطلاقة مما اكسبنا ثقة بالنفس وشعورا بالمساواة. كان عزرا اليهودي الساكن في شارع في ظهر شارعنا رمزا لهذه المساواة. يلبس الدشداشة ويشد وسطه بحزام مثل صغار أولاد العرب من الطبقة العاملة وكان يلعب "الدعبل" و"الجعاب" و"الطره لبليل" مع كبار الأولاد المسلمين ويتبادل معهم السباب والضرب دون مراعاة لأحد. كان إذا "زاغله" (خدعه) أحدهم، يضربه على قفاه ويسبه بقوله: "ولك أخ الك...ة تراغليني!"، فلا يرد عليه خصمه بمسبة بل يعتذر. مَرَّ أحد "المعدان" من سكان "ورا السدة" وشاهد ما لا يستطيع عقله استيعابه، يهودي واسمه عزرا يضرب أولاد المسلمين ويشتمهم دون أن يردوا عليه ويعلموه درسا في آداب الصحبة وحسن المعاشرة مع المسلمين. ثارت نخونه البدوية وصاح متحرشا بعزرا: "ولك! انته شسملك؟" فهِم عزرا بأن هذا الغريب عن "العكد" (المحلة) يتحرش به ويريد اختلاق سبب لضربه وتأديبه. رمى عزرا الكعاب من يده بغضب وانتصب واقفا ورفع يديه وأبرز صدره ونطح به خصمه وصاح به غاضبا: "ولك آني إسمي <عذرا>!" فترنح الخصم لهذه النطحة المفاجئة وتراجع قليلا وخاصة عندما رأى أنه لا يوجد من بين المسلمين من "يَتَفَرَّغُ لَهْ" وأجاب مفتشا عن طريق للتخلص من هذه الورطة التي زج نفسه بها، فقال: "ها زين، بس أگول! (طيب،

أردت الاستفسار فقط!) وذهب لشأنه قانعا من الغنيمة بالهزيمة. ولا يعلم هذا القانع بالهزيمة أي مغنم غنم. فلو واصل هذا "الخابب" "العركة"، لتلت نطحة الصدر "براسية" (نطحة رأس أو كلة) هائلة ولا نطحة زيدان لاعب كرة القدم في منتخب فريق فرنسا، ولسقط على إثرها مضرجا بدمه فلا يخرج من مستشفى "المجيدية" بأقل من أربع "قطبات" في جبينه.

كان لعزرا هذا خمسة أخوة وكل واحد منهم "مكطع ديس أمه"، و"يودي الشيطان للشط ويرجعه عطشان". كان الباعة و"الحماميل" (العतालون) والجيران يتقون شرهم. كانوا يطيرون أكبر طيارات أم الشناشيل، يرسلونها بالخيوط المعززة بالصمغ ومسحوق الزجاج لكي يمنعوا الآخرين عن اصطيادها لأن خيطها الزجاجي يقطع خيوط الطيارات التي تتحرش بها وليصطادوا الطيارات الكبيرة الأخرى وخاصة "أم الصناطير" التي كانت تصفر متهادية بهيبة وجلال في تحليقها دون أن يبألوا من يطيرها، مسلم أو يهودي أو مسيحي، و"الما يعجبه خلّي يطخ راسه بالحايط". فإذا اقتربت طيارتهم ذات الذيل الواحد القلابة بخيطها ذي المسحوق الزجاجي، قلبوها على خيط "أم الصناطير" أو "أم الشناشيل" وجذبوه، فينقطع الخيط وتسقط، فيدوي عكدهم والعكود (المحلات) المجاورة بصيحات الاستحسان والتعجب من مهارة هؤلاء الأولاد "العركاويين" الذين يشترون الشر بفلوس، ويعدو الأطفال والشبان بصخب وجنون وراء الطيارة الساقطة ليأخذوها غنيمة باردة لهم.

كان "عذرا" هذا وإخوته يجييون على كل من ينادي على بضاعته من الباعة المتجولين بمسبة مقدعة ذات قافية طنانة متعارف عليها بين العتالين. كان يهبط ذات يوم درجات بيته إلى الشارع فسمع بائع اللبن وهو ينادي على بضاعته "اللبن" المحمولة بحقيبة الصفيح "بشكاسات" (اقداح) جميلة من الفرفوري الفاخر المصنوفة على

رفوفها بداخل الحقيبة: "لبن! لبن!" فأجابه عزرا دون وعي منه وبصورة تلقائية: "ك..ل..ت أمك إنكَلْبِن!". ما أن انتهى عزرا من قافيته الرنانة حتى وجد فمه قريبا من أذن بائع اللبن الغريب عن المحلة وقد امتقع وجهه وعرت جسمه رعدة الغضب العنيف وأمسك بيد عزرا اليهودي: "ولك انت إل مَنْ دَتْسِبَه" (ويلك، من تسب)، صاح عزرا بأعلى صوته لسمع أخوته ويأتون لتخليصه من هذه الورطة الغير متوقعة: "والله مو إلك! عبالى (ظننت) هذا إعلوي أبو اللبن مالتنا وآني وياه ميانة (وأنا ومعه صديقين دون كلفة بيننا)". وعندما رأى بائع اللبن أخوة عزرا المحاطين به وعلى وجوههم تصميم خوض معركة لا يسلم منها ولا تسلم "شكسات" اللبن، "داس على نفسه" (تمالك نفسه) وقبل العذر مرغما: "ترى لا تسويها بعد!" وما أن أبتعد البائع حتى بدأت "جوقة العفاط" وراءه وهي تتنافس بأطول "زيگ"، بحيث لو سمعها شيخان "العربنجي" من محلة "الميدان" كان سيخجل من عفاطه التي ستبدو فاترة أمام هذه الجوقة المتحمسة. وشيخان العربنجي هذا هو الذي تبارى مع وزير الدفاع الجنرال جعفر العسكري وغلبه في مباراتهما في العفاط. فما بالك بعفاط "عذرا" هذا وإخوته التي كادت تصل إلى باب الشرقي والى سينما غازي.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢)

تأزم العلاقات بين اليهود والعرب

السبت ١٧ فبراير / شباط ٢٠٠٧

في مثل هذا الجو المتسامح أيضا كنا نلعب مع أولاد باهيزة، محمد وحسنة ومع دحام ابن أخت باهيزة الذي اعتاد أن يأتي في أيام السبت ليسأل إذا كنا نريد أن "يغليكم لمبة التبيت؟" (يشعل موقد "التبيت" إذا انطفأ. والتبيت هو طعام اليهود يوم السبت المكون من دجاجة محشوة بالتوابل والحمص واللحم، يوضع على نار خفيفة من مساء الجمعة والى ظهر يوم السبت بطول الليل وذلك لأن إشعال النار محرم أيام السبت عند اليهود)، أو لإشعال قنديل السبت ليضيء. وكان هؤلاء الصغار يأتون لمساعدة والدتي وخاصة في يوم السبت بعد ذهاب إستير في بعض الأحيان إلى عائلتها لعطلتها الأسبوعية. كنا نناديهم إذا انطفأ قنديل يوم السبت أو موقد (لمبة) "التبيت" ليشعلوها. ورويدا رويدا أخذ يشوب صداقاتنا شيء من البرودة. شعرنا بها للمرة الأولى عندما انقطع دحام عن المجيء يوم السبت والطرق على الباب: "أغللكم اللمبة؟" ويخرج غانما. رأيت ذات مرة من النافذة يسير في احد أيام السبت قرب دارنا وينظر إلى بابنا بخوف وحذر، ناديناها: "دحام وينك اشو مدنشوفك، هاي وين لين؟" رفض الاقتراب منا، قلنا له: "دحام! اشصار؟ شكو؟ مو كنت اتحبنا؟"، قال وهو يجتهدش بالكاء والسائل اللزج الأخضر يصعد وينزل من

منخاريه، قال بخوف: "إذا أطب عدكم ماتكثلونني (إذا دخلت بيتكم ألا تقتلونني) ما تذبحوني؟" قلنا له بتعجب: "منو گلك نذبحك؟ وليش نذبحك!"، أجاب والدموع في عينيه: "الفتوة! گالوا لي لا تطب بيوت اليهود، ترى أيذبحك، گالوا هذوله اليهود يذبحون ولاد الاسلام بالعياد مالهم!". قالت الطباخة استيع (استير) من محلة ططران والتي كانت تساعد الوالدة في تدبير البيت: "وي غماد! وي أبيل (الويل والثبور) وأسود على الفتوة القيعلمونو هكيد تعلم أسود ومصوغ، سَظُونوا (افسدوا) الولد الخايب علينا وسَمَمونو العقول! أش بعد يطلعون (يخترعون التهم) علينا؟ دحام! لا تخاف، ليهود ميذبحون احد!". ثم وافق أخيرا على أن "يطب ويعلگ اللمبة" (يدخل الدار ويشعل الموقد). خرج دحام من دارنا وقد أضاءت وجوهه ابتسامة عريضة بعد أن غسلت استير وجهه ويديه بالماء والصابون وملأت أمي جيوبه بالمليس والحلقون والباعب (الكليجة) وهي توصيه: "سلمنا على خالتك باهيزة أم محمد، اشتقنا لها".

ثم حدثت حادثة أخرى تصاعدت فيها مشاعر الحذر والخوف من المستقبل. ففي احد أيام السبت التالية خرجتُ مع أخي البكر جاكوب، هذا الذي كان فخر العائلة، فقد أستطاع أن يقرأ كتاب "السيلاير" للغة الفرنسية للصفوف الابتدائية في مدرسة الأليانس وهو في سن الرابعة، وكان يتنافس مع صديقه أيلي خضوري (كدوري) الذي أصبح فيما بعد أستاذًا للعلوم السياسية في جامعة لندن، على الأولية في صفهما. خرجنا للتنزه ولرياضتنا الصباحية وهي لقط التمر المتساقط من النخيل في بستان مامو الذي كان ما زال في أوج ازدهاره بسواقيه التي تسقى بالمضخات وأشجار البرتقال والنومي (الليمون) الحلو والحامض تنمو تحت ظلال النخيل الباسقة التي تنحو عليها بسعفاتها الوارفة. خرج علينا ولد حافي القدمين في سن السابعة بين سن أخي وسني وصاح: "ولكم يهود! ولد الكلب وين رايحين؟ لأنعل ابوكم يا

بو دينكم، أطلعوا من هنا!" انحنى ليلتقط حجرا ليضربنا به، بادرت به بحجر على ظهره ففر "يعوي" وهو يكفر بالدين ويهدد. تهيأ أخي للهرب فلما رآه قد فر هاربا قال متعجبا: "هايي أشلون مخفت متو؟ أشلون ما نهزمت؟" قلت لأخي: "ليش اخاف متو؟ نحنا ثنين ونخاف منو وهوى ويحد؟ معينت أشلون أنهزم!" خجل أخي الذي تربى في محلة يهودية في بغداد حيث يصلو فيها أولاد المسلمين ويجولون شتما وضربا بأولاد اليهود الذين اعتادوا الفرار واللجوء إلى دورهم اتقاء للشر، وإلا صاح الولد المسلم إذا تجاسر ورد عليه "يهودي جسر وعركاوي" الصاع صاعين: "يا امة محمد أيهودي كفر بديني!" وهكذا يتلقى اليهودي درسا لا ينساه مدى الحياة في آداب الذمة وآداب معاشررة المسلمين والخوف والحذر و"كفيان الشر" إذا سبه مسلم أو ضربه. ثم قال لي بعد أن أصبحت الاعتداءات على اليهود تتكرر وتزداد عنفا: "لا بد لنا من تعلم المصارعة للدفاع عن أنفسنا". وفي اليوم التالي جاء بكتاب "المصارعة الحرة" لعباس الديك المصارع العراقي، كان قد اشتراه من مكتبة المشى. قيل عن عباس الديج هذا انه فاز في مباراته مع بطل ألمانيا في المصارعة، فقد روى أصدقاؤنا الأساطير عنه وعن قوة وبطولة "عباس الديج" وفنونه في المصارعة الحرة. تعلمنا من الكتاب "فك قبضة الياقة" بأن نعصر على إبهام قبضة الخصم لشل قوته "وفك الياخة" (ياقة)، والضغط على كف اليد والساعد لشل مقاومته كما يفعل رجال الشرطة أثناء القبض على المجرمين، وتعلمنا ما سميناه "ضرب المخيط" وهي مسكة مؤلمة توضع فيها إصبعين بين أضلاع الخصم لتشل حركته، و"الكلابند" وهو وضع القدم وراء قدمي الخصم ودفعه إلى الورااء فيصرع على ظهره بسهولة. كانت هذه التدريبات قد عززت ثقتنا بالنفس فلم نعد "ننهزم لأول مسبة وكفر بدين اليهود"، وصرنا نشترى "الشر بفلوس" لنجرب على الخصوم مسكات "عباس الديج"، حتى قال الوالد: "تغى لا تسيغون مثل العريضى بدرب الاسلام، ليطلعكم ويحد حامض

بولة، وبهبشكم!" (لا تصبحوا معاكسين في درب المسلمين، فقد تلاقون مسلما سريع الغضب ويذيقكم الأمرين).

وفي البتاوين لم تكن تهمة "إيهودي كفر بالدين" سارية المفعول. كنا أصدقاء "روح بالروح"، وإذا تخاصمنا مع المسلمين، نتبادل مسبة بمسبة وكفخة بكفخة، أو جلاقة بجلاقة، وتنتهي المشكلة. أما في محلات مثل الست هدية وعباس أفندي والمهدية والفضل والكرخ وغيرها من المحلات التي تسكنها الأغلبية المسلمة، فالويل لليهودي الغريب عن المحلة، فليس له "حرمة دفاع المسلم عنه" التي تمتد إلى "سابع جار". فإذا جرؤ مثل هذا اليهودي على رد المسبة بمسبة، فسرعان ما يصيح المسلم: "يا امة محمد! إيهودي كفر بديني!"، وتعال يابا خالصنا؟" إذ كثيرا ما تنتهي المسألة "بفشحات" يسيل فيها الدم، ويؤخذ الضحية إلى "القلع" أي مركز الشرطة، وهناك "لازم تلعب إيدك" (تدفع الرشوة) وتسوي واسطات، لكي تخلص من الورطة التي وقعت فيها. كنا أخوتي وأنا "ولاد ما نقعد على أرض الله دقيقي راحة" كما كان يقول الوالد. ولكي تتخلص الوالدة من "وكاحتنا ولغاويننا" كانت ترسلنا في العطلة الصيفية عند خالي حاييم او عمتي هيلة اللذين كانا يسكنان في محلات سكن تقطنها غالبية مسلمة متعصبة.

أما المرة الأولى الذي وقفت فيها على معاملة المسلمين لليهود في بغداد القديمة فقد كانت عندما أرسلتني والدتي لتتخلص مني إلى بيت عمتي هيلة القاطنة في محلة "عباس أفندي". وقفت على عتبة الدار فجاء ولد صغير لابسا دشداشة وحافي القدمين وقال لي: إيهودي! شتسوي (ماذا تفعل) واقف هنا؟"، قلت له كما اعتدنا أن نجيب في البتاوين على مثل هذا السؤال: "امشي سرسري! لانعل ابوك يابو الجابك (ومن ولدك)"، وبكل جسارة دخل الولد دار عمتي هيلة وصاح: "هذا إنكم

سبني، لازم أبسطه (أضربه) وأذبه!" قالت له عمتي: "ميخالف ابني مشيها، كل المسبات عليا!"، أجبته بغضب: "لا علينو، علينو، أنعل أبونو يابو الجابو!"، صاحت عمتي: ابدالك ابن اخوي ابراهم شالوم، اسكت بقى، ليش هوني البتاوين، فتغيد تلبينا أبلوه؟". قدمت الملبس للولد وقالت له: "مشيها ابني، ميخالف، هذا جاي من البتاوين، هناك صايرين اليهود عشره ويا الاسلام مو مثل هنا!".

وفي مناسبة أخرى لمثل هذا الجلاء القسري من بيتنا في البتاوين لترتاح الوالدة من "وكاكتي"، كنت واقفا في ساعات الصباح على عتبة دار خالي حاييم في "الست هدية" أرقب "الجايين والرايحين"، فاذا بنبت صغيرة في العاشرة من العمر جاءت تتحرش بي: "يهودي غواد، ابن الكلب! أش واغف تسوي!، تتفرج على النسوان؟!". ظننت أن هذا "العكد" مثل البتاوين، مسبة بمسبة وتنتهي المشكلة، قلت لها باللهجة الإسلامية التي أتقنتها في مدرسة السعدون: "امشي گرعا (قرعاء)، أنعل ابوج يا بو الخلفج!"، وإذا بها "تصفق الصوت" بأعلى صوتها وتضرب رأسها صارخة: "يا امة محمدا! يهودي يگولّي گرعا!" (يهودي يقول لي قرعاء!) وإذا "بفزة" تقوم على قدم وساق، وينسل الأولاد والشباب من كل حذب وصوب وهم يصرخون: "ولج وينا اليهودي، لنلعلنج دينه ووالديه!". أخذت الحجارة والطابوق تنهال والضرب "بالتواهي والمگاوير" تتلاحق على الباب حتى كاد أن يتحطم. أغلقت الباب بسرعة وهرعت بلانش وإيفلين وجاكلين بنات خالي وأقفلوا الباب الذي كان يدويًا ويهتز مع كل طابوقة ترمى عليه فدعمناه بتخت ثقيل، وصعدنا إلى السطح والبنات يبكين ويولولن: "وي غماد! وي ايبيل! ابدالك سامي اسويت (ما عملت)! ساعة السودا ولا طلعت بغا (خارجا)! ليش قتحمل (أتظن) هوني مثل البتاوين؟ هوني يذبحوك والله!". وبعد ساعة هدأ ضرب الحجارة وساد السكون! جاء خالي حاييم وزوجته وموريس ابنتهما

ال بكر وأزاحوا أكوام الحجارة المتراكمة وسألوا "أش دعوى؟ أش ساغ؟"، أخبرتهم بحادثة "الكرعا" وسبها لي وصراخها: "يا امة محمد!". قالت سليمة زوجة خالي: "لكون تطلع لدغب بعد، تعا والله يقتلوك، غدا من الصباح ترجع إليبتكم، بيش فتغيد تلبينا؟". وبعد أن غربت الشمس وحل الظلام، أردت أن أتففس هواء نقيا باردا بدل هذا الهواء الحار الخانق في البيت ونظرات الاتهام واللوم تلاحقني. وقفت على العتبة، فإذا بالفتاة تأتي مسرعة مع والدها: "يايا! هذا هو ليهودي الكلي گرعا!" (يا أبي، هذا هو اليهودي الذي قال لي: قرعاء). صاح والدها وقد تهدج صوته من الغضب: "ولك گواد! ولك أنت گتلتها البنتي گرعا؟" أدركت بالغريزة أنني لو دخلت مسرعا إلى البيت لعلم بأني المعتدي، وقفت برباطة جأش وقلت له: "لا! مو آني، هذا واحد من الكرايب (الأقرباء) سمعنا اشگال (ماذا قال) للبنت، بسطناه (ضربناه)، ورجعناه البيتة!". اخرج والدها سكيينا من عبه وقال لي، اسمع ولك يا خَلگ (خَلق) إيهودي، والله والله! لو انته گايلاها گرعا جان ذبحتك هسا!". أجبته: "لا عمي! مگتلتك إحنا ضربناه ورجعنا البيتة بالعلوية". وقال والدها: "زين سويتو رجعتو الأبْن الك...ة لمهجومه (الي بيته الخرب) كان هسا ذبحته!"، ثم أخذ بيد ابنته "الكرعا" وهي تشك فيما قلته وتتلقت لتتأكد من صدق كلامي، فجرها والدها من ذراعها وذهب. دخلت الدار وأنا أتففس الصعداء ولا أكاد أصدق بنجاتي. ومنذ ذلك الحين وبعد "الهرجة" التي عملتها عمتي هيلة وسليمة زوجة خالي حاييم، تابت أمي من إرسالي "للتصيف" في بيوت أقبائنا في مناطق تسكنها الأغلبية المسلمة وأرسلنا الوالد بدلها لتتعلم اللغة العبرية بعد أن حرّمت وزارة التربية والتعليم تدريس اللغة العبرية، إلي الكنس اليهودية القريبة من دارنا مثل "كنيس أبو داوود" وهو من أقبائنا وكنيس مسعودة شمطوب، وأخيرا إلى كنيس مئير طويق قرب دارنا بعد أن تم بناؤها.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٤)

التحاقى بمدرسة السعدون النموذجية سنة ١٩٣٨

الاثنين ١٩ فبراير / شباط ٢٠٠٧ - ٢٠٠٥:٥٢

زارتنا الست مارثا القاطنة في شارعنا في الدار الثالثة عن يمين بيتنا، قالت لوالدي بأن مدرسة السعدون النموذجية الداخلية، التي تديرها والتي كانت مخصصة لأبناء العائلة المالكة وكبار رجال الجيش والحكام والموظفين، أصبحت الآن تقبل طلابا خارجيين أيضا. ولكي تكمل المساواة بين الطوائف فيها ترحت من أبي أن يرسل لها "فد ولد ولدين" من بين أبنائه وبناته الستة ليكون فيها طلبة من اليهود أيضا إلى جانب اثنين من المسيحيين انضموا إليها حديثا، وأضافت بأن هذه مدرسة فريدة من نوعها في العراق، فهي مدرسة مختلطة للذكور والإناث وتطبق فيها المناهج الدراسية الحديثة ويعامل الطلبة فيها على قدم المساواة بدون إهانة الطلبة بالشم والضرب كما هو متبع في طرق التأديب القديمة البالية في المدارس. وافق الوالد على إرسالني: "ميخالف، أدزُلج (أرسل إليك) سامي هذا سبيع عركاوي وميخاف"، ثم أرسل معي أخي ريمون ليكون تحت حمايتي وليوفر مصاريف الدراسة الباهظة في مدارس الطائفة "الإسرائيلية" كما كانت تدعى قبل قيام دولة إسرائيل تفاديا للعبء "الذل والمسكنة" التي حاقت باليهود لو سميت بالطائفة اليهودية، ثم سميت بعد قيام دولة إسرائيل وقذف دار الطائفة بالحجارة بسبب ذكر "الطائفة الإسرائيلية"، بـ"الطائفة الموسوية".

عَقَّبَ والدي علي حديث الست مارثا حول المساواة الظاهرية باليهود: "لا خُصِّمَت (أي انتهت المشكلة) لَكُنْ (إِذَا) غاح تكمل السبحة مال المساواة وياهم".

كان يوم التحاقى بمدرسة السعدون يوما مشهودًا وحافلا بالمفاجآت العجيبة. قال والدي وهو يتهيأ للذهاب إلى "الأوفيس" وهو شركة "أندرو واير" للإستيراد والتصدير ويعمل مديرًا عاما لحساباتها: "خذو الريمون وروحوا للمدرسة وقلّا المارثا: أبوي يسلم عليكي وقعدينا بالمدرسة مثل ما قلتني". لم يرسل معنا لا أبو علوان مرافقا لنا كما اعتدنا ولا يحزنون: "خَطِّشْ أبو علوان؟ ما إنت سبيع عجال، ليش أنت ولد ببا" (ما الحاجة الى أبي علوان، لقد أصبحت رجلا، هل أنت طفل رضيع؟) "كنت مع أخي ريمون الطالبين اليهوديين الوحيدين. كشفت معاملة الطلاب لي عن ازدراء الزملاء المسلمين والمسيحيين لليهود والسخرية من جنهم الذي كان يضرب به المثل. جاء أحد التلاميذ يسألني السؤال المعتاد في العراق: "أنت مسلم لُو يهودي؟" قلت "يهودي!"، فإذا به يصرخ مستهزئا ويفرك كفيه: "ترى هذا يهودي، يهودي، تعالوا شوفوا!" فأقبل باقي الطلاب صارخين بجذل: "أيهودي! أيهودي! وينا اليهودي؟" وإذا بأحدهم يركع على ركلة واحدة وكأنه يصبو بندقية ويصيح بصوت مرتعد: "أبدالك حسقيل، طقت لُو ما طقت" (أفديك يا حسقيل (اسم يطلق على كل يهودي)، اخبرني هل انطلقت البندقية أم لا)، كأنه من خوفه لا يستطيع التمييز بين انطلاق وعدم انطلاق الرصاصة فيطلب من صديقه حسقيل أن يخبره بذلك. وقد علمت فيما بعد أن هذه التمثيلية الهزلية الشعبية كانت تقام للسخرية من اليهود الذين جندوا في الجيش العراقي ويهزؤون من رعبهم وخوفهم أثناء التدريب على إطلاق البنادق. وقد روى لنا عمي موشي مثير رحمين معلم الصيدلي بأنه عند تخرجه من كلية الصيدلة في بغداد ودعي مع خريجي الكليات العراقية والجامعات الأوربية

للتدريب (وكان بينهم السيد نعيم دنكور من كبار رجال الأعمال في لندن اليوم)، في دورة ضباط الاحتياط سنة ١٩٣٨، وجاء دوره في التمرين على إطلاق النار والتصويب نحو الهدف، تجمع حوله الخريجون وهم يقولون ضاحكين هازئين: "تعالوا نغلا (نقول) الموشي إذا طقت لو ما طقت" (تعالوا نخبر موشي إذا كانت البندقية قد انطلقت أم لا). دهشوا لإصابته الهدف بدقة ولم "يتوهول" (يضطرب) عند انطلاق الرصاصة، وقالوا له مهنيين: "يعني ما لازم نسألك أشغال قلبك حسقيل من طقت الطفاقة". (لا حاجة لأن نسألك يا يهودي ما جرى لقلبك عندما انطلقت البندقية)". قال أحد المعلقين العراقيين بعد حرب الأيام الستة، "والعجيب هو كيف جعلت إسرائيل من اليهود الشرقيين الذين كانوا مشهورين بجنهم، جنودا حاربوا ببسالة ضد الجيوش العربية؟". ولكن الدهر دولاب.

وبعد هذه المهزلة قام طلاب آخرون بعرض تمثيلي ساخر آخر. حملوا تلميذا صغيرا وصاروا يتغنون بلهجة شبيهة بلهجة يهود بغداد وهم يسرون به:

حسقيل إمدلع صليتونو ودونوا للصاغايو

وأمو تبكي وغايو والفينة ابغاسو تفتتر

طلع اسمو بالدفتتر

كان أحدهم يتصنع البكاء كأنه أم حسقيل الهلعة المولولة من تجنيد ولدها المدلع الذي تصلي على أذياله والذي يؤخذ إلى التجنيد في السراي (الصغايو)، والآخر يتظاهر بالبكاء كأنه أم حسقيل والثالث يدير الفينة (القبة التي يعتمرها المتدينون اليهود) على رأس حسقيل المسطول والمترنح من خوفه من التجنيد، والرابع يتظاهر

بأنه يكتب أسم حسقيل في دفتغ (سجل) التجنيد. ثم أدركت فيما بعد إنهم يمثلون تمثيلية هزلية ساخرة من أمهات شباب اليهود اللواتي كن يهلعن ويولون عند تجنيد أبنائهن وسوقهم إلى لجنة تسجيل المجندين الإجباريين وخوفهم ورعبهم من التجنيد. وبعد صخبهم وضحكهم من هاتين التمثيليتين الهزليتين الارتجاليتين وهم ينظرون إليّ بشماتة واستهزاء وقد أخذتني الدهشة والحيرة من حماستهم المتأججة هذه ومن تهليلهم كأنهم انتصروا في معركة، صاح أحدهم: "ولك إيهودي بس نطلع من المدرسة راح انعلمك النبي عربي!".

وبعد انتهاء الدراسة والتحرش المستمر بي وهم يشيرون بإصبعهم إلى رقبتهم بالذبح، ثم يشيرون بأصابع يدهم المجموعة، أن انتظر حتى ترى ما سنفعله بك! شعرت بالاستلاب والضياع والعزلة الغريبة "كالأيتام في مأدبة اللثام"، وخرجت معهم متوكلا على الله. أحاط بي هؤلاء التلاميذ وقالوا: تعال نتباح (نتصارع) وإلا نيسطك!" قلت لهم: "نزلوا لي واحد واحد لُو اثنين اثنين، مو كلكم سوى!" ضحكوا ساخرين من جوابي ومتعجبين من عدم هروبي وموافقتي على المنازلة. صاح عصام: "هذا اشايف نفسه؟" أصدر رئيسهم عبد الرحمن الجابي وهو أكبرهم سنا أمره لتلميذ مسيحي: "ولك خيرى انزله!". وبسرعة وضعت رجلي اليمنى مثل "عباس الديج" وراء قدميه وضربته "بكلابند" ودفعت خيرى إلى الساقية القريبة أمام منزل آل بابان قرب المدرسة. بهت خيرى وأصدقاؤه المشجعين وهم يرون بظلمهم خيرى مستلق على ظهره في الساقية وقد طار حذاءه من رجله. تناولت الحذاء، (وهو والوكالة >مركوب يتنعله العراقيون في البيت غالبا<، السلاح المحبب عن العراقيين نساء ورجالا في ضرب الخصوم، واستعملوه في ضرب تمثال صدام حسين بعد إسقاطه في ساحة الفردوس في بغداد عام ٢٠٠٣) وركبت صدره ورفعت "القندره" وصحت به "ها

تسلم لو لا؟"، قال خيرى بصوت متوسل: "لا بس! بس!" (كفى! كفى!). صاح أصدقاؤه معاتبين: "ولك خيرى، أثارى (نرى) أنت ماكو أبراسك خير!" توجهت إلى أصدقاؤه الآخرين والحداء بيدي: "يلله منو ينزل وراه"، فصاحوا بصوت واحد: "لا! لا! والله أنت صرت صديقنا، طلعت إلنا سبع مو (غير) مخنث مثل اليهود"، وهكذا أصبحت واحدا من "الربع" (الشلة) ووراء عبد الرحمن الجابى فى الرئاسة.

انقسمنا فيما بعد إلى فريقين، فريق من الطلاب المسلمين من أبناء الزوجات المسيحيات اللواتى تزوجن بعراقيين درسوا فى ألمانيا وسويسرا وانكلترا وغيرها من البلدان الأوروبية ومن أبناء التركيات، فانضمت إليهم لأنهم كانوا يشعرون مثلى بأنهم أقلية مستضعفة أمام الأغلبية من أبناء المسلمات العربيات. تزعمت مع إياد علي غالب أبناء الأقلية، وتزعم عبد الرحمن الجابى وأخوه طالب وفيصل ابن رشيد عالي الكيلانى الأغلبية من أبناء العربيات. أصبح الجو متوترا مشحونا بالخوف، الأخبار عن انتصارات هتلر "زعيم ألمانيا الذى لا يقهر"، وصوت يونس بحرى يلعلع وهو يذيع من "بارى" فى إيطاليا "حبي العرب"، ويتحدث بحماس عن انتصارات المحور فى جميع الجهات الحربية وزحفه فى شمال إفريقيا نحو العلمين واندحار الحلفاء. صارت جدران ساحة اللعب فى مدرسة السعدون لوحة لعرض الشعارات السائدة فى الشارع وبين أفراد الشعب المتحمسين لانتصارات المحور وهى محفورة فى طابوق الجدران والمنقوشة من قبل الطلاب بعلامات الصليب المعقوف وجملا تمجد الزعيم الألمانى "فليعش هتلر حامى العرب"، "أبيدوا المكروبات"، "انكلترا بالقنطرة" و"لا مسيو، لا مستر / الله بالسما وعلى الأرض هتلر!" وغيرها من الشعارات. وعلقت إدارة المدرسة آيات قرآنية "ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"، وأحاديث نبوية، مثل "إخشوشنوا فان الترف يزيل النعم". وكان

أبناء كبار ضباط الجيش يأتون بزيّات عسكرية مهندمة بالقماش والحزام العريض وصولجان القيادة وعلى أكتافهم الصغيرة رتبة رئيس أركان الجيش وغيرها. وصار شباب "الفتوة" و"كتائب الشباب" يتبخثرون بزيهم العسكري ويفتشون اليهود في الطرقات بحثا عن اللاسلكي والمرايا وغيرها من أدوات التجسس المزعوم، لإرسال الإشارات الضوئية للطائرات البريطانية.

وبعد مدة بشرتنا الست أم ساطع مساعدة مديرة المدرسة بأن وزارة المعارف أوصت بالسماح للطلبة غير المسلمين بحضور دروس القرآن الكريم مع إخوانهم المسلمين دون المشاركة الفعلية في حفظ القرآن. وجدت في هذه الخطوة شيئا من المساواة لأننا كنا نقضي دروس القرآن خارج الصف بملل وبشعور بأننا مختلفون عن الأغلبية المسلمة. أخذ صديقي عبد الرؤوف يطلب مني "تسميعة" آيات "جزو عم" التي كان عليه حفظها عن ظهر قلب. وكنت أصحح له أخطاء القراءة والحفظ فأحفظ الآيات معه. وكان إذا جاء دوره ينسى أحيانا بعض الكلمات فأهمس له بها. وفي ذات يوم لاحظت الست أم ساطع همساتي له فغضبت وقالت له: "أم مُدَاك! وسليمة التكرّك يا عبد الرؤوف! ولك أيهودي يعلمك القرآن؟" ضحك التلاميذ من ملاحظة مساعدة المديرة وشعر عبد الرؤوف بالحرج وصار يعتمد على نفسه في الحفظ دون الاتكال على مساعدتي.

كنت ذات يوم نلعب وحدثنا وفجأة قال عبد الرؤوف وكان أكبر مني سنا وحجما: "سامي! أنت اشاييف نفسك؟، أشو تعال نتباطح!". وافقت، تماسكنا وكان حذرا هذه المرة من "الكلابند" الذي صرع خيري بسهولة فاستعملت معه "المخيط" بدس إصبعين بين إضلاعه، فلما اعتدل لشعوره بالألم "ضربته بالكلابند" فسقط وصرعته. انتفض واقفا وهو ينظر حواليه فيما إذا كان أحد الطلبة قد شاهد الصراع، ثم قال لي

محدراً: "سامي لا تكول لحد إنت بطحتني، ترى عيب على المسلم يبطحه إيهودي".
احترمت طلبه ولم أفضحه سوى الآن بعد مرور ٦٦ سنة وباسم مستعار، أرجو أن
يفغر لي كشفى لهذه الفضيحة.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٥)

الصدام مع فيصل بن رشيد عالي الكيلاني

الخميس ٢٢ فبراير / شباط ٢٠٠٧

وفي شهر ابريل من عام ١٩٤١ ازدادت تحرشات فيصل ابن رشيد عالي الكيلاني بزملائي من أبناء الزوجات الأجنبية وخاصة التحرش بي شخصيا، فقد كنت الطالب اليهودي الوحيد إلى جانب الطالبة سمحة قزاز والذي يعارض زعامته، وأصبحتُ هدفا لكل الدعاية النازية. وعندما أَلَّف رشيد عالي الكيلاني والد فيصل وزيرا، تشجع ابنه وصار يعتدي على أبناء الأقليات المسلمة والمسيحية وخاصة على سامي اليهودي: "راح تشوف إشلون أنكسر راسكم!" ضجرت مع أياذ وخيري من اعتداءات فيصل وقلنا له: "أشو من صار أبوك وزير طلعت عينك" (منذ أن أصبح أبوك وزيرا أصبحت أكثر جسارة واعتدادا بنفسك). أنشاء الله تسقط الوزارة ويطلعوا الأبوك بالچلاق (بالرفسات)". غضب فيصل من قولنا وشتنا وأضمر لي هذه المسبة. وبعد شهرين من سقوط الوزارة الأولى، أي في ١٢ أبريل ١٩٤١ سمعت في نشرة الأخبار الصباحية التي كان والذي يستمع إليها يوميا قبل ذهابه إلى "الأوفيس" نبأ هالني: "سقطت الوزارة وعين فخامة السيد رشيد عالي الكيلاني رئيسا لوزراء الحكومة الجديدة". توقعت الشر من فيصل، فعندما كان والده وزيرا اشتد اعتداؤه علينا، فكيف بنا وقد أصبح ابن رئيس الوزراء "وبالك بالك، وهللّه هللّه (تعبير يعني: إفسح

الطريق لهذه الشخصية المهمة)، وبعد منو يقدر يحچي وبياه". قلت في سري: "الله استرنا من هل بلوه!"

توكلت على الله وذهبت إلى المدرسة. عرجت على بيت إيد علي غالب لنذهب سوية ونتدبر الأمر، "هذا اشراح ايخلصنا منه؟" كان الجو دافئا وركبنا المراجيح في ساحة اللعب ونحن بانتظار قدوم فيصل وربعه وما سيقول عن تسنّم والده لأرفع وظيفة في العراق بعد أن فرّ الوصي عبد الإله وحاشيته إلى الأردن وأرسل الملك الطفل فيصل الثاني ووالدته "في ضيافة إجبارية" إلى حامية مدينة أربيل تحت حراسة ضباط احتياط كان منهم المحامي أنور شاؤل. وفجأة وأنا أتنافس مع أياد في أيتنا "يتمرحح" إلى الأعلى أكثر، أقبل فيصل وييده "توثية" (عصا من شجر التوت)، ونزل الدرجات إلى ساحة اللعب ووراءه "ربعه" وهو ينادي بأعلى صوته: "وين سامي اليهودي! والله لأطلعك عينك بهل التوثية! شلون اتكول انشاء الله تسقط الوزارة ويطلعوا الأبوك بالجلاق، هسه سقطت الوزارة وصار أبوي رئيس الوزراء، يا لله انزل!" نزلت من المرجوحة ونزل إيد معي، هجم فيصل بالعصا وصار يضرب بها في الهواء يمينا ويسارا أمامي والعصا تصفر في كل مرة تمر بضعة سنتمترات من أمام عينيّ وتقرب رويدا رويدا ورفاقه يشجعونه بقولهم، " حيل أضربه، حيل طلّع له عينه" (اضربه، بقوة، ألقى له عينيه)، تراجعت إلى الوراء وفيصل يواصل تقدمه حتى حصرتني إلى الجدار المنقوش بالشعارات العدائية. أخذ أصدقاؤه يرددون مع كل صفير للعصا أمام عينيّ بحماس: "طلّع له عينه، طلع له عينه!" توقعت أن تكون الضربة التالية على عيني وتفقنوها. صحت بيأس: "فيصل بس عاد، بس عاد!"، واصل فيصل لعبته الخطرة وهو يزداد حماسة: والله أطلع لك عينك!" أغمضت عيني عندما مرت العصا من أمام عينيّ وشعرت بالهواء يضرب جبيني، وبيأس وأنا مستند إلى الجدار المزين

بالشعارات النازية والتحريض على اليهود، جمعت قوتي وأنا مغمض العينين وضربت بقبضة يدي وجه فيصل "بالعمياوي". ندت منه صرخة "آخ يابا!". فتحت عيني وأنا لا أصدق أنني أبصر، وشاهدت العصا طائرة في الهواء وفيصل يغطي وجهه بكفيه وهو يصيح: "آخ يابا، اليهودي طلع لي عيني!" وهو يعدو باتجاه غرفة المديرية مارثا وأصدقائه وراءه وهم يقولون له، "خابر أبوك، خابر أبوك وقل له على سامي اليهودي!" والتفت إليّ إياد وأبني فاضل الجمالي وقالوا "الله سلم، هم زين فضت ابهاي" (من الأفضل أنها انتهت بهذه النتيجة).

رن جرس "الاصطفاف لتحية العلم" قبل الموعد المحدد له، وقلت في سرّي "الله الستار!". صاحت المديرية وعلى وجهها إمارات الانزعاج ويدها لأول مرة مسطرة التأديب: "جميعا، اصطفاف!". وقف إياد وخيري وغيرهما وهمسا لي، "إحنا وياك!". صاحت الست مارثا بصوت متهدج من الغضب وفيصل واقف إلى جانبها وقد احمرت عينه اليسرى وبللت الدموع وجهه وهو يشير إلي مهددا. "سامي تعال هنا"، تقدمت إليها فقالت بغضب: "أفتح إيدك"، فتحتها، ضربتني ضربة على يديّ لم تؤلمني جسديا ولكنها ألمتني نفسيا. قلت لنفسي: "والله خوش! هو يتعدى وأناي آكلها، ضربني وبكى، سبقني واشتكى!"، وصاحت الست مارثا بصوت سمعه الجميع: "سامي إنت مطرود من المدرسة، ما تكدر (لا تقدر) ترجع بعد!" بدت على وجهه فيصل إمارات التشفي وابتسم لأول مرة بعد الضربة القاضية. صاح إياد وخيري محتجين: "سامي ما متعدى، فيصل راد أيطلعه عينه!" ردت الست مارثا بحزم "إخرسوا! سامي مطرود!"، شعرت بما شعر به آدم حين طرد من الجنة، كان شعورا غريبا من العين والظلم والاضطهاد لا يحتمل. سرّت نحو بوابة المدرسة أجر قدمي بيأس خانق وقد اظلمت الدنيا في عيني. أنقذني من ياسي صوت مارثا الهامس وأنا

أمر من أمامها، "تعال باجر (غدا) وجيب أبوك وياك!" أومض بصيص من الأمل، لعل الطرد ليس نهائيا، وهناك أمل. ضيقت الوقت هائما في طريقي إلى أن تحل ساعة الانصراف وأعود إلى البيت لكي لا أفضح نفسي بالعودة مبكراً، فقد كنا نحاسب على كل دقيقة نقضيها خارج البيت. تحاشيت النظر إلى أبي وأمي ولم أخبر أحدا بالطرد المشين. لم أستطع النوم، كيف سيتلقى الوالد خبر طردي من المدرسة وهو لا يدعنا نجلس دقيقة واحدة دون أن يأمرنا بالدراسة والمطالعة؟: "إِدرِسْ! لو عدد الدقائق الأقلِّك بها دُرِسْ تدرِسْ كان طلعتُ غاس (الأول)!". ماذا سيقول لو علم بأنني كنت مطرودا ولم انضم إلى صف الدراسة نهارا كاملا؟ استمع الوالد كعادته إلى نشرة الأخبار وتأزم الوضع في العراق مع بريطانيا ووعود هتلر وألمانيا بمساعدة الحكومة الصديقة الموالية وأنا حائر كيف أفتح الوالد بهذه الكارثة؟ ما أن صاح بالفرنسية كعادته قبل ذهابه إلى الأوفيس: "مومو، أورفار!" (بما معناه: الى اللقاء يا أم الأولاد)، أجهشت بالبكاء، فالتفت إليّ والدي غاضبا متسائلا: "إنشا الله سويت لك مكسورة! أشكو؟" قلت بصوت مخنوق:

- "مارثا المديرى تغيد (تريد)تشوفك!"

- ليش أسساغ (صار) أش جرى؟

- فيصل ابن رشيد عالي غاد يفقسا العيني!

- ليش؟ أسويت لو، هيكذ مننو بينو بلا متسويلو شين؟ (ماذا صنعت، هكذا

ضربك من نفسه دون ان تصنع له شيئا)

- ليش؟ كيف أنا يهودي!

- ليش معفتونو لهذا العزا مالم، مقلتلوكلم ساغو نازيين؟ (ألم أدرك هذا الأمر الخطير، ألم أخبركم بأنهم أصبحوا نازيين) .

تهيأت للسير إلى جانب أبي حذرا من أن تنوشني يده. نظر إليّ متفحصا قبل أن نخرج من البيت: "هايي ليش جيوبك إمنفخا، أشو تال." تقدمت نحوه خائفا متوقعا الشر، فدس يده في جيبي، وصار يشتم كلما أخرج منه شيئا: أخرج الدعبل والچعبا وخیط المصراع (الدوامة) ومصراع ونبله مصراع كسبتها من خيرى فى مباراة بیننا بالمصرايع إذ أفلحت بضرب مصراعه الذى سقط منهوك القوى بينما بقى مصراعى الناعوى يدوى ویدور بعناد فوق راحتى فضربت مصراعه، وبهذه الخطوة كان لى الحق فى تحطيم مصراعه المصروع دون حراك على الأرض وكسره وأخذ نبلته غنیمة باردة. وضع محتويات جيبي الأيمن على الطاولة، ثم بدأ بإفراغ الجيب الأيسر لبنطلونى القصير، وهو يحرق الإرم، ويواصل الشتم والتهدید. أخرج المصیادة والحصى وسلك الكهرياء للدفاع عن النفس: "ولك هاي الذخيرة منین جييا؟ مندال ما تدرس وتعلم خطف ايسغ ابغاسك خيغ انت قتحويلك مثل هايي المكسغات التضيغو الوقتك!" (بدلا من أن تدرس وتعلم لكي تنجح فى الحياة أخذت تجمع مثل هذه الترهات التى تضيع وقتك؟)، وصادر الجميع.

سرنا فى طريقنا الى المدرسة، نظر والدى الى قميصى وقال لى: "ولك ليش الدكمة ويقع (لماذا الزر ساقط)، ليش غكبتك (ركبة رجلك) وسخي، هسه قابل قتمشى على اغكبك (ركبتك)؟ وهايي كندرترك ليش مصبغتا؟ سيغى بيضا، حتى لو قتمشى على وجها".

شعرت بالانكسار، حتى والدى تركنى وحيدا. كنت أفكر بشيء واحد لأنقذ كرامتى! قلت بتوسل: "ابدالك پايا، كل شين قللى بس لا تقلى بوسا الإيدا الست

مارثا" (فداك يا أبي، قل لي كل شيء ولا تقل لي قَبْل يد الست مارثا). قال أبي بغضب: "متمشي بقا، مظل بس هذا العزا التِلْطِمْ عَلَيْنو!" (ألم يبق لك مشكلة أخرى تهتم بها؟)

دخلنا المدرسة وكان فيصل وأصدقائه قد علموا بمجيئي مع الوالد ووقفوا ينتظرونا قرب غرفة المديرية. والظاهر أن والده، رئيس الوزراء، فهم أن ما جرى بين ابنه وسامي اليهودي هو "لعب جهال" (أطفال صغار) ولم يتدخل في أمر معاقبتي، وكان باستطاعة كلمة منه تحطيم مستقبلي أو إرسال من يؤدبني بطريقة غاشمة أو يعتدي على عائلتي. وهذه مأثرة ما أزال أحفظها لرشيد عالي الكيلاني بالرغم من اتهامه بمسؤوليته عن حوادث "الفرهود"، فقد تعلمت منه العفو عند المقدرة. وإلى اليوم أترحم على آباءه وأجداده على ترفعه عن عقاب طفل في عمر ابنه. ألم يكن باستطاعته أن يجعل مصري ومصير عائلتي مثل مصير عائلة قشقوش اليهودية التي أيدت عن بكرة أبيها في بغداد دون ذنب اقترفته سوى إخلاصها وحبها للعراق وبقائها فيها بعد الهجرة الجماهيرية؟ أَلْف رحمة على آباءك وأجدادك يا كيلاني.

أغلقت مارثا المكتب ورائنا.

- خير إنشاء الله؟

- ترى هذا سامي زَيْفها (بالغ في أعماله)، ضرب ابن رئيس الوزراء وبعد شوي ويطلع له عينه.

- فيصل بدا، وهو هدده بتوثيته بتطبيع عينه، شتريدن يسوي!

- ليش ممخلي واحد ما سوى وياه مشكلة. هاي الأميرة حرق إيدها بالشمس بالعدسة ويا إياد علي غالب، سكتنا! هل مرة ويا ابن رشيد عالي، وبهل إيام ويا الأسلام يتضارب؟ والله ترى يكتلوه!

- سامي بعده ولد جاهل (طفل صغير)، شمفهه مسلم يهودي؟ أولاد ودلعبون! متعرفين المثل: "قاضي الأولاد خنق روحه".

- گلّه (قل له) يدير باله وبعد خلّي يتكفى الشر، راح اضربه شويه بالمسطرة گدام فيصل خاطر يسكت، ونرجعه للمدرسة.

لم أصدق أذني، والذي يدافع عني لأول مرة ومارثا تعفو! إذًا، لا بد أن رشيد عالي الكيلاني نفسه عفا عني وإلا كيف تسمح لنفسها بالعفو عن اليهودي الذي ضرب مسلم، وليس ككل المسلمين فهو ابن رئيس الوزراء؟! خرجنا صامتين ورأينا فيصل وأصدقاؤه ينتظرون معاقبتي علنا على أحرّ من الجمر. قالت الست مارثا أمرة: "افتح إيدك!"، ومرت على كفيّ بلطف بالمسطرة. قلت في نفسي: "هم زين فضت ابهاي" (الحمد لله أن انتهت بهذه الطريقة). ولكن للتربية وللصلحة بين الكبار والصغار لها أصولها، ولم يشأ والدي التخلي عنها: "زين دبوس إيد المديرية!". وقع علي هذا الاقتراح الأخير وقوع الصاعقة، ستهدر كرامتي أمام فيصل وأصدقائه. فكرت في مخرج من هذا المأزق، أمسكت يد المديرية البيضاء ووضعت إبهامي على ظهر كفها وقبلت أصبعي. كان الجو متوترا ولم يلاحظ أحدا ما قمت به. هتف فيصل وأصدقاؤه هتاف المنتصرين وقالوا: "باس إيد المديرية وبهدلناه!". قلت لإياد: "ليش آني غشيم وأبوس إيدها، تعال شوف شلون بست إيدها!" وضعت إبهامي على يد إياد وقبلت

إصبعي. صرخ إياك ولك هاي من وين جبتها الهل دالعة (الفذلكة). أمسك بيد خيرى وقيل الإبهام وهو يهمل ضاحكا: "هذا سامي سواها الحجاية مسخرة!" انتقلت عدوى الحماسة إلى أصدقاء فيصل وصار كل واحد منهم يقبل يد الآخر على الإبهام مهللين فرحين بهذه النكتة الغير متوقعة. وراحت على فيصل نشوة النصر في هذه المرة أيضا بعون الله وعون والده الشهم.

* * *

بدأت جراح الفهود تلتئم رويدا رويدا، أو هكذا خيّل لي. خرجنا صيف عام ١٩٤٧ نخبة من طلاب المدارس اليهودية في بغداد، من مدرسة فرنك عيني وشماس والمتوسطة الأهلية في مخيم للكشافة شمال العراق نتمتع لأول مرة بمشاهدة جمال جبال شمال العراق وينابيعها وبساتينها في مصيف صلاح الدين والسولاف وسرسنك وزاخو وساندور وغيرها من المدن الكردية الشمالية الرائعة الجمال بجبالها السامقة بحللتها الخضراء وجداولها الرقراقة وطيوها المغردة بين أشجارها التي تنوء بشمارها. وبعد أن نصبنا مخيمنا في سرسنك ناداني أستاذ الرياضيات نوري منشي (واليوم يوجد شارع يحمل اسمه في طيرة الكرمل غرب سفح الجبل الأشم وشارع آخر في بيتح تكفا) "مليس" حسب اسمها أيام الانتداب البريطاني) يحمل اسم الكاتب "سمير نقاش" وقال لي: "اذهب مع موريس شماس لرفع العلم على الصارية!". أخذت العلم العراقي وأنا مبتهج بهذا الشرف العظيم الذي حظيت به. أمسك موريس الجبل بيده لرفع العلم ووقفنّ وقفه استعداد مع تحية كشفية وأنشدت تحية العلم العراقية:

دُمْ عَلَى هَامِ الْعَلَى يَا عَلْمٌ خَافِقًا تَحْمِيكَ بِيضٌ خُدْمٌ

بدأ موريس يرفع العلم وظننت أنه يردد معي النشيد، أرهفت سمعي فإذا به يردد باللغة العبرية: "وَيَزَّاحُ وَيَمَّاح" (لِيُرَّحَ وَلِيُتَمَّحَ)، لم أصدق ما سمعته وصحت غاضبا وتقدمت لأصفع موريس: "يا حمار، يا مجنون! ماذا تقول؟ هذا علمنا يا خائن! أتهين العلم!" امتقع وجه موريس واغرورقت عيناه بالدموع وصرخ في وجهي: "أتقول هذا علمنا؟ لو كان علمنا لما اغتصبوا أمي وأختي وقتلوا والدي أمام عيني لأنه دافع عن عرضه. هل اغتصبوا أمك وأختك وقتلوا أباك أمام عينيك يا ابن البتاوين؟ تعال اضربني تعال! تعال! هل سمعت صراخ والدك وهو يذبح أمام عينيك وتوسلات أمك وأختك طلبًا للرحمة؟ هل رأيت الشيخ الذي قطع رجلي جارنا الطفل الرضيع بحجلبيهما الذهبيين وسار في شارع غازي كالمنتصر الفاتح وهو يجلدجل بجلاجل بحجلي الذهب مترنماً:

"اشحلو الفرهود لو أيعود يومية، يا يُمَّا ويا يابا!

قل لي هل رأيتهم؟ من هو الخائن يا سامي، نحن أم هم؟ ألم نخدمهم كالعبيد ونسكت على ما صنعوه بنا؟ هل تعرف معنى عار الاغتصاب واليتم، هل تعرف؟" صعقتني كلمات موريس وغامت الدنيا في عيني وتجللت سماء سرسنك بالغيوم السوداء وتساقطت قطرات دم عذراء من العلم الذي توقف عند منتصف الصارية. شعرت باليأس والوحدة والضياع وصحت بموريس شماش: "كفى بربك! كفى! تعال نعود إلى معسكر الكشافة".

لم أنم الليل بطوله وكان موريس يبكي ويئن ويقول: "اغتصبوا أمي وأختي وذبحوا أبي ويريد ابن البتاويين ضربي!" كنتُ قد سمعت في حينه عن مثل هذا الاغتصاب من بعض الأصدقاء وكتب عن مثل هذه الحادثة فيما بعد الأديب المحامي نزيل الدنمرك نور الدين وهب في قصته الواقعية التي تقشعر لها الأبدان "هتلر في الإبريق". بقيت حائرا متسائلا: لماذا حدث الفرهود؟ ومن هو المسئول عنه؟؟؟

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٦)

من هو المسئول عن الفرهود؟

الأثنين ٢٦ فبراير / شباط ٢٠٠٧

وبقى اللغز يطاردني ويقض مضجعي إلى اليوم، ألم يدافع عنا أبو علوان؟ وإذا كان رشيد عالي الكيلاني قد عفا عني فكيف نتهمه بالتحريض على اليهود واضطهادهم؟ وهل يمكن أن تسنح له فرصة أفضل من هذه للتكيل بنا؟ إذًا، من هو المسئول الحقيقي لحوادث فرهود عام ١٩٤١؟ هل هو رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وعقدهاء المربع الذهبي الذين ساندوه في إعلان الحرب على بريطانيا وضرب مصالحها في العراق، صلاح الدين الصباغ وكامل شبيب ومحمود سلمان وفهمي سعيد ثم يونس السبعراوي الذي انضم إلى هذه الوزارة؟ نعم! قبل هروبهم كانت هناك تحرشات واعتداءات على اليهود ولكن لم يقتل يهودي واحد في أيام حكمهم! هل هم اليهود حقًا الذين تحرشوا بجنود الجيش العراقي عندما ذهبوا بملابس "عيد الزيارة" الذي صادف يوم الأول من حزيران للترحيب بعودة الوصي وحاشيته وصاروا، كما يدعي البعض، يعيرون الجنود العائدين من الجبهة في الحبانية وسن الذبان، بقولهم: "اشلون انمرد المشمش!" أو "الزرذالي"، (حسبما ذكر عباس بغدادي في كتابه "ثلاثا ننسى، بغداد في العشرينات"، عمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ٣٥٧)، بالإضافة إلى "إطلاق أغاني أم كلثوم ("افرح يا قلبي") من ميكرفونات سينمات الرشيد والوطني والزوراء في شارع الرشيد وجميعها لليهود، بأعلى صوتها شماتة وتشفيا مما سبب الاضطرابات الدموية في بغداد في اليومين

التالين؟". أو حسبما جاء في بعض لجان التحقيق الأخرى (أنظر: سلمان درويش، كل شيء هادئ في العيادة، أورشليم - القدس، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٨١، ص ٥٧-٥٨) التي ألفت المسؤولية على عاتق "كل من مدير الشرطة العام، أو المتصرف ومدير شرطة لواء بغداد وبعض مرؤوسيه، والمفوضية الألمانية في بغداد وعلى رأسها الهر فريتز غروبه والدعاية التي كان يشها مع زوجته الحسنا، ومفتي القدس الحاج أمين الحسيني وحاشيته والمعلمين الفلسطينيين والسوريين وتحريضهم لطلاب المدارس، ومحطة الإذاعة الألمانية باللغة العربية من "باري" التي سممت الرأي العام ومحطة الإذاعة العراقية خلال شهري نيسان وأيار ١٩٤١ والفتوة وكتائب الشباب؟"

شددتُ الطلب على الأدباء والمثقفين الذين قدموا من العراق لتدوين مذكراتهم لئلا تضيع لتنتشرها "رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق". كنت أريد أن أعثر على الجواب الشافي. كنت أحاول العثور على برهان قاطع لجواب يريح ضميري، إلى أن عثرت على أول "شاهد من أهلها" وهو صديقي أنور شاول في ذكرياته "قصة حياتي في وادي الرافدين" (أورشليم - القدس، رابطة الجامعيين، ١٩٨٠، ص ١٣٣)، الذي كان طالبا في كلية الحقوق حيث درّسه الكيلاني موضوع "القانون الجزائري"، وقال أنور عنه "بأن الكيلاني كان يحث طلابه على التمسك بالقانون وسيادة القانون وحادار حذار أن لا نراعي حرمة القانون!". ولكنه كوطني عراقي كان يكره الانكليز وانجرف مع العقداء الأربعة في حركتهم الموالية للنازية ظنا منهم أن ألمانيا ستحررهم من الاستعمار البريطاني البغيض، و"عدو عدوي صديقي". ولعلمهم لم يعلموا أن هتلر كان قد وضع العرب في المرتبة السابعة للأجناس البشرية التي يجب أن يحكمها العرق الآري، ثم خذل حكومة الكيلاني ومستشارها مفتي القدس الحاج أمين

الحسيني بتقاعسه عن إرسال مظلة واقية على الجيش العراقي من طائراته كما وعد. ثم جاء الشاهد الثاني، صديقي القصصي المرحوم اسحق بار - موشيه في كتابه "يومان في حزيران" (القدس، رابطة الجامعيين، ٢٠٠٤، ص ١٠٦-١٠٨) وشهد بنزاهة الوزير يونس السبعائي في معاملته لليهود حتى في آخر يوم أو يومين قبل الفرهود وبعد فرار الكيلاني إلى تركيا، إذ أمر بدفع ثمن ٤٠٠ "صوبة" (مدفأة) اشتراها الجيش العراقي من والده بالرغم من عدم وجود وصل بيده سوى اسم ضابط برتبة ملازم بقسم التجهيزات العسكرية وبالرغم من علمهم بأنه يهودي، فقد سمع الضباط يقولون عنه: "إنه يهودي ولا يأكل طعامنا!"، ومع ذلك فقد ناداه يونس السبعائي وقال له: "هاك الوصل، ومع السلامة!". إذن، تاجر يهودي يدخل وزارة الدفاع، عرين الحكومة التي أُلقيت عليها تهمة مجزرة الفرهود والتي فرّ أعضاؤها ما عدا السبعائي، يعطيه هذا الأخير الوصل عن بضاعة اشتراها الجيش العراقي في مثل هذه الفترة الحرجة، ولم يسخروا منه ولم يهينوه بل أكرموه واحترموا محافظته على التقاليد اليهودية؟ هل كان يحدث مثل هذا في وزارة الدفاع في ألمانيا النازية أو أية دولة أوروبية متحضرة في أثناء الحرب العالمية الثانية؟ إذن، كيف نستطيع حل هذا اللغز؟ فهذه الشهادات تؤكد أن رئيس الوزراء، الكيلاني، وأحد وزرائه من كبار النازيين في العراق والذي ترجم كتاب "كفاحي" لهتلر ومن الذين اعدموا شنقا فيما بعد وهو يونس السبعائي، قد تصرفوا في تلك الظروف العصيبة بشهامة وإباء لا يملكهما سوى عراقي أبيّ النفس عزيزها. إذن، فالنازية التي تمسخ الأوربي إلى وحش كاسر ومن زبانية الجحيم، لا تنال من إنسانية العراقي الشهم الأبّي الذي يدافع عن كرامته أمام مستعمري وطنه! وخير دليل على ذلك هو أنه لم يقتل يهودي واحد أثناء حكمهم العراق إلى يوم ٣١ أيار، ١٩٤١.

بدأت مذبحه الفرهود في يوم ١ حزيران في باب الشيخ من قبل الأكراد الشيعة الفيلية بعد أن دس المفوض الألماني فريتز غروبه سمومه النازية وحرص ضد اليهود وبت دعايته العنصرية بين أفراد الشعب والجيش العراقي خلال عدة أشهر مما هيا الأجواء للإيقاع بهم. ثم جاء اندحار الجيش العراقي، الذي ضمّ بعض الأطباء والضباط اليهود، أمام القوات البريطانية ورفض "مختار محلة الكريّمات" السفير البريطاني السر كنهام كورنواليس السماح للجيش البريطاني المحتل بدخول بغداد وإن كانت تقع على عاتقه مسؤولية الحفاظ على الأمن فيها. (أنظر، سلمان درويش، كل شيء هادئ، ص ٦٠-٦٢). إذا فالألمان النازيون والانكليز الذين خدمهم اليهود حتى أصبح الشعب العراقي يرى فيهم متعاونين مع الأجنبي المحتل البغيض، هم المسؤولون عن مذبحه الفرهود. هؤلاء الإنكليز خانوا العرب ومن ثمّ خانوا اليهود في العراق ورموهم فريسة لكل من اشترى حطام الدنيا بالآخرة فقتل اليهود ونهب أموالهم "احتساباً" في الفرهود. أما الأتقياء منهم فقد راعوا الذمة وحموا الذمار، بل ضحوا بحياتهم لحماية جيرانهم اليهود. فالذين شاركوا في مذبحه الفرهود بالقتل والنهب كانوا من صغار ضباط الجيش والشرطة والرعا والمجرمين الذين باعوا آخرتهم بدياهم، هؤلاء هم المجرمون الذين شاركوا النازيين والانكليز في نكبة العراق حين ثار اليهود لشرفهم ولكرامتهم التي أهدرت. فما أن قامت دولة إسرائيل وتفاقت موجة الاضطهاد والطرّد من الوظائف "ضاق المقام بهم" ولم يعد بهم طاقة على "الصبر الجميل" ورحلوا عن العراق. بقي منهم حوالي عشرة آلاف من أمثال أنور شاول ومير بصري وغيرهم ممن لو عرضت عليهم كنوز الدنيا، لما باعوا ذرة من تراب العراق، وإذا الطغيان والظلم يشرد البقية الباقية التي عاشت في العراق زهاء ألفين وخمسمائة عام وفي نفوسهم حسرة على ما حل وما يحل بالعراق.

يهود العراق، ذكريات وشجون

الحلقتين (٧) و (٨)

بعد الهجرة إلى إسرائيل

الخميس ١ مارس / آذار ٢٠٠٧

وضرب القدر ضربته ورحلنا إلى إسرائيل، وانهمكنا في الدراسة والعمل لنداوي بها جراحات الماضي وأحوال الحاضر بانتقالنا من عزّ العراق، مهما كان ثمنه، إلى ذلّ الحاضر في خيام معسكرات اللاجئين الجدد من جميع أرجاء العالم والوقوف في طوابير الماء وبيت الخلاء والخبز وشراء اللحم والبيض والزبد بالكابونات والعمل كعمال بسطاء رغم ثقافتنا في البناء لنقل أكياس الإسمنت والحصى والرمل على ظهورنا كما كان يفعل "العمالة" الذين كانوا يعملون عند والدي في البيوت التي كان يبنها! بكيّث عندما جاء أخي ريمون يبشرني: "والله عندك حظ! أول يوم وشفتُ (وعثرت على) شِغِل بالعمالة (البناء)!" قلت له: "ما هذا الفرح بعمل حقير حصلت عليه بعد عزّ العراق"، وما تعرف خيري لما تجرب غيري، صرنا نشغل بالبناء مثل الفقراء؟" ويل العراق ماذا فعل بأبنائه المخلصين! قالت خالتي كرجية وهي امرأة متدينة تؤمن بالكتاب المقدس: "هذا قدر مكتوب علينا، لا يُشترى خلاص بني إسرائيل إلا بالعذاب، ألم ترون كيف تحققت النبوءة وعُدنا على أجنحة النسور؟". وقال لنا المقاول "الشكنازي"، بعد أن لاحظ إخلاصنا في العمل: "لا تذهبوا إلى الجامعة واعملوا معي فتصبحون من المقاولين الأغنياء فيما بعد!". ولما فرّ الوالد إلى إسرائيل عن طريق تركيا عام ١٩٦٢، بعد أن أصبح "تاجرًا للأراضي" في العراق وترك وراءه في بغداد الجديدة ٣٧ ألف متر مربع من الأراضي المصروح لها بالبناء،

قال لنا وهو يتكلم بلسان التجار العراقيين الذين يقدرون قيمة المرء بماله بعد أن رأى أننا التحقنا جميعا بالجامعة العبرية: "لقد صدق المقال الإشكنازي، فماداً ستجنون من الدراسة الجامعية غير الراتب المحدود في وظيفة حقيرة؟"

كان ريمون قد قدم قبلي بشهر إلى إسرائيل وبالرغم من حصوله على شهادة البكلوريا العراقية وهو ابن ستة عشر عاماً، فما زال ريمون لا يستطع القدوم وحده لأنه "قاصر" حسب قوانين التسقيط. أما أنا فقد قدمت وحيداً لأنني بلغت السن الثامنة عشر. ولكي تتحايل الحركة الصهيونية في العراق، التي أشرفت على الهجرة، على إرسال أكبر عدد ممكن من النازحين وبأسرع وقت، فقد ألحق أخي ريمون وبعده أخي مراد، بعائلتين يهوديتين أخريين بدعوى أنهما أبناء هاتين الأسرتين وألحق بتصريح "الخروج بلا عودة" تصويران شمسيان يضم عشرة أطفال لكل عائلة. وعندما سبّ مفتش الهجرة ولداً آخر ألحق بالعائلة التي هاجر معها أخي مراد لاكتشافه بأنه كان لابسا أربعة قمصان وثلاثة بنطلونات وخمس فانيالات لكي يخفف من محتويات الحقبية، قال له المفتش: "ولك ابن الجريدي، إشكد لابس؟"، بقي الولد "بالصفنات" (حائراً مرتبكاً)، فلما سأله أخي مراد ماذا جرى له؟ أجاب: "قل لي بريك، إلى أين تذهب اللعنة والإهانة التي صبها المفتش عليّ، هل هي على والدي، أي أبي الحقيقي أو الأب الذي ألحقني به "التنوعا" (الحركة الصهيونية السرية في العراق)؟؟! لم يبق لهذا "الخايب" مشكلة أخرى غير معرفة من ستصيب اللعنات والإهانات التي صبها مفتشو الجمارك في العراق على الراحلين المظلومين، ولم يدر ما يخبئوه له الغد؟

قال لي ريمون فرحاً لحصولي على عمل في البناء "يكسر الظهر": "ليش مني قيطيح بيدو يشوف شغل؟ بس البغقبته كوم اولاد يعطونو هوني شغل!" (من يتمكن هنا من الحصول على عمل؟ إنهم يمنحون العمل للذي له عدد كبير من الأطفال فقط).

عجبت لهذا المنطق الغريب ولواقعية أخي الأصغر مني وفهمه للأوضاع بمثل هذه السرعة في هذه البلاد "الغريبة الوجه واليد واللسان"، كما قال أبو الطيب المتنبي.

هكذا انتهت فترة حياتنا في العراق وقد لاقينا فيها الأمرين من طرد الموظفين اليهود وتجميد الأموال وتسقيط الجنسية العراقية وبيع الأملاك بأبخس الأثمان والملاحقات والتحقير والبهذلة التي بهدلونا بها أثناء تفتيش محتويات حقائب السفر الحديدية في مطار بغداد بملابسنا القليلة التي سمح لنا بأخذها، ثم مراسيم تمزيق الوثائق والشهادات التي أخذناها معنا بالرغم من ختم وزارة الداخلية بأن "لا مانع من الإخراج"، وتهشيم الصابون على الملابس وفحص الأحذية للتأكد من عدم وجود ذهب مخبأ فيها. والأُنكى من ذلك أننا وصلنا إلى إسرائيل في أحرج الأوقات بعد حرب دامية والدولة على وشك الإفلاس وقد استقبلت فجأة هذه الجموع الهائلة من القادمين الجدد. كان عليها انتهاز فرصة السماح لنا بالخروج أو التريث ومن يستطيع ضمان الخروج إلى إسرائيل فيما بعد. ولكن الشيء الذي أغضبنا هو هذه البرودة التي صدمنا به الموظفون في إسرائيل والذين لم يجيبوا على ترحيبنا: "شالوم حبير"، بل رشوا علينا الـ "دي دي تي"، نحن الذين تعودنا على الترحاب بالضيف، لكي لا نقل "مكروبات العراق" إلى أرض الميعاد، ثم شحنونا بلوريات البهائم إلى معسكر الحجر الصحي في "شاعر هعليا" (بوابة الهجرة) ووقوفنا في طوابير التطعيم الصحي وطوابير الطعام للحصول على نصف بيضة مسلوقة وخمس حبات زيتون وبرتقالة وقطعة من الفسيخ (السمك المالح) كادت تقلب معدتنا برائحتها الكريهة، بعد أن تعودت على السمك "المسكوف" المتبّل بـ"الكاري"، وشريحة من الخبز الأسود تمهيدا لتوزيعنا على معسكرات الخيام الأخرى لنبداً حياتنا الجديدة جائعين في الأرض "التي تدر لبنا وعسلا" وتركونا "كلمن وحظه ونصيبه" وكلّ ومقدرته على

الصمود أمام هذه العالم الجديد الغريب التي انقلبت فيه الأمور والعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية واللغة رأساً على عقب. فقد أصبحت تقاليدنا تعد من القيم المتخلفة " ومن أيام العسلي " (العثماني)، وصار الأبناء من بنين وبنات، ويا للعار، يعملون ويعيلون الآباء الذين انزروا في أركان خيامهم المظلمة خشية نور الشمس التي ستظهر لهم انهيار عالمهم وضياح أموالهم المجمدة التي جمعوها بعرق جبينهم وجبين آبائهم وأجدادهم، ويتخرجون من طلب نقود من أبنائهم لشراء السجائر ليحرقوا بها غيظهم وكمدهم. مات من لم يستطع احتمال الصدمة، أما الباقون فقد ترحموا على أيام زمان وصاروا يشتمون نوري السعيد وبن غريون والطائرة التي أتت بهم في أعانهم التي نظموها:

أويلك بن غريون هججتْ كُلَّ الكون

وساعة السودا على الطيارة ال جابتنا!

أما من بقي في العراق، فقد ذاق الأمرين وتوالى الحكومات المتعسفة تزج العراق في حروب داخلية وخارجية طاحنة مدمرة لا طائل تحتها أهلكت الحرث والنسل وفرقت بين أبناء العراق وشتتهم تحت كل كوكب، ثم أصبح الأخ يقتل أخاه العراقي في وادي الرافدين الذي أصبح من الأولى أن نسميه بـ"وادي المصائب والاختيالات والسيارات المفخخة"، وبدّدوا ثروات العراق وأحرقوا بتروله وقتلوا شعبه وبذروا الأموال الطائلة لبناء قصورهم، حتى حانَ الحَيْنُ وأصبح العراق بركة دماء يسقط فيها كل يوم عشرات القتلى ضحية الحقد الأسود في العراق، فعند ذاك فقط حمدنا الله على عدم البقاء في العراق في مثل هذه الظروف العصيبة التي مر بها الشعب العراقي المسكين تحت حكام متعاقبين ونحزن لما يحل بالعراق من ويلات.

وبعد فللحديث بقية آمل في أن أتمها في فرصة أخرى وإن كنت أخشى أن أنسى تجاربي الذاتية قبل الهجرة وبعدها. فلِكُلِّ كاتب تجربته في الحياة تختلف بحسب مكان سكنه وأريحية جيرانه ومكانته الاجتماعية والمالية والحكام الذين ساسوا العراق آنذاك. آمل أن يستطيع شهود العيان مثلي تدوين تجاربهم وخاصة أولئك الذين لم تدوخهم هذه الأيام العصيبة فبقيت ذاكرتهم صافية لم يمحها النسيان ومشاعل الحياة ولم تنكبهم بفقدان الذاكرة بسبب الهرم وأمراض الشيخوخة لكي يستطيعوا تدوين ذكرياتهم على صفحات التاريخ المحايد لتحفظ في ذاكرة الزمن.

والآن وبعد أن استرد يهود العراق عافيتهم خارج العراق هل تُرى سنجد من سيروي تاريخهم بأمانة؟ لقد أخذ بعض الأدعياء من الباحثين الذين لم تُصلِّهم نار تلك الأحداث، يكتبون تاريخ العراق ويهوده ويزورونه حسب النظريات السياسية والاجتماعية التي يؤمنون بها. فإذا لم نروها نحن شهود العيان وندونها بأمانة فستضيع الحقيقة. فعلى عاتقنا ملقى واجب تدوين ما رأيناه وما قاسيناه، نحن الذين شاهدنا وعاصرنا واكتوينا بنار أخرج فترة في تاريخ البشرية وتاريخ الشعب اليهودي بعد الكارثة الكبرى (المحرقة) التي أخذ يجحدها من يدعي امتلاكه لمفاتيح الجنة والنار ومعرفة الحق والباطل فيقرر من ستكتب له الحياة ومن يجب "إبادته" لأنه على غير دينه وجنسه، محاولا تدمير هذه الحضارة الحديثة الرائعة التي شارك فيها اليونان والعرب وغيرهما من الشعوب، لأنها ليست "على كيفة"، فحرفوا الأديان ورسالتها على هواهم وحسب فتواهم، ولم يعتبروا بالطغاة من أمثال فرعون وهامان وقيصر روسيا وهتلر! فيا رب سترك من هذا الزمن الكافر وأرأف بالإنسان الذي طردته من جنتك وظنَّ أن العلوم الحديثة والتكنولوجيا وحدهما ستبني جنته على هذه الأرض

بدل القيم الدينية والإنسانية السامية من التعاون والإخاء والتكافل والمحبة والسماحة
والمساهمة في العلوم التي تخفف من آلام الإنسانية، فخاب الظن ويا للأسف!

ميسيرت يروشلايم، ٧ يناير، ٢٠٠٧

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة (٩)

الوالد إبراهيم مير معلم. العراق يفترس أبناءه

السبت ٧ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

"ويح العراق أكان عدلاً فيه انك تدفعينَ

سُهادَ مُقلتكِ الضَّريرة

لملء يدك زيتاً من منابعه الغزيرة؟

كي يُثمر المصباح بالتور الذي لا تُبصرين؟"

(بدر شاكر السياب، "المومس العمياء")

منذ أن أنهيت نشر مذكراتي الأولى، كنت أعاهد نفسي على ألا أعود إلى الكتابة عن ذكريات العراق وشجونها، فأنكث، ثم أحلف أن أتفرغ مرة أخرى لأبحاثي التي أهملتها، فأحنت، وهكذا صار دأبي مع "إيلاف" الغراء وقرائها، فقد استهواني مستواها الرفيع وحرية التعبير فيها وقراؤها المتعطشين إلى أخبار العراق أيام زمان وتعليقاتهم الحصيفة الذكية. لعنت الوسواس الخناس، واستعدت بالله، وها أنا أعود إلى الكتابة على صفحات "إيلاف" الالكترونية، إكراما لعيون متصفحها، لأطلع صفحاتها السحرية، وأشنف سمعي "بخرخشة" صفحاتها المدغدغة عند تقليبيها، بسحر هو السحر الحلال، وإن كان المتمتمون في إسرائيل وغيرها يعدون التلفزيون

والحاسوب من عمل الشيطان، الذي يوسوس في صدور الأطفال ويفسدهم، وقلت للنفس إن "العود أحمد!". والسبب في هذه العودة المفاجئة هو ما حدث في العشرين من آذار، ٢٠٠٧، عندما لبّيت شاكرا دعوة إدارة المركز الطبي "شعري صيدق" (بوابة الأتقياء) في أورشليم - القدس، لتكريم زوجتي وتكريمي باطلاق اسمينا على أحد الأقسام الطبية. وهذا المستشفى هو مؤسسة طبية حديثة، كبيرة شهيرة، يأتي بعد مستشفى هداسا من حيث السعة والسمعة والفخامة ولكنها تضاهيها من حيث المستوى العلمي والطبي. شاركت في الحفل المتواضع لإطلاق اسم زوجتي واسمي على "قسم مكافحة السرطان باكتشافه مسبقا" في قسم معالجة السرطان الذي يرأسه صديقي الدكتور موشيه كارمون تكريما لدعما المعنوي والمادي المتواصل لهذا القسم من المستشفى. وفي الحفل الذي حضره نخبة من الأصدقاء وعلى رأسهم صديقي معالي سفير فنلندا السيد كاري فيالينين وعقيلته السيدة آنه - لي فيالينين، وصديقي الدكتور إلكا فاكوري المدير العام "لجمعية أصدقاء إسرائيل" في فنلندا والذي ساعد في جمع التبرعات لهذا القسم، افتتح عريف الحفل السيد أوري شفارتس كلمته قائلا: هذه ليست المرة الأولى التي تدعم فيها عائلة معلم - موريه هذا المستشفى، فقد تبرع السيد أبراهام مئير معلم (موريه) بمبلغ محترم لتشييد قسم "طب العيون" وذلك بعد مدة من قدومه من العراق عن طريق تركيا. أثارت هذه الكلمة الافتتاحية شجوني وذكرايتي مرة أخرى ولعنت الصدفة التي أغرقتني مرة أخرى في دوامة ذكريات العراق، وصرخت من أعماقي "رباه! عدنا إليها وسيتهمني قراء "إيلاف" بأني مصّر على إشعال نار الحنين في قلوب القراء العراقيين إلى عراق أيام زمان"، ولكن "أين يمضي هارب من دمه"، كما قال الشاعر الكبير د. إبراهيم ناجي. وفي مثل هذه الاحتفالات أكون أنا من بين القلائل من اليهود الشرقيين الذين يشاركون في دعم المشاريع العلمية والصحية في البلاد، فهم يفضلون تشييد الكنس

اليهودية والتبرع لها على تشييد المدارس والمستشفيات والمكتبات العامة ومعظم التبرعين لبناء الكنس هم يهود من أصل عراقي أو أصل حليبي.

ذكرت للحفل ولإدارة المستشفى، بأن والدي رحمه الله، أخبرني عدة مرات وبعد أن تبرع لبناء قسم العيون، انه كان عازما على بناء مستشفى كبير في بغداد التي أحبها لرعاية فقراء العراق. ولكني لم أرو لهم قصة هذا الأمانة، فبعد رحيلنا إلى إسرائيل حاول الوالد تحقيق حلمه، فناجر بالأراضي بمنحة التقاعد التي حصل عليها من شركة أندرو واير لاستيراد المكائن الزراعية وتصدير التمور حيث عمل معه صديقنا تشارلس حوريش الذي شفق فيما بعد بتهمة الصهيونية. وذكر الوالد من بين زبائنه أسماء عراقية سياسية واجتماعية لامعة، ثم اشترى قطعة أرض في بغداد الجديدة في المنطقة التي لم استطع قراءة اسمها في الوثيقة التي دون فيها أرقام القطع هل هي "إبزارية الأخطلية؟؟" أو ما شابه ذلك، تبلغ مساحتها حسب هذه الوثيقة عشرات الآلاف من الأمتار المربعة بأمل بناء مستشفى عليها لفقراء العراق، والتي قال لي بعض العراقيين الهاربين إلى انكلترا والعارفين بقيمة الأراضي المسموح بالبناء عليها، بأنها تساوي الملايين من الدولارات. صدق من قال بأن أرض بغداد الجديد "عتبتها مو زينة، مو مثل عتبة بغداد القديمة اللي كانت عتبتها خير". إذ صادرت الحكومة العراقية هذه الأراضي لأنه لم يعد إلى العراق كما أمرته سفارة الجمهورية العراقية في طهران. وضاع عليه تعب العمر وضاع على الفلاحين العراقيين مستشفى لمعالجتهم كان والدي يحلم بإقامته لهم.

وفي القدس أردت تحقيق حلم الوالد، فالمستشفيات هنا مفتوحة لليهود والعرب وفي بعضها مثل هداسا على جبل المشارف (منت سكويس) القرية من شعفاط والملاصقة للعيسوية يفوق عدد العرب الذين يتلقون العلاج فيها على اليهود. تبرعت لمساعدة

أقدم مستشفى في القدس وهي مستشفى الولادة "مسجاب لداخ" (حصن المريض) من تأسيس اليهود الشرقيين (السفاراديم) من أيام العثمانيين (١٨٥٤) التي أنشئت لمنافسة المبشرين الأوروبيين، توجهت إلى أصدقاء والد زوجتي وأقنعنا رئيس "جمعية أصدقاء إسرائيل" التي تأسست في فنلندا عام ١٩٠٨ فجمعوا التبرعات، وشيدت بناية حديثة، ولكن ويا للأسف، استولى على إدارتها بعض اليهود من أصل إيراني وأفغاني، ورشحوني لمنصب رئيس مجلس الإدارة بمسئولية التوقيع على الشيكات والمقاولات. فما أن سمعت بأنني سأكون مسئولاً عن الحسابات، تذكرت ما قالته لي الست فاطمة مدرسة الحساب والطبيعة في مدرسة السعدون النموذجية "ولك أشلون يهودي انت وما تعرف حساب؟" رفضت قبول المنصب، وقلت لهم، "أني والحساب كوجه مرحبة؟ لا يا با أعفوني من هذا الشرف!" وقبعت بمنصب "رئيس المستشفى الفخري". رفضت الحكومة تقديم الدعم المالي للمستشفى بدعوى أن هناك أسرة كافية لقسم الولادة في المستشفيات الأخرى، وطلبت جعلها مستشفى للعجزة والشيوخ، فرفضنا، ثم جاء أمر بإضافة منخصصات لتقاعد الموظفين أبهظت ميزانية المستشفى، بدأ التعيين بالمحسوبيات وكثر الملاحون وغرقت السفينة.

لم تكن فكرة تشييد مستشفى لفقراء العراق التي أجهضت بمصادرة أراضي الوالد هي الحسرة الوحيدة التي خلقها والدي في العراق، وبقي إلى يوم وفاته في المستشفى يأسف لأنه لم يستطع، بسبب سرعة هدم المقبرة اليهودية القديمة، نقل رفات والده الحاخام مئير معلم رحمين إلى المقبرة اليهودية الجديدة التي شيدها الزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم، وذلك لكي يستطيع الأخير بناء برج تقليدا لبرج الرئيس جمال عبد الناصر في القاهرة. وقد خلد الأديب سمير نقاش هذا الهدم في قصته الرائعة

"رسالة الدكتور خداداد(د) إلى أهالي بغداد" في مجموعة قصصه "نبوءات رجل مجنون في مدينة ملعونة". أمر عبد الكريم قاسم بهدم المقبرة اليهودية رغم الصلة الوثيقة والاحترام الذي كان يكنه للطائفة الموسوية في العراق. فقد كان عبد الكريم هذا في عزّ شبابه ملازماً أول في فوج معسكر الرشيد تحت قيادة أمر الفوج سالم عزيز (أبو غازي) اليهودي الذي كان يعرف باسم سالم الضابط، وهو الذي سار في مقدمة الجيش العراقي عام ١٩٤٦ ممتطياً صهوة جواد أصيل في اليوبيل الفضي لتأسيس الجيش العراقي متصدراً الطابور العسكري الذي شقّ شارع الرشيد أمام حامل الصولجان والفرقة الموسيقية العسكرية لأنه كان أقدم ضابط في الجيش العراقي ومن الضباط الذين درسوا في اسطنبول ورافقوا الأمير فيصل بعد خروجه المرير من سوريا لكي يجلس على عرش العراق. التحق سالم الضابط بالأمير فيصل الهاشمي عن طريق العقبة إلى البصرة وولدت له على متن السفينة ابنته البكر من زوجته السورية، فأسمها "بحرية". وكان عبد الكريم قاسم وفيما لآمر فوجه اليهودي فسمح له بزيارته عام ١٩٦١ واستقبله في مكتبه بعد أن أصبح أول رئيس للجمهورية العراقية، وبعد المصافحة الودية وتبادل القبل و"اشلونكم يابا، ومبروك وبالتوفيق والنجاح، واشلون الصحة والعائلة، وشنو أخباركم!"، التمس منه أمره القديم السماح له ومساعدته في الحصول على جواز سفر إلى سوريا حيث يقيم أقرباء زوجته السورية، فأجابه الزعيم الأوحده ضاحكا: "ليش آني ما أعرف أنت رايح تشرده وتلحق بأهلك ابفلسطين (إسرائيل)!"، لكن ما يخالف، روح عمّي خذلك جواز سفر وروح مع السلامة!" وحصل في نفس الأسبوع على جواز السفر العراقي الثمين الذي كان أمنية كل عراقي مظلوم.

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة (١٠)

الوالد إبراهيم مير معلم. العراق يفترس أبناءه

الثلاثاء ١٠ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

ومثل باقي اليهود الذين تعلقوا بالعراق ولم يفرطوا فيه، أبي والدي "تسقيط" جنسيته العراقية عام ١٩٥١ وفضل البقاء في بغداد، كان يقول لنا "يجب العمل بوصية التوراة والإخلاص للبلد الذي يأوينا. لقد تمتعنا بخيرات العراق وعلينا احترام قوانينها. ولما سألتناه إذا سيسقط عنه الجنسية العراق لأن الوالدة لا ترى لأبنائها مستقبلا زاهرا في العراق، قال لنا: "أنا عشت إلفين وخمسمية سنة بالعراق وأجبي اتركها ابخمس دقائق، أنا أش أغوح أسوي ويا هذولي الصهانية بأيرص يسرائيل ابهل عمغ؟ خو مبعدي شاب اللطيف مثلكم!" (عشت في العراق ٢٥٠٠ سنة وأتركها بخمس دقائق! ماذا سأفعل في إسرائيل مع هؤلاء الصهانية في مثل سني، فأنا لم اعد شابا مثلكم). غضبت الوالدة، "أتركنا لأجل عراقك الفرهودي؟ سأذهب مع الأولاد للاعتناء بهم وبزواج كلادس، سنى كيف ستستطيع بيع أملاكك هنا، بس خلى الله يسلمك!". ذهبْتُ مع أختي كلادس للتسقيط في كنيس منير طويق وهي تعتب على الوالد الذي يفضل العراق على أولاده ومستقبلهم. وبعد يومين (١٠-٤-١٩٥٠) أعلنت الحكومة العراقية عن تجميد أموال اليهود المنقولة وغير المنقولة من الذين أسقطوا الجنسية العراقية. وقع النبا وقوع الصاعقة على الوالدة، ففي لحظة واحدة ضاع تعب العمر ومدخراتها في بنك الرافدين، كانت تمنى النفس أنها ستتستعيد مدخرات العمر من البنك لشراء بيت في الديار المقدسة ومساعدة كلادس في مهر

زواجها، ولكن الفرهود الحكومي كان اسبق وضاعت الأحلام والمال والزوج المصر على بقائه وبقي شعور الضياع والخوف من المستقبل في دولة جديدة لا تدري كيف ستدبر حالها فيها مع ابنة في سن العشرين مرشحة للزواج. ومع أحلام الوالدة راحت ودائع كل اليهود "المسقطين" الذين لم "يقرءوا الممحي" ولم يسحبوا ودائعهم من البنوك ويبيعوا أملاكهم بسرعة ولم يعرضوا أثاثهم في المزاد العلني الذي أقيم على عجل في إحدى المقاهي في باب الشرقي، واتهمت الوالد بأنه كان يعلم بأمر التجميد ولم يخبرها. وبين ليلة وضحاها أصبح فقراء بغداد من المسلمين من ذوي المبادرة والجرأة تجارا في شراء الذهب والفضة والأثاث والمفروشات من العائلات التي سقطت الجنسية العراقية وشملها أمر تجميد الأموال. وفي صباح اليوم التالي، طرق الباب "أبو جراوي" وسأل "خاله، سقطتوا لو ما سقطتوا"، أجابت الوالدة "سقطنا، أشنسوي بقى!"، قال أبو الجراوي الشاب وهو يبتسم ابتسامة ثعلب اقتحم قن دجاج "اسمين ودهين"، ونظر إلى الأثاث والمفروشات والثريا الفضية المعلقة من السقف وقد سال لعابه، "خالة اتبيعون؟ آني أردَ أشتري كل شي"، واخرج محفظته المنتفخة بالدنانير ليؤكد رغبته الصادقة في الشراء. قالت أمي وهي تجهش بالبكاء وتتحامل على نفسها: "أبو البيت ما سَقَطَ، آني أقدر أبيع بس الفضة مال جهازي!" قالت وهي تمسح دموعها المنهمرة وقلبي يتقطع لهذا الموقف الحزين، كل شبابها وحياتها مع الوالد وذكريات الخطوبة والزواج وولادة الأطفال تتمثل في هذه الثريا، دخل أبو الجراوي وعلى وجهه علامات التشفي وبكل صفاقة أخذ كرسيه وقطع السلك وأنزل الثريا الفضية مع سلسلتها وهو يقول "وهذا الشمعدان التتك بيش تبريدينه؟ آني أشتري بالكيلو!"، وأخرج من خرجه ميزانا من صنع بيتي عياراته من حجر وهو يشير إلى الحجر الكبير: "هذا كيلو، وهذا نص كيلو، وهذا ربع، أوزنلج؟" نظرتُ الى الثريا الفضية من شغل العجم وسلاسلها على شكل سمكات ممسكة بفمها الواحدة بذيل

الأخرى وقد نقش على الدائرة الممسكة بالشمعانات الفضية آيات من المزامير بالحروف العبرية وقد تدلت في نهايتها كرة بيضاوية الشكل جميلة من الفضة الخالصة، كانت أمي تفخر بها وبنقوشها وبدقة صناعتها وهي تقول لنا باعتزاز: "كان جهازي أحسن جهاز، كل البرودري (التطريز) شغل البنات الدرستوهم فرنساوي وبرودري بمدرسة الأليانس"، في هذه الثريا التي شاركت أفرحنا وأعيادنا كنا نشعل الشموع في الاحتفالات بأيام عيد الأنوار والأعياد الكبيرة الأخرى والوالدة تنظر بفخر واعتزاز إلى فضيات جهاز عرسها، "ليش قتعغفون أشقد دفع أبوي المغحوم واخوتي على اجهازي"، والآن يأتي "أبو الجراوية" ويقطع السلك بكل وقاحة وجراءة كأنه صاحبها الشرعي ويساوم بأبخس الأثمان ويسميها "تنك" (صفيح). قالت والدتي وهي تكفكف دموعها "الفضض مال الجهاز مالي ما ابيعا بالكيلو، أبيعاً بسعرا، ليش قا أبيعلك حدايد وتنك؟" وإذا بأبو الجراوية يتنمر ويقول مهددا "ولج يا يهودية، ليش هذا مالتكم، كل أملاككم مجمدة وصارت ملك الحكومة، آني جاي أساعدكم، هاي أنطيج عليها كلها نص دينار وإذا ما تقبلي أروح هسنا أبلغ الشرطة عليح تبيعين الأموال المجمدة والله انيمكم تسعه باسود!" أصاب والدتي الهلع، "حرام عليك، خاف من الله يا ابني! خاطر الله، جزت ما أريد أبيع، جزنا، روح عيني روح على باب الله!". فأجاب أبو الجراوية مستأسدا، "شوفي يا بنت السبت، آني راح أبلغ الشرطة عليكم ولا تلوموني بعد، تقبلي بنص دينار لو لا؟" وتظاهر كأنه يخرج لإبلاغ الشرطة، قالت الوالدة وقد أصابها الهلع ووقعت في حيرة من أمرها والقلق والهلع يعصفان في صدرها، "زين جيب النص دينار"، كنت واقفا أراقب ابو الجراوية وقد أخذني الغضب والتفزز من هذا الابتزاز والفرهود الجديد. فكرت في ضربه وإلقائه خارج الدار ثم تمالكت نفسي، "بعدين شرطة وتوقيف وتحقيق وتهممة بيع ممتلكات الحكومة الفرهودية" ولا سفر ولا يحزنون. سلمها النص دينار ووضع غيتمته

في الخرج على كتفه ثم التفت إلي "وهذا البايسكل مالك بيش تبعه يابا"، قلت له "هذا اشتريته آني بثمان دنانير"، ضحك أبو الجراوية ضحكة صفراء وقال "انطيني فرة عليه دا أجره، بلكت مجرقع وما يمشي!"، وضع الخرج بالفضيات والثريا على كتفه واعتلى الدراجة وأنا ممسك بالجاملغ مثلما أمسكت في طفولتي بتلايب دشداشة "أبو الجراوية الأول" الذي سرق مني ملاعق الفضة مع الصحن الفرفوري. وفجأة رفسني في بطني وحاول أن يسرع في ركوب الدراجة، أمسكت "بالجاملغ" وحاولت إسقاطه، ألقى درهمين وهو يقول، هذا البايسكل ما يسوى أكثر! ثم أخذ بالصراخ، "شرطة، شرطة، تعالوا كلبشوا الهدوله اليهود الكواويد، يريدون بيعون أموال الحكومة!" وغاب عن نظرنا. قالت الوالدة "يا حيف نقلونو الأبو علوان من بستان مامو، لو كان بعدو صوينا ما كان أحد يتجاسر ايسوي هيكد بينا". شعرت بالغضب لهذا الفرهود الجديد الذي يجري تحت بصر الحكومة ويقوانينها الاغتصابية. قالت والدتي بيأس "أمري لله، يا ظالم لك يوم، مهما طال اليوم!".

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة (١١)

الوالد إبراهيم مير معلم

العراق يفترس أبناءه ٥ - ١

السبت ١٤ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

وبعد رحيلنا إلى إسرائيل بقي الوالد مخلصا لوطنيته العراقية، كان في الأربعينيات من القرن الماضي بعد الفرهود إذا جاءه فلاح أو أحد أقرباء أبو علوان ليطلب منه سلفة، يقول له "سأقرضك المال ولكن لا لشراء زوجة جديدة تعيد لك شبابك، بل سأشتري لك أنا بنفسني أدوات المهنة التي تريد احترافها، من نجارة وحدادة وحلاقة وميكانيك وغير ذلك، سأقرضك بدون فايز (ربا)، أعد السلفة متى ما تستطيع تسديدها ولو بالتقسيط". وكان الوالد يفخر بأن بعض من أسلفهم أصبحوا أسطوات من ذوي المهن الناجحين لا من متعددي الزوجات. سألته ذات مرة، لماذا تقوم بمساعدتهم؟ فأجابني "هؤلاء الفلاحون العراقيون هم من ذوي الكرامة ولهم عزية نفس، ألا تتذكر كيف عاد أبو علوان من زراعة حديقة بيت خال أمك ولم يطالب بحقه وقال لك بأنه "مسح ايده بالحائط" ورجع بلا ما يدايعهم، فإذا احترمتهم وساعدتهم فسيخلصون لك مدى العمر ويدافعون عنك حتى آخر قطرة من دمهم، أما إذا احتقرتهم وختنهم فيصبحون كالأسود الكاسرة ويمزقون خصمهم إربا، إربا بدون رحمة، ألا تذكر كيف دافع عنا وأخلص لنا أبو علوان أيام الفرهود وقبلها وبعدها". كان والدي يحب حقا هؤلاء الفلاحين أباة النفوس ويقول إن الحكومة تهملهم وملاك الأراضي يستغلونهم، يجب

أن نعلمهم ونعودهم على العمل الشريف". كنت أقول لنفسي، لعله يريد بهذه الطريقة ردّ الجميل الذي صنعه معنا أبو علوان وأعجب كيف يشتري بماله أدوات المهن التي يختارها الفلاح المبطل دون أن يوقع على اتفاقية معه. قال لي لا تخف فهم أمناء ويعتقدون بالثواب والعقاب، أسلفت أحدهم ولما استحق موعد وفاء دينه، أخذ يضحك مني ويقول "إي يهودي تريد حقك، أنضحك روح قبض من دبش، والشفته كلكه"، أجابه والذي "سويتلك معروف وتمزق عليّ، زين اسلمك بيد الله وانشوف"، جاءني بعد شهرين وهو يعتذر "خاطر الله إبراهيم، اعذرني، والله بعد ما أسويها، من اليوم ألما رجعت الدين لسه الشيطان لاحقني أبتوثية، صدمت ابني سيارة، الحرمة تكرم طرحت، وراسي داينخ من هذاك اليوم لليوم، اندعي لله ايخلصني من هل بلاوي".

أخذ الوالد الدين وقال له "متعرف الله واقف على الحق، بعد لا تسويها، دروح خلف الله عليك". وبالرغم من هذه الحادثة وأمثالها كان الوالد يأخذنا أيام الربيع الجميلة لنزور علوان الذي تزوج واشترى له والذي هدية وهي عدة صالون حلاقة أخذ يديره في كوخه بالرخيته، كان الوالد يخبرنا بأن انتهاء لزيارة العائلات التي زودها بمعدات صنائعهم ويقول، "من الآن والى أن نعود في المساء إلى البيت سيصبح اسم ريمون، وهو اسم يهودي "يصيح" (واضح وصريح) باسم "عبد الرحمن" وننادي أخوكم "مراد" الذي تشم منه رائحة اليهودية باسم "وليد"، أما سامي، فيبقى على اسمه الإسلامي.

لم أكن اصدق أن هذه التمثيلية ستنتظلي على هؤلاء الفلاحين الذين يعرفون اليهود من لباسهم النظيف وينظفونهم القصير ومن أحذيتهم، وليس من لهجتهم فقط. ثم كان يزودني ببعض العانات (قطعة نقدية من ذات الأربع فلوس) ويقول لي سأطلب منك في بعض الأحيان تسليفي بعض القطع منها أمام البلامجية وغيرهم ممن أتوسم في وجوههم الغدر والشر والعونظة. وعندما نصل إلى حافة ترعة أو رافد ونحتاج إلى التعديدة بالقرب وبعد أن نجلس في "البلم" يسأل الوالد البلامجي، "أبني اشكد

حقك؟" ويمد يده إلى جيبه ثم يقول بصوت مرتفع، "ولك سامي ترى نسيت الجزدان (محفظة النقود) بالبيت، عندك كيم قرش؟" فيقول البلامجي "عمي ما يخالف، انت ضيفنا وعلى احسابي"، فيقول الوالد "لا يابا، الحمد لله الولد شاييل كم قرش، ميصير، هذا شغلك ولازم تاخذ حقك". كنت أعجب دائما من أين للوالد هذه الحكمة في الدفاع عن نفسه بهذه الصورة من الحرامية وقطاع الطرق في هذه الأماكن البعيدة التي لا يتجاسر على الدخول إليها سوى من له خفارة وسلاح. ثم نعود من زيارتنا بعد أن يتفقد عمل هؤلاء الذين أسلفهم ومدي نجاحهم في عملهم الجديد، محملين بالتعروزي والخيار والطماطة وفراخ الدجاج تعوضا للقرض. ولم يكن والذي الوحيد الذي يحسن هذه التمثيلية للحفاظ على ماله وسالمته، فقد أخبرني أنور كوهين زوج جاكلين بنت خالي حاييم انه عندما كان يسافر إلى إيران كان يأخذ في جيبه "سجدة" من حجر كربلاء تستخدم للصلاة، فإذا شك فيه شيعي بأنه "يهودي نجس"، يخرج حجر "السجدة" من جيبه ويفرکہا ويقول: "سبحان الله، فيها رائحة التفاح" ويقلها ويرفعها إلى جبينه ويعيدها إلى جيبه. فقد تعلم التقية من الشيعة إلى حد أنه كان يشاركهم الصلاة إذا دعي إليها، تقية وحفظا لحياته.

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة ١٢

الوالد إبراهيم مير معلم

العراق يفترس أبناءه ٥ - ٢

السبت ٢١ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

وبعد مدة طويلة من محاولة الوالد العثور على عنواننا في إسرائيل لكي يرسلنا طلب منا إرسال عنوان في أوروبا ليرسلنا منه. كانت والدتي قد تصادقت مع فتاة مغربية بسبب معرفة الوالدة باللغة الفرنسية وولعها بالتكلم بها. كانت هذه المغربية قد هاجرت إلى إسرائيل من باريس مع زوجها المسلم البربري الذي صبا إلى اليهودية ليتمكن من الزواج بها بالحلال لجمالها وقوامها الممشوق. حقق العاشقان الآمال بالزواج السعيد ولكن بقيت لهما حسرة واحدة، لم يستطع أطباء فرنسا معالجة عقمها فقدمت إلى إسرائيل، لعل وعسى. وهنا أيضا فشل الأطباء في انجاز المعجزة، شكت جاكلين المغربية إلى والدتي همومها. قالت أمي وعلى وجهها ابتسامة أمل مشرقة، "عندي وصفة جربتتها في بغداد في معالجة يهوديات ومسلمات وآمل ان تنجح معك أيضا"، طار عقل جاكلين المغربية الجميلة من الفرح وأكثرت من الدعاء لأمي بالخير والبركة. والمغاربة اليهود يؤمنون بالأولياء والصالحين وبمعجزاتهم وقد تركوا في المغرب قبور أوليائهم، ولهم في طنطا قرب مزار السيد البدوي مزار للولي اليهودي المغربي أبو حصيرة، الذي يقال عنه بأنه عندما أراد السفر إلى الديار المقدسة لم يكن يملك ثمن تذكرة سفر بالباخرة فشد حبلا إليها وجلس على حصيرته كالمترج

على الماء وعندما بلغ ميناء الإسكندرية بكرامته هذه مرض وتوفي في دمنهور. وقد قض مريدوه وممن لهم اعتقاد فيه من زوار ضريحه المغربيين، مضجع المترمتين في مصر. فجموع اليهود المغاربة التي تفد لزيارة ضريحه كل عام متهمون بالعريضة وتناول الخمر المحرمة عند المسلمين والإزعاج بتلاوة الصلوات والترانيم بأصوات عالية. قدمت الوالدة لهذه المغربية نبات "المريمية" الأخضر الزكي الرائحة، وزودتها بالتعليمات كيف تغليه ومتى تشربه ومتى تأوي إلى مخدعها في حضن الزوج الحبيب. لم يمر شهر على تناول وصفة الوالدة وإذا بجاكلين التي كانت تأتيها العادة في أوقات منتظمة مثل الساعة السويسرية قد تأخرت دورتها، ذهبت وهي لا تصدق عقلها بين يأس ورجاء وتكاد تطير شوقا لإجراء فحوصات الحمل في المختبر. قالت الطبيبة لها وهي تبتسم، "مبروك عليك، أنت حامل". انطلقت الزغايد المغربية من دار جاكلين ومن دور المغاربة المجاورة وعزفت الدفوف المغربية والطارات في زفة إلى الوالدة وهم يقبلون يد "الولية الجديدة" التي قدمت من العراق، من بلد أنبياء إسرائيل وأوليائها. خمس سنوات وهي تستشير كبار الأطباء وتتفق الأموال الطائلة على أدوية ووصفات لا تنفع ولا تدفع، وإذا بالعراقية "الولية" بيدها المباركة تغلي "المريمية" بالماء فتتحقق المعجزة. وبعد الطهور وفشل البحث عن عمل في القدس عادت جاكلين مع زوجها البربري العاشق الذي حمل كنزه الثمين ثمرة حبه الغامر لزوجته وسافر عائدا إلى باريس وقد ازداد اعتقاده بكرامة الولية العراقية إلى باريس إذ لم يفلح زوجها العاشق المعمود في تعلم اللغة العبرية والعثور على عمل يليق بثقافته العالية. وبعد سفر جاكلين بالسلامة مع ابنها البكر، بعد أن أغدقت على والدتي الهدايا وأقسمت بأنها ستواصل إرسال الملابس المغربي كل سنة في يوم ميلاد الأمير البربري الجميل، وصلت رسالة من الوالد يطلب منا العثور على عنوان آمن في فرنسا أو إنكلترا ليراسلنا وليعطينا التعليمات كيف ومن أين نقبض المال الذي

سيرسله لنا لشراء شقة جديدة. تذكرت الوالدة عنوان جاكين في باريس وإرسالها الملبس، فطلبت على وجه السرعة، أن تكف عن إرسال الملبس، وبدل المال الذي تصرفه على الحلوى ترجوها أن تشتري الطوايع والظروف البريدية الفرنسية، وعندما تتسلم منّا رسائل إلى الوالد، عليها أن تمزق الظرف مع طابع البريد الإسرائيلي وتكتب من جديد عنوانه في العراق وأكدت "ووزّمت" وكررت عليها أن لا تنسى أن تمزق الظرف البريدي الإسرائيلي وتضعه في ظرف فرنسي مع طابع بريد فرنسي، والحذار، الحذار من أن تبقى آثار تدل على جهة الإرسال الأصلية، فالعراق ما زالت في حالة حرب مع إسرائيل وهي الوحيدة من بين البلاد العربية التي لم توقع معها معاهدة هدنة. فرحت جاكين بهذه الفرصة التي تستطيع بواسطتها رد جميل "الولية العراقية" وكتبت للوالدة رسالة سريعة بان أمر الوالدة على رأس وعين ولا مانع لديها من أن تقوم بهذا الواجب المقدس كل يوم إن اقتضى الأمر. وهكذا صرنا نتبادل الرسائل مع الوالد في بغداد بأمان على اسم وعنوان صديق له مسلم من أولاد الحلال. ولم نعد نغبط اللاجئيين الفلسطينيين الذين تتاح لهم فرصة تبادل الرسائل بكل الطرق الممكنة مع ذويهم في الخارج. غير أن رياح الأمور لا تجري دائما بما تشتهيئه السفن. وفي ذات يوم تلقى الوالد مكالمة هاتفية مستعجلة غاضبة من صديقه ابن الحلال وهو يصرخ "تعال يا يهودي قبل ما أنعل دينك وأنعل سيف التورا مالكم، دتريد تهجم لي بيتي تعال أبسرعة". اشترى الوالد هدية تيمينة في طريقه إلى صديقه الوفي وهو حائر من تصرفه الغريب، "ها أبو جواد خير إنشا الله؟" أشار أبو جواد إلى ظرف الرسالة الملقاة أمامه برعب وفرع كأنه قبلة على وشك الانفجار، "إبراهيم، أشو افتح هذا الظرف الجاني من البربوكة المغربية صديقتكم القاعدة اتكودلك إباريس"، تناول الوالد ظرف الرسالة بحذر فوجد في داخله شيئا هاله فألقاه من يده بسرعة على الطاولة وقد امتقع وجهه، "الحق وياك يا أبو أجواد، الحق وياك"، غضب أبو جواد

وصاح "داكلك طلع الظرف الثاني الملعون، أنا أخاف ألزمه لا تصير طبعات أصابعي عليه". فتح والدي الظرف بحذر وأخرج ظرفا آخر وعليه طابع بريد إسرائيلي معنون إلى المغربية في باريس وعلى ظهره عنوان الوالدة في إسرائيل في داخل الظرف المعنون إلى أبو جواد في بغداد، صاح أبو جواد "ولك تريد تهجم بيتي، هيج اتجازيني؟ وآني أستاهل منك هيج معاملة؟"، نظر الوالد إلى الطابع وخيل إليه أن حرف "الألف" في كلمة "إسرائيل" أصبح خنجرا يخترق صدره، وقفز حرف "السين" كأنه سكين مسننة تقترب من رقبته، وانقلب حرف "الراء" إلى خطاف معقوف كالذي يعلق عليه المتهمون في السجون العراقية لتعذيبهم، وأقسم لي بأنه شاهد كيف انقلب حرف "اللام" إلى أفعى مشرعة أنيابها المترعة بالسم الزعاف في وجهه وقد انتصبت على ذيلها وتكاد تنهش يده. امتقع وجه الوالد وقال، "الحق وبك أبو جواد والعفو، وآني، قسما بالله راح اطلب من هل منبوشة الصفحة تبطل تبعث بعد مكاتيب على اسمك. هسا الحمد لله مشت ابغالها وبالخير وما فتحها الرقيب، هاي بشلون داهية جان وقعتنا بيها هاي البربوك المسطولة". أحرق الوالد الظرف والطابع المرعب مع الرسالة، وكرر وعد الشرف بعدم إرسال رسالة مهما تكون بريئة عن طريق عنوانه، إلى ان هدأت سورة غضب أبي جواد الشهم النجيب. بقي الوالد يذكر أبا جواد بالخير ويشيد بشهامته إذ أنقذه من حبل المشنقة، ويحمد الله على هذه المعجزة التي أنقذته من الموت الزؤام، إذ لم يفتح الرقيب الرسالة وغشا الله على بصره، وغلّ يديه، وألهاه عن فتح الرسالة الصليّة الغادرة.

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة ١٣

الوالد إبراهيم مير معلم

العراق يفترس أبناءه ٥ - ٣

الأحد ٢٩ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

ضاق الوالد ذرعا بالملاحظات العديدة التي عانى منها في بغداد، ثم جاء "المنخل" (الغربال) الذي قصم ظهر جمل صبره وناخ بسببه حرنًا، يأبى البقاء في هذه البلاد التي تفترس أبناءها. غاب عن داره ذات صباح، أتت سيارة شحن ووقفت أمام الدار و"فَشَّ (كَسَرَ) السايق قفل الباب" وصار ينقل الأثاث وكل محتويات الدار وما بقي من الفرهود الثاني الذي شنّه أبو الجراوية الثاني" على الوالدة. سأل الجيران من أولاد الحلال السائق: "شكو! اشدعوى، أشدتسون!"، أجاب السائق بكل صفاقة وجرأة، "إبراهيم أفندي كال إلنا يريد يتحول الغير بيت واحنا دنحول له غراضه، كال هسه يرجع ويساعدنا بالتحويل". عاد والدي إلى الدار و"شاف الدار قفرا ومفرهدة حتى المكناسة، تكرم، أخذوها ويّاهم. وهسا وين أروح ووين أولي وجهي!" لم يبق له سرير ينام عليه ولا وسادة ولا شرفش. فتش في بعض الخزائن المثبتة في الحائط، ووجد لدهشته، "خاشوكة فضة ومملحة فضة من صنع العجم" نحتت عليها صور سلاطين الفرس، وهي من بقايا مهر الوالدة وقد "أعماهم الله عنها". كانت هذه البقايا الباقية من عز عراق أيام زمان قابعة تولول لمصير أخواتها اللواتي بقين من هذا الفرهود النظيف الجديد الذي مرّ بدون إراقة دماء، وكانت هذه الأدوات الباقية تعويضا من

الوالد لأدوات الطعام التي سرقت مني يوم أن حاولت أن أصبح تاجرا أيام طفولتي حين عرضتها للبيع مع ابنة عمتي كحلا وفرار "أبو الجراوية بها على صحن الغرفوري" دون أن يدفع الدينار الذي طلبته عنها. وضع الوالد هذه البقايا من عز العراق وذكريات شبابه في جيبه وهو يشتم أولاد الحرام الجدد. ضاق المقام به وقرر هذه المرة السفر إلى طهران بعد أن يس من مستقبل العراق. وعندما قدم إلى إسرائيل، كانت هذه هي الهدية التي قدمها إلى الوالدة من ذكريات زواجهما وشبابهما الراحل، ملعقة ومملحة من الفضة الخالصة وطاقيّة الصلاة التي خاطتها له الوالدة مع تلميذاتها من مدرسة الأليانس كجزء من الجهاز الثمين الذي قدمته له من خالص مال عائلتها. وعندما استطاع والدي مغادرة العراق إلى إيران بجواز سفر حصل عليه في أيام الزعيم الأوحيد الذي يترحم الوالد عليه كلما جاءت سيرته، وتمتع بجو الحرية تحت ظلال شاه إيران البهلوي، وطابت له "كعدة طهران" عدة أسابيع وإذا بثورة جديدة تقوم في العراق ويطيح حزب البعث بقيادة الزعيم عبد السلام عارف ناكر الجميل الذي صنعه معه عبد الكريم قاسم المتسامح بعد أن أشفق عليه. كان هذا الزعيم المتسامح قد "ضيّع" المشوتين بين القومية والشيوعية " في انقلاب عسكري في ٩ شباط ١٩٦٣ أصبح يعد عند الكثير من العراقيين كأشنع غدر من غدرات السياسة في القرن العشرين. سيق الشهيد عبد الكريم قاسم إلى استوديوهات تلفزيون بغداد وأعدم رميا بالرصاص مع زميله المهداوي الذي قضينا الساعات الطوال نستمع إلى محاكماته في القدس من إذاعة بغداد وإلى مهازلها الشعبية. وفجأة وصلت إلى الوالد رسالة من سفارة الجمهورية العراقية البعثية في طهران، ورقمها ٤٢٠٥٩٥، والمؤرخة ١٦٩١٩٦٣ بتوقيع السفير العراقي الدكتور عبد الحسين زلزلة، تأمره كمواطن

يهودي "حامل جواز السفر العراقي المرقم ٥٢١٢٦١٩١٢٦ والصادر في بغداد بتاريخ ٣٩١٩٦١"، بما يلي:

"لما كنتم مشمولين بحكم الفقرة (ج) المضافة إلى المادة الخامسة من القانون ١٢ لسنة ١٩٥١ التي نصها على اليهودي العراقي الذي غادر العراق خلال المدة من ٢٠١١٩٦٠ إلى غاية ٣٠٣١٩٦٣ أن يعود إلى العراق خلال مدة ستة أشهر من تاريخ نفاذ هذا القانون، فإذا لم يعد بعد انتهاء هذه المدة فلمجلس الوزراء بناءً على اقتراح الوزير أن يقرر إسقاط الجنسية عنه ويجري التصرف بأمواله وفق القانون رقم (٥) لسنة ١٩٥١ والأنظمة الصادرة والتي تصدر بموجبه، لذا فإننا نبلغكم بوجود العودة إلى العراق خلال مدة ستة أشهر..."، وهكذا تمكنت الحكومة العراقية الجديدة من "فرهدة" أملاك اليهود بصورة قانونية نظيفة، هؤلاء اليهود الذين أحبوا العراق وتمسكوا به لكي يوارى ثراه أحداثهم إلى جانب آبائهم وأجدادهم.

وصلت هذه الرسالة بعد أن كان والدي قد "شمع الخيط وشالها" من طهران إلى تركيا ومن الإسكندرون إلى ميناء حيفا بقارب صيادين بحري تفاديا لتوقيع تأشيرة دخول إلى إسرائيل على جواز سفره العراقي المقدس الثمين، إذ لعل وعسى أن يعود إلى العراق بعد زيارة العائلة التي أضناه الحنين إليها، ولعله يتمكن من العودة إلى العراق خلال ستة أشهر فلا تسقط عنه الجنسية العراقية ولا تصادر أملاكه. فضل الوالد البقاء في إيران بعد أن أصبحت حياة اليهود في العراق جحيما لا يطاق وقد هدّه الحنين إلى العائلة "ليش أش فضل من العمر، وخلي الأرض والأحلام تروح فدوه على راس أولادي!" وعاد إلى العائلة وهو يذرف الدموع كلما التقى بولد من أولاده الأربعة وبحفيد من أحفاده من ابنتيه.

بكت الوالدة وهي تطلق العنان لدموعها الحارة الغزيرة لتطفى حرقه الفراق الطويل على كتف الوالد الذي عاد إليها فجأة وهي ممسكة بآخر تذكارات لشبابها الراحل. أخذ سيارة أجرة من حيفا إلى القدس، ولكي لا تفاجأ الوالد ويغمى عليها، أرسل السائق ليقول لها، هناك رجل جاء من حيفا عن طريق الإسكندرون بسيارة تاكسي وليس لديه نقود إسرائيلية ويرجو أن تدفعي أجرة السفر". وأدركت الوالدة من هو هذا الرجل الذي قدم على هذه الصورة، فقد تعودت على "ذكة المحبوب الخزعلية" و "المكسورات" العديدة التي قام بها في حياتهما الزوجية. فهو لا يستشيرها بشيء، عملاً بموقف الرجال من النساء في الشرق والذي يدعي الرجال المسلمون أنه يستند إلى الحديث الشريف "ناقصات عقل ودين"، و"شاوروهن وخالفوهن!". وعندما عُدتُ إلى البيت فتحت الوالدة باب الدار قبل أن افتحه بالمفتاح وقالت لي بصوت آمر وبجدية، لا تدخل إلى غرفتك! أريد أن أحدثك بشيء"، نظرت إلى وجهها الذي يعتمد الرصانة، وفجأة ومن دون وعي مني دفعته عن طريقي وصحت بها: "والدي هنا، دعيني أدخل، دعيني أدخل!"، صدق حدسي، فقد كان والدي جالسا على سريري وهو ينتحب. فراق أحد عشر عاما، كعدد الكواكب التي سجدت ليوسف مع الشمس والقمر ذقنا فيها مرارة صراع التأقلم والدراسة باللغة العبرية، جالسين مدة الثلاثة أشهر الأولى دون أن نفهم كلمة من المحاضرات باللغة العبرية، ونسهر الليالي الطويلة نتحضر لامتحانات آخر السنة.

كنا آنذاك في السنة الأخيرة لدراسة الماجستير في علوم "ما أطعم خبز"، وقد راحت عليه "الأراضي التي اشتراها في بغداد الجديدة ولم يتمكن من تربية الأولاد ليصبحوا تجارا كما كان يشتهي، فلم يستطع أن يجعل منا تجارا مثله، فقد نال جاكوب درجة الماجستير في الاقتصاد ونلتُ "ويا للعار" الماجستير في آداب اللغة

العربية، ونال ريمون درجته في الفيزياء، ونال مراد أصغرنا سنا منحة لمواصلة دروسه في فن الرسم في فلورنسا وفي باريس، وهذه وصمة عار أفضع في جبين العائلة بالنسبة له ولأخي البكر: "أش عزا هذا الموضوع مال الشعاعير (الراقصين بزى النساء)، هذا غاح يقدغ يغبي مغة، يغبي اولاد؟ (ما هذا الموضوع الحقيق، هل سيستطيع بواسطة مهنته المتبدلة هذه أن يعيل زوجة وأن يربي أولاداً؟). وبالمال القليل الذي استطاع أن يستخلصه من برائن الرقابة والتفتيش العراقية، استطاع أن يخلصنا من سكنى الخيام والصرايف لشراء دار تلبق بسكنى البشر وتبرع، وبما بقي من المال لديه من عزّ بغداد تبرع به لبناء قسم العيون في المستشفى شعريه تصيديك بالقدس، (ولعل السبب في ذلك هو أسفه لفقدان بصر العين اليمنى لأخته عمتي ربما لأنهم أخذوها إلى طبيب شعبي وليس إلى طبيب أوروبي ولم ينجح معها العلاج؟). ظل الوالد يردد بعد تبرعه لبناء قسم العيون: "ميا حيف ما انتفعت العراق بفلوسي وبالمستشفى مالي! لكن حكام العراق يعغفون بس هجمان البيوت، مثل سوق الغزل ما يحمل عمارة". تبرع الوالد بما بقي له من مال دون أن يرف له جفن، "خطشلكم فلوس، الفلوس اتغوح وتجي، بس العلم ييقى! والحمد لله درستم وبعد اشويه تسيغون ذكاترا، بعد أشتغيدون؟" (ماذا تفعلون بالفلوس، فهي غير مستقرة، العلم وحده الذي ييقى، والحمد لله لقد درستم وبعد قليل ستصبحون من حملة شهادة الدكتوراه، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟). ولكن كيف مؤلنا دراستنا في الجامعة العربية؟ فهذا أمر آخر.

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة ١٤

الوالد إبراهيم مير معلم

العراق يفترس أبناءه ٥ - ٤

السبت ٥ مايس/مايو ٢٠٠٧

كان الوالد قبل نزوحنا من العراق قد أوصانا وصية عراقية أصيلة، إذ اعتاد أن ينصحنا دائما بنصائح مستحيلة: "سجلوا بالجامعة، وغوحو عند أبو الجامعة وقولولو، أبونا زنكين، درسوننا ومن يجي يرجعلكم حقمك زيد ما ناقص!" (أذهبوا إلى عميد الجامعة وقولوا له إن والدنا رجل غني، اسمح لنا بالدراسة مجاناً في البداية، وعندما يصل الوالد إلى البلاد سيفي لكم الدين وأكثر!). لا ندري إلى اليوم هل كان يؤمن بهذا المنطق الغريب؟ وما زلنا نبتسم لهذه النصيحة التي قد تكون سارية المفعول في أيام العسلي وأيام كتاب الملاي الذين كانوا يديرون مكاتب لتعلم الصغار، ولكن هذه الطريقة في العصر الحديث "ما تورث" (لا تنفع). وعندما عاد بعد أن أنهينا الدراسة دون أن نستعين بنصائحه الغالية، سأل إذا كنا قد درسنا في الجامعة على "حساب وعده السموالي؟" ابتسمنا ابتسامة صفح و"تطويل بال"، قلنا كما كان يقول: "الحمد لله، الله قضاها بالطيب بس الفيس غركان" (انتهت على خير ما يرام، والضرر الوحيد كان غرق الفيس "غطاء الرأس العثماني" فقط)، وذلك لأن الجامعة أعفنتنا من دفع أقساط الدراسة لأننا كنا من القادمين الجدد، ووفرت لنا الأعمال البسيطة لنستطيع التفرغ للدراسة، وأغدقت علينا المنح الدراسية بل أرسلت بعضنا للدراسة في

جامعات انكلترا و إكمال التخصص في جامعات أوروبا. وكنا في أكتوبر عام ١٩٥١ حوالي ٧٠ طالبا عراقيا قد غزونا معهد الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية لدراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية والشرق أوسطية. كان بيننا بعض الشعراء وأشهرهم مراد ميخائيل وركي بنيامين هارون والمرحوم دافيد صيمح ويوسف سلطون ننشر ما نكتبه في جريدة "اليوم" و"حقيقة الأمر" الهستدروتية و"الإتحاد" و"الجديد" الشيوعيتين، وكان من الكتاب الأديب الياهو خزوم الذي كان يفخر بأنه ينشر مقالاته في جريدة "الجروزليم بوست" وجميل الويا الذي كان يعمل في وزارة الخارجية شامخا بأنفه، وإبراهيم خياط زعيم الشيوعيين العراقيين في الجامعة ومن خريجي دار المعلمين العالية في بغداد. كان "شايف نفسه ويندعي بيها" لأنه درس مع نازك الملائكة وكان هو والطالب سليم فتال المتواضع من زعماء الشيوعيين اللذين كان يقودان مظاهراتنا الصاخبة احتجاجا على الوضع الاقتصادي العسير في حينها منددين بالحكومة ومطالبين بال"ليحم عبودا" (الخيز والعمل) حاملين الشعارات الشيوعية "يا عمال العالم اتحدوا" و"الدين أفيون الشعوب" و"فليعيش التضامن اليهودي العربي" وغير ذلك. أما في دروس اللغة العربية فقد كان من بين هؤلاء الطلاب من يريد إظهار "مراجلتهم" في الإعراب وتبحره باللغة العربية، فيتجادلون مع الأساتذة الكبار من الفارين من الجحيم النازي في ألمانيا في صحة الأعراب ومعاني الجمل، "ليش هدولي أش يفتهمون، ليش بعغفون يطلبون شاي بالعربي؟" أما هم، فهم عراقيون أقحاح يتكلمون بلهجة قبيلة تميم فيقبلون لفظة حرف "الألف" إلى حرف "العين" ويتشدقون بهذا الحرف المجيد الذي يكثر العراقيون استعماله في مسبات أمهات وأخوات خصومهم، ولا يحسن أحد التلفظ به بهذه الصورة الصحيحة مثلهم حتى في رطانتهم باللغة العبرية والتي يقلب فيها الأشكناز حرف "العين" إلى حرف "الألف". فهم فخورون بهذا الحرف الذي بدأ به عبقري العرب الخليل بن أحمد الفراهيدي قاموسه

المعروف بـ"كتاب العين". وأخيرا اكتشف هؤلاء العلماء بأن العراقيين لا يميزون بين حرفي "الضاد" و"الظاء" في التلفظ والكتابة فاستغلوا ضدهم. وإذا كنا بصدد السباب فلا أروع من العراقيين في هذا الفن الشعبي المجيد بعد "فن العفاط". وقد كان بعضهم لا يتكلمون إلا بالسباب والشتم، حتى بعض الوزراء والنواب في مجلسهم. قيل انه لما ابلغ جعفر العسكري مؤسس الجيش العراقي في ٦١١٩٢١، بحركة بكر صدقي (١٩٣٦) وأوعز إليه بإخمادها عن طريق المفاوضات، لأنه كان محبوبا من أفراد وضباط الجيش، خرج مسرعا إلى سيارته، فسألته زوجته "وين رايح عيني؟"، أجابها: "آني رايح أن... أمه البكر صدقي" بدلا من أن يقول "أريد ردعه أو إخماد فنتته"، فكانت رصاصات الغدر من ضباط بكر صدقي قد ردت مسبته إلى نحره.

كان الأستاذ مراد ميخائيل الذي درس معنا، يرى أنه يستحق نيل لقب دكتور في الأدب العربي حتى بدون أطروحة ولا يليق بشاعر في مثل مكانته الجلوس مع "زعاطيط" مثلنا، أقصى ما يستطيعونه هو كتابة الشعر المنتور على الطريقة الجبرانية. لذلك طالب بالسماح له بكتابة أطروحة الدكتوراه رأسا وإعفائه من دراسة الماجستير، وعندما سألناه: "يا بابا ليش؟" أجاب: "ما أنا شاعر، حتّي مدحني شاعر العرب الأكبر معروف الرصافي". رفض طلبه بدعوى أن الطلبة من العراق لا يحسنون البحث العلمي الموضوعي ولا اللغات الأوروبية للوقوف على أبحاث المستشرقين واستخدام المصادر الأوروبية لإغناء دراساتهم. وكان هذا الرفض إهانة كبرى لماضيه في العراق ولشاعريته. علق على هذا الرفض بقوله: "هدولي يخافون يعينوني محاضر هون كيف اعرف أكثر مّم ولكون أطلع عييم بالعربي!". كتّا نشعر بأن هذه الإهانة موجهة إلينا أيضا، فقد عرفنا الأديب مراد ميخائيل شاعرا في العراق على صفحات مجلتي

"المصباح" لسلمان شينه (الذي أصبح فيما بعد نائبا في مجلس النواب العراقي ثم فرّ إلى إسرائيل عن طريق تركيا دون أن يقدم استقالته إلى المجلس، ورشح نفسه لانتخابات الكنيست ولكنه فشل في إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء). كان مراد هذا مديرا لمدرسة شماش الثانوية في بغداد ويعرف جميع طلابها جيدا إذ لم ينجُ واحد منهم من صفعاته التي تعلمها في دورة ضباط الاحتياط في العراق. وبما أن الكثير منا لم ينج من مراسيم تمزيق الشهادات والوثائق في مطار بغداد قبل ركوب الطائرة للإقلاع بنا إلى المجهول، فقد توجهنا إليه ليمنحنا شهادة تصادق على دراستنا واجتيازنا لامتحانات البكالوريا العراقية. قام مراد ميخائيل نحونا، والله يذكره بالخير، بواجبه الوطني في التضامن العراقي في إسرائيل وزود كل من طلب وثيقة تشهد بأنه من خريجي مدرسة شماش بما أراد، حتى عجب سكرتير الجامعة من كثرة الطلبة الحاملين وثيقة المصادقة على إنهاء البكالوريا بتفوق، ولم يعد يعيرها كبير اهتمام.

و شاء القدر أننا قبل هجرتنا إلى إسرائيل تعرفنا عن طريق خالي حاييم مدير محطة القطار برجل سعودي من الأحيار الأبرار يدعى عبد القدير، كان يزورنا مع زوجته الشابة الجميلة التي تصغره بثلاثين عاما تقريبا. وقبل سفره إلى الكويت مصطحبا زوجته العراقية الجميلة التي أتى إلى العراق خصيصا للزواج من عراقية بنت حلال، جاء لوداعنا. تذكرت طلب أخي جاكوب إرسال كتبه ووثائقنا وشهادات امتحانات البكالوريا إلى إسرائيل، انتهزت الفرصة وطلبت من عبد القدير النبيل الكريم: "عمي! عندي طلب، ما يخالف اندزلك الوثائق والكتب للكويت ومن هناك اتدزها على عنوان جاكوب بالقدس؟". رضي عبد القدير الأريحي بالقيام بهذه المهمة الشريفة خدمة للعلم بالرغم من تكاليف البريد من الكويت إلى القدس (يوم كان بينها وبين القدس الغربية، حيث مقر حكومة إسرائيل الجديدة، علاقات بريدية سافرة). أرسلت

له طردا ضخما بشهادتنا ووثائقنا وصورنا الشمسية، والطوابع البريدية التي كان يجمعها الوالد. جاء الرد من جاكوب الذي كان من أوائل المهاجرين إلى إسرائيل عن طريق التسقيط للدراسة في الجامعة العبرية. وبعد نجاح هذه الإرسالية الرائدة أمطرتُ عبد القدير بوابل من الكتب إلى "أن صاح التوبة، خاطر الله بس". رحمك الله يا عبد القدير الأريحي حيا وميتا، فقد أنقذت سمعة العراقيين أمام سلطات الجامعة العبرية ووزارة التربية والتعليم في إسرائيل التي لم تكن تصدق أن في العراق مدارس "وفوكها يعلموكم إنكليزي وفرنساوي؟" ولا يصدقون أن في العراق يوجد مستشفيات وسيارات وبايسكلات. وصلنا الطرد وأخرجنا أعلى وثيقة في حياتنا، شهادة تخرجنا واجتيازنا لامتحانات البكلوريا للحكومة العراقية موقعة بختم وزارة المعارف العراقية مع شهادة بالمعدلات التي نلناها في الحساب والجبر والهندسة والفيزياء والتاريخ العربي والجغرافية العراقية واللغة العربية. أخبرنا الأستاذ مراد ميخائيل بوصول الوثائق وكان سروره لا يقل عن سرورنا: "ابدالكم اغووها الشهادات للسكرتير مال الجامعة خلي يعماها (براه)، قام يقلّي أنت كذاب وكلا الشهادات مالك سخته (زور وبهتان)". أخذنا الشهادات، ريمون أخي وأنا ودخلنا على سكرتير إدارة الجامعة دخول الفاتحين المنتصرين حاملين شهادات الحكومة العراقية التي تثبت اجتياز جاكوب الامتحانات بتفوق، إذا كان من الأوائل في العراق كافة وشهادتي المتريكوليشن والإنترميديت التي نالهما بامتياز، وشهادة ريمون وشهادتي. دقق السكرتير النظر في الشهادات وفحص طوابع إنقاذ فلسطين وطوابع الحكومة العراقية وعليها صورة الملك فيصل الثاني وختم الوزارة والمدرسة، ثم أخرج الشهادة التي زدونا بها الأستاذ مراد ميخائيل وقارن بين توقيعه على الشهادة الحكومية وشهادته "المزورة" التي زدونا بها، غمغم غير مصدق، إذا السيد مراد ميخائيل رجل صادق لم يزور شهادات الطلاب العراقيين. "تودا، تودا ربا" (شكرا، شكرا جزيلًا). خرجنا خروج الفاتحين، لقد أنقذنا

سمعته ومكانته في الجامعة ومكانة الطلاب الذين يحملون شهادته. وهكذا تغيرت نظرة الجامعة والأساتذة نحو الطلاب العراقيين الغزاة.

وممن رفض طلبهم لكتابة أطروحة الدكتوراه أيضا كان إبراهيم خياط بدعوى أن الطلبة الشرقيين لا يحسنون البحث العلمي بل يهتمون بالحفظ وينقلون ما قال فلان وما قال علان دون مناقشة وتمحيص. وكان إبراهيم خياط يرى نفسه الطالب النجيب لشاعر وبطل ثورة العشرين في العراق الدكتور محمد مهدي البصير. كان إبراهيم هذا يحدثنا عن دراسته عند الدكتور البصير، وقد ذكرني أخي بروفيوسور الفيزياء النظرية في جامعة بن جربون في النقب، ريموند موريه، ومن حملة شهادة الأستاذ مراد ميخائيل بالحادث التي وقعت بين الدكتور البصير وبين طالب شيعي عند دراسة الخياط للغة العربية في دار المعلمين العالية. طلب الدكتور البصير من طالب شيعي ومن إبراهيم خياط كتابة رسالة قصيرة عن موضوع يختارانه. اختار الطالب الشيعي الكتابة عن الدكتور طه حسين، ولما سمع خياط بموضوع الطالب الشيعي، أختار الكتابة عن الدكتور البصير، فقد علم أن البصير كان قد حصل على الدكتوراه من جامعة مونبلييه مثل طه حسين تماما، وكان مثل نظيره المصري بصيرا وقد تزوج بفتاة فرنسية أيضا، وجاء بها متأبطا ذراعها إلى بغداد بين تهليل الأصدقاء وزغرودة الأهل بهذا الفتح العظيم. أوربية تخضع لفحولة شاعر العراق وبطل ثورة العشرين وتنطق بالشهادتين ويحسن إسلامها. ألقى إبراهيم الخياط إنشاء وهو يكيل المديح لشاعرية "أستاذه الدكتور" وانجازاته العلمية وتفوقه في دراسته في مونبلييه في فرنسا وإحرازه على إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا التي قدمها إلى نفس الجامعة التي نال فيها طه حسين لقبه "وبيش طه حسين أحسن مني يابا!" ثم أضاف بأن الأستاذ الدكتور نشر كتاب "بعث الشعر الجاهلي" (١٩٣٩) منافسا فيه نظيره المصري، وأن الدكتور

البصير كان يقود المظاهرات الصاخبة ضد الإنكليز في ثورة العشرين ملهبا مشاعر العراقيين بقصائده الحماسية المحرّضة ضد الجيش البريطاني المحتل وكيف ألقى القبض عليه وكيف سجن مدة سنة وغير ذلك من بطولات وصولات الأستاذ الدكتور. كان البصير يهدف السمع لهذه الرسالة الغراء وبهزّ رأسه مزهوّا بما يقوله عنه تلميذه الخياط النجيب وهو يردد بين الحين والآخر مقاطعا إياه باستحسان، "عافرم، عفيا بابني، على هيح ولد دنتعب!" وعندما جاء دور عبد الحسين لإلقاء إنشائه وفيه يكيل المديح لعبقري العرب في القرن العشرين الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي والضجة التي أثارها كتابه "في الشعر الجاهلي" في العالم أجمع وقد توردت وجنتاه من حماسه لهذا النصر العربي المجيد، وكيف أجبر المؤلف على إعادة كتابته بعد سحبه من الأسواق وتعديله بنشره تحت عنوان "في الأدب الجاهلي"، وصوت عبد الحسين يعلو ويدوي متحمسا مع مواصلته إلقاء إنشائه "الفتحل"، قاطعه الدكتور البصير وقد ثار غضبه وصاح بطالبه الخائن للوطنية العراقية التي كانت تنافس مصر ومثقفها، وقال بصوت متهدج حاول أن يجعله رزينا حليفا: "عبد الحسين؟" أجاب عبد الحسين مزهوا منتظرا كلمات الإطراء من الدكتور الكبير:

- نعم أستاذ!
- يا أثول، قل نعم يا دكتور،
- نعم يا دكتور،
- عبد الحسين، أنت مو شيعي؟
- نعم أستاذ!
- مال العمى، كلتلك كول نعم يا دكتور!

- نعم يا دكتور!
- ولك انت شيعي، أكو أظهر منك؟
- لا والله يا دكتور!
- زين، وهذا الخياط هذا يهودي، أكو أنجس منه؟
- لا والله يا دكتور!
- ولك والله اشكد ما هذا اليهودي نجس والله أنت أنجس منه؟

حاول عبد الحسين مواصلة دفاعه عن نفسه، فأخرسه الدكتور البصير وصاح به:

- ولك مو آني سدّيت هل طهارة (المراحيض) وانت جاي تفتحها مرة لخر! اقعد يا نجس، يا سوطري، جاي يتباهى بظه حسين. ليش هذا لو ما يطلوله وزمروله بجرايد الأهرام والهلال وغيرها وغيرها، منو كان عرفه؟ ليش هذا قاد ثورة مثلي وطرد الإنكليز، أشو لهسا قاعدين الانكليز على صدورهم وساكتين ويقول لك هذا المتفرنج المطربش، "أحنا أوروبيين مو عرب، أصلنا فرعوني وثقافتنا ثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط"، لا خصمت! والله هذا خوش زوج كلام! ما شا الله على هذا الكلام الأعوج، من عابت هاي الجهرة، يالله أكعد ولي! يا غراب البين، يا بومة الخرايب!

كنا نضحك لهذه النكتة التي كان إبراهيم الخياط يرويها لنا بلهجته العراقية الإسلامية المتقنة وحركاته التمثيلية. كان الصهاينة من الطلاب يضحكون بتشفي، "قتحنون وتوتونون على العراق وعلى مثل هايي الإهانات"، فيرد الشيوعيون: "هايي كلها من التعصب الديني، لو كان البصير شيوعي ما كان قال مثل هذا الحكي المهين!".

يهود العراق ذكريات وشجون

الحلقة ١٥

الوالد إبراهيم مير معلم

العراق يفترس أبناءه - ٥

الأربعاء ٢٣ مايو / أيار ٢٠٠٧

ضجر أساتذة قسم اللغة العربية من مضايقات الطلبة العراقيين، وخاصة لأستاذ الأدب العربي الحديث وأصله من حلب، الذي درس المحاماة ولم يتخصص باللغة العربية ولم تكن له تلك الثروة من محفوظات الشعر العربي منذ الجاهلية والى المتنبّي وصفي الدين الحلي والشيبّي والزهاوي والرصافي والسياب ولا يحفظ ألفية ابن مالك في النحو. قدم هذا الأستاذ الجليل شكوى ضد هؤلاء الطلاب واقترح تجنيدهم لخدمة الدولة ليصلوا ويجولوا في الميدان العسكري بدلا من الميدان العلمي. وبعد خدمة عسكرية إلزامية "طيرت نشعت الدراسة" من رؤوس معظمنا، لم يعد إلى مقاعد الجامعة بعدها إلا القليل كان بينهم صديقي دافيد صيمح وأنا، وإن كنا قد غفرنا له مضايقتنا بتندرته على عدم تمييز العراقيين بين "الضاد" و"الطاء" وولعهم باستخدام حرف "قد" في إنشائهم، فلن تغفر له زلته عندما سخر بهتاف يوسف بصري (١٩٥٢/١/٢١) وقد وضعوا حول رقبته أنشوطه المشنقة "فلتعش إسرائيل!"، معلقا عليها: "هل هذه بطولة؟ كان يعلم أنه سيموت وهتف هذا الهتاف ليغيظ العراقيين!". وقد أثار هذا التعليق الذي يعد من "درره الغالية" غضب الشيوعيين وسخطهم أيضا. إذن، لم تكن رباطة جأش صدام حسين على المشنقة بطولة حسب هذا المنطق ولم يكن انهيار أعصاب شقيقه غير أخيه وياسين رمضان رعبا وتخاذلا أمام الموت.

وبعد تجنيد الطلبة من القادمين من العراق ضاع على إسرائيل طابور من العلماء من أصل عراقي. وما زال صديقي فيكتور عوزير "يتحيف" كيف ينس أحد الطلاب العراقيين من الدراسة في الجامعة بالرغم من تفوقه في امتحانات المتريكوليشن والإنترميديت التي تتيح للطلاب الناجحين الالتحاق بجامعة انكلترا في السنة الثانية رأساً، ولكن هذا الخايب فضل فتح مخبزا لأقراص الخبز العراقي وبناء تنور لعمل الكورك والكعك، عملا بالمشروع الاستيطاني اليهودي الذي يمجّد العمل اليدوي بدل التعامل بالربا والتجارة ومضاربات البورصة. وعندما سأله فكتور وهو يراه بشباب العمل وقد علاه غبار الطحين والمتعلق بأهدابه وبشعرات خياشيمه، "ولك حسقيل، أش قتعزي هوني؟ ما إنت عندك شهادة ال"برفيه" من الأليانس والكلوربا من العراق، والمتركوليشن من انكلترا!" أجابه حسقيل الطالب المتفوق في الحساب والجبر والهندسة في مدرسة شماش: "أبدالك فيكتور، غيغ كالا بالقسمي والنصيب، لكن أبدالك قلم الهدولي العمال، أنا لما أقلم على شهاداتي يضحكون عليي، ويقولون غوح ازمط على غيغنا!" دمعت عينا فيكتور وهو يشهد له بحصوله على هذه الشهادات بتفوق والعمال يتعجبون مما يسمعون، ويقولون له " لكن بس أنت مطلع أبغاسك خير وظل حظك طييح؟".

أنهت دراسة الماجستير عندما قدم والدي من العراق. كان الوالد يتعجب من هذا البلد العجيب الذي بيعث طالبا للتخصص باللغة العربية وآدابها، وإلى أين؟ إلى لندن، أم الدنيا وعاصمة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس!، "هسا افتهمنا بيعثون ويحد خطغ يدرس كيميا وفيزيا واقتصاد، بس بالعربي! هسا هوني أشعزون بينو؟". قلت له وقد جرحني منطقته "يابا غوح قلم ليش هذا التبذير، خلي يطلون

السفر مالي! وأنت أش يخصك؟ يعني قابل قطلعا لفلوس السفر والدراسة من جييك؟" (يا أبي، اذهب وسلهم لماذا هذا التبذير، من الأفضل أن يلغى سفري، ما شأنك بهذا هل أنت الذي سيدفع ثمن تذكرة السفر وأقساط الدراسة؟) بقي الوالد يفكر بعقلية التاجر العراقي، وضارب بالأسهم التجارية والبورصة واشترى الأراضي في إسرائيل وكاد يخسر ما بقي لديه من بعض المال الذي ادخره في العراق وهربه إلى لندن، وكان يقول: "والله الهايي الدولة مقدفتهما، رحمة الله على العراق، كِنَّا نعفف أشلون انمشي اموراتنا بيها، لَعَب أيدك شويًا وادهن السبع (السير الجلدي في دواليب الماكينات = كناية عن الرشوة باللهجة العراقية) وكل شين يقعد بمكانو، هون لاكو بغطيل ولا واسطات ولا أكو خاطر الله، وكل شين بالقانون الأسود مالم اللي ما قنفتهمو!" (والله ليس باستطاعتي فهم هذه الدولة! رحمة الله على العراق، كنا نعرف كيف نسير أمورنا، نقدم الرشوة فيعود كل شيء إلى نصابه، هنا لا يوجد رشوة ولا وساطة ولا طلب الرحمة، كل شيء حسب قوانينهم المشنومة التي لا أستطيع فهمها!). (أما اليوم فقد تغيرت الأحوال والعياذ بالله).

حصل الوالد بعد أن تبرع بمبلغ طائل لهذا المستشفى على ورقة تتيح له تلقي كل علاج مجاناً وفي كل الظروف حتى لو كانت نوبة خفر الليل لا تعود إلى مستشفى المفضل. كان يشعر بالحماية والاعتزاز ظنا منه أن الطب الحديث سيحميه من الشيخوخة والهزم، ولكن متى أصلح العطار ما يفسده الزمان. فإذا مرض كان ينزل في أفضل غرفة في المستشفى ويأتي الرئيس المسئول عن المتبرعين لزيارته مع سلة من الفواكه الريانة، ويأخذ بخاطره، وترعاه أجمل الممرضات، فقد علموا بعشقه للجمال، وكان يغضب إذا تمهلوا في فحصه فأواسيه وأقول هناك الكثير من حوادث

الطرق وحالات الطوارئ في البلاد بسبب عدم الاستقرار على الحدود. لم يصب الوالد بالصدمة النفسية التي أصيب بها الكثير من القادمين الجدد من العراق خاصة، بسبب اللغة والعادات والتقاليد وانتقال السلطة في العائلة إلى الأبناء الذين بدؤوا يعملون ويعيلون الوالدين. ومما ساعد على تأقلمه السريع أنه كان يحسن ست لغات من أيام العسلي حين تعلم التركية والفرنسية والإنكليزية والعربية والعبرية وكان عنده المال الكافي ليتيح لكل واحد منا إكمال الدراسة في الخارج، ثم مساعدتنا في شراء سيارة ودار، ولم يكن عالة علينا. كان قوي العزيمة ويحترمه الجميع لذلكه ولاعتزازه بنفسه، كان شديد الثقة بنفسه وبمنطقه وواقعيته حريص على كرامته، لا يؤمن بالخرافات حتى أنه تبرع ببعض أعضائه للتجارب الطبية تؤخذ منه بعد وفاته، وكان يفرض احترام الناس له بقوة شخصيته وعزمه وشكيمته، ولم يكن يأبه بابتسامات الأطباء والموظفين والدلالين من لكنته العراقية حين يتلکم باللغة العبرية ولم يحاول تقليد لهجة الأشكناز، بل بقي محافظا باعتداد على النطق بحروف الباء والراء والعين والقاف والغين كأنها حروف عربية، "ولم لا، فالعبرية كما تعلمون هي لغة سامية وانتم الأوروبيون شوهتموها وقلبتم الحاء خاء والعين إلفا، والطاء تاء، والراء غينا، ما شاء الله تريدون أن أتکلم مثلکم بلسان أعجمي، إن لهجتي هي اللهجة السامية الصحيحة، والعبرية هي توأم للعربية"، فيفحهمم ويعجبون من كلامه. وكان يتمتع بالكلام مع الأطباء والصيدالة والممرضين العرب في هذا المستشفى ويتبرع بالترجمة للمرضى العرب لكي يفهم الأطباء شكواهم. كان يشعر بالسرور عند الجلوس مع العرب الإسرائيليين ويحدثهم عن العراق وعن الحياة هناك وعن الجزيرة في الليالي المقمرة والسمك المزكوف والشبوط والسمك البني والبز، "انتم قتتعجبون من سمك بحيرة طبريا؟ والله بالعراق كل سمكة تطلع حوته، هاي أنهار عندکم هون، لو تشوفون نهر دجلة والفرات وطولم وعرضم كان اتعجبتم". كان يدافع عن العراق ولا يسمح

بنقده، فلا يوجد تمر أحسن من تمرها ولا بطيخ ولا رقي أحسن منه، ولا عنب ولا برتقال ولا نومي حامض ولا تفاح أطعم منها، وكل وردة في العراق بحجم طبق"، حتى كان أصحابه العرب يقولون له، "يعني قول العراق جنة عدن!" فيجيبهم "وليش لا؟" فيقولون له "إذا لماذا غادرت العراق إذا كانت جنة عدن؟" فيطرق برأسه ثم يقول "كانت جنة عدن قبل ما يخربها حزب البعث، كلها إبنيد الله!" فكل شيء في العراق أفضل وناسها أشرف الناس ولهم كرامة وعزة نفس وكرم واريحية، "ماكو مثل العراقيين لكن ليش أحبم!" ثم يتنهد ويقول "يا حيف على هذيكي الايام، يا حيف غاحت، لما كانوا يشوفون أشلون أدبر أموري مليح، يتعجبون الأسلام مني وكانوا يقولون: إبراهيم أفندي يا أبو يعكوب، يا حيف أنت أيهودي، ليش متصير مسلم وتخلصها!". وعند ذلك يتذكر حسقيل الذي بقي في العراق، أسلم وبدل اسمه في وزارة الداخلية الى "حقي" و"استتعد مسلمي وكان يكشخ أنه "رفيجها" وماكل شارب راكب عندها، وكانت ليزمي رباطو ميمشي بلا أمرها". عن لحقي ذات ليلة التمرد وقضاء سهرة ممتعة بالجزرة على ربع عرق وسمك مزكوف وضمون وعنبه وطرشي و"التمنى قلبك واشتهى!"، وبقي إلى بعد منتصف الليل وعاد وهو "منشع وطربان، ويا ليلي ويتلوح ويتطوطح من ربيعة عرق زحلاوي"، لم يستطع العثور على ثقب المفتاح، طرق الباب وظل يحاول إدخال المفتاح في ثقب "الكيلون"، إلى أن عيل صبره وصاح، "يا مرة، دفتحي الباب عاد، ارد أطب، ترى آني تعبان، هاي وينج؟" فُتح الباب قليلا، قليلا، فلما أدخل رأسه أهوت عليه "رفيجته" بعمود الجاون مال البرغل، بضربة قاضية سقط على أثرها مضرجا بدمه، "ولك أخوا الك...مة تعوفني وتروح عند الكحاب مالك، ليش همّا أحلى مني لو "ط...زهّم" أكبر؟ يا خلك أيهودي!" وبعد هذه الضربة القاضية بالرغم من نطقه بالشهادتين وصلاته وصيامه، "طار أمانه من راسه" (طار إيمانه من رأسه)، هرب على إثر تلك "الهبشة" إلى طهران، ومن ثمّ إلى أرض الميعاد، وغير

اسمه فيها إلى اسم يهودي إسرائيلي خالص ("كاشير") وهو "يחزكيل" متناسيا صلاته وصيامه ولاعنا تلك الرفيحة العركاوية المشاكسة المنحوسة.

بقيت رغبة الوالد في بناء مستشفى تداعب خيالي، فساندت مستشفين هما "مسجاب لداخ" للولادة و"شعاري تصيدك" العام وأني لأشعر الآن بأني قمت بما يسره. وبعد أن توفيت الوالدة في مستشفى آخر لم تشمله تبرعات الوالد وتوفي هو في بيت للمسنين بعد الوالدة بستة أسابيع وقد بلغا من العمر عتياً، سن الخامسة والتسعين. لم نخبره بخبر وفاة الوالدة المؤلم رحمة بشيخوخته، فقد أصبحت دموعه تجري لكل خبر مؤثر، لكن جريدة "معرب" كتبت مقالا طويلا عن وفاة أول معلمة يهودية للغة الفرنسية في العراق، رعت أولادها بالرغم من بقاء والدهم في العراق وشجعتهم على مواصلة الدراسة حتى أصبحوا يحملون ألقاب جامعية رفيعة وصاروا يطلقون عليها اسم "أم البروفيسورية"، وأما ابنتها فواحد أصبحت أديبة باللغتين العربية والعبرية والأخرى شاعرة شعبية باللغة العبرية. لم نخبر الوالد بوفاتها، حلقتنا لحانا التي أطلقناها حزنا عليها كي لا نحزنه في أيامه الأخيرة، وعندما رأنا سألنا فجأة : "ويني مومو؟" (أين الوالدة؟)، قلنا له "ما زالت على خير وفي المصححة"، نظر إلينا بريب، وقال: "قلبي يحدثني بوقوع شر لها، إذن هذه هي النهاية؟" أدرنا وجوهنا إلى الناحية الأخرى لكي لا يرى الدموع المتساقطة من عيوننا، وكرر قائلاً "إن قلبي يحدثني بأنها ليس معنا"، لزمنا الصمت ونحن نكتم آلامنا ولم نجبه، وأجهش بالبكاء، بكاء شيخ في الخامسة والتسعين من عمره يرى شمعة العمر تبلغ نهايتها لتخفق الخفقة الأخيرة وتنطفئ إلى الأبد. وبرغم شيخوخته لم ترسم يد السنين أحاديدها على وجهه ولم تزل وجنتاه وصفحات خديه صافية كصفحة شاب في نهاية العقد

الرابع من عمره، كثيف الشعر مع بقايا شعرات سوداء، ولا يحتاج إلى نظارات وفي كامل نشاطه العقلي ويطالع الجرائد يوميا.

جاء سائق سيارة نادي المسنين لنقله للنادي للقيام بشيء من الرياضة، قال له الوالد، أنتظر، عندي هدية لك، وذهب باتجاه الثلاجة، خطأ خطوتين، ثم سقط. نقله السائق إلى المستشفى المفضل لديه، قال طبيب الأشعة، هناك كسر في الحوض، سوف لا يستطيع السير فرجلاه متصالبتان. تلقى الوالد النبأ برباطة جأش كعادته. ونقل إلى مستشفى العجزة. قال لي آخر مرة رأيته فيها بين الأحياء، "أشعر اليوم بآلام في جميع أعضاء جسدي لم أشعر بمثلها في حياتي من قبل، ولكنك إذا أردت الذهاب لأمر مهم كما تقول، فعد بسرعة". ذهبت لتسديد بقية مصاريف دفن الوالدة وعدت بسرعة، ناداني الطبيب وقال، "لا تدخل غرفة والدك إذا كنت لا تقوى على النظر إليه"، فهمت ما قال الطبيب، كنت قد أتيت بابني الذي أطلقنا عليه اسم الوالد ليراه وقلت له، "انتظرنني في غرفة الجلوس". دخلت الغرفة، كان الوالد مسجى على ظهره، قال الممرض، "توفي فجأة قبل قليل، أتنا بالطعام ليأكل، لم يستيقظ، نادينا فلم يجب، حاولنا إعادة النبض إليه بالرجات الكهربائية ولم نفلح، البقية في حياتك!" أغمضت جفون الوالد بأصابع يد تتحدى الموت، وشعرت بأن جذوري العميقة في أرض العراق الخصبة بدأت تموت بموته وبموت الوالدة، رباه، لماذا هذا الحزن الطاغي الذي يعترض قلبي الآن وإن كنت أعلم بأن الموت هو نهاية كل حي، ولكن لماذا الآن وبمثل هذه السرعة ومن دون أن يكون واحد من أولاده وبناته الستة بجانبه يستمع إلى كلماته الأخيرة ويمسك بيده ليشعره بالحنان والحب والعطف وهو في طريقه إلى الأبدية. تعلمنا في مدرسة السعدون النموذجية قاعدة هامة في دروس الصحة "الإنسان حيوان ناطق، يولد طفلا ثم يكبر ويتناسل، ثم يهرم ويموت!". عاش

الوالد حياة مليئة بالعمل والكفاح، يطلب من نفسه أكثر مما يطلب من غيره، صارما لا يخشى الصعاب ولا يخشى في الحق لومة لائم: "أقول الصاغ (الحق) ولو على قتلي"، ولم يشعر بالوحدة أبدا. كان له أبناء ناجحون في الحياة، لم يكن محتاجا إلى أحد بل كان يساعد الآخرين وتمتع بوعيه وبالحياة إلى آخر لحظة، فكان يغازل الممرضات الجميلات ويداعبهن إذ لم يضمن قلبه عشق الجمال، ويمزح مع الجميع، ولم يذكر العراق بسوء وإن صادرت أمواله وأراضيه. يذكر أصدقاءه والذين أعانوه في أيام وحدته ومحنته في العراق بالخير، ويترنم بأغانيها الشعبية وخاصة بأغاني سليمة مراد الشجيرة "قلبك صخر جلمود ما حن عليا" وهو والوالدة جالسين يستمعان إلى برنامج "من الغناء العراقي" سلوتهما في شيخوختهما، فيتأوهان ويتذكران أيام عزّ بغداد ويتساءلان، هل لتلك الأيام الخوالي السعيدة من عودة يا رب؟ وكان يقول لي في آخر أيامه، "لقد شبت من الحياة، فلماذا هذا العذاب وأنا مقعد، رباه أسرع ساعة احتمائي بكفك وتحت جناح رحمتك!". كنا قبل يوم نقرأ المزامير معا "الرب راعي فلا يعوزني شيء، في مراغ خضر يربضني، ومياه عذبة يوردني، حتى وإن سرت في وادي الظلمات (ظل الموت) لا أخشى سوءاً لأنك معي!". و لكنني ما زلت آسفا واشعر بالإثم لأنني سمحت لنفسني بتركه وحيدا في ساعة لم أدرك بأنها ساعته الأخيرة، ولكنها الأقدار! و"لا إله إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم"، وسبحان الحي الذي لا يهرم ولا يموت.

يهود العراق. ذكريات وشجون

(الحلقة ١٦)

عندما قبلتني الست فاطمة

الثلاثاء ١١ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٧

عرف العراق مناحات كثيرة في تاريخه الطويل، أولها مناحة الحسين بن علي بن أبي طالب "أمير شباب الجنة" و"سيد الشهداء"، وهي مناحة لا تزال تعاد كل عام لتذكر البشرية بالظلم والحيث الواقع على الأبرياء في كل عصر وجيل، وكتاب "مقاتل الطالبين" لأبي الفرج الإصهفاني مليء بتراجم شهداء أحفاد جعفر بن أبي طالب الذين استشهدوا في صراعهم السياسي ضد العباسيين. كنا نذهب بصورة خاصة إلى محلة حنون صغير الواقعة على شارع غازي لنشاهد من راء الستار مواكب العزاء في عاشوراء وقد أخذنا الخشوع والأسى لمراسم الحزن العميق الذي يمتد في أغوار التاريخ كالجرح النازف أبد الدهر. وقد ذكر لي صديقي أستاذ الكيمياء في مدرسة شماش ودار المعلمين العالية في بغداد الدكتور نسيم عزرا نسيم، واصله من الديوانية، كيف وجد يهودي نفسه فجأة في وسط موكب عاشوراء. تعرف عليه رجل من المشاركين وصاح به "ولك أيهودي أشدتسوي هنا، تريد اتموت"، فجاء أحد معارفه وصاح: "ويعني شنو إذا كان يهودي؟ بلكت حنّ قلبه على الحسين وجا يبجي عليه ويانا!" وهكذا أنقذه صديقه من خطر محقق، فالرجال لا يحبون أن يشاهد الغرباء أغوار عواطفهم طافحة على وجوههم وجزعهم ودموعهم في ساعات حزنهم العميق. وقد اصطحبني صديقي في مدرسة السعدون، صادق بن محمد مهدي كبة ذات يوم إلى دارهم الواسعة قرب الشط (شاطئ دجلة) في الكرادة لأشاهد ترتيبات "عزا

الحسين" قبل قدوم الرجال وشاهدت صحن الدار مفروشا بالسجاجيد والدواشك والمخدات، وقرب كل مخدة نسخة من قصة "التعزية" ومروحة من الخوص إلى جانبه. ولا أزال اذكر كيف كاد يفتك أصحاب مخيز يهودي في البتاويين برجل مسن حاول الحصول على أقراص الخبز متجاوزا دوره بقوله على سبيل المزاح للخباز "يا الله انطيني الخبز، آني مستعجل لازم أروح، عندي "طبك" مال عاشورا!" لأنه مس بمقدسات الشيعة وبمشاعرهم التي يحترمونها لأنها تذكرهم بمناحة اليهود في التاسع من كل شهر آب في ذكرى خراب "الهيكل" في بيت المقدس.

والحزن يوحد العراقيين وينسيهم الضغائن والأحقاد. أدركت ذلك في سن مبكرة في محلة البتاويين حينما كانت ابنة أخت باهيزا الزوجة الثانية لأبي علوان، الذي كان يعمل بستنجيا عندنا، زعلانة مع أم علوان الزوجة الأولى ولم تبادلها الكلام شهورا عديدة. ولكنها عندما مرّت ذات يوم قرب كوخ أبي علوان وسمعت صراخا وعويلا يتصاعدان من كوخ ضرة أختها وشاهدت حريمه وبنات الحمولة ونسوة المنطقة من الفلاحات قد انتظمن في دائرة كبيرة في وسط بستان مامو وقد حررن شعورهن الطويلة من المناديل ومزقن جيوبهن (طوق قميصهن) وكشفن عن صدورهن وأخذن يلطمن وهن يرددن "أحو، أحو، أحو" في رقصة مناحة مخيفة بشياهن الصوفية السوداء وهن يرسلن شعورهن الطويلة تتطاير في الهواء وقد عفرن وجوهن بالتراب ويصرخن صراخا يقطع نياط القلوب "يا بووووي، يابوووي"، ويلطمن صدورهن على إيقاع رهيب "أحو، أحو، أحو" ثم يرددن مرة أخرى مع العداذة:

"إحو، يا حَبَابة يا يُمَا حجلج الغالي لأضمّه إحو يا حَبَابة يا يُمَا"

نسيَتْ الخِصام والتحقّت بدائرة النائحات حسب التقاليد التي ورثتها المرأة العراقية منذ أيام سومر وأكد وبابل. كانت تسير وحيدة قرب الكوخ ولم تكن تدري ماذا

حدث. وعندما سمعت العويل والنواح وضعت الدلوين على الأرض بحذر واشربأت بعنقها كاللبوة التي استشعرت رائحة خطر متربص، فلما سمعت اسم المتوفاة تناست العداء بينها وبين أم علوان وانضمت إلى النائحات والعدادات اللواتي يعددن مناقب الفقيدة ليسعدن النساء على ذرف الدمع المردار وهي تولول بصوت حزين "يا بوووي، يا بوووي يا حبابة يا يما". وقد أصبتُ على إثر مشاهدتي مناحة النساء هذه بأرق طويل خلال شهر عديده.

شاء القدر أن أشاهد مناحة أخرى يقوم بها الرجال، وهي مناحة مصرع الملك غازي (١٩٣٩)، وقد وحدت هذه الكارثة أفراد الشعب العراقي أيضا في حزنهم الغامر، واشتركوا جميعا بدون فارق ديني أو مذهبي في مسيرات العزاء. وبعد الأربعين بأسابيع عديدة أقبلت علينا الست فاطمة مدرّسة التاريخ والطبيعة في مدرسة السعدون الابتدائية النموذجية وهي تبتسم لأول مرة منذ مصرع الملك الشاب الوسيم وأخبرتنا نحن تلامذة السنة الثانية بأن على جميع طلاب المدرسة المشاركة غدا باحتفال المدارس العراقية بعيد ميلاد الملك المفدى فيصل الثاني في برك السعدون (المنتزه الواسع الذي أقامته أمانة العاصمة تقليدا لهايد برك في لندن) والذي يقع قرب مدرستنا. سرّت الفرحة في قلوبنا بعد الحزن الغامر الذي عمنا منذ أن صعقنا نبأ مصرع الملك غازي المفاجئ. كانت مواكب العزاء تشمل كل طبقات الشعب العراقي وفنائه. وفي مدرستنا قاد موكبنا طلاب أكبر سنا قدموا من مدارس أخرى. كنا نخرج من المدرسة وفي مقدمتنا عبد الرحمن الجابي وأخوه طالب، وينضم إلينا كل من إياد وقيس ابنا الدكتور علي غالب وفيصل ابن رشيد عالي الكيلاني وابنا فاضل الجمالي وأبناء عائلة الأزري وصادق ابن محمد مهدي كبة ولؤي القاضي وخيري وغيرهم من أبناء كبار رجالات العراق الذين درسوا معي في هذه المدرسة النموذجية، وكنا نخرج

من المدرسة ونحن نردد وراء الطلاب الكبار الهتافات ونلطم على صدورنا على وقع
الشعارات، متعمدين أن تصيح حمراء من اللطم لكي نفاخر بمدى حزننا:

الله أكبر يا عرب غازي انفكد من داره واهتزت أركان السما من صدمة السيارة
ثم نتقل إلى الهتاف التالي الذي آلمنا جميعا أكثر من غيره:

مات غازي واشتفتْ به العدا فيصل الثاني الله يساعده

فهذا البيت خاصة كان يذكرنا بيتم المليك الطفل وبمصرع والده وقد اتهم الشعب
العراقي أعداء الملك غازي الشاب الحكومة البريطانية خاصة بتدبير مصرعه، ثم
أدرنا فيما بعد أن "العدا" هم الأنكليز والآثوريون الذين نكل بهم الملك غازي أثناء
غياب والده في أوربا بسبب مطالباهم القومية لكي يظهر بمظهر الملك الشاب الحازم
المتحمس وليثبت للشعب العراقي وللشعوب العربية رجولته وبطولته، حتى يقال أن
جامجم القتلى علقت على أقواس النصر التي أقامها المحتفلون (ثم جاء حزب البعث
فيما بعد وادعى إن سبب مصرعه كانت أمور أخرى عاطفية لا يصدقها العقل).

كان الملك الطفل اليتيم فيصل الثاني محور عطفنا وشفقتنا نحن الصغار، لأنه تيم
في سن تقارب سننا الذي نخشى فيه من فراق الوالدين، لذلك غمرتنا الفرحة العارمة
عندما أخبرتنا الست فاطمة باحتفال العراق بعيد ميلاد المليك المفدى في الغد في
بارك السعدون وأن على جميع الطلاب والطالبات المشاركة في الاحتفال. فرحنا لأننا
وجدناها فرصة سانحة لتفريح كرنا بعد الحزن الذي عمّ العراق خلال أسابيع طويلة.

صادف يوم الاحتفال أحد الأعياد اليهودية، وقال لي صديقي زيد ابن وزير المعارف
هامساً: "نيّالكم، أنتو الله يحبكم وانطاكم هوايا (الكثير) أعياد". وهرعت مع أطفال
شارعنا قرب صلاة (كلمة أرامية، بمعنى كنيس) مثير طويق في البتاويين إلى المشاركة

في الاحتفال. كان بارك السعدون القريب من دارنا مزينا بالأعلام العراقية الملكية المربعة الألوان حسبما ذكرها صفي الدين الحلّي في حماسته التي تعدد خصال العرب السامية، والموسيقى تصدح وفرق الرقص الشعبي تقوم بعروضها والخطباء يخطبون بحماس معزين العائلة المالكة والشعب العراقي على فقيده العراق ومتفانين بالمليك الطفل، وكان المغنون والمحتفلون منتشرين في كل مكان من هذا البارك الجديد الذي يضم مساحات واسعة من بساط "الثيل" (العشب) الأخضر اللينع، والزهور والنباتات الغريبة الألوان والأشكال رسم البستانيون بواسطتها عبارات الترحيب: "صباح الخير" و"اهلا وسهلا"، إلى جانب الأشجار المشذبة على شكل حيوانات مختلفة. وكان في وسط البارك عمود منتصب كالصاري، طويل أملس التف حوله أساتذة وطلاب من مدارس مختلفة وتدلّى من رأس العمود حبل طويل أمسك بطرفه أحد الأساتذة أما الطرف الثاني فكان يمرّ على بكرة وهو مربوط إلى إطار حديدي علقت عليه أكياس السكاكر و"الحامض حلو" من مصنوعات أوروبا وهي مغلّفة بالورق الشفاف الملون البراق. أقبل بعض الطلاب والطالبات يجربون حظهم ويحاولون تسلق العمود. كان مدير مدرسة "التفويض" هو المسئول عن هذه اللعبة، وكان يقرب الأكياس من رأس الطالبات حتى قبل أن يتسلقن العمود ليتمكنهن من نزع الأكياس بسهولة، أما إذا تسلق أحد الطلاب فكان يقرب الأكياس من رأسه وإذا مدّ يده أسرع المدير إلى سحب الأكياس بسرعة إلى الأعلى مسافة قصيرة من رأسه المتسلق ليوصل محاولاته. استهزأت بطريقة الطلاب في التسلق فقد كنت مع إياد علي غالب من هواة تسلق الأشجار والأعمدة في حديقة بيته الواسعة. تقدّمتُ إلى المدير وقلت له بعد أن أخفق بعض الطلبة في التسلق: "أريد أصعد!". نظر إليّ المدير باستخفاف لصغر سني وقال لي بتحدٍ: "يلّلا اصعد، دنشوف شطارتك!". فتحمس إخوتي وأصدقائي وصاروا يصيحون: "أي سامي اصعد! أبدالك اصعد، لا

تخاف!". كشف هذا التشجيع عن هويتي، وما أن وضعت يديّ على العمود حتى همس أحد الأساتذة للمدير: "أستاذ! دير بالك ترا هذا حسيقل!". وما أن سمع المدير كلمة "حسيقل" حتى اكفهر وجهه وكأن أفعى نهشته، وسحب الحبل بسرعة إليه وإذا بالأكياس الملونة تحلق طائرة نحو السماء بسرعة مذهلة. ندت من الطلاب والمتفرجين صيحات دهشة واستنكار، تشوبها ضحكات تشفي واستهزاء، وابتسم المدير ابتسامة صفراء، فخورا بفعلته المثبطة للعزيمة، كأنه يقول: "يللا اصعد! هسّا أنشوف حسيقل شيسوي!". أغضبني هذا التحدي السافر وزادني إصرارا على مواصلة الصعود رغم الارتفاع الشاهق للعمود ورغم المسافة الشاسعة بيني وبين الأكياس اللامعة التي بدت كأنها تشارك المدير بسمته الساخرة. تعالت أصوات الجموع المحتشدة وأنا أوصل التسلق بإصرار "إي! ولك عفيا، أصعد بعد يا سبع، اصعد ... أصعد ...!!". بلغت منتصف العمود، وتوقفت عندما بدأ العمود يترنح يمنة ويسرة، وندت صيحة خيبة أمل من المتفرجين، ثم ساد صمت عميق. قلت للمدير: "العمود صار يميل، أخاف يوكع". بادر ثلاثة من المعلمين إلى الإمساك بالعمود ودعمه، وقالوا لي: "لا تخاف! إحنا لازمينّا". وعندما تأكدت من ثباته واصلت التسلق بسرعة وتعالت الأصوات المحرّضة مرة أخرى بحماس أشدّ: "إي عفيا سبع، إصعد، إصعد..."، وانضمّ الجميع كجوقة موسيقية تردد: "ولك على الأصفر... ولك على الأحمر... ولك على الأخضر...!!" وأنا أوصل الصعود وبدت الأكياس الصفراء والحمراء والخضراء والزرّقاء هذه المرة ضاحكة متهلّلة لاقترابي منها. وحين بلغت القمة ولامست الأكياس شعر رأسي توقفتُ لأنتقط أنفاسي. أخذ كل واحد من المتفرجين المتحمسين يطالب بإنزال الكيس ذي اللون المفضل لديه. وبيطء رفعت يدي اليمنى نحو الأكياس وتعالت الأصوات مرة أخرى مشجعة ومرددة: "على الأحمر ... على الأصفر... على ... على..."، أمسكت فجأة بالكيس الأحمر الذي

شابه وجه المدير الذي لوحته الشمس بغضب وقطعت الخيط المعلق به... تعالت أصوات الاستحسان من الذين فضلوا الكيس الأحمر، وتعالى التصفيق والهتاف من كل جانب: "والله بطل... والله سيع... عفيا بالسبع". وفجأة، قربت الكيس من أسناني بغضب بالغ ومزقته وألقيت بمحتوياته على رأس المدير والمعلمين وانزلت بسرعة إلى الأرض. كان بعض المعلمين يلتقط السكاكر المغلفة بورق شفاف لامع ويجمعها في كفيه ثم يدسها في جيوبه... وربّت أحدهم على خدي قائلاً بإعجاب: "عفيا بالسبع... والله بطل...". انقض عليّ مدير مدرسة "التفويض" بغضب وسألني بتحدٍ: "ولك ليش شكيت الجيس؟" (ويلك، لماذا مزقت الكيس؟) فأجبت بفخر وكبرياء وشماتة: "آني ما طلعت على العمود خاطر الجيس، آني طلعت على شرف المدرسة!!!". بهت المدير من جوابي المفحم وقال لرفاقه: "أشو هذا طلع أيهودي ابن أيهودي". أحاط بي الأصدقاء طالين حصتهم وأتعاب تشجيعهم وتصفيقهم... وزّعت السكاكر عليهم وهم يهللون لهذا النصر لمدرستهم، وعافت نفسي من تناول واحدة منها لأشاركهم بفرحة بالنصر. سار الأقارب والأصدقاء محيطين بي بفخر واعتزاز وهم يقولون لمعارفنا الذين يمرون بنا في الطريق إلى دارنا: "سامي صعد على العمود وشقو الكيس وأغمانو على غاس المدير" (سامي تسلق العمود ومزّق الكيس ورماه على رأس المدير). ولما سمع والدي بالقصة قال والقلق باد على وجهه: "كل المعلمين ساغوا نازيين، الله الستار!" (كل المدرسين أصبحوا نازيين، والعياذ بالله). فقالت والدتي: "أبيل وأغاماد على هيكد مدير! قيتغالب ويا ولد يطلع مقد ابن أنبو!" (الويل والثبور لمثل هذا المدير، يتنافس مع طفل في سن حفيده). "فردّ عليها الوالد: "مقد تفتهمين! قيغيد أيقلو أننا ما عراقي، ما منّا، وإنتي قتحفين على سامي! ليش سامي يتعبًا بالجيب؟!" (ألا تفهمين! يريد أن يقول له أنت لست عراقياً، لست منّا. وأنت تخشين على سامي! هل هو ممن لا يعبأ به؟".

دخلت المدرسة في اليوم التالي وكان شيئاً لم يحدث البارحة. فإذا بالطالبة بثينة الكيلاني تقول للست فاطمة: "ست فاطمة، ست فاطمة! البارحة سامي طلع على العمود وشك الجيش باسنانه، ولما سأله المدير، ليش؟ كَلّه: "آني ما اصعدت على مود الجيش والحامض حلو، آني اصعدت على شرف مدرسة السعدون !!!".

ابتسمت الست فاطمة ابتسامة عرضة ولمع السن الذهبي بين شفثيها بريق خلاب، وربّتت على رأسي ثم قبلتني من خدي وقالت لي بفخر واعتزاز: "عفيا سامي! والله أنت سيع وراح يصير براسك خير، عندك مستقبل!". عند ذاك فقط أدركت بأني قمت بعمل يستحقّ الإعجاب، وإلا لما قبلتني مدرستي المفضلة الجميلة.

وفي عام ١٩٩٩ عندما قرأ عريف حفل توزيع جائزة إسرائيل قرار لجنة التحكيم التي رشحتني لنيل الجائزة عن أبحاثي في الأدب العربي ودعاني إلى منصة الرئاسة حيث وقف على أقدامهم رئيس الدولة آنذاك السيد عيزر وايزمان، ورئيس الحكومة السيد بينامين نتياهو ووزير التربية والتعليم السيد أسحق ليفي، ورئيس العاصمة آنذاك السيد إيهود أولمرت، وغيرهم من كبار رجالات الدولة، اعترضت طريقي إلى المنصة الست فاطمة وقبلتني مرة أخرى وقالت لي: "سامي! آني ما كلتلك أنت راح يصير براسك خير؟!". قلت لها: "ولله تمام، لكن بالله كوليلي صدك من سِمع الرئيس صدام حسين انو يهود العراق تقدموا هنا وصار منهم رئيس أركان الجيش ورئيس الكنيست ووزراء وأساتذة جامعات وأطباء وعلماء وكتاب وشعراء مشهورين، كال: وليش لا! مو هاي هيّ العبقرية العراقية؟"، ضحكت الست فاطمة وأجابت: والله هيح يَكولون، لكن يَكولون همين (أيضاً): من راحوا اليهود من العراق، راح الخير وبّاهم؟"، قلت لها مواسيا: "كل ما يقوم به يهود العراق وما يقدمونه من خير إلى إسرائيل ينسب إلى العراقيين، فحن هنا ما زلنا نسمّي عراقيين، شايفه شلون؟ إسمعي!!"

وواصل العريف: "ولد البروفيسور ... في العراق ... ودرس في مدارس العراق ... ونشر أشعاره في جرائد العراق ... وقدم إلى البلاد عام ١٩٥١ مع الهجرة الجماهيرية من العراق ... ونشر المقالات والكتب العديدة عن الأدب العربي وعن يهود العراق ... عراق ... عراق ... عراق ... " أطل السياب بوجهه النحيل الحزين وقال: "من الأفضل أن يقرؤوا قصيدتي "غريب على الخليج" فهي تعبر خير تعبير عن موقفكم يا يهود العراق، وذلك عندما قلت:

الريح تصرخ بي: عراق!

والموج يعول بي: عراق! عراق، ليس سوى عراق!

والبحر أوسع ما يكون، وأنت أبعد ما تكون

"والموت" دونك يا عراق..."

فانطلق حمزة الحسن من عزلته في "أورستا" النرويج وقال لي: "أرانا الآن يا شأول، غرقنا في وحل واحد. لكنك أفضل حالا، أنت في وطن وأنا في منفى. هل تقبل بهذه المقايضة؟". قلت لحمزة يا شفاق: "كل واحد منا يؤمن بكتبه السماوية، فمتى نؤمن بالإخاء الإنساني أيضا!".

وعند مصافحتي لرؤساء الدولة المهنيين نظرت إلى وجوههم لأعرف هل سمعوا حواريا مع "الأعداء"؟ وهل يعلمون سبب نظراتي الساهمة؟؟؟

قالت لي الأدبية سميرة المانع بعد أن انتهى الحفل: "نحن المسلمين العراقيين، سوف لا نعود إلى العراق إلا بعد أن يعود إليها اليهود لنرى كيف ستعاملهم الحكومة

العراقية!". أجبته: "أما نحن يهود العراق، فما زلنا أكثر من خمسة وخمسين عاما نتمنى أن تهتم الحكومات العراقية بالشعب العراقي المسكين وأن يسود السلام والإخاء بين أفراد الشعب العراقي وبين العراق وجاراتها، قائلين: "لعل السلام يسود قريبا ونزور العراق مرة واحدة في العمر لنتذكر أيام الطفولة الرائعة، فشربة ماء من أنهارها العذبة قد تعيد لنا شبابنا الراحل!". دمعتُ عينا سميرة وهي تودعني واختفت معها الجموع المحتفية وهي تقول: "تري! هل ستجود الأيام وتحقق الأحلام؟!!".

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (١٧)

في حماية عقيد الركن الطيار منير حلمي (١)

الأربعاء ٢٧ يونيو / حزيران ٢٠٠٧

للشباب العراقي تراث مجيد في البحث عن الحب منذ عشتار التي جاءت سيرتها الغرامية في ملحمة كلكامش السومرية. وقد صدّ كلكامش تحرشات عشتار به بعد أن أهلكت عشاقها عندما كانت السلطة بيد المرأة، إلى أن جاءت الأديان السماوية وجعلت الرجال قوامون على النساء ووضعت السلطة بيد الرجل، ثم خيب الله اللات والعزى ومناة الثالثة لأن كيد النساء عظيم وحرم وأد البنات وحمى السائل واليتيم والأرامل والمساكين وابن السبيل وكسف نوره ظلام الجاهلية، وأمر المؤمنين والمؤمنات أن يعضوا من أبصارهم، وهكذا حرم على الشباب التحرش بالنساء. والعراقيون يرمون اللباب ويلتقطون قشور الحضارة الغربية. يبيعون النفط ويشترون اللعب التي تباع لهم أورا بأبهظ الأثمان، وبدلا من الإقتداء باليابان التي ضربها الأمريكان بقنبلتين ذريتين في هيروشيما وناجاساكي ومع ذلك فقد نافسوا الغرب في العلوم والتكنولوجيا ولم يشغلهم الحقد والثأر عن تقدمهم العلمي وحافظوا على تراثهم حتى أصبحوا مضرب المثل في الاجتهاد والتقدم. كان الرجال في صالونات العائلة الاجتماعية وكعاداتها، يعجبون لتقاليد الثأر والانتقام عند البدو، هذه التقاليد التي أراقت الدماء وألحقت الدمار. وكان البعض من طويلي الباع في "التفسيرات العلمية"، يقولون بثقة بالغة: "السبب يا جماعة الخير، هو أن البدو يأكلون لحم الجمل ويشربون لبن الناقة، وانتم تعلمون جيدا أن الجمل حقود وينتقم ممن آذاه

حتى بعد أربعين عاما، وهكذا انتقلت هذه الغريزة إلى البدو. ألا ترون كيف أن اليهود لا يأكلون لحم الجمل لأنه محرم عليهم فليس للجمل أظلاف بل أظافر، ويأكلون الحيوانات المجتررة الوديعية ذات الأظلاف، ولذلك تميزوا بالوداعة ويفترسهم كل معتد شرس". فكان الجماعة في مثل هذه "الكعدات"، يهزون رؤوسهم علامة على الموافقة والإعجاب بذكاء وعبقرية هذا الراوي النبیه.

وفي العراق حقد وثأر وجوع دائم، ليس للرجيف فحسب بل للحب أيضا، وأول ما يقوم به الشباب حين يصلون إلى أوروبا، حلمهم الكبير، هو البحث عن الحب. والتحرش بالفتيات والنساء وملاحقتهن هي رياضة شعبية عراقية معروفة ومشهورة في العراق من قديم الزمان، وذلك بالرغم من خطورتها. فقد تنتهي هذه الرياضة المحببة إلى قلوب الشباب العراقي المحروم والمحكوم عليه بالعزل الاجتماعي بين الجنسين، بأن تخلع الفتاة التي عيل صبرها وضائق ذرعا بالملاحقات المزعجة والهمسات الجنسية الفاضحة، بأن تخلع قندرتها أو بابوجها وتضرب بها ذلك الهيمن المتدله بها و"تهدله أمام الريح والجاي" أو ينبري إلى مساعدتها والذود عن شرفها ابن حلال أريحي ما زالت تجري في عروقه دماء الفتوة منذ أن قيلت في الإسلام جملة "لا فتى إلا علي"، ليتعلم ذلك المتطفل درسا في الأخلاق ورعاية الذمار والكف عن الهمس و"البشيشة". وممن كن يجدن ضرب المعاكسين لهن بالقنطرة بنات خالي حاييم الجميلات اللواتي كن يسرن سافرات باعتداد وبرأس مرفوع يتحدن كل من تسول له نفسه ملاحقتهن أو معاكستهن بغزل مبتدل، ولاسيما بلانش وأفلين أختي موريس ابن خالي حاييم سفير إسرائيل سابقا، معتمدتين على مكانة والدهما أمر مركز شرطة العبخانة ومدير محطات عديدة للقطار تحرسها ثلة من أفراد الشرطة المتمرسين بالصفعات والراجديات والجلاليق.

و شاء الحظ أن أكون شاهد عيان على طريقة تأديب مثل هؤلاء المتحرشين والملاحقين للفتيات في عكدنا بالبتاوين. والجندي الذي "حاده حظه" الى "عكدنا" للاحتفال بتربيته إلى رتبة نائب عريف "أبو شحطين" عن طريق ملاحقة الفتيات، سار بخطى ثابتة منفوشا كالديك الرومي وقد باعد بين ذراعيه كالمصارع الذي يدخل حلبة النزال بثقة بالغة وهو ينظر بين الحين والآخر إلى رتبته الجديدة التي زادت من كبريائه وجعلت ثقته بنفسه تزغرد لرتبته العسكرية الجديدة السامية. كان يمني النفس بمغامرة عارمة مع بنات حينا. ففي وعيه الباطني الذي يسري في دمه منذ أجيال طويلة يقبع مثل "يعتقه كالعقيدة": " المره إما تهز بطوي...ها، ما هيش مره"، فإذا بالشيطان يقبض له خادمنا نعيمة ذات "جقلة الحسن" الساحرة التي "سبت أهل الهوى" ولا عجب أنها لم تنسب، فهي في حماية سكين أبي علوان التي يلمع نصلها بالموت الزؤام في منتصف عكدنا وبحماية بريق لوحة جارنا "عقيد الركن الطيار منير حلمي" في نهاية العكد باتجاه بارك السعدون، وهو البريق الذي كان يقدح شررا أحمر مخيفا كبريق عيني أسد هصور يحمي عرينه ويشل حركة كل من تسول له نفسه المرور في شارعنا تدفعه رغبة عارمة في أن يتحرش بنساء الحي على أمل أن تغوص أصابعه الجائعة في عجيزة رجاجة هزازة مغناجة تطفئ لهيب الشوق المستعر، ولم يعلم هذا الذي "حاده حظه الأعوج" إلى المرور ذلك المساء أمام لوحة "عقيد الركن" برعاية والده أبو منير الذي يرى هو وابنه أن شرف نساء وبنات عكدنا هو شرفهما وعرضهما. فالشارع بطوله وعرضه تحت حمايتهما والويل لمن يتجاسر على المس بالشرف الرفيع وإلحاق الأذى به، فهناك من يذود عن الحيض ومستعد لإراقة دماء المعتدين على جوانبه. فما أن رأى ذلك الجندي خادمنا "نعيمة" تسير أمامه وهي تتهادى كالبطة "المتفحلجة" حتى شهق وهمس بصوت متهدج: " أويلي يابا! هذا اشجان ياكل؟" سمعه الرجل الواقف أمام الدار التي كتب على لوحها النحاسية البراقة رتبة

"عقيد الركن" بجمامته الناصعة البياض والتي تختلف عن بيجامات اليهود المقلمة بخطوط حمراء وخضراء تيمنا بقميص سيدنا يوسف بن يعقوب الذي اتهم الذئب زورا وبهتاناً بأنه يحمل وزر دمه. كان الضابط المتقاعد أبو منير واقفاً أمام داره وبيده "بوري الماي" يسقي شجيرات الرازي والشبوي والجعفري وبرش الرحبة أمام داره ليفثأ حرارة الهواء الذي ألهبته شمس الظهيرة المحرقة، ولكن جندينا "الذي وهدهنه الشيطان" بقي يواصل غزله السمج ويهمس لها بكل أغنيات الغرام المعروف في العراق، إذ لم يعد يرى سوى ذلك الجمال الآسر وهمس بفرح كمن عثر على ضالته: "متكلي يا حلو منين الله جابك / خزّن جرح قلبي من عذابك". ثم عبر عن إعجابه بما يرى وهو يتمتع ناظريه بمقاييس الجمال التي سحرتة: "إي، ما شا لله! عفيا ظهر ثلثينك طي..."، فإذا بصوت كصوت ضابط آمر، يناديه ويجعله يفيق سريعاً من أحلامه الشهبانية: "يا جندي يا ابو البسطال، تعال جاي!" سمع في هذا الصوت الأمرنة فولاذية لا يحسنها سوى ضابط متمرس في الانضباط العسكري ذكره بالأوامر التي سمعها من الضباط أثناء تدريباته في معسكر الوشاش. التفت نحو مصدر الصوت فلم يجد سوى ذلك الرجل الذي ظنه يهودياً لا يؤبه به، فكرر الرجل بنفس اللهجة الأمرة "كلتلك تعال جاي!". تقدم الجندي بحذر وهو يقول "شكو عمي؟"، فإذا بالرجل الذي ظنه مسالماً يرفع كفه الجبارة ويهوي به على صدغه بصفعة مدوية باطن كفه بحيث جعلت أذنه تطن بدوي مزعج ورأى نجوم الليل تتطاير أمام عينيه في وضح النهار، ثم أردفها بصفعة أخرى بظاهر كفه كاد الخاتم الذهبي الثقيل في بنصره أن يكسر أسنانه. واصل أبو منير الضابط صفعاته:

- ابن الكلب! انت مشايف آني ضابط، شلون ما تضرب لي تحية عسكرية؟"

- عمي، الله يخليك، العفو! بس اشمدريني أنت ضابط بهدومك هاي وبلا بدلة؟

- والله هسه لأعبيك بالشمدربني مال أمك! زين مدتشوف هاي اللوحة المكتوب عليها "عقيد الركن الطيار منير حلمي؟" ليش انت أعمي؟ اشعالك آني بيع ركي لو بيع باجلا، ما تعرف بس الضباط يعلكولهم لوحة باسمهم". وواصل أبو منير الضابط صفعاته، فصاح الجندي وهو يبكي ويحمي خديه بيديه:

- سيدي! يا حضرة الزابط، العفو! والله آني ما أعرف أقرأ!

- لكن ليش طالع اتسررس وتتحارش بنات الناس بدل ما تدرس، يالله روح ولي من هنا!

- عمي، غير هاي أيهودية! ليش هي مسلمة؟

- ابن الكلب! تكول أيهودية، وإذا أيهودية؟ يعني بنات الناس سريافة مال أبوك لو مال الخلفك؟ ولك هذوله كلهم ال بالعكد هنا بحمايتي وبذمتي، كلهم شرفي!! وانها عليه مرة أخرى صفعاً وركلاً، فلم يجد هذا الخايب بُداً من الهرب لاعنا الشيطان الذي وسوس له القيام "بفره احتفالية" في البتاوين اليهودية التي يحميها كبار الضباط المسلمين، بحثا عن "هزاز رجراج مغناج" يروي به ظمأ أصابعه العطشى، ولم يكن يدري بما كان يخبئه له القدر. ومنذ تلك "الهبشة" الرائعة ما زلنا إلى اليوم نشكك فيما إذا كانت "ماطلية" أو "سيحينة" (سكين) أبو علوان ذات النصل الذي ينذر بالموت الزؤام هي التي حمتنا في الفرهود، أم حرمة اللوحة النحاسية البراقة التي تشع بهالة من الردع العسكري وهي تلمع بأشعة مهددة بالويل والثبور لكل من يتجاسر على المرور في شارعنا على ضوء المصباح الذي بقي يومين وليلتين في الفاتح من حزيران يومي الفرهود يضئ لوحة "عقيد الركن"، ينير بها حلقة تلك الليالي السود، أيام مذبحه الفرهود، حين أعطى جيش الرحمن، فرصة نادرة في تاريخ العراق لجيش

الشیطان، لیمرغ سمعة الشرطة والجيش والرعا والانكلیز الجنتلمانية المتحضرین،
فی معمعة كان الجمیع یرددون فیها "هوسات" المعدان "من ورا السدة":

إشحلو الفرهود لو یعود یومیة، یا یُما ویا یابا

ولا بدّ أن "الهبشة التي أكلها" ذلك الجندي المنحوس فی عكدنا والتي سرت بذكرها
الركبان فی جمیع معسكرات بغداد و بین الجنود الساکنین وراء السدة وضواحيهما
هی التي فعلت فعلها الساحر وأبعدت الغوغاء و"المفرهدين" عن شارعنا.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (١٨)

في حماية عقيد الركن الطيار منير حلمي (٢)

الأثنين ٢ يوليو / تموز ٢٠٠٧

وبعد الفرهود انطفأ المصباح الذي كان يضيء لوحة العقيد، وأخذت طوابير المفزهدين والجرحى والأرامل والأيتام الذين انطفأت في عيونهم أنوار فرحة الحياة، متجنبين لوحة العقيد فلا تطرق بابه، تمر كلمي بانكسار تذرف دموع الذل وتأبى المغفرة، تقف أمام أبواب دورنا لنغيثها بالثياب والمفروشات والأثاث وأواني الطبخ والأدوات المنزلية والنقود، "أبدالكم فرهدونا وما فضلوا شين، أسود عليهم، حتى المكسي أخوها وياهم!!"، ويروون قصص الاغتصاب والقتل والذبح، والوالدان يستمعان إلى الفظائع التي عانى منها هؤلاء المساكين ويطلبون منا أن نبتعد لكي لا نستمع إلى ما يستطيع الإنسان القيام به إذا انقلب إلى وحش ضارٍ . روى البعض كيف امتزجت دماء المقتولين بدماء القتلة الذين كانوا يتخاصمون على الغنائم وعلى الفتيات لاغتصابهن. أما إذا حدث أن طرقت امرأة منهن لا تحسن قراءة اللغة العربية، الباب ذي الوسام العسكري، فقد كانت أم منير الضابط تمد يدا خجولة بالنقود وبصمت باك حزين مستشعرة عار الجريمة التي اقترفها الآخرون بحق الدين والملة، تقدمها كفارة وغسلا للعار وعملا بالآية الكريمة: "أما السائل فلا تنهر، وأما اليتيم فلا تقهر". وما أكثر الأيتام والأرامل في تلك الأيام السود.

ولم تكن أم منير، حفيدة الشاعرة خولة بنت الأزور في البطولة التي أبلت في فتوحات الشام بلاء حسنا، هي الوحيدة التي أغاثت منكوبي هذه الغزوة الفرهودية الدنيئة. فقد روى الوزير السابق في الحكومة العمالية وعضو الكنيست السيد مردخاي بن بورات ومن زعماء الحركة الصهيونية السرية في العراق والذي فرّ من بين يدي الشرطة في شارع الرشيد في واضحة النهار بل في عزّ الظهر الأحمر، حين كان يقاد إلى المحكمة، كيف نصّحهم العقيد طاهر محمد عارف وابنه بأن يتزودوا بالتمن والطحين والزيت وباقي المواد التموينية قبل بضعة أيام من الفرهود، وكيف أنقذت زوجة العقيد، الخولة الجديدة، حياة عائلته وداره من النهب حين سمعت هواسات المفرّدين أمام الدار تمهيدا لكسر الباب ووقفت وقفة الأبطال الصناديد أمام دارهم في الأعظمية وبيدها مسدس وقنبلة يدوية وهددت الرعاع الذين حاولوا فرهدة دارهم وقتلهم، بأنها ستلقي عليهم القنبلة اليدوية وستطلق النار إذا لم يتركوا الدار ويكفوا عن النهب ويغادروا الحي، فما كان من الرعاع إلا الإذعان لأوامرها والذهاب إلى محلة أخرى لا تحميها لبؤة من حفيدات خولة بنت الأزور من ذوات النخوة والكرامة. أما والدته التي كانت خارج الدار فقد أصيبت بضربة "مكوار" على رأسها وأغمي عليها فأنقذها من براثن القتلة أحد فرسان الفرقة العسكرية الخيالة من أحفاد فرسان القادسية الذين ساعدتهم اليهود في إسقاط الدولة الساسانية، وأخذها إلى دار إحدى قريباتها وأنقذ حياتها.

ولم يكن والد عقيد الركن الطيار منير فهمي هو الحامي الوحيد لسكان حينا، فقد كانت الوالدة "أم منير الزباط" حلقة الوصل بين ابنها المتنفذ ونساء "العكد" اليهوديات. أَسْتُدْعِي جَارَنَا إِلَيَّهِو لِلتَّجْنِيدِ الإِجْبَارِيِّ، إذ لم يستطع إنهاء دراسته الثانوية بالرغم من إلحاح والديه وتحذيره من العار الذي سيلحق به وبعائلته إذا لم

يحصل على شهادة البكلوريا، وهي الدرع الواقى عند اليهود من عار التجنيد كجندي اعتيادي في الجيش العراق بدلا من دورة ضباط الاحتياط التي كانت ستزيده شرفا على شرف لو حصل على الشهادة المرموقة والنجمة الذهبية على كتفيه. وقد تحير أستاذة الجامعة العبرية وموظفو إدارتها في معرفة سر العدد الهائل لحملة شهادة البكلوريا من بين الطلبة القادمين من العراق، فلما كشفت إدارة الجامعة السر المصون بين العراقيين وأدركت أن السر كامن في خوف الآباء اليهود في العراق من تجنيد أولادهم في الجيش العراقي كجنود في الخدمة الإلزامية وحثهم على الدراسة لنيل شهادة البكلوريا، عند ذلك "بطل العجب بعد أن عُرفَ السبب". فليس أمام المجند اليهودي الراسب في الامتحانات إلا تنظيف المراحيض أو القيام بخدم حقيرة في المعسكرات النائبة إذا لم يتم دراسته الثانوية. فكل جندي من الملل الأخرى يحاول إذلال المجند اليهودي بأوامره المغيظة وتعبيره بصفات اليهود وجبنهم والتي أُلصقت بهم طوال قرون عديدة. هذا بالإضافة إلى أن من لا يحصل على مثل هذه الشهادة من اليهود التي تعتقدهم من ذل التجنيد فلا يفيد الحساب والنسب والأموال الطائلة التي تمتلكها عائلته، فلا يتم ترشيحه للزواج من أية فتاة جميلة من أسرة شريفة معتبرة. فاليهودي المجند كان يرسل للعمل بأحقر الأعمال في الجيش وخاصة تنظيف المراحيض والكنس والرش وحفر السبّيرات (الخنادق) ويعامل معاملة "النزّاحين". وهكذا كان مصير الياهو الخايب ابن جارتنا البكر. فبعد التدريبات "على النيشان وضرب التفّك"، وتعبيره بـ "أبدالك حسقيل، طقت لو ما طقت" و"اشقال قلبك حسقيل من طقت الطفاقة"، عيّن منظفا لمراحيض معسكر الوشاش. وفي أول إجازة حصل عليها، اشتكى لدى أمه الضيم والعار الذي لحق به وبالعائلة. فما كان من أم الياهو إلا أن "تشيلت" وذهبت إلى "أم منير الزابط" لتشكو إليها ضيمها: "أبدالك أم منير، ما عدنا غير الله وغيرك وغير ابنك، الله يعتقو ويخلينو وانشا الله تعينين ولاد

اولادو وتفغحين بيهم عغاغيص (عرانس). يقبل وجدانك! هذا أعبيدك، ابني لياهو الحيوان الخايب (كلمتا عطف وحنان على الأبناء عند بعض العائلات اليهودية وخاصة عند عائلة أم الياهو)، غبيتونو بشلول عيونني، والحيوان كان مدلل وغالي علينا. هسا الله يقبلنا، تكرمين، يشغلونو نزاح ومنظف أدبات بالمعسكر. مانت اتعغفين مني هبي عائلتنا؟" أبدالك وابدالو الغاسك وانداغ مداغو المنير، سويلو جاره وخلى يطعونو وظيفي أحسن من هايي المبهدله اللي كسغت شرفنا قدام العالم!".

ثارت النخوة في رأس أم منير الفاضلة التي كانت حامية شرف شارعنا:

- "أم الياهو، انتو شرفنا، واحنا ما نقبلها، لا تخافي، الليلة يجي ابني منير واللييلة ينطوه لابنج شغل نظيف وشريف، حطها عليا، والله أول ما يرجع منير، وكبل ما يتوضا ويصلي، لأكله لازم يسوي جاره الابنج."

أكثرت أم الياهو من الدعاء لأم منير بالخير وأن ترى أحفاده وأحفاد أحفاده وتفرح بهم والله يحفظها ويحفظهم. وفي تلك اللييلة وبقدرة قادر وبأمر عميد الركن "الأبو هللة"، نقل الياهو إلى الخدمة في غرفة طعام الضباط معززا مكرما لا يجسر أحد على توجيه كلمة استخفاف به، فقد علم الجميع أنه الجار المكرم وفي حماية "عقيد الركن" المحترم الذي لا يرد له أمر، بل أن إشارته أمر.

ومن ذلك الحين، كان إذا أبطأ "الحيوان الخايب" ولم يخرج في إجازة، تذهب أم الياهو إلى صديقتها الكريمة التي لا ترد لها طلبا:

- أبدالك أم منير الورد، قلبي قيتقطع على ابني، الحيوان الخايب ساغ لو اسوعين ما جا للبيت.

- لا تخافين عيني، ولله اللييلة يكون إياهو عدكم وتتهني بيه انشا الله!

وهكذا كان ويكون في كل مرة تذهب فيها أم الياهو وغيرها من الأمهات إلى صاحبتهن العزيزة الفاضلة "أم منير" أم الخير والبركة وتعم الفرحة دور العكد بفضل حماته.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (١٩)

في حماية عقيد الركن الطيار منير حلمي (٢)

الأربعاء ١١ يوليو / تموز ٢٠٠٧

وفي ظهيرة صيف لاهب في شهر آب، يحرق المسمار في الباب، سمعتُ قفزة خفيفة على سطح دارنا، أقوى من قفزة قط شبق لاهت يلاحق قطعة جاءها الوحام و"تبيع له بالغالي". سعدت الدرج إلى السطح وأبصرت شبعا يحاول الاختباء في غرفة السطح حيث كنت أحاول إخفاء جراء الكلاب والقط التي كنت أعثر عليها في الطريق، ولكن العطش والجوع والوحدة كانت تجبرها على الأئين، فيكشف الوالد مكانها ويأمر بإلقائها مرة أخرى في عز حرارة الشمس اللافحة على قارعة الطريق ولا تجدي دموعنا الغزيرة وتوسلاتنا الحارة فتيلًا. لم تكن هناك قطعة ترضع صغارها بل وجدت بدلها فتاة بيضاء كستنائية الشعر في العشرين من عمرها "متكومة" في زاوية الغرفة الحارة، قالت لي بتوسل وقد احتضنت بعض الثياب التي جمعتها من حبال الغسيل لسطوح الجيران "عطشانه، ماي، ماي". صحت دون وعي مني: "حرامية، حرامية، شدتسوين هنا!"، جاء الوالد والأخوة وأمسكنا بيدها وأنزلتناها إلى الصالون، قدمنا لها كأس ماء بارد من الناقوطة التي تحت الحَبّ، وطلبنا الشرطة. جاء شرطي يميل شاربه الى الشقرة وتحدث معها ب"التلكيفي"، ثم قال لنا إنها جاءت من الشمال تفتش عن عمل وسيأخذها الى الشرطة. قيل لنا فيما بعد إنها هربت من الشرطي أو سمّح لها بالذهاب بعد أن أكدت له بانها ستعود الى أهلها. ثم سمعت بقية الحادثة من صديق وجار عزيز لنا هو منشي حاي الذي كان مع أخويه يعقوب ونوري من

الذين يتسقطون أخبار العكد وفضائحه. قال لي إن "التلكيفية" اغتمت غفلة من عائلته بعد هروبها من الشرطي وعندما وجدت باب بيتهم مواربا صعدت الى السطح بخفة الفهد ومنها "حادها حظها" إلى عرين الأسود"، إلى بيت عقيد الركن. قالت والدة منشي حاي: "وهذا منير الزابط، الله يعتقدو، غادا من الله. مغاتو كانت حبلَى والله بعثا اليانو الهايي العرموطايي، والله طعانو وعوضلو وغضانو، ليش؟ كيف كان يسوي مليح (أعمال يثاب عليها) ويا اليهود! المسكين ساغلو أسابع ممسوي شين. أخذنا للحمام وغسلا بالماي البيغد والصبون أبو الغيحي ولتفا باللبفياي ونشفا، وطلعا مثل العفوص قنتلاصف، وأتالي نام بيها دك، وطلع بيها درد الله مالو، ومسيبا إلى ما مر كيم اسوع وخاف لتجبل، طعاها كيم دينار ولزما الدغب. وهايي ساغت بلاعة الموس، الخايبي خو متقدغ تحكي. والله ما يقطع، وقفتلو (شفعت له) المليحات (الأعمال الحسنة التي يثاب عليها المرء) اللي سواها ويا اليهود والله ابعثلو هاي التلكيفيي الحلوة وقضا بيها شغلو لِمَا، تالي متالي ولدت امغاتو وجابت ولد كني قمر أبو الأغبطاعش!". هكذا سمعت القصة بحذافيرها، والعتب على الراوي إذا كان من يتشكك في فحواها أو في صدقها.

وكنت في الرابعة عشر من عمري وصرت اشعر بخدر لذيذ وأنا أنظر محدقا في عيون الفتاة اليهوديات اللواتي كن يذهبن الى مدرسة الأليانس وخاصة عندما كانت عيناى تتعاصص، كما قال الشاعر المرحوم الجواهري، مع عيني فتاة جريئة تحاول الغوص الى اعماق فحولتي التي بدأت تستيقظ متثابة غير واعية بما يجري في أعماقي رويدا، رويدا. فلما وعيت بها صدمتني بشيء من الرهبة، فلم تكن لنا ثقافة جنسية واعية كما هو الأمر اليوم مع طلاب المدارس الابتدائية الذين يستطيعون تعليم والديهم في بعض الأحيان أمورا "علمية" جديدة تمنعهم من الانزلاق نحو الأمراض

والرذيلة. كنت قد سمعت همسات عن الجمال الرائع لزوجة العقيد الشابة ولكن أحدا لم يرها. كنت أسير في أحد أيام العطلة الصيفية في ضحى يوم جميل من أمام اللوحة السحرية أمني النفس بنظرة. وفجأة فتح الباب ووقفت فتاة رائعة الجمال بثوب بيث أبيض شفاف ونظرت إلي بعينين كعيني حورية من حور الجنة، وابتسمت ابتسامة رائعة ساحرة، وتعاصت عيوننا ورحت في سكرة وجد روحية بريئة مهومة، بقيت سكرتها تبعث أياما عديدة شحنات من السحر إلى قلبي البتول. فهمت عند ذاك روعة الجمال الذي أوحى إلى الشاعر أن يقول: "أمنتُ بالله، نور جمالك آية، آية من الله، أمنت بالله". فالنور الذي يشع من عنينين جميلتين ساحرتين يعمد الناظر إليه ويطهره، ويقول الشاعر الأندلسي يهودا هليفي (اللاوي) في كتابه "البرهان والدليل في نصره الدين الدليل" أو "كتاب الخزري"، أن ملك الخزر فضل الديانة اليهودية على غيرها عندما علم إن بني إسرائيل الذين تعمدوا بنور السكينة التي شعت من نور الله حين أنزل الله التوراة على كلمه في طور سيناء، تطهروا وشهدت على ذلك الآية الكريمة "آتيننا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة". والآن بعد أن تمرستُ في الحياة أدركت لماذا عفا هرون الرشيد عن أبي نواس الذي أغضب الخليفة بفكاهة سمجة، فدعا بالسياف مسرور وبالنطع. فلما جثا أبو نواس على النطع ورأى الموت المحقق، وقد جرد السياف سيفه منتظرا إشارة مولاه، نظر النواصي الى الخليفة متوسلا بآخر سهم في جعبة الأعذار والشفاعات وقال والدموع في مآقيه: "أقتل يا مولاي رجلا نظرت عيناه جمال زبيدة؟". فلو لم يدرك أبو نواس أن للجمال نورا يظهر الناظرين ويعمدهم، لما أتى بهذا العذر الذي لم يستطع هرون الرشيد رده، فعفا عنه، وذلك لأن "الله جميل يحب الجمال".

كنت معجبا بأبي منير، فقد كان رقيقا معنا ويدي نحونا نحن الصغار عاطفة أبوية، كنت إذا رأيته صباحا في طريقي الى مدرسة السعدون أحياه "صباح الخير!"، فرد عليّ باسماء: "يا هلا بالطير!"، واشلونك بالدراسة يا سبع، وسلم على الوالد!". فيمتلي قلبي فرحا لهذا الحوار اللطيف مع ضابط كبير وله ابن ضابط وليس ككل الضباط، فهو طيار باسل وعقيد.

وفي أيام حركة رشيد عالي كانت الطائرات البريطانية تصول وتجول في سماء بغداد، سمعنا ذات مساء دوي طائرات وصليات رشاشة، صعدا الى السطح لنشاهد معركة جوية بين طائرة انكليزية سوداء بجناح واحد تطارد طائرة عراقية بجناحين وتطلق عليها الرصاص. صعدت معي أختي كلادس بثوب البيت البرتقالي الفصفاض ووقفت معي تتطلع الى المعركة الجوية والهواء ينشب جاعلا من ثوبها كراية مرفرفة. سمعنا صوت أبو منير "بنتي أنزلي للبيت بسرعة ترى ثوبج يبين للطيارين". عدونا نازلين الى الدار ونحن نعجب من أدب أبي منير في وقت كان اليهودي إذا سار في الطريق وطائرة بريطانية محلقة في الجو يتهم بأنه يبعث إليها بإشارات لاسلكية بيديه أو بالدكمة (الزر) المعدني في سترته وغيرها من التهم التي ما أنزل الله بها من سلطان. وعندما كان أبطال الفتوة المقدادية يجرون اليهودي عنوة الى مراكز الشرطة كان الضباط يسخرون من الخيال الشعبي لهذه التهم المرفقة. روى لي صديقي الأستاذ نير شوحيط مؤلف كتاب "قصة مهجر" أي المهجر العراقي، وهو من كبار أدباء العمارة في إسرائيل كيف ساق رجال الفتوة رجلا يهوديا بدعوى أنهم قبضوا عليه وهو يقطع أسلاك التلغراف لشل المجهود الحربي، فلما سأل ضابط الشرطة: "زين وين المقص؟"، أجاب أفراد الفتوة "عمي هذا اليهودي لما لزمناه بلع المقص". ضحك الضابط لهذه المسخرة وقال لهم "ولكم يا طراير! يا أدب سززية، مرة اللخرة

جيبولي حجة أحسن من هاي!"، وأطلق سراح اليهودي. وعلى أثر هذه المعركة الجوية الحامية التي لم نر نهايتها شاعت في العراق رواية عجيبة عن بطولة أحد الطيارين العراقيين. نفذ رصاص رشاش الطائرة العراقية التي كانت تلاحق طائرة بريطانية فما كان من الطيار العراقي الباسل إلا أن يطير بموازاة طائرة العدو ويخرج مسدسه ويقفز على الطيار الإنكليزي ويطلق النار عليه ويرده قتيلا ثم يعود البطل الى طائرته ثم إلي قاعدته سالما، وكانت "القوانة" التي تذيعها محطة الاذاعة العراقية هي "وقد عادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة" من قصف قواعد العدو الغاشم في سن الذبان والحبانية.

كان تأثير العقيد الطيار كبيرا على أبناء العكد، وكان البعض منا يتمنى أن يصبح طيارا مثله معززا مكرما وعلى صدره نياشين البطولة. وعندما سألتني أخو زوجة عبد القدير ونحن على عتبة التسقيط والسفر، ماذا أريد أن أكون في المستقبل؟ أجبتة بفخر وبصورة تلقائية دون أن أفكر بوقع كلماتي على الأصدقاء، وصورة عقيد الركن بشارة الطيار والأوسمة على صدره تبتسم لي، "أريد أن أكون طيارا!"، صاح بأخته: "شوفي يامًا، صديقكم يريد ايصير طيار باسرائيل ورجع يقصفنا!". استدركت قائلا بأني أحب العراق ولا أفكر في إيذائه، فلم يعر جوابي كبير اهتمام وشعرت بأني أهنت أصدقائي بهذا الجواب الذي كان مصدره الإعجاب بحامي حينا الطيار. وعندما جندت في إسرائيل، أردت تحقيق حلمي وتقليد العقيد منير حلمي، فباءت الجهود بالفشل: "أنت لا تحسن العبرية وأنت تعاني من سوء التغذية"، وراحت عليّ، إذ لم تستسغ معدتي هذا الطعام الغث الذي يرى في السمك الفسيخ برائحته الكريهة من أطيب الطعام.

أما أخو إياهو، فقد ابتسم له الحظ، ولعله كان مثلي يرى في العقيد الطيار المثل الأعلى للرجول والبطولة. نلت الدكتوراة من جامعة لندن وأصبحت أستاذة في الجامعة العبرية وكان من طلابي بعض زملائي في مدرسة شماش الثانوية من الذين التحقوا بالحركة الصهيونية السرية وضحوا بالدراسة وفروا الى إسرائيل. وهناك أرادوا الحصول على الشهادة الثانوية فكلفهم الأمر في تعلمهم العبرية بمستوى يستطيعون اجتياز امتحانات الدراسة الثانوية للألتحاق بالجامعة العبرية ثلاث سنوات و أكثر. شكرت الوالد وقلت له لو لم تشجعنا على التفرغ لإنهاء الدراسة الثانوية في العراق، لأصبحنا مثل هؤلاء الذين ضيعوا السنين الثمينة من العمر.

وفي معارك الاستنزاف على قناة السويس، سمعنا باسم طيار إسرائيلي أسقطت طائرته ووقع أسيرا بأيدي قوات الجيش المصري. قال لي أخي ريمون: "سامي! هذا مكنتي كان جيغانا، أخونو لليهاهو؟" أجبتة: "إي والله صدق، هذا كان يتباهى بالعقيد الركن اللي ساعدو الأخونو لياهو، وقيبين غاد يقلدو العقيد منير الطيار!". نشرت الصحف الإسرائيلية بعد عودة جارنا ابن البتاويين من الأسر، أن هذا الطيار كان يلعب أيام الأسر، الكرة الطائرة مع أسرى إسرائيليين آخرين، فرأى فجأة أن بعض الجنود المصريين يرفعون العلم المصري وباقي الجنود في شغل شاغل، لا يكثرثون برفع العلم ولا هم يحزنون. لا أدري ما ذا دفع جارنا أخو إياهو في أن يترك الكرة تسقط من يده ويقف وقفة استعداد عسكرية تحية للعلم المصري، وتبعه باقي الأسرى الإسرائيليين. بهت الجنود والضباط المصريون وشعروا بالخجل، أسرى الأعداء يحيون العلم المصري بوقفه استعداد عسكرية أمامهم أصحاب القضية فلا يكثرثون بالأمر. ومنذ تلك الوقفة الاستعدادية واللفة الكريمة لأبن أم إياهو، صار الجنود والضباط المصريون يقلدون الأسرى الإسرائيليين في احترامهم لرموز الوطن ويقفون

وقفة جديّة بتحيةة عسكريّة مشرفة. قلت لأخي ريمون ضاحكا: "أقسم بالله بأن الصفعات التي كالمها أبو منير الطيار للجندي العراقي الذي مرّ من أمامه دون أن يضربله تحية عسكريّة"، هي التي فعلت فعلها وجعلت جازنا يتذكّر بأن عليه أن يقف احتراماً للعلم المصري. فقد اشتهرت صفعات أبو منير الضابط في كل العكد وبقينا نتحدّث عنها طوال شهور عديدة". ضحك أخي ريمون ضحكته العالية المرحّة وقال: "ولله سامي، تغا بيها الحكيبي غاس!" (والله، أظن أن في تفسيرك شيء من الصحة).

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٠)

الجندي العريف وخريج كلية الطب الاسكتلندية

الخميس ١٩ يوليو / تموز ٢٠٠٧

لم أشفق على الجندي النائب عريف "أبو الشخطين" للهبشة التي أكلها من الضابط المتقاعد أبو منير بسبب تحرشه بخادمتنا "نعيمة"، بل أقول الحق، إننا شعرنا بالتشفي وقلنا "سلمت يده". كانت أمي قد أرسلتني قبل أسبوع بـ"صِخْعة" (أي السُخرة، وهي القيام بعمل لوجه الله، فقد كان سكان العراق ومصر، يؤخذون للعمل عنوة وبدون مقابل أيام الفيضانات لتحسين السدود وإقامة المتاريس بأكياس رملية لحماية المدن من مياه الفيضانات. ومن هنا جاء المثل العراقي عن الرجل الذي لا يراعي حرمة النسب ويأخذ كل من صادفه للسُخرة، بقولهم: "هذا خالك عمك سوكة!")، لأشتري لنا "شردانات، وباجة وأذانات وغجول مل غنم" من سوق حنوني لعمل "كعدة" (وليمة عائلية). كان علي أن أمرّ من جامع مرجان على شارع الرشيد، مخترقا سوق الشورجة ومنها الى سوق حنوني. سرت في سوق الشورجة متمتعا بروائح التي لا أزال أحن إلى استنشاقها وأفتش عنها في كل مكان، في كل بزار عربي. فتشت عنها في القدس والناصره وعكا، ثم في القاهرة وخاصة في خان الخليلي وفي مدينتي فاس قرب جامع "الفنا" وفي مراكش وفي مدينة عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية التي تفاخر بمبانيها الحديثة من الصخور المتنوعة الألوان، فلم أجد ما يشابه عطور وروائح سوق الشورجة التي ما زالت النفس تحن إليها حين سيدنا يعقوب إلى رائحة قميص يوسف التي ردت إليه بصره، هناك فقط كنت أشعر بأنني في نعيم أحضان

وطني، فيغمغم وجداني بوجود صوفي مسكر: "وطني وريحة أمي بيك"، وفي هذه الأيام العصبية أسائل نفسي الآن، "لماذا يذبحونك اليوم وكل يوم يا مسقط رأسي يا عراق، باسم الرحمن الرحيم؟".

وسوق الشورجة هذا، هو من الأسواق التي تهودت كما تهود الفلك أيام الخلفاء الفاطميين وحذر منه الشاعر المصري الرضي بن البواب أهل مصر حينما تولى أبو سعد التستري اليهودي في خلافة المستنصر بالله أعلى المناصب في الدولة الفاطمية. فما أن يُسمع أذان المغرب في يوم الجمعة حتى تغلق جميع الدكاكين الأبواب والكبكات في جميع أسواق بغداد ، وبعد الأذان نردد نحن الصغار ملحين على أمهاتنا بالإسراع في إشعال قناديل يوم السبت منشدين: "ساغ وقت الشعلة أشعلوا، أشعلوا" (دنت ساعة إشعال قناديل و"قرايات" ليلة السبت، فاشعلوها"، إذانا بقدم السبت الذي هو "في رقبة اليهودي". فتندثر بغداد بشال الصلاة الذي يرتديه اليهود في صلوات صباح يوم السبت، وتتعطل التجارة في بغداد وتغلق البنوك والشركات التجارية أبوابها وتشعر بقدسية هذا اليوم، قدسية تعطر أجواء بغداد ولا ينتهك حرمة أحد ولا تجد من يدخن السكاير في محلاتهم. هكذا تعارف العراقيون منذ العصر العثماني الذي اشتهر بسماحة الإسلام حين كان الصيارفة ومعظم التجار في العراق من اليهود، وكان الكثير من أعضاء غرفة تجارة بغداد والسكرتارية ومحجري مجلة غرفة تجارة بغداد من اليهود وهما المرحومان مير بصري ثم تلاه يعقوب بلبول، إلى آخر يوم من عام ١٩٥٠.

وعندما جاء المفتي ومعه درويش المقدادي مؤسس الفتوة في العراق والذي قلده هتلر في برلين وسام الصليب المعقوف والشاعر برهان الدين العبوشي وغيرها ممن آواهم العراق وأكرمهم وعينهم في مناصب التعليم العالي منافسين الأساتذة الشيعة

وليعزيزوا العراق بمثقفين من السنة، حذر هؤلاء الضيوف الكرام، من تهوّد الفلك في العراق، فحرضوا الشعب العراقي ضد اليهود إذ هالهم أن يروا كيف "يخضع المسلمون في العراق ويقفلون محلاتهم في يوم السبت خوفاً من سطوة اليهود العراقيين، هذا الرتل الخامس للصهانية، الذي يعيثر في العراق فساداً!!!" ونشر العبوشي قصائده الطنانة في جرائد بغداد ومن دار الإذاعة العراقية ثم في ديوانه "جبل النار" والتي يقول في إحداها محرضاً ضد تجار اليهود مهولاً الأمر ومنادياً بالويل والشور:

قد زرت بغداد يوم السبت فارتعدت فرائصي ورأيت الخبث والفندا

رأيت في حوانيت معطلة قد شمّر الشرّ ساقيه بها وعـدا

تكاد تفتك في دار السلام إذا تباطأ العُربُ في إغلاقها أبدا

فأيقظوا الفتنة التي كانت نائمة وشاركوا في حركة رشيد عالي مفاخرين ببطولاتهم وكيف أن آخر جيب للمقاومة ألقى سلاحه في هذه المعركة المشرفة هو الجيب الفلسطيني الباسل.

وهناك في سوق الشورجة قرب حانوت عطار رأيت "لمة" والمارة تنظر بإعجاب إلى فتاة شقراء ممشوقة القوام متعلقة بذراع شاب عراقي وسيم مرتدياً "قاط" انكليزي فاخر وقميصاً ناصع البياض و"باينباغ" أحمر قان بلون المنديل المتدلي من الجيب العلوي الأيسر لسترتة وهو يتبادل الترحاب مع العطار وأصدقائه. وبصعوبة سمعت بعض الكلمات التي كان يقولها للعطار: "دكتور ... كلية الطب ... أدبره.. زميلة .. خطيبة...". وفجأة وصل إلى المكان جندي عراقي برتبة عريف مع أصدقائه وهو يتشوق إلى إظهار "مراجله" أمام أصدقائه الذين رافقوه معجبين بتعليقاته ومسباته

على كل شيء لا يعجبه. توقف عند "اللمة" التي جمعتها الشقراء وصديقتها العراقي. علت على شاري العريف بسمه ساخرة، ثم فتل شاريه بزهو وقال لأصدقائه، "شوفو شوفو هاي العرموطة الحلوة الشقرا، فدوه على هاطول، نتراهن! هسا أروح أضعها واكلبها عليه واطير النشعة من راسه!" قال له أصدقائه مازحين "ها! اشو ياالله دنشوفك!" وقف العريف العراقي وراء الفتاة ونظر إلى جمالها الرائع وفجأة دفعها بكتفه الأيمن في ثديها الأيسر دفعة ظالمة طوحتها على صديقها وكادا يسقطان، وارتسمت على وجه الفتاة علامات الامتعاض والمرارة للمفاجأة المؤلمة غير المتوقعة، والتفت صديقها ليرى من طوحها على صدره بدفعة قاسية كافرة. أفلتت من شفتي الفتاة كلمة "سوري سير، سوري سير!" همس العريف لأصدقائه الذين كتموا ضحكاتهم الساخرة الشامتة وقال لهم بحسد واستخفاف: "أي "سوري، يا بنت الصوطني، فدوه على هل شفايف، الكواد صاير دكتور وجايله انكليزية بنت صوطني!" فهم الطبيب الشاب بأن أمامه جندي تأكل قلبه الغيرة والحسد لنجاحه ولجمال صديقتة، فتحامل على نفسه وكظم غيظه احتسابا، ولم يرد على هذا العدوان السافر خوفا من أن يزيد الطين بلة وحفاظا على شرف العراقيين المثقفين. غضب العطار وقد تساقطت حبات الهيل التي قربها من أنف الحسناء وصاح بالعريف وأصحابه: "ولكم هاي شنو هل تعدي على الناس؟ مو عيب مو خزبي؟ تبهدلونا قدام الأجانب، ما بقى عندكم حيا! يا أدب سزوية، تتعدون على الحرمه وعلى الأفندي الدكتور!!" أشفقت على صاحبنا الطبيب الناشئ وعلى خطيبته الشابة الرقيقة التي كان تعرفها على أخلاق الرعاع من بين شباب الشعب العراقي بهذه الطريقة العنيفة غير المشرفة.

وفي عام ١٩٩٠ كنت أستاذًا زائرًا في جامعة أدنبره بدعوة من الدكتور فليب سادجروف الذي عكفنا سوية على انجاز بحثنا عن "مشاركة اليهود في النشاط المسرحي في البلاد العربية في القرن التاسع عشر" بعد أن اكتشف مخطوطة نادرة لأول مسرحية طبعت باللغة العربية بقلم أبراهام دانيوس الجزائري، واكتشفت ٥ مسرحيات لأنطون شحبير المدرس في المدرسة الإسرائيلية (تفثرت إسرائيل) في بيروت بإدارة زاكي كوهين، أنقذها من براثن الضياع صديقي مثير أبو العافية، (أكسفورد- مانشستر ١٩٩٦). وقد هاجمني بعض "النقاد" العرب دون أن يقرءوا الكتاب قائلين بأني أشيد بريادة اليهود للمسرح العربي. كنت آنذ في المرحلة الأخيرة لإعداد بحثي للطبع عن "المسرح العربي البشري عند العرب في القرون الوسطى" (طبعته جامعة أدنبره وجامعة نيويورك، ١٩٩٢). حدثني الأستاذ سادجروف عن الأيادي البيضاء التي أسدتها جامعة أدنبره للعراق بتأسيسها كلية الطب في بغداد عام ١٩٢٧ برئاسة عميدها الدكتور سندرسن باشا الذي كان يرافق الأمير عبد الإله في حله وترحاله للعناية به تاركًا فقراء العراق لعناية بعض الأطباء اليهود والعرب مثل الدكتور داود كباي في بغداد والدكتور فؤاد شابي في البصرة من الذين كانوا يتطوعون بيوم واحد في الأسبوع لمعالجة الفقراء مجانًا بوزاع من حبهم للعراق ورحمة بهم واعترافًا بفضل كلية الطب العراقية عليهم. وعند ذلك فقط فهمت ما العلاقة بين الطب والعراق وأدنبره والدكتور العراقي المتفوق في دراسة الطب وخطيبته الاسكتلندية ومجازات العريف العراقي لها بـ"الدعجة" الظالمة في سوق الشورجة وصدام حسين. أرسلت حكومة البعث العراقية باسم الرئيس صدام حسين رسالة إلى عميد الجامعة تخبره بان سيادة الرئيس قرر، اعترافًا بفضل جامعة أدنبره على العراق بتأسيسها كلية الطب في بغداد بإدارة العميد الدكتور سندرسن، بالتبرع بمبلغ مليون باون إسترليني لكرسي الطب في الجامعة، بشرطين، الأول سري وهام جدا، وهو أن

لا تستخدم إدارة الكلية أي محاضر أو موظف يهودي، والثاني، أن يطلق على هذا الكرسي الجامعي اسم "كرسي البعث". ووجه المفارقة هنا أنه لا يوجد في اللغة الانكليزية حرف "العين" وهو من حروف اللغات السامية المميزة وخاصة في العراق، وهكذا أصبح اسم الكرسي باللغة الانكليزية "باث جير" (Bath Chair) ومعناه بلغتهم "كرسي ذي العجلات الخاص باستحمام المرضى المقعدين"، مما أثار ضحك وسخرية الطلاب والمستخدمين.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢١)

الأجواء في بغداد قبل حرب ١٩٤٨

الأربعاء ٢٩ أغسطس / آب ٢٠٠٧

ويبدو أن العراق هو قدرتي الذي يلاحقني في كل مكان أحل به في هذا العالم الذي أصبح صغيرا بفضل سرعة المواصلات والعولمة، فلم يكتف بدمغي "بحبة بغداد" في خدي الأيسر بل أبقى على لهجتي العراقية بكل لغة أتكلم بها والتي يدعوها بعض رقيقي المشاعر في إسرائيل بلهجة "قَوْقَوْ"، والتي كان صديقنا موريس شماس المعروف بأبو فريد، الفنان من أصل القرائين المصريين في دار الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية والذي يرى أن الله حبا اللهجة المصرية بموسيقى ويسحر ليس بعدهما سحر، بل تفوق اللغة الفرنسية روعة وغنائية وموسيقى، لذلك كان يبدي امتعاضه من لهجة يهود العراق التي تتشدد بحرفي القاف والعين خاصة، فقد كان يهود العراق الأغلبية في دار الإذاعة ومديرها عراقي أصيل وهو شاول بار-حايم، والناس على دين ملوكهم، ولذلك فلهجتهم هي السائدة حتى بين العرب المسلمين في الإذاعة الاسرائيلية ومنهم أبو جريب (نور الدين الدريني) المشرف على البرامج الدينية. وكان بعض الموظفين يغيظون أبو فريد المصري بقولهم: "يقلك حسقيل قتعيد قحوة لو مقتعيد، متقول بقا!". فيقول لي وهو يقلب القاف ألفا والجيم "كيم" مصرية: "أبدالك سامي، أنا "آف" (قاف) عراقية واحدة بتنجيب أجلي، فإزاي أعمل ويا كل الآفات دي، والله راح أموت، ألحؤني يا ناس!". كما أن لهجتي العراقية ترزعج بعض الأشكناز من ذوي الأذان الرقيقة المرهفة التي تعودت على السنفونيات الأوروبية الرائعة

بالإضافة إلى آذان المثقفين المصريين من محرري مجلة "فصول" الذين كتبوا عن الإسرائيلي ذي اللهجة العراقية الذي زارهم في مكتبهم بدار الكتب القومية بالقاهرة، زاعمين كذبا وبهتاناً، إنهم طردوه من مكتبهم. وقال صاحبنا الذي روى هذه الحادثة "هذول الأستاذة المصرية ما راح يصير براسهم خير علّ ما يقعدون أعوج ويحكون عدل". فبالرغم من روعة شعرائهم باللغة العربية الفصحى، فقد تعودت آذانهم على قلب "القاف" إلى "ألف" وعلى عدوبة اللهجة المصرية ولكن هذه العدوبة لا تظهر في الأغنية الشعبية "ما ألي وأتلو ومالي وملتلو" المائعة المقرفة. وفي هذه المرة أيضاً لاحقني العراق الذي أصبح بعد الهجرة إلى إسرائيل كابوس أحلامي خوفاً من أن يكتشف هويتي العابرون المغمغمون في السوق القديم، في سوق الشورجة، أو رواد مقهى مخزن "الجينكو" قرب فرن الصمون في البتاوين، وذلك لأنني كنت أجد نفسي أسير في شوارع بغداد وفي جيبي جواز سفر إسرائيلي. ففي عام ١٩٤٨ يوم إعلان استقلال إسرائيل كنت أسير مع شاول ابن خالي داهود ساسون وريمون أخي، أمام فرن الصمون ونحن نسخر من الطريقة الشعبية في التعبير عن مدى حبهم للآخرين بمد ذراعهم إلى الجانبين بقولهم "آني هلكد أحبك!" شاهدني أبو جراوية في الثلاثين من العمر وأنا امزح معهما وذلك في يوم إعلان استقلال دولة إسرائيل أو "دولة عزرائيل" كما أعلن عنها مديع محطة الإذاعة البريطانية. وقف أمامي أبو الجراوية معترضا طريقنا ونظر إليّ بغضب وأهوى على خدي بصفعة مباغته ظالمة أذهلتني وآلمتني. كنت أعرف كل لاسي الجروايات في البتاوين، أما هذا فهو غريب عن العكد. أدهشني اعتداؤه، لأنني كنت أرى نفسي معززا مكرما في البتاوين، فقد عرف الجميع بأني نلت المدالية الأولى في الملاكمة بوزن الديك ويجب الحذر من معاكستي. صحت بأبي الجراوية: "يا كلب يا ابن الكلب! ليش تضرنني وييش تندعيني؟ آني مككد وتضرنني، والله هسا اروح أكله الأبوي يخابر العقيد منير ويجي

يكسرلك راسك وينعلك والديك يا ابن الكلب!". قال له أبو سالم صاحب المقهى ومن معارف والدي: "ولك كواد اشسويت؟ مشفت غير ابن ابراهيم تضربه. متعرف هذا جسر ويهدلك، أكسر إيديك رجليك إذا مديت إيدك عليه!". جلس أبو الجراوية على تخت في المقهى وقد امتقع وجهه وهو يرتجف غضبا ويقول: أيهود! كواويد! صار عدهم دولة وعلم! ويضحك عليّ!". وآلمه كيف يهينه فتى يهودي ابن الخامس عشرة من العمر وهو من الذين اعتادوا أن يقولوا لليهودي الذي يصفعونه: "إبني! لما يضريك المسلم خذ له تمني (تحية) وروح على مهجومك". عدوث إلى دارنا لآتي "بفرعة" من الأصدقاء اليهود والعرب من العكد، فلما عدت إلى المقهى ويدي توثية وربعي ورائي يقولون "أشو وبنه الكواد! الابن الكحبة، راح انأدبه ونعلمه يعرف أوادمه!". لم أجد أبو الجراوية، قال أبو سالم صاحب المقهى: "سامي إحنا متأسفين، شرد بعد ما سينا وطردناه، هذا غريب من العكد. بس انكضا نوب اللآخ، نعلك والديه!". كانت بوادر مثل هذه الاعتداءات قد بدأت عام ١٩٤٧ مع الاضطرابات في فلسطين. كنت صديقا لجاسم حارس مخبز الصمون قرب المقهى والذي يقارب سنه سني، وعندما علم بأني اجتزت امتحان الشهادة المتوسطة بتفوق، صار إذا مررت به يقف احتراماً لي ويضع يده اليمنى على صدره وينحني قليلاً كما يفعل الكبار عند مرور شخصية محترمة. وعند مروري ذات مساء قرب تخته الذي يجلس عليه للحراسة وهو جالس مع صديق له، قام من التخت ووقف احتراماً كما اعتاد أن يفعل.

سأله صديقه: - منو هذا اللي وكفتله!

- هذا سامي، صار عنده شهادة مال المتوسطة!

- زين سامي هذا مسلم لو يهودي؟

- أيهودي

- ولك أمداك، توكف ليهودي الكافر؟

- مو عنده شهادة، هذا متعلم ومثقف!

- خلتي، وذا؟! ميصير مسلم يوكف احتراماً لليهودي ولا للكفار!

- وليش ليهودي كافر؟

- كلمن مو مسلم هو كافر!

- ها، صدك؟

- والله، روح اسأل أبوك!

ومنذ ذلك المساء لم يعد جاسم يقف احتراماً لشهادتي وصار إذا رآني مقبلاً لزيارة بيتي خالي حايم وخالي ساسون في شارع، يدخل الي المخبز أو يتظاهر بأنه لا يراني. وهكذا فقدت الشعور بأهميتي كحامل شهادة ومن أبطال الملاكمة في المدرسة. ومن ذلك الحين أصبح أصدقائنا يعتدون علينا بالكلام والمسبات، حتى أن دعيير مساعد عبد الجبار صاحب دكان لإيجار البايסקالات هدد أخي ريمون بالسكين. طار عقل ريمون غضباً، هذا صديقنا اللي كان "ياكل الراجليات" من عبد الجبار عندما يغيب عن الدكان ويطلبه بإعادة ما حصل عليه من الدخل، فإذا أعطاه مبلغاً زهيدا يقوم عبد الجبار بضربه على فكه، فتتطاير النقود التي أخبأها في فمه وقد اعوج فكه، فيقوم عبد الجبار بضربه على الجهة اليسرى من الفك لتعيده ورده إلى مكانه، وكنا نشفق عليه من هذه الاهانات التي كان يوجهها اليه أمامنا وللضرب

المبرح الذي كان يضربه. وجاء ريمون وقد أخذ الغضب يتطاير كالشر من عينه.
صاح بي عندما رأيته: - سامي تال، هسا تجي، دعيير جر السكين علي!

- ليش؟

- هسا ما وقتنا، فأقلك تال!

وجدت دعيير واقفا وعلى وجهه إمارات الخوف لرؤية ريمون الغاضب بصحبي!

- ولك كلب ابن الكلب! أتجر السكين عليًا؟

ضرب ريمون دعيير بكلابند وركب صدره وهو يكيل له الصفعات، "ابن الكلب! أشو طلعت عينك، والله هسا أكسرلك راسك، بالله وين السجينة؟". "فأكتت" ريمون وأقمته من على صدر دعيير الذي صار يبكي ويقول "والله بعد ما أسويها، دفك ياخة عني، بس عاد، بس عاد!" ومنذ تلك الحادثة أدركت أن أيام العز والصدقة والود ولت إلى غير رجعة، وصرنا ننتظر ما تجبئه لنا الأيام من المفاجآت التي توجها أو الجراوية بصفته الرنانة احتفالا باستقلال إسرائيل وتذكارا لا ينسى منه إلي. وفي عام ١٩٥٢ كنا جماعة من الأصدقاء نحتفل بعيد استقلال إسرائيل على شاطئ تل أبيب. عزفني أحد الأصدقاء بشاعر عربي وسيم تبدو على وجهه مخايل الذكاء والفطنة، قدم نفسه بأنه "الشاعر راشد حسين" من ممص من قرى أم الفحم، ومنذ ذلك الحين انعقدت بيننا أواصر صداقة حميمة وخاصة في نطاق فعاليات الهستدروت (منظمة العمال). وقد رأى فيه حزب العمال الموحد "المابام" بغيته في تكوين كادر من المثقفين العرب لقيادة الحزب معهم أملا في نشر التعاون والإخاء بين اليهود والعرب، فعينوه في هيئة تحرير جريدة "المرصاد" ومجلتي "الفجر" و"المصور". أدركت بأن أمامي شابا ذكيا يعبر عن عواطفه وأفكاره بحرية مطلقة ولا يحاول التزلف

إلى الآخرين والتظاهر بما لا يشعر به، فازداد احترامي له. دعاه البعض للمشاركة في رقصة الهورا فاعتذر وقال: "بדکم الصحيح (تريدون الصدق)؟ أنا لا اشعر بالفرحة معكم في عيد استقلال إسرائيل، لا أدري لماذا!". ما أن سمعت كلمة "استقلال إسرائيل"، حتى مددت يدي دون وعي مني أحمي خدي الأيسر متذكرا هدية أبو الجراروية في يوم ظهر فيه نجم في رابعة النهار رأى فيه بعض العراقيين فأل شؤم. فهنأ مشاعر راشد حسين وتعاطفنا معه حتى عندما ترك البلاد إلى نيويورك عام ١٩٦٧ وعمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية وسافر في عام ١٩٧١ للعمل في دمشق في مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وقلت لنفسي لو عبر يهودي في العراق عن مشاعره القومية بمثل هذا الصدق، ماذا كان سيكون مصيره؟ فقد كانوا يحكمون على اليهودي بالسجن بتهمة "تشتم منه رائحة الصهيونية أو الشيوعية أو بكتليهما معا". حمدت الله بأني أعيش في بلد يحترم آراء الآخرين ولا يأخذ فيه كل مواطن القانون بيده ولا يوجد فيه حجر على الأفكار. لعنت السياسة والحروب والأحقاد والحواجز التي يخلقها البشر للتفرقة بين الشعوب والأديان والمذاهب السياسية، وكنت أسائل نفسي، أي النظريات والأديان والأفكار تستطيع هدم الحواجز بين الشعوب وإحلال السلام والوئام والتعاون بينها لخير الإنسانية جمعاء؟؟؟

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٢)

الصادق مع الفريق صالح مهدي عمّاش في هلسنكي

الخميس ٢٧ سبتمبر / أيلول ٢٠٠٧

قلت إن الأقدار ربطت مصيري بالعراق حتى أنها لاحقتي إلى "تلفات" (آخر) الدنيا، إلى فنلندا. فمن كان يظن أنني سألاقي العراق هناك وفي شخص أحد أبطال حزب البعث الحاكم. كان ذلك عام ١٩٨٢ عندما وقعت "مجزرة صبرا وشتيلا" نتيجة لصراع مرير بين فئات من الشعب اللبناني. وكالعادة، اتهم العرب إسرائيل وشارون بالمشاركة في المجزرة الفظيعة واتهم آخرون إسرائيل بعدم الالتزام بجانب الحياد، فكل شر وكارثة في العالم تعزى في هذه الأيام إلى إسرائيل وإلى اليهود. أجرى مراسل جريدة "هلسينكن سانومات" مقابلة معي وسألني عن رأيي في الاتهامات، فقلت للمراسل: "إن ما أعرفه عن هذه الحادثة التي يؤسف لها مستقى من نفس المصادر الإخبارية التي تسمعها أنت في الراديو وتقرأها في الصحف، ولكنني كإسرائيلي، أنا لا اصدق أن إسرائيل قامت أو ساهمت بهذه الجريمة البشعة، فأنا أعلم بحرص إسرائيل على طهارة استخدام السلاح". قرأ معالي سفير العراق في فنلندا (١٩٨٢) الفريق صالح مهدي عمّاش الذي كان يشغل في عام ١٩٦٨ قبل نفيه السياسي هذا، منصب نائب رئيس وزراء العراق، فرد عليّ السفير عمّاش بمقال نشره في نفس الصحيفة، مطالباً عميد جامعة هلسنكي التي استضافتني كأستاذ زائر، بفصلي عن الجامعة لأنني "يهودي إسرائيلي صهيوني"، مدعياً "إن الفرهود كان جزاءً عادلاً لخيانة يهود العراق لوطنهم"، ولكنه طلب سرا وبصورة ودية أدهشتني، بواسطة صديق

مشترك، أن أرسل إليه مذكرات الشاعر الأديب أنور شاول الذي ذكره بالخير في كتابه "قصة حياتي في وادي الرافدين" (١٩٨٠) وإرسال غيرها من منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. أرسلت الكتب إلى الصديق المشترك، وبعد بضعة أشهر جاءني الرد في إسرائيل على صورة طرد من الكتب المطبوعة في بغداد وبينها كتاب قيم أثار إعجابي وهو "تطور الشعر العربي الحديث في العراق، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج"، للدكتور علي عباس علوان (بغداد، منشورات وزارة الإعلام - الجمهورية العراقية، ١٩٧٥، سلسلة الكتب الحديثة، <رقم ٩١>). وفي الفهرس تحت محتويات الفصل الثالث الذي ضم بحثا بعنوان "مناقشة س. موريه حول تجارب الشعر الحر"، كان هناك ختم "وزارة الإعلام، نسخة خاصة مهداة من وزارة الإعلام". وهو إشارة واضحة بأن من أرسل الكتاب يعلم بأبحاثي عن الشعر العربي الحديث. إذا، فالعراق ما زال يذكرني كما ذكرتني فيما بعد بفخر مجلة "المؤتمر" العراقية في لندن حين نلتُ جائزة إسرائيل عام ١٩٩٩. وصلت هذه الكتب من هلسنكي بالبريد الدبلوماسي عن طريق سفارة فنلندا في إسرائيل إلى وزارة الخارجية الإسرائيلية في أورشليم - القدس وسلموها إلي دون أي سؤال أو جواب، ولم يتهمني أحد بالتعاون مع الأعداء.

أما السبب في اهتمام معالي السفير العراقي عماش بالكتاب فيعود إلى ما كتبه الأستاذ أنور شاول عنه في ذكرياته عن العراق "قصة حياتي في وادي الرافدين" (رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ١٩٨٠، ص ٣٣٠-٣٣٢)، وفيه نموذج آخر لتفرقة العرب بين الصداقة الشخصية التي تتسم بالود والأريحية والعلاقات الرسمية التي تتسم بإظهار الكراهية والعداء للخصوم. كتب الأستاذ أنور شاول عن حادثة إلقاء القبض على رئيس الطائفة الموسوية في بغداد الأديب مير بصري وكيف

توجه إلى أصدقائه المخلصين ليتدخلوا في الإفراج عنه. جاءه صديق وفي من أصدقائه المخلصين الذي أنجده وقت الضيق لتحرير مير بصري من السجن بواسطة نائب رئيس الوزراء في العراق البعثي الفريق صالح مهدي عماش. وكان السفير عماش الذي تسلم في العراق أرفع المناصب السياسية، من هواة الشعر ورواته ويعاني القريض من حين إلى آخر. وعندما قدم له أحد الأصدقاء رباعية أنور شاول "يهودي في ظل الإسلام" كنموذج حي لإخلاص المواطن اليهودي لوطنه العراق، وهي:

إن كنت من موسى قبست عقيدتي فأنا المقيم بظل دين محمد

وسماحة الإسلام كانت موثلي وبلاغة القرآن كانت موردي

ما نال من حبي لأمة أحمد كوني على دين الكليم تعبدي

سأظل ذيك السموءل في الوفا أسعدت في بغداد أم لم أسعد

واطلع الفريق عماش على هذه الأبيات وأعجب بها وهو الشاعر المذواق واقترح أن تنشر الرباعية في جريدة "الجمهورية" العراقية. ولما علم سيادة الفريق بأن شاعرا يهوديا آخر وهو مير بصري قد أودع في غياهب السجن منذ مدة، أوعز بإطلاق سراحه. ولا أعرف هل توجد في العالم دولة أخرى غير العراق وضابط كبير في أي جيش في العالم يقوم بهذا العمل الشريف لأجل رباعية شعرية. فالعراق هو موطن الشعر والشعراء الذي أغنى إسرائيل بعشرات الشعارات والشعراء باللغتين العربية والعبرية. سألني المعلق السياسي المعروف الأستاذ شاول منشي في محاضرة ألقيتها في ندوة ليهود العراق في أورشليم القدس يديرها السيد أبراهام كحيل (الذي تزوجت خالته حبيبة بقدوري الأخ الأصغر لزميلي في مدرسة السعدون صادق بن محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال والتقيت بابنها الطبيب الماهر الدكتور آدم كبة في

مانشستر الذي طلب مني منشورات رابطتنا)، كيف أفسر العلاقات الشخصية الودية والضيافة الكريمة التي يبديها العرب نحو اليهود من جانب وتصريحاتهم العدائية في الأوساط السياسية في نطاق عملهم، من جانب آخر. قلت، هناك عاملان مهمان في الأخلاق العربية، الأول يمتد إلى أخلاق العرب في جاهليتهم التي كانت بمنزلة الدين، وهي الكرم والضيافة وحماية الطيب (الدخيل) والثأر والعصية القبلية وهي التي أقر الإسلام أكثرها، والأخلاق الكريمة التي جاء بها الإسلام وخاصة حماية اليتيم والسائل والمرأة والزكاة والتضامن والتكافل بين المسلمين والجهاد ونصرة الدين والمؤمنين وغير ذلك. وأنا أرى أن التضامن والتكافل بين المؤمنين هو السبب، وهذا قدر اجتهادي في هذا الأمر الذي قد يفسر الفارق بين التصرف الشخصي والتصرف الرسمي عند العراقيين خاصة.

قام السفير عماش في أثناء إقامته في فنلندا بنشاط أدبي وترجم قصائده إلى اللغة الإنكليزية ثم قامت سكرتيرة السفارة بترجمتها إلى اللغة الفنلندية، وفي مثل هذه الحالة، وخاصة إذا لم يكن المترجم متخصصاً باللغتين التي يقوم بالترجمة منها وإليها، يكون للترجمة ضرر كبير بالفحوى وبالرسالة، فتمسح القصيدة مسخاً ولا يفهم لها معنى. قال لي أحد الأساتذة، "إننا في فنلندا لا نستطيع استساغة مثل هذه الترجمة الحرفية التي لا نستطيع أن نطلق عليها اسم الشعر، فهي تفض من قيمة الشعر العربي وتجعل الشاعر وشعره مضغّة في أفواه الأوساط الأدبية في البلاد".

وفي هذه المرة أيضاً أبدى حزب البعث كرمه في البلاد الأوروبية وأرسل السفير عماش رسالة الى عميد جامعة هلسنكي يعلن فيها بفخر واعتزاز أن حكومة البعث العراقية تبرع بمبلغ مليون مارك فنلندي لتدشين كرسي لتدريس اللغة العربية بشرطها المعروف وهو عدم تشغيل اليهود وأن يعيّن معالي السفير العراقي الأستاذ الذي

سيشغل الكرسي. وعندما جاء ردّ عميد الجامعة بأن قوانينها لا تسمح لأحد بالتدخل في الشؤون الأكاديمية والعلمية وأن تعيين الأستاذة هو من شأن اللجنة المختصة بذلك وليس من شأن من يتبرع بمبلغ لتمويل النشاط العلمي للكرسي المرموق، غضب عماش وهدد بسحب المبلغ، فكان جواب عمادة الجامعة: " : كيتوس (شكرا)، تفضل، وعلى الرحب والسعة". وهكذا فشل، على ما أعلم، أمر إنشاء كرسي آخر باسم البعث العراقي في العاصمة الفنلندية.

ولا نعرف ضابطا كبيرا نظم الشعر وأكرم الشعراء إلى جانب الفريق صالح مهدي عماش سوى الشاعر البريطاني من أصل يهودي عراقي وهو الأديب زجفريد لورنس ساسون (١٨٨٦-١٩٦٧) من عائلة ساسون العراقية الأصل والذي كان ضابطا في المشاة في الحرب العالمية الأولى ومن محرري الديلي هيرالد. كتب ساسون مذكراته باللغة الانكليزية ونشر أشعاره التي شجبت فيها الحروب. تثرى هل هذه هي "العبقرية العراقية" التي أشار إليها الرئيس صدام حسين في عزّ مجده، في رده على من أخبره بتفوق يهود العراق في إسرائيل في جميع الميادين؟؟؟

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٢)

العراق قدري .. في ألمانيا. نسرين وميخائيل - ١

الأحد ١٤ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٧

العراق قدري الذي لا أستطيع الهروب منه. كلما حاولت نسيانه يأتي من ينكأ الجراح مرة أخرى، فيسفع دم ذكرياتي على الورق مرة أخرى "بلا ما يخاف الله!". أما من أباح دم الذكريات هذه المرة فهو أحد قراء "إيلاف" الغراء معلقا على فصل من الفصول التي نشرتها: "لا يوجد أكذب من شاب تغرب إلا شيخ ماتت أجياله". وكان المرحوم أبو علوان يعبر عن مثل هذا القول بمثل عامي "بعد أضرب منه"، فيقول بلهجته العراقية الصميمية: "عدنا، الشاب اليشك (يشق) صلوخ (الذي يكذب) يقولون عليه "يضرب شيلمان" لكن على الشيخ اليشك صلوخ، يكولون "يقح شيلمان"، ليش؟ لأن الشايب يكح هوايا وما بيه حيل يضرب شيلمان. أنت مشايف أبو الشادي (القرداتي) لما يجي بالعياد مالتكم ويقلب الدنيا بالدنبك وبالخرخاشة خاطر يلم الأولاد يشوفوا الشادي، وبعد ما الشادي يمشي مثل الحرامي ومثل الجرخجي (الحارس الليلي) وكتفا سلاح، يكله أبو الشادي: شلون اتنام العروس؟ يفتح رجليه منشح ومكيّف وطربان، ولما يكله شلون تنام العجوز، ينام أعوج ويصير يقح ويحك براسه وياظهره وينعوص ويشخر؟ الخايب بني آدم! بس يشيب يقوم يقح، والله الستار من الباقي!". هذه بعض الدروس في الفلكلور العراقي الذي كان أبو علوان يلقيها علي وأنا مدين له بكثير من الأمثال والقصص التي سمعتها منه وأروي بعضها هنا. وكان أبو الشادي ينهي عرضه قبل أن يجمع البخشيش بمخاطبة الشادي

بقوله: ولك وين أتحط الكريم؟ فيرفع الشادي يده ويضعها على رأسه بكفخة رنانة، ثم يقول: أو وين تحط البخيل، فيضع الشادي يده على الصلعة الحمراء تحت ذيله، فنضحك لهذه التمثيلية ونبادر الى التبرع لكي يضعنا الشادي على رأسه. ثم ينتهي العرض بأمر الشادي أن يضرب دقله وياخذ سلام. ولذلك كنا نحن أولاد البتاوين عندما نريد ردع خصم يتحرش بنا نقول له: "ولك أحسنلك تضرب دقلة وتاخذ سلام وتروح على باب الله!" ولا أدري حتى اليوم إذا كانت هذه العبارة قد انتقلت الى أحياء بغدادية أخرى أم تنوسيت مع رحيلنا؟

وأنا يا أخوان، لم تمت أجيالي بفضل ما نسميه بصناديق المرضى (عيادات تعالج المرضى باشتراك شهري زهيد) في إسرائيل التي تعج بكبار الأطباء "ولا تدري شلون أتدبر حالها من كثرتهم"، فهم بعون رب العالمين، يطيلون الأعمار.. فقبل أن يصيح الواحد منا "آخ بطني آخ ظهري"، تراه واقفا أمام "باب الدختور" في عيادات المرضى التي تتنافس فيما بينها لتغري المرضى والعالم بالاشتراك فيها بأفضل الشروط، وترى الذي يحب زيارة الأطباء لاطمئنان على صحته صباح مساء، وقبل أن يدخل إلى العيادة يكون قد فتح دكم (إزرار) قميصه ليوفر الوقت على الدكتور المنهك. ولكي يتخلص الأطباء من التطيب بأسعار هي "أخو البلاش" يطلبون من المريض القيام بفحوصات الدم حذرا من الوقوع في خطأ التشخيص وإقامة الدعوى ضدهم، فإذا كان المراجع للطبيب ممن "يصفرج وجهه لما يشوف الأبرة وجر الدم من ايده، وتصيبه سبع دوخات" فإنه يرمي "بالراشيتة" في سلة المهملات ويكون قد تاب ولا يعود للمراجعة. فإذا "شافه" الطبيب بالطريق وسأله: "شلونك ياأبا؟"، يجيب وهو يتلعثم كالأثول. "والله يا دكتور وصفاتك هوايا زينه وبعد ماكو حاجة للمراجعة!"

ميسيريت يروشلايم، ٢١/٦/٢٠٠٧

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٤)

العراق قذري - في ألمانيا. نسرين وميخائيل - ٢

الأربعاء ١٧ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٧

وأنا والحق يقال، لست بحاجة الى الكذب، وقد قام بعض الأصدقاء بمحاولة التحقق من كلامي عندما أخبرت صديقة عزيزة للعائلة وهي السيدة نسرين من فرانكفورت بأني أسكن في ضاحية تبعد عن القدس ٩ كيلومترات في شارع كان اسمه "المدخل الأول" ثم أطلق عليه بقدرة قادر بعد أن انتقلت إليه اسم "شارع نهر الفرات" وأن هذا الشارع يؤدي الى "شارع نسرين" في ميسيرت يروشلایم. عجت صديقتنا من هذه المصادفة، ولعلها شكّت من صدق كلامي وظنت "آني كاعد أشق صلوخ"، فما كان منها إلا أن أرسلت صديقة لها قدمت في زيارة إلى القدس ترجوها أن تصور لها "شارع نسرين" وتقاطعه مع "شارع نهر الفرات"، فإذا كان صدقا ما أقول فستعد هذه أكبر كرامة، وإلا فإنها ستعد قولي "أكبر ضرب شيلمان وأطول صلخ انشق في التاريخ الحديث!". قالت نسرين "والله استاذ، هاي صديقتنا ما كذبت خبر وجابتي تصوير الشارع مالكم واللوحات وعليها أسماء الشوارع مثل ما كلت، ولما باواعت الصورة، قلت الأستاذ يحجي الصدك!". قلت لها: "والله قلت لِح العراق قذري" وأين يمضي هارب من دمه"، من تركت العراق ولليوم لاحقني العراق وين ما أنداح اووين ما أروح، مو بس لاسرائيل إلا لأسكتلنده وابفنلنده وشايغه هسا حتى لألمانيا لاحقني العراق. ترى والله مو بس سموه الشارع مالتنا "شارع نهر الفرات" وشكرت رئيس

المجلس البلدي وصوتت إله بانتخابات رئيس البلدية، لكن والله ما أدري شلون، حتى بحديقتنا طلع أنفوس السنة نخلة زغبرونه. زوجتي تعرف آني أحب التمر، كل شي يتعلق بالعراق أحبه، حتى التمر مال اسرائيل أحبه، ليش؟ لأنه مهريينه من العراق، وكل تمرة الآكلها تذكركني بالعراق، حتى النوى ما التمر ما أخلي زوجتي تذبه بالزبل. "ولج يا حرمة! ترى هذا التمر أصله من العراق ترى ميصير أتذبي النوى بالزبل، لازم أزعه ويطلع نخل يذكركني بالعراق بلكت يجبر الله صدعات قلبي، ترى ماكو أمل نرجع انزوره للعراق، جازوا من اليهود وإسرائيل بعد ما خلّص صدام على الأكراد، وأتالي خلصوا على المسيحيين والأقليات، والتافوا اليوم على الشيعة والسنة وبعد اشراح يخلصها!". وبين حين وآخر آخذ ما اجتمع من النوى واقوم بزعه في منحدرات التلال المقابلة لجبل القسطل جنوب "مبسيريت يروشلايم" (وتعني المبشرة بوصولك الى القدس). فأنا لا أفرط بأي شيء يتعلق بالعراق، فالعراق قدرتي، والذي يزور المنطقة سيجد أنها تحتوي على بعض فسائل النخيل التي نمت من النوى الذي زرعه. وزوجتي تعرف أصله العراقي وغلاوته عندي لأنهم جاءوا به من العراق، وقد هربه المستوطنون اليهود أيام الانتداب البريطاني الى فلسطين. وهذه الفسائل ليست مثل النخيل التي قام السيد مردخاي بن بورات وغيره من رؤساء بلدية أور-يهودا (نور يهودا) واللد والرملة وتل أبيب وغيرها من مدن إسرائيل بنقل النخيل البالغة من جذورها وزرعها مرة أخرى في شوارع مدنها المشجرة. والعجيب أن النخلة مثل شجرة الزيتون يمكن نقلها مع جذورها من مكان الى آخر. وعندما انظر الى النخلات في شوارع اسرائيل أشعر بحسرة لأنني أستمتع الى قلبها الكسير، فهي واقفة كالعانس التي بارت ولا يوجد من يتقدم بطلب يدها، إذ لا يوجد من يلقحها ويعتني بشمارها. فهنا لا يعرفون قدر النخلة التي كانت تستطيع إعالة عائلة كاملة. فإذا أجر العراقي بيته وفيه نخلة، فهي لا تقع في ضمن الايجار، فالتمر، والليف والكرب،

والسعف والخوص وفراخ الفخاتي والطيور التفرخ عليها، كلها تعود لمالك الدار، وكثيرا ما جاء صاحب دار خالي حاييم في الكرخ محذرا أيادي بألا أنزل عشوق تمر الخستاوي ولا فراخ الفخاتي، فهي له، وكان يراقبها ليل نهار من القهوة التي يقضي معظم أوقاته فيها كمالك لعدة دور فيها نخيل مراقبا اياها بحماس الزوج الغيور على زوجته اللعوب، وخاصة عندما كان يعلم بأني أرسلت من قبل الوالدين للتصيف في الكرخ، ويأخذ مني الف حساب غيرة على شرف نخلته التي تخترق السطح لكي لا يقلق راحتها وتنقل الى مكان آخر، فهي تقع التي تقع في حماه. أما نخلة حديقتنا فهي نخلة مدللة تربت على هدوات والدي الذي كان يناغيها بأغنية " فوك النخل فوك " التي أصبحت في إسرائيل النشيد الوطني العراقي ليهود العراق، ولا يمكن عقد حفلة عراقية بدون أن تحتتم بهذا النشيد الذي تهفو اليه نفوسهم ويسكبون حنينهم في تكرارهم " والله ما ريده، باليني ابلوه " ثم يستدركون بقولهم وهم يذرفون الدموع ويتضرعون " سلم على بغداد ! "، وأظنها تفهم معنى هذه الأغنية، لأنها عندما تسمعها يبدأ خوص سعقاتها " يلمع كخدود الأحباب، بل كما يلمع الف طوك ". هذه النخلة نبتت في وسط الحديقة من نواة لا ندري كيف فاتت على زوجتي التي تحرص على ألا تنبت شجرة دون نخطيط مسبق لها، فأقول لها، ألا تصدقين أن العراق قدرتي، هاي حتى النخلة جت منها ليها، ومن الله؟ ومنذ ذلك الحين كان الوالدان كلما جاءا لزيارتنا يذهبان للسلام عليها ويبتان شوقهما لنخيل العراق ولأيام العراق ويترنمان بأغاني الحب والعتاب العراقية، فإذا هب نسيم، بدت كأنها تشرکہما أشواقهما وتؤكد على ما يقولان.

مبسيريت يروشلايم

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٥)

العراق قديمي - في ألمانيا. نسرين وميخائيل - ٢

الجمعة ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٧

لم تبق لي كتابة ذكرياتي وقراءة تعليقات القراء الكرام وقتنا للتفرغ لأبحاثي التاريخية، ولكي أتخلص من ذكرياتي عن العراق، قلت لزوجتي: والله يجب أن أعادار دارنا هذه التي يذكرني كل شيء فيها بالعراق، صور الوالدين الراحلين من العراق وهما في مرحلة الخطوبة والزواج وولادة الاطفال، وصورنا في البتاوين وقد وقفنا مع الوالدين في الحديقة حسب سني ولادتنا قرب شجرة التوت الأنتى التي كانت تضيف هيبة لحديقتنا وإن لم تكن مثل هيبة فحل التوت، والشادروان السداسي الشكل قربها الذي تتكرر صورته في كل الصور التي يرسمها أخي مراد في باريس والتي اصبحت جزءا من الحنين الغير واعى لوجداننا وشوقنا لبغداد. وحين أجرى معه أحد الصحفيين مقابلة عن فنه ولاحظ تكرار صورة النافورة في الحدائق التي يرسمها، قال له مراد: "هذه نافورة حديقتنا في البتاوين، إن دجلة والفرات يجريان في دمي منذ الفين وخمسمائة سنة، فاين يمضي هارب من دمه". دهش الصحفي لهذا القول من فنان ترك مسقط رأسه قبل أكثر من خمسين عاما وهو يعيش في مدينة الانوار والفن والحرية.

قلت لزوجتي، خلص، بس الى هنا حد اصطباري، سأسافر الى جامعة بوخوم بألمانيا لكي أتفرغ الاتمام ابحتي، وهناك سيغرفني الأستاذ رايموث مدير المعهد الشرقي

بأكداً من الكتب لا توجد عندنا في الجامعة العبرية تسميني ذكرياتي التي تبكي قرائي والتي تثيرها مكالمات العائلة والأصدقاء الهاتفية باللغة العربية، وتثيره لوحة شارع نهر الفرات كلما غادرت دارنا وتثيرها النخلة التي نمت في وسط حديقتنا تزهو كالشباب المدلل، فإذا داعبها النسيم بدت كأنها تدعوني الى مشاركتها حينها الي والدي، فقد شعرتُ بأنها صارت تحن الى هدوات والدي الراحلين حين كانا يزوراننا وينغيانها بأغانيهما العراقية المحببة بعد أن أصبحت عندهم كسدرة المنتهى وكعبة ذكريات شباهما في العراق وماضيهما الراحل، ولاسيما الأغنية التي كانا يغنيان لها في صغرها، هدوات تقطع نياط قلبي، كأنها هدوات طفولتنا التي تجسمت في هذه النخلة المدللة. ولما كبرت النخلة بعد عشر سنين، صاروا يغنون لها:

فوك النخل فوك، يابا فوك النخل فوك..... ما ادري لمع حدّه مادري الكمر فوك

وعندما يمر النسيم العليل تبدو سعفات النخلة كأنها تتجاوب مع ألحان الحنين هذه، وترقص على ايقاع هذه الأغنية التي أصبحت عند يهود العراق في إسرائيل النشيد الوطني العراقي الذي يختتمون به كل حفلة وكل اجتماع، ثم يستدركون، "والله ما اريده، باليني ابلوه!" هل هو حبهم للعراق اللي باليهم ابلوه؟ أم الشوق اليه هو البلوى؟ وتحيرني لازمات عديدة في الشعر العراقي يناغون فيها الحبيب ثم يرفضونه بقولهم "والله ما اريده". كما في أغنية :

جلجل علي بالرمان، نومي فرعلي، هذا الحلو، ما اريده ياب، ودوني لهلي!

فالعراقيون يرفضون كل حلو وكل غالي، ومن هو هذا الحلو؟ هل هو العراق؟ فاستدرك وأقول لنفسي: لعل السبب هو أن العراق مثل كل محبوب مدلل يبلي ببلواه كل من

يجبه! فهو كالغانية التي تقتل عشاقها، وترسلهم "طشار، تحت كل نجم ال بالسما"، كما قالت احدى المعلقات الحصيفات على فصل من فصول مذكراتي هذه.

ويقول العالمون بأسرار الغناء العراقي إن النومي (الليمون) هو رمز الإمبراطورية البريطانية التي ساندت الهاشميين في حربهم ضد الإمبراطورية العمانية، والتي كان ملاحوها الجابرة الذين أنشئوا الإمبراطورية التي كانت الشمس لا تغرب فوقها، يزرعون النومي على سفنهم لكي يتلافوا نقص فيتامين سي في غذائهم ويمنع عنهم بعض الأمراض الجلدية، وإن الرمان هو الإمبراطورية العثمانية التي " ناءت بكلكلها " على صدور أحرار العرب كما ناء الليل الطويل بكلكله على صدر أمير الشعراء الجاهليين امرئ القيس حامل راية الشعراء إلي جهنم لفسقه بنساء العرب في الجاهلية، وإجباره ابنة عمه عنيزة على الخروج اليه عارية، بعد أن فاجأها تسبح مع زميلاتها في الغدير، فجلس على ثيابهن ولم يرض بردها لهن حتى يقمن بعرض " سترت تيز بلاش " خاص به وإجبارهن على الإقبال والادبار أمامه وهو يتمتع بالنظر الى جمال قوامهن الممشوق العاري وهن بين ضحك خجول ودموع الغيظ المتساقطة كالألي على تفاح خدودهن، لتسقيه بماء اللهب، أو يغزو خدر حبيبته حتى يكاد يعقر بعيرها، فتطلب منه أن ينزل عنه غير مطرود.

أما تعليقات قراء "إيلاف" على الحلقة ٢٣، ليوم ١٨ يوليو، ٢٠٠٧، فقد أحرزنتني. فأربعة قراء، من بين ٣٣ قارئاً اعترفوا بان ما أكتبه " أبكاهم "، وفي يوم ٢٥ يوليو، صبت قارئة الزيت على النار حين عاتبني الدكتورة عائشة حسين من جنيف متسائلة: من أباح لك قتلي؟ وتتهمني بأني أدميت قلبها وأدمعت عينيها. ألا تعلمين يا أختي لماذا؟ لأننا شريكان في حب العراق، وإنني لأطلب من الله، يا ناعسة الطرف، ألا تذوقي مثلي هوى العراق العذري ابداً، فقد أسهر مضناه في حفظ الهوى، أما انت

فكفكفي دموعك ودعيني وذكرياتي وشجونني، آني وحدي أتفاصيل وياها!". وقلت
لنفسني، " هاي كل يوم حوالي مائة عزا في العراق للأعزاء الذين يسقطون من جراء
السيارات المفخخة والانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم بين المصلين والذاهبين إلى
أعمالهم وإلى الأسواق من اطفال ونساء وشيوخ وشباب في عمر الزهراء اليانعة،
يرسلونهم إلى جنان الخلد بقصف العمر، شهداء تمسكهم بتراب العراق، فقد
جربناها هنا عندنا في القدس. والعجيب أنهم يقولون إن الانتحاري المسلم هو شهيد،
له الخلود في جنات النعيم مع الحور العين، زين هذوله الأطفال المسلمين الأبرياء
ألم يسقطوا شهداء، فأين سيكون مقامهم، أليس في جنات النعيم؟ ولكن لماذا
تستعجلون إرسالهم إلى هناك ولا تدعوهم يتمتعون بخيرات العراق؟ وتملكني تأنيب
الضمير وأسأل نفسي، اليس يعدّ بكاء قراء ذكرياتي هذه ذرا للملح على الجراح؟
ومن أباح لي قلوبهم ودموعهم؟ أو كما لمح أحد المتخصصين بالحروب النفسية في
تعليقه الحصيف على مذكراتي بأن كتاباتي " تنوم القراء العرب تنويما مغناطيسيا
وتجعلهم يؤمنون بكل الصلوخ الأشكها!"، يا سلام على مثل هذا التحليل الذكي،
هاي وين وبأي سرداب من سرداب قصر النهاية اتعلمته يابا؟ ثم أقول للنفس: ألا
يوجد في ذكرياتك يا ترى ما يسلي الحزين ويمسح الدموع، لماذا لا تفعل كما كان
يفعل الوالد في الحرب العالمية الثانية عندما "كانوا يشغلون الراديو على الاخبار"،
فيقول لهم: "خاطر الله شغلوه على موسيقى ودك وغنا، يعني سماع هل أخبار المزعجة
راح اتحل المشاكل، يعني ماكو غيرها؟، كل يوم وليل ما نسمع الا اندحار الحلفاء
على جميع الجبهات، قابل احنه راح انصد الزحف، حطّونا نسمع غنا شويه يشيل
الهم مال هل دنيا، الله كريم لذلك الوكت وبلكت الله يفرجها قبل ما يوصل الغراب
للعلمين". وقلت لنفسي: " بس تكتب عاد على الفرهود وعلى العراك والمغثات مال
العركاويين بالعراق، ألا يوجد في جعبة ذكرياتك ما لا يبكي القراء؟"

والله أكو، ليش ماكو؟ فقد كانت لنا أفراح وأعراس وأعياد ذكرها المرحوم ملا عبود الكرخي في شعره الشعبي الرائع الذي لمّعه باللهجة اليهودية البغدادية والكلمات العبرية التي كانت متداولة آنذاك حتى في لهجة المسلمين في قصائده التي داعب بها أصدقاءه اليهود من أمثال أنور شاؤل وعضو البرلمان العراقي السابق سلمان شينه المحامي "صاحب مجلة المصباح" الذي كان مترجما ومرافقا للجنرال الألماني بيكر قائد القوات الجوية الألمانية المساندة للجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، وصديق الكرخي شاهين وغيرهم. وكان لنا أصدقاء مخلصون من كل ملة ودين نشاركهم السراء والضراء والليالي الملاح في الجزيرة وبستان مامو وشواطئ الصليخ والمعظم، ونغني لدجلة: "على شواطئ دجلة مر، يا منيتي وقت العصر" ولمائه الدهلة، لما يوصل للحلة، ونشارك الحمامة التي كانت تفتش عن أختها، بأكية: وين أختي؟ (ولكن يا حمامة! قولي لي بربك هل بقي لك أخوات وأحباب في العراق لو كلهم تشردوا طشار من هاي المتفجرات والحقد والثارات؟) وفي هذه الأماكن كنا نصيف عندما كنا صغار قبل انتقالنا للبتاويين. وهذا هو السر في حنين يهود العراق الى أيام زمان وراثتهم لما يجري اليوم فيه، وغنائهم: "بغداد أنت منايا، بغداد أنت هنايا!" وتنهمر الدموع. غنت هذه الأغنية في تلفزيون اسرائيل يهودية عراقية مهجرة عندما سأل المذيع بعض العراقيين في إسرائيل عما إذا كانوا يرغبون في التصويت للبرلمان العراقي كما فعل بعض اليهود القاطنين في الغرب، وسأل امرأة إذا كانت تريد الحصول على جواز سفر عراقي، فمنتظرا منها أن تسب العراق وأهل العراق، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي اللئيم في خطبته في مسجد الكوفة، فما كان منها إلا أن غنت للمذيع باللغة العربية وأمام كل المشاهدين الذين يفهمون العربية أو لا يفهمونها: "بغداد أنت منايا، بغداد أنت هنايا، ترعرعت فيك فكيف أنساك، بغداد، بغداد!"، فوجم المذيع. هؤلاء الذين شردوا من ديارهم ووجدوا ملجأهم في اسرائيل

يغنون لبغداد والدموع تنهمر من عيونهم بعد أكثر من خمسين سنة، وتحير المشاهدون من هذا الحب وهذا الولاء، كأنهم تركوا العراق البارحة بالرغم من أنهم صاروا يسكنون القيلات وأصبحوا من الأغنياء بل من أصحاب الملايين، وبالرغم من سقوط عشرات القتلى ومئات الجرحى في العراق كل يوم. والله غريب أمر العراق هذا، اشكد ما تحبه، اشكد ما يتغدّد عليك، هل المدلل والغالي الساكن في شغاف القلوب!

بوخوم، ألمانيا، في ٢١/٧/٢٠٠٧

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٦)

الأربعاء ٣١ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٧

كانت أيام الحرب العالمية الثانية أيام سعد للتجار العراقيين، وخاصة لأولئك الذين كانوا يقرأون الممحي. واشتروا السكر وغيرها من المواد الغذائية والجلود والقماش والأخشاب والحديد وكل شئ ممكن أن يخبئونه ويتاجروا به فيما بعد، وكدسوا هذه المواد في المخازن وفي سراديب بيوتهم، وخاصة تلك التي لا تتلف بالتخزين. أما أولئك الذين خزنوا القمح والطحين والرز والذين حلموا بالشراء الفاحش من أمثال والد صديقي ابراهيم كحيله، فقد كانت خسارتهم فادحة. غلت اسعار الطحين والرز فلما "استحققت المحقوقة" ونزل الى السرداب فرحا حيث خزن الكواني، كنوزه المنتظرة وهو يمني النفس بالغنى السريع، هاله أن يرى الدود والفيران وهي تعيث فيها فسادا، وراحت عليه الثروة المنتظرة وبقيت الديون التي كان عليه أن يسدها، وأكلها أكله سودا. أما الموظفون والعمال فقد أكلوها بعد أفحم، إذ لم ترتفع رواتبهم بنفس الارتفاع الهائل للسلع والمواد الغذائية.

احتجنا في البيت الى أقلام الرصاص لنكتب وظائفنا المدرسية: " سامي غوخ (أذهب) عند جبوري البيع دفاتر واقلام، وجيب كم قلم". سألت جبوري: " بيش القلم؟"، أجب: "أئين ابفلس، دهشت لجوابه، فلم يغير سعر الأقلام كما فعل باقي التجار. قلت له بسرعة: "زين انطيني عشرة". ذهبت الى البيت فرحا، وقلت للوالدة: جبوري بعدو بيع القلام مثل الأول. قالت لي الوالدة، روح اشترى كل القلام اللي عندو. تعجب جبوري وقال: زين ما يخالف. وبعد أن اشتريت أقلامه، ساوره الشك وراح

عند جاره أبو حسين: " أبو حسين أنت بيش اتبعه للقلم؟" أجابه: بأربع فلوس. ضرب جبوري جبينه بيده وقال: فرهدوني هل اليهود!. ضحك أبو حسين متشفياً وقال: كان لازم تحس من الأول لما راد قلم وتالي طلب عشر اقلام. ثم أصحح جبوري لا يبيع لنا شيء قبل "ما يدانش" (يراجع) السعر ويا أبو حسين، وقد ذكر جبوري هذه الحادثة الى يوم مغادرتنا العراق: شلون غلبتني بالقلام يا سامي؟

أصبحت الأسعار تغلي، والوالد يربي ستة أولاد وتقاسيط المدرسة ومصاريها، والملابس والمواد الغذائية صارت بالتموين وبالكابونات، ومع ذلك فاللمة على الشكر والشاي والتمن والخبز وغير ذلك من المواد الضرورية لا يقوى على شرائها سوى الجنود وأولئك الذين يرون أنفسهم "أبو جاسم لر"، فقد كانوا يصعدون على اكتاف الناس الملتمة على دكاكين التموين في فوضى وصراخ وتضارب والحصول بالقوة على ما يريدون، وكثيرا ما عدت فاشلا من محاولة شراء المواد المطلوبة حاوي الوفاض وخاصة من فرن الخبز، وقليل ما كنت أعود وفي يدي الأقراص المرجوة، يعني: "إيد من ورا وإيد من جدام"، ودموع القهر الخرساء في عيني وأخي الأكبر يصرخ بي " أشلون اغوح المدرسة بلا أكل، الله يقبل عليك؟"، فأقول له: "زين دغوح أنت جيب خبز يا بطل، اشو دنشوفك؟". وفي المخبز كان هناك من يأخذ الماشك (الملقط) بالقوة من الخباز ويعطي لأحد المنتظرين قرصا كأنه يساعد الخباز ثم يأخذ باقي الأقراص لنفسه ولا يكاد يبقلي للآخرين شيئا، ويقول لهم: فليمان الله. غضب يوسف العركاوي ابن الخباز الذي كان قد أنهى خدمته العسكرية الالزامية منذ بضعة أشهر، وعلى حنكه دكة شذر، ويندعي بيها، وقال له مهددا: تغا بس بقا، أحسن لك تستنظر لما يجي دورك، وطعينو الخباز يشوف شغلو". استهزأ به الرجل الأفندي أبو القاط المقجج (ذو البدلة ذات المربعات) والباينباع الأحمر، وقال له: " أنا آخذ

الخبز بيدي، واليعجبك سويه". أجابته يوسف: زين دنعاين!"، لم يكذب يوسف الخبير، قفز الى صرة تحت لحاف التخت واخرج منها مع الخباز خنجرا يلمع نصله: "ولك ابن البوله، قتمشي لو مقتمشي؟" وطعن الأفندي في خاصرته. قفز الأفندي والقي بأقراص الخبز من يده وخرج من المخبز وقد اكفهر وجهه وهو يمسك مكان الطعنة. رأيت الدم يقطر من بين أصابعه وهو يصيح، شرطة! شرطة!. أصبت بصدمة لهذا العنف الذي لم أعهده بين اليهود من قبل. فأقصى ما كانوا يفعلونه في عراهم اليدوي هو أن يقتربوا من الخصم ويضربون كفا بكف بصفقة واحدة بيديهم، ثم يفتحونها أمام وجه الذي يعاكسهم قائلين للخصم اليهودي ثلاث مرات: "أغمد عليك وأطفاك، أطفاك، وأبيل عليك وعلى قصب غجليك!"، أي يدعو عليه بأن ينطفئ قنديل حياته. أما خناجر وطعنات ودم، فقد كانت غريبة عنهم.

أوقف المطعون عربة وغادر المكان وغاب عن الأعين. ومرة أخرى لا خبز ولا يحزنون، ومرة أخرى سينهالون علي في البيت بالتبكيك وتعيري بأني ما يطلع مني درب. أعدت الكرة في اليوم التالي، وصلت الى المخبز فإذا بي أرى أبا يوسف يعدو وراء شخص جاء لينتقم منه بسبب طعنة أمس. ألتفت الرجل الطويل الذي يشبه المطعون وأخرج بوكس حديد وضرب أبا يوسف في رأسه بلكمة رنحته. سال الدم غزيرا، وصاح أبو يوسف يطلب النجدة. ركضوا وراء أبو البوكس الذي فر من المكان وفجأة أنهار أمام دار خالي داهود ساسون وتكوم على الأرض، أخذوا يركلونه بأقدامهم إلى أن جاءت الشرطة وكلبشت الجاني وأخذت المجني عليه الى المستشفى، ومرة أخرى عدت إلى الدار بخفي حنين، بلا خبز بل بدموع خرساء من الخيبة ومن الغضب على ما يجري في هذه الدنيا التي أصبح اليهود من الجنود المسرحين من الجيش العراقي يتكلمون بلغة الخناجر.

أقبلت العظلة الصيفية وهي الكابوس الذي تعاني منه الوالدة كل عام، وخاصة أن الحرب العالمية الثانية كانت قد اندلعت فأين ترسلنا للتصيف؟ قالت للوالد أصبحت الأحوال لا تطاق، ستة أولاد والجددة والدته وهو والوالدة، تسعة أنفار، في البيت والثلاثة الصغار وخاصة سامي وريمون اللذان لا يقعدان على أرض الله دقيقة واحدة دون خصام وصياح وتكسر الجام في اللعب بالكرة وتسلق شجرة التوت وإطعام الحمام والدجاج والعدو على الدرج صاعدين نازلين، أو الشجار مع أولاد الجيران. لم تعد تستطيع التخلص منهم بإرسالهم إلى العمات وبيوت الأخوال بعد ما سوى سامي المكسورات مع جيرانهم المسلمين.

وتأزمت الأوضاع الاقتصادية، صاح الوالد الداد من الغلاء، وقالت الوالدة: ليش مني قلقك تسيغ موظف ومحاسب ابشركة انكليزية ما اطعم خبز، لو تسيغ تاجر مثل خالي أبراهام صبحه هسا كان بربعت بالفلوس!. قال الوالد وقد شبع من تعبيره بخالها التاجر الزنكين: خاطر الله كل ساعة تجيبين خالك الزنكين بالنص وتعبيني بينو، متخلينا انعين أشلون نحلا المشاكل مال هايي الحرب السودا والمصبوغة.

ثم قال لها بعد بضعة أيام: شفتولي طريقة اتخلصين من الاولاد. ليش ما نبعث الريمون والمراد يشتغلون بالصيف ابمعمل الشخاط اللي افتحو بالكرادة ويحد من قرابيك، ستكون لهم فرصة للتصيف وربح بعض النقود تكون لهم "جقجيمة" (منحة يومية) يشترون بها صمون وعنبه لو زنكولة وجرك لو سميظ. قالت الوالدة: الخايين الأولاد بعد مفقسو من البيضي وتغوح اتشغلم مثل المكادي. قال الوالد زين دبغي انت غيغ طريقة أحسن تخلصين منهم. وأخيرا قرّ القرار بأن يذهب ريمون ومراد للعمل في معمل الشخاط، وأنا أذهب إلى خالي حاييم في الكرخ.

كان معظم العمال في هذا المعمل من أطفال اليهود الساكنين في المحلات اليهودية الفقيرة، مثل ابو سيفين وأبو شبل، وهما المحلتان اللتان كان المسلمون يخشون المرور منهما لأن سكانها اليهود كانوا من "الأشقياء اللي راسهم حار"، يكيلون الصاع صاعين لكل من يعتدي عليهم، فيأخذون حذرهم منهم. أرسلتني والدتي ذات يوم الى محلة أبو سيفين لسخرة، لأشتري لها نوعا من الكعك لا يباع الا هناك. دخلت المحلة مع شاول بن خالي صالح صيون الذي يعرف دربونات هذه المحلات وليس مثلي غشيم من البتاويين يروح تياه أبهل العكود مال اليهود. صدمني أحدهم والتفت إليه فوجدت في يده ورقة كانت في جيبتي! كيف وصلت الى يده؟ أدخلت يدي في جيبتي فأذا المائة فلس التي زودتني أمي بها قد اختفت. أدركت بأني "أنضربت أبجيب"، تقدمت الى الولد الحافي وقلت له: أش سويت ولك؟ فإذا به يرمي الدرهمين الى صديقه والأخر يرميها إلى صديقه الثالث. علمت بأني في وسط عصابة من النشالين، وأحاط بي آخرون يصرخون بي لكي أترك الجناة. أخرجت سلك الكهرياء الذي أحافظ عليه في جيبتي دائما لأدافع عن نفسي. ألقى النشال الثالث النقود وفروا بأجمعهم، كان شاول ابن خالي قد وقف مصعوقا من هذه اللعبة الجديدة، وبادرنا إلى مغادرة محلة أبي سيفين الخطرة، وقلت للوالدة: "هم زين فضت ابهاي ورجعنا الدرهمين، يما الهيح عكد بعد ما أدخل". وقد أجاد الأديب الكبير سامي ميخائيل في وصف هذه الطبقة من يهود بغداد في روايته الرائعة "فكتوريا"، ويقال إن من بين العكود التفرهدت بكل قسوة كانت محلة ابو سيفين لأن المسلمين الذين ذاقوا الأمرين من هذا العكد، أنتقموا من هؤلاء العركاويين الذين هزموا المفرهدين في اليوم الأول، فعادوا إليه في اليوم التالي مع بعض أفراد الشرطة بنادقهم وأطلقوا النار على المقاومين لينتقموا من هزيمتهم الأولى وفرهدوهم عن بكرة أبيهم، إذ كانوا ممن لا يسلم من أذاهم لا يهودي ولا مسلم.

سر ريمون ومراد بالجو الجديد الذي أخذوا يعملون فيه في معمل الشخاط، فأهل أبو سيفين وأهل أبو شبل لهم لغتهم ومفرداتهم ومسباتهم الخاصة بهما والتي لم نسمع بمثلا لجدتها وطرافتها، وهي مسبات تفوق مسبات مظفر النواب في قصائده المبتكرة الأصيلة بعراقيتها وروحها الأبية ونعمة التشفي فيها من حكام العراق الظلام، ولكن مسبات هؤلاء الأولاد تفوق كل إبداعاته وتحطه وراهم "أبسبعة كاصر". وكان أغلب كلامهم مسبات وشتم ومفردات لم نعهدها من قبل، وكانوا بالرغم من صغر سنهم يلعبون القمار ويدخنون سرا وينشلون ويسرقون اذا امكن، وكان أحدهم يغافل المشرف على العمال ويدخل المراحيض ليدخن فيها، ولذلك أطلقوا عليه أسم "الصغصغ" (الصرصار)، وكان هؤلاء الصغار يتبادلون مسبات تضحك الثكلى لم نسمع بمثلا من قبل وجديدة علينا، حتى ان ريمون أغراني بالالتحاق به للعمل في معمل الشخاط لنتمتع بسماع هذه المسبات الجديدة والتصرف الغريب لهؤلاء الصغار الذي كانوا مصابين بفقر الدم ولم يكن نموهم كباقي الأطفال، إذ لم يكن لهم والد مثل والدنا يجبرهم كل يوم على شرب ملعقة من زيت كبد الحوت بالقوة ولا يأبه بالدموع والتقرز منها. كان الحماميل (العतालون) في سوق البتاويين وغيرهم، يحسنون المسبات الفحولية المثيرة، ولكن مسباتهم كانت مختلفة عن هؤلاء اليهود (ولماذا لا أسجل هذه المسبات الخاصة بهم، فنحن نخوض هنا موضوعا علميا خالصا في الأنثروبولوجية والفولكلور العراقي التاريخي والموضوعي، وتباح في الجامعات مثل هذه الصراحة ما دام المحاضرون لا يذكرونها للإثارة الجنسية بل للموضوعية العلمية والتسجيل التاريخي المحض. وهذا ما فعله العلماء العرب في القرون الوسطى، فقد سجل أبو الفرج الأصفهاني مسبات الخلفاء العباسيين لأمهات خصومهم بحرية تامة، فلا يوجد في الدين والأبحاث العلمية حرج من التدوين العلمي. وكان الخليفة العباسي المهدي أول خليفة شتم في وجهه في الاسلام على

سبيل المزاح وقد سجلها المؤرخون). وكانت مسبات الحماميل المسلمين وغيرهم تناول أعضاء الأمهات والأخوات الأمامية، وهي مسبات فيها فحولة مغتصبة، افتضاضية مخيفة عارمة تشحن الكلمة بشحنة من السحر الأسود العدائي الغامض الهاتك للشرف والذي يصيب سامعه بالجنون كما تصيب العين الشريرة الأعداء وتدريبهم قتلى، فيصعد الدم الى الراس وتلعب الخناجر والسكاكين ويتساقط القتلى وتتلوها سلسلة من الأخذ بالثارات. أما هؤلاء الشبلاويين والأبوسيفين فقد كانت تناول الأعضاء الخلفية للخالات والعمات فقط بمصطلحات غريبة لعلها من مخلفات لهجة أيام هرون الرشيد المجيدة. كان إذا غضب أحدهم، وكثيرا ما يغضبون، يقولون، " هذا أبو العيو...ة، من خاغب تك جحفا الخلتو، زاغني بالقماغ وفوقه يغيد خاوه مني خاطغ اسكتلو، لو يخبط أنا ما اطعينو وار" (ابن الفاحشة هذا، لأنعلن فرد من زوج مقعد خالته، حاول خداعي في الميسر ويطلب مع ذلك رشوة لكي لا يفشي سري، لو تمرغ بدمه، سوف لا ادفع له اجرة لعب القمار!) وإذا سبوا القسم الأمامي فانهم لا يستعملون الكلمة الدموية المخيفة التي يستعملها المسلمون في مسباتهم والتي أهدرت بسببها دماء غزيرة. وأفضل مسباتهم هي: "ز...ا الامو أشلون نغل ابن نغل"، وكان المسلمون يضحكون لهذه المسبة اليهودية العينية الباردة عندما يسمعونها من يهودي، فلا يجدون فرضا واجبا للثأر لشرفهم وإباحة دم المعتدي. فلما سمع الوالدان هذه المسبات، هالهم ما سمعوا وقالت الوالدة:

مقتلوك لا تبعثم يشتغلون، هذولي أهل أبو سيفين غاح اسقطوهم (يفسدون) لولدانا وكل الفرنساوي والطرية الفرنسوية اللي غبيتوهم عليها غاح اطيع من غاسم. لازم انطلع من المعمل".

لم تكن هناك حاجة الى نصائح والدتي، ففي ذات صباح ذهب ريمون ومراد للمعمل، ثم عاد ريمون، مسرعا: "أبو الزمايل ساقم الزمايل عل العناد علينا حيل، وسحقونو المراد" (ساق سائق الحمير حميره بقوة عن عمد نحونا وسحقوا بحوافرهم أخي مراد). كان ريمون قد فر من قطع الحمير الذي كان يخب باتجاهه والتي ألهب الحمار ظهورها بالسياط بعد أن شاهد الطفلين اليهوديين في وسط الشارع. لم يجد مراد بجانبه ولكن بعد أن انقشع الغبار الذي أثارته حوافرها شاهد أخاه ملقى في وسط الشارع وقد سقط على الأرض وهو يعول ويكي ممسكا أسفل بطنه بيديه والدم يقطر منها. حمل مراد على ظهره وتركه برعاية جبوري صاحب حانوت الدفاتر والأفلام ليناوي الوالد وباقي الأخوة لتأخذ مراد الى المستشفى. طلبنا عربة ونقلناه الى مستشفى المجيدية. كان حافر الحمار قد فتح جرحا تحت سرة مراد وهو يقطر دما، وبعد العملية قال الشرطي الذي حرر الشكوى، والشفته كله: "هم زين فضت ابهاي، لما تكبر وتتزوج راح أيطيب الجرح، تكبر وتنسى، ما يخالف أبني!". ومنذ ذلك اليوم تبخرت أحلام الوالد بان أولاده الصغار سوف يعملون بعيدا عن البيت ويتركوا الوالدة براحة وبدون ازعاج يستطيعون الحصول على جقجيمة (مصاريف الجيب) التي ستخفف من مصاريف العائلة ومن غائلة هذه الحرب السوداء التي فشت فيها السوق السوداء وزادت من هوة الفوارق الطبقة في العراق. وجاء الكثير من المهججين من الشمال والجنوب إلى بغداد وكثرت السرقات وخاصة سرقة عجلات السيارات من محلة السعدون الغنية كما حدث مع سيارة بيت جلال بابان أمام مدرسة السعدون التي فك عجلاتها آثوريون تخصصوا بهذا الفن الجديد للمتاجرة بها، فكثير من السيارات صارت تمشي على الرنكات (على الإطار الحديدي). كنت شاهد عيان لمثل هذا السطو. ركض سائق سيارة آل بابان وراء آثوريين وأمسك بهما وأشبعهما ضربا بالقرباج وهو يقول لي "الكواويد باكوا الجرخ

والتايرات والجوب مال سيارتي" (سرقوا العجلة والإطار الخارجي والأنبوب المطاطي الداخلي لسيارتي). أما الحادثة الثانية فقد كانت مع التلكيفية في عكدنا التي حادها حظها إلى بيت عقيد الركن.

بوخوم، ألمانيا، في ٢١/٧/٢٠٠٧

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٧)

أحلى مساح في العراق - ١

الجمعة ٢ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٧

كان الوالد قلقتا من ولوعي بالألعاب الرياضية والمطالعة وإهمال دروسي في المدرسة وقال يجب أن نؤمن مستقبل سامي بطريقة أخرى فهو ليس من المتفوقين في الرياضيات واللغة الإنكليزية ولذلك لا يرجي منه في أن يصبح تاجرا. ولم يكفّ الوالد عن التفتيش عن طريقة أفضل. قرأ إعلانا في إحدى الصحف البغدادية أن وزارة الداخلية ستعقد دورات لمساحي الأراضي في العراق يتمكن بعدها الخريجون من المدارس الابتدائية من الحصول على راتب محترم. سرّ الوالد لهذا النبأ، إذ وجد فيه ضالته، فسامي يطلع من الحق في مثل هذه الأمور، ورشحتي، دون أن يستشيرني، كالعادة في العراق، فالوالد يقرر لأولاده مستقبلهم، لمنصب المساح ذي المستقبل المضمون. كانت شروط القبول أن يكون الطالب قد أنهى الدراسة الابتدائية ويحسن الحساب ونال درجة ثمانين على الأقل وأن يكون طويل القامة لكي يستطيع حمل آلة القياس والنظر في دربينها (منظارها) لقياس الأراضي. كنت آنذاك في الصف الخامس الابتدائي، ولكن هذه أشياء ستعوض عنها شطارتي، أما صغر سني وطول قامتي فقد تفتتت عقربية الوالد عن حل بسيط لها، أن أضع على رأسي سيطرة فيصلية عراقية وأسير منتصب القامة بمرافقة أبو علوان لأبدو ابن مسلم لكي تتسهل الأمور. ووافق أبو علوان أن يقوم بدور الوالد ومرافقتي إلى المدرسة الابتدائية للبنين في البتاوين لأجراء فحوصات القبول وهي المدرسة التي يقال إن نوري السعيد

الهارب تم إلقاء القبض عليه قربها (وقد شاع في إسرائيل أن حفيده، ابن صباح نوري السعيد، من فتاة يهودية قدمت به الى اسرائيل في الهجرة الجماهيرية، فأصبح رئيسا لبلدية المدينة التي أطلق عليها أسم هضبة بغداد لأنها تعج بيهود العراق. وهذا برهان آخر على أن الدم ما ينقلب ماي). اكتشف نوري السعيد ولد من المحلة قرب هذه المدرسة عندما قام الوزير السابق بمحاولة العثور على مخبأ آمن له وهو متكرر عباءة نسائية سوداء، ولكنه لم يدرك أن بنطلون بيجامته كان ظاهرا من أسفل العباءة، فاكشف أمره ولد شاطر، ونال الثعلب العجوز مصرعه الأليم، ولكن أحفاد نوري السعيد تكاثروا في إسرائيل مطعمين الدم اليهودي بدم أحد زعماء العراق العتاة. ومن يدري فلعل أحدهم سيتبوأ في يوم من الأيام منصب رئيس الوزراء في إسرائيل الديمقراطية، ويطلع على جده الداهية السياسي. فالدم لا ينقلب ماي كما تعلمون.

قام الوالد بحضور العائلة بعمل "بروات" (تحضير وأعادة ترتيب التفاصيل لأحكام التمثيلية) لتتويجي مساحا بالتاج العراقي، أي السيادة الفيصلية. جاء والدي بسيادته وأمرني أن اعتمرها. وضعتها على رأسي فأذا بالسيادة تنزلق وتغطي عيني والى حنكي. أنفجر الجميع بالضحك وأنا واقف لا أدري ماذا جرى، فقد أظلمت الدنيا فجأة أمام عيني وهم يضحكون. تظاهر الوالد بالجدية. فهو لا يحتر ولا يفقد برودة أعصابه في مثل هذه الحالات، بينما كانت أمي في مثل هذه المواقف تقول "أبدالكم قلولي وين أغوح أ وين أجي، سوولي جاره!". قال الوالد برباطة جأش: "ما يخالف، هسا نسوي جارة والسيادة منتزل على عينك". أخذ إبرة وخيط وقاس طول رأسي وعلم على السيادة وخيطها. وضعها مرة أخرى على رأسي وأمي تحاول كتمان ضحكها وهي تغمز بعينيها الى أخواتي وأخوتي، وقد برز القسم المخيط من وراء رأسي مثل قبعة نابليون المثلثة، وهي تقول "أش قيسوي ابخالو الولد المسكين"، قال الوالد:

هسا ساعت تمام، أشو تال جاي. ووضع السدارة على رأسي فلم تنزلق على عيني، بل كبحت أذناي انزلاقها هذه المرة وبرزت كالمروحيتين وتعالى الضحك من الأخوة. قال الوالد: والله هسا ساعت تمام، وطيلع بيها سامي كني غغيض (عريس). غاح يطلع أكبر وأحلى مساح بالعراق! ضحكت الوالدة والأخوات بشفقة، وضحك جاكوب بتشف من أبو عيون العغيي. وقالت الوالدة: "شوفوا اش قيلعب بحالو السامي المسكين، هايي كلها كيف سميتونو على اسم أبوي المغحوم". كانت الوالدة على عادة اليهود في العراق قد أصرت على إطلاق اسم والدها المرحوم "شأؤل" عليّ إلى جانب اسمي العراقي "سامي" الذي كان سيقيني من التفرقة الدينية آنذاك. وكان والدها قد توفي فجأة وقبل أن يرى فرحة بناته وأبنائه الستة، فآلمهم ذلك. ولذلك أطلقوا على كل ذكر ولد في العائلة بعد وفاة الجد أسم سأؤل، وإذا ذكروا أسم سأؤل كان عليهم ان يخصصوا أي سأؤل هذا، هل هو سأؤل ابن صيون أو ابن ساسون أو ابن حاييم أو ابن سليم، وأنا أصبح اسمي بين أفراد عائلة والدتي: سأؤل ابن سنيورا. وعندما هاجرت إلى إسرائيل وجدتها فرصة سانحة وغيرت اسمي طوعا الى شموييل آملا أن أصبح شاعرا مثل السموأل (شموييل) بن عادياء اليهودي. كان السموأل موضع اعجاب بين يهود البلاد العربية وقد ألف الأديب اليهودي نسيم ملول من أصل مغربي تمثيلية "شهامة العرب أو السموأل وامرؤ القيس" عندما كان مدرسا في مدرسة الأليانس في الحلة وأعجب بها سكرتير الجمعية الأدبية سلمان شينه، فألف فرقة تمثيلية مع أنور سأؤل ومراد ميخائيل وغيرهم وقرروا تمثيلها في بغداد ودعوة رئيس الوزراء آنذاك عبد المحسن السعدون كضيف شرف لمشاهدتها. أعجب رئيس الوزراء السعدون إعجابا كبيرا بالمثلين وبالتمثيلية وبموضوعها الذي يشيد بالتعاون اليهودي العربي وروابط الصداقة والاخلاص بينهم، وأوصى أن تعرض مرة أخرى على شرف الملك فيصل الأول وبحضوره مع حاشيته، واقيم عرض خاص

لجلالته. وعندمالقى خصم امرئ القيس القبض على ابن السمؤال كما رواها صناجة العرب الشاعر المخضرم الأعشى عندما التجأ الى شريح بن السمؤال في الأبلق الفرد في تيماء طالبا أن يجيره مذكرا إياه بوفاء والده حين جاء الحارث بن أبي شمر الغساني وأسر ابن السمؤال وقد رجع من الصيد وطالبه بتسليمه دروع امرئ القيس وحرимه، أبى السمؤال أن يخون صديقه، فقال الأعشى لشريح مخلدا هذه الحادثة وطالبا منه أن يجيره:

كن كالسمؤال إذا طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
إذ سامه خطتي خسف فقال له قل ما بدا لك إني سامع حارٍ
فقال: غدر وثكل أنت بينها فاختر وما فيهما حظ لمختارٍ
فشك غير بعيد ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري

فلما أبى السمؤال، قال له الحارث، إني قد أسرت ابنك فادفع الي الدروع والا ضربت عنقه، وعندما أهوى الحارث بن أبي شمر الغساني خصم امرئ القيس بسيفه ضاربا عنق الغلام الرهينة، صرخت ابنة السمؤال في التمثيلية وهي تنظر الى مصرع أخيها من سور الأبلق: رباه! قتلوا أخي، قتلوا أخي!"، صرخ الملك لصرختها وكاد يغمى عليه متأثرا من هذا الموقف، وانهمرت الدموع من عينيه، فأوقفوا التمثيلية إلى أن هدأ روع جلالته. رحمة الله عليك يا صاحب الجلالة الهاشمية الأغر. هكذا كان رد الملك المحبوب من شعبه والذي أوصاه قائلا "الدين لله والوطن للجميع"، فجمع العراقيين تحت لوائه في وحدة وطنية رائعة. وشتان ما بين تصرف الملك الهاشمي النبيل وبين تصرف الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان في مقال له ردّ فيه شهامة السمؤال ووفاءه الى أمر "الربا" جااعلا منه شيلوكا عربيا ضحى بابنه في سبيل المال

وهو الثري صاحب الأبلق الفرد في تيماء، متهما أياه بأنه كان يأمل الحصول على الربا بعد عودة امرئ القيس من رحلته الى القسطنطينية والتي قال عنها شاعرنا الأمير الكندي الفاسق:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أننا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إننا نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

على مثل هذه الشهامة تتقف طلاب العراق آنذاك وعلى مثلها سيكون، حتى جاء ساطع الحصري ومفتي القدس والمقدادي والعبوشي وأيقظوا الفتنة النائمة. وهكذا تشوه السياسة والدعاية القومية والتعصب الديني حقائق التاريخ وتزرع التفرقة والكراهية والحقد الأسود بين الشعوب.

وقد اقتديت بتغيير اسمي الى شموئيل بفعل كل من أنور شاول الذي لقب نفسه بابن السمؤال ومراد ميخائيل الذي لقب نفسه بالسموأل ولم يكن السبب أن السلطات في إسرائيل اجبرتني على تغيير اسمي كما ادعى حسين الأعرجي في مقالة نشرها بعد لقائنا في كولون بدعوة من الأستاذ الشاعر خالد المعالي. والبرهان على ما أقول هو أن الوزير بنيامين بن أليعزر ما زال يدعى حتى في الكنيسة باسمه العربي العراقي فؤاد الذي يحملته بفخر.

بوخوم، ألمانيا

يهود العراق. ذكريات وشجون

ال الحلقة (٢٨)

أحلى مساح في العراق-٢

الجمعة ٩ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٧

جاء أبو علوان يوم الجمعة ليأخذني للمقابلة مع رئيس لجنة اختيار المساحين الجدد. كرر الوالد تفاصيل التمثيلية: أبو علوان، لما يصيحولك للمقابلة ألزم إيد سامي وادخل كأنه ابنك، ولا تنسى تلبسه السيدارة كبل ما ادخلون على المدير، ولا ترجع بلا ما تسجله.

أجاب أبو علون: على عيني وعلى راسي إبراهيم أفندي يا ابو يعكوب.

دخلنا غرفة المقابلة وقد جلس أعضاء لجنة الترشيح الموقرة بسحنهم الجادة وقد بقي بعضهم محافظا على شاربه الهتلري الذي كان ما يزال بالموده، وسأل المدير:

- إبنني اشكد عمرك؟

- ايداعش سنة.

- مخلص ابتدائية؟ وين شهادك؟ سررت لهذا السؤال الذي قد يكون سبب خلاصي من أن أصبح أحلى مساح في العراق.

- لا، آني مخلص صف خامس ابتدائي بس.

بادر أبو علوان بتصحيح الأمر:

عمي ميخالف، هضا ابني شاطر، على سنة وحدة، السادس، ميخالف مشيها، عمي،
سويها الخاطري.

ضحك المدير وقال لأبي علوان: "أنمشيها انمشيها، لكن الجهاز مال الدربين خاطر
يقيس المساحة يطلع أطول من هل ولد، هاي اشلون نمشيها يابا. المسألة متصير!
غمرتني فرحة عارمة، لا مساح ولا تياه بالجوال مال العراق بين الاقطاعيين ورؤساء
العشائر والفلاييح المظلومين وقطاع الطرق والكلاب الضالة.

- عمي والله الولد شاطر، سجله خاطر الله!

- روح عمي روح، خلف الله عليك، أخذ الولد وروح، هذا وين، والجهاز مال
المساحين وين؟

حاول أبو علوان الاعتراض، كيف يرجع إلى والدي "بايد من ورا وايد من جدام،
وماسح ايده بالحايط؟" حسب تعبيره.

- لكن عمي، هذا ولد شاطر، راح يكبر ويطول...

- ولك لظولها، كلتك أخذ هل الجاهل وروح يلله، الله وياكم! ما عندي وكت أضيعا
وياك. جايلبي جاهل ابنص الجهاز ما يطلع.

لكن تعال جاي، انت شسمك؟

-أبو علوان البستنجي.

بدت الحيرة على وجه المدير، وسأله بتعجب: زين، أوين صار سامي إبراهيم معلم،
إنت أبوه؟

لم يجب أبو علوان على هذا السؤال المخرج.

- لك أبو علوان، آني الشي المحيرني هو، هسه ليش ملبسينه الهل جاهل سيدارة بهل عمر؟

ثم صاح كما صاح ارخميدس: Heureka Heureka (وجدتها، وجدتها = عرفت)، عندما اكتشف قانون السوائل، أن الجسم المغمور بالماء يفقد من وزنه بقدر وزن الماء المزاح:

-ها إعرفت، ها اعرفت، والله إعرفت، هذوله يهود سختجية، أمبين خاطر نشوفه ال هل جاهل أكبر من عمره ملبسينه بهل سيدارة المخيطيها من ورا ودازينه ويا فلاح. وانفجر ضاحكا مع باقي أعضاء اللجنة المحترمة: والله خوش دالعة، خوش بسته من هل اليهود.

لم يجد أبو علوان بدا من الانسحاب حفاظا على شرفه وكرامته، وأنا أكاد أظير من الفرح لفشل هذه المقابلة.

قال الوالد لأبي علوان عندما عدت فرحا إلى بيتنا، وأنا أتأبط بفخر السيدارة المخيطة من ورا .

- ها أبو علوان، انشا الله خير؟

- كالوا هذا جاهل والعدة مال المساحة تطلع أطول منه. ميكدر ياخذ دربين على الجول (الصحراء، أو البرية).

- يعني ولو أطول منه؟ يعني ميكدر ياخذ سطل ويكلبه ويوكف عليه وياخذ دربين على الجول؟.

حمدت الله على أن أبا علوان والمدير وأعضاء اللجنة لم يكن لهم مثل عبقرية الوالد في حل جميع المشاكل في العالم. ضحك أبو علوان وقال: - عمي يعني هم يشيل العدة والأدارة مال الدربين وهم يشيل السطل وياه وين ميروح بالجوال؟ كالوا متصير! أخذ الوالد يشتتم هؤلاء "الدماغ سززية" الذين لا يحسنون حل مثل هذه المشكلة البسيطة بقلب السطل لأقف عليه لضرب الدربين مال المساحة. لو يستطيعون حل المشاكل مثله بالبديهية، لصارت العراق أحسن من إنكلترا. وقف أبو علوان وقد طارت النشعة من رأسه، فقد علم علم اليقين بأن نص البخشيش راح عليه.

ولم أنل من كل هذه البهدلة من هذه التمثيلية سوى أن أخي جاكوب أضاف صيتين إلى قائمة أصيات الشرف التي منحها لي، وهما بعد "أبو عيون العغيي" و"الميت عاش" (لإصابتني بذات الرئة <سطل جنب> حتى كدت أموت): "أبو السيادة المخيطة" والثاني: المساح أغا.

لم يفتم من عضد الوالد حرمانني من أن أكون أحلى مساح في العراق بسبب أعضاء لجنة المساحين "الدماغ سززية" الذين لم يستطيعوا أن يحلوا مشكلة صغيرة مع آلة الدربين الطويلة. فهدته عبقريته إلى حل أفضل. كانت له تجربة ناجحة في بناء قسم خاص له في دار والده الواسعة، من مهر الوالدة بأربع غرف بعد زواجه، ولما تسلم تعويضا عن هدم البيت بسبب شق شارع غازي الجديد، قمنا بإنزال أسلاك الكهرباء، فخر الدار، التي ركبت حديثا، قام ببناء دارنا في بستان مامو. لماذا لا يقوم بإقناع أقرباء العائلة ببناء دور لهم في محلة البتاويين قرب دارنا التي خططها وبنائها، ويكون هو المقاول والمشرف على البناء ويحصل على المال بهذه الطريقة المشرفة بدلا من الاشتغال بالتجارة ومنافسة خال الوالدة في التجارة؟ رسم لأخوالي ساسون وحايم خريطة البيتين التي أعجبت خاطرهم بعد أن ضاقوا ذرعا بالسكنى في بيت والدتهم

في حنون صغير ولاحتكاك الكنات والقال والقييل بينهن، وإرشادات الحماية أم والدتي التي لا تغيب عنها شاردة وواردة، وهوسات الجيل الجديد في ألعابه في البيت الكبير ذي السرداب والبئر لطهارة النساء. اخذ الخريطة ودفع لمهندس البلدية هدية لتأشيرها والموافقة عليها. وعرض المشروع على خالي حاييم وعلى خالي ساسون بعد أن وجد قطعتي أرض متجاورتين قرب بيتنا وليكونا قرب أختهما التي كانت تقرر لزوجتيهما ماذا تلبسان، وأي اسم فرنساوي يطلقنه على الأولاد والبنات والى أية مدرسة يرسلون، وما هي آخر مودة التي يجب عليهن لبسها. فهي مدرسة الفرنساوي في مدرسة الأليانس التي تفهم في كل شيء، غير أن القدر أعطاها زوج يندعي أنه اشطر منها، ويقول إنها لا تفهم شيئا من أمور الدنيا الواسعة سوى في أمور النسوان. فرحت الوالدة بهذا الخير السار، فستكون قرب أخويها العزيزين وتستطيع بث همومها من الأطفال والزوج وتكون لها الكلمة النهائية في أمور عائلة أخويها.

وبعد أن بدأ الوالد بناء بيوت للأقرباء تحسنت حالتنا المالية ولم تعد حاجة إلى إرسالنا للتصنيف مع شلاتيه من محلتي أبو سيفين وأبو شبل أو التيه والتعرض للخطر في قياس أراضي الدولة العراقية بالدرين ومنازعات القبائل والإقطاعيين والفلاحين حول ملكية الأراضي. وقد قيل "الإنسان في التدبير والله في التقدير"، ورحم الله أيام زمان.

وبعد بناء الوالد عدة بيوت، اشترى لنا سكييتج (عجلات التزلج) وبايسكل (دراجة) مستعمل عانى منها الأخ جاكوب الأمرين بسبب ندرة الإطارات المطاطية والبناجر فيها، واشترت كفوف (قفازات) الملاكمة ومضرب التنس، وأخذنا نتعلم ركوب الخيل والسباحة، وترأست فرقة كرة القدم التي شارك فيها أحد الأصدقاء من بستان الخس ولم يكن رياضيا مثلنا، وكان يخشى منازلنا في الملاكمة والمصارعة، ولكنه

كان يحسن صياغة الكلام فقط، ويعزو نجاح الآخرين إلى فضل نصائحه التي يسديها مجاناً ولوجه الله، فالنصائح التي يسديها للآخرين هي السبب في نجاحهم، وكثيراً ما يفلح في اظهار كل أمر يقوم به بأنه فتح مبین، وما زال إلى اليوم يلومني على عدم محاولتي إظهار ما أقوم به من الأعمال والكتب التي أنشرها بمظهر الفتوحات العظيمة في مجال الأبحاث ويقول "والله لو ترجمتُ أبحاثي إلى اللغات الأخرى مثلك" كان هوستو يبها أكبر هوسات". ويعرض في المقابلات التلفزيونية صورته مع كبار الكتاب العرب بفخر كفتح مجيد، وكنا في البتاويين ننظر إلى سكان بستان الخس اليهود باستخفاف، فهم من القاطنين الجدد ولم يتمرسوا مثلنا في الصراع مع أبناء الطبقة الحاكمة والحماميل كما تمرسنا نحن في بستان مامو ولم يكونوا يحسنون الكلام باللهجة الإسلامية مثلنا، ويخشون منازلنا في الملاكمة والمصارعة، وكنا نسميهم بـ"المخانيث" لأنهم لم يجسروا على المشاركة معنا في العراك والمكاسرة بالحجارة ضد المحلات الأخرى.

وفي مجال الاعتداد بقوتنا، كنا الى جانب ألعاب الجنباز والكرة الطائرة في المدرسة في ساحة مناحيم صالح دانيال قرب دارنا نتبارى في تمارينات قبضة اليد، وكنت كلما وفرت بعض النقود أذهب مع ريمون وفودي (فؤاد شماش) ويعقوب حاي لمحل لبيع السيوف والسجائر في الزاوية التي تقع بين شارع الرشيد وجسر الملك فيصل حيث وقعت الوثبة عام ١٩٤٨ وسقط فيها الشباب المسلم واليهودي والمسيحي، منهم الشهيدين جعفر أخو محمد مهدي الجواهري وشاؤل طويق الذي كان من زعماء الحزب الشيوعي العراقي والذي يقال إن أحد أفراد الشرطة السرية أعطاه الراية العراقية ليستطيع رماة الشرطة السرية التعرف عليه وقتله ومن هناك أيضاً كانت

المظاهرات لنصرة فلسطين تنطلق منها مرددة "عاشت فلسطين عربية، حرة مستقلة" و"فلسطين، فلسطين، من الشرق إلى الغرب تحييكم الملايين". كان في هذا المحل آلة لقياس قوة الكفين بالضغط على عتلتين ومحاولة التقريب بينهما. وكان على من يرغب في قياس قوة كفيه أن يضع قطعة نقدية من ذات العانة (٤ فلوس) ويبدأ بحصر العتلتين في قبضته ويحاول تقريبهما الواحدة من الأخرى. ففي البداية عندما كان عقرب المؤشر يدور يضيء مصباحا صغيرا بلون أبيض، وكلما نجح اللاعب في الضغط وتقريب العتلتين أكثر تتوالى ألوان المصابيح الصغيرة من أصفر الى أخضر الى أزرق وآخرها الضوء الأحمر وعند ذلك فقط يرن الجرس معلنا عن فوزك الباهر. ومع التمرين والوقت أصبحت أستطيع الوصول بدون جهد كبير إلى إضاءة المصباح الأحمر ورن الجرس، فيصفق لي الأصدقاء معجبين بقوة يدي. وقف ثلاثة من الشبان الذين يبدو من عضلاتهم انهم يعملون في تصليح السيارات وفي كراجات البناجر، قال زعيمهم وهو يرى كيف استطعت الوصول إلى الضوء الأحمر بدون جهد كبير، لصديقيه باستخفاف: "هاي هم مراجل، والله هسا اطكها، أشو محمود جيب عانة!" (هل هذه بطولة، والله سأكسر هذه الآلة بسهولة، محمود ناولي ٤ فلوس)، ناولة صديقه العانة عن طيب خاطر لكي يظهرها لهؤلاء الزعاطيط الذين يרטون بلهجة أهل البتاوين بطولة الشباب الباسل من محلة الفضل الإسلامية. وضع محمود العانة في الشق الخاص بها بصورة احتفالية وهو ينظر إلينا باستخفاف، "راح أوري هذوله الزعاطيط اشلون أطكها". بدأ صاحبنا يضغط على العتلتين، وتحرك العقرب ببطء عينين شديد، وبالكداد استطاع إنارة المصباح الأبيض، صار يعصر بكل قوته وقد احمر وجهه ثم أخذ جسده وذراعيه ترتعد وأنوار المصابيح لا تستجيب كأنها تسخر منه و"على عناده". كتمنا ضحكاتنا لكي لا نغضبه، فقال له صديقه: ها محمود! أشو جعصت؟ وتوقف محمود عن محاولته وجبينه يتصب عرقا وقد احمر وجهه. ولكن

العراقي الأصلي لا يعلن فشله بسرعة، وعليه إيجاد سبب وجيه لعدم انجاز وعده، وكثيرا ما يجد العراقي جوابا مفحما يتهم فيه الآخرين بفسله تعويضا عن إخفاقه. تراجع محمود خطوتين، وتففل على اللآلة وقال: "تف! أنعل ابوج حسنة، هاي كلها من النيب...". ونظر إلينا معتزا بإفراطه في ممارسته الجنس مع النساء الساقطات من "الميدان" حيث المبغى العام واللواتي اضعفن قوته الجسدية، ولذلك لم يستطع مباراة من أسماهم بالزعاطيط في مثل هذه الهواية البسيطة. كتمنا ضحكنا وأسرعنا في مغادرة المكان، فنحن في نظره ما زلنا زعاطيط ولم تستنزف المرأة قوانا ونقودنا بعد، وعجبنا للبديهية التي اشتهر بها العراقيون في إيجاد أعذار لفشلهم.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٩)

عودة الحنين إلى العراق

السبت ١٧ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٧

تقول الأغنية العراقية الشعبية "واللي على الكصة (الجبين) انكتب، لازم تشوفه العين". هربت من دارنا التي تذكركني بالعراق إلى ألمانيا فإذا بي "كالمستجير من الرمضاء بالنار"، يعني مختصر مفيد باللهجة العراقية التي أهواها ولا أهوى سواها: "يا ام حسين، كنا أبوحده صرنا باثنين". كنت جالسا في مكنتي في معهد العلوم الشرقية في جامعة بوخوم فإذا بجرس التلفون يرن وصوت فيه لكنة عراقية محبة "كاظم حبيب يتكلم من برلين! أشلونك يابا؟ أنت مدعو إلى زيارتنا لإلقاء كلمة عن ذكرياتك التي تنشرها في <مجلة إيلاف> بدعوة من نادي الرافدين في برلين". تذكرت فجأة "نادي الرافدين" الذي أسسته نخبة من الشباب اليهودي المثقف قرب دارنا في بغداد، وبعد حرب ١٩٤٨ صادرتة الحكومة العراقية لكي يستخدم معسكرا للاجئين الفلسطينيين الذين قدموا إلى بغداد ليستبدلونهم بيهود العراق كما قيل آنذاك، "وواحدة بواحدة يا سيدي الثعلب"، كما تقول الحكاية الشعبية. (وسنعود فيما بعد إلى هؤلاء اللاجئين في حلقاتنا القادمة بإذنه تعالى). لم أرغب في لقاء مثقفين عراقيين بعد أن اكتويت بنار المقابلة التي أجراها معي الأستاذ المحامي سمير حاج بمبادرة الأديب عبد القادر الجنابي محرر مجلة إيلاف والتي "وهدنتني" (أغرنتي) وما أزال أعاني من مضاعفاتها إلى اليوم بكتابة هذه السلسلة من الذكريات التي استحلقتني فيها بعض القراء بمحرجات الأيمان أن أواصل كتابتها. وهل يوجد

قسما أخرج من أن تستحلطني قارئة من أمستردام في هولندا تسترت وراء اسم "عراقية"، ظمأى إلى ذكريات العراق وأضناها الحنين إليه فكثبت بحرارة: "أرجوك واستحلفك بمعزة العراق لديك، لا تقطعها فأنا أنظرها على أحرّ من الجمر!" (إيلاف، ٢٠٠٧-٠٨-١٧)، وتناشدي أن أستمّر في كتابة ذكرياتي. "شوفوا بشلون داخل وطالع" أو كما كان التجار من يهود العراق يقولون: "بأشلون إيراد ومصرف، دخلتنا هل حرمه"، عاشقة العراق؟ وكيف أبرئ ذمتي من هذه الأيمان المحرجة؟ "وفوكها جا الأستاذ حبيب" يغربنا بمثل هذا العرض الذي كان فوق آمالي وأحلامي في لقاء الأخوة العراقيين، وأين؟ في برلين! أوبا معوّد، بشلون ورطة تريد أتورطنا؟ فنحن اليهود لنا حساب عسير مع هذه المدينة التي دفعت غيرة النازيين عليها خشية أن تنهتد، لإحراق اليهود وإحراقها وإحراق المانيا النازية، ولم تُجدِ توبة ألمانيا بعد سقوط النازية واعتذاراتها وتعويضاتها وتوددها لإزالة الأذى الذي ألحق بيهود ألمانيا وأوروبا خاصة وبيهود العالم عامة عن مقاطعة بعض اليهود لها. كانوا في إسرائيل يستنكرون حتى على من يشتري سيارة فولكسواكن الألمانية، وعلى من يسافر إلى ألمانيا أو على من يوافق على الحصول على منحة دراسية هناك. ولا أنكر أنني في زيارتي الأولى لألمانيا كنت أشعر بضيق ويشعور بالذنب، وكان سماع صفارات سيارات الشرطة يثير في جسدي رعشة تقزز، فهي تحمل نفس نعب صفارات الجستابو في الأفلام التي تروي أحداث تلك الفترة السوداء في أوروبا عندما كانوا يلقون القبض على اليهود ويرسلوهم إلى معسكرات الإبادة. ولحسن حظي أنني عندما سافرت إلى جامعة بون لإنجاز بعض الأبحاث العلمية مع أ.د. استيفان وبلد رئيس معهد الدراسات الشرقية فيها سابقا، وتعرفت على أخلاقه النبيلة التي جمعت بين فضائل "الجنّتلان" الأوروبي وخصال "السيد" العربي الشهم، والصدافة الحميمة بين عقيلته الكريمة وزوجتي، مما ساعد على تخلصي السريع من تلك المشاعر التي

زرعتها في نفسه الآراء المسبقة الاعتبارية. وقد تعلمت من صديقي استيفان درسا رائعا في التعاون العلمي والثقافي بين رجال العلم والباحثين الموضوعيين، إذ لم يأل جهدا في تزويدي بجميع المخطوطات والكتب والمقالات التي احتجت إليها (ومع الأسف الشديد، فإن تجاربي في هذا المضمار مع مدراء مكاتب أخرى لا أريد ذكر اسمها، كانت مريرة، وعندما طبقت طريقته في مد يد المساعدة في المضمار العلمي إلى بعض "الأصدقاء" كان جزائي منهم جزاء سنّار (كما يقول المثل الجاهلي)، كما أدركت أن الإنسان يجب أن يقاس بماهيته لا بالقومية أو الدين أو العرق الذي ينتمي إليه، فهذه آراء عنصرية يزرعها المتعصبون للاصطياد بالماء العكر، كما أدركت أن الحكومات الديمقراطية القويمة التي توالى على ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية، والثقافة المنفتحة على الشعوب الأخرى المبنية على التسامح والمساواة والحرية والتعاون بين الشعوب، باستطاعتها أن تنشئ جيلا جديدا من المثقفين بل من الشعوب الذين تستطيع الدول أن تفتخر بهم وبالمستوى الإنساني الرفيع الذي بلغوه. وهذا ما نأمل أن تقوم به حكومات العراق الحديث.

وفي طفولتي في العراق كنت اسمع بجودة الصناعات الألمانية ودقتها مقابل رخص وورداء الصناعات اليابانية. تحطمت عجلة دراجتي الصغيرة ذات "الثلاث اجروخ" (ثلاث عجلات) لوعورة شارعنا قبل تبليطه. طلبت من الوالد شراء عجلة جديدة، ألمانية الصنع لا يابانية. قال الوالد: "على عيني وعلى راسي، العصر أجيب لك جرخ (عجلة) جديد". كررت: "أغيدو ألماني ما جباني (أريده أن يكون من صنع ألمانيا لا اليابان)", ردّ بثقة: "من عيني، ما يخالف". وفي المساء فتحت "اللفة" بلهفة وفحصت الجرخ، ثم رميته وأنا أصرخ بزعل: "هذا جباني (ياباني) بالعجل يتجرع

(يعطب بسرعة)، أغيذ ألماني!". ضحك الوالد وهو يقول لأمي: "والله ما يمشي علينا قرش قلب" (لا يمكن غشه)، ما يخالف غدا أبدلو بألماني!".

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية سمعنا بالكارثة التي حلت بيهود أوروبا وبمعسكرات الاعتقال والإبادة، وأعلنت الطائفة الإسرائيلية (كما كانت تسمى سابقا) في العراق، الحداد وفرشت المقاعد في الكنس بالقماش الأسود، وتليت الصلوات على أرواح الشهداء، وكان خالي داوود ساسون من بين يهود العراق الذين هالتهم الكارثة وشاركوا في الصلوات وكان يأخذنا معه الى كنيس مثير طويق للصلاة معه وتلاوة الصلوات على أرواح الشهداء المعذبين، أما خالي صالح صيون فكان قد فتح دار العائلة في محلة حنون صغير لاستضافة الجنود اليهود البولنديين وغيرهم من جيش اندرس في أيام السبت والأعياد في عام ١٩٤٢. وتردد اسم هتلر وأعوانه بإعجاب وإكبار، وأطلقت بعض العائلات المسلمة على أبنائها أسماء هتلر وقادته، ورسمت علامة الصليب المعقوف وشعارات نازية مهينة أخرى على جدران المدارس والأماكن العامة. وعَرَضَ عليّ أبن جارنا التاجر مهدي طعيمة الذي كان يسكن قبالة دارنا بالبناويين، صحبته للعب الورق مع الطيارين الألمان الأسرى وتزويدهم بالحلويات، فرفضت. وبعد الحرب العالمية الثانية عرضت حطام الطائرات الحربية للبيع، فكان الذي يريد البراغي ويخلع ما يحلو له ويدفع مقابلها، بعد المساومة، مبلغا زهيدا. تمكن أحد العمال الميكانيكيين من فتح غطاء لمحرك طائرة "مشرميت" الألمانية. دفع عجلة مسننة في المحرك، فإذا بعشرات العجلات المغمورة بزيت التشحيم تدور بسرعة فائقة لتحريك لولب "البروانة" (مروحة الطائرة). نادي الميكانيكي العراقي على الحاضرين، "والكم تعالوا شوفو شغل الجرمن!" وأعاد تشغيل العجلات بدفعة خفيفة

من إصبعه. أعجب الحاضرون بعمل المحرك، وصفق أحدهم بيديه متعجبا من الصناعة الألمانية المحكمة وكل ما استطاع قوله في معمعة صراع الحضارات والدول الاستعمارية والمستعمرة والصناعات والثقافات والقوميات هو: "خرب دينك جرمني، هذا أشلون شغل يخبل؟". وكان المرحوم شفيق عدس قد اتهم ظلما ببيع مخلفات الجيش البريطاني إلى الصهيونيين في إسرائيل وقدم وحده للمحاكمة بالرغم من وجود شركاء له من المسلمين. ونصحه أصدقاؤه بالهروب الى إيران ولكنه اعتمد على صداقته للوصي ورجال الحكومة ومؤمنا ببراءته ونزاهة المحاكم العراقية. ولكن الشعب والجيش والحكومة كانت يريد كبح فداء لاندحار العرب في حرب ١٩٤٨ أو ما يسميه الإسرائيليون بحرب التحرير، وشنق شفيق عدس أمام قصره بالبصرة، ودعي الشعب واللاجئون الفلسطينيون للاحتفال بهذا النصر العظيم انتقاما وتشفيا ولتصفية أمواله، وساد يهود العراق جو من الإرهاب والخوف من المستقبل وفهموا أن الإرهاب موجه ضدهم. كان جارنا دودي من عائلة عكا قد توفي في ذلك الأسبوع الأسود من شنق شفيق عدس المغدور، من التهاب المفاصل الذي امتد إلى قلبه إذ كان مولعا بالخوض في نزيز مياه سردابهم أيام فيضانات دجلة، ووضع أخوه الكبير حول ذراعه شارة سوداء حزنا عليه. مر به جندي وناداه: "ولك كواد، أشو تعال جاي، إنت مبيّن حزنان على الجاسوس الصهيوني الخائن عدس المشنوق؟" ومزق الشارة السوداء وانهال عليه صفعا وركلا وابن عكا يصرخ "والله قبل أسبوع أخويا داوود مات بالمستشفى واليوم اطلعنا من السبعة!" وعندما سمعت نساء الحي بما حدث ولولن وقلن: "الخايب ابن عكا على بختو الأسود! هم موت وهم احسب؟ وفوق حقو دقو! (فوق إنكار حقه اضربه) أشلون ظلم أسود ومصبوغ عليهم" ومن يسمع ومن يقرأ.

أفكار وذكريات مريرة مرت بذاكرتي في لحظة التي كنا نتكلم، لا أدري كيف أدرك الأستاذ كاظم حبيب بأنني أتردد في زيارة برلين، ولكن الأستاذ الذي يفهم الأمور "وهي طابيره" أردف، "سنأخذك لزيارة المتحف الذي نقلت إليه آثار العراق وبوابة بابل، والنصب التذكاري للضحايا اليهود في أوروبا، والمتحف اليهودي، فضميرهم يؤنبهم ويحاولون تصحيح الماضي هنا!". شكوت همومي لصديقي الأستاذ استيفان رايخموث رئيس المعهد الشرقي، تأملت أن يساعدني في محتتي النفسية وكدت أن أقول له "تعال عمي شيلني!"، فإذا به يزيد الطين بلة: "أنا مسافر في الأسبوع القادم مع زوجتي الطبية إلى برلين لنشبع هوايتها في مراقبة الطيور المهاجرة وإحصائها. سنأخذك معنا إلى دار الأستاذ كاظم حبيب وسآتي لأستمع إلى محاضرتك في النادي مع الأستاذ وارنر أنده من جامعة برلين!" من يستطع مقاومة مثل هذا الإغراء؟ فوجود سائقة متمرسة وطبيبة ماهرة في مثل هذه السفرة الطويلة التي يحتاج إليها المسافر في مثل سني لو أصابتي وعكة أو إذا ما وقعت حادثة طرق لا سمح الله؟ قلت: "هاي كلها من الله"، وتوكلت على الله وسافرت معهما.

كنت خلال مكوثي في برلين في شقة آل حبيب مغمورا بكرم حاتمي عراقي أصيل كان قد غمر قبلي الكثير من كبار الشعراء والأدباء العراقيين وعلى رأسهم محمد مهدي الجواهري، فلماذا لا أنضم إلى قائمة هذه الزمرة من الخالدين الذين كانوا في ضيافته؟ بلغنا الدار التي تقع فيها شقة عائلة حبيب، وهي شقة مؤجرة ومؤنثة على أحدث طراز، ومجهزة بأخر ما استحدثت من مبتكرات الحاسوب والأترنت برعاية صديق مخلص وعقيلته الألمانية أم سامر ذات الذوق الرفيع في ترتيب الشقة، فهي زوجة ولا ككل الزوجات، فقد عُرِفَتْ في العراق "بليلى المناضلة"، إذ بقيت صامدة إلى جانب زوجها المناضل أيام زج في مبنى جهاز الأمن الصدامي ببغداد ثم عذب

حتى أفرج عنه. وهي تحسن طهي أفخر المأكولات العراقية من غداء وعشاء وتقيم وليمة للضيوف العراقيين الذين دعاهم مضيفنا الأستاذ الكبير مؤرخ مصائب العراق وحامي أقليتها في العصر الحديث. وحول المائدة التي جلس حولها د. علي اسماعيل والمهندس صبيح الحمداني والأستاذ ناصر السماوي، قال السيد الحمداني وهو ينظر إليّ: "والله آني كنت أتصور الدكتور الضيف من قراءة مذكراته شايب تلفان، أشو طلع لي شاب ما شاء الله!" قلت له: "هذا من فضل ربي!".

وفي منزل آل حبيب شعرت بدفء العراق تحت لحاف قطن التيتي بمبا، بدل الشرشف الخفيف في فنادق هيلتون وشرتون في أوروبا والتي لا تقي من مكيفات الهواء الخائفة، وشربت استكان الجاي المخدر بدلا من أكياس الشاي المنقوعة بماء فاتر مثل "ماي السماطه"، وتمتعت بحمام دافئ مستخدما الليفة العراقية المدغدة للجلد بدل ليف النايلون الذي يخدش كمخالب القط الوحشي أو إسفنج البلاستيك الذي لا ينفع ولا يدفع، وشعرت بأني في نعيم طفولتي في العراق، وشكرت مزيل نغم التصنيع ومعيد نعم الطبيعة.

كانت الدعوات موجهة إلى خيرة المثقفين العراقيين المغتربين في برلين، ولماذا؟ للقاء اليهودي العراقي "الجاي من اسرائيل"، الدولة التي كان اسمها يربع كل مثقف عربي، فيتعوذ ويحوقل كما يفعل حتى الآن المثقفون في الأردن ومصر وخاصة عند سماعهم لكلمة "تطبيع". ولكن المثقفين من اليسار العربي المغترب أدركوا خطورة لعبة القومية والمتدينين المتشددين، وتسامحوا وتصالحوا. وقد روى لي الأستاذ كاظم كيف أنه عند اجتماع عقد مع الرئيس السابق صدام حسين وكان قد جلس بجواره على "القنفة" في ندوة في جمعية الاقتصاديين في بغداد، لاحظ أن مسدس الرئيس قد تدحرج إلى جانبه، فما كان من الأستاذ كاظم حبيب إلا أن نبه الرئيس

الى سقوط المسدس وناوله إياه ممسكا بالمسدس من ماسورته وليس من قبضته، فلما همّ الحارس الشخصي بالهجوم على حبيب خوفا من مؤامرة اغتيال، أوقفه الرئيس صدام حسين بقوله: "لا، ما يخالف! أنت ما شايف شلون لزم المسدس؟"، وهكذا مرت هذه الحادثة بسلام للباقة الأستاذ في تصرفه في تلك اللحظة الحرجة. وعندما لاحظ الرئيس السابق أن المصور التلفزيوني يركز عدسته على المحاضر، وكان المحاضر هو الدكتور فخري قدوري رئيس مكتب الشؤون الاقتصادية لمجلس قيادة الثورة، أوغز إلى مساعده أن توجه الكاميرا إلى سيادته، إذ قال بالحرف الواحد "قل لهذا ابن القحبة أن يوجه الكاميرا عليّ وبس". فشخصية الرئيس وصورته هي التي يجب أن تطفئ على الجميع في هذا المجتمع والحكم الذي يكون الزعيم فيه بمثابة "ظل الله على الأرض" وإن كان الحكم فيه بعثيا شعاره "وحدة، حرية، اشتراكية".

وفي برلين التقيت بكبار المثقفين العراقيين في دار عائلة حبيب وفي نادي الرافدين، وشعرت بأني محاط بإخوتي الذين غابوا عني عشرات السنين. خرجنا لنقوم بـ"فرة" حتى يلتئم جمع المدعويين، لأن العراقيين ما زالوا يعتبرون أن الساعة المعينة لابتداء المحاضرة هي اقتراح وتوصية لا غير، والباقي هو "بعونه تعالى"، وما ان ابتعدنا قليلا حتى جاء من يخبرنا أن الأستاذين رايعموت وأنده قد حضرا في الموعد، فبادرنا إلى العودة للترحيب بالضيفين الكريمين.

افتتح الأمسية الدكتور علي اسماعيل رئيس النادي مرحبا بالمحاضر والضيوف، ثم تلاه أ.د. كاظم حبيب، فقدمني للحاضرين ونوه بسلسلة ذكرياتي عن جهود العراق التي تنشرها مجلة "إيلاف" الغراء، وبمؤلفاتي في الأدب والحضارة العربية التي رشحتني لجائزة إسرائيل في علوم الشرق العربي والإسلامي. كانت جميع الوجوه

عراقية معروفة، مغروسة في ذاكرتي ووجداني وشبيهة بوجوه العراقيين في إسرائيل المتميزة بسمرتها وإن غابت اليوم الشوارب التي أتوا بها في هجرتهم عام ١٩٥١. الوجوه الغراء التي ربطت ذاكرتي بالماضي مشرقة متحفزة، مشبعة بالمودة والشوق لسماع ماذا سيقول هذا الذي تغرب عنهم وهاجر إلى الدولة التي كان آباؤهم يذكرونها بالمزعومة. قلت مجيباً على السؤال الحائر المرسوم على وجوههم، إن السبب الذي حدا بي إلى نشر ذكرياتي هو الشوق إلى عراق أيام زمان، والأسى لما يحدث فيه اليوم، واني أحاول تدوين اللهجتين العراقية: المسلمة التي تتغير باستمرار، واليهودية المنسية، وذلك لخشيتي على اللهجة اليهودية السائرة بخطى حثيثة نحو الاندثار، ولا أظن أن معاهد العراق العلمية ستقوم بتدوينها وتحليلها كما نفعل اليوم في إسرائيل وعلى رأس هؤلاء كان يقف الدكتور حاييم بلانك (من الجامعة العبرية) الذي كان أول من ميّز بين اللهجة الإسلامية (لهجة كِلتْ) ولهجة يهود العراق وغيرهم (لهجة قِلتُو)، والاستاذ يعقوب منصور (من جامعة حيفا)، ومستشرقون ألمان من أمثال البرفيسور أوتو ياسترو والبروفيسور وارنر أرنولد، أما في أمريكا وأوروبا فتدرس اللهجة العراقية الإسلامية لأغراض سياسية وعسكرية <، فالعراق "مشغول" بالبلاوي" الدينية والمذهبية والسياسية والحروب الداخلية الطاحنة. فأنا أرمي من وراء نشري لذكرياتي أن أكون شاهد عيان على فترة حرجة في تاريخ العراق أدونها من وجهة نظري ومن تجاربي الشخصية الخاصة. نظرت إلى الحاضرين وقلت في نفسي، كل عراقي هنا له ذكرياته الخاصة وتشرده في الغُرب وشوقه إلى الأهل والأصدقاء، ومعاناته في بلاد يحاول التعرف على لغتها ومجتمعها وحاضرها والتعايش مع ظروفها الاجتماعية والاقتصادية، ولا بدّ أن تجاربهم تشبه تجاربنا وشعورهم هو نفس ما شعرنا به نحن قبل أكثر من خمسين سنة بعد هجرتنا إلى إسرائيل. ولكن شتان بيننا، كان لمعظمنا شعور بأننا "نعود" ولهم شعور بأنهم "بانتظار العودة" وقد

شردهم حكام من أبناء وطنهم ودينهم ظلما وتعسفا. سألوني: "هل سيعود اليهود العراقيون الى مسقط رأسهم إذا حل السلام والوفاق الوطني في العراق؟" قلت: "الأبناء لا يحسنون العربية وليس لهم من العراق سوى ما رواه شوق أو سخط آبائهم، ولكن التاجر يرى في البلاد التي تدر الربح بلاده، أما إذا فتحت أبواب الزيارة فسوف لا يبق يهودي عراقي لا يزورها بسبب الحنين الى الديار وزيارة قبور أنبياء إسرائيل وأغلبهم مدفون فيها".

قرأت لهم قصيدة "الرحيل" التي تتحدث عن رحيل أمي وشوقها إلى العراق واستحالة زيارة الديار وقبور الأجداد والأنبياء في وقت "ينحر فيه عراقنا الحبيب من الوريد إلى الوريد، ويقتل المسلم أخاه". أنهيت حديثي بقولي إن ما دفعني الى كتابة ذكرياتي وإلى المجيء للقائهم هي استجابتي لأبيات إنسانية خالدة في الأدب العربي، أجد صداها في نفسي دائما، وأولها:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يقطنه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

والثانية:

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن شحوا عليّ كرام

وهذا سرّ الحنين إليها،

والثالثة لأبي فراس الحمداني:

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ فَإِنِّي أَرَى أَنَّ دَارًا لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرٌ

وأني اليوم أشعر أنني بين أهلي وفي داري. ولقد كان والدي يحب العتابا التالية:

أنا وبتاك بالكاس شربنا وطول الليل ما يخلص عتبنا

وهذا عتابي لكم يا أخوتي لتصفية الأجواء بيننا.

طلب إلي الأستاذ كاظم حبيب أن أروي للحاضرين كيف كنا في العراق نميز بين الطبقات الاجتماعية. فعندما كان العراقي يقول في ذهابه: "افليمان الله"، كنا نعلم أنه ينتمي إلى طبقات الشعب الكادحة وخاصة من معتمري الجراوية، أما إذا قال: "في أمان الله"، فقد كنا نعلم أنه من طبقة الموظفين الخائفين الله والحكومة، ولكنه إذا ودّع بقوله: "في الأمان"، فإننا كنا نعلم بأنه من الشيوعيين واليساريين الذين يرون "أن الأديان هي أفيون الشعوب".

وبعد التصفيق الحاد وتقديم باقة من الورود الجميلة، تناول الحاضرون "صحن الباجلا" (الباقلاء) العراقي المحب المتبل بالطنج، مما أعاد إلي ذاكرتي نواح الفخاتي في العراق: "كوكو اختي! وين اختي؟ بالحلة، اش تاكل؟ باجلة! واشتترب؟ ماي الله". وتساءلت، هل يا ترى، مازال "ماي الله في الحلة" يجري ثرا غزيرا كالكوثر الزلال في أنهار جنات عدن الموعودة، كما عهدناها أيام زمان؟ أم تلوثت مياهه بالبترول وبقايا السيارات المفخخة، وحطام الجسور والنفايات، بعد أن أصبح ماء الرافدين "ماي العباد" وأخذت الدول المجاورة تتقاسمه؟ لم أتناول الباجلا، فيهود العراق يعانون من حساسية خاصة منها، وخاصة من ورد الباقلاء في الربيع، فالرائحة التي تفوح منه تقتل الكريات البيضاء في دم المصاب بالحساسية، ويسأل أطباء الولادة في إسرائيل النفساء فيما إذا كان أحد الوالدين من مواليد العراق ليقوموا

بفحص دم الوليد لتعيين نوع الحساسية التي قد تظهر فجأة فتؤدي في بعض الأحيان إلى مضاعفات خطيرة على حياة المصاب بها.

وفي اليوم التالي أخذني الأستاذ كاظم حبيب مع الأستاذ ناصر السماوي لزيارة متحف الآثار الشرقية ودخلنا بوابة بابل الرائعة التي ما زالت تبتسم ألوانها الزاهية ببسمة النصر على أحداث الزمان، إذ لم تستطع كف الدهر الهدامة المخربة من النيل من روعتها. راعني الجمال الرائع وكثرة المعروضات وطريقة العناية بها وترتيبها وكيف استطاعوا القدوم بها من العراق. قال الأستاذ ناصر السماوي: "من حسن حظ العراق أن الأثريين الألمان قاموا بنقلها وحفظها هنا. لو بقيت في العراق لكان الخراب والإهمال والنهب قد دمرها تدميرا". أن تتأمل عظمة الحضارات التي سادت في العراق من أكديّة وآشورية وبابلية وكلدانية وإسلامية لشيء رائع، ولكن الظلم والطغيان والجهل والاستخفاف بعظمة الماضي وعبره هي التي خربت العراق وآثاره ومياهه وآباره النفطية وثروته الطبيعية بمثل هذه الوحشية التي اقترفها الغزاة والحكام الذين توالوا على مهد الحضارات في العالم نهبا وتدميرا. ثم زرنا المتحف اليهودي الذي صمم بصورة تبعث كوابيس الخوف والأسى وكيف جنى الحقد الأسود على أسر مسالمة مساهمة في بناء الحضارة فأبادتهم عن بكرة أبيهم. وفي هذا المتحف برزت الإنجازات الحضارية والثقافية والعلمية لليهود ألمانيا والتي لم يبق لها الحقد والعنصرية والاضطهاد أثر إلى أن أصبحت ذكرياتهم تنعى أمجادهم اليوم. ثم زرنا "النصب التذكاري للضحايا اليهود في أوروبا"، غابة حزينة باكية تعول فيها الريح بين ٢٧١١ شاهدا خرسانيا شيد في قلب برلين قرب أهم البنايات الرسمية في الحاضر والماضي، على ستة ملايين من اليهود الذين ساهموا في بناء علوم وآداب وفنون وثقافة ألمانيا، أيّدوا بسبب الحقد والكراهية والتعالي والغطرسة، وأية خسارة للعلم والفن والإنسانية

خسرنا العالم؟ أنهينا الزيارة بنزهة في مركب شق بنا مياه النهر الهادئ الذي يقسم برلين الى قسمين بصفتيه الرائعتي الجمال. قال الأستاذ السماوي، هناك من الزوار المسلمين من تساءل فيما إذا كانت جنات عدن التي وعد بها المؤمنون أجمل من الجنان الجميلة المزروعة على ضفتي هذا النهر الصامت المنطوي على أسرار الغيوب يهزأ من الأحقاد وغطرسة الحكام الظالمين، فهو ساحر الخلود كاتم أسرار التاريخ والمستهزئ بتكالب البشر على المادة والمال والسيطرة والقوة الغاشمة، فعندما تنعدم الرحمة وينعدم العدل والتسامح والإخاء، يسود الدمار والخراب. فالعدل أساس الملك، ودولة الظلم ساعة ودولة العدل حتى قيام الساعة. كان النازيون يحرضون على طهارة العنصر الآري، واليوم يتمتع بالحرية والديمقراطية في ألمانيا جميع الأجناس التي أدرجها النازيون في أسفل سلم الأجناس البشرية، ترى ماذا يقول هتلر وزبائنته وهو يراهم يملتون ألمانيا وتسير نساؤهم محجبات وتزوج الفتيات الآريات بعناصر سمراء وصفراء وسوداء، هل يتقبلون غضبا وهم يفحون من غيظهم في قبورهم؟ فأردد مع أمير الشعراء أحمد شوقي: "أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم!".

وعندما سار بي القطار مغادرا برلين إلى بوخوم والأستاذ كاظم حبيب يلوح بالوداع على رصيف المحطة، شعرت بنفس المرارة والأسى اللتين عانيت منهما يوم رحيلي عن العراق والغصة الخانقة عند إقلاع الطائرة من مطار بغداد يوم ٢٥ أبريل ١٩٥١ إلى مطار اللد أيام الهجرة الجماهيرية ليهود العراق. عندها أيضا تمثلت ببيت الشريف الرضي:

"وتلفتت عيني ومد خفيت عني "الديار" تلفت القلب!".

كان شعورا غريبا أن أشعر في برلين بأني أغادر العراق مرة ثانية عند وداع صديق عراقي عزيز تميز بالكرم والضيافة والإخلاص، هذه الخصال التي نفتقدها نحن الشرقيين في الغرب الذي يتعامل بالمصالح فقط.

كانت هذه هي الورطة الأولى من ورطات "أم حسين" التي عانيت منها في ألمانيا، ألا وهي الشعور بمرارة فراق العراق مرة أخرى بكل معنى الأسى والاعتراب المتمثلة في وداع من أحبب في خافقي الحنين من جديد إلى عراق أيام صبايا، وإلى بغداد خاصة!

يا من يحن إليك فؤادي هل تذكرين عهدَ الودادِ ؟

شارع نهر الفرات، مبشّرة أورشليم، في ٧/٩/٢٠٠٧

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٣٠

الحب في العراق - ١

الأثنين ٢٦ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠٠٧

أما الثانية من ورطتي "أم حسين"، فكانت رسالة بالبريد الإلكتروني من أديبة وصحفية ومذيعة عراقية معروفة ، فقد تراسلنا معا مدة طويلة، قالت بزعل: "نزور برلين ولا نلتقي؟ سأتي إلى بوخوم للقائك!" هل أنا كاذب عندما أقول أن العراق يلاحقني أينما أذهب في هذا العالم؟ وفي الساعة التي عينتها لي لوصول القطار، عرجتُ على محل يفوح بعطر الزهور لأختار "وردة الحب الصافي" التي لا أعلم من سقاها، وإن صدق حدسي فقد سقتها أيدي كمبودية أو تايلاندية استبدلت الأيدي الفلسطينية بعد الانتفاضة الثانية، ثم انتصار حماس، لتعمل في إحدى مشاتل الزهور في إسرائيل، ثم طارت بالطائرة إلى هولندا، إلى سوق الزهور العالمي ومنها إلى ألمانيا، وهذه من عجائب العولمة الجديدة التي تحاول أن تجعل العالم قرية تجارية صغيرة تحكمها مؤسسات تجارية ومالية كبرى في العواصم الرئيسية في العالم، ويأبى المتطرفون إلا الانقسام والشقاق والتناحر ليسود الحقد والدمار هذا العالم الذي اهتدى أخيرا إلى مخترعات وابتكارات وضع بعضها لخير الإنسانية.

نعم، لا بد "من ورد جوردي" يقدمه شاعر من أصل عراقي بقي محافظا على اللغة العربية مثل الكثيرين من يهود العراق في إسرائيل، ليقدمها باسم الأدباء اليهود إلى أديبة مرهفة مغتربة طبقت شهرتها الآفاق وهي تكرم بقاء باحث يهودي إسرائيلي

من أصل عراقي. حرت كيف سأتعرف عليها من بين الركاب النازلين في محطة قطار بوخوم.

- شعري أسود ومفروق من الوسط ولابسة نظارات شمسية سوداء.
- أنا لابس بذلة زرقاء، وسحتني عراقية أصلية.

توقف القطار ولم ينزل منه إلا بعض المسافرين من بينهم مصور بآلة تصوير تلفزيونية ثم تلتها فتاة جذبت إليها الأنظار، وتوقف المسافرون الذين بدؤوا يغادرون القطار ليتأملوا هذه الفتاة الجميلة ذات "الشعر العجري" الساحر والتي هبطت باعتداد والمصور يسجل كل حركاتها وسكناتها وقد ارتسمت علامات الاستفهام على وجوه المسافرين وهم يعجبون من تكون؟ هل هي أميرة من أميرات الخليج؟ أشرتُ بالسلام لتأكيد، فردت التحية بأحسن منها وانتقل المصور إليّ وتوجهت الأنظار تحاول التعرف على هذا الذي جاء لاستقبالها ويده "ورد جوري"، لعله من أصحاب الملايين الخليجيين! وتعانقنا عناق أخ لأخته لم ير أحدهما الآخر منذ سنوات طويلة محاولاً أن أشم فيها رائحة العراق الحبيب. وتذكرت جرأة العراقية- الإسرائيلية ونحن نودع الأستاذ رشيد شكر قبل عام أمام معهد يهود العراق من تأسيس أبراهام كحيلة في أورشليم-القدس، والذي قدم مع فريق من مصوري التلفزيون الأسترالي لتسجيل برنامج عن الموسيقيين والمغنين العراقيين في إسرائيل وكيف طلبت من زوجها بحياء أن يطلب من الأستاذ شكر أن يسمح لها بلمس وعناق "العراقي المسلم" لتعانق العراق في شخصه.

جلسنا في مكتبة معهد الدراسات الشرقية والإسلامية في جامعة بوخوم لإجراء المقابلة التلفزيونية والمصور يحيل النظر في كل شاردة وواردة فيما إذا كانت ملائمة

للموقف الغريب من لقاء أدبيين من أصل عراقي فرقت بينهما سدود وقيود الدين والقومية. كانت أسئلة الصحفية ذكية لأدبية متمرسة في مثل هذه المقابلات وفجأة سألتني سؤالاً استفزازياً أملتته غريزة المرأة وحب استطلاعها لخبايا القلوب: "أستاذ موريه! هل عشقت فتاة عراقية مسلمة في صباك في العراق؟" سؤال غريب ما جاوبت عليه! كيف أجيب هذه الأدبية التي ولدت أيام الانقلابات الدموية في العراق، والتي تمثلت ثورة المرأة العراقية على التقاليد بشعار رددته الفتاة العراقية في كتائب الشباب للدفاع المدني أيام الحرب العراقية الإيرانية: "لا كتاب ولا مهر، إنذبه للقاضي بالنهر!". ولكن، ألا تعلم بالحديث النبوي الشريف "ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما"، وهكذا ميز الإسلام مثل باقي الأديان السماوية، بين حب القلوب وبين حب الجسم، أي بين الحب العذري وبين الحب الجسدي. وفي أيام صبايا أي في الأربعينات في القرن الماضي، كانوا يحذرون حتى من قبلة الحب قائلين إنها دنس وكل ما ظهر من جسم المرأة "عورة" يزغرد لها الشيطان، وغير ذلك من الأقوال والأمثال المخيفة المحذرة من القبل والحب، والعياذ بالله من الشيطان الرجيم. وهكذا أصبح الحب الروحي في الشرق مكرسا لبنت العم أو لبنت الجيران في تأوهات حارقة تسكب في أغاني الغرام الرقيقة، وقد فاخر الشاعر المصري عزيز أباطة بالحياء والعفة العذرية حين قال:

ثم اثنتينا وقد رابت ظواهرنا وفي بواطننا برء من التهم

وهذا ما قام به جبران في مغامراته العاطفية مع ماري هاسكل التي اقتصرت على العناق والقبل، فالعشق المسيحي هو عشق روحي أنتوي، أما العشق المسلم فهو عشق فحولي ذكري كما قال الفيلسوف الألماني نيتشه مؤلف كتاب "هكذا قال زرادشت" دعا فيه إلى الإنسان الأعلى. أما الحب الجسدي فقد كان كما روى

الأستاذان نعيم قطان ونسيم رجوان في مذكراتهما، بأنه كان يشتري في مواخير المدينة، بؤرة الفساد التي يجول ويصوم فيها الشيطان صباح مساء، ويقف رجال الشرطة على بابه يفتشون عن السلاح المخبأ في جيوب الرجال، سنوات طويلة قبل أن يبتكر الفدائيون تفجير أنفسهم في المطارات والأماكن العامة انتقاما لشرف المسلمين الذي انتهكه الإستعمار والحضارة الحديثة التي تخشى من الموت، فخرّبوا الثقة والأمن بين الناس. أما أيام زمان فقد كان التفتيش لأجل الحفاظ على حياة من كن ينعن باللقب المشين "الباغايا" هؤلاء المسكينات ضحية المجتمع الفاسد المعلق فوق رؤوسهن دوما حكم رجال العشيرة بالإعدام طعنا بالخناجر حتى الموت، حذرا من أن أحد أفراد العائلة المنكوبة في شرفها قد يقدم على القتل لغسل عار العائلة، وعند ذلك فقط تبدأ زغاريد النساء ورقصات "جويي" الرجال ولعلعة الرصاص في الفضاء مباشرة بتطهير الشرف من أدران عار الجسد النسائي المباح بيد الشرق الذي استعبد المرأة في تقاليد بالية تجعل جسدها ملكا لرجال الحمولة والعشيرة. فشرّف العائلة يكمن بين "فخذي حريم" العشيرة كما قال لي محاضر شجاع من جامعة بير زيت، ولأن "الجدار المقدس" خلقه الله وعلى الفتاة عبء الحفاظ عليه مهما كلف الأمر وإلا فرجال العائلة "تعرف شغلها". أما في صعيد مصر، فكما يقول عبد الرحمن الشراقوي في روايته "الأرض"، فيقف الأب الغيور على عتبة مخدع العروسين منتظرا أن يرمي العريس بالمنديل المضرج بدم البكارة ليبشر له بقدم الفرج وبأنه يستطيع تناول الطعام والفتور أخيرا، فقد بيضت الحلوة وجهه ولا يحتاج إلى توجيه رصاصة إلى رأس ابنته إذا حدث، لا سمح الله، أنها فقدتها في حادثة أو أنها ولدت بدون جدار مقدس. قال لي ناحوم من مدرسة فرنك عيني وهو يضحك بأسى "البوحي (البارحة) تزوج ابن عمي وغفوصو (عروسه) طلعت منقوبه، ورجعناها البيت أبوها!"

فقد أعادوا السلعة "المعيوبة" إلى صاحبها، خاطر يعرف شغلوا وياها بدون سؤال وجواب، والله خوش منطوق وخوش شرف.

وتكرر الأديبة التي تحري المقابلة معي لتوقظني من سرحة أفكارني إلى الماضي بسؤالها المحرج: "أستاذ! حبيت بالعراق مسلمة؟"، لا شك إنها تربت بعد هجرتنا ولم تسمع بالتحذيرات الثلاث التي كانت أمهات الأطفال اليهود يرضعنها لأبنائهن مع حليهن: "لا تطلع للدغب تغا يضغبك المسلم، لا تعلي عينك على المسلمية تغا والله يذبحوك، إذا كفع المسلم ابدينك، أحسن لك اسكت ولا تجاوب" (لا تخرج الى الطريق فإن المسلم سيضربك، لا ترفع عينيك إلى فتاة مسلمة فإن أهلها سيدبحونك والله، وإذا كفر مسلم بدين اليهود من الأفضل أن تصمت ولا تجبه!).

قالت لي أمي تروي الحادثة التي كررتها في مسمعي عدة مرات، محذرة: "في المقهى المجاورة لدارنا قبل زواجي، التقى عباس (ابن جارنا وهيب بيرو قتال الدموم اللي أجرونو خطف يقتلو الجنرال مود لما جا للعراق، ولما انسينا نغزمو لعغصي جا وقام يكسف الأكو والماكو وقلبا الميوزة: اشلون متعزوموني وآني جاركم وحاميكم؟" (ابن جارنا وهيب بيرو، وهيب هو سفاك الدماء الذي أستأجره القوميون العراقيون لاغتيال الجنرال البريطاني مود عندما زار العراق، وعندما نسينا أن ندعوه إلى حضور حفلة زواجي، جاء وأخذ يكسر كل شيء في القاعة وقلب الموائد قائلا: لماذا لم تدعوني إلى الحفلة وأنا جاركم وحاميكم؟)، نعم التقى عباس في المقهى بصديقه محمود وهو مسرور بالقميص الأبيض الذي كوته أخته. نظر محمود إلى قميص عباس وقال له: أكو لكّمة على قميصك، روح نظفها (هناك بقعة على قميصك، اذهب لتنظيفها). وهبّ عباس غاضبا ثم عاد بعد نصف ساعة وقد اكفهر وجهه. لاحظ محمود أن البقعة ما زالت هناك، قال له: "مكلك شيل اللكة من قميصك!" (ألم أقل لك أزل

البقعة عن قميصك)، أجاهبه عباس: ولك كواد! مرحت اذبحت أختي! شتريد أسوي بعد؟". غامت الدنيا في عيني محمود وكاد يقع مغشيا عليه: "آني كلتلك شيل هل لكه من على قميصك هذا"، وأشار إلى قميص عباس، بعد أن سبق السيف العذل أو كما يقول المثل العراق "بعد ما طاح الفاس بالراس". مثل هذا التصرف الجاهلي والمنافض للحلم والتروي الإسلامي حذر الحديث النبوي الشريف. ولكن التهور في العراق كان يعد بطولة والثأني يعد "خنائة" (جبن)، والرجل "الراسه حار" هو السبع البطل. والآن تريد حضرة جناب الأدبية العراقية أن أخبرها فيما إذا كنت قد عشقت فتاة مسلمة في العراق! قلت لها والذكريات تعصف في رأسي "لا ما حبيت مسلمة، مسلمة هي اللي حببتي!". كنت في الخامسة عشرة عندما أحببتي زينب من بنات جار أختي أسبرونس بعد زواجها وانتقالها مع زوجها يعقوب في "مشمتمل" بناه والدي في الكرادة. وكانت زينب تنتظر زيارتي على أحر من الجمر وكنت أحاذر لقاءها متذكرا تحذير الوالدة. تجرأت ذات مرة وطلبت أن ألعب معها كرة الطائرة في حديقة مشتمل أختي أسبرونس أمام دارهم. قلت لها أطلبي إذن من والدك. خرج والدها ولما رأى الشبكة المنصوبة بيني وبينها، ورأى فيه حاجزا كافيا لعزل الحريم عن الرجال، قال لها: "زين ما يخالف!" وكم كان سرورها عظيما عندما سمح لها باللعب معي في حين كانت والدتها تراقبنا من الشباك. توردت وجنتاها وعصف هرمون مرحلة البلوغ الأنتوي في عروقها تعدو كالجياذ العربية الأصيلة، وهي ضاحكة مسرورة: "داده عيني، أبويا قبل نلعب!". وكان يعقوب كوهين زوج أختي يقول لي: ولك خطش لك هايي الدوخة، ديغ بالك لكون توقع ابتهلكه وياها" (ما لك ولهذه المشكلة؟ إحذر من أن تقع في داهية معها). وحمدت الله على أن علاقتنا لم تتجاوز الكلام والبسمات وكنت أقول لنفسي: هم زين فضت أبهاي!" كان حظي أسعد من حظ الدكتور سلمان درويش أخو الكاتب المعروف شالوم درويش، كيف أن جارتته

"سامية"، وهي ابنة "الأكبر وأشجع عائلة في حارتهم، زارته بعد أن سمعت بأن جماعة من الأطباء اليهود الذين أرادوا التخلص من الملاحظات والاضطهاد اقترحوا اعتناق الديانة الإسلامية، ودخلت داره بحجة استعارة كتاب مدرسي وقالت لسلمان درويش همسا: هل ما سمعته صحيحا؟ وهل ستكون أسعد فتاة في الدنيا؟ وهل يعدها بذلك، أي بالزواج منها؟ وقع حديثها عليه وقوع الصاعقة لأنه كان يخشى حتى التطلع إلى وجهها الصبوح الجميل ومبادلتها التحية والابتسام مخافة أن يبطش به إخوتها المعروفين بقوتهم وجبروتهم. وعندما أخبر والدته بما همست له الجارة المسلمة، أسرع أمه في ترتيب انتقال العائلة إلى حارة بعيدة لكي "يبعد عن الشر ويغنيو". (سلمان درويش، كل شيء هادئ في العيادة، رابطة الجامعيين، ص ٢٠١). زين يما، هذا دكتور وقله بالغ (بمركزه الرفيع)، وشالها وانهزم من كلمة وحده همست بها جارتته المسلمة، زين أشلون تريدان يا أديبة من زعطوط مثلي ابذبح الأيام أن يقوم بمغامرات حب مع مسلمة في سنوات الأربعين من القرن الماضي؟ دخلى ريج فوك راسج، باشلون بلوه تردين تلبينا؟

ويبدو مع ذلك أن هناك مغامرات عاطفية كانت تنسج خفية بين مسلمين ويهوديات تنتهي بأن يخطف المسلم اليهودية ويتزوجها بعد أن تسلم عن رضاها، أو تترك الفتاة اليهودية عائلتها وتتزوج بحبيبها المسلم كما حدث مع خالة إبراهيم كحيلة التي أسلمت وتزوجت عن رضاها من ابن محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال العراقي. ولكن لم يحدث على العكس، فإذا أحب اليهودي مسلمة فعليه أن يسلم ليتزوجها إذا وافق رجال عائلتها. فالمسلمون يقولون بالتكافؤ في الزواج، وكيف يتكافأ اليهودي مع المسلم؟ وفي حالة رضا العائلة المسلمة، تكتب لليهودي العاشق السلامة ويقى حيا يرزق.

ولكن أغلب العلاقات الغرامية كانت مبنية على التكتّم الشديد ولقاء الحبيبة سرا والحذر من الفضيحة التي كانت تكلف حياة العاشق اليهودي. وقد حدثنا سمير نقاش في روايته "نزولة وخيط الشيطان" عن مثل هذه العلاقات السرية، حين فر الفتى اليهودي هاربا من سطح إلى سطح من كبسة أخ الحبيبة المسلمة الذي شك في لقاها السري. وعندما هددها أخوها بالقتل فرت بالقطار إلى الجنوب وإلى المجهول الذي ينتظرها، فالفتاة الوحيدة الهاربة لا يوجد أمامها سوي العمل كخادمة وعند ذاك سيجعلها رجال العائلة عاهرتهم الخاصة.

وقد روى لي أحد الأصدقاء الذي أتق به، وهو من الرجال المتمرسون بالمغامرات العاطفية الخفية في بغداد، ويفخر بأنه كان يسمى "أبو ثلاثة جي" (بمعنى أنه كان قمرجي، سكرجي، كحججي) إن المرأة المسلمة كانت في النصف الأول من القرن الماضي تفضل المغامرات الغرامية السرية مع اليهودي الذي يكتّم السر خوفا على حياته فلا يكشف سر علاقاته الغرامية مع جاراته، بينما يقوم المسلم المغامر بفضح من تستسلم له لأنها لم تحسن الحفاظ على شرفها ويفاخر بمغامراته مع فلانة ومع علانية إن كان صدقا أو من ابتكار مخيلته أو محاولة منه لتلويث سمعة أعدائه. وكان هذا الصديق يخبرني باللقاءات الغرامية السرية التي كانت تجري بين نساء الطبقة الراقية في العراق مع عشاقهن في عيادات الأطباء من أصدقاؤهم الذين يثقون بهم. وقد أخبرني صديقي وهو من كبار أطباء الأسنان في إسرائيل اليوم، بأنه دخل فجأة إلى عيادة والده طبيب الأسنان في بغداد، فرأى امرأة رائعة الجمال على كرسي العلاج وهي منهوكة القوى سكرى بنشوة طاغية وقد تبعثر شعرها وتوردت وجنتها، وفلما رأته ارتعدت وأعدت تنورتها إلى ركبتيها وأخفت وجهها ثم لملمت باقي ملابسها التي نزعته وانسلت كالغزال الشارد. سأل الابن: "أبوي، هايي اشبيها؟"،

قال والده: "لا ماكو شين، غكبتولا جنكات ذهب" (الكل على ما يرام، ركبت لها طاقم اسنان من ذهب). ثم يعلق الدكتور الذي أصبح اليوم من كبار جراحي الأسنان في إسرائيل "وما يمشي علينا قرش قلب" (ولا يمكن التمويه عليه)، والله قيبين غكبلا ذهب ابغاسو المسايي" (لعله ركب لها شيئا من ذهب في رأسه ماسة).

وهكذا فيمكننا القول إن مثل هؤلاء الرجال والنساء في علاقتهم الغرامية السرية كانوا يعيشون في عالمين، عالم الحقيقة وعالم الواقع. وفي الفلسفة والأدب يميز الباحثون بين الحقيقة والواقع ويتخذون من الملك "أوديب" مثالا لذلك. فالملك أوديب في مسرحية سوفوكلس يرى نفسه محظوظا إذ استطاع أن يحل لغز الإنسان عندما سأله أبو الهول: من هو المخلوق الذي يسير على أربع ثم ينتقل الى السير على اثنين وبعدها يسير على ثلاث؟ وهكذا أنقذ أهالي طيبة من مضايقات الوحش وتزوج الملكة الأرملة (في الواقع، وأمه في الحقيقة) وأنجب منها أطفالا، هذا هو الواقع كما كان يراه، أما الحقيقة فهي دائما مخيفة وقاتلة، لأن أوديب عندما خرج للبحث عن حقيقته، من هو ومن هما والداه؟ أدرك فيما بعد بأنه قتل والده الملك حين اعترض طريقه في مفترق الطرق، ولما قتل الوحش كافأه الشعب بزواجه من الملكة التي كانت في الحقيقة أمه وولد له منها أولاد هم في الحقيقة أبناءه وإخوته، فلما أصّر على معرفة هذه الحقيقة الرهيبة سمل عينيه بيده لهولها وفظاعتها. ولذلك يحذر رجال الدين من محاولة كشف الحقائق التي أخفاها الله عن الإنسان رحمة به. أما الإنسان الغربي فهو يريد معرفة كل شيء إلى أن اكتشف حقيقته المرة، إذ وجد نفسه وحيدا في هذا الكون وأن حياته عبثية مثل صخرة سيزيف، وأنه يعيش أمه ويكره أباه ويغار منه، فهو في قلق أبدي. أما المؤمنون بالله فيرون أن ما اكتشفه الإنسان الحديث من الحقائق وما اخترعه من المخترعات، منها القنبلة الذرية، كما

يقول المفكر الكبير توفيق الحكيم، قد تؤدي إلى دمار العالم إذا لم يحسن الإنسان استخدام العقل والحكمة. وفي بعض البلدان الإسلامية كان ينظر إلى المخترعات الحديثة على أنها من عمل الشيطان، فالدراجة الهوائية هي "حصين إبليس"، ولم يكن الراديو ليدخل البلاد الإسلامية لولا ترتيل القرآن وما تيسر من آي الذكر الحكيم. فهذه المخترعات الشيطانية قد تؤدي إلى تدمير الإنسانية وتدمير العالم من حولها، ولا يبقى سوى وجه ربك الكريم، "وتعال يا باطلعنا من هل وحلة" التي أوقع الإنسان الغربي نفسه فيها، وأصبح قلقاً معذباً في صراعه مع قدره الذي لا يرحم. فالآلهة اليونانية تلعب بمصير الإنسان كما يلعب القط بالفأر، وعلى الإنسان أن يأخذ مصيره بيده حسب الفلسفة الوجودية، والعياذ بالله، بينما الإنسان المسلم يؤمن بالنفس مطمئنة التي تعود إلى ربها راضية مرضية ولا يعاني من القلق والاستلاب الأوروبي. أما الإنسان الغربي فيرى أن الإيمان بالقضاء والقدر أدي، بفضل الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة" الذي فضل فيه المنقول على المعقول والتصوف على المنطق والعقل، إلى ما أسماه أحد الأدباء الإيطاليين بالـ"آي.بي.أم.". في الحضارة الشرقية وهي اختصار لكلمات التوكل: "إن شاء الله، وبكرة (أي تأجيل الأعمال إلى الغد)، ومعلّش" التي تؤدي إلى التخلف الحضاري.

لذلك فمن الممكن القول إن الحقائق الخفية في الحياة هي تيارات الحياة الأساسية الخالدة، وإن الواقع هو القناع الذي يضعه الإنسان لأجل إخفاء الحقائق المخيفة فيها. وتقول الدكتورة نوال السعداوي التي فضحت مؤامرة الرجل ضد المرأة بإفثائه بضرورة ختان البنات حفظاً على طهارتهن وعفتهن في أفريقيا السوداء والسمرء، بأن هذا الظلم بالإضافة إلى عزل المرأة اجتماعياً بتزيين الحجاب والفرقة بين الجنسين

لكي يخزي الله الشيطان فلا يحضر محرضاً كلما اجتمع رجل بامرأة، هو أكبر ظلم
وحيف يلحق بالمرأة. والعياذ بالله.

ورحم الله الأديب والمفكر الكبير نجيب محفوظ حين قال في روايته "حب تحت
المطر" عن الرجال المحافظين: "لعنهم الله، يخضعون للظلم وفي الحب يصبحون
كالأسود الكاسرة"، وأكد في روايته الرمزية "أولاد حارتنا" ما قاله نيتشيه عن
"الجبلاوي" الذي جبل الإنسان من ماء وطين، وأن النبي الجديد للحضارة الحديثة
هو رجل العلم، الأمر الذي عده رجال الدين كفراً وإلحاداً، ولذلك حاول المتزمتون
في مصر اغتياله، ولكن الله سلم. ثم أنظر مرة أخرى إلى الأدبية الشابة التي تعقد
معي لقاء تلفزيونياً، وتسأل بعفوية مطلقة، إذا كنت قد أحببت في العراق فتاة مسلمة،
وأقول لنفسى: "شوف باشلون إيراد ومصرف دخلتنا اليوم هل الحرمة المثقفة، ومنين
الله جابج عليّ اليوم، تلوعينا بالماضي والحب والمرأة العراقية المظلومة؟" ففي صبايا
كان غناء المرأة العراقية بكاءً وأنياباً ونواحا:

أوف يمّا يا يمّا جبتيني للضميم يا يمّا

يهود العراق - ذكريات وشجون

(الحلقة ٣١)

(يهودي عراقي في أوروبا)

الأربعاء ١٦ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٨

في أواخر سنة ١٩٦١ قال لي البروفيسور دافيد أيلون أستاذ التاريخ الإسلامي والمتخصص في تاريخ المماليك - وهو أبي الروحي في الجامعة العبرية وكان مع البروفيسور دافيد بنيط أستاذ الفلسفة الإسلامية واليهودية والأدب العربي الوسيط والست شولميت ناردي مدرسة اللغة الانكليزية في الجامعة من أساتذتي المفضلين الذين شملوني برعايتهم وتشجيعهم طوال سنوات دراستي: "من الأفضل أن تنهي دراسة الماجستير بسرعة، فنحن نريد إرسال بعض التلامذة المتفوقين لتوسيع نطاق المواضيع التي تدرّس في معهد الدراسات الشرقية ليصبح معهدا للدراسات الآسيوية والأفريقية. نريد إرسالك للتخصص بالأدب العربي الحديث". ثم تسلمت منه رسالة بعثها من لندن طالبا أن احصل على توصية ممتازة من الأستاذ بنيط، فقد تحدث مع البروفيسور روبرت سارجنت حول دراستي في معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية في جامعة لندن واتفق معه على كتابة الأطروحة تحت إشرافه.

طلبت من البروفيسور بنيط توصية إلى جامعة لندن حسب إشارة الاستاذ أيلون. قال لي بنيط: "سأرسلها إليك على جناح السرعة، الوقت ضيق"، عدت في المساء إلى دارنا فإذا بي أجد رسالة التوصية في صندوق البريد. تعجبت من انجاز وعده بهذه السرعة. أستاذ في السبعين من عمره، يكتب رسالة توصية ويأخذ سيارة أجرة ليضع

الرسالة في صندوق البريد بنفسه لأقدمها في اليوم التالي للجنة المنح الدراسية للمجلس البريطاني بتوصية الجامعة العبرية، رحم الله هؤلاء الأساتذة الكبار وعطّر ذكراهم فقد كانوا يبذلون النفس والنفيس في سبيل طلابهم وتقدمهم في الحياة العلمية، وشعرت بعظم المسؤولية تجاههم وتجاه هذه الجامعة التي يمثلونها. كنت واقفا أمام غرفة البروفيسور أورينيل هايد رئيس المعهد لأخبره بحصولي على منحة المجلس البريطاني للدراسة في لندن. شاهدني مدرس تاريخ الأدب العربي الحديث السوري الأصل الذي كان يلقي محاضراته باللغة العربية على طريقة أيام العسلي: "ولد الشاعر في سنة ... ومات في سنة" مع قائمة مؤلفاته. سألتني: هل أنت أيضا تريد مقابلة رئيس المعهد؟ قلت نعم، سأل: ولماذا؟ قلت: في أمر يتعلق بدراستي في لندن. قال بحدة: إذن فسأدخل قبلك لأقول لرئيس المعهد بأن لا يعطيك توصية قبل أن تنهي جميع امتحانات الماجستير! من قال إنك ستنتهي الدراسة بتفوق؟ كان هذا المدرس قد ذاق الأمرين من الطلبة القادمين من العراق وخاصة لاعدادهم بأنفسهم كأن لهم الوصاية على اللغة العربية، وكل واحد منهم يدعي بأنه شاعر أو أديب أو صحفي هزت أقلامه منابر الأدب في العراق مهد العروبة والحضارة، ولتصويهم له في قواعد اللغة العربية حسب ألفية ابن مالك ولاستخدامهم حرف "قد" في كل جملة وعدم تمييزهم بين حرفي "الضاد والطاء". أجبته برود: حصلت على توصية البروفيسور بنيط بإشارة من البروفيسور أيلون. أُسْقِطَ في يده وشعر بالحرَج وأجاب لتلافي الأمر: "طيب! سأوافق على كتابة توصية لك أسوة بالآخرين". هالني الفرق بين معاملة هذا المدرس والأساتذة الكبار خريجي الجامعات الألمانية الذي كانوا يرفعون العلوم والفنون ويفتشون عن نوابغ الطلبة لتهيئتهم للمستقبل بدون تحييز.

سمع أخي جاكوب بالنبا السار حول إرسالي في بعثة دراسية إلى لندن، قال بحزم، مثل كثير من الأصدقاء الذين درسوا معي: "أنت تصير دكتور وأنا ما أصير؟ يجب على الوالد دفع تكاليف سفري". كان أخي يتبوأ منصبا رفيعا في بنك إسرائيل ومشرفا على قسم النقد الأجنبي وله مستقبل باهر: "لا، لازم أصير دكتور، فقد كنت من الأوائل في البكلوريا العراقية!". تحدثنا مع الوالد الذي كان قد وصل توا إلى إسرائيل بعد أن هرب من "نعيم العراق" بُعِيدَ أن فرهدوا داره، فعجب لهذه الدولة "المقلوبة" التي ترسل طالبا لدراسة اللغة العربية في لندن ولا ترسل أخاه المتفوق في دراسة الاقتصاد والذي كان يشغل في الأربعينيات من القرن الماضي منصب سكرتير المدير الانكليزي في شركة أندرو واير ومن البارعين بالشورت هاند (الاختزال) والطباعة باللغة الإنكليزية ويصحح أخطاء المدير الانكليزي الذي كان برتبة ميجر في الجيش البريطاني، لدراسة الاقتصاد في لندن.

سافرنا بالباخرة من حيفا إلى ميناء نابولي في إيطاليا لتوفير أجرة السفر بالطائرة، ومن ثمّ في طريقنا إلى روما التي تشوق أخي فيها الى متاحفها وصلاتها الفنية ومدينة فرنزا حيث درس أخي مراد الفن فيها بمنحة من الحكومة الأمريكية، ومنها الى البندقية التي كنتُ أتلهف إليها والى قنواتها "ليسرى الجندول بنا في عرض القنال"، فينيسيا التي ألهمت الشاعر الكبير علي محمود طه المهندس "البطران على الدنيا"، رائعته "الجندول"، ولأغني في جندولها الذي استأجرناه والذي أمسك بمجدافه ملاح خبير بقنواتها: وهو "يسوي بيد الفتنة شعره" على ألحان الموسيقار محمد عبد الوهاب الخالدة، ونسبح معه على أنغامه الرائعة وأنا أردد بسكرة رحيق الشباب الحلو في التصابي وأشم رواح الجنة في الشباب:

أين من عيني هاتيك المجالي يا عروس البحر، يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالي أين من واديك يا مهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال وسرى الجندول في عرض القنال

فأقول لأخي "أبريك، هاي القصيدة مو أحلى من ألف نظرية بالاقتصاد السياسي؟"،
فيرد أخي باستخفاف: "إي والله! من هاي كل الشعراء العرب مشردين وميتين من
الجوع!".

ومن فينسيا التي جعلت قصائد المهندس الرائعة تتردد في خيالي وبصوت عبد
الوهاب المخملي بلازمة "كيلوباترا" فاتنة الدنيا وحسنا الزمان:

يا حبيبي هذه ليلة حي آه لو شاركتني أفراح قلبي

ومن فينسيا الى جنيفا ونوافير بحيرتها وباريس مدينة الأضواء وبرج إيفل والانفاليد
ومولان روح وتمثليات موليير وقوس النصر ولقاء مراد أخي في الأستوديو المتواضع
الذي أصبح عشا للمعجبات به وبرسومه ثم الى كاليه ودوفر عبر القنال إلى بيت
القصيد، إلى لندن.

أراد جاكوب أخي أن يمتحن مبادئ اللغة الإيطالية التي تعلمها في بغداد وكانت هذه
أول مرة نزور فيها أوروبا وهي ما زالت تعلق جراحات الحرب العالمية الثانية وما
زالت متغطرة بنصبها التذكارية الممجدة لحروبها الاستعمارية وقادتها ومتاحفها
ومعارضها ومسارحها وبمطاعمها التي يعد فيها لحم الخنزير من أطيب اللحوم والعياذ
بالله، وذلك قبل أن يغزوها المسلمون بمساجدهم التي تنافس سرعة تشييد الأوربيين
للبنوك. كنا في بغداد وإسرائيل متعودين على الطعام الكاشير (الحلال)، فالدين لله
والوطن للجميع والمسلمون يحترمون شعائر الديانات الأخرى وخاصة أمور الحلال

والحرام عند اليهود. وفي عام ١٩٤٨ أسس بعض اليهود مطعمًا قريبًا من سينما غازي ولتشجيع الزبائن اليهود على ارتياده كتبوا على واجهته كلمة "كاشير" بحروف عبرية وعبرية. وصادف أنني اجتزت من أمام الواجهة ذات يوم والحماس للمعارك في فلسطين على أشده، فإذا بنئلة من الشباب المتحمس، لعلهم من حزب الاستقلال المعادي لليهود، يحطم الواجهة التي كتب عليها "كاشير" بحروف عبرية ويدخلون المطعم كالفاتحين الأشاوس ويحطمون الموائد والصحون ويضربون النادل والمدير والزبائن وقد صدمتهم المباغة، ثم يخرجون مظفرين مثل خروج صلاح الدين بعد أن فتح بيت القدس ظافرا وحررها من الصليبيين. أما في إسرائيل فهم مصابون بهوس ويحمي "الكاشير والطايف" (اللحم الحلال والحرام) والفصل بين الحليب ومشتقاته وبين اللحوم. ولأجل الحصول على شهادة بأن المطعم يقدم لحم الحلال يجب تعيين مشرف على (الكشروت) وراتب شهري يقصم الظهر ودفوع رسوم الشهادة التي يعلقها أصحاب المطاعم على أبوابها بفخر كما يعلق كبار العلماء شهادة نوبل في مكاتبهم. وفي مطابخ العائلات اليهودية المحافظة يوجد قسمان من المغاسل لغسل أدوات الطعام، واحدة لأدوات الحليب والأخرى لأدوات اللحم، وعلى هذا نشأنا و"عادة البدن لا يغيرها سوى الكفن"، وأنا لا أحب تغيير عاداتي. وما أن وضعت قدمي على أرض أوروبا حتى بدأ الصراع المخيف في داخلي بين العادات اليهودية والعادات المسيحية، فهنا لا يفقهون معنى الحلال والحرام، فقد أحلت لهم الطيبات، وكل شيء جائز بتحسين عقولهم وتجاربهم العلمية التي يغيرون نتائجها بين حين وآخر فيسرع الناس إلى تغيير عاداتهم، فالدين الجديد أصبح التجارب العلمية وفقهاؤه هم العلماء في المختبرات، أما رجال الدين فالمنقول عندهم هو أسمى من المعقول.

وفي ميناء نابولي دخلنا مطعماً للسباكيتي، فأخى مولع بتدشين الطعام القومي لكل بلد يزوره، أما أنا فمحافظة لا أحب المجازفة بطعام جديد لا أعرف عواقبه على معدتي المدللة. جاءوا بالاسباكيتي باحتفال عظيم مما زاد لهفة أخي إليه وخاصة عندما شاهد بخاره يتصاعد إلى أنوف الايطاليين فيسيل لعابهم. نظرت بشك وخوف إلى الطبق الذي وضعه النادل الايطالي برشاقة وبحركة درامية رائعة زادت من شكوكي. صحن عليه تل ملئ بالسباكيتي الذي يشبه السالبيح (الدود) السابحة في عصير الطماطم الأحمر وفوقه طبقة تشبه "الطين خاوه" العراقي المشهور، تتصاعد منه رائحة لحم لم أعدها من قبل، متوجة بقمة من المسحوق الأصفر له رائحة شيء "محن" (عفن) غريبة على أنفي. صحن يبدو كأنه جبل الشيخ (الحرمون) بهامته المكلفة بالثلوج في الشتاء. ناديت النادل بحدة، عرف أخي من صوتي بأني مقبل على عرقة عراقية شمّ فيها رائحة "العونطة":

- يا! هذا الطين خاوة فوق هل سلابيح المدممة شنو؟

- سيدي هذا لحم خنزير ممتاز.

كذتُ اسقط من هول "النبا السار"، والنادل لا يفقه سبب غضبي، وأردفت وأنا أطلب من الله أن يهدئ أعصابي وروعي وأطبقتُ أصابعي بشدة على الشوكة لكي لا أمسك بالسكين. فتناول لحم الخنزير عند اليهود من الكبائر والذي يرى بعض المتشددين أنه من الأولى الاستشهاد ولا تناوله، على الرغم من قدسية الحياة عند اليهود.

- وزين هذا الأصفر مثل خريط الأهور العراقية شنو؟"

أجاب النادل بأدب:

- هذا جين أصفر مفروم!
- ولك أحسن لك شيله بالعجل من قدامي، قبل ما أزوع. آني لا طلبت لحم خنزير ولا جين معفن، ولا يحزنون!
- من أي بلد أنت؟ نحن نقدم صحن السباكيتي هكذا! أنت الذي طلبته!
- أحمر وجه أخي وقال وهو يُحَرِّق الأُرم:
- سامي، أهدأ! تريد تسويها عرّكة، ليش أحنا بالبتاويين؟ هذا أكلهم واحنا طلبناه".
- آني طلبت لحم خنزير؟ وفوقها متلل بجين محنن؟ وآني شايفك أمغول عليه، يا حفيد الحاخام، راح تالي ما تالي تاكل لحم خنزير؟
- لا، راح أشيل اللحم واكل السباكيتي ويا الجين. وانت شي يخلصك، عيب أقعد لا تبهدلنا قدامهم.
- قلت للنادل بحزم:
- شيل صحنك وجيب خبز وبيضة مسلوقة وزيتون وبس!
- وهذا الصحن شنسوي بيه!
- أنطيه للبزون، انطيه لأبوك، بس شيله من قدامي، ترى لعبت نفسي!.
- لازم تدفع!
- وأدفع، ليش ما أدفع؟ بس شيل الصحن الملعون من قدامي.
- تنفس أخي الصعداء وحمد الله أن المسألة انتهت بسلام.

لم تنته مشاكلي مع التقاليد الأوربية الغربية التي أزهقت روحي، والتي لم نعرفها في البلاد العربية، قلت لأخي: والله خلف الله على العرب والإسلام، ما كانوا يسووننا هيح مشاكل بالأكل. وصلنا إلى لندن بعد سلسلة طويلة من مثل هذه المفاجآت المقرفة وأخي مسرور بأن الفتيات الأوربيات صرن يتسمن لنا ويبادرن بالكلام معنا ويستجنبن لدعوتنا لتناول الشاي وصحبتنا للتفرج على معالم المدن التي نزرها. وأخيرا بلغنا لندن أم الدنيا، بعد أن تعلمنا أن نسأل فيما إذا كان اللحم الذي يقدمونه هو لحم خروف أو لحم ابن الحرام الذي يتعفف اليهود والمسلمون من ذكر اسمه. وعندما سمع الطلبة المسلمون في أوروبا بأننا نطلب لحم الغنم فقط، قالوا لم نكن نعلم بأنك يمكن أن ترفض اللحم اللعين، وسروا لهذا الاكتشاف ودعوا لنا بطول العمر.

ذهبنا إلى مطعم باكستاني، فعلى الأقل هؤلاء ممن أنعم الله عليهم وهداهم إلى صراطه المستقيم، ويعرفون معنى الحلال، فقد أقسم صاحب المطعم بأن اللحم في اللوقانطا (مطعمه) حلال اشتراه من ملحمة إبلوم اليهودي في جولدرز جرين اليهودية فهدأ روعي وحمدت الله أننا نستطيع أن نلوذ من الجوع في حمى الباكستانيين. طلبت شايا بعد تناول الكباب الباكستاني الذي أحرق لساني من كثرة الفلفل. جاء النادل بكأس فيه حليب أكثر مما فيه شاي. قلت له بغضب: لم أطلب حليباً بل شايا. أجاب بالانكليزية بلثغة باكستانية خاصة جعلتني ابتسم وأنسى غضبي:

- سيدي، هذا شاي!

- لا هذا حليب، أنا ما أشرب الحليب مع اللحم، أنا يهودي.

- ها عمي، افتهمت، في لندن، يجب أن تقول أريد شايا أسودَ (بلاك تي)، أما إذا قلت أريد شاي وبس، فالانكليز يفهمون بأنك تطلبه بالحليب. شكرته على نصيحته الغالية واستعدت بالله العلي العظيم من تقاليد الأغيار الغريبة.

مبشرة أورشليم، في ٢٠٠٧ / ١٢ / ٣٠

يهود العراق - ذكريات وشجون

ال الحلقة (٣٢)

يهودي عراقي-إسرائيلي

في معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية SOAS

بجامعة لندن - ١

الثلاثاء ٢٢ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٨

كانت لندن في بداية الستينيات من القرن الماضي إنكليزية أوروبية، فلا تجد سوى النزر اليسير من "السمر والسود" الذين احتلوا اليوم قادمين من المستعمرات التي أصبحت الشمس تقلص ظلها عليها بعد أن كانت لا تغيب عنها. لم يكن آنذاك سوى القليل من الآسيويين والإفريقيين يعملون بائعي صحف وتذاكر وسائقي باصات حمراء ذات الطابقيين، وذلك قبل أن يشتري صاحب المليارات المصري محمد الفايد محلات "هارودز" الفخمة ويفقأ الحصرم في عيون الحساد، وقبل أن يفتن ابنه شهيد الحب دودي الفايد (عماد الدين محمد عبد المنعم القايد) بفحولته ووسامته إحدى سليلات العائلة المالكة البريطانية الأميرة ديانا الجميلة الفاتنة التي سبت قلوب البريطانيين وكادت تبرع على العرش العريق لأكبر إمبراطورية بحرية عرفها التاريخ لولا معاكسة الأقدار، والتي ما زال البريطانيون يترحمون عليها، وذلك قبل أن تبنى الولايات المتحدة حاملات طائراتها الجبارة التي تعمل بقوة الطاقة الذرية. وكنا نعجب لأدب الانكليز وحرصهم على أن نصل بسلام إلى العناوين التي نسألهم عنها، فهم يقولون مثلاً: "سر إلى الأمام حتى تصل إلى ميدان ترفالجر (طرف الأغر، حيث دحر نيلسون الأسطولين الفرنسي والاسباني على ساحل اسبانيا الجنوبي الغربي في

صراعهم الاستعماري المتكالب المريع)، ثم سر يمينا إلى شارع ترافالجر، ثم عرج على يسارك إلى زقاق ترافالجر، وستجد المكان، ولا يمكنك أن تخطئ". قال لي أحد الطلبة المصريين الظرفاء: لا تعجب، فقد تدخل فيما بعد ممرا يسمى ممر ترافالجر ثم تدخل قاعة تسمى قاعة ترافالجر لتجلس في مكتبة تسمى مكتبة ترافالجر. الإنكليز محافظون على تقاليدهم فهم يزنون بالأوقية (الباوند) وليس بالكيلو وقيسون السوائل باكالون وليس باللتر ويتعاملون بالباون بتقسيمه الغريب الى شيلنج وبيني مما يلخبط دماغ الناس في حساباتهم، وكانت معظم تمارين الحساب في تحضيرنا لامتحانات الميتروكليشن البريطانية في مدرسة شماش في بغداد تدور حول: كم من الباونات والشلنج والبينسات في صفقة تجارية من كذا وكذا، الأمر الذي كفرني وكره لي الرياضيات والجبر، فلما هاجرت إلى إسرائيل اخترت أجمل لغة شاعرية اصطفاها الله لتزيل كتابه العزيز وأروع لغة علمية عرفها التاريخ الوسيط في العالم، وحمدت الله على ذلك، فقد توصل أينشتين إلى معادلة القنبلة الذرية عن طريق الرياضيات. وآني خايف الله وشجابني على هل بلاوي.

وهناك في لندن بدأت رحلة العذاب في التفتيش عن غرفة للإيجار. حصلت على عنوان غرفة لسيدة إنكليزية في "تشيزيك" ووضعتُ حقيبي وأنا منهك. نادني إلى غرفة الجلوس للتعارف، سألت من أين السيد؟ قلت من إسرائيل! قالت وهي تروي على سجيته: "إذن أنت ليست من يهود بريطانيا الذين يحبون الترف والمال، أنتم مختلفون عنهم، كان هتلر يكرههم وفي غارات طائراته وهجمات الصاروخية (البليتز) على لندن كان يتعمد الأحياء اليهودية مثل جولدروز جرين وهامستيد وبيل-سايز بارك وادجووير وغيرها لينهي المسألة اليهودية!". هالني ما سمعت. أردفتُ قائلة إنها فقدتُ ابنا الوحيد في معركة الإنزال الكبرى على ساحل نورماندي في بحر

المانش، وقالت: ولكني أعلم بأنه ولد مرة أخرى عند أحد أقربائي، هل تؤمن بتناسخ الأرواح؟ فأنا أزوره كل يوم أحد بعد الصلاة. قلت في نفسي، والله خوش أوروبا وخوش تفسير لمآسي الحروب لتعزية النفس لكي لا يفقد الإنسان صوابه. وتذكرت كيف كان أبو علوان يضع أمام بقرة الثكلي البوّ (جلد الحولي <العجل> الذي نفق محشوا بالتبين) لكي تلحسه وتحنو عليه ويدر حليها وتتعزى به، وكيف صار جبران خليل جبران يؤمن بتناسخ الأرواح بعد أن ماتت أمه وأخته ومات أخوه بمرض السلّ الخطير في بوسطن لكي لا يبخع نفسه وليبقى محافظا على سلامة عقله من مصائب الفقر في هذه الدنيا.

وفي صباح اليوم التالي رن جرس الفطور، جلست على المائدة فجاءتني مستبشرة، صباح الخير سيدي! عندك حظ، الطقس جميل والشمس مشرقة، قالت ذلك وبيدها صحن فيه شرائح من اللحم فيها خطوط حمراء وبيضاء كأعلام من البلاستيك قد تقلصت بالقلي يسيل منها دهن سميك مقرف وتقع بجواره بيضة مقلية "أم العين" الرقاقة، وطماطة يسيل لعابها الأحمر ويمتزج بالدهن الأصفر في مزيج يلعب النفس. وضعتُ الصحن أمامي كالمنتصرة. قلت: والله خوش استفتاح، ويا فتاح يا رزاق من الصباحيات، شرائح لحم "على الريق؟"، وأنا طول عمري لم أسمع لا من آبائي ولا من أجداد أجدادي ومنذ سبي نبوخذنصر الكافر وخراب بيت المقدس، بأن اللحم الدهين السمين يقدم على الفطور ومع الزبد. تعوذت بالله من الشيطان الرجيم، فقد كنا في العراق مثل جميع العراقيين الأشراف نفطر على صمون مقسب، وقيمر جاموسي يلمع بياضه كخذ الحبيبة، وسيلان أو عسل النحل وجبن عراقي تهلهل له أفواه العراقيين. علمت على الأقل أن هذا اللحم هو لحيوان له أظلاف وليس لحم حيوان مفترس له براثن. فقد روى لنا ابن خالتي كريم دنوس في مجلس العائلة العلمي

والأدبي الذي كان يعقد حسب المناسبات، حكاية السلطان العثماني الذي أراد اختبار ذكاء وزيره الجديد، فقدم له صحنين في أحدهما لحم "مكّوت" (متقلص) بالطهي والآخر فيه لحم "يفرش" (اتسع حجمه وتمددت ألياف عضلاته) بالطهي وسأله: ما الفرق بين اللحوم في الصحنين؟ أجاب الوزير الذكي: "سلطانم! اللحم "المكّوت" هو لحم غنم، أما اللحم اللي "فرش" بالطبخ فهذا لحم كلب". فتعجب السلطان من ذكاء الوزير النابه وأقره في منصبه الجديد. ولذلك أردت أن أتأكد من نوع هذا اللحم الجديد المخطط والمكّوت. سألتها بحذر: يا حرمه، ولج شنو هالعزا هذا الأحمر والأبيض اليسيح دهنه؟ قالت بفخر: "ذس إز أن أكسلنت هام!" (هذا "هام" ممتاز)، لم اسمع من قبل كلمة "هام" هذه سوى في أسماء القصور الملكية والمدن البريطانية مثل قصر بكينجهام ومدينة برمنجهام، ولكن "الهام" في الطعام هذا أمر مريب لم اسمع به في حياتي. ردتُ بمرح وقد توردت وجنتاها منتظرة أن ابتمس فرحا لهذه المفاجأة الاحتفالية السارة لقدومي: "هذا لحم خنزير يا سيدي!" كدت أسقط من الكرسي من هول النبأ. خشيت أن ألمس الصحن النجس بيدي. انتصبت واقفا وقلت: أنا يهودي ولا آكل لحم خنزير، شيليه بالعجل. أكفهر وجهها وهي لا تصدق أن بشرا سويا على الأرض تعاف نفسه مثل هذا الفطور الدسم: "هذا فطورنا نحن الانكليز. يعني، أنت يهودي عن صحيح!". قلت لها بحزم: جيبي لي زيد وخبز محمص ومربى وشاي أسود على الدرتني عليج، راح أتأخر على حفلة التعارف في الجامعة.

ثم كانت الحادثة التي قصمت ظهر جمل صبري معها. قالت عليك أن تضع تبنس (بنسان من العملة الأنكليزية) في صندوق قرب التلفون عن كل مكاملة في نطاق لندن، قلت لها: "يعني لازم أقعدلك صراف وأحول فلوسي إلى "تبنسات" وأملّي

جيويي منها تخرخش ليل انهار وين ما أروح؟ أقترح أن أسجل كل مكالمة أقوم بها ثم نتحاسب في آخر الأسبوع، والله وكيلك أذفع حلالج مع الأجر الأسبوعي". وافقت على الفكرة. وفي اليوم التالي استعملت التلفون وسجلت الساعة ومكان المخابرة في نطاق لندن. كانت الخادمة واقفة، لم ترني أضع نقودا ولم تسمع دوي خرخشة "التبنس" وهي تسقط في قعر صندوق الصفيح لتخبرها بأمانتي، بل رأنتي أدون شيئا على ورقة قرب التلفون. وفي اليوم التالي نادنتي صاحبة البيت وقالت لي بصوت شرطي أمسك بتلايب حرامي متلبسا بجرمه في اللحظة الحرجة، وقالت لي: إليك نبأ غير سار، قلت: خير إن شاء الله؟ قالت: رأتك الخادمة تخابر بالتلفون ولم تضع التبنس في العلبة. قلت لها، خاله مو اتفقنا على أن أسجل عدد المكالمات وأدفع لك في نهاية الأسبوع وها هي القائمة بمكالماتي. قالت لا أتذكر أية اتفاقية بيننا من هذا القبيل، كان عليك أن تضع النقود كما قلت لك. قلت لها إذا كنت لا تتذكرين ما قلت لك البارحة وتتهميني بالغش، تفضلي هذه القائمة بعدد مكالماتي وهذه نقودك حسب القائمة مع بخشيش وسأغادر منزلك في نهاية الأسبوع، يا بنت "الهام" الدهين اليزوع.

كنا في نهاية شهر سبتمبر وبعده يبدأ شهر الأعياد المقدسة عند اليهود وخاصة عيد رأس السنة العبرية ويوم الغفران الذي استغلت مصر وسوريا قدسيته وانشغال اليهود في صلواتهم في الكنس وهاجمتا إسرائيل فجأة عام ١٩٧٣ والحرب خدعة، ثم عيد العرائش (السوكوت) (ويعرف بين مسلمي العراق بعيد العرازيل وكانوا يظنون أن المطر يهطل بسبب هذه العرازيل، فإذا أمطرت كانوا يهمسون لنا: والله! دين الكليم حق!)، فكيف سأقضي الأعياد مع هذه العجوز "الكوية" (من الأغيار غير اليهود) و"هامها" الدهين المقزز ونكدها، فكل يوم "اتسويلي: هزي نق يا نحلة" بمطالبتها

المتتالية بالدفع عن الكهرباء زيادة إذا واصلت القراءة بعد منتصف الليل أو الاستحمام أكثر من مرة في الأسبوع والتريص بالمكاملة لتسمع خرخشة التنيس. واشراح يخلصها ويا هل "كوية" الفرحانة بالقنابل التي أمطرها هتلمر على الأحياء اليهودية في لندن، وكأنها تقول: "عليّ وعلى أعدائي يا رب!" لحقدها على اليهود الأغنياء. ذهبت إلى إدارة المجلس البريطاني اطلب إعطائي عنوان عائلة يهودية أستطيع أن أريح ضميري مع تقاليدها. قالت الموظفة المستولة عن عناوين السكن: "لماذا تريد الانتقال؟" قلت لا أريد أن اسمع من يهمل لهتلمر ومطره الأسود كما قالت الشاعرة إيديث ستيويل، المنهال على الأحياء اليهودية". قالت الموظفة: نعم أنتم اليهود تريدون أن تعيشوا في حومة واحدة ولا تختلطوا بالأغيار، سأعطيك عنوانا لسيدة يهودية في جولدرز جرين التي تعج باليهود والكنس اليهودية وروح برّبع (افرح) وياهم. ذهبت على وجه السرعة لأتعرّف على السيدة فيليس ويبي وعلى الغرفة الموعودة. كان اليوم يوم جمعة، دخلت البيت فإذا برائحة الطعام اليهودي المعد ليوم السبت تصافح أنفي وتزغرد لها معدتي التي مجت طعام الأغيار وحمدت الله بأني سأستطيع قضاء الأعياد مع عائلة يهودية تقية تحافظ على الشريعة بتسامح، ولا أغضب الله وملائكته.

ذهبت إلى حفلة التعارف بين الطلبة الجدد من جميع الأجناس في معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية، ولم أدرك أنني سوف أعود إلى مضايقات أيام طفولتي حين كان المتطرفون والنازيون يعدون انتماءك إلى الديانة اليهودية جريمة يجب أن تحاسب عليها أبد الدهر بالإبادة. وجدت الفرّج في النفاق الفتيات اليهوديات حولي عندما علمن بأني قادم من إسرائيل، فأكثرهن معجبات بالدولة الفتية النشطة ويدرسن اللغة والأدب العبري ويحمن حول الطلبة اليهود للتفتيش عن أولاد الحلال

ليقاسموهن الحياة بحلوها ومرها. حسدني الطلبة العرب على الحظوة التي نلتها من فتيات مثقفات. كان المعهد آنذاك يعج بالطلبة العرب والمسلمين من جميع أطراف العالم ويقارب عدد الطلبة العرب الذين جاءوا لتقديم رسائل الدكتوراه والماجستير في ميدان الأدب العربي العشرين طالبا. هالتي هذا العدد وقلت للطالبات اليهوديات مستنكرا: طلبة من البلاد العربية جاءوا لدراسة اللغة العربية وآدابها من جميع البلدان العربية إلى إنكلترا! لو كان الطلبة في إسرائيل يذهبون إلى الخارج للكتابة عن الأدب العربي والفكر اليهودي لعدّ ذلك عارا على جامعاتنا. سألت أخي جاكوب هل يعج معهد لندن للدراسات الاقتصادية (LSE) بالطلبة العرب مثل معهد الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS)؟ قال لا، لم أرَ طالبا عربيا أو مسلما بعد. فزاد عجبني لهذه المفارقة، ألا تحتاج البلاد العربية إلى أساتذة في الاقتصاد والعلوم الحديثة الأخرى؟ ولماذا لا يذهبون إلى الأزهر وفطاحل علمائه؟ كان المصريون بعد ثورة عرابي باشا يهتمون كرومر بأنه أسس مدارس لأعداد الموظفين الصغار لخدمة الإنكليز واليوم ونحن في عام ١٩٦٢ بعد استقلال مصر الكامل الناجز بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر الذي طرد الغزاة عن أرض الكنانة يرسلون طلبة لدراسة الأدب العربي في لندن؟ والله غريبة!

وفي حفل التعارف تقدم إليّ طالب جديد وسأل: خيو! أنت منين؟ ومثل جميع اليهود الذين يجيبون عن سؤالك بسؤال آخر سألته: وأنت؟ قال، أنا من شمال سوريا، قلت: أنا جارك القريب، قال: خيو، يعني من لبنان والا من تركيا؟ قلت له لا، خيّاك من إسرائيل! اصفرّ وجهه وبدت خيبة الأمل الفظيعة على وجهه. لم ينبس ببنت شفه، وإذا به يقوم بحركة عسكرية كأن ضابطا عسكريا يأمره: إلى الورااء ذر! أراني عرض أكتافه وهو يتعوذ من الشيطان الرجيم! أما الطلبة المصريون فقد كانوا أقلّ عصبية

قومية. تعرفت هناك على بعض كبار الباحثين والأدباء العرب، منهم الدكتورة الأديبة ثريا ملحس التي قالت لي بعد أن قرأت مقالة أختي أسبرونس كوهين عن أدبها، والدمع يترقق في عينيها: "العجيب أن الكتاب العرب يتغاضون عن أدبي وفي إسرائيل يحتفلون به!"، والباحثة الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي مؤلفة كتابها الضخم الريادي "تيارات وحرركات في الشعر العربي الحديث" وقد عاتبها الدكتور محمد مصطفى بدوي على تغاضيهما عن ذكر أطروحتي عن فنون الشعر العربي الحديث، أما الطالبة مذبعة الأخبار في البي بي سي، فقدمت نفسها ، في أول محاضرة لنا بصوت حزين بأنها لاجئة فلسطينية باسم نادرة أو ما شابهه، فأشعرتني بالحر. نظر إليّ جميع الطلاب العرب نظرة اتهام قاسية وشعرت بنصال سهام عيونهم تتحطم على النصال التي امتلأ بها قلبي المعذب، وبكى بعضي على بعضي معي لمأساة فلسطين المنكوبة ولمأساة يهود العراق اللقطاء في إسرائيل. وأردت أن أصرخ: "يا ناس ترى آني هم لاجئ! بس لاجئ يهودي من البلاد العربية، ومثل الفلسطينيين سكنت في الخيام ولم أستطع اصطحاب سوى حقيبة ملابسي وخمسة دنائير بعد أن صودرت أموالنا المنقولة وغير المنقولة، لكنني أنا يهودي عراقي، تايه وما لي والي!". وكبحت جماح لساني بعنان الصبر في اللحظ الأخيرة. قال بعضي لبعضي: "ولك اسكت، ترى هذوله ما يعترفون بلاجئيين يهود من البلاد العربية، والله لو تفتح حلقك هذوله راح أيلطوك (يبلعونك) مثل الشكر لمه لو الشلغم المايح بليل الأظلم الماطر في بغداد الحبيبة!". وسكت على مضض. ومن الباحثين المعروفين كان الدكتور عبد المحسن طه بدر ومحمود الربيعي وصلاح نيازي وشوقي عبد الحكيم، والشاعر الرقيق عبد الله العذري المحبوب من الجميع وغيرهم. أما من الإنكليز فقد تعرفت على مارتن هايندس الذي نشر فيما بعد مؤلفاته القيمة عن الاسلام وألف مع السعيد بدوي قاموسهما الممتاز عن اللهجة المصرية، ثم تزوج

فيما بعد بصديقتي الدنماركية الجميلة التي تتربع اليوم على عرش المستشرقين في العالم وداعتني بقصيدة على بحر الطويل أقسم الشاعر السوري نذير العظمة بأنها قصيدة فحلة لا يتسنى كتابتها سوى لمستشرقة عبقرية فتيّة. أما الطالب الألماني وولفهارت هينريخز وهو من محرري دائرة المعارف الإسلامية اليوم والاستاذ في جامعة هارفارد، فقد تحير في موضوع كتابة أطروحة الماجستير فأشرت عليه بمعالجة أروع كتاب في النقد الأدبي هو "المناهج الأدبية" لحازم القرطاجني، فاستجاب لاقتراحي ونشر كتابه باللغة الألمانية. ثم التقيت بسلمى الجبوسي بعد أن نالت لقب دكتور عن اطروحتها في جامعة لندن، وفي طريقنا الى محطة قطار يوستن روت لي بفخر عن دواوينها وبناتها ومشاريعها العلمية وهي حيرى كيف تتعامل معي هل كإسرائيلي مغتصب لفلسطين ومسقط رأسها طبرية أم عراقي مسلوب الوطن والمال، وأخيرا قررت بعد لقائنا في مؤتمر روما للأدب العربي عام ١٩٨١ وشارك فيه كل من البروفيسور مناحيم ميلسون والأديب الكبير جمال الغيطاني وأدونيس وكمال أبو ديب وغيرهم، معاملتي على أساس أنني عربي يهودي عراقي وعند اعترافي بهذه الصيغة من هويتي فقط، سوف لا يببديني الفلسطينيون إذا ما احتلوا إسرائيل ويدمروها عن بكرة أبيها، والعياذ بالله، وكثر الله خيرها.

وفي حفلة التعارف الأولى سألني شوقي، أستاذ! جيت من إسرائيل تتعلم أيه؟ قلت له أريد تقديم أطروحة عن الشعر الحر والمنتور والمرسل في البلاد العربية، فأنا أحب الشعر العربي وقد نشرت الشعر المنتور في جرائد العراق. فكر قليلا وقال متجاهلا ردي: ألي محيرني هو إزاي تحاربونا عن طريق الشعر العربي يا جدع؟ أجبتة: أنا لا أريد محاربتكم. من قال لك بأننا نريد محاربتكم، فنحن نسعى إلى السلام معكم؟ تدخل الدكتور عبد المحسن وقال: ننععم؟ أنتم تريدون السلام معنا؟ أنتم تحتاجون

إلى مجال حيوي لهجرة جميع يهود العالم إلى إسرائيل ولذلك فحلّمكم هو توسيع رقعة ارض إسرائيل من الفرات إلى النيل. يا سلام على السلام اللي بتسعوا إليه! قلت له: كيف تستطيع التصور أن ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود يستطيعون تشييد دولة كبرى من الفرات إلى النيل؟ ومن أين لنا القوى البشرية للسيطرة على الملايين العربية، ولماذا نسيطر؟ فمعظم سكان إسرائيل من بقايا المحرقة النازية ويريدون العيش بسلام بدون عنصرية وإبادة الآخر لأنه يختلف عنهم. سيك من الكلام ده، من هذه الأوهام التي أصبحت كوايس الحكام العرب، فكروا بواقعية، سبب قيام إسرائيل هو الاضطهاد الديني والعنصري والمحرقة النازية. إنني أدعو الله أن يحل السلام بيننا وبينكم وسوف أدعوكم لزيارة جامعتنا وللمحاضرة عندنا. سكتَ عبد المحسن على مضض وأضمرها لي.

كان الطلبة العرب يقضون معظم أوقاتهم في كافتيريا الجامعة يتناقشون حول كل شيء سوى موضوعات أبحاثهم. وبعد سنة التقيت بالدكتور عبد المحسن طه بدر بعد غياب طويل عن المعهد وغرفة المطالعة، ناداني قائلاً: يا موريس! أنا عائد إلى مصر. سألته: هل أنهيت كتابك الجديد الذي جئت لتأليفه في لندن بعد كتابك "الرواية العربية الحديثة في مصر"، قال لا، ولكن الجامعة استدعتني قبل أن ابدأ بالكتابة، فأنا في مرحلة جمع المصادر فقط. ثم أردف بحماس: يا موريس، تحدثنا سابقاً عن إمكانية السلام بين العرب وإسرائيل وقد فتشت عنك لأخبرك قبل عودتي إن من الأولى بكم أيها الإسرائيليون ألا تحلموا بالسلام مع العرب، فبيننا وبينكم ما صنع الحداد، وإنما نتهيأ للجولة القادمة لحل هذه القضية إن شاء الله! أجبته: إن علينا نحن المثقفين التفاهم والدعوة إلى السلام والإخاء بين الشعوب والأديان لا إلى إثارة الحروب والفتن والدمار، فالقيم السامية لخير الإنسانية هي القيم الخالدة،

وعلينا حل المشاكل عن طريق المفاوضات لا الحروب. فالحروب هي من آثار همجية الإنسان. قال مهرداد: لا أوافقك على ذلك وآمل أن نلتقي في ساحة الحرب، والله حتى لو التقيت بك هناك فسأقتلك! وعجبت لهذه الكراهية من مثقف وأستاذ جامعي، وقلت له: إتق الله يا رجل! ما هكذا يكون الحوار بين المثقفين. ثم سأله لأغبطه وقد بلغ بي الغيظ الزبي وأنا أكظمه: ما مدة تدريباتك العسكرية يا بطل؟ قال: ثلاثة أشهر. قلت له: هل تعلم ما هي مدة تدريبات الجندي الإسرائيلي؟ إننا نحن الإسرائيليين نمد لكم يد السلام فلا ترفضوها، فالحروب لا تحل المشاكل بل تعقدوها، وفي جدلنا هذا سوف لا نحل أية مشكلة، من يحلها هم الزعماء، فلماذا نتخاصم بيننا؟

ومرت الأيام وتناست الحوار الساخن بيننا، ولكني شعرت بالأسف الشديد عندما قرأت في جريدة الأهرام عام ١٩٧٧ بأن الدكتور عبد المحسن طه بدر والدكتورة نوال السعداوي كانا من بين المثقفين المصريين الذين اعتقلتهم السلطات المصرية بعد زيارة الرئيس المغفور له السيد محمد أنور السادات لإسرائيل لعقد اتفاقية السلام المباركة بين البلدين، وذلك بعد أن أصبح الدكتور عبد المحسن طه بدر رئيساً لقسم اللغة العربية في جامعة القاهرة، ونشر عدة كتب قيمة عن الرواية المصرية آخرها "نجيب محفوظ، الرؤية والأداة" (١٩٧٨)، ثم قرأت فيما بعد عن وفاته وهو في أوج عطائه العلمي، رحمه الله وغفر له، فنحن اليهود نعتبر المتوفى معصوماً عن النقد يجب ذكر حسناته فقط، والأعمار بيد الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مباشرةً أورشليم، في ٣٠/١٢/٢٠٠٧

يهود العراق - ذكريات وشجون

الحلقة (٣٣)

يهودي عراقي - إسرائيلي

في معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية SOAS

بجامعة لندن - ٢

الخميس ٣١ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٨

وبعد حفلة التعارف وانتشار نبأ انضمام يهودي إسرائيلي إلى المعهد لإعداد أطروحة الدكتوراه عن الشعر العربي الحديث، بدأت حملة الطلبة العرب لمقاطعتي مثلما قاطعوا إسرائيل المزعومة والبضائع الإسرائيلية. وعادت حليلة إلى عاداتها القديمة. كنت قد استرحت من مثل هذه الملاحظات من طلاب مدرسة السعدون وفي شوارع بغداد بعد لجوئي إلى إسرائيل، وإن كان الجميع فيها يشيرون إليّ بالعراقي أو الشاعر العراقي. كان العرب إذا التقوا في أوروبا بيهودي يحاولون معرفة إذا كان يشم منه رائحة الصهيونية أو كراهية العرب، أما في إسرائيل فالذين يعدون أنفسهم أوروبيون أو جاؤوا من أوروبا، فانهم يحاولون معرفة إذا كان يشم من هذا الشخص الشرقي رائحة البدائية والتقاليد القديمة وإيمانه بالخرافات وبالقضاء والقدر كما يفعل علماء الفلكلور. جاءت جولدا مئير، رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك إلى لندن وقالت في اجتماعاتها مع الجالية اليهودية: عليكم بالهجرة إلى إسرائيل، فقد هاجر إليها عدد كبير من اليهود السود الأميين من البلاد العربية، ونحن نخشى أن تصبح إسرائيل دولة ليفانطينية (شرقية) ونحتاج إلى يهود أوروبا لتعزيزها بكم. سألني الطلبة اليهود الإنكليز من أين بلد قدمت؟ قلت من العراق! قالوا وكيف تقول رئيسة وزرائكم بأنكم سود وأميون

وأنت وأخوتك الثلاث تدرسون في الجامعات الأوروبية لتقديم أطروحة الدكتوراه، فأنتم لستم سود ومتفوقون في الدراسة. قلت لهم: يا با؟ جايبين أتقنعوني؟ متروحون اتقنعوا الأغا أحسن!، ولكني أظن أن هذه الدعاية السمجة هي لتشجيع يهود بريطانيا للهجرة إلى إسرائيل. قال: لقد أفحمنها بقولنا: ولماذا نهاجر إلى دولة فيها سود أميون متأخرون حضارياً، فمن الأفضل لنا أن نهاجر إلى دول متحضرة وغنية مثل كندا والولايات المتحدة أو بنقى في حماية الإمبراطورية البريطانية. قلت له: الله أبكثر خيركم، والله خوش زوج كلام، لم أفكر به من قبل! وهكذا أضاع يهود البلاد العربية في إسرائيل في الستينات من القرن الماضي لحيثهم بين حانة العربية ومانة الأشكنازية.

وفي لندن كان هناك من يخبر كل طالب عربي يتبادل الحديث معي بأني يهودي إسرائيلي ويجب الحذر منه فعله جاسوس خطير يحسن العربية والتكلم باللهجة العراقية "ويجرّ الأسرار من جوه لسانكم". وعندما أخبروا رئيس لجنة الطلاب العرب العراقي الذي كان يحب تبادل الحديث معي حيننا إلى اللهجة العراقية بدل اللهجة المصرية التي كانت تفرض نفسها على جميع الطلبة العرب في المعهد، قال للواشي: أشكرك والله يكتر خيرك، والله لم أشك فيه فقد كنت أظنه عراقي مسلم، الحمد لله ما طلعت أسرار العراق قدامه! وكنت أقول لنفسي: هل أنا اليهودي الوحيد لكي يلقي الطلبة العرب تبعات إسرائيل على كتفي.

كان طارق الطالب العراقي للعلوم السياسية يأتي للقاء الطلبة العرب في معهدنا الذي أصبح النادي غير الرسمي للعرب والمسلمين لشرب الشاي والقهوة وللحوار وقتل الوقت. سمع طارق بالطالب الإسرائيلي العراقي. تعرف عليّ وأصبح لا يفارقتي. حذره الطلبة المصريون: إزاي تصاحب يهودي إسرائيلي من مغتصبي فلسطين

ومضطهدي العرب والقائمين بمذابح دير ياسين وغيرها؟ قال لي طارق بلهجة المنتصر: أنت خايف علي؟ كلتلمهم يا أغاتي! هذا البنات أيلحقوه وين ميروح، وياهي البنت اللي يذبها آني آخذها منه! فلما سمعوا حجته الدامغة وافقوا على أن يواصل صداقته معي على "أن ينۆل إلهم كم وحدة طايفة اللي مش عاوزها هو". قلت له: والله، أكبر اتفاقية!

سار معي ذات يوم في طريق عودتنا من بيت هليل، وهو نادي الطلبة اليهود في لندن حيث يقدمون في اللحم الحلال، بعد أن سئمت مطعم نهر جانجس الهندي، ومررت كعادتي بشباك سكرتارية فندق بورتلاند قرب راسل سكوير، فإذا السكرتيرات والنادلات الجالسات على الشباك المشرف على المعهد في فترة الاستراحة ينهضن مهللات وهن يقفزن ويرقصن فرحا ملوحات بأيديهن ويرسلن القبلات في الهواء باتجاهنا وهن ياندين: "دارلينج، دارلينج". طار عقل طارق من فرحته: شوف عيني شلون من شافوني مكيفات، إيرقصن ويدرنّ البوسات بالهوا، تعال نروح أنۆل الهل فخاتي وانزلهن. قلت له: ذوله كل مرة الأمرُ بيها من هنا يسوون هل حفلة، رقص وبوس وتلويح، لا أتدير بال إلهن. قال: إنت وين عقلك؟ والله هسه أروح إلهن ينزلن، ويصعدونا إلهن ونسويها هوسه وفلة وياهن. قلت له: لا تنخدع، هذوله عندهن استراحة وديتونسن ويلتهن ويقضون وقت استراحتهن بهل هوسه. ترى هذول مثل الدنيا:

لها ضحك القيان إلى غبي ولي ضحك اللبيب إذا تغابي

لا تبهدل نفسك وياهن. لم يكثر طارق لكلامي، ونفخ صدره وهو يعبر الشارع، وقد بدا قصيرا مثل الدندح وظهرت بوادر الصلع وراء رأسه وكرشه يندفع بلهفة إلى أسفل الشباك الكبير حيث يقفن كالحمام البيض بلباسهن الرسمي. برم شاربيه ورفع

يده اليمنى ملوحا لهن بالنزول إليه. "كَمْ داوون!، كم داوون!"، وفجأة سهمت نظراتهن وساد صمت غريب وتوقفن عن كل حركة كأن لا يوجد رجل متلهف يناديهن للنزول. صدم طارق لهذا البرود المفاجئ بعد أن منى نفسه بليلة حمراء دافئة مع من فتنهن برجولته وشاربيه. التفت إليّ مستنجدا وقد اسقط في يده: هاي إصار بيهن؟ سامي! خاطر الله تعال نزلهن. ابتسمتُ ابتسامة الخبير بأمر النساء عليم: لا تضع وقتك! ترى من هل زاغور ما يطلع عصفور! فأنت ممن قلّ ماله وإن لم يشب شعر راسك. صاح: ولك تعال خاطر الأنبياء والأولياء نوللهن ونزل كم وحدة منهن. قلت له: ليش آني مطيرجي أنول ابطير وأنزلك الكشة، تعال ارجع وحافظ على شرفك.

عاد طارق الى حيث وقفتُ في الجانب الآخر من الشارع. فما أن ابتعد قليلا حتى عادت البسمات إلى وجوههن وعدن الى التلويح بأيديهن وارسال القبلات في الهواء، وترديد كلمة "دارلينج، دارلينج" مع رقصهن. قال طارق: والله راح أنجن، اشو انت دهري، مو حرام عليك تذب هل فخاتي وتروح وادشهن، مادتشوف شلون يردن تطلع عدهن. تروح هيج فرصة من إيدنا؟ تركت المكان وتبعتني طارق، وهو يقول: والله انت راح تخيلني!. قلت له: الفتاة التي تحبك لا تفضح نفسها بالهتاف وتوزيع القبلات في الهواء، بل تقف تنتظر مرورك وتحريك ببسمة خفرة حيية، وتنتظر كما قال أمير الشعراء: "بسمة وسلام وكلام وموعد فلقاء"، بمبادرتك أنت. وكان ابن شهيد الأندلسي أشطر منك عندما فهم أن الفتاة التي اعترضت طريقه تحاول التحرش به، فقال كأنه يتمم بيت شوقي:

ومشت إليّ وقد ملكتها مشية العصفور نحو الثعلب

ترى بس هيج تمشى الحكاية ويأهن والصيدا الما عنده صبر ينصاد. قال طارق وقد فكر في صفقة رابحة: زين آني أروح للمعهد وأنت جيب كم وحدة، والتذبها (التي

ترميها) آني آخذها. قلت له : ما يخالف، خوش اتفاقية، أنت روح وآني انزلك كشة منهن وأنت اتقاسمهن ويا أصدقائك المصريين اللي أفتوك بجواز الحديث مع الإسرائيلي الغازي بسبب البنات. تريد أسويلك مثل ذاك الشبلاوي الذي طلب من قريبه في وزارة الخارجية تعيينه في السفارة العراقية في باريس. وما أن وصل باريس حتى بدأ "فرة لحق نسوان" بشوارع باريس. وشاف واحدة شقراء أعجبتة، مشى وراءها، دخلت مغازة فدخل وراءها، اشترت ملابس وأدوات تجميل وهو يدفع عن كل ما تشتريه ويحمل لها الأكياس عن طيب خاطر ويمني النفس بمغامرة على حساب الحكومة العراقية. ثم سار وراءها إلى البناية التي تقع فيها شقتها، أشارت إلى الطابق العاشر وقالت: أنا أسكن هناك، تهلل وجهه وقال: خير إن شاء الله، ترى راح إنحد السكنينة! تناولت منه الأكياس وهي تبتسم له ابتسامة شكر وقالت: ميرسي بوكو شيغي، أوفوار! ودلفت بسرعة إلى المصعد وهي تلوح له شاكرة غبائه الكريم. وقف مبهورتا وهو يحرك يده يمنة ويسرة ويقول والخيبة تأكل قلبه: لا انشا الله، خوش ليلة راح نقضيها وياج، أوفوار أغاتي! ألا تدري يا طارق أن بعض النسوان هنا مثل ديلة المحتمالة في قصص ألف ليلة وليلة. روح حضر دروسك أحسن لك!

شاعت القصة بين جميع الطلبة في المعهد، وصار الطلاب العرب يتنافسون على صداقتي. ضجرت من ملاحقات طارق وهو يشير عليّ بصيد الفتيات اللواتي يخلبن لبه. كنت جالسا في كافيتريا نادي اتحاد الطلبة العام مع فتاة جميلة ساحرة من مدينة مالمو بالسويد، كانت تدرس معي الأدب الإنكليزي في يونيفيرستي كوليج تعرفت عليّ حديثا، والغريب للغريب نسيب. وفجأة دخل طارق، فما أن رآها معي حتى تهلل وجهه وصاح ليلفت انتباها: يا هلا ابصديقي سامي، شلونك؟ واقترب

ليجلس قربي ويفسد حديثي معها ولدعوتها فيما بعد لتناول الطعام معه. فكرت في طريقة للتخلص منه، قلت له: ها طارق، أشو ما شاء لله كرشك صار دبابة؟ ووضعت يدي على بطني مشيرا إلى حجم دبابته. ضحكت الصديقة الجديدة وهي تنظر إلى كرشه. غاضت البسمة الودودة من على شفثيه وإذا به يصيح بغضب صارخا: "ولك حسققبييل، اشايف نفسك!"، وأعادني بثانية واحدة إلى أيام الطفولة في مدرسة السعدون. قلت له معاتبا: يابا، غير دنتشاقا وياك، بس وين صارت الصداقة؟ أشو تالي ما تالي طلعت الجيفة! استدار طارق بخجل غاضب وغادر المكان ولم يعد مرة أخرى إلى النادي.

ومن الطلبة الذين صاروا يهددون بالجولة التالية مع إسرائيل كان الطالب القبطي أنطون، قصيرا تدمع عيناه الجاحظتان الشديدتا الإحمرار ليل نهار بتأثير "السموج" (الضباب الإنكليزي المشبع بدخان مدافئ الفحم الحجري) الخانق بعد أن فرّ من رياح خماسين مصر الحارقة التي تحمل غبار الصحراء الغربية المقرحة للجبون. كنت واقفا مع أخي نتكلم باللهجة اليهودية البغدادية. أقبل علينا هذا الطالب وقال متحرشا:

- إسرائيل مش حتعيش أكثر من سنتين ثلاثة، إحنا بنحضر جيوشنا للجولة الثانية.
- ونحن نمد لكم يد السلام.
- ليه! خافيين أندمر إسرائيل، ما تخافوش، بس حأنجيب إلكم سفن لتل - أيب وحنرجع كل يهودي مطرح ما جاه، يهود أوروبا إلى أوروبا واليهود العرب إلى البلاد العربية.

- كثر خيرك يا بطل. ألا يوجد حل غير الدمار والذبح عندكم؟ أنت مسيحي وتدعي أن المسيحية هي دين التسامح والمحبة، راحت فين وصية المسيح اللي نسوها في أوروبا: من صفعك على خدك الأيسر أدر له خدك الأيمن؟
- العفو! العفو! ربنا يشهد! أبوي كان يؤللي: إبنني لازم اتحب اليهود، ربنا المسيح منهم. أحنا بنحبكم، أنا بتكلم كده عشان المسلمين المتعصبين بتكلموا كده.
- وأنت تردد تهديداتهم مثل البغاء. ترى إسرائيل تاخذ كل تهديد بمحمل الجد. فكروا بالسلام، وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة.
- ومنذ ذلك النقاش كفف عن التهديد بتوزيع سكان إسرائيل على الدول التي قدموا منها، وبيتسم لي بالخفاء.

ثم كانت الطامة الكبرى عندما أنتقل البروفيسور سارجنت المشرف على أطروحتي إلى جامعة كمبردج، ثم تلاه الأستاذ داوود كاون البريطاني (الذي كان قد أسلم وتزوج من مسلمة) وترك الإشراف على أطروحتي وسافر للتدريس في مدرسة شمالان في لبنان. ألقىت مهمة الأشراف على الدكتور وليد عرفات، وذلك اليوم الإيهودي والمسلم صايرين مثل الحية والبطنج. حاول الدكتور وليد عرفات الدخول معي في جدل سياسي حول قضية فلسطين:

- يا مستر موريه، لم نعد نحن العرب فلاحين سذّجا كما كنا في حرب نكبة ١٩٤٨ فاليوم أصبحت لنا جيوش قوية وأسلحة وتحررنا من الاستعمار، وسنحل قضية فلسطين بحد السلاح!

- لا يا با، خلينا انخلص الدكتوراه بسلام، وين مدخلني أبهل جدل العقيم وأنت المشرف على أطروحتي، إحنا راح انحل هل مأساة الإنسانية بالكلام بينا؟ خلينا أنكمل الكتابة براس مرتاح، وبعد ما احصل على اللقب نتراجع!

وعندما عدت إلى لندن في عام ١٩٧٠ تغير موقفه من إسرائيل وقال لي الدكتور وليد عرفات: إن إسرائيل أثبتت في حرب ١٩٦٧ بأنها خلقت لتبقى ولذلك علينا أن نسعى إلى التعايش معها بسلام". قلت له: ما أنا من سنين أصيح وأقول بس المفاوضات تحل هل قضية، ولكن أميين آني كنت "أصيح والهوا أيودي" (يذهب كلامي هباء)، هسه حسيت بعد أن أهدرت آلاف الدماء الزكية الشابة من الطرفين! رحم الله جميع الشهداء من الطرفين.

مبشرة أورشليم، في ٢٠٠٧ / ١٢ / ٣٠

يهود العراق - ذكريات وشجون

الحلقة (٢٤)

يهودي عراقي - إسرائيلي

في معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية SOAS

بجامعة لندن - ٣

الجمعة ٨ فبراير / شباط ٢٠٠٨

أهدي هذا الفصل من ذكرياتي إلى الأمير تركي الفيصل الذي أعلن (إيلاف، ٢١-٢٠٠٨) بشجاعة ما أسره لي بوجل نزار العراقي، في لندن عام ١٩٦٣.

تسلمت ذات يوم من عام ١٩٦٣ دعوة من جمعية المناظرة بين الطلبة في جامعة لندن، وكانت المناظرة هذه المرة "حول الصراع العربي الإسرائيلي". اشترك في هذه المناظرة طلبة عرب ويهود وانكليز. مثل الطلبة العرب الطالب نزار العراقي من زعماء الطلبة العرب الذي كان يشغل في نفس الوقت منصب موظف في السفارة العراقية. جند كل من إتحاد الطلبة اليهود والطلبة العرب أنصارهم وغصت القاعة بالمئات من أنصار الطرفين كان بينهم ممثلون عن السفارات العربية والسفارة الإسرائيلية في لندن، فقد رأى هؤلاء بمثل هذه المباراة اختباراً للرأي العام حول موقف المثقفين من الطرفين من هذا الصراع. كان الجو متوتراً ومشحوناً بالترقب. احتاج عريف الحفل إلى عدة طرقات بمطرقته لكي يستتب الهدوء ويبدأ النقاش الذي تأخر ربع ساعة. ثار الجدل حول من يبدأ النقاش ففاز به الطالب اليهودي بعد إلقاء قطعة النقد تتقلب في الهواء وتسقط "طرة - كنية". بدأ المناقشة الطالب أرنولد كوهين، طويل نحيل له شعر يميل إلى الشقرة وقد بدأ الصلح الخفيف في أعلى

جيبينه ويضع نظارات طبية بإطار ذهبي. قال بحماس بلهجة إنكليزية أكسفوردية وبأسلوب بليغ:

سيداتي وسادتي: إن إسرائيل دولة لاجئين مضطهدين من بقايا المحرقة النازية الغاشمة الهمجية. وليس لليهود مكان آخر يلجئون إليه سوى وطنهم التاريخي، والبلاد العربية واسعة شاسعة تحتاج إلى مثقفين فلسطينيين وأيد عاملة. لقد وافق مجلس الأمن على قرار التقسيم ورفضه العرب، ولم يمر يوم على إعلان قيام الدولة الوليدة حتى زحفت سبعة جيوش جرارة لتدميرها، ثم غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة، فعلى العرب أن يتحملوا نتيجة الحرب التي بادروا إليها لتدمير إسرائيل وإلقائها في البحر. ثم انتقم العرب من إسرائيل بطرد يهود البلاد العربية وعددهم يفوق بكثير عدد اللاجئين الفلسطينيين الذين فروا منها بتشجيع قادة الجيوش العربية وصادروا أموالهم وممتلكاتهم التي تقمّم بالمليارات من الجنيهات الإسترلينية، وطرد اليهود من جميع البلاد العربية أملا في أن تنهار إسرائيل بسبب ضائقتها المالية والاقتصادية، لقد كان تبادل سكان وممتلكات بين المعسكرين المتناحرين، وإسرائيل تمد يد السلام إلى جميع الدول العربية، فانتهبوا هذه الفرصة السانحة يا سادة لإحلال السلام!

صفق أنصار إسرائيل لهذه الجملة واسمع العرب ومناصروهم ضحك سخريه وقرعوا الأرض بأرجلهم احتجاجا على اقتراحه الفاشل.

واصل كوهين خطابه: للبلاد العربية أراض واسعة ودول تحتاج إلى علماء وأيد عاملة ويهود إسرائيل أقلية ضئيلة ولكنها مفيدة للدول العربية من حيث الأطباء والعلماء وخبراء الصناعة والزراعة والطب.

قاطع نزار بأسلوبه الإنكليزي الذي تشوبه رطانة عربية وهو يلفظ حرف الراء الذي يلعه الإنكليز كحرف عربي ببذبات طويلة، ويقلب حرف "الناء" إلى "طاء" عربية مفخممة وشعره الأسود كالغُذاف الأسحم يلمع بدهن البريل كريم ورائحة عطر "الليوانطة" تفوح من وجهه الحليق الوسيم وصوته يدوي في القاعة بحماس مثير:

يا أيها اليهود المغتصبون لأولى القبليتين وثالث الحرمين! إن ما اغتصب بالقوة لا يعاد إلا بالقوة "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"، والله وبالله وتالله، سوف لا ترون منا سلاما بل جهادا أبدا الدهر، لماذا نطلب مساعدة أعدائنا الإسرائيليين، فإننا نستطيع طلب المساعدات من الدول الغربية والشرقية. أقول لكم بأننا نسعى إلى تدمير هذه الدولة المزعومة المغتصبة، فإذا تعبت دولة عربية فستبادر دولة عربية أخرى لإنجاز ما نرمي إليه وما عجز هتلر عن القيام به!

صاح الكثير من الحاضرين مقاطعين: إخرس، إخرس، يجب أن تخجل من هذا الكلام العنصري النازي.

واصل نزار خطابه دون اعتذار: سواصل جهادنا، فإذا تعبت مصر سيأتي الأردن وإذا تعبت الأردن فستأتي سوريا وإذا تعبت سوريا فستأتي لبنان ثم تليها أَسَدُ العراق البواسل وهكذا دواليك.

قاطع العرب وأنصارهم كلام نزار وهو يهدر كالأسد الهصور بالتصفيق الحاد وبالتهافت المتحمس: عاشت فلسطين الجريحة، عربية مستقلة، عاش المجاهدون الأبطال الأشاوس. وأنشد آخرون بجوقة حماسية:

تل أيب، سوف تصلى باللهب / واليهود سيكونون الوقود.

قاطع عريف الحفل هدير نزار وهوسة الهتافات الحماسية، وقال: نحن لسنا في مظاهرة وبدون هتافات وشعارات. أثم نزار خطابه الحماسي بقوله: سواصل جهادنا ضد المحتلين الغاصيين وأنهاه: "نصر من الله وفتح قريب"، ردد العرب مؤمنين على قوله: "آمين آمين، يا رب العالمين".

وبعد جهد جهيد ساد الهدوء القاعة بعد أن طلب رئيس الحفل الإنكليزي التصويت منَ المتناظرين فاز على غريمه وطلب من أنصار كل فريق أن يهتفوا بصوت مرتفع "هاي". هتف أنصار إسرائيل فكان هتافهم فاترا، ثم هتف أنصار العرب فكان هتافهم عاليا باهرا. أعلن العريف انتصار الخطيب العراقي رغم لهجته الحماسية ووطنته الأجنبية. اقبل الطلاب العرب على نزار يحملونه على أكتافهم وهم يهتفون بشعارات قومية معادية: فلتسقط إسرائيل، عاشت فلسطين عربية، حرة، مستقلة!!!

وفي اليوم التالي وجدت نفسي وجها لوجه مع نزار ووجهه متهلل من نصر البارحة وقد زاد بريق عينيه نضارة ولمعان شعره بريقا من البريل كريم. قال بلهجة المنتصر: "أشلون ورمناكم البارحة؟". قلت له وقد تعبتُ من كل هذه المناقشات التي "ما اتطعم خبز"، ولكنني "عراقي ما ينطي غلبه" وقلت له: ليش هي بالحكي، رجال اليعبي بالسلة رقي! ترى عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. بس عاد مناقشات، خلينا انصير أصحاب! وجم نزار وفكر مليا ثم وافق على اقتراحي وتغيرت لهجته العدائية فجأة وأصبحت ودودة متسامحة وقال هامسا:

- سامي، عندي مشكلة بلكت تساعدني بيها، يقولون أنت تفهم بالنسوان؟

أذهلتني المفاجأة، ماذا جرى لهذا الأسد الهصور، لعل دليلة المحتمالة أوقعته في حبالها وجزت "قصايه" (جدائل شعره)، فأجبتة بإنكار:

- لا يا بوي، آني شمفهمني بيهن. بس الله يفتهمهن، وفضها وياهم ابايتين كريمتين: "إن كيدكن عظيم" و"إن ربي بكيدهن عليم!".

- صدق الله العظيم! صدق الله العظيم! لا بلي حلكك، والله حكيك ليلو. علي جرح القلب.

- نزار قلبي الصدق! اكتويت بنارهن الكبرى!

- آني وقعت وياها وقعة سودا.

- الله يساعذك، أشلون يعني؟

- حبيت وحدة إنكليزية بروكة ملعونة.

واختنقت الكلمات في حنجرته واغرورقت الدموع في عينيه ثم أجهش بالبكاء.

- آني أنجبرت بيها، أجزت إليها بيت وأثنته، وسكنا سوى، بعد اسبوع اسبوعين صارت اتقول من الصبح للعصر: جيب وجيب، جيب وجيب!. أتداينت وارهنت كل شي على مودها بس درضيها! والتالي بدت قوانه جديدة، تعال انساfer لأمریکا و تعال انساfer لأمریکا! ليش متسمع لي كلمة! وين تشوف مثلي، شوف اشلون صدر عندي، شوف اشلون زورر عندي، شوف شلون فرة طي... عندي، ما أسوى تاخذني الأمریکا.

- آني أعرفها الهل حكاية، يعني مثل نار جهنم ما تشبع، كل يوم تصيح "هل من مزيد!"

- والله حكيك حلو، ليلو، قلبي بالله، أنت مسلم لو يهودي!

- أيهودي عراقي من إسرائيل.

- ها، بس ممنين تعرف كل هاي الآيات القرآنية وتجييها على جرح القلب!
- مو آني أدُرست بمدرسة السعدون وتالي ادرست بالجامعة أدب عربي وقاري القرآن الكريم عدة مرات.

- زين ليش ما صرت مسلم؟

- الله يهدي من يشاء!

- أَلله يهديك للاسلام، الله يهديك للاسلام، آمين يا رب العالمين!

- ذكول أش صار وبيا هل سختجية؟

- قبل ثلث تشهر، فزيت من نومي، أشو ما شايفها يمي بالجرباية. قمت من الفراش حافي وبالشفعة أدور عليها، وما اشوف إلا ظرف من فتحة البريد بالباب مدلي بوزه مثل الواوي، وقع قلبي وفتحته وإيدي ترجف. وعمت عين اللي شافت هيح مكتوب. الكحة كتبت: لا تحزن، آني مسافرة لأمريكا وبيا صديقي الجديد تشن تشو الأمريكي - الصيني الأصل. ما صدقت عيوني وداخ راسي سيع دوخات، وبعد ما وعيت اشصار، اصفقتلك الصوت: لا! لا ميصير، ويلي بابا، شلون مصيبة، شردت مني للديار الغريبة! وصرت أبكي والطم، وشقيت هدومي، وأصيح رجعوها إلي، دخيل الله، ردوها وجييوها إلي يا ولاد الحلال! أجوا الجيران وأخذوني للمستشفى، صار عندي انهيار عصبي، ضربوني أبر ونيموني اسبوع، وبعدني لسه أحن و أوّن!

- أَلله يساعذك على هل صدمة!

- سامي! انت تفتهم بالنسوان، أبوس إيدك، بس قل لي هاي اشافت أبهل المدندح الشبر ونص أبو الشعر الأسود المسررح عبالك مال الشادي، وعيونه العوره

الفسفس جنبها (كأنها) الجرغد المايل (عمامة نسائية تلبس مائلة)، وجّه مصفرج
وابدفعه يموت. متكللي الخاطر الله، هاي اشحبت بيه! آني عراقي ومتربي على تمر
البرين، شلون تعوفني وتركض ورا هل ابو الجرغد المايل ال أبدفعة يتكؤم ويموت؟

- مو إنت كلت هاي تريد اتسافر الأمريكا، أنت ما قبلت، شافت إلها غير واحد،
شردت وياه!

- ها، والله ليها الحكاية الكلتها راس!

- ولك نزار، أنت لازم تفرح، أتكيف!

- وليش!

- ما خلصت من هذا الجردام، هاي بنت حرام ورا دت فلوسك، ولو تتزوجها
كان مو بس فليست إلا كان طلعت لك كرون، كان اقبلت أيسموك أبو كرون! لا
تخاف، هاي راح تتزوجه الأبو الجرغد المايل، تاخذ إلها "جرين كارد" واتالي أتضربه
بألف كاله وقدره وتحطه يطق إيد إيد ويموت بالحسرة.

- والله الحق وياك، يعني الله خلصني من ورطة، والله منا وغادي لا زم أكيف
وأفرح.

- طبعا لازم اتكيف وتفرح، خلصت منها.

- سامي، والله أنت أمحيرني، هسه انت باول سنة دكتوراه واهيج تفتهم، لعاد لو
تصير دكتور تمام اشلون وياك؟ والله من هاي أغلبتونا أنتو اليهود الكواويد! أي العفو،
بس إذا هيجي كل اليهود مثلك، اشلون راح نكدر عليكم ونغلبكم؟

- نزار، أنت ما تعرف الإيد الما تكدر اتعضها بوسها.

- والله تمام، ما إلها حل بس السلام. بس سامي، بالله عليك لا تقول لصحابنا العرب آني هيح كنتلك، ترى والله يقتلونني، ويصير دمي ابرقتك!
- ما تعتمد عليّ؟ آني من اليوم على حكاية السلام الكلتها صاموط لا موط، الله وكيلك، ما راح أحد يعرف بيها!
- ومنذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين حميمين، ويحيني بابتسامة وجلة خفية وهو بين الطلبة العرب وإن كان يتظاهر بأنه ما زال يحترم تحذيرات أصدقائه من "الإسرائيلي المشبوه!".

مبشرة أورشليم، في ١/١/٢٠٠٨

يهود العراق - ذكريات وشجون

الحلقة ٣٥

المقامة العراقية. في حديث رمل الجزيرة البغدادية (١)

الأربعاء ٢٨ مايو / أيار ٢٠٠٨

حدثتنا السيدة أميلي بنت بوتر، الكاتبة القديرة، والأديبة النحيرة، فهي من ناحية الأم، عراقية أصلية، ومن ناحية الأب، من أرومة أنكلو- سكسونية، وتجيد الكتابة باللغتين العربية والانكليزية، قالت:

طوحت بي لواعج الأشواق، إلى وطني العراق، وعزمت على الترحال، بعد أن هدأت في العراق الأحوال، فتذكرت صاحبنا النازح العراقي، الذي يروي لنا بحرقه واشتياق، عن ذكرياته وشجونه في العراق، فشحجنا لوعته وحنينه، وبطربنا بلهجتي الحوار الاسلامية واليهودية، والتي تشبه لهجة أهل تكريت واللهجة المصلاوية. فقلت لنفسي، والله لا بد من إخباره، بسفرتي ومغامرتي، الى العراق الحبيب، لعله إلى ندائها يستجيب، ويزورها لعله يجد فيها لشجونه الترياق، الذي كان القدماء لاجله يشدون الرحال إلى العراق، أو يطلب تذكارا من بغداد، فهو من الشوق إليها يصيح "الداد"، فكتبت له قائلة: "اطلب يا عزيزنا واتمنى، أية هدية عراقية تريد نجيب لك، خاطر بيها تنتهي؟" فإذا به يستحلفني أن أفتش له عن الشريا الفضية، التي فردها من أمه، أبو الجراوية. قلت له: والله هذا أمر عسير، ومسألة ما تصير، لأنني لا أعرف أوصافها، وطولها وعرضها وأصنافها، أحسن انتظر لما تهدأ الأحوال أكثر، وانروح سوا نتختر، ويا الأستاذ كاظم حبيب، الصديق النجيب، فهو يطلع من الحق وبصير،

وفي مثل هذه الأمور خبير، ما له نظير. قال صاحبنا، زين ما يخالف! جيبنا مكانها حفنة، من تراب الجزيرة. فسرت لجوابه، وأخبرته بأن طلبه، على العين والراس، وعلى بختك، ليس في ذلك باس، وقد وفقني الله إلى تلبية طلبه، وتحقيق أمنيته، فتسلم شاكرًا، حفنة الرمل من الجزيرة، فكتب إلي الرسالة التالية، ملاًها بالمنونبة العراقية،
وهنا أنا أنقلها إلى للقراء الكرام، كاملة بنصها على التمام:

السيدة أميلي بورتر المحترمة، تحية أخوية عراقية، وبعد،

يا بنت العم الغالية الأدبية ومؤرخة الفن العراقي الحديث، السيدة أمل بورتر، محققة الآمال وحاملة هموم العراقيين النازحين من العراق، والمقيمين ببطولة وشجاعة فيما بقي أهلاً من ربوعها الجميلة، متمسكين بتراب العراق الغالي، ويقولون نحن في سبيلها بالموت والمفخخات لا نبالي. والله، تالي متالي، أثاري سويتها صدك، ودزيتي لي حسب طلبي، حفنة غالية من تير العراق الثمين، وآني ممنونج، وحياك الله على هل الدكة المردانة، والخزعلية المباركة اللي دكيتها ويانا، مثل الدكة اللي بيها ابلانا، صديقي، وأعز أصحابي، الشاعر عبد القادر الجنابي، لما وهدني بمقابلة في مجلته "إيلاف" التي لا تحابي، وأنا ما أزال منها أعاني. فقضت مضجع ذكرياتي إلى اليوم. ولكن علي يقع اللوم. بس تريدن الصاغ، آني جان متت من القهر والحنين، لو ما افرغ من قلبي كل الشجون، و لو ما إتدزيها الحفنة الرمل الغالية التي ولولاها، لبقيت مجنون هواها، واللي حفتيتها بشجاعة من برسالتهم يؤمنون، فانت، دام فضلك، من المشفقين على من أضناهم الى العراق الحنين، ولم تخشي عيون المخبرين، وأمام جميع الناظرين، صرت بشجاعة تحفنين، من رمل الجزيرة، إللي الله يذكرها بالخير، أمام شارع أبو النويص (أبو نواس)، الذي كان أيام زمان يعج باليهود أيام السبت والاعباد، فحفنت الحفنة بأريحية عراقية كريمة، والله يكشر خيرج ويزيد من أمثالج،

ونحن لك يا ام الهلة، من الشاكرين. و آني اعرف العراقيين الكرام الميامين، ما يكسرون أبخاطر أحد وخاصة بخاطر أصدقائهم المخلصين.

ويا للفرحة، اليوم وصلني طرد الرمل المبارك بسلام، كاملا بالتمام، وألف شكر على تجشمك المصاعب لأجلها، جازاك الله خيرا عليها، فقد طار عقلي من الفرح، ولم يبق في قلبي ترح، وتمتعتُ بشميم رمال دجلة وعطرها، يا رفيقة، واجهشتُ بالبكاء لما شممته، وكبرتُ للرحمن حين عرفتنى، وأشرق نجم بغداد مرة أخرى على دامن ذكرياتي التي اجترها حيننا، والتي لا يصدق البعض أنه حين صادق، بل يتهمونه بأنه حين منافق، "ترى إلهي ما يصدقك لا يصدقك، وكل واحد أيلوكله حليبه"، ولكني أخشى أنهم "راح ويايا يسووها"، مثل مسلمي الأندلس الذين كانوا يقولون عن كل أمر مريب: "هذا أمر مشكوك فيه، مثل إسلام الشاعر اليهودي الاشيلي، إبراهيم بن سهل الاندلسي". واليوم كم أخشى أن يقول عني الشامتون، المعلقون والمغتابون: "هذا أمر مشكوك فيه، مثل حين سامي بن ابراهيم اليهودي، الذي طردناه في العصر الفرهودي!"

وبعد، فقد تأملت في حفنة الرمل التي تعطرت بأنفاس العراق وبلمسة يديك، في أيام الوفاق، وقلت والله لو حفنت هذه العراقية المخلصة حفنة في الأيام التي كانت فيها بغداد تعج بالمخبرين والشرطة السرية وأيام قصر النهاية التي ولت إلى غير رجعة، لاتهموها بأنها تختلس كنوز العراق، أو تقوم ببث لاسلكي لشبكة تجسس نصبها أعداء العراق، والتي تمتد إلى جزائر واق واق، ولو علموا أن هذه الحفنة سترسل إلى يهودي اجبر على هجرة العراق، حتى صاح: "دعوني فأرض الله واسعة، غدا أبدل أحبابا وأوطانا"، لكان هؤلاء الجلاوذة، قد دبجوا محاضر الاتهام، وحكموا بالاعدام، على الجاسوسة الحسنة، التي تتعاون مع الأعداء، والذين يريدون تحليل تربة العراق

لمعرفة سر غناها، ليسرقوا خيراتها وسر عظمتها، رغم المآسي والويلات التي حلت بها عبر التاريخ. فقد كان خيال هؤلاء "الحريصين على مستقبل العراق وأمن العراق" لا يضاھيه سوى صانعي ملحمة كلكامش وأساطير تموز إله الخصب، بعل عشتار أم الخيرات.

ومنذ أن وصلتني هذه الحفنة المباركة من تراب العراق، وأنا أعيد النظر فيها، فتشع بذكرى الجزيرة المقمرة ولياليها، وعطر غيد العراق الفاتنات وشذى أغانيها، وألحان البلامجية الحيارى من حرارة وجد عشاقها، وأريج المسكوف من أسماكها، المتبلة بالكاري وعليها تلال البصل والطماطة والعنبة الهندية.

إذن، فهذه هي الرمال الذهبية، الذهبية حقاً كما أتذكرها من طفولتي الباكرة، رقيقة ناعمة كلمسة أم حنون تداعب خد ولدها الوحيد، وتقبله وتعيد، وهي تناغيه: دللول، يما الولد عيني دللول. على هذه الرمال سرنا بأفدامنا الغضة الوجلة، حين تعلمنا السباحة قرب جرداغ السنك المشيد بحصير قصب الأهوار، يم الشريعة، عند السباح هامي اليهودي، الذي كان ينشد بلهجة عراقية صميمة: "يا أبطال، ترى الأبوكريو يبين بالعبر، ديروا بالكم، اسبحوا لقدام وآني وراكم، والينكض ايجلب بالجوب مالي" (والذي يتعب يستطيع الإمساك بطوق النجاة المطاطي)، ولاتنسوا تمدحوني قدام اهلكم، ويغني مع كل "كتف نضربه، و مع كل فوجة نفوجها، وأحنا بعدنا غشمة، بتلت كربات"، مترنما على إيقاعها: "يا اولاد بلبول، ما شفتم عصفور، ينكر بالطاسة، لابس حياصة" ونحن نؤكد على قوله بلازمة، بعد كل قافية، بتريدينا كلمة "بلي!" ويرد علينا بعض الخبثاء، وهم من السابحين القدماء، بكربة وبدون كربة، بقولهم باعتداء: "ولكم، بلبالة علي!". وكانت معظم تعابير أخي يعكوب مستمدة من مصطلحات السباحة، فيقول عن الطالب الفاشل، هذا ميكيش بالدروس، واشما يضرب كتف ما

يلحق بيانا. وإذا اراد أن يقول بانه لا يكف عن ملاحقة شخص فيعبر عن ذلك بقوله: والله لألحقوا للماي الاخضر، كناية عن منتصف النهر العميق. ولقيضانات العراق قصص وحكايات، لذلك كان على كل بغداداي تعلم السباحة. ثم أخذنا نسبح بدون كرب الى جزرتنا امام العلوية، فاذا اقتربنا من الكيش، كنا نغني، "هذا الكيش حلاوي، ياكل تمر خستاوي". ويبدو أن أولاد المسلمين، كانوا يتعلمون السباحة عند اليهود الاسطوات السباحين، فقد اخبرني الاستاذ الدكتور، والشاعر الاديب الكبير المولع بالفولكلور، حامي التراث الفني العراقي، مجيد القيسي، حفظه الله ورعاه، متمما حجاجتي، بتفاصيل جديدة ما تنسى:

" لقد تعلمت السباحة وأنا وأشقائي مثلك، في شريعة السنك، على يد الأسطيين اليهوديين (يحيى وحوگي) وهما من محلتنا. وبدأت بثلاث كريات وبعد ٣ أشهر اجتزت الاختبار بعبوري الشط ذهابا وايابا بدشداشتي! وعند العودة كانت المرحومة الوالدة ونساء المحلة بانتظارنا، فانطلقت (الهلاهل) والملبس وقبض الاسطيان الاجرة والبخشيش؛ ثلاثة أرباع الدينار!؟ وحين سألته الوالدة: أشلون سبح (مجدودي)، فقال المرحوم (يحيى) : (قتسايلين، الله وكيلك ... سبح وفاج كنو عقروق!) >أي ضفدع وفي اللهجة الاسلامية عكرکه<. وكنت مغرما بالجراديع، ففي بداية كل عطلة صيفية انقل الحصران وخشب القوغ بالعربانة البرشقة، الى شريعة أبي نؤاس، وأقوم ببناؤها بنفسي، فانا نجار خليفة عند المرحوم الوالد. وكان جرداغنا الأجمال في الشريعة، وكنا نزرع اللوبيا حوله، وكانت متعتي لا توصف عندما استلقي على الرمل الندي، البارد مساء، واحفر بيدي، حتى ينبع الماء على استحياء، وكأنه (خديثة ما شايفه ولد! وكنا أيام العكلة لا نقتات الا على الخضروات والميوه".

هذا، وأنا أتحدى اليوم كل أدباء الغرب وكل منظري الأدب الأوربي والأمريكي، أن يأتوا بمثل هذه الأبيات الغنائية العبشية، والتي غناها أطفال بغداد والعراق مبتكري الأدب العبشي والمكشوف والهازل والناقد وباقي التيارات الواقعية، وقد سبق الأدب العربي كل هذه المذاهب الأدبية، بعصور طويلة قبل ظهور المذاهب والنظريات النقدية الأوروبية. فمنذ أن طار أول لكلك (طائر اللقلق) في سماء بغداد، التي بناها أبو جعفر المنصور الدانقي، بعد ما قشمر أهل بغداد الفرحين، بقوله انه يمنح كل من فيها من القاطنين، هبة سنوية، وعيشة هنية، فذهبوا يسجلون اسماءهم عند الجبابة، وبعد أن تم التسجيل، والاسماء صارت تكميل، ضرب عليهم ضريبة، جديدة عجيبة، صاحوا منها الداد، وكادوا ان يهربوا من بغداد، فلما رأى هذا اللكلك مئذنة الجامع الجديدة، منتهى آمال كل لقلقية سعيدة، صار عليها واقع، وبني عشه الوثير عليها، أخذ يلقلق بمنقاره يدعوها الى بناء عشهما فيها، ومنذ ذلك الحين، بنت اللقائق اعشاشها على منارات ومآذن العراق ونخيلها السامقة، وصار اولاد العراق ينشدون أغنيتهم العبشية عن "اللكلك الطاير بالهوا، ويعيرونه بأنه يبكي على أمه، يريد حياصة، يلبسها مثل عصفور السباح هامى، وبأنها بعد طلق الولادة، جابت أمه ليوي، سمنا عليوي، ويتهمونه بسرقة الصابونة من جوه الرازونة". قولي لي بريك يا أمل، هل يوجد أدب أكثر جمالا وعبشية، من أغاني الطفولة العراقية، وخاصة في تكريمها للعلم بقولها: "هذا العلم، يشرب جكاراة بالبلم". فما أروع هذه القوافي والسجعات، التي سنتذكرها حتى الممات.

إذن فقد تحقق حلمي وأنا المس رمال بغداد، هذه الرمال التي درجت عليها في طفولتي، واحتضنتها وتمرغت في ذراتها مع أصدقائي وإخوتي، ونحن نلعب في الجزيرة، وكم بنينا قصور الأماني من رمالها، واصطدنا صغار السمك، من أبو سوف

وشبوط وبني، وأذا علقت سمكة جرية، بشواربها واسنانها الوحشية، كنا نلقيها الى الكلاب، لأن أكلها محرم ليس على اليهود فقط، وهم الذين حرمت عليهم الطيبات، وخاصة لأن ابجلدها ماكو أفلوس، وشكلها منحوس، واليهود ايجيون كل شي بالفلوس مطروس، بل على الذين انعم الله عليهم أيضا، فقد همس في أذني، الاستاذ الكبير، الدكتور مجيد القبسي النحرير، قائلا:

" بلي ليس اليهود وحدهم يعافون اكل السمك الجري، بل والشيعية، وكثير من السنة كذلك، لكن الاسباب تختلف، فيرى الشيعة أن الجري ملعون، خبط الماء حين كان الامام علي يتوضأ؟! وذهب بعض غلاتهم بأن الجري سني!"، فعجبت لهذه الفتوى، ورأيت تشابها ظاهريا في عادات التقوى، بين الشيعة والسنية واليهودية. ولآن فقط فهمت لماذا كنا نرى بعض المسلمين من صيادي السمك الصغار، يحطون رأس الجرية بالحجار، ويلعنون آباءها وأجدادها، قائلين: هل مكرودة بنت الحرام. أما نحن اليهود، فقد كنا نلقيها الى الكلاب، بدون سباب، بالرغم من أن شكلها منحوس، وشواربها أطول من ذيل الجاموس.

وحين علّمت أخي ريمون، كيف يصطاد السمك بالشص، واصطدنا أول سمكة، طار عقلنا من الفرح، وصار يركض وهي تلبط، وتخبط، كي تتخلص من الشص، واحنا نركض وراه، مكيفين على سمجة طولها سنتمترين ونص. وكم انحدرنا على أمواج دجلة الهويبا، أمام شارع أبو النويص، وغرّفنا بمجذاف زورقنا الذي صنعه لنا الوالد، المحاسب في شركة "أندرو وير"، ونحن نتطلع الى الكهاوي، وفيها لاعبو الدومنة والطاولي، ونسمع الزبون الأريحي ينادي "وير"، حين يدفع عن طيب خاطر عن كل الجالسين، أو نسمع لعلعة صوت عزاوي المبحوح، صاحب المقهى وهو ينادي: "عبد أسود جيب للأسطة عشرة جاي كسكين، باستكان عليه صورة الملك غازي و

الملك فيصل وعلى رأسهم التاج لابسين، وعمر إلنا كم نرجيلة تننها أمخمر بالنورة زين". وكانت آخر نظرة وداع أرسلتها إلى "بلمي" (زورقي) الأخضر المسكين، هي نظرة كسيره، ودعت فيها طفولتي وأحلام صباي، وهو ملقى حسيرا، خجلا على أرض المقهى، قرب تخت في المزاد العلني، الذي بيعت فيه أثاثنا بسعر أخو البلاش، أقيم بسرعة قرب تمثال السعدون، والاستقلاليون والقوميون بينهم يشتفون، قبل الهجرة، أو الطرد، أو تبادل السكان، كما كان العارفون بسياسة الأمور، على هواهم يقولون. وفي أيام العز، كان بلمي هذا يتهدى بنا "حدر حدر" بكبرياء وجلال، وفداء ليلي الليالي الخرد الغيد، ويا ترى! هل مثل ذلك الماضي يعود.

في ٢٠ أيار، ٢٠٠٨

يهود العراق - ذكريات وشجون

الحلقة ٣٦

المقامة العراقية. في حديث رمل الجزيرة البغدادية (٢)

الخميس ٥ يونيو / حزيران ٢٠٠٨

نعم تحقق شطر من حلمي، بلمس تراب العراق الحبيب، اللي بيه ريحة أمي، بعد سنوات طويلة مرّة، بهذه الحفنة المباركة، من رمل الجزيرة، التي كانت كل صيف، تطلع في وسط مياه دجلة ونروح إليها باللم بالكيف. ولكنك يا أمل، "كسرت قلبي" بالعجل، بقولك بان عرض نهر دجلة الذي كان والدي المرحوم يتباهى بعطر رائحة الشط، والتي كان يقسم بأنها من روائح انهار جنة عدن، وأنه لم يشم مثل عطرها في جميع الأنهار، التي تجري وسط المدن، ويفتخر بسعة نهر دجلة وعذوبة مائه، وطول أنهار العراق، التي كانت الأسماك من كثرتها تتقافز على سطحه، وإذا ألقينا كسرة خبز، ترى الأسماك الصغيرة حولها ملتمة، فيأتي أخي يعقوب بشبكة صغيرة، ويصطاد السمكات المغيرة، ونحن فرحين، لنضعها في حوض الشادروان، في حديقة بيتنا بالتاويين، حيث تتقافز فيه الكرات الملونة على النافورة، وما يزال أخي مراد الرسام، حتى اليوم في باريس، يرسمها وهو يترنم: "فداء ليلي الليالي الخرد الغيد"، وابداله الهذيك الإيام! "الراحت كالأحلام، ويصر على تعليم اولاده اللهجة العربية اليهودية، ويقول: "أنا ارسم كل شين اتذكغو من بغداد"، وأولاده إلى اليوم لا يزالون يغنون عند رؤية قطعة: "بزونتي البزونة واش عملت البزونة، يا يمه طقطق القدر، كشافتو البزونة"، أو هذه الأغنية التي تعبر عن موقف العراق من يهودها والتي تقول: "زعلانة ليش زعلانة / زعلانة ليش زعلانة // وانتني حبيتي غيري، / وعندك ما اسوى عانه".

وها أنت تخبريني بأسى، كيف تقاسم اليوم جيران العراق الأبرار، مياه دجلة والفرات، حتى غدا عرض دجلة اليوم، وقد تقلص إلى "شبر ونص"، وان الجزيرة أصبحت أرضاً تنبت فيها الحشائش البرية، وأن شوارع بغداد "تكرم، مسيسة بالسيانة" وأن اللصوص والحرامية، تعيث في شوارع البتاويين والسعدون والكهوية، فساداً وسطوا على الناس الأخيار، والخافقين ربهم الأبرار، الذين أنهكتهم ويلات الحكام السابقين والحروب الطائفية والدينية على المنشقين.

والآن أصبحت كلما تأمل في حفنة الرمل وذراتها الذهبية، وأشمها، أتذكر "ريحة أمي، وريحة الحليب اللي رضعته منها"، وأسمع أصدااء الحنين، وموسيقى جالغي بغداد و"نقر الدرابك من بعيد" واغاني العشاق والسكرانين، في ليل العراق الذي ينيره، قمر مشرق الجبين، والذي غدا اليوم، ويا للأسف الشديد، الليل الأظلم الطويل، وعويل المجروحين والمقتولين المظلومين بالسيارات المفخخة والمنتحرين، وأرى كيف "تغمز" لي ذرات الرمل ببريق الذكريات، ويا تراب الوطن ومراتع الصبا، حياك الحيا، "وابداله لذيك الايام الحلوة" كما يقول العراقيون هنا إلى هذا اليوم، هذه العبارة الشيقة المشتاقة استطيع أن اسمع صداها فقط، في قول أمير الشعراء أحمد شوقي، على لسان مجنون ليلى: "فداء ليلى الليالي الخرد الغيد". وليلى عندهم كما تعلمين، هي العراق، ولكن ويا للأسف، ما زالت ليلى مريضة في العراق، ويا ليتني كنت الطبيب المداوبا، ولكن سبقني الى هذه المكreme أطباء إسرائيليون من أصل عراقي، لمداواة أطفال ليلى المرضى في العراق. حفظهم الله.

ويا رمال جزر انهار العراق الذهبية، ويا ارض العراق الحبيبة، ابعدهم عنك شرور الماضي وآثام العدى. ها قد أصبحت منذ اليوم، أناغي فيك حفيف نسيم بغداد،

وهو يوشوش لنخيلها، هذا الحفيف الذي اشتاقت إليه أُمي وبكت شوقا إليه قبل رحيلها، وحلفتني بان ازور العراق واقبل الأحباب والأعتاب، ولكنها رحلت مثل عماتي وخالتي وأعمامي وأخوالي وفي قلبها حسرة لزيارة العراق. ولكنني لا أزال إلى اليوم أتذكر مراجيح الأبطال من وطنيين وشيوعيين وصهيونيين في باب الشرقي وباب المعظم وقرب عكد النصارى وأمام قصر المرحوم شفيق عدس في البصرة، وغيرها من المحلات، والعرشة تسري في كياني، ولا أزال أسمع إلى اليوم لعلعة رصاص معركة الجسر والوثبة، والمظاهرات الصاخبة تحيي فلسطين العربية، وصدي دوي "الفشك فشااشة القفالة، لبيوب اليهود، في الفرهود، وهوسة إشخلو الفرهود لو يعود يومية"، ووابل رصاص مصرع الملك الشاب، إللي بشبابه ما اتنها، واللي بدل عرسه مات ابدمه متحنى، ممطرا العائلة المالكة برصاص الحقد والكراهية، و"أفوكها كملوا السبحة بالسحلة، في شوارع بغداد المتوحلة. وإلى اليوم اسمع صدى إطلاق النار في ستوديوهات إذاعة بغداد، ساعة إعدام الزعيم عبد الكريم، أبو الفقراء والمساكين، من المعدان الساكنين ورا السدة، وحشجة ضحايا "الأطفال" وحلبجة، بغاز الخردل، من مختبرات الجنرال الكيماوي، ولم يدفع الردى، احتضان الآباء والأمهات لفِلذات أكبادهم، ولم يحميهم من الموت الفظيع اختناقا، ويا ليل العويل في دجى العراق المدلهم المريع، كصرخة المستعصم بين يدي هولوكو وهو يسمل عينيه، وسنابكه التي هدمت بغداد وسبت العذارى وأغرقت كنوز مكاتب العراق في مياه الرافدين السوداء. سلسلة من المآسي والكوارث والويلات في سواد تاريخ العراق، وهل تصدقين يا أمل، بأني أجد تشابها بين مصائب الشيعة ومصائب اليهود، فكلاهما يؤمنان بحق إلهي اغتصب منهم ظلما وعدوانا، وكلاهما يؤمنان بالمهدي أو المسيح المنتظر، ليسود العدل هذا العالم المحتضر، ولكليهما يوم حزن ينوحون فيه على الضيم الذي لحق بهما، يوم عاشوراء عند الشيعة ويوم التاسع من شهر آب يوم

خراب البيت المقدس، مرتين في نفس التاريخ. ولذلك تجديني استطيع سماع عويل معركة البطولات التي لا تصدق، واقعة كربلاء، وحفيدات الإمام علي، يحملن على ظهور النياق سبايا الشمر ويزيد، مختلطا بانين أسرى سبي بابل تحت سياط الغزاة في طريقهم إلى أنهار بابل ليعلقوا قيثاراتهم على صفصافها حزنا واسى، حاملين من تراب هيكلمهم الذي جبلوا منه طين أول معبد بنوه لهم في ارض الأنهار والخيرات والنخيل.

وها أنا اطلب منك حفنة من تراب السبي الطويل لأبكي ذكرباتي وشجونني في ارض الميعاد، حيث بنينا هنا متحفا لماضينا وأمجادنا الغابرة، ولكن كل الرخاء هنا لا يستطيع أن ينسينا الحنين إليها، فشكرا، وألف شكر على الرمل والريش الأبيض، لحمام بغداد دار السلام، الذي أرفقتيه بكيس الرمل، فقد ذكرني بحمامة السلام التي عادت إلى فلك النبي نوح، بغصن زيتون يفوح، أملا منك في أن يعود السلام، إلى مدينة السلام و بلاد الرافدين، معدومة السلام. وقد ذكرني الريش أيضا بحمامتي أم الكعكولة البيضاء في البتاويين بمكناسة الريش في رجليها، وحمام العراق التي فرت من أعشاشها فوق النخل الهزيل في العراق، وأصدقائي العراقيون، يقولون لي إن نخيل العراق تموت بالآفات الزراعية والعطش، وما من مغيث، ولكنها تموت منتصبية بكبرياء تحاكي إباء العراقيين، ويقولون لي إن نخيل العراق تموت من العطش ومياه دجلة والفرات "تجري حدر حدر يمها، كما مات حفيد الرسول،" مات من العطش والجود يمه"، يا لظلم الإنسان لأخيه الإنسان ونباتاته وحيواناته.

أطلت عليك يمه، يا بنت عمي، وأنا آسف لبث شجونني إليك، وإلى حفنة الرمل المباركة، التي وصلتني بالبريد الجوي منك، فكل العراقيين اليوم في الهوى سوى، واسلمي لنا، يا من كشفت القناع لنا، عن شغلة استعارة ساجدة بنت خير الله طلفاح وزوجة صدام حسين، للقلادة السومرية من المتحف العراقي، وهي تحفة من الفن الخالد الباقي، والله هو الحي الباقي، وهذا المتحف الذي ضم حضارات وادي الرافدين عبر التاريخ، والذي كمل فيه الجيع الغاضبون، الذين لا يمكن الصبح عن آثامهم، فرهده قبل ان يهوى تمثال صدام في ساحة الفردوس بسنين، والعالم ساكت واجم مثل جبل حمرين وصنين، وأطفال بغداد يلاحقونه بنعالهم بعد أن سقط. وأنا أرجو منك فقط، أن تهمني في أذن ساجدة، لكي لا يسمعكما أحد، لكي تكوني لها مساعدة، في تنقية ذمتها أمام التاريخ والمؤرخين، قولي لها أن استعارتها للقلادة، قد تكون من الله، اي من "أبو خيمة الزرقا"، إرادة، فتستعيرها، لكي لا تكون القلادة في متناول أيدي المفرهدين، بعد سقوط صدام المختبئ الحزين، الذين فرهذوا قصوره وقصور أبنائه وأقربائه ووزرائه وقصور غيرهم من المقربين، وسرقوا حتى الخيول العربية المطهمة، تعدوا جنباً إلى جنب مع سياراتهم البلشقا المحطمة. ترى مو عيب اداعياها، طالبة أن تعيد قلادة الملكة السومرية إلى المتحف العراقي، لأن عدم إعادة ما يستعار يعد "بوكة" (سرقة)، في قوانين الدول الفوكة، وهل زوجها الذي وقف برباطة جأش وبكبرياء، وأنشوطه جبل المشنقة حول رقبته، بصورة أذهلت الأعداء قبل الأصدقاء، يقبل أن يقال عن زوجته، أنها لم تعد قلادة الملكة السومرية، وهي كрдانة ملك التراث الإنساني والفنون العالمية، لا لشعب العراق وبس. فأعيديها بصمت إذا بقيت بحوزتك، وسيغفر الله زلتكك، وهو أرحم الراحمين، آمين.

ولو كان المرحوم ملا عبود الكرخي ما زال حيًا، لأضاف هذه البسته، لك تحيّه:

وغير هذا، يا ساجدة، أرد أكليج / يام القلادة، حلوة قلادتج /

واترجعيها للمتحف / ترى أحسنليج / لان هيغ شغلة، متلوق ليج /

واسجدي الله / حمدا على سلامتج!

وأنت يا أمل، حظي ساجدة، هي وذاتها، وشوفي شلون راح اترجع القلادة!

وشكرا لك، مرة أخرى، على تعريفنا ابشغلة الكردانة السومرية، وان شاء الله، تفرحين

بعودة كل ما ضاع من المتحف العراقي، من التحف البابلية والسومرية والأكدية

والآشورية واليهودية والمسيحية والأيزيدية والكردية، والفيلية، والتركمانية، والصائبية،

والاسلامية والعربية، وما ضاع من حقوق الشعب العراقي وطوائفه، وعند ذاك ستكون

لنا عودة، في مقامة أخرى، نبارك فيها للعراق، حريته وعدالته واستقلاله باستحقاق.

ودمت يا أمل، لعراق الغد المشرق، حيث نعمت بدفنه أسابيع قليلة، وعدت وأنت،

بمستقبل واعد للعراق، متفائلة.

المخلص، سامي

في ٢٠ أيار، ٢٠٠٨

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٣٧)

من ذكريات الوالد في بعض مذكراته المذونة

الثلاثاء ٢٦ أغسطس / آب ٢٠٠٨

ألم اقل في قصيدة الحنين التي تداولتها بعض الجرائد الالكترونية: "العراق يلاحقني / قدرا، أين منه مهربي؟"

كنت اقلب أوراقا قديمة باحثا عن رسائل كتبت باللغة العربية، أي في بداية مغادرتنا للعراق، تتحدث عن آلام الفراق وصعوبة التأقلم والوفاق مع المجتمع الجديد، ولكنني عثرت بدلا منها على أوراق كتبت باللغة العبرية، يخط اعرفه جيدا. هو خط والدي، ودفعني الفضول إلى قراءتها، وإذا بي قد وقعت بما كنت أحاذره، وهو العودة إلى ذكريات العراق، الذي يلاحقني "وين ما انداح"، حذر الشاعر الطرماح، من المرور بدار حبيبته عاتكة، لكي لا يكشف سر غرامه بها، ولكنه باح بحبه في قصيدة فضحته، رغم حذره:

يا دار عاتكة الذي أتعزل حذر العدى وبك الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود، وإنني قسما لعمرك، في الصدود لأميل

وبالرغم من أن المذكرات كتبت بأسلوب من لم يتمكن صاحبه بعد من ناصية اللغة، فقد كانت تفيض بالحنين وآلام الفراق لأصدقاء أعزاء وأيام مضت ولن تعود. تتحدث الوالد فيها عن شرف الكلمة عن كبار الضباط العراقيين، والاحترام الذي عاملوه به

في معاملاتهم معه بالرغم من حذره من أن يكشفوا هويته اليهودية وخاصة لان جميع أفراد العائلة كانوا قد غادروا العراق. روى الوالد في هذه المذكرات كيف انه بعد ثمان وعشرين سنة من عمله محاسبا في شركة انكليزية في بغداد، أغلقت أبوابها. فالأجانب ينهبون خيرات البلاد، وشقاء العباد، فمن الأولى طردهم، وإن كنا نقصر عن نشاطهم وأرباحهم، ثم كيف انه أخذ يتاجر بالأراضي، وكيف اشترى قطعة ارض في أفضل المناطق في بغداد الجديدة محاذية لجادة عريضة ذات مسارين، بينهما حديقة غناء بموازاة لجادة يبلغ عرضها ١٢٠ مترا، وقطعة الأرض هذه تطل على نهر امتد عليه جسر جميل كجناح طائر سحري يطل على غابات النخيل التي "راح يبنى عنها القمر". وقد كان الوالد في اشد الرغبة لبناء فيلا له ولأبنائه ولكن بعد هجرتنا إلى إسرائيل عافت نفسه بناء دار فخمة كانت ستبقى خالية من "الولف والأحباب"، كان هذا كما يقول، حلمه الجميل، ولكنه تلاشى وضاع مع الكثير مما ضاع لمعظمنا في العراق بالحروب والانقلابات. ثم يضيف قائلا: بقيت مترددا، هل أبيع حلم العمر أو أبقيه لي لكي يبقى عليّ، وإذا أبقيته فلمن؟ وبينما أنا أعين قطعة ارضي الحبيبة في ارض بغداد الجديدة، والعواطف تتناهشني، اقبل ضابط برتبة لواء، عرفت فيما بعد بأنه آمر معسكر الرشيد، كان قد مر مرور القدر قرب أرضي. سألت لمن تعود هذه المساحة من الأرض الجميلة في موقعها الممتاز، وهل هي للبيع، وتعجب كيف أن قطعة ارض في أجمل بقاع بغداد كهذه، بقيت شاغرة ولم يبن أحدهم داره هناك، وسأل لمن تعود. فلما سمعت ما قال، وسوس الشيطان في صدري، وتساءلت في نفسي ما لهذا الضابط الكبير، وليهودي بغدادى وتاجر صغير، وخشيت أن يكون قد علم أن لي أولادا في إسرائيل، ولكني فكرت وقلت في نفسي إن ضابطا كبيرا مثله لو كان يشك في أمري لأرسل الشرطة لإلقاء القبض علي ولما أتى بنفسه لمقابلي،

قال بعض معارفي للضابط الكبير، إن قطعة الأرض هذه تعود إلى إبراهيم أبو جاك.
شاء القدر أن أكون هناك في تلك الساعة المباركة، فقدمت نفسي إليه وقلت:

- أنا أبو جاك.

- هل أنت مالك هذه الأرض؟

أدركت من سؤاله أن نيته صافية، هي نية تجارية وليست نية سياسية. قلت له:

- الأرض ملكي

قال بود أسر وهو يتتسم:

- سمعت إنك من تجار الأراضي، هل لك في بيعها لي؟

- بكل سرور، أبيعها لك ولا أبيعها لغيرك!

- وما ثمنها؟

- في الشهر الماضي طلبت خمسة آلاف دينار، وسوف لا اطلب منك أكثر من ذلك. سأبيعها لك بنفس سعر الشهر الماضي بالرغم من ارتفاع الأسعار الحالي.

وقلت لنفسي، ولماذا لا أبيعها، فمثل هذا الضابط وبرتبة لواء، لو أراد بي الشر لكان باستطاعته اغتصابها مني بأية تهمة تخطر على البال، "وأنا يهودي وما له والي".

- إذن يا عمي، تعال إلى معسكر الرشيد، وأخبر العسكري الخفير في بوابة المعسكر بمخابرتي لإبلاغي بقدموك إلي، وسأرسل مسئولاً لمرافقتك إلى مكنتي.

أخذت معي أحد دلالي الأراضي المسلمين احتراساً ولتسهيل أمر دخول المعسكر، فلو ذهبت وحدي لكنت "يهودياً ودخل راسه بين فكي أسد هصور، لو اتهموك يا

رجل بتهائم، اشلون راح يا با تتخلص؟ أرسل سيادة اللواء مرافقا ليأخذني إلى مكتبه. دخلنا إلى المكتب الفخم، وعجبت كيف وقف احتراماً لخواجنا، واستقبلني بالترحاب وطلب قهوة للسيدتين بالعجل، وقال بتواضع مذهل:

- يا عمي، إذا كنت تريد بيع أرضك، فانا اشتريها عن طيب خاطر، أما إذا كنت تريد أن تبني عليها دارك فلن أجبرك على بيعها!

- يا سيادة الضابط، الأرض أرضك، وشايف الخير، إن شاء الله.

وعندها اخرج من جيبه صكا بمبلغ خمسة آلاف دينار، وطلب أن نسجل الأرض على اسمه، وهكذا تمت هذه الصفقة المباركة بمثل هذه السهولة، وبسرعة البرق، في حين كانت المعاملات مع الدالين والتجار الآخرين تتم "بعد.مماحكة ومساومة أتطلع الروح"، واليوم أقول لنفسي، أين ذهب مثل هؤلاء الرجال الشرفاء الذين أصبحوا اليوم أندر من الكبريت الأحمر؟ ويا رجال العرب الأوفياء، حياكم الله، أحياء وأمواتا!

كنت آنذاك قد بعث قطعة ارض أخرى بنفس المبلغ ولذلك استطعت في نفس اليوم أن أرسل المبلغين معا مع صديق مسلم لإيداعه في بنك على اسمي في لندن.

جفاني النوم تلك الليلة. "وفرق السهد بين جفني والوسن"، قلت لنفسي، ما ذا سيحدث لو أن أحدهم وشى بي باني اهرب أموالي إلى الخارج، عند ذلك من سينقذني وأنا وحيد في بغداد. وفي اليوم التالي، وأنا في اشد الخوف من وشاية أو تهمة، ذهبت إلى سيدة مسلمة كنت قد بعث لها قطعة أرض قبل عدة أشهر، وطلبت منها ألا تقول إذا ما سألوها بأنها اشترت أرضا مني. قلت لها ذلك، خشية أن تعلم

السلطات المختصة بالمبالغ التي أودعتها في حساب البنك في لندن. فهمت هذه السيدة الفاضلة بأني يهودي أخشى الوشاية. نظرت إليّ ملياً ثم انفجرت باكياً تنتحب وهي تضرب صدرها. قلت لنفسي وقد أصابني الهلع: "والله يام حسين، كنا ابوحدة صرنا باثنين! هاي مين وآني منين، وهل البلوة كانت وين!" وبعد ما هدأ روعها، سألتها: ليش تبجين، دادا، ما ذا جرى، ليش أشكلنا لج يا عيوني؟ قالت وهي تتجلد وتكفكف دموعها: يا عيني يابن عمي، شا أكلك، كان عندي صديق يهودي، حليو مثل الكمر، أيموت عليا، حاططني ابطن عينه وأحبه، وآني انجبرت بيه، واطمست أبغرامه إلى أذني، ولما رأيتك تذكرته، وفجأة، يا بويه، اختفى، كأن الأرض ابتلعتة. ثم علمت من بعض الأصدقاء بأنه هرب إلى إسرائيل، بعد أن سمع بأنهم لفقوا ضده تهمة ما انزل الله بها من سلطان، وخشي على نفسه. ثم جاءني هؤلاء الأوغاد بعد طول الغياب، وقالوا لي إنهم "سوواها المكسورة ويايا"، نكاية بي لأنني عشقت يهوديا وعاشرته وأضافوا لكي يغيطوني، خاطر يشوون على قلبي بصل، الله يحرق أفادهم: ترى رفيحك اليهودي الكواد، شلّع الفلسطينين، عند ربه اليهود الكواويد، أتزوج على راسك، واخذله بربوكه يهودية شقرا، حلوه اتكلا الكمر قوم وآني اكعد أيمكانك. أدركت بأنهم يريدون إغاطتي، وقلت لنفسي، والكاظمين الغيظ، وغنيت لهم، على عنادهم، وقلت، زين روحوا كولوله:

الله وياك ، روح أتهنا بحبك الله وياك ، لا تذكر حبي

أخاف ينجرح قلبك ! ترى هل بلوه كتبها علي ربك

(بتعليق: هذه ترجمتي العربية الحرفية لما كتبه الوالد باللغة العربية، سألت الكثير من الأصدقاء هنا فيما إذا كانوا يتذكرون كلمات هذه الأغنية، فلم يسعفني احد فاستنجدت بالصديق العلامة الدكتور مجيد القيسي، وهو الأديب والشاعر القدير، وخير

منجد في مثل هذه الملمات في إنقاذ تراث العراق العلمي والتاريخي والفلكلوري، قال لي بأنه يفتقد أخاه المرحوم قاسم القيسي، تغمده الله برحمته الواسعة، ويضيف: "لقد خسرت شقيقي الأصغر قاسم في مثل هذه المناسبات حين كنت بحاجة لأن أستفسر عن مقام أو أغنية ، لكن الله توفاه قبل سنتين . فقد كان قارئ مقام من الطراز الأول ويتحدث اللهجة اليهودية بطلاقة كأبي شبلاوي". وقد اقترح علي الدكتور القيسي حفظه الله، تعديل ميزان الأغنية على النحو التالي، مشكوراً:

الله وياك ، روح إتهنَّا بحبابكُ اللهُ وُياكُ ، لا تتذكر أصحابكُ

روح ابتعدُ يبرا من الجرحِ كلبكُ اللهُ وُياكُ ، كاتبها علي رَبَّكَ

واتمنى ان يكتب لنا الايات الاصلية كل من يحفظها من القراء الكرام، أو لعل عاشقة اليهودي البغدادي قد ارتجلتها في ساعة وجد وهيام، والله أعلم.)

وهاجت الغيرة علي عند أحدهم، وقال: هاي المرا خطية، أشو طلعت مجنونة اليهودي، وغلبت مجنون ليلي وحطته بتسعة كاصر، هذاك سب كلمن يشارك ليلي وياه، ودعا عليهم بالموت وقال:

إن يشركوني في ليلاي فلا رددت جبال نجد صوتا لهم ولا البيد

وهاي اتكله، "لا تذكر حبي، أخاف ينجرح قلبك، الله واكبر يا مسلمين، خلوها يا ناس ابدردها، شلكم بيها، ياالله روحوا ولّوا ، دشروها عاد، خطية، الله ميقبلها." لكن

يا عمي، تريد الصاغ، كلت أبقى أبعذابي ولا أشوفه متعذب بالسجن من كذبهم، هل أولاد الحرام!" أخذت أواسيها، والحزين للحزين نسيب. وعلمت أن مثل هذه السيدة الجليلة الوفية سوف لا تشي بي احتراماً لذكرى حبيبها الغائب، وإذا ما مدت لي يد المساعدة فلن تصاب بسوء."

سرت رعشة في فؤادي وأنا أقرأ ذكريات الحنين التي كتبها والدي، أليس هذا ما يقوله لي بعض العراقيين اليوم، أليس هذا ما أقوله للعراق: "لا تذكرني، أخاف ينجرح قلبك!"، لقد فات الأوان وقلبي جريح بحبك يا عراقنا الحبيب، ولم تندمل ولن تندمل الجراح، يا نور عيني يا عراق! "أكلّمنا التأم جرح، جد بالتذكّار جرح، فكيف لي أن أتعلم كيف انسي، وكيف لي أن أتعلم كيف امحو؟"

واصلت المذكرات القول، وبعد مرور بضعة أيام على هذا اللقاء الغريب، قلت لنفسي، ما لي أعيش هكذا في خطر دائم وفي خوف داهم من تهمة أو وشاية، أو اعتداء أو خيانة؟ ورحلت إلى إيران، ملاذ الخائفين من السلطات العراقية آنذاك، وبقيت فيها سنتين، حاولت فيها تعاطي التجارة فلم يحالفني الحظ، ثم قررت العودة إلى بلدي المحبوب العراق، فقد مللت من كل "غريب الوجه واليد واللسان"، فإذا بالسلطة في العراق تنقلب، رأساً على عقب، ويغتال الانقلابيون الخونة، سيدهم المرحوم عبد الكريم قاسم، أبو المساكين، غيلة، بصورة غادرة شنيعة، وانقلب الحكم ولم يعد لي أصدقاء يمكنني الاعتماد عليهم، وأطمئن إلى حمايتهم، وضاع الأمل وقرب الأجل، ولم يبق من آملاكي الكثير، وانعدم ذلك العيش الوفير، فشددت الرحال، إلى حيث هاجر الأولاد الزغب الصغار وقد بلغوا مبلغ الرجال، وقلت لعل هناك التقى بالأحباب وأريح نفسي بعد طول العذاب، واتعاطى تجارة الأراضي، وربنا الكريم يعوض ما فقدناه ويراضي، ويعيد لي نعيم بغداد، رغم البعاد. أخذني دلال

الأراضي إلى قطعة ارض واسعة، على جبل سامق، قرب فندق "هوليلاند"، تطل على أورشليم- القدس والكنيسة (البرلمان الإسرائيلي) بجلالها ونورها، بوديانها وشوارعها، وقررت بناء دار واسعة هناك، لعلني أبدل أوطاننا بأوطان، وأبني لي قصرا كالذي حلمت بينائه في بغداد، ولكن هيهات، أنت تبني قصور الاماني، والواقع يخربها، إذ غابت عني أسرار القوانين في هذا البلد الجديد، والقوانين في الوطن العتيذ، عزيزة، قوية لا تلين، بل كالحديد، وهل سمعتم ببلد تنقل ملكية الأرض على اسم المالك الجديد ولا يسمح له ببناء بيته الذي يحلم به ويريد، بقيت على هذا الحال مدة عشر سنين والضريبة على الأراضي تزداد، وهم في عناد، يبتكرون الأعذار، دون أن يقر رأيهم على قرار، لذلك قررت بيعها، وإهداء ثمنها وبيعها، إلى مستشفى شعري تصيدق (وترجمتها المقابلة للمفردات العربية: تغور الصدق، أي بوابات الحق)، وبقيت بين حانة ومانة، لا قصر لي لا في بغداد، ولا في روابي القدس، أعاني فيها من البعاد. تبرعت بالمال للمستشفى، وأطلقوا اسمي على قاعة الانتظار في قسم العيون الجديد، على لوحة فضية ضاحكة الجبين، يكاد أن يكون الاسم الشرقي الوحيد، بين آلاف الأسماء الأوربية الرنين، فالإنسان عند الشرقيين هو وديعة بيد رب العالمين، وهو الراعي الأمين، ولذلك فمن الأولى عند الشرقيين، بناء المساجد والكنس والكنائس له، قربي لله واحتسابا لجنات يكونون فيها خالدين. ومع ذلك فأبنائي المثقفون، ما زالوا عليّ غاضبين، قائلين، إننا أولى بها، فنحن من ذوي القربى، كيف تجعلنا من الخاسرين؟ ولكن بلدهم الأمين فتح أمامهم أبواب العلوم ، والعلم نور، يضئ لهم الطريق أينما ذهبوا، والمال هو حطام الدنيا، بسرعة يزول، والله در القائل: "وفي هذا الزمان مسيح علم // يرد على بني الأمم الشيابا."

انتهيت من قراءة المذكرات التي كتبها الوالد يوم ١٤ - ٩ - ١٩٨٧ وكان مع الوالدة قد دأبا على تسجيل يومياتهما في دفاتر عديدة، تفرقت بين الأخوات والإخوة بعد وفاتهما، وكانا يقولان لي، آمل أن تستطيع نشرهما في يوم من الأيام، ولكن الأيام تتوالى بسرعة مخيفة، ولا وقت لي لمطالعة أوراق عتيقة، تحتوي كنوزا من الذكريات، كتبت في المرحلة الأولى باللغة العربية البليغة، ثم انتقلت إلى لغة عبرية ركيكة، أملا في أن يقرأها الأحفاد، ليطلعوا على ما كانوا عليه من أمجاد، في عراق الخمسينات، حين كانت بغداد بلد الرشيد ومنازة المجد التليد، والآن بعد أن أخذ عدد من يستطيع اليوم قراءة اللغة العربية من الجيل القديم، يتناقص بل ويتلاشى، والجيل الجديد يهتم باللغات الأوربية، هل سيستطيع الأحفاد قراءة ما أكتبه اليوم باللغة العربية؟ وفي الأيام السعيدة في العراق، حين كانت جميع الطوائف في العراق تغني بحماس وإخلاص مع أبناء أخي مراد في باريس، ليطفئ نار الحنين:

"عليك مني السلام، يا أرض أجدادي، وفيك طاب المقام وطاب إنشادي"

لم يبق من العراقيين من يغنيها على ما أعلم، من يوم مصرع الزعيم عبد الكريم قاسم وإلى اليوم، سوايا وسوى مراد أخي وعائلته، وخاصة ابنته الطيبة إليثور موريه، عندما تحاول التودد إلى المرضى من المتكلمين باللغة العربية، لإزالة حاجز العلاقات الرسمية والرهبنة التي يشعر بها المرضى عند زيارة الطبيب، وذلك في أروقة مستشفى هاداسا في روابي القدس قرب الأرض التي باعها الوالد، لتثبت للمرضى بأنها وإن ولدت ودرست في باريس، فإنها تستطيع التكلم باللغة العربية، فتعلوا الابتسامة

الشفاه الذابلة ويعود البريق الخامد إلى العيون الوجلة، وتصبح لديهم كأحد أفراد العائلة، يفتحون لها قلوبهم، وهمومهم، وخاصة المرضى العرب، إذ يشعرون بالرغم من لهجتها العراقية، أنهم في دارهم وبرعاية ابنتهم، ويطلب المرضى بين النساء العربيات واليهوديات من البلاد العربية معرفة سر عطفها عليهم، فتقول لهم إنها مثل والدها تحب اللغة العربية وتحب العراق، وتغني له شوقاً، وتطلب منهم أن يكملوا الأبيات التي تظن بعض النساء العربيات أنها من نشيد وطني فلسطيني، فتصر الطيبة الشابة، بثقة العارف الخبير، على انه نشيد يهودي يغنيه يهود العراق فقط في مهاجرهم، قائلة، كنا نغني هذا النشيد مع غيره من أناشيد الأطفال العراقيين، مع الوالد في باريس، فهو يقول لنا إن "أرض أجدادي هي العراق" (والصواب أن النشيد هو من نظم الشاعر اللبناني فؤاد الجعلبي)، ثم تنشد تكملة الأبيات، بفخر:

اهوي عيون العسل، اهوي سواقها ذابت كدمع المقل في أرض أجدادي

وإني لأتساءل، هل هناك من بين العراقيين اليوم، من كل ملة ودين، من المهجرين والمقيمين، من يغني هذا النشيد في مهجره ووطنه، وبمثل حماس أخي مراد وأبنائه؟ أرجو ممن يتذكر هذا النشيد، ويكي عند إنشاده مثلنا، أن يكتب إلي عبر ردود القراء وتعليقاتهم، بنزاهة وصدق وأدب، وله جزيل الشكر، وعند ذلك سأعلم فيما إذا كان مستقبل العراق بخير، أسأل الله تعالى أن يعود إليها الخير.

في ١٤ تموز، ٢٠٠٨

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٢٨)

يهود العراق: كل عام وأنتم بخير في عيد الأضحى المبارك

الأثنين ٨ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٨

كتب إليّ بعض القراء محتجين على صمتي الطويل ولعدم مواصلي نشر ذكرياتي عن العراق، أيام كان شعارها "الدين لله والوطن للجميع"، وكيف ساد السلام والإخاء والتسامح بين أبناء الشعب العراقي الكريم المعطاء مجدّين في بناء عراق جديد مستقل تحت رعاية عائلة هاشمية مجيدة حاولت إعادة أمجاد العرب بالثورة على طغيان الحكم العثماني الفاسد الذي اعتمد على الظلم والتعسف والقوة الغاشمة في جبي الضرائب وفي معاملة الرعية المظلومة معتبرا إياها بقرة حلوب لحكام الباب العالي و"ظل الله على الأرض" أي السلاطين العثمانيين الذين دأبوا على قتل إخوتهم أو عزلهم في "قفص" محاطين بالنساء والجواري لكي لا ينافسوهم على الحكم، فإذا جاؤوا إلى الحكم كانوا اضعف من أن يحكموا، ثم سيكون مثل النساء ولم يحافظوا عليه مثل الرجال.

كتب إليّ أحدهم معاتبا: "هاي وينك يابا، منتظرين أتكمل"، وزعلت أخرى على صمتي بقولها إنها تنتظر بفارغ الصبر مواصلة ذكرياتي. وعتاب النساء فيه سورة من الزخم المدمر لصبري وتجلدي على المآسي التي تحدث في عراقي الحبيب، مسقط رأسي ومرتع طفولتي وصبايا. ثم وقعت في حيرة، كيف أرد على السيدة التي كتبت في مجلة "الأخبار" الغراء لمحورها الأستاذ والصحفي الكبير صديقي نوري علي،

معلقة على الفصل ٣٧ من ذكريات وشجون، الذي نشر أولاً في مجلة "إيلاف"،
إيلاف التي نكأت جراح الماضي وفجرت ينباع الشجون والذكريات. وقد أرقنتي
رسالتها وفتحت عيون العذاب الدامي في صدري، معنونة عتابها بكلمة "مرارة ولوعة
في العربة"، وذلك بتاريخ ٣١-٠٨-٢٠٠٨. تقول السيدة التي لم تذكر اسمها:

"لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما أتصور أكرر أبقى مثل حضرتك بعيدة عن
بغداد... رغم كل العذاب الذي عشناه والعراقيين في بغداد حالياً يعيشونه، بس أحس
بأقرب فرصة لازم أرجع إلى بغداد لأنه كأني جسد بدون روح هنا، لأنه روحي هناك
محاصرة في بيت اغتصب وسرق وحاليا يخرب تدريجياً. كتاباتك يا سيدي كأنها
سكاكين تمزق روحي تجعل عيوني تبكي دماً". فأسأل نفسي، هل أتوقف عن نشر
الذكريات التي تؤلم القراء أم استجيب لإلحاح البعض الآخر، وخاصة وأن معظم
اللواتي يكتبن لي من حملة الشهادات العالية والدكتوراه، ثم أنسى الأمر وأعلل
ضميري بعدم مواصلة الكتابة بأسباب واهية، فاعتذر لهن ولهم بمشاغلي في بداية
السنة الدراسية في الجامعة وغير ذلك من الأشغال التي عليّ إنجازها على وجه
السرعة ولا تتحمل التأجيل.

أما ما جعلني "ادشر الاكو والماكو" وأقول كما قال الكرخي في معلقته "ساعة واكسر
الحاسوب وانعل أبو راعيه"، ورمي بكتبي وأبحاثي جانبا، فرسالة العتاب الأخيرة هذه
قضت مضجعي وأرقنتي، رسالة شخصية وصلتني بالبريد الإلكتروني من مغتربة عراقية
"كسرت قلبي" حين سمعتُ في عتابها غناء سليمة مراد الحنون وصداه بصوت أم
كلثوم الشجي:

قلبك صخر جلمود ما حنّ عليّ وأنت أفرح وابتكف والبيّا بيّا

وهل هناك من يستطيع أن يقف صامتا مكتوف اليدين أمام مثل هذه الرسالة من أخت عراقية تناشدني أن اخفف من عذابها بحديثي عن أيام العز والمحبة في العراق، وقلت للنفس: أنا جماد، مالي لا تحركني مدام العواطف المناسبة من هذه الرسالة القانية التي تقطر دما والمبللة بدموع أرملة، وأية أرملة، يا رب، أخت عراقية قتل زوجها أمام عينيها، وتركت العراق لتنتقل من منفى إلى منفى جديد. فتقول، بحروف دامية (سمحت لنفسي بحذف بعض الكلمات التي قد تساعد على اكتشاف هويتها):

" سيدي، جاءت رسالتك لتجلدني وتحملني وزر ما حدث ليهود العراق ... وما عاشوه من عذابات الغربة وعدم القدرة على الاندماج يا صديقي ... أنا امرأة في أواسط الأربعينات من العمر ولدت في بغداد عام [..] ١٩٦٦ عشت فيها طفولتي ومراهقتي وشبابي ثم جزءا من كهولتي ... وأعيش الآن [بعيدة عن العراق] ... أملا في إيجاد منفى جديد تمنيت أن أكون أديبة أو شاعرة ... اقتحمت فضاء شائكا سخيفا، أحمل شهادة الدكتوراه في علوم [...], أرملة فقدت زوجي قتلا على يد مجرمي القاعدة في عام [٢٠٠٠] ... وأنا اقرأ رسالتك انتابنتي مشاعر مختلفة ما بين الفرح والألم كأني أعرفك من زمن وقد فرقنا الأيام ووجدتك أخيرا ... وكأنك العراق بكل أوجاعه وآلامه على [من] فقد أحبته وأعزاه ثم احتلاله ... لست من القومجية ولا البعثية أنا ابنة لأسرة علمانية تحترم كل الملل والنحل والأديان والعروق ... لست معنية بلونك أو دينك يكفي أنك سامي العراقي ... الإنسان الذي أتحرق شوقا لأقرأ له ... وكما يقول أهل [الجنوب] ... بعد عمري وكل اهلي وطوايفي ... سلام."

لم أستطع مواساتها بقولي لها بأن حالتها مع فقدها لزوجها الحنون، أفضل بكثير من العراقيات المتسولات في شوارع العواصم العربية، أو محاولتهن كسب عيشهن

بالتفريط بشرفهن الرفيع للحصول على كسرة خبز لأطفالهن الجياع بعد أن نفذ القرش الأحمر الذي ادخروه لليوم الأسود، ولسان حالهن يقول: "نارك يا عراق ولا جنة هلي في البلاد العربية"، فالدماء اليوم تراق بين السني والشيعة وليس لكي يسلم شرف العراقيات الرفيع من الأذى، فإنفاق الأموال الطائلة تتم اليوم على القتل والتفجير والمفخخات والأسلحة الفتاكة، والقتل والفتن الطائفية وتشريد الأقليات في العراق أصبح اليوم أهم من شرف العراقيات اللواتي اشتهرن بالعفة والكرامة والتمسك بالأخلاق السامية.

سمعت في هذه الرسالة صوت الشريفة العباسية التي استنجدت صارخة "وا معتصماه!" والتي سمعتها في رسالتها إليّ كأنها تصيح مستنجدة بي "وا سامياه". كبرت للصرخة الآسية المتوجعة وأقسمت أن انجدها بالجياد الجرد البلق من كلماتي وذكرياتي، قلت لها باني سوف لا أخذلها كما خذلها القدر الغادر، وسأكتب لها لأواسيها، لعلي أروح عن شجونها وشجوني. ولعل ذكرياتي تخفف عنها وطأة عذاب ذكرياتها وغربتها. وأستنجد بعلماء العرب وأشرف المسلمين وحكامهم النيرين لإغاثة هؤلاء المنكوبين. أردت أن أرسل لها رسالة تهنئة بعيد الأضحى المبارك، ولكني ترددت، هل يهنئ المسلمون الأرامل والأيتام والأمهات الثكلى والجرحى لمناسبة عيد ديني. عندنا لا يجوز تهنئة مثل هؤلاء المساكين المصابين بأعزائهم بالأعياد، فهم حزاني يجب مواساتهم بالزكاة والمساعدة من بيت المال وخزائن الحكام والذين أنعم الله عليهم بالمال. لذلك فإنني اطلب الفتوى من رجال الدين المسلمين، أفتوني في هذا الأمر. فانا أتمنى على جميع حجاج المسلمين في هذا العيد المبارك أن يقفوا جميعا في عرفات أن يتضرعون إلى الله أن يكف هذه الفتنة عن المسلمين وغير المسلمين، وأن يهديهم إلى الدين الصحيح، فالإسلام كما هو دين التسامح

والأخلاق الكريمة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وقد أوصى الله خيرا بدوي القربى واليتامى والمساكين والفقراء والأرامل. وأنا اليوم في هذا العيد المبارك أتساءل:

• من أنا لأقول لكم إن نساء المسلمين اليوم أصبحن أرامل ومتسولات، فاحموهن؟

• من أنا لأقول لكم إن أطفال المسلمين أصبحوا يتامى جائعين، فأطعموهم؟

• من أنا لأقول لكم إن شباب المسلمين لم ينعموا بشبابهم، فقد مزقتهم المفخخات في المساجد التي يجب أن يدخلوها آمنين، والأسواق لشراء هدايا العيد، قتلوا بالآلاف حتى ضجت الملائكة لبلوهم باكين منتحبين؟

• من أنا لأقول لكم إن الدين هو الأخلاق الكريمة والتسامح، وسماحة الإسلام فرض واجب على العلماء والمؤمنين؟

• من أنا لأقول لكم إن الجهاد الحقيقي هو جهاد النفس الأمارة بالسوء؟

• من أنا لأقول لكم إن أن تمسكوا بحبل الله إنه العروة الوثقى في الرحمة فهو أرحم الراحمين؟

• من أنا لأطلب منكم ومن حجاج بيت الله الحرام أجمعين أن يتهللوا إلى الله تعالى أن يوفق العالم العربي والإسلامي لتحقيق دعوة خادم الحرمين الشريفين إلى إنهاء الصراع الدموي مع إسرائيل ومحاربة الإرهاب في العالم، وإخماد الفتن والجنوح إلى السلام؟

رحم الله أمير الشعراء العرب أحمد شوقي حين قال مخاطبا أبا الزهراء:

وما للمسلمين سواك حصن إذا ما الضرّ مسهمو ونابا

وأن الدين هو الأخلاق الكريمة وصحيح العلم والأدب اللبّاب، والعلم الحديث
وسماحة الإسلام يردان إلى الأمم الشباب، وإن الشرق أحوج ما يكون اليوم إلى
تجديد شباب السلف الصالح.

إنكم يا علماء المسلمين وحجّاجه أدري مني بدينكم السّمح وبحقيقة الإسلام
وبالحقيقة المحمدية،

"فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين". حقق الله فيكم
الآمال.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٣٩)

البحث عن زمن الصبا الضائع (١)

الجمعة ٢٠ فبراير / شباط ٢٠٠٩

ما لي أردد مع مجنون ليلى أبياته عن صراعه النفسي بين نزعات الروح وأشواق الجسد، كما وردت في ملحمة كلستان سعدي باللغة الفارسية، لمعها بيتين من روائع الشعر العربي العذري اللذين تناهما المتصوفة في العالم الإسلامي؟:

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى وإنّي وإيّاها لمختلفان

هويا عراقيّ وتثني زمامها إلى برقٍ لآخ النجومِ يماني

فالناقة في هذين البيتين هي رمز للجسد وأهوائه، وهوى قيس هو رمز لنزعات الروح، والشمال هو العراق، واليمن هي رمز للجنوب. وهكذا يمضي العمر في نزاع بين الروح والجسد، بين الماضي والحاضر، أما المستقبل، فلم يعد فيه عندي سوى الخوف من الشيخوخة وضمحلّال الذاكرة والعجز، ويبقى العراق قدامي حلم الروح بانتظار تحقيقه، بانتظار زيارته، حتى تعبت الناقة وهزلت وها هي اليوم تخشى أن يقعدا الهرم بمرور الزمن، فلا أستطيع أن أمسح بأركان دار حبي.

عيل صبري وضاق صدري حيننا إلى مسقط رأسي، فبمّ أعلل النفس والعمر يمضي؟ وإذا لا أستطيع زيارة بغداد فلماذا لا أحصل على صورة لدارنا تشفى الغليل، فقررت أخيرا أن أنشر في صحف السلام والحرية العراقية ندائي اليائس التالي في مجلة

"إيلاف" الغراء ومجلة "الأخبار" الخضراء، وهما في طليعة الفكر العربي الحر، استنجد بأصدقائي العراقيين أن يرسلوا إلي صورة لدار الصبا في بغداد لأكحل عيني بها قبل فوات الأوان، فكل ما بقي لي من العراق هي ذكرياتي عنها قبل أن تخونني الذاكرة، فلا أتذكر ولا اشتاق، حتى لو تمتعت نظري بصور لي من أيام الطفولة أنقذتها من برائن المفتشين في مطار بغداد قبل رحيلنا، فأرسلتها عن طريق البحرين إلى القدس بواسطة صديق سعودي أتاه الله خيرا في الدنيا والآخرة. وها هي النار مشتعلة لا تطفئونها حتى حفنة الرمل التي أرسلتها إلى الأدبية أمل بورتر من رمل الجزيرة البغدادية والتي عبرت في مقامي إليها عن فرحتي وشكري واحتفائي بها، ووضعت حفنة الرمل وريش الطيور الأبيض في زجاجة أتأمل حباتها الذهبية في شغف وأمل في أن أضع قدمي في بغداد على رمل الجزيرة مرة أخرى. وها أنا إلى اليوم أعرضها بفخر وشوق على الزوار، معتزا بأنني الوحيد هنا خارج العراق من يمتلك مثل هذا الكنز الثمين من ثرى العراق العريق المحبول بأحداث الأجداد، رمل من جزيرة بغداد، ومن جرف شارع أبي النواس. وهل سمعتم بمثل هذا الكنز يا ناس. وأنا لا اسمح لأحد بلمسه لا لقدسية الرمل عندي فحسب، بل خوفا من أن تسقط من يدهم المرتعشة لهفة وشوقا لعراقنا الذي أصبح قبلة الأحلام والأمانى. لقد أشعلت هذه الرمال الذهبية الحنين مرة أخرى، وقتلني الشوق إلى معرفة ما حلّ بدار طفولتي وصباي والذكريات تلاحقني وأنا بين نارين، نار حنيني إلى العراق ونار خوفا من الشيخوخة وخشية من أن يدب الوهن في عظامي ولا يحل السلام ولا يتحقق حلمي بزيارته مسقط رأسي، وعندها سأذكر العراق في حشجة الموت فقط، ولا أراه مرة أخرى كما كان الأمر مع كل أحوالي وأعمامي ووالدي. وفي غضبة على الزمن وتلكؤ السلام مع العراق والأمل في زيارته، نشرت إعلانا في صحف ولد الحلال العراقيين، وكيف لا يستجيب عراقيو المهجر لنداء عراقي يائس مثلهم؟

قلت في ندائي إلى الأخوة العراقيين، بأن دارنا التي أشتاق إلى الحصول على تصوير لها كانت في شارع سوق الأمانة قرب كنيس مئير طويق، في البتاوين، ورقم الدار في بستان مامو، ٦ د / ١٣ / ١ وعلى تاج الباب الخشبي كتب سنة ١٩٣٦، وفي الفناء حديقة كان في وسطها شادروان سداسي الشكل. عشنا في هذه الدار من سنة ١٩٣٦ وإلى سنة ١٩٥٠، أرجو ممن يتمكن من العثور عليها وتصويرها أن يرسل الصورة إليّ احتساباً، وله الثواب من الرحمن الرحيم. المخلص، سامي إبراهيم معلم (شمونيل موريه)

والأخوة العراقيون، حفظهم الله، هم من ذوي الأريحية والنخوة والفرعة، يغيثون الصديق ويبادرون إلى نجدته عند الضيق، فكتب إلي بعض القراء الكرام من الذين مس شغاف قلبهم حنيني إلى العراق وبغدادها الحبيبة التي أراني كأنني أصبحت منها كمجنون ليلي في هواها، وأصبحت مني كليلى المريضة في العراق و"يا ليتني كنت الطبيب المداوياً"، وهيئات، فقد شطّ المزار، بين صراعات الأهل من السنة والشيعه، والعرب والأكراد، بين المسلمين والمسيحيين، وبين الأثرية والأقليات من الصابئة والأيزيدية، وهلم جرا مع هذه المأساة الدامية المدمرة. فحسيني إلى العراق برى عظامي وقلبي من هواها ذاب، حتى أصبحت مهووساً بهواجس الحنين نحو دار طفولتي وصبايا في محلة البتاوين التي كنا قاطنين فيها والتي أضف إلى عزها ومجدها وجود دار الطيار عقيد الركن منير عباس حلمي الذي رُفِع بعد هجرتنا إلى رتبة أمير لواء في سلاح الجو العراقي وما زلت أتواصل مع أحفاده. وقد أدرك الكثير من القارئ والقارئات والقراء بحسهم المرهف وذوقهم الأدبي، صدق حنيني وشوقي لأيام الدراسة في مدرسة السعدون التي تعلمت فيها وأكسبتي هذا الأسلوب البغدادي

السهل الممتنع وبوّأني فيما بعد منصب أستاذ الأدب العربي في جامعات إسرائيل وغيرها، دون مدافع أو ممانع، وشاركوني تذوق رحيق ذكريات عطرة وشذاها عن أصدقاء الطفولة إياد وقيس ابني الدكتور علي غالب وزيد ابن وزير المعارف وفيصل ابن رئيس الوزراء آنذاك، رشيد عالي الكيلاني، وولدي فاضل الجمالي وأخوين من عائلة الآلوسي، والأخوين عبد الرحمن وطالب الجابي، وصادق مهدي ابن عبد الأمير كبة وبثينة الكيلاني، وعن حبي الأول لمدرّسة العلوم الطبيعية الست فاطمة، وعن مدرسة القرآن الست أم ساطع وهي التي درّس ابنها ساطع معنا والذي كان همه الوحيد هو التمتع بالتغييرات الهرمونية وأثرها على جسده وعواطفه في مرحلة البلوغ. وقد صاغ من ذكرياتي عن العائلة صديقي الشاعر الكبير الدكتور جبار جمال الدين المتخصص في الفكر اليهودي في جامعة الكوفة، قصائد يعدّها الأهل والأصدقاء من روائع الشعر الإنساني الحديث، بارك الله فيه، إلى آخر ما كتبت من ذكريات الشجون عن عراق الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي بحروبه وتقلباته. وقد تطوع أحدهم، بارك الله فيهم، احتساباً لثواب من رب العالمين وشفقة على قلبي المعنى الحزين، بالتفتيش عن دار الطفولة والصبا تحت ظلال ملكة العراق التي كانت ترف عليّ كما رفت قرون ليلي على المجنون في هواها، بل عرض عليّ أحدهم من ذوي الأريحية والنخوة العراقية، ولا يوجد في العالم مثل نخوتهم الحاتمية، عرض عليّ التقاط الصور لدارنا، كي تكنحل عينايّ برؤية دار طفولتي وصبايّ، قبل أن تعشى عينايّ وعيون العراقيين المشردين في جميع أنحاء المعمورة من طول الحنين و الألم، بانتظار زيارة العراق. فمتى يا رب يعقوب، يأتي الفرج، ويرمون عليّ وجوهنا نحن المشتاقين إليها، قميص يوسف يردّ بصرنا إلينا قبل فوات الأوان؟ يا ربّ صبرك! فصبري صبر جميل كصبر أيوب الذي أطلب منه ليل نهار المدد. وعندها فقط أدركت ألم العذاب الروحي الذي عانى منه صديقي المرحوم البروفيسور بدري فتال

الذي ولد في محلة ططران ببغداد، والذي تيم في طفولته ولم يستطع تذكر وجه والده، فحاول العثور على صورة له، ولم يكن للعائلة النقود التي تمكنهم حتى من أخذ صورة للوالدين يوم زفافهما إلى وفاة الوالد، فبقي مدة سنين طويلة يحاول تركيب صورة مبرمجة على طريقة الشرطة في محاولة التعرف على شخص مفقود أو مطلوب، بأن سأل أخوته الأربع الذين درسوا المحاماة (سوي أخيهم الأديب الصحفي الأستاذ سليم فتال، مؤسس قسم البرامج العربية في التلفزيون الإسرائيلي)، عن شكل الشعر والعينين والأنف والشفيتين والذقن، مستعينا بصورة العم الذي لا يزال حيا يرزق. ولما تم تشكيل الصورة قدمها فرحا إلى إخوته، مبشرا إياهم بأنه عثر أخيرا على صورة ظن أنه استطاع تشكيل صورة مبرمجة له بواسطة الحاسوب، ولكن ردّ الأخوة الذين يتذكرون والدهم جاء مخيبا لأمل حياته، أخبروه ببرود بأنها لا تشبه صورة والدهم. وهكذا توفي الأستاذ بدري فتال والحسرة في قلبه دون أن تكتحل عيناه برؤية صورة والده الحقيقية.

ولعل نفس هذا الدافع النفسي حدا بي إلى البحث عن دارنا. والعجيب أن نتائج البحث كانت شبيهة بلهفة صديقي في الحصول على صورة والده. وقد وصفتُ لّلواتي يدبجن الرسائل إليّ، أمل وعائشة وهدى وندى ونادية وغيرهن من كبار المثقفات في العراق وللأصدقاء محمد الخطيب والصحفيين الكبار علي وحسين ومازن وغيرهم من العراقيين أولاد الحلال من الذين يستطيعون العثور على موقع دارنا، فتطوع بعضهم مشكورين بالبحث عن دار الصبا، لعلهم يأتوني بالخبر اليقين عمّا صنعت بها الأيام. ثم وصلتني بعد فترة هذه الرسالة من الأديب الكبير والصديق الوفي "علي"، التي إن دلت على شيء فهي تدل على الإخاء الصادق والوفاء النادر والتعاطف الرائع مع شجونني وأحزاني، قال "علي" حفظه الله:

"قمت خلال يومين بعمل استقصاء للبحث عن منزلكم حسب الوصف الذي ذكرته لي في رسائلك. وبعد استقصاء وحوار وتقصي اهتدى الأخوة إلى منزلكم، أو من المفترض أن يكون منزلكم حسب الوصف الذي أعطيته لي، لا زال قائما وبحالة جيدة مقابل بيت مهدي طعيمة (العمارة الجديدة) حيث أزيل بيت مهدي طعيمة وبقي داران أو ثلاثة مقابلة لهم والدار المقابلة للعمارة (بيت مهدي طعيمة السابق) والتي من المفترض أن تكون داركم، مشغولة من قبل مطبعة ذكر لي أحد الأخوة الأعزاء والذي كان يظن أن البيت قد أزيل .. ولكن أتضح أن البيت لا زال قائما ولكن بداخله مطبعة. دخل أحد أصدقائي إلى المطبعة بعد أن قام المصور بتصويرها خارجيا وسأل صاحبها وهو شاب عشريني عن البناية التي تشغلها مطبعتهم، فقال له: سمعت من والدي إنها تعود لأسرة يهودية هاجرت في الأربعينيات أو الخمسينيات ولا معلومات عندي أكثر... المهم والده هو من شغل هذه المطبعة حسب قوله منذ فترة طويلة وقد أخذنا موعدا معه نهاية الأسبوع للقاءه والاستفسار منه أكثر عن المنزل. وبعد الخروج منه قام زملائي بتصوير المنازل القديمة المحيطة بالمنزل وقاموا بتصوير بناية يعود تاريخ بنائها إلى عام ١٩٢٧ وهي لا زالت على حالها ومشغولة من قبل ساكنين. قد تتذكرها حين تراها، علما أنني حصلت من زميل لي صورة لكنيس ماري حسقيال في منطقة السنك وهو بصورة جيدة أيضا ولكن متروك ومقفل أيضا. أزودك بها لاحقا. ستشاهد الصور وتمعن بها جيدا عسى أن يكون واحدا منها بيتكم... وأرجو منك إبلاغي أولا بأول. ولك مني التحية والاحترام،

أخوكم، علي."

أنعمت النظر وأنا في لهفة المشتاق في صور الدور التي أرسلها الأخ الكريم "علي"، وأنا أتمنى أن أجد دارنا بينها، وان تهب منها نفحة الفردوس المفقود، وفجأة غامت الشاشة أمام عيني، وبقي اليأس قابعا فيها، صامتا واجما حائرا ينظر إليّ، إذ لم تكن دارنا بينها. عشش اليأس مرة أخرى في فؤادي فكتبت إلى أخي "علي" أخبره بعدم عثوري على ضالتي، قائلا:

"رسالتك عن وضع دور اليهود في البتاويين أثارت عواطفني وهيجت أشجاني. لقد كان لأخوالي حاييم وداود ساسون، بيوت في البتاويين قرب كنيس مئير طويق، ولما رحلوا إلى إسرائيل اقفلوا الباب وسلموا المفتاح إلى جيرانهم المسلمين الذين قالوا لهم، "سيأتي الفلسطينيون مكانكم والعوض على الله". تلك الدور التي كانت عامرة بسكانها والحدائق الغناء أصبحت مهجورة خالية صوّحت أشجارها، وينعب فيها اليوم وينعب فيها الغراب، يا ديارا حبها في دمي، كيف أنساها وهي مراتع صباي. أخوك المشتاق إلى رائحة ضفاف دجلة، بالله قبل الأعتاب وسلم على الديار والأحباب، فقد كانت تعبق فيها روائح الجنة، آه لو تدري يا أخي مدى حنيني. أخوك سامي."

وحنقتني غصة أليمة، لم أجد دارنا بين الصور التي أرسلها الصديق إليّ وكتمت الجرح في كبدي. ثم جاء رد الأستاذ "علي" بقوله مواسيا:

"أستاذي العزيز أخرجتني بردكم السريع الذي ما جاء إلا لكرم الخلق والذوق العالي الذي يتمتع به كاتب مرموق مثل حضرتكم .. سيأتي اليوم الذي تزور فيه بغدادك الجميلة وسيكون بيتنا أول من تزوره وهذا وعد علي .. على فكرة، لدي صديق داره تقع في منطقة البتاويين تجاوزه عدد من المنازل القديمة لأبناء الطائفة اليهودية وهي لا زالت على حالها دون مساس، مقفلة الأبواب بأقفال قديمة جدا وحدائق متييسة أصبحت أطلال تحن لناس طبيين سكنوها يوما .. ولكن الجميل في الأمر أنها لا

تزال على حالها لم تهدم أو تسكن.. مع التحية وأبلغكم تحيات زوجتي ووالدي..
علي."

جاءني الرد سريعاً، ومخيباً للآمال مرة أخرى، بالرغم من جهوده. لم أذكر له خيبي، ولكنه أدرك أنه لم يستطع إرسال الجواب الشافي وأن يشفي غليلي، وكتب إليّ يعلنني بالأمني (الكلمات بين قوسين وضعنها بدل الجمل التي أسقطها عمدا لكي لا يمكن التعرف على شخصية الأستاذ الكريم، علي):

أستاذي العزيز.. تحية طيبة ومساك الله بالخير.

كل ما ذكرته لي في رسالتك الجميلة المؤثرة لم أسمع به مطلقاً ولا أعرفه، علماً أنني ابن البتاوين كوني أعمل فيها منذ (عام ...) أي منذ طفولتي علماً أن سني الآن يبلغ (مقتبل العمر والشباب) .. أستاذي! الأسماء التي ذكرتها لا أعرفها عدا الحي الذي فيه مكتب (أحد الأصدقاء). سمعت يوماً من أحد المعمرين في المنطقة ممن توفاهم الله بأن اسمه كان بستان كبة... علماً أن هناك أربعة أو خمسة منازل أو أكبر من منازل أوصفها لك بأنها (فلل) من الطراز القديم جداً ربما لأكثر من مائة عام متروكة وفيها أطلال حدائق متحجرة وأقفالها قديمة مزنجرة وشبابيكها متربة أراها على حالها منذ عام ١٩٨٨ أي منذ افتتاح مكتب (جار بالمنطقة) إلى يومنا هذا، علماً أن معالمها بالكاد نراها بسبب تقادم الزمن والأتربة عليها، ولكن أبوابها وهيكلها وحتى صبغها باق على حاله المعروف بالمنطقة، أنها تعود ليهود العشرينيات من القرن الماضي بنوها في القرن التاسع عشر وهي متروكة إلى يومنا هذا على حالها .. بيت

واحد فقط موجود في رأس فرعنا اشتراه من الدولة (رجل أعمال عراقي) ليحوّله إلى مطبعة ضخمة جاعلا منها جزءا من مطبعة (بغدادية مشهورة).

سألت والدي عن وصفك لمنزلكم المقابل لبيت مهدي طعيمة ويؤسفني أن أخبرك بأن والدي قد وصف لي بأن منزلكم حسب الوصف قد أزيل كليا وتحول إلى مطبعة جديدة، لان والدي (عمل هناك ...) وكل يوم يدخل في الفرع ويعرفه جيدا أما بيت مهدي طعيمة فقد تحول إلى عمارة تجارية منذ التسعينيات والكنيس لازال على حاله في سوق الأمانة لكنه متروك أيضا ... صدقني فرحت برسالتك كثيرا وكان بودي أن أساعدك واخرج بكاميرتي ابحث عن منزلكم صباح أمس لان البتاوين صغيرة كما تعلم ولكن الآن توسعت.. ولكن خاب ظني بما قاله لي الوالد. بإمكانني تصوير ما تبقى من البيوت وإهداءها لك علك تعرف قسما منها أو تتذكرها .. أما عن الفلسطينيين فلا يوجد من أسكن منهم في المنطقة، أصلا البتاوين تحولت إلى مركز المطابع بالعراق تجد فيها الآن أكثر من ٨٠ مطبعة ومكتب طباعي مع وجود منازل متفرقة للآثوريين والكلدان من قدماء المنطقة إضافة إلى السودانيين المقيمين بالعراق.. والمنطقة مقسمة الآن إلى ٨ جهات متفرقة بسبب استهدافها من قبل الإرهابيين ..

علما أن هناك في البتاوين عائلة يهودية واحدة تسكن الحي المقابل لمطبعة (معروفة، ... لا أعرف عنهم شيئا إلا أنهم يهود..

تحياتي لك وآسف على الإطالة وتصبح على ألف خير...

أدرك الأستاذ الكريم أنني أصبت بخيبة أمل مريرة بالرغم من جهوده الكبيرة المشكورة والتي لا يبذلها سوى أخ ورفي لأخيه. وأخيرا، وصلتني الرسالة التي كان لها فصل الخطاب حول بحثي اليائس الملهوف عن إمكانية العثور على دارنا والحصول على صورة منه، وذلك في رسالة للأديبة ومؤرخة الفن العراقي المجيد، السيدة أمل بورتر، فهي ذات إرادة حديدية، وتنجز وعدها، ومع ذلك فقد أغرقتني في يأس حزين، وقررت أن أصبر حتى يعجز الصبر عن صبري، وأزور العراق:

"ابن عمي العزيز عممت رسالتك لكل الأصدقاء ولكنني اعتقد أن بيستان مامو اغلب البيوت أتفلّشت

ومع هذا راح أحد الأصدقاء يعمل المجهود في معرفة مصيرها. بس شوية تاخذ وقت حتى يتأكد من الرقم لو باعته الحكومة او مستملكته الخ
انشاء الله خير. أمل"

١٧ شباط ٢٠٠٩

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة (٤٠)

البحث عن زمن الصبا الضائع (٢)

الجمعة ٢٧ فبراير / شباط ٢٠٠٩

لَيْتَنِي أَعُوذُ إِلَى الْعِرَاقِ يَوْمًا، فَأُحَدِّثُهُ بِمَا فَعَلَ الْفِرَاقُ

جلست ساهما أمام الحاسوب، منتظرا الفرج من كاشف الصُّرِّ عن المشتاقين إلى مفاوضات السلام لإنهاء هذا الصراع المدمر الذي لا تحله سوى حسن النية بين الجانبين وعقد اتفاقيات سلام شاملة، فتسمح باقي الحكومات العربية، أسوة بمصر والأردن والمغرب، بالسفر لمن يريد زيارة مسقط رأسه في البلاد العربية، وكنت أردد بيني وبين نفسي: لَيْتَنِي أَعُوذُ إِلَى الْعِرَاقِ يَوْمًا، فَأُحَدِّثُهُ بِمَا فَعَلَ الْفِرَاقُ! وكأن هذه الجملة أصبحت في التو واللحظة مصباح علاء الدين، بلمسته السحرية، التي تحقق المستحيل بخروج عملاق في سحابة من دخان وصوت يقول بأدب: لبيك، لبيك! وأنا عبدك بين إيديك! هذا العملاق العبد الذي يقوم بكل عمل تطلبه منه بسرعة وعلى خير وجه، حلم به العرب في قصص ألف ليلة، ثم استعبده أوروبا وجعلته تيارا كهربائيا يقوم بكل ما يرده الإنسان الحديث بكبسة زرٍّ صغير. وما إن نطقت بهذه الجملة للمرة الثالثة حتى رجعتُ عجلةُ الزمن بي فجأة إلى الوراء بقدرة قادر، ووجدت نفسي في بغداد، بلد المحبوب، وكنت أظنها أمنية مستحيلة التحقيق. نعم وجدت نفسي أمام الشارع المشجر المؤدي من باب الشرقي إلى الكرادة الشرقية، أي كرادة الداخِل حيث تبدأ بمحلة الرخيتة وتستمر إلى الزُوِيَّة وأبو قلام، وسمعت "سَكِن

باصات أم العانة" يعلن بأعلى صوته عن وجهته: "عل الجوه، عل الجوه" والآخر ينادي: "عل بره، عل بره" أي كراة الخارج، حيث تبدأ من ساحة التحريات وتستمر حتى الجادرية حيث أقيم جسر على اسمها، كما تشمل عرصات الهندية ومنطقة السدة. وعجبت كيف تغيرت هذه المناطق، وعندما سألت "وين باصات أم العانة"، أجابني أبو جراوية، "عمي، بلدة عانه هاي بالشمال لازم تروح للمحطة الرئيسية". قلت له "لا، أريد أكل هاي الباصات الصغار أم الأربع فلوس، يعني أم العانة"، ضحك وقال: أميين انتة من أيام العسمللي؟ لو من أيام جدي المرحوم اللي جان يحجيلنا على باصات أم العانة والعرباين الجان إيجلب بيها من وره ومرات لما ابن حرام ايكول: عربجي وراك!" جان ياكلها قامجيات اتورم. وين أكو "عانه" اليوم؟ فقلت لعاد اتغيرت النقود العراقية، على ما كانت عليه أيام الملكية؟ فقال: شنو أنت نايم بالشمس، ما تعرف شلون عبد الكريم قاسم أبو الفقرا، وحكام البعث وصدّامه القومجية، غيروا الفلوس والدنيا؟" ثم تذكرت أن حكام العراق بعد الملكية بدلوا رموز العراق منذ الحكم الملكي، حتى العلم العراقي الذي اشتقت ألوانه من أبيات صفي الدين الحلي الحماسية عن "خضر مرابعا وحممر وقائنا"، غيروها، فأصبحت مرابعا الخضر قاعا صفصفا تموت فيه النخيل الشّم واقفة تحتضر، تلعن وتشتّم من قتلها عطشا، وبقيت "وقائنا الحممر"، حروب سوده وبا العجم مال إيران وعرب الكويت، يعني حرشه مال أبو جاسم لر، لو مال ابن عبدك. ولاحظت أن الجيل الجديد لا يعتمر السيدارة التي كنا نفتخر بها متفنين في وضعها مائلة، وتعنى بها ملا عبود الكرخي بقوله:

"يا حلو يا ابو السيدارة أمتيمك سويله جارة"،

وكان نوري السعيد لا يفارقها حاملا إياها بيده مخفيا مسدسه فيها. أما كبار السن فهم بين معتمر عمامة سوداء أو خضراء، وللخاصة، والجراوية والعكال واليشماغ، للعمامة والشعفة (دون غطاء رأس) للشباب، والجميع "يتمندل" بالتلفون "الجوال"، أو "المحمول". وتذكرت معنى كلمة "السِّكِن"، التي كانت في أيامنا تعني مساعد السائق، وهي كلمة إنكليزية دخيلة على اللغة العربية العراقية، مثل كلمة بُطْل عرك، وكلاس ماي واستكان جاي، وفص كلاس والريسز وكل مصطلحات البنوك والسباق وكرة القدم وغيرها من الألعاب الإنكليزية، التي حلت محل الزبورخانة الفارسية، كانت سائدة في عصرنا أيام الملكية، وذلك نتيجة للاستعمار البريطاني الذي أعطانا قشور الحضارة الحديثة وما زال لا يهنا له بال إلا إذا شَمَّ نبط العراق. ولو لم يقبض الله وزير المالية الحضيف السير ساسون حسقيل الذي اشترك مع جعفر العسكري في مؤتمر القاهرة برئاسة تشرشل (١٩٢١) لتنصيب الأمير فيصل ملكا على العراق، ويصر على أن يدفع الانكليز الثمن بالباون الذهب الرنان الذي يحبه اليهود ولا يفرطون به ولو على حساب الحكومة، "لَلط" (إلتهم بسرعة) الانكليز نبط العراق من زمان، ورموا للعراقيين ببضعة دراهم ليسكتوا على "بزرتهم" (صفتهم) الرابعة التي كفَّ شرها ابن حسقيل اليهودي السموألي. وكلمة "السِّكِن" هذه هي أخت مصطلح "الريسز" الذي كان العربنجية في تلك الأيام السعيدة الخوالي يظنونه من المصطلحات العربية العريقة العدنانية منذ حرب داحس والغبراء، وهي الحرب الطاحنة المشهورة التي سببها الحصان داحس في أيام العرب المحجلة. فعندما زار أستاذ مصري العراق في الأربعينيات وقال للعربنجي: "سُوء (= سوق) للسباق"، قال العربنجي بثقة العارف بكل شوارع العراق ومنتزهاتها: "عمي، ما كو بالعراق كلها شارع أو محلة اسمها السباق"، فاستدرك المصري قائلا: "يعني ده المكان الذي بتسموه أنتو يا العراقية برضو "الريسز". فقال العربنجي: أي عمي هسه فتهمنا، ليش ما تحجي

بالعربي من الأول وتكول ريسز! ليش وين أكو بالعربي كلمة سباق بالعراق؟". وكلمة "السِّكِن" بالعربي العراقي الفصحى، تعني مساعد سائق "الميني باص" البغدادي اللي ما زال يذكره يهود "هضبة بغداد" في إسرائيل بأنه سيارة نقل الركاب التي انطلقت منها إشارة بدأ الفرهود عام ١٩٤١، وذلك عندما أوقف نازبي سكان محلة باب الشيخ باصات أم العانة وانزلوا منها الركاب اليهود عنوة وقاموا بذبحهم على قارعة الطريق كالنجاج بدعوى إنهم موالين للإنكليز، في حين أن الانكليز تركوهم لقمة سائغة بيد القتلة "لينشغل بهم" أولئك الموالون للنازية عن مهاجمة السفارة البريطانية في الكرخ والتي اختبأ فيها السفير الانكليزي كورنواليس المخلص للملك فيصل الأول وللعائلة المالكة، ولكي لا يظهر أمام الشعب العراقي بأن عبد الإله ونوري السعيد دخلا بغداد تحت حماية حراب الإنكليز، فأمر الجيش بأن يعسكر خارج بغداد ولا يتدخل لإنقاذ اليهود من الفرهود. وكان من أوائل ضحايا هذه المذبحة في باب الشيخ المرحومان والد الدكتور نسيم قزاز وخال الصحفي سليم فتال.

كانت مهمة "السِّكِن" جمع "العانة" من الركاب، وهو اسم العملة العراقية المتداولة آنذاك والمأخوذ من أسماء النقد الهندي، وهي قطعة نقدية مسننة تساوي ٤ فلوس كانت أجرة السفر من شارع غازي إلى العلوية، ومنها تفرق الطرق باتجاه الكرادة إلى "عل الجوه" أو "عل البره" قبل وصولك إلى الكرادة. والنكتة المشهورة التي لا يزال العراقيون يرونها إلى اليوم في مدينة "هضبة بغداد" في إسرائيل هي أن في أحد الأيام توانى "السِّكِن" بسبب خلو الشارع من أشخاص على جانبيه، عن المناداة على اتجاه الباص في عز شهر آب اللهب الذي يحرق المسمار بالباب. فنهره السائق قائلا: "ولك اشو سكتت؟ ليش ما تصيح على الجوه!" فأجابه السِّكِن: "عمي ليش

أصيح؟ متباوع، ماكو أحد بالشارع!" فقال له السائق: "يعني ولو ماكو أحد، بس على الأقل أخصني!"

وأما أختي أسبرونس فقد كان لها تجربة قاسية مريرة مع مثل هذا "السكن". فعندما سافرت الوالدة للتصنيف في عاليه وبيروت وأخذت معها زوجة إحدى جارات والدتها التي تعتمد عليها، ذهبت أختي إلى دار جدتنا ريقة - خاتون قرب سوق حنون، حيث كانت تجلس قرب باب الدار بهيأتها المهيبة وبسمتها الطيبة، وتنفخ الفقيرات خفية، العانات والقرانات (٢٠ فلسا) والدراهم، كل واحدة حسب خبيتها في الحياة، فيقبلون يدها ويذهبون "على باب الله". طلبت أسبرونس من جدتي أن تملي عليها وصفات الطبخات العراقية التي اشتاق إليها الوالد. طبخات مثل الانكري والتبيت والصالونة وإعداد البيض على التبيت ليوم السبت مع الخضرة والرشاد والطماطة والبطاطا والعنبة والبادنجان المقلي واللوبيا والباقلاء المسلوقة، التي تحبها فختي الحلة، فقد اشتاق إليها الوالد بعد سفر الوالدة إلى لبنان. وعندما عادت أختي إلى البتاوين وقد سجلت محتويات الوصفات اللذيذة في دفتر، استقلت باص أبو العانة وقالت "للسكن" بعد أن سلمته أجرة السفر، نزلي بالبتاوين عند قصر بيت بخاش، قال لها، على عيني وعلى راسي، يا حلوة. فلما اقترب الباص من باب الشرقي وكان قد خلا من ركابه في عزّ الظهيرة في شهر آب عندما يبدأ الزيت في شوارع بغداد يسيل تحت حرارة الشمس اللافحة وتعلوه الفقاعات السوداء من الزيت كعيون سعلوة جاحظة، والتي يعزف صوت إنفجاراتها نغمات كعزيف الجن السود في "نزيز" سرايب بغداد المعتمة. وعندما شاهد "السكن" أن الجادة خالية من الركاب، أخذ يقترب من أسبرونس الجميلة الغشيمة ويحاول مد يده إليها لاحتضانها، ثم سألها بوقاحة مذهلة: "كولولي يا حلوة، شلون لون لباسج"، والسائق يضحك مبتهجا من

هذه الرفاعة. أصيبت أسبرونس بالهلع وصارت تصرخ به "ولك نزلني من الباص هسه بالعجل لو أذب نفسي للشارع"، وفتحت باب السيارة وهي تتضرع وتبكي وتصرخ وتطلب من السائق "ياالله، اضرب ابريك ونزلني". وهمت بأن ترمي بنفسها إلى الشارع بزفته الملتهب كنار جهنم. وفجأة وقفت السيارة بصرير مزعج بعد "لقة" سينما غازي وانتهزت اسبرونس الفرصة وفرت من السيارة ولم تبال بأشعة الصيف الشديدة المحرقة التي كادت أن تصيبها بضربة شمس، وأخذت تعدو حتى بلغت الدار وارتمت على أول مقعد فيه ثم أغمى عليها.

ولما عادت الوالدة من تصييفها في زحلة وزيارتها لبيروت محملة بالهدايا الثمينة التي اشترتها من باريس الشرق المرحومة، كان بين الهدايا بدلة بحرية لريموند شبيهة بدلات رجال البحرية الفرنسيين، فشعرتُ بالظلم والتمييز بين الأبناء، فأنا أولى بهذه الهدية لأن أُمي أسمتني على اسم والدها، وكانت عند رضاها عني تقول لي بحنان "وي أبدالو الابويي" أو "وي ابدالك انت تحبني كيف أنت على أسم أبويي". أما عندما تزعل عليّ، فقد كنت تعتبرني محسوباً على الوالد، لأنه فرح بولادتي بعد ابنتين وأنقذته أنا من كنية أبو البنات وما تجره من النحوس والفقر على العائلات اليهودية، وصار ريموند يتبخر بدلته البحرية أيام السبت والأعياد، فلبسها ذات يوم في مدرسة السعدون، فتوسخت ثم ضاقت عليه بسرعة وتنوسي أمرها. ولكن الوالد عوضني بدلها بشراء عجالات تزلج، هامسا إنها أمريكية الصنع وليست يابانية، فيهود العراق انقطعوا عن شراء البضائع الألمانية بعد أن سمعوا بالمحرقة، وقاطعوا البضائع الإنكليزية بسبب الفرهود وغدر الإنكليز بهم، وهمس في أذني ليخفف عني خيبة أُملي ويترضّاني: "هايي السكيتنج مال غجيل (الرجال) المردان، ما مثل البدلة

البحري مال الزنانة" (عجلات التزلج هذه للرجال وليست مثل البدلة البحرية الصالحة للنساء).

بقيت سارحا في أحلام اليقظة والأحلام، مثل الحديث، لها شجون. كانت لسفرة الوالدة مع زوجة جار الجدة للتصيف في لبنان قصص وحكايات، روتها الوالدة عن هذه الزوجة السليطة اللسان التي يتعوذ الشيطان منها عند رؤيتها وسماع هذرها، والتي عانت منها صاحبة الفندق اللبنانية حين هددتها بكشف سر علاقتها الغرامية برجل غريب عن عائلتها إذا أصرت على رفع أجرة الفندق بسبب الإقبال الشديد على الغرف في ذلك الصيف. وكان زوجها موشي هذا قد ذاق الأمرين منها ويتذكر بلوعة مرارة الخدعة التي خدعه أهلها ليلة الدخلة، حين حذوا حذو لابان مع صهره يعقوب أبي الأسباط، عندما طلب يد راحيل الجميلة فخدعه لابان بإبدالها بابنته "البائرة" لينا. فقد طلب موشي جار جدتي يد الأخت الجميلة، وزارها للمعاينة المعروفة عند يهود العراق مع العائلة، فمدت أخته يدها كأنها تتفحص "الكردانة" لتتحسس ثدييها، فأخبرت الخَطِيبَ بالنبأ السار، فطار عقله فرحا، وأعلن عن موافقته وخطبها، فلما دخل عليها ليلة الدخلة في العتمة وقد سقوه العرق الزحلاوي وسطلوه، ولم يعد يميز بين القرد والفهد، استلقى على فراشه منهوك القوى واستغرق في سبات عميق. وفي الصباح، عندما سكتت شهرزاد عن الكلام المباح، وجد العريس المسطول أن العروس الراقدة في فراشه قبيحة مسحاء، وليست تلك الفتاة الكاعب التي ذهب لمعاينتها، وقفز من فراشه، وقد طارت النشعة من رأسه، وأدرك أنه كان سكران، وأنهم أبدلوا الفتاة الجميلة التي كان بها ولهان، بأختها القبيحة، ويا للطامة الكبرى والفضيحة، وصار يصرخ: "هايي ما البنتي العينتوها بالمعاينة عندكم" (هذه ليست الفتاة التي رأيته وخطبتها عندكم"، وهم بمغادر دار

الزوجية. فقالوا له: "يا با وين رايح، تعال جاي، بعد ما أذخلتُ عليها وتونست بيه، وأخذت وجهها؟ ماكو هيكذ شين!"، ولما هم بمغادرة الدار، وقعوا على يده يقبلونها طالبين أن يستر عليهم وعلى ابنتهم. لقد دخل عليها وهي عروسة وأصبحت زوجته، "وما كو جاره بعد". فمن سيتزوجها بعد ذلك؟ وهل يقبل ضميره أن تبقى مطلقة طول عمرها، وأي عار سيلحقه بالعائلة. ثم ترضوه وزادوا في مهرها، "وأكلها أكلة سودا". وروت الوالدة أن موشي هذا، انتقم لنفسه بعد سنين بأن قام بنفس الخدعة مع قريب للعائلة الغادرة، فلما سأله العريس: "ولك ليش سويت بي هيكذ دقة؟ خلال عليك، الله يقبلا؟" أجابه موشي متشفيا: "حيل بيكم! ليش بس أنا أكلها؟".

وفي حلم يقظتي ذي الشجون، دخلت دارنا وسمعت صدى أصوات ضحكنا ولعبنا، ستة أطفال نعيش هناك في سبع غرف، أما نحن الصغار فقد كنا ثلاثة أولاد يتلهفون إلى اللعب خارج الدار لكي لا يفسدوا على الأخ البكر العبقري دروسه باللغات العربية والفرنسية والانكليزية والعبرية وفي العلوم الرياضية التي تفوق فيها، هذه الدار التي أحن إليها العمر كله، كانت في نفس الشارع الذي يقع فيه قصر بيت صديقي سامي بخاش، وعلى نفس الجهة التي يقع فيها بيت المرحوم أمير اللواء الطيار منير عباس حلمي وأمام قصر بيت مهدي طعيمة والذي كان ابنهم الأصغر إذا طلب شيئا من والدته يقول لإغاظة بيت منشي ويعقوب ونوري حاي: "يُوم! خرب دين اليهود، آني جوعان أزد أكل، يالله بالعجل"، وكان لا ينطق بجملته مفيدة مع والدته وأخوته دون أن يكفر بدين اليهود وتوراتهم، احتسابا، كما كان يفعل الشباب النازي الحقود، الذي كان يكتب الشعارات والاهانات على الجدران أيام رشيد عالي الكيلاني، وفي كل مكان. وأمام سور حديقة بيت سامي بخاش الغناء كانت تقع سلسلة بيوت متشابهة على الطراز القديم، ومنها دار صديقنا فودي (فؤاد) شماش الذي كان والده

نائباً لمدير دائرة البرق والبريد في بغداد، والذي كان يفتخر بأنهم أول من اشترى
ثلاجة كهربائية في المحلة بدلا من صندوق الثلج القديم، ونكاية بنا نحن الذين كُنّا
أول من اشترى راديو "إيكو" والذي خاطت له والدتي غطاء من قماش أبيض مطرز
تقيه عواصف العراق الرملية. وكانت هذه الدور تحتوي على "حوش" في وسط الدار
مع نيم أو سرداب، وفي الطابق الثاني غرف النوم. وذات يوم أُطلت إحدى كُنات
دار "بيت أبو النخته تيرة" (الخردفروش) (الواقع بين بيت فودي وبين بيت أم دفيد،
الذي أصبح شرطيا في هضبة بغداد بعد الهجرة)، من على الحاجز في الطابق الثاني
لترى من الطارق، فسقطت على رأسها إلى الحوش وتوفيت على الأثر، فجاءت
الشرطة تحقق، وقالت نسوة الحيّ متعاطفات مع العائلة المنكوبة: "هم موت وهم
أحسب!". وأكد المتمسكون بتقاليد الديانة اليهودية على أن موتها الغريب، جاء
عقوبة من المولى عزّ وجلّ، على تدخين أحد أفراد العائلة السيجارة يوم السبت
المقدس عند اليهود. ثم ظهر فجأة في هذه البيوت، قبل هجرتنا، وفي عزّ هروب
الشباب اليهودي بالمئات عن طريق إيران وكردستان إلى فلسطين، وسكن فيها جيران
جدد لعلهم من سكان أبو شبل أو الفضل سابقا، فصدمتهم جرأة يهود البتاويين.
وحين امسك بائع البيض حسقيل اليهودي بابن أحدهم وقد سرق بيضتين منه، اقبل
والده غاضبا وصار يصفع حسقيل أبو البيض، ويقول له وهو يواصل الصفع: "ابن
الكعبة يهودي، شلون تتجاسر تكول ابني بؤاك؟ كواويد أيهود، طلعت عينكم من
صار الكم دولة! والله لا أخلي الجلاب اتني... م". أما بيتنا فيقع في هذا الشارع
الذي يمتد من سوق البتاويين أمام كنيس مير طويق مارا بقصر بيت طعيمة وبيت
نسيم كوهين وأمامه بيت عقيد الركن، مارا ببيت منشي حاي ودار عائلة بلبول ثم
دارنا، ثم دار أمياهو "الحيوان" الذي لم يستطع الحصول على شهادة البكلوريا
الحكومية، ثم يأتي بيت مديرة مدرسة السعدون الست مارثا (التي كانت أمها إذا

رمينا دجاجة مَيْتة في البستان أمام دارنا، تسأل متى ماتت؟، ذا قلنا لها، في التوّ واللحظة، كانت تأخذها معها إلى دارها)، وبيت شابي ثم بيت المعلمة ست راشيل وزوجها يوسف دهان مدير مدرسة التعاون وابنهم حوكي الذي سجن بتهمة الشيوعية، ثم بيت شعيا الكبير الذي كان يمتد على شارعين، بقفص طيوره من نوع أبو أحشيم والذي يقع محاذيا لحديقة بيت سامي بخاش الغناء. وكانت دارنا هي الدار الوحيدة في جهة اليمين المكونة من طابقين، أشرف الوالد على بناء الطابق الثاني بنفسه في صيف ما بعد الفرهود بعد أن أرسل الوالدة مع أسبرونس كبرى الأختين وبحراسة الأخوين جاكوب البكر ومراد وهما المفضلان عندها، فأولهما بكرها الذي رفع رأسها عند ولادته أمام عائلة الوالد المتربصة بالمدامة مدرسة "الفريسماوي"، وسنحت لهم الفرصة عندما ولدت أمي بنتين بصورة متتالية، وصار عزرا ابن عمتي هيلة يعيبرها بجلوسه قرب غرفتها وهي نفساء ويعني تشفيا ومفتخرا بأمه التي ولدت ولدين في نفس الوقت ويعني: "أمي جابت زوج ابنين وزوج ابنين"، لإغاظتها. أما أصغرنا "غسال البطون" المدلل، فقد ورث ألوان عائلة أمي، "الزرق العيون والشعر الكلبدون"، و"طيلع بيضاني ونزوكي وشعغو اصفر، على إخويي صالح صيون وابويي المرحوم شاؤول عينه جي من بيت أبو الجام". هؤلاء الذين كانت أمي تفضلهم على النصف الآخر سافروا معها إلى شقلاوة في شمال العراق للتصنيف، وبقي في البتاويين النصف المغضوب عليه، كلادس وريموند وكاتب هذه السطور، ضجرين في الدار في الحرّ الشديد من الغبار وضجيج "العمالة" وصياحهم: "ناوش الطابوك، واجبل الجص زين، وجيب الكرسته، ودير بالك من الشيلمان"، فيرد صغار العمالة: "إبشر يا أسطه!"، ووقع عبء الطبخ على كلادس والخادمة، فيشيط الطبخ أحيانا. وفي ذات يوم عثرتُ على مسودة رسالة الوالد إلى الوالدة وفككت حروفها مع كلادس وفيها يقول: "شيغي سنيوره" (عزيزتي سنيوره [وهو اسم الوالدة، مقتبسا من اسم "دونا سنيوره" من كُبريات

النساء اليهوديات اللواتي طردن مع اليهود والمسلمين من الأندلس واستقبلهم السلطان با يزيد العثماني في بلاطه معززين مكرمين]، كتب الوالد: "ترى سامي كثير امضوجني" (إن سامي يزعجني كثيرا)، إذ لم يجد الوالد من بين الأهل من يرضى بأخذي للتصنيف عندهم بعد الخزعلات مع الجيران المسلمين في حارات بغداد التي تقطنها الأغلبية المسلمة. ولما عادت الوالدة من عطنتها الصيفية بأحمال فواكه شقلاوة عراق الخير والبركة، من العرموط والخوخ والعنجاص والنفاح والجوز واللوز ونكر البلبول والطين خاوة والعلج الأسود (القير) من حمام العليل، وليف الحمام للغسيل والحجارة السوداء المخرمة لحك الأقدام وغير ذلك من تحف أكراد شقلاوة، وهم يروون الذكريات عن صيد البلابل وينادي احدهم الآخر بكلمات كُرديّة مثل "وَرِ أيرا"، و "چوني" (تعال هنا، وكيف حالك؟) والجملة المهذبة التي قالها صاحب البستان الكردي الذي نزلوا فيه. فحينما طالب الوالدة بدفع أجره الأسبوع الماضي، قالت له وهي تراجع ما كتبه: لقد دفعت لك في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية قرب باب دارك بحضرة ابنك، فيجيبها بأدب: "والله يا خانم، يمكن تمام، بس أكر فكر ماكو!". فتمضي الوالدة مذكرة إياه بالمكان ونوع النقود وغير ذلك ليستعيد ذاكرته، وهو يكرر عبارته المهذبة عن "الأكر فكر ماكو"، حتى أعلنت زوجته أخيرا بأنه أعطها النقود لنفقاتها ونسي ذلك، ولكن جملة "أكر فكر ماكو"، كانت قد أصبحت جزءا من تراث العائلة وأدرجت في قاموس أخي ذي الذاكرة العجيبة، يرددها في كل جملة مفيدة يقولها للمزاح أو لكيد الآخرين. وعندما أخبرت الوالدة عن حنيني إليها وكيف كنت أذرف الدموع شوقا إليها وأرسل إليها القبلات في الهواء "وأقول للهوا، يا هوا، وديها البوسة عند مومو (ماما)"، دمعت عينا والدتي واحتضنتني وهي تقبلني، فقد كانت عاطفية تتماهى مع أحزان الآخرين وتغضب للظلم الواقع عليهم، تحب صفاء النية وطيبة القلب وكم ذرفت الدموع أيام عاشوراء عندما

كانت تطل من شنائيل دار والدتها على مواكب الحزن والأسى. سمع أخي ما قلته همسا للوالدة، فانطلق يرددّها جدلا ساخرا من عواطف وحيني إليها، فقد رأى في هذه الجملة ميوعة عاطفية تتنافى مع فحولة نكاته الساديّة المتندرة على أفراد العائلة والأصدقاء، سادية تتميز بالحساسية المفرطة والغضب من كل نقد بناء وتطرب للتملق وتهش له. تماما مثل فحولة بطولات الحكام الجائرين المدمرة لشعوبهم، الخالية من العاطفة والرحمة، فتتقلب عليهم تدميرا ذاتيا. وقد أضاف أخي العبقري "جملة أبوس الهوا" إلى قاموس نكده ونكاته الساخرة من "شاعرتي الفطيرة الفجة".

بقيت غارقا في بحران الأشواق إلى العراق، فإذا ببطاقة تقفز أمامي على شاشة الحاسوب تنبئوني بأن رسالة من الأديب مازن تنتظرنني، كانت قفزة جعلتني أستيقظ من سرحة الذكريات إلى عالم الفراق والحنين المريرين نحو العراق، فإذا بالأستاذ مازن يدرك خيبة أملي وبأسي من حصولي على صورة لدارنا لتسلي شيخوختي، فيرسل إليّ أغنية عراقية غايتها التخفف من لوعة نار شوق المشردين خارج العراق، فإذا بها تصب الزيت على النار وتزيدها لهيبا، فقد جاءت الأغنية على جرح القلب، فكتمت ألم سهمها بعد أن تحطم نصله على النصال في قلبي الكليم المشتاق إلى زيارة العراق. تقول رسالة الأديب مازن: "مساء الخير أستاذي الفاضل.. استمع الآن إلى أغنية كتب كلماتها صديقي الشاعر عبد الكريم هداد، ولا أعرف كيف خطرت على بالي، فكتاباتك كأنها في قلبي وروحي، تقول الأغنية:

أحسدُ طيورالعصر رجعتُ وأنا ظليمتُ شتايقتُ أشوفنُ هلي أبوس باب البيت عل العتبة أنثر ورد فرحان يمهم جيت أفرش سنين العمر بوسات أنا تمنيت حبيت اشوفج عصر يمّه اشكد حنيت ليل المنافي ثلج أرجف عشق ظليت شتايكت أشوفن هلي وأكعدُ أبا البيت ومن شوقي ليل انهار أبوس باب البيت.

وإذا بعروس الشعر تضيف دون وعي مني البيتين التاليين فتكتب:

"ومن شئيت ريحة هلي ولهان أنا تميت

أ ظل عمري أون أجي على باب البيت "

أفقت من سرحة إلهامي وعجبت كيف لم أقتل الباب والبيت، فوجدت عروس شعري
دامعة العينين حزينة، سألتها بلهفة:

"هل يا ثرى من العراق سوف أخطى

بلفتة العطف عليا

أم يا ثرى بغداد تبقى،

حسرة،

حشرجة الموت لديا؟"

ردت عروس الشعر باكية منتحبة: حاشاك يا عيني، وبعيد البلا، يا بعد هلي وطوايفي.
بغداد ما تنسى اللي يحيها!

شباط ٢٠٠٩

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٤١

عود وانعطاف. إلى أيام الحب والنعنائف. في العراق (١)

الثلاثاء ١٤ أبريل / نيسان ٢٠٠٩

ترددت كثيرا في كتابة هذا الفصل، فقد اتهمتي الدكتور هدى بأني لا أتورع في كتاباتي من ذكر الشتائم والسباب بالقلم العريض، ولكنها الواقعية بل لنقل المذهب الطبيعي في الأدب الذي ينقل الواقع بحذافيره دون تدخل الرقيب أو مقصده لنراعي ذوي الأذواق الرقيقة الذين "يجرح مر النسيم حدودهم". وخشيت أن أجرح مشاعرها الرقيقة فعزمت على أن أجيل "مقص رقيب شرطة الأخلاق العربية"، وأن أحذف ما سمعته في طفولتي وصباي في العراق من سباب وشتم لكي لا تحمر صفحة شاشة الحاسوب خجلا من جرأة الواقع الذي عشته وبقي محفورا في ذاكرتي، "والعلم في الصغر كالنقش في الحجر". ولكنني لو كتبت كل ما انطبع في ذاكرتي من ذكريات ومشاهد في العراق، لقليل بأني أبالغ. وكدت أحذف بعض الكلمات من شجون الذكريات، ولكن عروس الإلهام عاتبني بلهجتها العراقية المحببة التي تفخم حرف اللام، بقولها "يا بابا ليش تشيل واتحط، عدل بدل، يعني قابل أنت دتخترعها من راسك؟"، لقد قلت لنا بأنك تقوم بالكتابة الواقعية وما تكتبه هو الحقيقة، ولكن أن تقوم بعمل ماكياج فيما تكتب، أو تجيل فيه مقص رقابة شرطة الأخلاق، فإنك تشوه الحقيقة.

ثم وصلني مقال للأستاذ خالد القشطيني يتحدث بصورة واقعية عن يهود العراق ويحسداهم على لباقتهم وصدقهم وأمانتهم في معايشة المسلمين، وهو يحب الحديث عن الجنس أو ما يسمى بالأدب المكشوف، ففي مثل عمرنا لا يوجد "بعد كلمه اسمها عيب"، وكان العراقيون يقولون لرفع الكلفة بين الأصدقاء "العيب بالجيب". والعجيب أنني وجدت تشابها كبيرا بين مواضيع كتاباته وكتاباتي، ولَمِمْ لا، فنحن عراقيون أبا عن جدّ، ومتقاربان في السن، ولذلك فان مواضيعنا تتشابه وإن كانت من بعيد. وفي حكايته هذه المرة أيضا كتب يحسد اليهودي حتى في كيفية وفاته. وهذا اليهودي هو من هواة الفن هذه المرة وليس من التجار الأغنياء، وهو يهودي دنكجي أي بالعربي الفصيح "ضابط إيقاع في الحوقة الموسيقية"، أحب راقصة عراقية مسلمة، ثم "أنجبر بيها" أي أحبها حبا لا يستطيع الفكك منه، ولكنها مانعته، وفي ذات يوم احبها شيخ من شيوخ الخليج، وتزوجها "على بركة الله وسنة رسوله" ومضت الأيام ولم تحمل منه، وعلمت انه مصاب بالعقم، فقررت أن يكون لها طفل بأي ثمن لكي يرث ثروة أبيه الطائلة، فتذكرت عاشقها اليهودي البغدادي الدنكجي، فليس مثل اليهودي في كتمان علاقاته مع النساء، وسافرت إلى لندن لتعود بولي عهد للشيخ المبجل، ومن فرحة الدنكجي بان حلم حياته تحقق، أصيب بسكتة قلبية ولكنه استطاع أن يخلد نفسه في صلب ابنه الذي سيصبح شيخا جليلا. وليعذرني الشيوخ على تلخيص هذه القصة، ولكن "ما على الرسول إلا البلاغ"، ولا اعلم إذا كانت هذه القصة حقيقية أم من نسج خيال الأستاذ القطيني المبدع، ولا يهم إذا كانت هذه القصة حقيقة أم من بنات أفكار الأستاذ الجليل، بل المهم أنها تشبه قصة واقعية عاصرتها ورويتها في ذكرياتي، وهي حب صباح ابن نوري السعيد لرفيخته (رفيخته أو خليلته) اليهودية. وعندما أجبرت تصرفات الحكومة الملكية وتعسفها اليهود على الهجرة إلى إسرائيل، كانت هذه الرفيعة حامل وهناك وضعت

أبن صباح وحفيد نوري السعيد في مستشفى ولادة إسرائيلي. وبعد مصرع نوري السعيد ومقتله الشنيع وسحلته في شوارع بغداد حتى لا ندري إذا بقي من جنته بقايا تدفن، وبعد سماعها بوفاة صباح نوري السعيد، طالبت "الكرل فريند" اليهودية بنصيب ابنها من الإرث، والرفيعة باللهجة العراقية وفي اصطلاح الفقهاء، كلمة يشم منها رائحة الفسق والفجور والفاحشة الكبرى، ولكن اليوم بفضل الثقافة الأمريكية ونشرها لمدينة العولمة، أصبحت "الرفيعة"، كما أخبرتني الدكتورة هدى، تسمى "كيرل فريند"، وبذلك غسلت العار عن المصطلح القديم كما تغسل أموال المتاجرة بالمخدرات والأسلحة الفتاكة، وتكون صالحة لإيداعها في البنوك المحترمة لعمل المبرات في سبيل الله. وهذه مكرمة من الحضارة الأوربية على العراق الذي كان قد غنم أيام الاحتلال البريطاني ثقافة إنكليزية عالية عبر عنها المرحوم جارنا محمود ونّاس في البتاويين بقوله: والله يا جماعة الخير، أتمدّنا وتكرمون، حتى الجلب (الكلب) صرنا أنسميه بوبي". ولكن هاي الرفيعة اليهودية "وين تروح وين تجي" ومقاطعة إسرائيل من جانب الدول العربية تجرى على قدم وساق، ولم تقبض من كل الدعوى ولا فلس احمر واحد، ولعلها ستجدد الدعوى بعد أن يحل السلام بين العراق وإسرائيل بإذنه تعالى. ويبدو "أن الدم ما ينقلب ماي" كما يقول المثل العراقي، وترعرع الحفيد اليهودي لنوري السعيد وعمل في السياسة مثل جده الداهية المرحوم، والذي أخذ بعض العراقيين اليوم يحنون إلى أمجاده التي شوهتها الانقلابات المتتابة في العراق، ثم أصبح هذا الحفيد فيما بعد رئيس بلدية في مدينة كبيرة في إسرائيل، وهكذا نرى صحة المثل العراقي في "أن الدم ما ينقلب ماي"، والعرق دساس.

قالت الدكتورة هدى، إنني لا أوّمن بنقاء الأجناس كما يدعي البعض، وخاصة إذا أخذنا بالحسبان الحروب والفتن وما يقع فيها من حوادث الاغتصاب وهتك الأعراض،

ناهيك عن الحب بين الشباب والنساء المتزوجات. وأنا أرى أن قصة وضاح اليمن الذي شبب "بأم البنين" زوجة الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وغراما به دفعها كما تقول الحكاكية، الى اصطحابه معها بعد الحج سرا إلى دمشق، ثم كشف أحد الخدم أنها تخبئ عشيقها في صندوق كبير في مخدعها. فحاول ابتزازها بأن طلب منها أن تعطيه قلاذتها الثمينة لكي ثمننا لصمته، فلما طردته وشى بها عند سيده الخليفة. دخل الخليفة على مخدعها فرآها جالسة على الصندوق، طلب الخليفة الصندوق هدية لتثبت حبها له، فوافقت على مفضض، فأمر الخادم برفعه ودفنه في حديقة القصر. وقيل إنها كانت ترى في بعض الليالي جالسة تنتحب حيث دفن الصندوق مع سرها الرهيب. كل هذا يدل دلالة واضحة على ما تقول الدكتورة هدى. وأنا أرى أن قصص الرواة العرب في الحب هي أروع بكثير من رواية د. هـ. لورانس البريطاني عن "عشاق الليدي تشاترلي". لقد أدرك حكماء اليهود هذه الحقيقة ولذلك قرروا أن المولود ينسب إلى الأم فأنهم متأكدون من تكون، أما الوالد فالله أعلم والنساء تعلمن أيضا، ما أصدق الكلام عن كيدهن العظيم.

نعم، لقد عجبت للتشابه بين كتابات القشطيني وبين كتاباتي، فعند كلينا يستحوذ هاجس الكتابة عن يهود العراق، فهو مولع بالحديث عنهم وعن ذكائهم ومسالمتهم ومسايرتهم للواقع وصدقهم ويرى أن سبب صمودهم في العراق طوال المئات من القرون، هو تسامحهم ومسايرتهم للأحوال، فقد كانوا يميلون إلى حيث الريح تميل. والأستاذ خالد القشطيني يحسد اليهودي في كل شيء حتى على ساعة مماته، ولا يتورع من استعمال المفردات الجنسية في سبيل الواقعية، كما كان يفعل رواد قهوة الشط وقهوة عزاوي في بغداد أيام العز. فقلت لنفسى، إذا كان أستاذ وكاتب قدير ومشهور من كتاب جريدة "الشرق الأوسط" الخابصة الأوساط السياسية والثقافية في

العالم، يكتب بالقلم العريض، فلماذا أتردد في الكتابة عن الحب في العراق كما شاهدته. فأنا أرى نفسي شاهد عيان لفترة حرجة من تاريخ العراق وتاريخ يهودها، وقد أقسمت أمام التاريخ بان أقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق، وذلك حين دفعتني الأقدار، بدون سابق إنذار، إلى تدوين مذكراتي في مجلة "إيلاف" المتسامحة الحرة. وفي هذا المجال من الكتابة الواقعية، تكون الكتابة عن الجنس مباحة في الدين والتاريخ والأدب، وخير دليل على ذلك نواذر كبار الكتاب في العصر العباسي الذهبي كالأصفهاني في كتابه الأغاني، الذي تحدث فيه عن مغنية "نزلت للكار" (أي مارست الدعارة) كما يقول العراقيون، فقال ببراعة: "وحتل تكتها، وسرت الشيخ والصبي"، أو عن الوليد بن يزيد العابد الذي كشف زمماره الأبنوسي أمام أشعب، وسأله بفخر: "هل رأيت مثل هذا؟"، والجاحظ في كتابه "الحيوان" تحدث بصراحة عن علاقة بعض الرجال بإناث الكلاب، وأبو حيان التوحيدي في "الإمتاع والمؤانسة" قال معرضا ببن العميد، حين حجز نديمه، وأبى أن يسمح له بزيارة زوجته، فلما ألح النديم في طلبه، أمر بإحضارها أمامه، ليتمتع بأول عرض "لايف شاو" حفظته لنا الكتب الأدبية عن اللهو في العصر العباسي. وناهيك عن حكاية أبي القاسم البغدادي لأبي المطهر الأزدي وقصص ألف ليلة وليلة التي كان القراء العرب يتشائمون من وضع أجزائها كاملة في مكتباتهم لأنها تسبب النحس والخصام بين الأزواج، كما كانوا يعتقدون، فلذلك كانوا يضعون الأجزاء المختلفة في مكاتب متفرقة خارج دورهم.

ثم هناك كتاب ابن كمال باشا في "رجوع الشيخ إلى صباه"، الذي ألفه لبعض السلاطين العثمانيين ليستعمله مثلما يستعمل اليوم بعض الرجال أقراص الفياجرا في هذه الأيام السعيدة، الذي ينغصها الإربايون المتعصبون في كل مكان. والعجيب

أن أحد الأطباء في إسرائيل، تحدث عن صدق بعض الشائعات، وقال، "نحن نعلم الشائعة التي تقول، إن العراقيين لا يحتاجون إلى أقراص الفياجرا، وقد أثبت الطب هذه الشائعة". أما كتاب ابن كمال باشا هذا فقد كان من الكتب المحظورة في البلاد العربية والذي كان بعض العراقيين حتى في إسرائيل يستعيرونه من مكتبة الجامعة قبل زفافهم، وكان القراء في العراق يتناقلونه سرا، نسخا وإعارة وحفظا عن ظهر قلب كما كانوا يفعلون بأشعار إبراهيم طوقان الإباحية في عشيقاته المسيحيات تتناقل شفويا ونسخا ولم تطبع حتى اليوم، وقصائد حسين مردان العارضة في عاهرات الميدان في بغداد التي تأثر فيها بالشاعر الرجيم بودلير، وقد اعترف مردان في إحدى قصائده قائلا:

قد رضعت الفجور من ثدي أمي وترعرعت في ظلال الفجور!!

أما شعر ابن الحجاج فقد كان محظورا على شباب كتاتيب الماللي في العصر العباسي، وعندما كتبتُ نقدا لكتاب "تلطيف المزاج من شعر ابن الحجاج"، اختيار محمد بن نباتة، شرح وتحقيق الدكتور نجم عبد الله مصطفى، في مجلة "دي ويلت دس أسلامس" التي كان يحررها أ.د. ستيفان ويلد من جامعة بون، قلت عن الكتاب معجبا بالتحقيق، بأن مثل هذا الشعر يستطيع قراءته من لا يخشى التحديق في الأغوار المظلمة للنفس الإنسانية. وقد وعى كبار الكتاب العرب أهمية هذا الجانب من روايات الشذوذ الإنساني، فتحدث الكاتب الكبير نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب، عن الدكتور بوشي "طبيب الأسنان" في روايته "زقاق المدق" وزيطة صانع العاهات ونابش القبور بحثا عن الطقوم الأسنان الذهبية في أفواه الأموات، دون أن يرى ذلك مساسا بالشعب المصري. أما الدكتورة نوال السعداوي، في كتابها الجريء بأحداثه الرهيبة، "موت الرجل الوحيد على الأرض"، الذي صورت

فيه الفقر والجهل والمرض في الريف المصري، وسيطرة الآباء وتعسف الحكام ونقدها عادة ختان البنات، مما أثار غضب المحافظين ضدها، حتى اضطرت إلى مغادرة مصر إلى الولايات المتحدة، مثل الدكتورة وفاء سلطان التي أفحمت رجال الدين في مناظراتها في قناة الجزيرة. فقد تحدثت نوال السعداوي عن الشيخ متولي المجذوب، نابش القبور الذي كان يسرق أكفان الفتيات والرجال المتوفين ليبيعها في القرى المجاورة كسبا للعيش بعد أن يضاجعها. إن مثل هذه الجرأة في تصوير النفوس البشرية المريضة هو جديد بالنسبة للمجتمع المحافظ، الذي يرى أن النفس المطمئنة يزعجها الكشف عن أغوار النفس الإنسانية الشيطانية المظلمة. وهناك الكثير من الكتاب الغربيين الكبار ممن تخصص في تصوير مثل هذا الشذوذ الجنسي. أما الصحفيون اليوم فهم يهتمون بالشذوذ في كل مكان وزمان، وقد سمعنا حديثنا بقصة الأب الذي حبس ابنته عشرات السنين واغتصبها وحمل منها، إلى غير ذلك من المآسي الإنسانية.

والأستاذ القشطيني حفظه الله، له نفس "الخوي" أو الهاجس الذي يلاحق قلمي، والذي يجتاحني عند الكتابة، فهو يتحدث عن حكمة اليهود العراقيين، أما أنا فتطاردني أرواح ضحايا الفرهود حتى عندما أقلعت بي الطائرة من مطار بغداد في يوم ٢٥ أبريل، ١٩٥١ إلى إسرائيل، فسمعت أصوات الضحايا تستغيث بي صارخة "كيف تتركنا وتذهب دون أن تقول كلمة احتجاج عن مصرعنا ظلما وعدوانا؟" ولذلك لا أستطيع كتابة فصل من فصول ذكرياتي إلا وتقفز فطائع الفرهود إلى ذاكرتي، وذلك بالرغم من المجازر الفظيعة التي حدثت في الشرق الأوسط قبل الفرهود وبعده، والتي لا يمكن حصرها اليوم، بل تتكرر حين تغيب الحكمة وتسيطر سكرة القوة الغاشمة على الضعيف.

وهناك تشابه آخر بين كتابات القشطيني وكتاباتي، إذ يحلو للأستاذ خالد القشطيني الكلام عن شطارة اليهود، أما أنا فيحلو لي تدوين السباب والشتم العراقي، وذلك حرصاً مني على المحافظة عليها كما سمعتها في طفولتي، حفظاً للحقيقة والتاريخ والتزاماً بالواقعية.

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٤٢

عود وانعظاف. إلى أيام الحب والنعظاف. في العراق (٢)

الجمعة ١٧ أبريل / نيسان ٢٠٠٩

كتبتُ في الحلقتين ٢٩-٣٠ من سلسلة "يهود العراق، ذكريات وشجون"، التي نشرتها في جريدتي "إيلاف" و"الأخبار"، عن الحب في العراق، ثم أردفتها بحلقة جديدة (رقم ٤١)، اقتبست فيها من أدبيين كبيرين هما الدكتورة هدى والأديب الألمعي الواقعي خالد قشطيني، فإذا بهجمة ظالمة تشن علي من حيث أدري ولا أدري، ومثلما كان يحدث في العراق بأن التهم التي يشترك فيها يهودي لا يحاكم عليها المسلمون، "ويس اليهودي ياكلها وحده"، حدثت معي الآن وكأن الزمن توقف عن سيره الحثيث وعاد بنا إلى عهد التهم الباطلة والمحاکمات السورية والإرهاب الفكري والديني والعقائدي. وكما كان يحدث في الماضي من تكميم الأفواه وتشويه الحقائق، بتشغيل "القوانة المشخوطة" (الاسطوانة المشروخة)، بتهم الصهيونية والشيوعية وتلفيق المحاکمات الزور والبهتان، عادت هذه الممارسات في شلة جديدة في عهد العولمة وتعايش الحضارات. فإذا بالتهم تكال جزافا، والكذب والتهم الباطلة هي من شيمة الجبان الجاهل.

كنت في بداية دراستي في الجامعة مصنفا أيام حكم "حزب الميبي"، في خانة "عراقي- جامعي- يساري- شيوعي"، كما حدث للكثير من الطلاب الذين لم يحصلوا على شهادة تأكد صهيونيتهم في العراق. وحتى اليوم لم أكن اعلم بأني

"صهيووني قتلت فلسطينيين وطردتهم من ديارهم وسكنت دورهم"، هكذا بجرّة قلم أخرج. ولماذا، لأنني هربت من اضطهاد مخطط لطرد يهود العراق ومن ديارهم وتجميد أموالهم، أي سرققتها بصورة قانونية. وقد تحدثت عن هذه الحياة الرغيدة في الحلقات المنشورة في "إيلاف" بعد طردي من العراق. "ويا نايم جتك التهايم"، وأقسم بالله بأني أسكن في قطعة أرض اشترتها الوكالة اليهودية بالباون الأسترليني، ومسجلة على اسمي بالطابو، وأسكن في دار بناه عرب إسرائيل بأشراف يهودها عام ١٩٧٩. أما دورنا وأملاكنا في العراق التي جمدت وصودرت، فهي حلال لأنها تعود إلى اليهود، ولكن لا يوجد في العالم مظلومون غير الفلسطينيين، أما يهود العراق والبلاد العربية، فلا يحسب لهم حساب، وهذا جزاؤهم لأنهم لجئوا إلى إسرائيل الإشكنازية، وخانوا اخوانهم العرب.

ومثل هذه التهم في العهد الملكي والبعثي كانت ستؤدي بي أيام كان يفرخ ويعشش فيها مثل هؤلاء المهرجين، إلى جبل المشنقة في ساحة قريبة من محلة تقطنها أغلبية مسلمة، بينما كان المسيحي الشيعي يشنق في ساحة قرب محلة تقطنها أغلبية يهودية، لكي تخفف الحكومة من غضب الطوائف عليها، كما كانت تظن، بطريقتها في الحكم عن طريق "فرق تسد". وقد شعرت وأنا أقرأ الافتراءات المختلفة بأني في محكمة "عفترة قراقوشية"، مال أيام زمان، وأمام القاضي الجلال عبد الله النعساني رئيس المجلس العرفي الذي حكم على المرحوم شفيق عدس بالإعدام ظلما وبهتاناً، أمام قصره وأمام عائلته المنكوبة في البصرة. فالنعساني الذي كان يحكم "على كيفه، بلا سين ولا جيم، وبلا قانون وبلا ناموس"، كان يدير المحاكمات بصورة عشوائية، "يعني اشيقطع عقل ابديج الدقيقة، يسويه"، بدون مراجعة كتب القانون، ولا يحزنون. وقف ذات يوم صف من اليهود الذين القي القبض

عليهم اعتبارا وابتزازا أمام سيادة النعساني، منتظرين سماع حكمه الرهيب، وفجأة قال بعقريته الغدة: "ولكم كواويد هم صهيونيين وهم شيوعيين، يعني قابل ما كو حكومة أتادبكم. زين والله لعلمكم النبي عربي. أنتو من يمين هذا اليهودي الأيده مغلولة، الطويل والرفيع أبو الوج المصفرج، هل اليهودي الخائن، حكمت المحكمة عليكم بالسجن مع الأشغال الشاقة سنتين، ومن يساره إلى الأخير، ٣ سنوات". ولم يفهم الجماعة المروعة بهذا الحكم القراقوشي، لماذا أصحاب اليمين سنتين وأصحاب اليسار ٣ سنوات، وحاول أصحاب اليسار الاعتراض، فتر بهم النعساني قائلا، "يا الله وللوا بالعجل، ولا كلمة، لا هسه أوديكم ابداهية!". وقف أبو وج المصفرج الطويل الرفيع وحيدا وقد أخذته الدهشة والعجب، إذ وجد نفسه واقفا وسط القاعة وحيدا، وسأل بحيرة بعد أن أخذت جلاوذة النعساني أصحاب اليمين وأصحاب اليسار وألقتهم جميعا في نار جهنم: "حضرة القاضي، وآني ويا يا جماعة أروح أولي؟" انتبه النعساني إلى "دالغته"، وغمغم: "إي صدك، والله تمام، أنت؟ أنت! دروح وللي عاد، لأنعل أبو يابو الجابك عليّ من هل صباحات!", وخرج "الصهيوني" المشدوه من المحكمة وهو لا يصدق بنجاته. أما أنا، فلو لم يقبض لي الله تبارك وتعالى، أخوة عراقيين من أصحاب الضمير الحي، بارك الله فيهم، من يدافع عني وعن براءتي من دم ابن يعقوب من الفلسطينيين، لما استطعت أن أنام من فضاة حكمهم علي وهو حكم أقسى من حكم النعساني وقراقوش، بل وأشرس. أدرك أصدقائي العراقيون الذين تعرفت عليهم من خلال سلسلة "يهود العراق - ذكريات وشجون" موقفني الحرج، وانهاالت على "إيلاف" عرائض الاحتجاج وشهادات حسن السلوك لصالحي، من ذوي الضمائر الحية والذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، من أخوات وإخوة تفخر العراق بأمثالهم من المثقفين الكبار، بعضهم ذكر اسمه صراحة، وهم واثقون ومعتدون بديمقراطية العراق الجديد، وقلت لنفسي، إن كان

اليوم في العراق مثل هذا الشباب الشجاع فلا خوف على مستقبل العراق. وقد عوضني الله برحمته الواسعة خيرا في محنتي هذه، وكان الثواب قصيدة رائعة وصلتها بالبريد الالكتروني، لتعوضني عن الآلام التي أغرقنتني بها التهم الباطلة، قصيدة عصماء من سيد وأستاذ جليل وشاعر مبدع من جامعة الكوفية، ألا وهو الدكتور جبار القوافي وجمال الدين والدنيا، عرّض فيها بمن كال لي التهم جزافا، ناعتا إياهم بـ "المُرَجَّفون وأهل الشرّ". وأنا استشهد بها أمام الله والناس بسمو أخلاق العراقيين الشرفاء الذين كان الوالد المرحوم يشيد دائما بإبائهم الضميم والظلم ونصرة الصديق في وقت الضيق، أضيفها هنا شهادة إنصاف بحق أحبائه وأصدقائه في العراق الحبيب الذي لم يحظ برؤيته ثانية، وكان يتمنى أن أزوره مكانه، مقبلا الأعتاب:

نبح الؤفاء

للشاعر الكبير الدكتور جبار جمال الدين

مِنْ سِحْرِ بَغدادِ سِحْرٍ فَيْكَ يَتَقَدُّ وَمِنْ إِبْراكِ لِيِواءِ الحَقِّ يَنْعَقِدُ
يا أيها الكوكب الميمونُ طالعهُ الشِعْرُ والحُبُّ في دنياك تَتَحَدُّ
ومُذْ وُجِدْتِكَ لَمْ احْفَلْ بِنائِبَةٍ وكيف أحفَلُ آلِ البُلُوى ولي سَنَدُ
يا واهبِ النورِ للنسيانِ معذرةً لأنْتِ أكبرُ من شِعْرِنا لِنارِدُ
وأنتِ قافيةٌ هِيهاتِ يدركها أهْلُ القصيدِ وأنْ عانوا وإنْ جَهدوا
يا ملهَمَ المبدعِ الفَنانِ فطنتُهُ أضحى عليك رجاءِ الفِكرِ يَنْعَقِدُ

فداوهم من رحيق أنت حامله يسعى لك الكل من دانوا ومن جحدوا
 المُرَجِفون وأهل الشرّ ديدنهم بَثّ السموم فلا تحفل بما حقدوا
 كانَ اليهودُ وما زالوا أولوا شرف لهم ذُرَى المجد لا يرقى لها أحدُ
 كشعلةٍ تغمُرُ الأفكارَ فتننتها من عهدِ نمرودٍ حتّى الآنَ تتقدُّ
 يا ابنَ المُعدِّمِ يا بحرَ وأسرعةٍ ويا دعاءِ بهِ الأرواحِ تعتقدُ
 يا بنَ المُعلّمِ حزتَ الفضلَ أجمعه فلا رياءَ ولا حِقْدَ ولا حَسَدُ
 إنا عرفناك روحًا لا مثيلَ لها سخاءَ كالنورِ لا مَكْرَ ولا عَقْدُ
 فاسلمِ رعتك عيونُ اللهِ يا أملاً يلقى المحبونَ في دُنياك ما فقدوا
 إليه أخا الوُدِّ والأشواقُ تحملني لروضةٍ أنتَ فيها الطائرُ العرْدُ
 لا غَرَوُ أن أصبحتَ رُوحِي مُحلقةً فَمِنْ هَواكِ يجيءُ العونُ والمددُ

هؤلاء أصدقائي العراقيون، فجنني بمثلهم! وأعظم بمثل هذا الشعر الإنساني الرائع. وهل يوجد كلام يفحم المتخرفين الحاقدين من مدعي العلم الأخوندية مثل هذا؟ وهل يوجد أروع من هذه القصيدة، الشهادة التي سأعتر بها مدى الحياة، تقف بإباء أمام اتهامات المرجفين وأحكام النعساني وأمثاله من القضاة والحكام والحاكمين ممن زجوا بالعراق في دوامة الحقد والدم منذ الفرهود وإلى أن جاء الفرج.

قالت لي عروسة الإلهام، "شوف يا با، هل معلقين الزعاطيط الخايسين وين دخلونا، وباشلون إيراد ومصرف ودونا"، فلنعد إلى ما كنا بصدده، فلماذا لا تواصل

الكتابة عن هذا الموضوع الشيق عن الحب الذي لم يذقه شباب العراق إلا في هذه الأيام بعد أن دشنوا شارع أبو نواس وصار الشاب والشابة يسيران يدا بيد وبدر السماء لباسم يبارك لهما جبهما وتشر النجوم من أنوارها المزغردة أشعة كملبس الأعراس العراقية عليهما. فالحب الذي حرم منه العراق عشرات السنين، أصبح حقدا، حتى أنهم حصنوا شوارعهم بجدران الكونكريت لتقسيم دار السلام إلى مناطق شيعية وسنية. والحب هو موضوع يشتاق إليه العراقيون الكرام في كل مكان، وخاصة المشردون العراقيون في منافيهم، من الذين يعذبهم الحنين إلى "يُمّه": "أشتاكت أشوفج عصر / يا يُمّه.. واشحنيت،... يا ريت أشوفن هلي... / وأبوس باب البيت"، وإلى عراقنا أيام الجيرة الحسنة والإخاء، ليخففوا عنهم عذاب الغربة والحنين والشجون؟

قلت في الحلقة ٤١ إن كبار الكتاب والروائيين العرب لم يروا في الكشف عن الأغوار المظلمة للنفس الإنسانية وتخلف المجتمع في كتاباتهم النقدية إهانة أو مساسا بالشعب، بل الطريقة المثلى لإصلاحه بجرأة وإيمانهم برسالتهم السامية في الأدب. وقد ظهرت جرأة المرأة عند بعض الروائيات وعلماء الاجتماع والنفس من بين المثقفات العربيات، جرأة زعزعت أركان العادات والتقاليد البالية الضارة التي تحول دون تطور المجتمع العربي ليلحق بالمدينة الحديثة التي ترى في العلم الحديث الطريق الوحيد نحو خلاص الإنسانية من ترسبات الماضي التي تكون حائلا دون انطلاقه إلى الأمام. والدكتورة نوال السعداوي، هي خير مثال للمثقفة والأديبة المتحررة التي تسعى إلى تحرير المرأة من قيود الماضي وخاصة في كتابها الجريء بأحداثه الرهيبة، "موت الرجل الوحيد على الأرض"، الذي صورت فيه الفقر والجهل والمرض في الريف المصري، وسطوة الرجال وسيطرة الآباء وتعسف الحكام، ونقدت

عادة ختان البنات وغيرها من العادات التي تجعل من المرأة العربية أداة للتفريخ والمتعة لإشباع غريزة الرجل وشهواته الجنسية. وقد أثار موقفها الجريء غضب المحافظين ضدها، حتى اضطرت إلى مغادرة مصر إلى الولايات المتحدة. وذلك أيضا ما فعلته الدكتورة وفاء سلطان، اللبوة المتحررة التي أفحمت المحافظين في زئيرها الغاضب في مناظراتها في قناة الجزيرة، فاستعاضوا بالله من كيد النساء وامتنعوا عن مناظرتها مرة أخرى، إذ "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، ولحسن حظها أنها كانت قد فرت في الوقت المناسب والنجاة بحياتها في الولايات المتحدة أسوة بزميلتها الدكتورة نوال السعداوي. واليوم نرى كل أحرار الفكر العرب مشردين في المنافي الباردة. إن مثل هذه الجرأة من جانب المرأة العربية في نقد مجتمعها وعاداته وتقاليده التي يحميها الرجال الذين يحرصون على مكانتهم في المجتمعات المحافظة، هي شيء جديد بالنسبة للمجتمع الراضي بحاله والقانع بقسمته والذي يرى أن النفس المظمئنة يزعجها الكشف عن الحقائق وإصلاح المجتمع عن طريق المعقول لا المنقول، مدعين أن العلم الحديث هو من بدع الكفار، بينما الإسلام هو في أساسه ثورة روحية، علمية، اجتماعية فلسفية ونفسية قلبت المقاييس الجاهلية رأسا على عقب، وما الحضارة الحديثة إلا امتداد للذروة الفكرية والعلمية والثقافية للحضارة الإسلامية التي ازدهرت في القرون الوسطى. وهل رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، ومؤلفات ابن رشد وابن سينا والمئات من العلماء المسلمين، إلا دليل ساطع على عولمة الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى؟

للحديث تنمة في الفصل التالي (٤٣) القسم ٣

يهود العراق. ذكريات وشجون.

الحلقة ٤٣

عود وانعظاف. إلى أيام الحب والنعظاف. في العراق (٣)

الجمعة ٨ مايو / أيار ٢٠٠٩

كتب د. جبار جمال الدين في تعليقه على ذكرياتي رقم ٤١ في "إيلاف" الغراء: "يهود العراق من أكثر الطوائف التي عرفت بحبها ووفائها للعراق". وحب العراقيين لوطنهم هو شيء عجيب بالرغم من أن المؤرخين أشادوا بحب المصريين لبلادهم وتعلقهم بوادي النيل، حتى أن أحمد شوقي قال عن تعلقه بوطنه مصر:

وطني إن شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه بالخلد نفسي

ولا تكاد تجد قبل القرن العشرين جاليات مصرية مغتربة في العالم. وعندما احتل جيش إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا سوريا ودحر جيش الرجل المريض، الإمبراطورية العثمانية، كان الجنود المصريون من الفلاحين يسقطون مرضى، يمتنعون عن الطعام والشراب ولا يجد الأطباء لهم علة، ولكن ما أن يقال للمصري الفلاح، ستعود إلى مصر بسبب مرضك، حتى يعافى في التو واللحظة من مرضه، فكان كلمة "مصر"، يد المسيح أعادت إليه الحياة بلمستها الرحيمة. ولا تزال بعض العائلات المصرية التي قدمت مع الجيش المصري المظفر تعيش في فلسطين وإسرائيل محافظة على أسمائها مثل عائلة مصاروة والدسوقي والمصري وغيرها. ولكن حب العراقيين لوادي الرافدين يتدفق شعرا وحنينا بين المنفيين والمهجرين والراجلين عنه

عنة أو بمبادرتهم. والسياب رحمه الله يجد أن شمس العراق أجمل من سواها، حيننا إلى العراق:

الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام

حتى الظلام هناك أجمل

فهو يحتضن العراق!

أما المغني الإسرائيلي يعقوب نشاوي وهو الجيل الثالث من مواليد إسرائيل من أصل عراقي، فقد قال لقراء جريدة "معاريب" بفخر: "أنا، في غنائي باللغة العربية استطيع أن ابكي كل العراقيين في حفلاتي بكلمة واحدة فقط أرددها بصوت حنون حزين وهي: "يمّه، يا يمّه"، فتصبح القاعة مناحة ولا مناحة التاسع من شهر آب في ذكرى خراب بيت المقدس عند يهود بابل، فتنهمر دموع الرجال قبل النساء لهذه الكلمة". وقد سمعته وهو يغني مطلقا زفيره المحرق بإضافة كلمة "أوووووف" طويلة بعد "يا يمّة"، وعند ذلك رأيتُ العجب، وحدث عن الدموع ولا حرج، فقد جرت دموعهم دمًا كأنهار دجلة والفرات أيام التتار. ولماذا؟ لأنهم عاطفيون، يحنون إلى الأم؟ وهل الأم عندهم هي بغداد أو العراق أو جذورهم الممتدة في تربتها وأنها مدة ٢٦٠٠ سنة أو أكثر. ولكن هكذا أبدا هو حنين العراقيين إلى مسقط رأسهم. والبغداديون في إسرائيل معروفون بتبغدهم، وما يزالون في أفراحهم واحتفالاتهم يلبسون "البدلة أي القاط والباينباغ والقميص الابيض، ويرشون ليوئطة". وفي بداية الخمسينيات من القرن الماضي عندما كان يهود العراق قد غزوا الجامعة العبرية وخاصة في علوم الشرق الاوسط والفيزياء والحساب والطب، كنا نحتار فيما إذا يجب ان نذهب بالبدلة والباينباغ الى الجامعة بين طلاب اشكناز يأتون الى الجامعة بأحذية تشبه

الكالة وبنطلون قصير وقميص مفتوح لم يذق طعم الأوتي (المكوى) أبدا. ولكن صديقي عابد (عوييد بن) عوزير كان يصر على الحضور "بقاط" من قماش انكليزي فاخر صيفا وشتاء "وباينباغ مدنيس" بدبوس ذهبي وقميص "آرو" انكليزي، فيبدو اميرا انكليزيا أمام الطلبة من الكيوصات والمزارع الجماعية، ولا يأبه بابتساماتهم التي تشف عن غيرتهم من بذخ العراقيين البورجوازيين. وقد عجب الكاتب الكبير سامي ميخائيل عندما دعي إلى مركز تراث يهود العراق في مدينة أور- يهودا، للاحتفال بصدور روايته "فكتوريا"، حين رأى معظم من شارك في تلك الأمسية من العراقيين الذين يحترمون أنفسهم، ما زالوا يرتدون "البدلة والباينباغ"، واتهموه بأنه "بهدل العراقيين بتصويره الطبقة الدنيا منهم فقط"، ولم يفهم غضبتهم العارمة. فالعراقي الذي يحترم نفسه كان يلبس "أكبر كشخة، قماش انكليزي وبدلة مفصلة على آخر طراز"، حتى أن رئيس الوزراء بن غريون "نزل ابعينهم لما شافوه لابس قميص مفتوح وبنطرون قصير. ولكم هذا أشلون رئيس وزراء، يمشي امبهدل مثل السيبندي؟! "وعندما تشاهد اليوم أفندي محترم بقاط وباينباغ في معظم مدن إسرائيل الكبرى وخالصة في "رمات جان" التي تدعى برمات بغداد (هضبة بغداد) فان مثل هذا الشخص لا بد أن يكون عراقي الأصل من مديري البنوك والحسابات أو المحامين أو الأطباء والقضاة والصيدالة، أما في أيام السبت فإنهم يرتدون البيجامة في بيوتهم وشوارعهم، حتى أن اسمهم أصبح مقرونا بها، فيقولون "عراقي بيجامة" لكي يقولوا "عراقي أصلي"، كما كانوا ينعنون المراكشي بأنه "ماروكي سكين" والروماني بقولهم "روماني حرامي"، وقد عبر الشاعر روني سوميك عن هذا التعريض بموجات الهجرة في إسرائيل في شعره الذي يقول فيه:

ولدت في العراق / ، وزوحتي من رومانيا / وابنتي هي حرامي بغداد".

وقالت لي رفقه يادلين زميلتي في قسم اللغة العربية في الجامعة العبرية في الخمسينات من القرن الماضي، عندما رأيتني في صحبة فتاة من أصل روماني، قالت تداعيني ضاحكة: "سامي، لا تتزوج من رومانية! فسيكون ولدكم مغتصب نساء وحرامي!". فالعراقي معروف بفحولته، حتى أن أحد الأطباء في حديثه عن الإشاعات عن الشعوب والأجناس قال إن فيها شيء من الحقيقة، وأضاف: "وهل سمعتم عن عراقي يحتاج إلى حبوب الفياجرا؟"، إلى آخر هذه النعوت والنكات التي تتميز بها كل جماعة من المهاجرين الجدد القادمين إلى إسرائيل من أطراف المعمورة.

قال الأستاذ فخري آل عيسى من جامعة الكوفة: "لم يكن سامي إلا عراقي إلى النخاع يحزن لحزن العراق ويتألم لألمه ويكي قبل أن تدمع عيني العراق ويفرح لابتسامة ثغر العراق". نعم، فكل ما كتبتة هو حبا في العراق لاستخلاص العبر من الماضي وحرصا على التضامن والمحبة بين جميع سكانه وطوائفه وأديانه وعناصره، وتحذيرا لهم من رفض الغير والفتن المذهبية والدينية والطائفية والعرقية، التي تؤدي إلى المذابح والدمار، فالعنف لا يولد إلا العنف، وقد جاء في الحديث الشريف "الفتنة نائمة، لعن الله من أيقظها" فأيقظوا الفتن وأهدروا دماء الأبرياء، وما زال الحبل على الجرار، والعياذ بالله. وعندي أن كل من ولد في العراق لوالدين عراقيين وتعلق بتربته وخدمه بإخلاص فهو عراقي.

والتضامن بين العراقيين في منافعهم هو أمر عجيب لا يستطيع فهمه الآخرون، وقد علق عليه الشاعر والأديب الدكتور سلمان مصالحة على صفحات "إيلاف" دون أن يستطيع تفسيره. وقد روى أخي ريموند أنه دخل مع زوجته إلى مطعم في كولون في ألمانيا تنبعت منه موسيقى شرقية ورائحة الكباب، سأل صاحبَ المطعم: لمن هذه الموسيقى؟

- هذه موسيقى لبنانية تقبلها الأذن الأوروبية!
- وماكو عندك موسيقى عراقية، جالغي بغداد، يرد الروح؟
- آني ما أحط غنا عراقي، غير كله حزن وبكا ولطم على الحبيب، لو "أوف أوف"، لو "أويلي أويلي"، لو "يمه يا يمة"! ليش تسأل لازم أنت يهودي من العراق؟
- أي تمام، آني من مواليد بغداد، من سكان البتاوين!
- انتصب صاحب المطعم واقفا واحتضنه وقبله وهو يصيح:
- والله آني من أبو سيفين، والله آني هم من بغداد! إحنا أنحب اليهود، كانوا جيراننا وأحبابنا، والله هسه أخابر أمي أكلولها آني كاعد بالمطعم ويا يهودي عراقي، والله إذا سمعت راح تبجي ولا راح اتصدك! أمي اتكول إحنا تفرهدنا وأتشردنا بالغرب جيف فرهدنا اليهود واتالي طردناهم وحمدنا أموالهم، تشردنا مثل ما شردناهم".
- ثم اقترب منه وهمس:
- أمي تكول، يابني، تعرف شلون شردناهم، مو بس جنا انهينهم ونسبهم بكل مناسبة، جان ابغداد فد ناس ما عدهم وجدان، واحدهم ايحط خنجر باحزامه، ياخذلك فد اجعنكي وياه، يكلله تعال نتسوك عند أبو حسقيل. يدخل الدكان، يكله، أبو حسقيل شلونك؟ ارد اشتري قميص وبنطلون لعبيدك ابني، وإلي همين، وانطيني فد تلت أمتار من هذا القماش أبو الورود الحلوة، نفنوف إلبنتي، وتلت أمتار للحرمة وتلت أمتار للحجية، زين أشكد صار حسابك؟
- يأخذ أبو حسقيل القلم القويبا من وراء إذنه، ويبلله بلعابه ويجمع وي طرح، ثم يقول:
- حسيبك يا أغاتي، ١٧ دينار ونص، نخصم نص دينار الخاطغك.

- على راسي، زين هسه انطيتك ٢٠ دينار، لازم اترجعلي ٣ دنانير.

وياوع على صديقه الجعنكي وبايده يمسد بالخنجر، وايكله: تمام حساب أبو حسقيل لو مو تمام؟

وأبو حسقيل يكون "افتهم الدالعة والعونطة"، واياوع على السما ويكول أبقلبه، "الله، أشقلنا صباح؟" ويدفع الخاوه ويحطها على الله. واتالي يكولون اليوم جنا أكبر صداقة وياهم وكانوا أغنياء ومعزوزين، وخانوا الوفا وسافروا لإسرائيل.

وزفر صاحب المطعم العراقي وهو يقول "أوف أوف، اشسونا بيكم"، ثم أتى باستكان جاي مخدر وأنواع البقلاوة، وهو يقول، والله أمي اتكول هيج عاملناهم، تريد ميروحن لإسرائيل، أكل عيني أكل، هذا عربون المحبة.

أجابه ريموند: أبكل مكان اكو ناس طيبين وناس مو طيبين، كلها يايده الله. الله يبارك بيك، شكك الحساب؟

أبى صاحب المطعم العراقي في كولون أن يأخذ سنتا واحدا منه عن الطعام، وهي يحلف له بأغلظ الإيمان أنه ضيفه، وأخي يحلف بأغلظ الإيمان بأنه لا يخرج من المطعم بدون أن يدفع:

- "يا با والله متصير، المطعم مورد رزقك!"

وصاحب المطعم يصرّ:

- "وآني والمطعم فدوه على راسك، أغاتي، ياللا ياللا شفنا عراقي ابهل غرب!!

وزوجة أخي من أصل بولوني جالسة حيرى لا تدرى ماذا جرى ولماذا يتخاصمان ويتصايحان باللغة العربية في وسط ألمانيا، ولماذا ترمى أوراق اليورو على الطاولة،

ولماذا يعيدها صاحب المطعم إلى جيب أخي، وهل دفع زوجها مبلغاً أكثر مما طلب منه؟ ولماذا يصير العراقي على أن يرسل صحن البقلاوة معه؟ ويقول له، "والله يا خويا، لازم تجي يمي كل يوم! هذا بيتك!"

وبهذه الطريقة الغريبة تعلمت زوجة أخي درساً في حب العراقيين في مناهم ومهاجرهم وإن لم يعرف أحدهم الآخر من قبل، وهي تردد: "والله عجيبة، والله غريبة، هذوله غير بشر!"

وفي أيام العزّ كنت أشاهد مظاهر الحب في العراق في كل مكان اذهب إليه. وعندما كان الربيع يقبل على بغداد، ورائحة الشط تفوح عطرة مسكرة، والأرض الزكية تعبق برائحة الحشائش والقداح وصندل النخيل والرازقي والزهور البرية، "كروائح الجنة في الشباب"، والأعشاب تعلوا إلى فوق الركب لخصوبة أرض أم الخيرات، حتى أننا ما زلنا نقول "بالعراق حتى بالجادة هم يطلع ركي". وعندما تبدأ ثلوج الشمال بالذوبان، ونهر دجلة ينطلق مزمجراً كالنمر الأحمر الكاسر (لذلك دعي باسم: تايجريس) يغطي السواحل والجزرات الرملية بالقرين الأحمر الخصب، والعصافير تبنى أوكارها، ويبدأ صراع الفخاتي والغربان على أغصان شجرة الكليبتوس في بيت محمود وتاس في ظهر بيتنا لبناء أعشاشها، (وكان هذا البيت هو الوحيد المبنى بلبنات الطين والتبن، بينما باقي البيوت مبنية بالطابوق الأصفر المحروق). وتسمع أغاني الحب في كل مكان مع صداح الطيور، عند ذاك كنا نسترق النظر إلى بستان مامو وبستان كبه بعد انصرافنا من مدرسة السعدون، بحثنا عن العشاق. وفي ذات يوم دعانا زيد ابن وزير المعارف إلى قصرهم وكان يسكن قرب بوابة القصر السائق "أبو ذكة الشطر بالحنج"، وزوجته "المكحلة وأم النفنوف الأحمر اللي يلاللي مثل الجنيط الجوري"، يطلان من الكراج ليشرفا على الداخل والخارج، تسلقنا شجرة

النبق (السدر)، وهي دوحة عالية ظليلة تشرف على بستان كبه، كنا زيد وإياد وخيري وطالب الجابي نفتش عن "الصولات" (الكبيرة الحمراء) من ثمرات النبق، فوقع نظر خيري على عاشقين غائبين في قبلة ولا قبلة تيرون باور مع ريتا هايورث، أو قبلة كلارك كيبل مع الممثلة الجميلة فيفيان لي في فلم "ذهب مع الريح"، فكاد يسقط من انفعاله وكادت تفلت من شفتيه شهقة مع الصيحة المعتادة في مثل هذه المواقف لمعاكسة العشاق: "ولكم اشدتسون؟". فتمالك نفسه وأشار بسبابته إلى العاشقين، وأدرت لماذا لم يحاول معاكستهما، فقد كان الفتى ضابطا شابا برتبة ملازم ثان، وعلى كتفيه نجمة ذهبية لامعة، وعلى صدره الحزام والقماش ويده عصا القيادة، والمسدس يتدلى من حزامه. وأن تعاكس ضابطا شابا مثله في مثل هذا الموقف "ترى والله الحكاية تصوير مو شقا". أفلتت الفتاة من بين ذراعي عاشقها كأنها غضبي وانتزعت منه عصا القيادة وصارت تضربه بدلال ضربا هو "للحبيب كالزيب"، وهو يضحك ويحملها بين ذراعيه مرة أخرى ويشبع رقيبتها وخديها لثما، ثم غابا عن أنظارنا تحت أغصان أشجار النومي واللاليكي والبرتقال، وبقينا مشدوهين فاغري الفم مما شاهدنا من أسرار الغرام. كانت هذه أول مرة نشاهد ما يحدث بين الفتیان الذين كانوا ينتظرون فتياتهم بعد انصرافهن من المدارس الثانوية وخلوتهم معهن في بساتين البتاوين وكبة والكرادة.

وفي سنة ١٩٤٤ بعد أن علمنا بالكارثة الكبرى التي أنزلها النازيون بيهود أوروبا، ووصلت إلينا فظائع معسكرات الإبادة والأفران النازية، أعلن يهود العراق الحداد وصار خالي داوود ساسون يأخذنا معه للصلاة وقراءة "القديش" على أرواح ضحايا المحرقة النازية في كنيس مئير طويق في البتاوين، ومعه رزمة من القماش الأسود لفرشها على المقاعد حدادا. انتهينا من صلاة الفجر وسرنا في منتصف بستان مامو

ونحن نسمع من ورائنا صياح حماميل سوق البتاويين المرح وقد بدوا بدشداشاتهم البنية كعصافير مزقزقة وهي في عنفوان بناء أعشاشها حين تبدأ بالتلاعب بينها بين نقر وجر لأجنحة الآخرين وذيلهم، وفجأة دفع عصفور كبير عصفورا اصغر منه على كومة حشائش وارتمى فوقه، فانتهاز الفرصة عصفور آخر وارتمى فوق الثاني، وهكذا إلى السادس، ثم تغيرت فجأة نغمة الضحك إلى أنين نسائي فيه لذة وألم تتناغم مع حركات الظهر. لم أفهم ما هي هذه اللعبة، ولم أكن قد رأيت مثلها من قبل، وعندما رأيت خالي داوود وقد احمر وجهه خجلا وقد تسمرت عيناه في الكومة المهتزة بدهشة عارمة، أدركت أن الأمر لم يعجبه وأن هناك سرا لا أفهمه. ثم خفتت الأصوات فجأة، ورفع احدهم رأسه فوقعت عيناه علينا، فانتفض واقفا وقد تبللت دشداشته تحت سرته، وصاح "أيهود كواويد شدسون هنا؟" وقام الآخرون والتفوا حولنا ولكل منهم بقعته الرطبة على دشداشته: "والله أبفهود اللاخ راح ناخذ كل الذهب البقينالكم، راح تشوفون، كل الذهب، هل كده ناخذنا إلنا" وهو يفتح ذراعيه ليرينا كمية الذهب الذي سيفردهو منا. ثم انطلقوا في اتجاه الشارع الرئيسي المؤدي إلى الكرادة وهم يسمعون أصواتا كأبواق سيارات أم العانة ليستروا خجلهم.

وفي طريقهم مروا بمربط الخيل التي جاء بها السواس لركوب الضباط الانكليز والهنود الكركا والسيخ. فلما رأهم الحماميل الصغار صاروا يعدون ورائهم صائحين: "صاحب، سيكاريت، جوني، سيكاريت!"، وهم يشيرون بإصبعي الوسطى والسبابة إلى شفاههم، فألقى الجنود الأجانب إليهم ببعض السيجار وبعض النقود وهم يتصاحكون ويقولون "صاحب، بعد، صاحب بعد!"، فنهزم بعض الشبان قائلين: "خليهم ايوللون، ذولة كواويد، جنود احتلال، عيب لا تنزلون ابنفسكم كدامهم"،

والحماميل منهمكون في البحث عن الفلوس الحمراء الصغيرة اللامعة التي ألقى بها الجنود والضباط إليهم ليحبوا أنفسهم إلى الشعب العراقي.

أعدنا التنزه في الشارع الرئيسي المؤدي الى الكرادة وفي شارع أبو نواس (أبو النويص، كما كان يحلو للبعض تسميته) وكان بعض الشباب يعاكس الفتيات اليهوديات والمسيحيات، بقولهم "فدوه عيني على هل جمال! فدوه على هل طول، ما تجودي علينا بنظرة يا حلوة، آخ يا با، ترى راح أموت!" فيبدن امتعاضهن من مثل هذه المعاكسات أمامنا، ويرسلن نظرات زعل فيها شيء من الحياء والبسمات المكتومة تخفي فرحة عارمة في قلوب تخفق كأنها سرب من الطباء يرقص في ضوء القمر، فرحا بهذا الغزل. أما الجريئات فكن يقلن بدلال "ولك ما تستحي على طولك، تقبل هيج ايسوون بأختك؟"، أما إذا كان الشاب سمجا ولم يلق الحظوة عندهن فكن يقابلنه بنظرات غاضبة شحيحة لا يشوبها حتى شبح ابتسامة مكتومة.

ثم اكتشفت أخيرا أن نظرات الفتيات التي كانت تبدو مرتبكة حيية، وهن "عاقدا الحاجبين، على الجبين اللجين" بامتعاض، كانت في حقيقة الأمر "تحمل طرفهن رسائل" إلى العشاق المعاميد. جلست عصرا والشمس تميل إلى الغروب على مقعد في شارع أبو نواس أستعد للامتحان التاريخ المحبب لدي وشمس الغروب تهبط رويدا في أفق كرادة مريم في ذاك الصوب والنخيل على الساحل أمامي تبدو كسرب من العذارى يرقصن وقد "سكرن من خمرة الأصيل". ثم اعترض شعاع الشمس الساطع كالسيف القاطع بلم (زورق) وأعشى نظري ولم استطع رؤية من يتهدى فيه، وكل ما رأيته أربعة أشباح، البلمجي بالجرافية ممسكا بالمجازيف ليقترب من الساحل أمامي، وشاب يتهدى لصدمة البلم ويقف ليساعد فتاتين على الهبوط إلى الساحل وهو ممسك بأيديهن. ثم اختفت الأشباح وراء الشارع وفجأة برزت ثلاثة شخوص. حدثت

فيها جيدا ولم أصدق عيني، هذا خاجيك الدون جوان الأرميني الأشقر بعينيه الزرقاوين الواسعتين مع فتاتين يهوديتين أعرفهما جيدا، ماركريت المتزوجة اللعوب، وصدقتها الحسنة مارجوري الجميلة ذات الشفتين الشهاونيتين المكتنزتين. غامت الدنيا في عيني، وسمعت أصوات نساء يهوديات يعولن: "وي أبيل وي غماد، يهوديات كشيرات طلعا قيسيغون ويا عريلي ياكل لحم خنزيرغ!"، (يا للعار ويا للشنار، يهوديات طاهرات، خرجن يتنهن مع أغزل من أكلة لحم الخنزير!)، إلى أين بلغت وقاحة هاتين الفتاتين، واحدة متزوجة والأخرى يتهافت شباب اليهود لخطبتها، خرجنا للنزهة مع أرميني "عريلي". وتذكرت الكراهية العميقة بين المسيحيين الذين كانوا يتهمون اليهود بأنهم صلبوا المسيح الرب، بينما يذكر اليهود حرق إخوانهم أحياء في اسبانيا ومذابحهم في روسيا القيصرية. لقد نشأنا على عداة الأديان، وتذكرت بخجل كيف أن بعض الأطفال من يهود الكراةة عندما كانوا يسيرون ذات يوم قرب دير للراهبات عثروا على سلسلة فيها صليب، فشفوا غليلهم بكسر الصليب وسحقه بأقدامهم، تماما كما يفعل اليوم مضرمو النار في الأعلام الأمريكية والإسرائيلية في مظاهراتهم الصاخبة.

بلغت الفتاتان مكاني حيث جلست ساهما ونظراتي تقدح شررا غاضبا على تصرفهما المشين. كانت ماركريت أول من تعرفت علي، إذا كانت تمسكني خلسة في بعض الأحيان على انفراد في بيت خالي حايم حيث تسكن نزولة عنده مع زوجها وولديها الصغيرين، وتشيع نهمها بوابل من القبلات على خدي. صاحت بدهشة: "وي أبدالو لاسمك سامي، كباره عليك! أش قيعد تسوي هوني؟" (أفدي اسمك، وفداك، وما جلوسك هنا؟). أخبرتها ببرود بأني أتهيا لامتحان. قالت "خطش لك، ما أنت شاطغ، تال اتونس ويانا، دناخذك السينما غازي، أكو تيرون باور وريتنا هايورث، وهذاك

العقص وهذيك الونسة. نخاف انغوح ابحدنا ليتحاعشون بينا!" (ما لك وللتحضير، أنت شاطر، تعال تفسح معنا، نأخذك إلى سينما غازي، هناك يمثل تيرون باور وريتنا هايورث، ويا له من رقص وفرح. نحن نخشى الذهاب وحدنا، لئلا يعاكسوننا). وأمسكت بيدي ودست مائة وعشرين فلسا في جيبي ثمنا لثلاثة تذاكر من الدرجة الثانية، وأنا أعاني من تأنيب الضمير والخوف من اكتشاف ذنبي الأثيم. هل هذه رشوة لكي لا أشي بها عند زوجها المغفل؟ ووقفت ماركرت مع صديقتها وقد أسندتا ظهريهما إلى الحائط خوفا من تحرش الشباب بهما، ينتظران عودتي بالتكتات التي ستضمن عدم بوحى بالسر الرهيب.

للحديث تتمة في الفصل التالي (٤٤) القسم ٤

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة

٤. تيمة عود وانعطاف. إلى أيام الحب والحنان. في العراق (٤)

الأثنين ١٨ مايو / أيار ٢٠٠٩

إلى الدكتورة هدى:

ليتني أعود إلى العراق يوما

فأحدثه بما فعل الفراق

وقفت في الطابور أمام شباك التذكر والرجال يتزاحمون عليه دون نظام ودون مراعاة لدور الصغار، وأخيرا عدت بالتكتات (التذاكر)، واتجهنا إلى بوابة السينما الواسعة وقد زينت واجهتها بصورتي البطلين السينمائيين الشهيرين في موقف غرامي مغر. وكانت سينما غازي (التي أسستها عائلة عيزر اليهودية) في تلك الأيام تعرض أفضل الأفلام الأمريكية والإنكليزية والمصرية وكانت إدارة السينما تهتم بالدعاية لهذه الأفلام عن طريق كراء عربة وفيها بعض العازفين على الآلات الموسيقية التقليدية كالمجمامة (الصنوج) والطبل والدفك والصرناية والبوق ويحملون لافتة مغرية عن الفيلم وأبطاله ويقطعون شارع الرشيد وشارع غازي والى الباب الشرقي والبتاويين ويمرون من أمام المقاهي ويعزفون "مزيقة الصراي" والأطفال يعدون وراء العربانة مهللين فرحين. أما سينما الزوراء (التي أسسها الضابط المتقاعد من الجيش العثماني،

إلياس إبراهيم دنوس)، التي كانت مشهورة باللوجات (القمارة) المخملية الحمراء في مقدمة الطابق الثاني من الصالة، والتي كانت أبوابها تقفل من الداخل، ويقال إن كل من كان له "رفيعة" ويريد أن يختلي بها طوال الأفلام التي كانت تعرض فيها، يحمل في جيبه "حفنة حب وحمص ورُبْعِيَّة عرق أبو الكلبجة"، ويؤجرها بثمانين فلسا ويأخذ مفتاحها معه. وقد نظمت في "اللوج" بسات، تتذكر والدة إحدى معارفي المثقفات البسة التالية:

بالسينما اوديج، بالوج اكعدج

ومن الكرص واليوس والله لشبعج

وكان لسينما الزوراء طريقة تقليدية اقل كلفة لتجذب إلى مقاعدها الصغار والمراهقين. كنت سائرا ذات يوم أمام سينما الزوراء، فرأيت البواب واقفا أمام السينما وهو ينادي: "اليوم عدنا اكبر أفلام، أفلام هندية مال جابك والي وعنتر والي، بيها، وطرزان والشادي، بيها، ومغامرات بالغايات بين الولد وارفيجته، وعراك وبوكسات بيها، ياالله طبوا يا جماعة، ترا راح أشغل!". فصادف أن مرّ أبو جراويّة من أبناء الشعب العركاويين يعني برهوم "اللي راسه حار ويريد من الله واحد يتحارش بيه"، فرأى البواب ينظر إليه ويقول، "ياالله طبوا ترا راح اشغل!", فتقدم إليه بغضب وقال له "ولك أنت جاي اتهددني، وآني لازمك وممخليك اتشغل السينما، تشغل ما تشغل طبك ألف مرض، ولك أتهددني، أنت أشجابك عليّ ابهل مغربية الشوب". فاحتد البواب لهذا "السيندي السرسري" الذي شتمه في عقر داره، وأمسك بتلابيه، فبادر ولد الحلال إلى "مفاكتهم، وتفزعوا للبواب": "ولك موعيب، متحطه يشتغل على باب الله!", ويقول آخرون للبواب، "متخليه أيولي، غير هذا مخبل، فك عنه ياخة وخليه أيروح المهجومه"، ويسحبون المعتدي بعيدا وهم يقولون: "صلي عل النبي، وروح ياالله، لا

تسويها طلابه!" ويمضي البواب في سبابه وهو يقول "والله لو ما ألخاطركم، جان هسه ذبحته، أقطه وأذبه، مثل الدجاجة!".

كانت بوابة السينما مكتظة ببائعي السميط والعلوجة واللبيبي والفسق والحب والحمص والحكاير "أم الزبانة" وسيكارا غازي (التي نظم في مدحها الشاعر الكبير معروف الرصافي في شيخوخته عندما اضطر إلى إعالة نفسه وإعالة خادمه عبد بن صالح مع زوجته وبناته العديداً، اللواتي كن يأكلن الطعام والفواكه التي كانت ترسل إلى الرصافي، بفتحها دكان في الأعظمية لبيع السجاير وأوصى الأديب أنور شاول به خيراً عند آل طيارة أصحاب معمل السجاير، أتذكر هذين البيتين منها والذهن خوان، فكل ما أكتبه هنا هو من الذاكرة:

"دخن سكارا غازي / في وقفة واجتياز // وجازني بالشكر / إن كنت ممن يجازي"، وكل واحد منهم يناغي على بضاعته، من لذة ولذيذة، لذة العلوجة" والى "سيفون بارد أخلي العجوز أطارد". دخلنا القاعة الواسعة والضوضاء فيها يشق عنان السماء ودخان السجاير كثيف يدمع العيون ويكاد يعمي الأبصار، والبائعون يناغون على بضاعتهم، والصفير يتعالى لكي يبدأ تشغيل الفيلم، فإذا بشاب يعتمر سيطرة أفندي يقترب من الصفوف الأمامية "أم القران" (التي ثمن تذكرتها ٢٠ فلساً)، ويقوم كالخطيب الخطير أيام مجد بغداد في مقامات البلغاء، أمام السلاطين والخلفاء، وأخذ يشير بيديه بحماس بنصيحة غالية فهتمت منها انه "يحث الرجال على ألا يتعودوا على الكسل، لأن هناك شيئاً عند النساء أحلى من العسل". فضجت القاعة بالضحك والتصفيق والصفير، وضحكت النساء بغنج ودلال ولمعت أسنانهن الذهبية من وراء البوشي أو فتحة العباية، واختلجن وهن يلكنن بكوعهن الرجال بمحاذاتهن. واليوم صرت أدرك فعل هذه النصيحة السحرية في كثافة السكان في العراق، فقد

كان عدد سكانها في ١٩٤٧ حوالي ٥ ملايين نسمة، أما اليوم فهناك ما يقارب من الثلاثين مليون نسمة. ويتباهى العرب بالنسبة العالية لتكاثر السكان في الشرق أمام تقلص سكان أوروبا الباردين العننين. وتفاخَرَ أبو عمار بأن قبيلته الذرية هي رحم النساء الشرقيات، فلماذا إذن ينهب أحمدى نجاد خيرات الشعب الإيراني لإنفاقها على سلاحه الذري لإبادة الآخرين والاستيلاء على ثرواتهم؟ ولماذا لا ينفقها على فقراء المسلمين والأرامل والأيتام والمساكين لوجه الله. أليس أرامل المسلمين وأيتامهم أحق بهذه الثروات التي احترقت في الحروب العراقية - الإيرانية والسطو على الكويت الشقيقة المسالمة، وإشعال النيران في آبار النفط التي لو أنفقت على المسلمين لما عانى أي مسلم في العالم من الأمراض والفاقة والجهل، وحقق مقولة العارفين بأسرار الثواب والعقاب بأن الله مَنَّ على العرب بخيرات الذهب الأسود وجعل الأعاجم خدما "لخير أمة أخرجت للناس". فلماذا إذن بناء المفاعلات الذرية التي سوف لا يسمح الغرب بإنجازها وتهديد دول الجوار العربية والسيطرة على آبارها؟ فما نحن نرى كيف تسقط الدول الأوروبية الواحدة وراء الأخرى بيد المؤمنين كالثمرة الحبلى الناضجة بدون حشد الجيوش وعناء الحروب والمعارك، "وكفى الله المؤمنين القتال".

وبعد الصفيير و"الله متشغل عاد"، ساد الظلام القاعة، فشعرت بالصدبقتين تميلا نحوي بصدريهما وتمسكان كل واحدة بيد من يدي، وبدأ فلم الأخبار عن اندحار المحور أمام جيوش الحلفاء الظافرة بعد أن دمر ثعلب الصحراء الجنرال البريطاني مونتيجموري الفيالق النازية في شمال أفريقيا بعد معركة العلمين (١٩٤٢) وصمود بريطانيا أمام قصف الجزر البريطانية بالصواريخ وطائرات المسرشمدمت الألمانية (١٩٤٣)، فأصبح تشرشل بطل العالم الحر وظهر في كل أفلام الدعاية البريطانية

وهو يرفع إصبعه بعلامة النصر، وشاهدناه وهو يخاطب خطبه الحماسية، والشباب القومي المعادي للإنكليز من بين المشاهدين، يكيلون له أقذع الشتائم ويحرقون الأرم، وخشيت أن يكتشف هؤلاء هويتنا اليهودية التي كانت تبدو من ثيابنا الأوروبية، وانتاب الصديقتين شعور بالقلق. وكانت تعليقات المشاهدين السمجة على الرواية وضوضائهم المزعجة مع كل موقف غرامي أو قبلة، تفرغ الآذان، عند ذلك يتعالى الصياح "ولك عيب، ولك بس عاد" والكبار يحرضون تيرون باور بقولهم، "إي عفا، ولك صخها". كل هذا الجو كان لا يساعد على الاندماج في أحداث الرواية. وكل ما فهمته من هذا الفيلم الذي ألهب مشاعر العراقيين آنذاك، أن "الولد" أي البطل (ويلعب دوره تيرون باور)، أحب راقصة "ملعبة" هي ريتا هايورت، فجاءت زوجته "الخايبة" تتضرع إليها أن تتركه لها فليس لها غيره، بينما الرجال يحومون حول الراقصة "مثل الزنابير على الدبس"، فتظاهر الراقصة بعدم تشجيعها له وتبعده عنها وهي تشد شعره وهو راقع أمامها. هذا المنظر المثير ضاعف الهتاف والصفير، وحماس المشاهدين، وأتاح للفتاتين فرصة الضغط على يديّ ودفع أكتافي بصدريهما لشدة انفعالهما من هذا الجو الغرامي المائع وسط موسيقى ورقصات ريتا هايورث الأفغانية الساحرة، والمتقفون من بين المشاهدين يرددون معها بالإنكليزية: "أُو و بُوي، بُتْ ذِي البليم أُوْنْ ميم".

وقد كنا اسعد حالا في ذلك المساء من غيرنا، ففي سينما أخرى حضر رئيس إحدى القبائل الجنوبية مع حرسه (التفاكتة) وحاشيته، فلما شاهد البطلة تنزع ثيابها أمام خليلها، غضب غضبة مضرية لانتهاكها حرمة العفاف، فما كان منه إلا أن سدّد مسدسه إلى البطلة على الشاشة وأطلق عليها الرصاص تأديبا لها وانتقاما لانتهاكها حرمة خدرها المصون وعدم محافظتها على قواعد العفة والأخلاق الكريمة. وقد

أصابه الهلع حين استمرت في فعلتها الشنيعة ولم تسقط مضرجة بدمائها عبرة لمن يعتبر .

انتهى الفيلم بالسلام الملكي، ولم يقف له المشاهدون احتراماً، بل كان بالنسبة إليهم، إيذاناً بانتهاء العرض فحسب. وعندما خرجنا إلى ضوء النهار، أحسست بأني اطرء من الجنة، واستيقظ على واقع حالك مختلف عن قصور الخيال التي بنتها لنا صناعة السينما الهوليوودية. خرجنا إلى زحام الشارع، فاستنشقتنا نسيم دجلة العليل بعد حر القاعة ودخانها الأزرق، ولم تجد نصائح اللافتات: "البصاق ممنوع" و "التدخين ممنوع" و "حافظ على النظافة" في الكف عن إتيان هذه المحظورات، فقد كانت مثل إشارات المرور في بعض المدن العربية، مجرد توصية، "والسائق هو ووجدانه". تركنا مقاعدنا ونحن نتعثر بقناني الناملية والسيفون وقشور البرتقال وأكياس الورق الفارغة، ونفايات الحب والحمص تتكسر تحت أخطبتنا. وهب نسيم دجلة الصافي العليل على وجوهنا، وسرنا في طريقنا إلى البتاوين، فراودني شعور بالإثم من عدم حفطي دروس التاريخ جيداً، وخوفي من تحقيقات الوالد، حول أين كنت؟ ولماذا تأخرت؟ وبأي عذر واهٍ كخيوط العنكبوت أتشبت به؟ ولكنها كانت أيام الصبا، كحللم وردى مر في خاطري وأحاول أن أعلل النفس بصياغته مرة أخرى، وأنا أعجب كيف تنثال عليّ الذكريات شوقاً إلى مسقط رأسي، و"يا وطني وريحة أمني بيك"، وهل كنت سأكون أسعد حال من أولئك الذين لا يتذكرون شيئاً من ماضيهم أو يتذكرون ولا يستطيعون التعبير عن ذكريات ماضيهم، ويعيشون في الحاضر فقط؟ وبذلك يتخلصون من نقد النقاد المتفقيين أو الحاقدين الذين يدسون أنوفهم فيما لا يفقهون، ويتخذون موقف الموجهين القومييين والمنافحين عن آرائهم السلفية التي أدت إلى كل هذه المصائب والفتن الدينية والمذهبية، والله أعلم!

وأنا اليوم أعجب كيف تحرص الأقدار في الحروب والكوارث والمذابح على أن يبقى
شخص واحد على الأقل ليكون شاهد عيان، ويستطيع أن يروي حوادث الزمان، على
ظلم وهمجية الإنسان نحو أخيه الإنسان، "عبرة لأولي الألباب".

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٤٥

تتمة عود وانعطاف. إلى أيام الحب والحنان. في العراق (٥)

الخميس ٢٨ مايو / أيار ٢٠٠٩

إهداء: إلى إ.د. والشاعر المبدع السيد
جبار جمال الدين، سليل الأسرة
الهاشمية العلوية الشريفة

كان المسيحيون في العراق في العهد الملكي أكثر حظاً في الحياة الثقافية والأدبية والمجتمع والعمل قياساً بالأقليات الأخرى، ولهم مكانة مرموقة في الصحافة السياسية والأحزاب وكتابة التاريخ والأبحاث في اللغة العربية وتحقيق النصوص والنشاط الاجتماعي والأدبي والاقتصادي، لتمكنهم، مثل اليهود، من اللغات الأوروبية وعلاقتهم الوثيقة بالفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية في أوروبا، وقد تنافس المبشرون الأوروبيون في خطب ودهم، وتوثقت علاقاتهم العلمية والأدبية بشيوخ اللغة العربية في مصر وسوريا ولبنان. وكان على رأسهم مطارنة كبار من الموصل خاصة، ومن رجالتهم وعلمائهم الأب أنستاس ماري الكرمللي وسليمان غزالة وكوركيس عواد ويوسف رزق الله غنيمية (خريج مدرسة الأليانس ووزير سابق، ألف كتاب "نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق"، إكراما لمدرسته اليهودية)، وروفايل بطي وغيرهم، وكان من بينهم من التحق بالأحزاب السياسية والجيش وسلاح الطيران

وتبوأ بعضهم المناصب الوزارية، وكانت ثقة صدام حسين بهم كبيرة حتى أنه عين الوزير طارق عزيز نائباً له، بالرغم من أن الضابط منير روفه كان قد فرّ بطائرة الميخ ٢١ إلى إسرائيل (١٩٦٦) بعملية استخبارية قام بها مركز المخابرات الإسرائيلية (الموساد). ويرى الكاتب والمؤرخ أنبیر يعقوب يارون، حفيد الحاخام المتصوف يهودا فتياً البغدادي، في كتابه "وداعاً لك يا بغداد"، أنها كانت عملية معقدة محفوفة بالمخاطر وذكر فيه تفاصيل هذه العملية التي كان له ضلعا فيها. أما يهود العراق فلم يكن لهم سوى وزير واحد وهو وزير المالية السير حسقيل ساسون (١٩٢١-١٩٢٥) الذي أنقذ الخزينة العراقية زمن الملك فيصل الأول، (أما اقتراح داود باشا الحيدري، خال الشاعر بلند الحيدري، على صالح جبر في ١٩٤٨، بإسناد وزارة المالية إلى الأستاذ مير بصري، فقد أجهض بسبب قرار التقسيم واحتمال إنشاء دولة يهودية في فلسطين)، والطيار ناجي إبراهيم خريج الكلية العراقية العسكرية الذي خدم في القوة الجوية العراقية ثم في سلاح الجو الملكي البريطاني في الحرب العالمية الثانية. وأعلى رتبة بلغها ضابط يهودي في الجيش العراقي هي رتبة "مقدم" التي منحت للضابط الشهير سالم عيزر (أبو غازي) الذي كان عبد الكريم قاسم من معاونيه في الجيش عندما كان ضابطاً في أول خدمته العسكرية.

وفي العهد الملكي انضم بعض المسيحيين إلى الحرس الملكي العراقي أيضاً، وأشهرهم الضابط أنطوان، وهو الرياضي السباح الذي اشتهر بمغامراته الرياضية، وكان من مشاهير أبطال المسيحيين، والمنافس لبطل اليهود المصارع حايمم دُمة، الذي كان حامي دمار اليهود في أحيائهم الشعبية ومدار فخرهم، (وقد توفاه الله قبل مدة بعد أن فاز في انتخابات بلدية الرملة وأصبح نائب رئيس بلديتها، مثله مثل دافيد يوسف رئيس بلدية أور- يهودا. غير أن هذا الأخير نال شهرته بكتبه عن لهجة يهود

العراق وعاداتهم وتاريخهم في معسكرات الخيام في الخمسينيات وفي عروضه المسرحية باللهجة اليهودية البغدادية ونكاته عنهم). أما أنطوان فقد نال شهرته بطريقة مبتكرة وهي أنه كان يقف عاريا على جسر الملك فيصل، ويستعرض عضلاته أمام "الرايح والجاي" بفخر. قطعُ الجسر ذات يوم لأزور بيت خالي حاييم في مهمة أرسلتني إليها والدتي إلى أخيها، وأسلق النخلة الخستاي لأراقب نمو زغاليل الفخاتي في أعشاشها، فإذا "بلمة" من النساء والرجال قد التفت حول رجل "امصلخ أبترُك للباس"، والناس تتهاشم بإعجاب، "أنطوان أجا أيجيت (يقفز) من الجسر!".

قالت امرأة لم تسمع به من قبل، "اشديسوي هذا المخبل؟ مستحي واكف مصلخ كدام النسوان ابترُك للباس؟"، فأجابها رجل مداعبا، "لا هذا راسه حار جاي اجيت من الجسر للماي خاطر ايبرد راسه!"، فضحك بعض الملتفين حوله. وكان أنطوان أثناء ذلك ينظر نظرات الديك المنتصر ويتبختر كالتاووس ويظهر عضلاته كالأبطال في مباراة أجمل جسم رياضي في الصحف الأوربية، وليمتحن عدد المشاهدين الذين توقفوا ليروا قفزه البطولية ولا قفزة طرزان، إلى المياه الوادعة لنهرنا الخالد. اقتربت من حاجز الجسر لامتحن المسافة التي سيقطعها في الهواء، وهالني الارتفاع العالي "اللي ايحط الراس يفتر ابسبع دواحات"، وهناك لاحظت زورقا وفيه شخصان وثياب خاكي وخاولي (بشكير أو فوطة الاستحمام) بالانتظار و"البلمجي أيعرف" ليحافظ على موضعه قرب "دنكات" (أعمدة) الجسر ليلتقط بظلمهم بعد أن يعود سالما إلى سطح الماء. ثم جاءت المرحلة الثانية من عرضه الرياضي، وهو قفزه البهلوانية الرشيقة على حاجز الجسر بجراً وبدون أن يترنح. ونظر إلى الأسفل ثم وضع يده على صدره متظاهرا بالخوف والهلع، ثم ابتسم ابتسامة المطمئن الواثق بنفسه. تمطى بجسمه العضلي ورفع يديه إلى الأعلى وقفز قفزة رائعة وقد تقوس ظهره ومد ذراعيه كنسر يفتح جناحيه لينقض على فريسته. وشهقت النساء وصفق الرجال، "هاضا

شلون عفريت، شلون سبع، والله بطل!" وتدافعنا إلى حاجز الجسر، فرأيناه وقد قرب يديه ومدهما فوق رأسه ليتلافى صدمة الماء المدمرة. لم يثر رشاشا عند صدمته بصفحة النهر الأزلي، وانتظرنا وصوله إلى سطح الماء وقد أمسكنا أنفاسنا. خرج بعد فترة وهو ينفض عن شعر رأسه الماء يمنا ويسرة وسبح إلى الزورق الذي كان بانتظاره، وتسلق حافة الزورق بسرعة البهلوان وجلس في البلم وهو يمسح الماء عن عينيه ووجهه ويلوح للمتفرجين الذين كانوا يصفقون له بإعجاب. وفي اليوم التالي أخبرت أصدقائي في المدرسة "البارحة شفت أنطوان أيجيت من جسر الملك فيصل". ابتسم بعضهم وقال، "ايكولون هاي كلها سخته، أيسوي هيح خاطر الشهرة".

كانت جميع مغامرات هؤلاء الرياضيين تتم بمبادرتهم، وإذا أصاب أحدهم مكروه فهذا حظه ونصيبه "واللي على الكصة أنكتب لازم تشوفه العين"، ولا راد لقضاء الله سبحانه وتعالى والذي لا يحمد على مكروه سواه. ومثل هذا الحظ السعيد الذي تمتع به أنطوان في قفزاته من جسر الملك فيصل، لم يكن من نصيب الصبيين اللذين قدما مع عائلتهما من أحياء بغداد اليهودية القديمة، وأتوا بخروفهم معهم وسكنوا قرب مدرسة السعدون. كانا يذهبان كل صباح "مصلخين" بلباس السباحة، يسوقان خروفهما معهما ويسيران حافيين مارين من أمام دارنا ويقطعان الطريق الرئيسي إلى شارع أبي نواس وإلى الشط. وفي شهر آب اللهاب وهو الشهر الذي يعقد فيه اليهود مناحاتهم في التاسع من شهر آب العبري من كل سنة لذكرى خراب البيت المقدس، يمتنع اليهود فيه عن السباحة تشاؤما، ويعتقدون أن من يسبح في النهر في ذلك اليوم يصيبه مكروه أو يغرق لا محالة، وذلك بالرغم من انخفاض منسوب مياه دجلة، حتى أن الجزيرة تبدو فيه في أوج ارتفاعها وتبقى المياه بينها وبين الجرف أمام البتاوين والعلوية واطئة ضحلة، وإن كان التيار فيها قويا كاسحا. قرر احد الأخوين أن يقفز

إلى الماء، محاكيا أنطوان، دون أن يفحص عمقه ودون أن يعباً بتحذير المتشائمين من ذلك اليوم. طار في الهواء من الجرف وقوس ظهره وفتح ذراعيه مثلما كان يفعل أنطوان وغاب في الماء. انتظر أخوه خروجه إلى سطح النهر، ولكن يا للهول، بقيت صفحة الماء واجمة مكفهرة عابسة، طلب أخوه النجدة من أولاد الحلال ثم ألقى بنفسه وهو السباح الماهر وغاص إلى قعر النهر، فتح عينيه في الماء الصافي فوجد أخاه فاقد الوعي ينزف رأسه دماً، فقد اصطدم بعنف بالقعر الرملي والدم يلون الماء من حوله بحمرة الجحيم. نقل الفتى إلى مستشفى المجيدة. قالوا لنا فيما بعد إن الأطباء ربطوا رأسه بأثقال لكي يعيدوا فقرات الرقبة إلى مكانها، فلم ينفع علاجهم معه وفارق الحياة في مطلع شبابه، مأسوفاً عليه. ومن ذلك الحين قررنا الامتناع عن القفز إلى الماء، وقال الوالد محذراً "تغا من اليوم وغادي ماكو لا اتجيبت ولا زرك" (من اليوم وصاعداً، لا وثب ولا قفز إلى الماء)."

كثيراً ما كان تيار دجلة في أيام الفيضانات أيام العسمللي يجرف معه الجسور القديمة المصنوعة من الزوارق، فيقطع الحبال التي تربط الزوارق العائمة بألواح الخشب التي يسير عليها المارة ويفرقها أيدي سبأ، وكان المحظوظ منهم يقفز إلى أحد الزوارق وهي منحدرتة مع التيار بسرعة هائلة، فإذا رأى احد أصدقائه على الجرف، يناديه ويقال له: "عيني داده، روح كلها الأمي أنت شايفني، لكن آني ما ادري وين رايح!". وفي ذات يوم ذهب الوالد مع مراد أخي واحد الجيران للسباحة في "جرداغ هامى" في الشريعة قرب السنك، وكان مراد بكربة واحدة، فحملهم التيار الهائج إلى ما بعد السنك، فصعدوا إلى الجرف ومنه إلى إحدى الأزقة التي لا يعرفونها. فلما شاهدتهم رجال ذلك الزقاق يسيرون عراة بلباس السباحة فقط، صاروا يصيحون عليهم أن يتركوا المحلة بسرعة "شلون تمشون مصلخين كدام النسوان" وأمطروهم بوابل من

الطابوق الذي صار ينفجر أمامهم وخلفهم كالزجاجات الحارقة، وهم يحتمون بالجدران، ونجوا بمعجزة من ذلك الواابل العدائي الذي يدافع عن عفاف نسوان المحلّة. وإلى اليوم يقسم مراد أنه لو أصابت طابوقة رأس احدهم لأردته قتيلا في الحال، ولكن الله سلّم. ولا ينسى أخي مراد الرسام الذي يعيش اليوم في باريس، كيف انه كان سائرا قرب باب الشيخ، فأحاط به صبيّان أكبر سنا منه يريدون ضربه "ولك يهودي، وين تولي، وين تروح؟"، فأقبل عليهما شاب في العشرين وقال لهما، "ولكم مو عيب، أنتو اثنين على واحد؟"، أجاب الصبيّان، "عمي مو هذا يهودي"، وبومضة عين انقلب الملاك الحارس إلى شيطان رجيم، وصوب لكمة إلى صدر مراد ابن الست سنوات، سقط على أثرها على الأرض باكيا منتحبا من الألم. وهو يقسم لي، أن صدره آلمه وأرقه مدة أسبوعين عانى فيهما من عذاب عسر التنفس من تلك الضربة الظالمة، ما لا يوصف.

في بداية السنة الدراسية ١٩٤٠-١٩٤١ التحق بمدرسة السعدون بالإضافة إلى المسيحيين، مصباح وخيري والأخير هو ابن ضابط كبير في الشرطة العراقية، وكلاهما على ما أظن، من الكلدان المعروفين بدمائة الأخلاق، راؤول الطالب الأرمني الجديد. وقد سكن الأرمن في بغداد في كعب الأرمن، واشتهروا بذكائهم ونشاطهم ومهاراتهم في التجارة والفنون، منهم المصور "أرشاك". كان راؤول مثل الكثير من الأرمن مفلطح الرأس، يميل شعره إلى الشقرة، وتميز عن الآخرين بأنه كان أقنى الأنف ضخمة، وكانت عيناه الزرقاوتان تلمعان ببريق يشي بسوء النية. ومن أول يوم دأب على إضافة اتهام آخر نحوي كيهودي، وهو تهمة "صلب المسيح"، ولم يأبه بدفاع الطلبة المسلمين عن اليهود باستشهادهم بالآية القرآنية الكريمة "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم". لكن راؤول احتج بالإنجيل، وقال "لقد غسل الحاكم بيلاطس يديه أمامكم

من إثم صلبه"، وفرك يديه بحدّة كأنه القيصر يغسل يديه في تلك اللحظة، وأضاف، "لقد قال أحباركم اليهود، "دمه علينا وعلى أبنائنا!" فكيف تنكرون ذلك. (وكان صديقي إيدي بصري البصراوي يقول، إن يهود بابل لم يحضروا المحاكمة في أورشليم، ولم يشاركوا فيها، لذلك فأن هذا العهد الذي قطعه يهود أورشليم على أنفسهم لا يحق بيهود بابل! وهكذا اقنع إحدى الفتيات الحاجات إلى الديار المقدسة الأمريكيات الجميلات بالزواج منه).

كنا في حديقة بيت إياد ابن الدكتور علي غالب، وكنا نلعب بالمسدس الهوائي الذي أخذه إياد من درج والده خلصة ليفاخر به أمامنا. وعاد راؤول إلى تهمة الصلب، وفي حماس نقاشه الديني، اختطف المسدس من يد إياد علي غالب، وكنا قد عمرنا المسدس بعود ثقاب بدل كريات الرصاص الصغيرة (الصجم)، ووجهه نحو ساقبي وأطلق المسدس. شعرت بألم شديد وغضب من هذا الذي بدأ ينغص علي حياتي، واشتكت معه في عراق وهو يصيح "أنتم صلبتم المسيح، أنتم صلبتم المسيح". ثم فكّ إياد التلاحم بيننا وصرف راؤول من حديقة بيته وهو يهدد اليهود بالانتقام.

وفي أواخر شهر أيار ١٩٤١ يوم اندحار الجيش العراقي في معركة الحبانية وسن الذبان، حيث شارك فيها ضباط وأطباء يهود للدفاع عن وطنهم العراق ضد المحتل الغاصب، تراجعت القوات العراقية إلى بغداد بعد أن استولى الإنكليز على بدالة التلغراف العراقي في "خان نقطة"، وقام أحد جواسيسهم بخدعة مضللة، وذلك بإخبار القيادة العراقية في بغداد، مهولا الأمر بعد انضمام الجنرال كلوب باشا "أبو حنك" إلى الزحف على بغداد، مدعيا إن قوة هجومية كبيرة تتكون مما لا يقل عن خمسين دبابة انكليزية، تزحف على بغداد. أصاب زعماء حركة رشيد عالي الكيلاني والمفتي حاج أمين الحسيني وحاشيته الهلع والخوف ولاذوا جميعهم بالفرار إلى إيران وتركيا،

سوى يونس السبعاوي الذي عين نفسه حاكما عسكريا على بغداد وبقي فيها يومين ثم فرّ هاربا، فألقي القبض عليه وشنق مع اثنين من ضباط المربع الذهبي وهما العقيدان فهمي سعيد ومحمود سلمان.

وصلت الأخبار إلى طلاب مدرسة السعدون، وفتش الطلاب، بقيادة رؤول عن كبش فداء. شعرت بهم يتهامسون وعيونهم تقدح شررا من الحقد والرغبة العاتية في الانتقام من الإنكليز ومن اليهود الذين اتهموا بأنهم رتل الإنكليز الخامس. أخبرت عبد الرحمن الجابي بهواجسي، قال بثقة، "لا تخاف آني وياك!" وبعد الانصراف من المدرسة أحاط بي الطلاب بصورة عدائية وأنا أسير إلى جانب عبد الرحمن. وصلنا قرب قصر جلال بابان القريب من المدرسة، والطوق حولي يضيق وهم يهمسون "هل اليهودي وين راح يروح اليوم؟" صحت استنجد بعبد الرحمن، أدار ظهره بغدر كغدر بروطوس ليوليوس قيصر، وتظاهر بأنه لم يسمعي. لم اصدق ما يجري، أصدقائي خلال سنوات عديدة يتصرفون كقطع ذئاب مفترس. وفي تلك اللحظة الغريبة خيل لي أن أصدقائي قد مسحوا إلى قطع من الذئاب المسعورة، قطع متحفز للانقضاض على ظبي وحيد أصبح حماه ساحة خيانة وعداء بعد أن ظن أنه آمن في مكئسه الذي يلوذ به. أصبحوا فجأة ذئابا مكشرة عن أنيابها التي يسيل منها اللعاب المسعور، وعيونها الحمراء تقدح شررا وهي تلهث بظماً لتلغ من دماء هذا الظبي المغدور المظلوم. تساءل الظبي في سره حائرا، هل يقف موقف الإمام الشهيد الحسين، حينما صمد وحيدا مخذولا في وقعة كربلاء المروعة الغادرة؟ وتغلبت غريزة البقاء والتمسك بالنجاة في الحياة على عظمة سؤرة الصمود البطولي والاستشهاد الحسيني الذي هز أركان السموات والأرض. استشعر الظبي بغريزته بالخطر المحدق به واندفع بين ذئبين ودفعهما ليكسر الطوق نحو ماء الفرات، وأطلق ساقيه للريح. وانطلق

قطع الذئب وراءه وهو يواصل عدوه وعدد الذئب يتناقص كلما طالت المسافة لعجزها عن اللحاق بالظبي السريع المراوغ في الطرقات التي يعرفها جيدا. وعندما بلغ الشارع الموازي لحماه، حيث يقع قصر داوود خلاصجي وقصر سامي بخاش، توقف لينظر حوله وهو يلهث، وفجأة ظهر أمامه راؤول كساحر نزع عنه طاقة الإخفاء وهو يلهث مكشرا عن أنيابه كالذئب الأحمر. انتصب كالشمر اللعين يسد عليّ طريق النجاة نحو الفرات، صعد الدم إلى رأسي، إن لي مع هذا اللعين "نارات"! صرخ راؤول بغضب وحقد، "يا يهودي، يا من صلب المسيح، وين تروح، موتك على أيدي"، كنا وحيدين، وأنا في حمى شارعنا، اقتربتُ منه وقد أخذني الغضب كل مأخذ، كيف يجرؤ على الاعتداء عليّ في عقر داري، ويسد عليّ الطريق إلى داري، إلى الفرات؟ وبغضب جبار أرسلت إلى فكه لكمة شمالية فاعوج فكه، فعدلتها بلكمة يمينية فاعتدل، وسقط على الأرض. عدوت إلى دارنا وطرقت الباب بشدة وعنق "افتحوا الباب بالعجل، افتحوا الباب!"، فتحت والدتي الباب ورأتني في اضطراب، "أشكو، أش ساغ؟"، أجهشتُ بالبكاء وضربت الأرض بقدمي، وقلت:

- "صدقاني من المدرسة قيغيدون يقتلونني!" (أصدقائي من المدرسة ييغون قتلي!)

- "ليش، اسويتلم؟" (لماذا؟ ما فعلت؟)

- النصفاني يقول انتم اقتلتمو المسيح، والمسلمين يقولون يهودي ايدو مغلولة والله أسه يقلم اليهود شوادي (قردة)، والنصاغا خنازيغ. وماكو يوم مقيضغوني!

- غيغ هذا الحكي مال المتدبين مال، كل ويحد إيفسغ على كيفو، وهيكد ايعلموهم لولادم.

أخذتني الوالدة في أحضانها وأنا ارتعد من الغضب واليأس، "ما أعيد أغوح الهابي المدرسة بعد، طلعيني منا، ميتوني، ما قدقدغ بعد!" (لا أريد الذهاب إلى هذه المدرسة مرة أخرى، أخرجيني منها، اضطهدوني، لا أستطيع الاحتمال أكثر من هذا!). قبلتني أمي من خدي وهي تربّت على ظهري، وهمست في أذني سرا مصونا بين اليهود لا بد أنها سمعته من أمها وتناقته الأجيال من قبلها خلال ألفين وخمسمائة عام أو أكثر، وظنّنت انه سيعيد إليّ هدوئي النفسي ورباطة جأشي.

- ميخالف ابني، كلما أتضيق تفرج، هسه يحيي المشيياح (المسيح المنتظر عند اليهود) وهسه كل عدوان (أعداء) اليهود ينقلبون زمايل (حمير).

- لا! ما أعيد احد ينقلب لا زمال ولا خنزيرغ ولا شادي، ليش الله خلقم الأوادم خطغ ايسويهم أتالي خنزيرغ وشوادي وزمايل؟ (لا أريد أن يُمسَخَ أحد حمارا ولا خنزيرا ولا قرداً. هل خلق الله البشر لكي يمسخهم خنازير وقرودة وحمير؟)
لم تدر أمي بما تجيب أمام منطق الأطفال السليم، فكرتُ وقالتُ:

- لا، هايي مثل ما الشيعة لما يستنظفونوا (ينتظرون) المهدي مالم ايخلصم من الظلم، نحنا نستنظفوا المشيياح مالنا يخلصنا من ظلم "الكوييم" (الأغيار).

- قلّليلي، خطش الله يخلقم الأوادم؟ خطغ أتالي يقلبم حواوين (حيوانات)؟ فهميني بقا؟ (قولي لي لماذا يخلق الله البشر؟ هل لأجل أن يمسخهم حيوانات؟ أريد أن أفهم!)

حملتني والدتي إلى الفراش دامعة العينين يائسة، وهي تقول:

- ميسغ احد يشغل أبشغل الله! (لا يجوز لأحد التدخل في أعمال الله!)

وبعد أسبوعين من هذه الحادثة، في ١ من حزيران، ١٩٤١ في عيد الزيارة (شبعوت)، ارتدى يهود العراق ثياب العيد احتفالاً به وبعودة الوصي الأمير عبد الإله وحاشيته، ولم يعلموا بعدُ بعودة فلول الجيش العراقي الغاضبة إلى بغداد. عند ذلك، اندلعت نيران أحداث الفرهود المروعة الرهيبة.

يهود العراق: ذكريات وشجون

الحلقة (٤٦)

لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في انكلترا

الأحد ٤ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٩

كان صيف هذه السنة (٢٠٠٩) صيفا ساخنا بالرغم من أنني قضيت فيه ثلاثة أسابيع في انكلترا، بين أيام مشمسة دفعت النساء والرجال الى الحدائق العامة يعرضون أجسامهم لأشعة الشمس الدافئة وأيام ماطرة باردة لم أحس فيها بلهيب صيف الشرق الأوسط اللافح، بل غمرت مياه الأمطار البيوت الواطئة في لندن وأغرقت مداخلها وغرفها، وشعرت النساء المسلمات المحجبات بالراحة تحت ثيابهن المحتشمة التي ينعته العلمانيون اليوم بالخيمة. قضيت الأسبوع الأول في مؤتمر جامعة كمبردج عن "يهود الثقافة العربية"، برعاية العلامة صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال (كمبردج، ٢٢ - ٢٤ يونيو، ٢٠٠٩)، ومؤتمر المستشرقين البريطانيين في جامعة مانشستر (٤ - ٦ يوليو، ٢٠٠٩)، وبعد وصولي الى لندن انتهزت فرصة انعقاد ندوة ثورة ١٤ تموز، ١٩٥٨ في يوم ١١ يوليو، ٢٠٠٩، شارك فيها الزعيم السياسي، عضو البرلمان العراقي السيد إياد جمال الدين وعبد الخالق حسين وهاشم العقابي وعقيل الناصري، وألقيتُ فيها قصيدة رثاء للزعيم عبد الكريم قاسم نظمها الدكتور جبار جمال الدين، نيابة عنه، إذ كيف يعقد مؤتمر عراقي لا تلقى فيه قصيدة في تلك المناسبة الهامة. ثم شاركت في ندوة إحياء التراث العراقي التي نظمها كل من الدكتورة أمل بورتر والأستاذ ضياء كاشي في لندن (١٢ يوليو، ٢٠٠٩) وبمشاركة شعراء وأدباء آخرين، وسأعود الى الحديث عن هذه

المؤتمرات فيما بعد. وكان ختام هذه الرحلة محاضرتي في ١٤ يوليو، ٢٠٠٩ عن فرهود اليهود في نادي مركز "سيرو آرك" اليهودي، تحدثت فيها عن كتاب "فرهود عام ١٩٤١ في بغداد"، الذي سيصدر قريباً باللغة الانكليزية، جمع وتحقيق ش. موريه ود. صبي يهودا والموجود تحت الطبع في مطبعة ماغنس بالجامعة العبرية. ويضم هذا الكتاب مقالات كتبها الأساتذة ستيفان ويلد وإيلي خصوري (كدوري) وحاييم كوهين ونسم قزاز ود. أستير مئير والمحققان. وحضر هذه الندوة نخبة من المستمعين من الإنكليز والمثقفين العراقيين من جميع الفئات العراقية الهاربة من الحجيم الصدامي، برز فيها من المعلقين على محاضرتي المثقفون العراقيون من يهود العراق من الهاربين من العراق بعد حرب ١٩٦٧ وعرب وأكراد.

وكدأبي في تشجيع تدوين تاريخ العراق الحديث، فقد انتهزت فرصة زيارتي لإنكلترا وطلبت من أصدقائي العراقيين ممن كان لهم ضلع في الأحداث السياسية في القرن الماضي أن يدونوا ذكرياتهم، وابتدأت بتدوين مقابلاتي مع بعضهم وعلى رأسهم الدكتور اللواء غازي آل الجميل طبيب العيون في الجيش العراقي سابقاً والصديق الوفي الأستاذ ضياء كاشي وهما من نزيلي لندن، أسوة بمذكرات الدكتورة الباحثة أمل بورتري، واقترحت عليّ الدكتورة هدى معروف نشر هذه المذكرات في إحدى الصحف الالكترونية العراقية بإشرافنا مع الدكتورة أمل بورتري، تحت عنوان "أصدقاء من تاريخ العراق الحديث" نأمل أن يستجيب العراقيون الذي كان لهم ضلع في الأحداث الماضية، وأن تتبنى إحدى هذه الصحف هذا المشروع الهام.

كنا نحن يهود العراق ولا نزال، نتشوق الى معرفة مصير العراق وأحداثه الرهيبة بعد الرحيل وسماع الأخبار من فم شهود العيان، ولم تكفنا نشرات الأخبار ومحاكمات المهداوي التي لا نزال نقتبس بعض دررها في حديثنا اليومي. فمثلاً، عند لقائنا

بصديق لم نره منذ مدة، كنا نبادره بجملة المهداوي الترحيبية بأخيه الذي اهتمته إذاعة القاهرة بأنه كان نشالا، بقولنا: "هذا أخويا، أول مرة داشوفه، يكولون عليه نشال، هل نشالي الشعوب!" ونصيحته بتسمية الأبناء بأسماء عربية جميلة بدل الأسماء التي يظن إنها تبعد عنهم تحرش الشيطان بأبنائهم، مثل أسم "شويدي" (تصغير اسم شادي= قرد)، لأن الشيطان يأنف من قبض أرواح الأطفال الذين يحملون مثل هذه الأسماء الحقيرة، فهو نقاد للدر.

كان همي في لقائي بالأخوة العراقيين أن استمع الى ذكرياتهم عن عراق الانقلابات الدموية. ففي ذكرياتي التي نشرتها في "إيلاف" الغراء منذ عام ٢٠٠٧، تحدثت عن صدى الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية على حياتنا في بغداد، أحداث كنا مسيرين فيها غير مخيرين، أحداث دَوْنَتْهَا بعين طفل لم يفقه ما أسبابها ودوافعها، ثم بنظرة الفتى في مطلع ريعان الصبا بدأت الحقائق تتكشف له تدريجيا، فإذا بالسياسة الهوجاء تدفعنا في تيار جارف اقتلعنا من جذورنا العريقة في وادي الرافدين، أشرف العراق بعدها على حافة الهاوية التي دفعته إليها السياسة الضيقة الهوجاء التي لا تستطيع النظر الى أبعد من أنف منفذها، فكانت بداية احتضار العراق المأساوي البطيء مع رحيلنا الحزين في موجة الفرهود الثاني لعام ١٩٥١ في أيام وزارة نوري السعيد حين سنت حكومته في آذار عام ١٩٥١ قانون تجميد أموال اليهود وممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة. ففي هذا الفرهود الثاني استبيحت بيوت وأموال اليهود وممتلكاتهم بعد اقتلاعهم وتهجيرهم من وطنهم، واستبشر الحاقدون بالقانون "الفرهودي" الجديد وسارعت عامة الشعب الى سرقة أثاث اليهود وفرشهم وحليهم الذهبية والفضية واحتلال وفرهدة بيوتهم المهجورة وحوانيتهم ومخازنهم العامرة بالسلع المختلفة التي استودعوها في الخانات المنتشرة في أسواق بغداد وفي جميع

أنحاء العراق، وذلك بالإضافة الى المكتبات في المدارس والنوادي اليهودية وفي بيوت أغنياء اليهود، هذه الدور والفيلات التي بقيت بأثاثها وتحفها والتي سلموا مفاتيحها الى جيرانهم باكين منتحيين يشاركونهم في بكانهم جيرانهم الطيبين الأختيار الذين لا يزالون يحنون إليهم ويذكرونهم بالخير ويتمنون عودتهم "بعد خراب البصرة وضياح اللبن في الصيف، ولات ساعة مندم". وفرح نوري السعيد بالربح الرخيص الذي جناه ابنه صباح وشركاؤه من وراء تأجير طائرات ترحيل اليهود، أما الرعاع فقد حققوا آمالهم التي عبروا عنها في هوسات فرهود عام ١٩٤١ "هذا اليوم الجنا انريده" و"اشحلو الفرهود لو يعود يومية". ولم يدركوا أن هذا الفرهود كان أول القطر في طوفان الفراهيد التي طغت على الشعب العراقي بمختلف أديانه ومذاهبه، وشمل بسيف الظلم كل الأقليات في العراق، ولكن الله بسيف الحق ينتقم، و"أعظم بك اللهم من قاض ومنتقم" واللهم لا شماتة. ثم طغت هذه الموجة وحذت حذوها باقي الدول العربية انتقاما لنكبة عام ١٩٤٨ في فلسطين ونكسة ١٩٦٧ في البلاد العربية، فطردت يهودها مزغردة لمصادرتها لأملاكهم، ولهذا النصر المبين، "وكفى الله المؤمنين القتال". وإلى آخر الأحداث والحروب التي حاولت إبادة إسرائيل وصواريخ "سكاد" التي لاحقنا بها صدام حسين الى إسرائيل، فسقطت على تجمعات يهود العراق في رامات جان خاصة، "لأنها شمت رائعة العنبة الفواحة من منازلهم"، فأشبعتهم مرارة. والعجيب أنه بالرغم من سقوط ٣٩ صاروخا لم يقتل في هجمات السكاد هذه إلا شخصان، الضحية الأولى كانت رجلا مات بالسكتة القلبية، والضحية الثانية كانت طفلة عربية، من بنات من يسمون بعرب ١٩٤٨، خنقتها الكمامة التي وزعتها الحكومة الإسرائيلية على موطنها خوفا من أن تكون هذه الصواريخ محملة بالغازات السامة، ويا لسخرية القدر! وغضبت عندما رأيت أبنائي قد أصابهم الهلع عند سماعهم صفارات الإنذار في الغرفة التي سدت فيها جميع

المنافذ بالأشرطة الواقية من تسلل الغازات السامة، فاحتضنتهم لاعنا الحروب ومثيبرها ولكي أبث في أجسادهم المرتجفة الطمأنينة والأمان، وكنا أكثر ما نخشاه أن تكون هذه الصواريخ محملة بغاز الخردل الذي قتل الأكراد من شعب العراق في وقعة الأنفال الرهيبة، ولكنها كانت صواريخ متفجرات، وأضاعت على إسرائيل الأموال الطائلة التي أنفقتها على شراء وصنع الكمادات الواقية من الغازات.

أعدتني هذه الزيارة القصيرة الى ذكريات عراق ما بعد هجرتنا الجماهيرية عام ١٩٥١، وألقتني الأقدار وجها لوجه مع من شارك في صنع تاريخ العراق بعد هجرتنا واكتوى بنار الانقلابات والحروب الدامية فيها، فآثروا الهجرة وقد فروا بجلدهم غير مصدقين إنهم نجوا من الجحيم الذي اجتاح العراق ودار السلام ومهد الحضارة الإنسانية، هذه الحروب الهوجاء التي استشهد فيها خيرة شباب العراق. ويعيش اليوم في إنكلترا وفي لندن خاصة، أغلب المشردين الهاربين. عجبت لروابط الصداقة التي تربط العراقيين من جميع الأديان والأجناس والطوائف في مهاجرهم. فما أن يلتقي المشردون، نساء ورجالا، حتى يتعانقون ويتبادلون القبل "وشلونكم عيني وشنو أخبار الأهل بالوطن المفخخ الجريح؟" كأنهم يهنئون بعضهم بعضا غير مصدقين أنهم نجوا من سنوات الحريق، كعنوان رواية الصديق حمزة الحسن، هذا الحريق الهائل الذي التهم الأخضر واليابس في الوطن الحزين الذي يقتلهم الحنين إليه.

ثم أتأمل في دوران دولاب القدر، وقول النساء العراقيات، "هاي حوية اليهود من الفرهود!" وأتساءل، لماذا يشهر الزعماء والقادة سيف الظلم على أخيهم الإنسان، ثم نرى الله بعد ذلك ينتقم بسيف الحق؟ ولماذا تتيح الأقدار الفرصة للظالم ثم تعاقبه؟ ولماذا الثواب والعقاب، وخاصة إذا كان الإنسان مسير غير مخير؟ هذه أسئلة ردها اليهود منذ خراب الهيكل الأول، وردها المسلمون الشيعة عند مصرع

الحسين الشهيد، ورددها المسلمون في غزوات هولوكو وجنكيز خان، ورددها أحبار اليهود في محرقة الهولوكوست، ورددها العرب في النكبات المتوالية على الشعب الفلسطيني، وغيرها من الكوارث الإنسانية الأخرى!

يقول اليونان، إن الآلهة تلعب بمصائر الإنسان كما يلعب القط بالفار، وقول اليهود عن كوارثهم، إنها محن يمتحن الله بها شعبه المختار ليعود ويتمسك بالكلمات العشر الإنسانية الخالدة، ويقول المسلمون إنها حكمة الله وقضاؤه انتقاما لإهمالهم شريعته وليحثهم على التمسك بأحكام القرآن وسنة نبيه الكريم. والله أعلم بالصواب!

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٤٧

لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في انكلترا (٢)

الثلاثاء ٢٠ أكتوبر / تشرين الأول ٢٠٠٩

لقد صدقتَ يا رجل! فالعراق يلاحقك أينما تذهب، قدر لا مناص لكَّ منه وأين من الأقدار المهرب، ألا تعلم، أيها الرجل الذي أبدل إيمانه "بروحانية الشرق، بمادية الغرب"، أن "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين؟" لا! لا تقل هذه خرافات شرقية، ألا ترى كيف كُتِبَ عليك أن يكون العراق هوك الأبدى، هوى عراقي، مثل هوى قيس ابن الملوح، عندما لاحَ النجومَ برقَّ يمانى. وأنت، يا عراقي الهوى، مثل جميع العراقيين "معود على الصدعات قلبك" لأنك ولدت في العراق، ومع ذلك فما أن تسمع اسم العراق حتى تنهمر الذكريات والأشجان والحنين إلى الماضي، فيضيع عليك التمتع بالحاضر ومنجزاته، أما المستقبل، فهو حلم يائس، حلم الوقوف على أطلال ماضيك. وها قد أنهكك الشرى لطول طريق الفراق وانتظار السلام وزبارة مسقط الرأس، حلم تصر على تحقيقه يا رجل. وها أنت اليوم قد "ضعتَ وضاع الأمل"، فقد كلل هامتك الشيب، ولا أمل في الوقوف على أطلال الصبا، "فيا ويلتاه يا رجل!" ولكنك تبقى مصرا مهما طال الأمد، وتعالج حنينك بمراسلة أصدقاء أوفياء تعرفت عليهم من خلال تعليقاتهم على ذكرياتك في "إيلاف"، فسل الله حسن الخاتمة لك، وللمشردين العودة واجتماع الشمل وبناء الوطن المحتاج الى مواهبهم وخبراتهم التي اغتنموها في مهاجرهم، وأن يمنَّ عليك بزيارة مسقط الرأس ولو لمرة واحدة، وإن كنت تعلم انه لم يبق من ديار الماضي سوى آثار طمسها غبار السنين.

أتريد أن تقف محققاً في التراب "كشحيح ضاع في التراب خاتمه"، لعلك تتعرف بعد توهم، على رسومها الدارسة التي سقتها رياح الحروب، السموم الهوجاء والإهمال والعداء، وتناوبتها ريح الصبا والسافيات "الصداميات"، نسيجاً من جنوب وشمأل، فلم "تبعث" الحياة في شرايين العراق، وما زال العراق في انتظار "مطر السياب"، ولم يجد دعاؤك "جاذك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل في" بلد الرشيد"، وصرت كلما رأيتَ عراقيين وسمعتَ حديثهم بلهجتهم المحببة الى سمعك، يزداد حنينك ووجدك الى بغداد الحب ولىلى المريضة في العراق. ولكن عدّالك العراقيين يعذلونك بقولهم، "بغداد صباحك، بغداد أيام الهوى والشباب، ذهبت دون رجعة، فلم الحنين والأنين؟"، فقد عمها الخراب والدمار والمتفجرات والأحقاد والاقتيال، وحواجز الكونكريت "وحلاقة هاني، اعبر وتلكاني"، فكيف الرجوع وقد تحطمت الصواري وهوت القلوع، ونضبت مياه دجلة والفرات وشط العرب وماتت النخيل عطشى منتصبه بكبرياء الملكات، وكيف لا تحزُنْ وقد كانت ترف عليك نخيل سواد العراق الوارفة، "رفيف قرون ليلي على المجنون في هواها؟" وتسأل نفسك، هل يا ترى ستتمتع "بشميم عطر" ضفاف دجلة والفرات ورياحين العراق مرة أخرى؟ وهل ستسلم على الأحباب وتقبل الأعتاب، كما أوصتك والدتك قبل رحيلها الأخير؟ هذا العطر الذي هو عند العراقيين اليوم في مهاجرهم كرائحة قميص يوسف، ترد إليهم أيام الهوى والشباب الراحل، وما زالوا يشناقون الى حفيف نسيم دجلة يوشوش وشوشات الحب للنخيل، ووقع المجدف على صفحات نهرك النخالد، حين كانت تتجاوب أصداء الدرابك بأفراحها المهللة في جزرات بغداد بين الرصافة والكرخ، على رقصات النخيل، مع النسيم العليل، وقمر العراق ينير الضفاف، وهل هناك أحلى من قمر العراق؟ ومع ذلك فعّدالك من العراقيين يواصلون النداء "أن تعال!

أرجع إلينا، وانحطك أبطن عيوننا"، ولكن كيف الرجوع، وقد عفت الديار، ولم تبك
الريح من ثمود البتاويين وبغداد طفولتك وصباك، من أثر، ويا صبر أيوب مدد!!!

وأنت الآن إذا ما التقت بالعراقيات وبالعراقيين في منافعهم في الخارج، فأول سؤال
يبادرونك به، هو "بعدكم أتحنون للعراق وايمتا ترجعون؟" أو يكتبون، "عودوا الى
العراق لتعلمونا كيف كنتم تديرونه بأمانة وإخلاص". أما إذا جازف نسر شجاع وزار
إسرائيل دون أن يخشى في سبيل السلام لومة لائم، مثلما فعل السيد مثال الألوسي
وقبله السيد ضياء كاشي والأستاذ حسين الكندي، أو أفلت طائر من جبال كردستان
العراق عن طريق المهجر، وزار تجمعات يهودها في هضبة بغداد ومراكز سكانهم
في الجبال المحيطة بالقدس، كما فعل الموسيقار والملحن والمغني بشير صبري
بوتاني عاشق الحان أكراد يهود العراق ورقصاتهم، فعند ذلك ترى العجب العجاب،
وتطلب امرأة بغدادية من زوجها الكهل أن يسمح لها بتقبيل "العراقي المسلم"، فيومئ
لها بالموافقة، فتحضنه وهي تقول: "فدوه أروح لك يا أخويه، ريحة العراق بيك!"
وتقشعر أجساد الرجال لهذا الحنين وتجهد النساء بالكاء من "عيون المها وراء
السواد"، وتمسح المهارة الرصافية ببنائها الرخص دمة عصية من عيون حوراء
"غضيفة الطرف مكحول"، وبيكي العراقي الزائر وهو يستمع الى غناء لميعة توفيق
وسليمة مراد وغيرهما من مطربات أيام زمان، يغنيه شباب من أحفاد المهاجرين الذين
لم يروا العراق ولكنك تسمع في غنائهم ألم حزين ينساب في صوتهم كحنين أشواق
آبائهم، ويصفق الزائر طربا على إيقاع غناء لميعة توفيق:

"ظلام ما عندكم رحم يللي ظلمتوني / بالفرح تقضون العمر / وآني نسيتوني"،

ثم يجمد التصفيق حين يكمل المغني بيت العتاب الحزين الذي أضافه اليهود في
بغداد وكانوا يغنونه سرًا:

"وماشي أنا بالدرب صهيوني تهموني / وحكمت عليّ المحكمة / وللسجن ودوني".
فإذا انتقلوا إلى أغنية سليمة مراد، "قلبك صخر جلمود ما حن علي"، يعلق عليها
الزائر العراقي، "نعم، ما زال قلب حكام العراق الى اليوم صخر جلمود أمام حنين
العراقيين، والعراق بأمس الحاجة إلى أبناءه الراحلين ليغيثوه، وندعو الله أن يستجيبوا
الى النداء، وألّا يذهب نداؤه أدراج الرياح". ويقرب الفرج، يا عالي بلا درج!

عذبتني هذه الخواطر وأنا بين العراقيين الذين أموا المؤتمر العالمي الذي عقد
في جامعة كمبردج في انكلترا، تحت عنوان "يهود الحضارة العربية، ١٩٤٨ -
٢٠٠٩"، برعاية سمو الأمير الحسن بن طلال وبدعم من المعهد الملكي لدراسة
العلاقات بين الأديان في عمان بالأردن الذي يترأسه، وقد أشرف على تنظيم هذا
المؤتمر بهمته العالية البروفيسور جريجور شواربُ السويسري الجنسية من قبل المركز
لدراسة العلاقات الإسلامية اليهودية، وبمشاركة رئيس معهد الدراسات الإسلامية في
جامعة كمبردج، العالم الفلسطيني أ.د. ياسر سليمان وأصله من مدينة نابلس، جبل
النار، بالضفة الغربية التي تقع تحت إدارة السلطة الفلسطينية برئاسة السيد محمود
عباس، أبو مازن.

ومع ذلك فقد عقد هذا المؤتمر الواعد وتكلل بنجاح كبير، وعجبنا لماذا لم يتطرق
أحد من المشاركين الى توتر العلاقات الإسرائيلية-الفلسطينية والمأساة المريعة
لحرب الرصاص المصوب، ولم يعكس صفو المؤتمر بمناقشات سياسية عقيمة، ولم
يتطرق أحد الى حكاية مقاطعة الأكاديميين البريطانيين للأكاديميين الإسرائيليين،
ولكن عندما استمعنا إلى خطاب سمو الأمير حول جهوده المباركة في تعزيز الحوار
بين الشعوب والأديان الهادف الى نشر المبادئ الإنسانية السامية في التكافؤ
والاحترام والتعددية وإلى التواصل مع الذات ومع الآخر للعمل الجاد على تحقيق

السلام ورأب الصدع بين أتباع الديانات والثقافات المختلفة في العالم، أدرنا السبب، وعلمنا لماذا وجد الجميع الترحاب من قبل الجامعيين البريطانيين بالمشاركين جميعا، وكأن الجامعيين البريطانيين لم يعلنوا مقاطعة الأكاديميين الإسرائيليين، وراحت على الأستاذ سامي حداد من "تلفزيون الجزيرة" جهوده حول مناقشة أبعاد هذه المقاطعة، بل على العكس، رأيت في هذا المؤتمر الود والإخاء بين اليهود والعرب والإسرائيليين والفلسطينيين والانكليز. والرجال على دين ملوكها.

برز في هذا المؤتمر العدد الكبير من المحاضرين والمستمعين من يهود العراق، بينهم اثنان من الأساتذة المتقاعدين الكهول ممن فازوا بجائزة إسرائيل، واثنان آخران من الطلبة الذين شرعوا في كتابة أطروحتهم لنيل درجة دكتوراه في الفلسفة في الجامعة العبرية، أحدهم غير اسمه عائلته من "عرب" لان آباءه كانوا يخرجون ببضاعتهم لبيعها على "العرب" في بوادي العراق إلى أسم جديد لعائلته العراقية "عبري"، واندمج في المجتمع الإسرائيلي اندماجا تاما. كما شارك في هذا المؤتمر صحفية من أصل عراقي هي راحيل شابي التي عاشت في إسرائيل ثم رحلت عنها يائسة مع عائلتها إلى لندن وهي فخورة بكتابها الذي تكشف فيه عورات إسرائيل "وظلمها لليهود الشرقيين!" فأثارت احتجاج مهاجري الخمسينات الملكية، ومهاجري السبعينات البعثية الصدامية من يهود العراق.

وقد أثار العدد الكبير من المحاضرين من يهود العراق والمشاركين فيه كمستمعين، غرابة عند الصحفي والكاتب الإسرائيلي العربي المعروف سيد قشوع (ولا أقول الفلسطيني لكي لا يخطئ القراء في هويته، ويظنون أنه من فلسطيني غزة أو الضفة، أو من معسكرات اللاجئين في باقي الدول العربية التي تحافظ على فلسطينيتهم بأمانة، ولا أقول من عرب ١٩٤٨ لكي لا أفتق جرحا ليس يلتئم، فهو يحمل هوية

وجواز سفر إسرائيلي، وبس). شعر سيد قشوع بالحرَج بين الأغلبية العراقية، وتساءل عن موقعه من الإعراب ولم يفهم سبب دعوته الى هذا المؤتمر الذي يناقش مستقبل "يهود الحضارة العربية" ومدى إمكانيتهم المساهمة في المستقبل في ميدان الأدب العربي الحديث كما فعل آباؤهم عندما ازدهرت جالياتهم في البلاد العربية، ولعله لم يدرك انه يمثل العربي الإسرائيلي المسلم الأول الذي تفرغ الى الكتابة باللغة العبرية في جريدة من أهم الجرائد الإسرائيلية، وانه مثال لاندماج الأقلية في ثقافة الأغلبية، شهادة على صدق عبد الرحمن ابن خلدون في نظريته في علم العمران، وانه يشبه في حينه أنور شأؤل الأديب العراقي في تبنيه اللغة العربية الفصحى وبحروف عربية في تحريره لمجلتي "المصباح" (١٩٢٤-١٩٢٧) ومجلة "الحاصد" (١٩٢٩-١٩٣٨) بعد تأسيس دولة العراق الحديث، والذي أصبح رمزا للمواطن العراقي المخلص لوطنه وللغة العربية الفصحى، ثم اضطر الى الهروب من جحيم الاضطهاد القومي الى الدولة التي رفض الالتحاق بها في الترحيلة الأولى عام ١٩٥١. نعم كان الكتاب النصارى والدروز في إسرائيل قد سبقوا سيد قشوع في كتابة أدبهم باللغة العبرية. وهذا نفس ما حدث في أسقية الأدباء النصارى واليهود في البلاد العربية إلى تطعيم الأدب العربي الحديث بالتيارات الأدبية الأوروبية، وإلى تبني يهود العراق في مطلع القرن العشرين اللغة العربية الفصحى وبحروف عربية واندماج المثقفين منهم بالحضارة العربية. فقد كانت مشاركة الكتاب المسلمين في تيارات التجديد تجعل هذه التيارات الحديثة المتأثرة بالغرب، جزءا لا يتجزأ من فنون الأدب العربي الحديث، وإلا بقيت هذه التيارات الأدبية، بدون مشاركة كبار الكتاب المسلمين، سمة من سمات أدب الأقليات في البلاد العربية.

ومع الأسف لم يستطع حضور هذا المؤتمر الدكتور محمود عباسي، وهو الأديب والمترجم والمسرحي ومؤسس ومدير مجلة "الشرق" الأدبية التي كان لها الفضل في نشر أدب يهود العراق وتشجيع أدبائهم، والتعريف بالأدب العبري الحديث بواسطة الترجمة الى العربية بين القراء العرب، وله الفضل في تعزيز العلاقات الأدبية والثقافية بين العرب واليهود في إسرائيل بعد توقف مجلة "المجتمع"، لميشيل حداد وتوقف الكتاب الشيوعيون من العراق عن المساهمة في مجلتي الاتحاد والجديد لانتقالهم الى الكتابة باللغة العبرية، فقرأت محاضراته بدلا عنه المحاضرة في فن الترجمة د. حنه عميت-كوخابي، التي حاضرت فيما بعد عن ترجمة الأدباء اليهود للأدب العربي الى اللغة العبرية. وحاضر الأستاذ يونتان مندل من جامعة كمبردج عن "وحدة المستعربين" في إسرائيل، كنموذج لتوظيف حاملي الحضارة العربية في أغراضها العسكرية. أما من الأدباء العرب الإسرائيليين فقد كان منهم الصحفي "المخضرم" (أي الذي عاصر فترة الانتداب البريطاني وقيام دولة إسرائيل)، عطا الله منصور وهو من أوائل الأدباء العرب من غير المسلمين الذين كتبوا باللغة العبرية في جريدة "هآرتس" وحاولوا الاندماج في المجتمع والثقافة الإسرائيلية. أما الأستاذ محمود كيال من جامعة تل أبيب فتحدث عن ترجمة الأدب العبري الى اللغة العربية وألقت الشاعرة نداء خوري مختارات من قصائدها العاطفية.

أما المحاضرون الآخرون، فقد شارك في إلقاء المحاضرات أستاذ واحد من أصل يميني (أ.د. يوسف طوبي)، وآخر من أصل مغربي (أ.د. عامي العاد بوسقيلا)، ولم يشارك فيه سوى مستمعة واحدة من أصل مصري عبرت عن خيبة أملها من قلة المشاركين من يهود مصر سابقا، أو من يهود سوريا والبنان.

نعم كان ليهود العراق، وخاصة من المستمعين الذين كان أغلبهم من مهجري صدام بعد حرب الستة أيام، حصة الأسد في هذا المؤتمر الفريد من نوعه وبرعاية شخصية ثقافية عالمية رفيعة، ألا وهي سمو الأمير العلامة الحسن بن طلال، الذي أشعرنا بمحاضرته ورسالته الإنسانية السامية حول الحوار بين الأديان والدعوة الى سلام عالمي بين الشعوب بأننا نعود الى عصر المأمون المنفتح على جميع الحضارات والأديان والفلسفات في العصر العباسي (ولنا عودة في الفصل القادم الى هذه المحاضرة الرائدة والنقاش الذي دار في هذا المؤتمر).

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٨،

تتمة لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في إنكلترا -٣-

الثلاثاء ١٩ يناير / كانون الثاني ٢٠١٠

افتتح مؤتمر كمبردج عن يهود الحضارة العربية المنعقد في ٢٢ حزيران (يونيو) ٢٠٠٩، برعاية سمو الأمير الحسن بن طلال، أستاذان لامعان هما البروفيسور جريجور شواربُ والبروفيسور ياسر سليمان من جامعة كمبردج بإنكلترا، اللذان استضافا المؤتمر وأشرفا عليه. تحدث الأول في كلمته الموجزة الحبلية بالأفكار عن يهود البلاد العربية الذين اتخذوا بحكم مواظبتهم الطويلة اللغة العربية أداة للتعبير عن ثقافتهم وآدابهم خلال خمسة عشر قرنا في ظل الحضارة العربية. ولكننا اليوم نشهد اضمحلال الثقافة اليهودية العربية واندثارها كلغة تعبير ادبية وثقافية، سوى لدى القليل منهم من الذين لا يزالون يشعرون "بسريراتها في عروقهم". وبعد مغادرة أنور شاول ومير بصري العراق في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، أسدل الستار على حلم مشاركة اليهود في الثقافة العربية في الشرق الأوسط. ولذلك جاء هذا المؤتمر ليحاول القاء الضوء على احتضار الثقافة العربية بين اليهود الذين نزحوا من البلاد العربية الى إسرائيل حيث واصل القليل منهم الابداع فيها وترجمة الكتب العربية الى لغة العربية وبالعكس، كما حاول هذا المؤتمر معرفة موقف الأدب العربي والأدب الفلسطيني خاصة من انفصال الثقافة اليهودية عن الحضارة العربية.

شارك في هذا المؤتمر الحافل كبار المتخصصين بالأدب العربي وألقيت المحاضرات ودار النقاش خلال ثلاثة أيام، القيتُ فيه محاضرة عن "الأدباء اليهود

النازحين من العراق والادباء العرب في اسرائيل" (أنظر الحلقة ٤٧)، فقد عاصرتُ ادب يهود البلاد العربية الحديث عامة والعراق خاصة وحاولت ان أدلى بنتيجة ابحاثي عن أدب اللغة العربية الفصحى في العراق، هذا الأدب الذي بزغ في مطلع القرن العشرين في بغداد بنشاط المحامي سلمان شينه وأنور شاول في مجلة "المصباح" (١٩٢٤-١٩٢٧) وأنور شاول في مجلته الأسبوعية "الحاصد". (١٩٢٩-١٩٣٨) وأنا آمل ان تصدر جامعة كمبردج المحاضرات التي القيت في المؤتمر، في كتاب، ولذلك فسأقصر حديثي هنا على معاصرتي لاحتضار أدب يهود العراق باللغة العربية الفصحى وكيف تندمج وتذوب لغات وثقافات الأقليات في ثقافة ولغة الأغلبية.

لا شك أن تعلق يهود البلاد العربية عامة ويهود العراق ومصر خاصة باللغة العربية راجع ليس لأن الدولتين كانتا تحت الحكم الإنكليزي، والإنكليز على نقيض الأفرنسيين لا يتدخلون في لغة وثقافة البلاد التي يستعمرونها، بل الى أن اللغة العربية الشاعرة كانت عندهم لغة الام ولغة الدولة في المدارس اليهودية. وما أن قامت الدولة العراقية الحديثة بعد جلوس الملك فيصل الأول على عرش العراق عام ١٩٢١، والحاجة الى مثقفين يحسنون اللغات العربية والأوروبية في اجهزة الدولة الحديثة، حتى أخذ اليهود يتعلمون اللغة العربية بدل العربية والتركية، وبرع فيها خريجي كلية الحقوق خاصة من الذين درسوا البلاغة والخطابة في مرافعاتهم.

واللغة العربية لغة شاعرية غنية، بل من اغنى لغات العالم بمفرداتها ومرادفاتها ودقت صرفها ونحوها، حتى رأت العرب أن الله شرف هذه اللغة الفريدة بتنزيل القرآن، ولعل اللغة الصينية أغنى منها بالمفردات ولكن لا توجد لغة في العالم تبلغ شأو اللغة العربية في رسم حروفها الفريدة في بابها والتي تشجع على التلاعب اللفظي بأنواع

البديع والمحسنات البلاغية كالجناس والطباق والمقابلة. لذلك تعلق العرب بلغتهم وفاخروا بها على الشعوب التي اخضعوها، واستطاعوا بواسطتها الشموخ على غيرهم من الاقوام الذين سبقوهم في ميدان الحضارة الفكرية والمادية، فأطلقوا على غير العرب كلمة "اعاجم" لعدم تمكنها من النطق بها النطق الصحيح. ثم فاض الفيض في العصر العباسي واخذ الشعراء وكتاب المقامات بعد ان تغلب التصوف الاسلامي على المنطق اليوناني والفلسفي في العالم الاسلامي، فعمدوا الى التجديد في فنون الشعر، لا عن طريق الفلسفة والحكمة والعلوم العقلية بل عن طريق الأدب والنظر الى شكل الكلمات والتلاعب الزخرفي بها، فنظموا في العصر الذي يطلقون عليه عصر الانحطاط، الابيات الشعرية مهتمين بالزخرف الذي يدل على براعة في الحفظ والترف الحضاري من جهة وعلى افلاس فكري من جهة أخرى، وقد بلغت المكاتب السلطانية في العصر العباسي اوجها من الزخرف اللفظي، حتى ان الرسائل اصبحت قريبة الشبه بالقصيدة بحيث تشبه ديباجتها النسب.

وعندما راجعت ما كتبه من ذكريات، لاحظت انني اصبحت اعمد الى فن من فنون الادب العربي المتأخرة وهو ما كان يعرف بحل الشعر، أو حل المنظوم، اي ان الاديب كان يعمد الى المفردات الشعرية في القصائد ويوظفها في النثر، وقد بدت مقدمتي لبعض ذكرياتي وخاصة رقم ٤٧ كأنها نسيب يسبق الموضوع الرئيسي ويمهد له، لما فيها من مفردات النسيب والغزل العباسي والموشح الاندلسي دون وعي مني. ولعل ما قمت به هو رد فعل لما ينشر في الصحف الالكترونية والمطبوعة العربية، وخاصة في الاسلوب الذي يتبعه بعض القراء في ردودهم وتعليقاتهم المليئة بالأخطاء الاملائية والنحوية على المقالات التي يدبجها يراع كبار أدباء اللغة العربية الفصحى، حتى ان المشرف على هذه الردود يعلق عليها احيانا بكلمة "غير مفهوم". وهكذا

اصبح الحاسوب اليوم من اهم اسباب تدهور اللغة العربية وضرب "مفاخر الصنعة" التي اهتم بها العقاد والمازني، في مطلع القرن الماضي، "عرض الحائط"، ثم تلاهم طه حسين بأسلوبه الفصيح الفخم الذي يعكس نقرات عصا البصير في شق طريقه في الزحام، واعترضوا على اهمال البلاغة، واتهموا الكتاب المجددين بانهم "يدقون عنق البلاغة العربية"، فخر العرب، وقالوا إن اهم اسباب هذا الاهمال هو الصحافة الحديثة وآلات الطباعة التي تستعجل المحررين ولا تبقي لهم مجالاً للتفكير بمفاخر الصنعة وروعة البلاغة العربية، وإن من البيان لسحرا حلالا.

ترى ماذا كانوا سيقولون اليوم عن اسلوب كتابة الانترنت الهزيلة الجافة، اسلوب لا نجد فيه لجماليات اللغة من أثر، حتى الشعر العربي، ديوان العرب ومصدر فخرهم ومستودع تاريخهم وحكمتهم، لم يعد له تلك المكانة السامية، بل اصبح الوزن والقافية من مخلفات الماضي، حتى اننا نجد بعض المجالات تزهد في نشر الشعر العمودي، أي الشعر المنظوم المقفى، الذي يقسم البيت الى صدر وعجز يعكس توالي الليل والنهار، كأنهم يأنفون من سماع إيقاع خطوات الجمال والجياد في الفيافي والطرقات، في زمن اختفت فيه الدواب ووقع اقدامها الرتيب الذي يقال انه املى على الشعراء أوزانهم العربية، واحتلت إيقاعَ خف الجمال وسنابك الخيل، عجلاث السيارات ومحركات الطائرات النفاثة التي لا نجد لها ايقاعا ونغما، بل ضوضاء وضجيجا. ويروي المؤرخون إن وراء كل محرث ظلله غصن الاندلس الرطيب أيام عز الحضارة العربية في الفردوس المفقود، كان يترنم شاعر او وشاح او زجال، أما اليوم فقد مرغوا البلاغة العربية في الأوحال.

ولكن ما هو سر تعلقنا نحن يهود العراق بهذه اللغة، أحقا لأنها لغة شاعرية؟ لغة الأم التي تعلمناها في مدارس العراق وبرنامجها الادبي الذي شارك فيه كبار الادباء من

مصر وسوريا ولبنان الى جانب فطاحل اللغة من العلماء العراقيين. ولكن ما ان بدأنا نشعر بالمساواة والفخر بمشاركتنا في الادب والثقافة في العراق، حتى جاءت القومية بتطرفها لتحل محل التسامح الديني، وضاعت جهود الملك فيصل في الوحدة الوطنية وذهبت ادراج الرياح قولته التي استعارها من سعد زغلول: "الدين لله والوطن للجميع".

شعرت بعد الهجرة من العراق بظماً طاغ لقراءة الكتب العربية، ولم تشف مني الغليل الكتب القليلة التي حملتها معها والدتي واعدنا قراءتها حتى بليت أوراقتها. سألت الاصدقاء، أين يمكن الحصول على كتب باللغة العربية؟ فقيل لي، في مكتبة السمهوري في يافا قرب العجمي. شعرت بالسرور لهذا النبأ، وما أن وصلتني المبالغ التي دفعتها لي جريدة "اليوم" التي كان يحررها المستشرق ميخائيل اساف و يقوم بتحرير زاوية الادب فيها الشاعر العراقي مراد ميخائيل، ومجلة "حقيقة الامر" الاسبوعية التي كان يحررها الاستاذياهو اغاسي من مواليد بغداد والاستاذ توفيق شמוש من مواليد حلب، عن مقطوعات الشعر المنتور التي نشرتها، حتى بادرت في يوم ١٤/٨/١٩٥٢ الى السفر من تل ابيب الى يافا حيث كان يسكن ابن خالي شاول بار- حايم مدير الاذاعة الاسرائيلية باللغة العربية في بيت كبير يحتل صالونه بيانو هائل الحجم بجناحه الجبارة كجناح العنقاء الاسحم. سألت ابن خالي، من اين هذا البيان، هل هو من أملاك العرب الغائبين، قال لا اشتريته من صديق يافي أفلس بمبلغ زهيد، إذ لم أستطع آخذ آلة العود التي كنت اهوها في هروبي من حبل المشنقة في العراق، فعزفت على البيان الأوربي. واليوم أدركت لماذا ترك كل من الأديب الكبير سامي ميخائيل والبروفيسور شمعون بلاص الكتابة باللغة العربية الى اللغة العبرية لرواج سوقها، فابدلا العود العربي بالبيان الغربي.

وفي اسرائيل اليوم يعوض بعض العراقيين من ابناء الطبقات العليا في المجتمع عن الفن الشرقي الذي لم يبق له ذلك السحر القديم بين الأبناء والاحفاد، بفن غربي اصح بعضهم من كبار موسيقييه وملحنيه، ولكن اين جس أوتار المثلث والمثاني وأنغامها الحزينة الحنونة من جس مفاتيح البيان الباردة وإن كانت من العاج، ونغمها العسكري الاستعماري الذي تسمع فيه اصداء المارشات الحربية. وفي مأدبة العشاء الفاخرة التي اقامها في فندق هيلتون في تل أبيب، صندوق تشجيع الثقافة والتعليم من تأسيس أغنياء يهود العراق في إسرائيل لجمع التبرعات برآسة السيد عزرا كباي ورجل الأعمال عوبيد بن عوزير. وكان من بين الطلاب الذين استعانوا بالمنح الدراسية لهذا الصندوق، الأستاذ في فن الموسيقى الأوروبية من أصل عراقي البروفيسور جيل شوحيط (من مواليد اسرائيل ١٩٧٣) الذي نبغ في العزف على البيان في سن السابعة من عمره، وأتم دراسته في روما ولحن ٩ سنفونيات و ٨ كونسرتات و ٣ اوبرات. وقد عزف على البيان في هذا الحفل سنفونياته التي خلبت الأبواب، وسحر الأسماع وادهشت الحاضرين، كما شاركت في الغناء مغنية الأوبرا العالمية التي درست في سويسرا وهي ابنة مرتل الألحان الدينية في كنيس بغدادي. وذلك بعدما كنا ندعو في القرن الماضي الفرقة التي كنا نسميها جالغي بغداد الى ترفيه يهود العراق في مثل هذه المناسبات. وهكذا تندمج الاقليات في لغات وثقافات وفنون الأغلبية في العالم لكي لا تندثر او تعيش في هامش الحياة الاجتماعية.

دخلت مكتبة السمهوري بلباس الجيش بعد تجنيدي، فإذا بشيخ قد أرخى لحيته البياض المهيبية، يرتدي دشداشة بياض وعرجين أبيض، جالسا على حصير في منتصف قاعة المكتبة وقد قرب الكتاب الى عينيه ليسجل العنوان. كنت فرحا مستبشرا برفوف الكتب العربية. سألت الشيخ بدون لباقة وبلهفة، "عمي! وين

صاحب المكتبة؟"، إلتفت الشيخ ونظر الى مليا بلباسي العسكري ليرى من يستهين بمنظره، فأكفهر وجهه كمن ينظر الى جابٍ مقيت من جباة الضرائب، ولعله شعر بالإهانة لهذا السؤال "الغشيم" الذي لا يرى فيه شخصية تليق بصاحب مكتبة مشهورة، وقال باستخفاف متعمد، "في مقعدي!". فوجئت بهذا الرد الفظ من كهل يفترض فيه الادب والوقار، قلت له، "يا شيخ شنو هل الحجي؟ مو عيب؟ جيت اشترى منك كتب عربية". فغرفاه ونظر الي مليا وسأل بدهشة، "بدك كتب عربية؟ وشو يعمل جندي اسرائيلي بالكتب العربية اليوم في فلسطين المحتلة؟" أجبتة، "أنا عراقي وأريد أشترى كتب عربية! أعاد النظر إليّ بريبة مرة أخرى، وإذا به ينفجر باكيا: "أخيرا الله حنّ عليّ وبعث لي واحد يشترى الكتب العربية، اشو طلع لي جندي إسرائيلي. والله يا عمي، ما بقى قيمة للكتب العربية، ضاعت اللغة العربية بهل بلد، هذه اللغة المباركة التي انزل الله عزّ وجلّ بها القرآن الكريم، هذه اللغة التي وسعت جميع العلوم والحضارات، لم يعد يقرأها أحد، ولم يعد يشترى كتبها أحد. لا يوجد من يشترى كتباً عربية اليوم، كلهم هربوا من يافا بالسفن والزوارق في الحرب السوداء الى لبنان وغزة. تقول انت عراقي؟ كنا نقول لقواد جيشكم، "ولكم هجموا على اليهود!!"، فكانوا يجيبون ببرود "ماكو أوامر، ماكو أوامر" وبين أكو وماكو راحت فلسطين يا ناس، راحت فلسطين!"، قالها وهو يصفق يدا بيد في يأس أليم، وهو يبكي ويعصر عينيه ثم يكفكف دموعه. وقفت مرتبكا، أنظر بحيرة الى هذا الشيخ الذي فقد كل شيء بين ليلة وضحاها، مثلي إنا الذي تركت كل شيء ورائي حاملا حقيبة من الصفيح اشتريتها من "سوق الصفاير" الذي راج سوقها في ايام الهجرة. فكرت كيف اواسيه، كالانا ضحية لصراع دموي مريع بين الدول الاستعمارية ومطامعها، وبين من يقول "بالعودة الى الديار المقدسة بحق إلهي ووعد صريح، وبين من يقول بان هذه الارض فتحت عنوة وهي وقف اسلامي لا يمكن ان يباع أو

يشترى، فقد حق الجهاد وحق الفداء، ويجب طرد الغزاة الذين جاءوا من أطراف المعمورة، بصليل السيوف بعد ان جاوزوا المدى في اطماعهم بسلب الارض وتدنيسها". قلت له بصوت مواس وانا شاب في مقتبل العمر لشيخ في أرذل العمر أصبح اهله لاجئين في خيام المعسكرات في اراضي الدول العربية الشقيقة التي آوتهم، وأنا لاجئ في خيام نصبت على عجل قرب بيارات البرتقال الحزين التي تركوها تنعى أهلها، محاطة بإسوار الصبار، أنام على حشية من الاعشاب اليابسة، وسرير حديدي وغطاء من بطانيات مخلفات الجيش البريطاني المغادر. بحثت عن فكرة منطقية لمواساته في النكبة التي حلت بهم وبناء، ولكن كل فكرة تدلي بها في هذا الموقف الحرج، عن التاريخ والوعد الإلهي والفتوحات، وعن نكبة يهود أوروبا، والمطامع الأوروبية تبدو واهية كخيوط العنكبوت. كل ما تستطيع فعله في هذا الموقف، هو الرجوع الى ما حفظته الذاكرة عن حكمة الآباء والاجداد عندما يفشل العقل في تحليل المصائب والنوازل، فلم اتمالك ان أقول له مواسياً نفسي ومواساته: "يا عمي، هذا قضاء الله وقدره، ولا راد لقضاء الله!" كفّ عن البكاء فجأة وجعل يتأمل فيما قلته، وقال بخشوع. "نعم، نعم! صدقت يا عمي، هذا عقاب الله لنا على تركنا اركان ديننا ولحقانا بركب حضارة الكفار". دفعت له ثمن الكتب وأكثر لأطيب خاطره، بقلب كسير على ما حل بي من حيف وألم انتزاع الجذور، وبه في مأساة البقاء في وطنك غريبا.

ترى ماذا كان سيحدث لو لم تبادر قادة الدول العربية السبع بجيوشها لوأد الدولة الوليدة في الساعات الأولى من قيامها، ظنا منها انها ستذهب في نزهة سبي وغنائم؟ فقد كان المجاهدون العراقيون في سبيل انقاذ فلسطين، كما ذكر المحامي مشير معلم

في كتابه "في طريقي إلى المعتقل" (القدس، ١٩٨٣)، يؤكدون لأقربائهم انهم سيحبون لهم من سبي اليهوديات حسب المواصفات التي طلبوها منهم.

ما زلت محتفظا بهذه الكتب الأولى بحرص المتمسك ببقايا جذوره التي استأصلتها الأحداث ولم تستطع الحد من تعلقي باللغة العربية، تسعدني قراءتها وتهفو الروح الى الكتابة بها، ولكن معظم أبناء الجيل الجديد لا يتكلمون العربية ولا يقرأونها، وينظرون إلى الصراع الدموي الديني والطائفي في البلاد العربية بدهشة ولا يفهمون معنى هذه الأحداث والقتل والمفخخات وهدم المساجد، ويتساءلون كيف استطعت الصمود في مثل هذه الأجواء في البلاد العربية؟؟

بقيت اللغة العربية اليهودية الدارجة محصورة في التجمعات الشرقية في مدن اسرائيل وغالبا بين طبقة العمال والفقراء الذين يشاركون العرب في تجارتهم واعمالهم. أما المثقفون العرب من خريجي الجامعات الإسرائيلية فيتكلمون اللغة العربية بصورة اصح من اليهود الغربيين، ويخلطون كلامهم بمصطلحات عبرية تتعلق بدوائر الرفاه الاجتماعي والصحي التي يتمتعون بها، وينقل اليهود منهم التعابير العربية الفلسطينية التي تتسلل بسرعة الى اللغة العربية الدارجة، ولم يستطع مجمع اللغة العربية صد تيار الحياة العملية المتدفق.

والعرب في اسرائيل لا يرغبون في قراءة أدب يهود من العراق، أدب الذكريات عن وطن موجود- مفقود لفظهم، ولا سيما أن معظم الكتاب النازحين من العراق رحلوا عن هذه الحياة الفانية الى الباقية، والبقية في حياتنا وحياتكم. فأدب يهود الشرق هو ادب يجتر الماضي، أما عرب اسرائيل فمشغولون بهمومهم اليومية والسياسية، فهم ضحية الصراع اليهودي العربي، اقلية في أرض ولدوا فيها، محاطين ببحر من الدول والشعوب العربية التي ينتمون اليها دينا وقومية، ومن جهة اخرى، يعيشون في

دولة ديمقراطية تحاكم رئيس الدولة ورئيس الوزراء إذا خرقوا القانون، تتيح لهم حرية الفكر والتعبير والعبادة، متميزين بين الولاء للعرب وبين الولاء للدولة التي تقدم لهم رفاه المجتمعات الغربية، ولم يعد بينهم وبين اليهود النازحين من الدول العربية خاصة، ومواليد البلاد من اليهود عامة، سوى حفنة من المثقفين والسياسيين ممن يتعاطفون معهم ومع تمزقهم القومي، ويحاولون دمجهم فيها، والعربي في إسرائيل يحتج قائلاً، كيف تريدني أن أقف لنشيد وطني إسرائيلي لا يعبر عن آمالنا، وكيف نحتفل بعيد استقلال وقعت فيه نكبتنا؟ أما أبناء اليهود النازحين من البلاد العربية فيقولون، كيف يمكن العيش في دولة يقتل فيها المواطنون بعضهم بعضاً، استشرى فيها الفساد ويجبرون الأقليات على الفرار من ديارهم للحفاظ على حياتهم وشرفهم وللحصول على لقمة عيش كريمة خارج وطنهم؟

يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٤٩

تتمة لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في إنكلترا -٤-

الخميس ١ أبريل / نيسان ٢٠١٠



صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، ضمير أمة ولسانها الفصيح

عندما دعيت للمشاركة في المؤتمر العالمي المنعقد في جامعة كمبريدج يوم ٢٢ حزيران يونيو ٢٠٠٩ حول "يهود الثقافة العربية، ١٩٤٨-٢٠٠٩"، برعاية صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ودعم من المعهد الملكي للدراسات الدينية الذي أسسه سموه في عمان سنة ١٩٩٤ حول حوار الأديان للتقريب بين أتباع الديانات والتوفيق بين شتى المذاهب، (وذلك قبل أن أعرف على آرائه من خلال كتابه الشامل الوافي "الأعمال الفكرية" المجلد الأول، ٢٠٠٧)، خطر ببالي تعليق المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٣-١٨٢٥) على منشور نابليون الذي

وزعه على المصريين (١٧٩٨) يشرح فيها اسباب غزوته لمصر ومنها تحرير المصريين من ظلم المماليك تحت شعار الثورة الفرنسية، "حرية، عدالة، مساواة". كانت هذه الغزوة اول احتكاك بين الشرق والغرب بعد الحروب الصليبية (١٢٩١)، وكان تعليق الجبرتي العالم الأزهري الخلوئي خير مثال لحوار بين عالم فقيه والمبادئ التي اعتنقتها فيما بعد الدول الأوروبية، فقد انكر المساواة، لان الله فضل بعض الناس على بعض ورفعهم درجات، والأديان تقيد حرية التصرف، ولا يجوز خرق قواعد الدين بتحسين العقل، أما العدالة فهي تطبيق أحكام الشريعة، وهؤلاء لا يتمسكون من الأديان بدين، ولكنه استدرك بعد أن خبر الافرنسيين بانهم مولعون بطلب العلم وبالعدل بالرغم من انهم بجحدون الرسالة ويرفضون الأقوال والافعال الشرعية المعلومة في الدين.

ومثل هذا يحدث في مراحل حرجة من تاريخ الدول والشعوب في أثناء احتكاك الحضارات المحافظة بحضارات اخرى أكثر ديناميكية. حدث هذا كما قلنا، عند احتلال نابليون مصر عام ١٧٩٨، ثم عند تولي محمد علي مصر في ١٨٠٥. ومنذ ذلك الوقت ساد الشعور في الامبراطورية العثمانية بين حكامها وعلمائها ومثقفها بوجوب إحداث تغيير جذري للخروج من مرحلة الجمود الى مرحلة النهضة، عند ذاك بدأت مرحلة الصراع بين القديم الذي يرى في التجديد بدعة، وبين الحديث الذي يسعى للإصلاح والتغيير المقتبس من حضارة اخرى متجددة. وعند ذاك وقفت محافل وجهات محافظة في تركيا ومصر، ضد التغيير بحجة المحافظة على الدين والتقاليد والتراث، والإيمان بانه ليس بالإمكان أحسن مما كان. أما المجددون فقد حاولوا الوصول الى طريق جديد ملائم لجذور حضارتهم التاريخية والدينية والثقافية لمواجهة تحديات الحضارة الأوروبية وأطماعها.

وفي المجتمعات المحافظة حيث يسود الشعور بتفوق اتباع كل دين على الآخر، يحاول العلماء التوفيق بين القديم والحديث بالاستناد الى العلوم النقلية عن طريق الفتاوى والاجماع والمصلحة والاجتهاد، لأن الشرائع الدينية مُنَزَّلة، ثابتة لا تتغير ألا في نطاق أحكام الشريعة التي تنظم حياة المؤمن لسعادته وللغور بالآخرة التي هي خير وأبقى. وبالرغم من أن علماء الدين المجددين أصابوا نجاحا جزئيا في التجديد، غير أنهم لم يستطيعوا احداث النهضة التي كانوا يحملون بها، وذلك لمركزية الدين الذي يضع شرائع الله الخالق فوق الكون ويفضل الآخرة على الحياة الدنيا المادية. وهذا ما تدعو اليه عنوة موجة التطرف الديني في الفترة الاخيرة، بينما يحاول المجددون العلمانيون تجاوز هذه المرحلة بثورتهم على القديم بتحسين العقل والفصل بين الدين والدولة، ويرون أن لا حدود أمام العقل والعلم الحديث من حيث التطور والتجديد، فهما يهتمان بمصلحة الفرد والمجتمع في الحياة الدنيا، ويقدمان حياة الانسان ويسعيان الى رفاهيته، فالإنسان هو مركز الكون وكل شيء يسخر لمصلحته دون الالتفات الى حساب الآخرة. فيبدأ التجديد بالسعي الى بلوغ المرحلة التي بلغت الحضارة العلمانية الحديثة، وهذا ما حصل في مرحلة الصراع بين الشرق والغرب والدين والدولة في تركيا تحت قيادة اتاتورك.

وقد لاحظت من خلال دراستي لتاريخ الثقافة والادب أن هناك ديناميكية حضارية تؤدي الى التطور والتنوير، يقابلها ديناميكية الجمود تحت حكم السلطان الجائر، وقد رأى العلماء، ان هناك صنفين من الحكام، الامام العادل، وهو الذي يتبع احكام الكتاب والسنة لصالح المؤمنين والمجتمع في الدنيا والآخرة. ويحكم بالعدل، وهو ميزة يجب ان يتميز بها الملوك وولاة الامور لرفاه الرعية والمملكة، أما الإمام الجائر فهو الظالم الذي يحكم بهواه عن جهل، ويظلم الرعية ويبتز اموالها ويسوقها لتحقيق

اطماعه الى أن تقوده الى الهلاك، وقال بعض العلماء بجواز الثورة على مثل هذا الإمام الجائر. ولأهمية العدل قالت العلماء: "المُلْكُ يبقى على الكفر والعدل، ولا يبقى على الجور والايمان". والأديان تأمر وتنهى ولها مقدسات لا يجوز تجاوزها وهي تعرف كل شيء عن خير الانسان في الدنيا والآخرة، أما في العلم الحديث فلا يوجد مقدسات والبحث العلمي مباح في كل موضوع وعن كل شيء، ويتيح للإنسان حرية التفكير والاختبار والاختيار.

أما في مضمار الثقافة والأدب العربي الحديث فقد رأى المنظرون والأدباء والشعراء المجددون خاصة أن لا مجال للتلفيق والتوفيق بين القديم والحديث وأن من الأولى رؤية الحدائث كمشاركة في العلوم والثقافة والأدب العالمي الحديث من المرحلة التي بلغت هذه العلوم في العالم اليوم. هذا ما دعا اليه الاديب نجيب محفوظ في روايته الرائدة "أولاد حارتنا" والمفكر الكبير أنيس منصور في كتبه العديدة التي دعا فيها الى العولمة والمشاركة في العلوم الحديثة وغيرهما من كبار المثقفين العرب، وكان هذا موقف الشاعر الكبير بدر شاكر السياب في حركة "الشعر الحر" ومجلة "شعر" ومدرسة "قصيدة النثر" بريادة أدونيس وموقف مجلة "إيلاف" المشجعة لحرية الفكر والتعبير والديموقراطية لمحررها عثمان العمير ومحرر زاوية "ثقافات" و"كُتاب اليوم" فيها، الشاعر عبد القادر الجنابي وموقفه من السريالية.

راودتني هذه الأفكار عند مشاركتي في مؤتمر كمبريدج عن "يهود الحضارة العربية" (٢٢ حزيران / يونيو، ٢٠٠٩)، برعاية صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال وعقيلته الأميرة ثروت الحسن، واستماعي الى خطاب سموه وهو المفكر الرائد والمثقف الباحث المجدد حول حوار الأديان والثقافات. أدركت مع المشاركين في المؤتمر بأننا أمام مفكر نبيه تتشوف إليه آمال شعوب العالم عامة ومنطقة الشرق

الأوسط وشمال افريقيا خاصة للتوصل الى سلام شامل عن طريق البحث العلمي والتكنولوجيا الحديثة ودراسة مشاكل المنطقة بصورة موضوعية وجذرية بالمشاركة في الندوات والمؤتمرات الفكرية والاقتصادية العالمية. فقد وجدت نفسي أمام شخصية تختلف اختلافا كبيرا عن الزعماء الذين شاهدتهم وسمعتهم وقرأت لهم وعنهم، فهو ذو منهج فكري واضح واطلاع واسع على العلوم الحديثة ومعرفة باللغات الاوروبية والشرقية ودراسات علمية في ارقى الجامعات في العالم ومؤلفات عميقة مدعومة بالوثائق والمقالات والكتب العلمية والمنطق السليم، والا هم من ذلك كله، أصالة في التفكير ونظريات انسانية مبشرة بالسلام والتعاون بين الشعوب والتسامح والاعتدال وحوار الاديان والحضارات والوقوف على اسباب التخلف والفقر والبيئة والمياه والتطرف والإرهاب للتوصل الى حل وسط لخير الجميع والتعاون بين علماء الشرق والغرب والمبادرة الى تشكيل لجان ومؤتمرات يشارك فيها كبار العلماء في العالم لحل المشكلات والمخاطر التي تواجه الإنسانية. فهو يرى ان العلم الحديث والتكنولوجيا والحوار والتعاون بين الشعوب هي الطرق القويمة والسبيل الى خير الانسانية ومستقبل الأجيال القادمة. وكتاب سموه "الأعمال الفكرية"، المجلد الأول (٢٠٠٧)، في ٧٤٤ صفحة، هو خير دليل على ما نقول.

وعليه فقد كانت مراسيم الاستقبال مختلفة عما عهدناها في مثل هذه المؤتمرات، فقد حضر سموه مع عقيلته الاميرة ثروت الحسن في الوقت المعين، وعجبت عند لقائي به لدقته في المحافظة على المواعيد، وقوة الذاكرة والثقة بالنفس واستقباله للضيوف بحفاوة وبترحاب أبوي عربي اصيل وبشاشة وتواضع نادري المثال. فقد شرعا يتعرفان على المدعويين ويصافحانهم بكل حرية وود. كنت قد سمعت عن سموه وأخلاقه الكريمة ودراساته اللغة العبرية والفكر اليهودي من صديقي البروفيسور فيليب

ألكسندر من جامعة مانشستر عندما كان في عام ١٩٩٢ رئيساً "المركز أكسفورد للغة العبرية والدراسات اليهودية" الواقع في ضاحية يارنتون باكسفورد. تحدث الأستاذ ألكسندر عن نبوغ الأمير وثقافته الواسعة وإطلاعه الكبير على العلوم الحديثة وتفوقه في دراسة العلوم السياسية والاقتصادية وفي اللغات الغربية والشرقية كاللغة العبرية، وكيف اعتزته الدهشة المشوبة بالرهبة عندما أخبرته سكرتيرة المركز ان ولي العهد الأردني (آنذاك)، سمو الامير الملكي الحسن بن طلال يطلب مكالمته هاتفياً. أما هنا فلا رهبة ولا ارتباك ولا حرس يحيط بسموه ولا آلات فحص الكترونية للكشف عن السلاح والمتفجرات وبدون خلع احذية واحزمة، بل الكل مطمئن مستبشر بقدومهما في باحة كلية ويستكوت هاوس.

كان سموهما محاطين بجمع غفير من كبار أساتذة جامعة كمبريدج ومن الدبلوماسيين من سفراء الأردن وغيرها من الدول العربية والاسلامية والعلماء والمحاضرين المشاركين في المؤتمر والمدعوين من جميع اطراف المملكة المتحدة وأوروبا واسرائيل، وعرفت بينهم الكثير من العراقيين من مسلمين ومسيحيين ويهود من اللاجئين الى انكلترا قدموا من لندن ومانشستر وغيرهما من المدن البريطانية، وكان من ابرزهم السيدة تامارا الداغستاني بقامتها الارستقراطية السامقة ولهجتها البغدادية واللواء السابق في الجيش العراقي الطبيب د. غازي الجميل بلهجته الموصلية، ومن اليهود الهاربين من العراق تعرفت على زعمائهم، ادوين شكر وداود ساسون ود. شاؤول اسحافي ود. منشي طحان وزوجته الدكتورة إيلا نة حاملة وسام الإمبراطورية البريطانية، والكاتبة راحيل شابي، وغيرهم ممن قدم من المدن البريطانية للمشاركة في المؤتمر والاحتفاء بسموه بصورة فريدة. لم أستطع التخلص من الشعور بان هؤلاء العراقيين جاؤا للقاء خاص يحدوهم الحنين الى ماضيهم، لقاء يرى في سموه الهاشمي

رمزا وطنيا عاطفيا يشير الى تعلقهم بالعهد الملكي الهاشمي في العراق وحينهم اليه، الى عهد الوفاق والسلام والأمن.

وعندما تلتقي بشخصية سياسية أو علمية أو دينية عالمية، لا بد وان تتبادر الى الذهن شخصيات اخرى تستعرض نفسها للمقارنة. هنا لم يرتد سموه لا عباءة بدوية من وبر الجمال ليؤكد عرويته واسلاميته، ولم ينصب له خيمة ليؤكد انتماءه واعتزازه بعرويته البدوية، وقارنتُ بين الاميرة عقيلته وبين سيدات من زوجات رؤساء الوزراء اللواتي يتعلقن بأزواجهن في حلهم وترحالهم وعلى شفاههن ابتسامة كبرياء فخورة، ابتسامة يسميها العراقيون ابتسامة "شوفوني يا ناس". فكل شيء في الاميرة يدل على الحشمة والبساطة والتواضع وهي خصال حميدة متعارف عليها عند العائلات المالكة والطبقات العليا. وتذكرتُ كيف أنني عندما دعيت في حفل عيد الاستقلال لاستلام جائزة الدولة عام ١٩٩٩ في أورشليم-القدس، وكان واقفا أمام منصة الشرف كل من رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير الثقافة والتعليم ورئيس المحكمة العليا والسيد اهود أولمرت رئيس بلدية العاصمة آنذاك، ابتسم لي الجميع سوى رئيس الوزراء، فقد صافحني بوجه صارم دون ان تشوبه مشاعر اعجاب أو تشجيع. قلت لآخي ريموند: "كان رئيس الوزراء شاردا بفكره نحو معركة الانتخابات القادمة ولم يبتسم"، أجبني وهو الفيزيائي الذي لا يكثرث بالعواطف قائلا: "لا أظن ذلك! فرئيس الوزراء هو من دهاة رجال الاقتصاد والسياسة، لكن لو كنت قد نلتَ الجائزة لتفوقك في العلوم الاقتصادية والسياسية أو لو كنت من لاعبي كرة القدم، لابتسم لك!!".

كان سموه يستقبل جمهور المحققين المحيطين به بتعاطف أبوي، ولا ادري لماذا تبادرت الى ذهني أبيات للشاعر المتنبي، عبقرى الشعر العربي العباسي وقوله يمدح الامير سيف الدولة الحمداني الذي دوخ الروم بحروبه، حين قال مخاطبا ممدوحه

في زمن كانت الدنيا مقسمة فيه الى دارين، دار الاسلام ودار الحرب، ومفاخرا بانتصارات أميره وبطولاته:

تَمَرَّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً ووجهك وضاحٌ وثغرُك باسمُ

أما سموه، فيقف بين العلماء والدبلوماسيين والمشاركين في المؤتمر ليدعو الى السلام وحوار الأديان والتسامح وحل مشاكل الانسانية عن طريق العلوم والتضامن العالمي، لا الحروب والعنف والموت العبيثي، بل دفاعا عن قدسية الحياة، لذلك همست لنفسي مخاطبا سموه ومعارضنا بيت المتنبي:

تحيط بك "الأضيافُ" جدلي سعيدةً "ووجهك وضاحٌ وثغرُك باسمُ"

وكان من الأولى أن أقول: تحيط بك "العلماء"، بدل "الأضيافُ"، لمطابقتها للواقع، ولكنني أدركت أنني محتاج في هذه الحالة الى ضرورة شعرية لم استجبها هنا، وهي تسكين حرف اللام المتحرك في كلمة "العلماء". أما كلمة "الأبطال" الموسيقية في بيت المتنبي، فإنها تضيء على البيت عظمة شوكة الإسلام في تلك العصور، عندما كان "الجهاد الأصغر" هو الطريقة المثلى في الصراع بين الأديان والحضارات، وحمدت الله بأنني اهمس هذا البيت لنفسي لا لسموه أمام الجميع.

والعجيب أنني لست الوحيد الذي وجد صلة بين سمو الأمير الحسن والشاعر المتنبي الكوفي. نشر الشاعر د. جبار جمال الدين من جامعة الكوفة قصيدة "أمير الفكر" في ٢٢/١٠/٢٠٠٩ في موقع جريدة "الأخبار" الإلكترونية لمحررها الاستاذ نوري علي بعد قراءته لذكرياتي (رقم ٤٦-٤٨) عن مؤتمر كمبريدج المنشورة في مجلة "إيلاف" الغراء. وفي هذه القصيدة أشاد الشاعر بأراء سمو الأمير الحسن الانسانية، فوجدتُ أن ستة من بين ٢٠ من المعلقين تبادر الى أذهانهم الأمير سيف الدولة

وشاعره المتنبي، وقارن بين سمو الأمير الحسن ود. جبار جمال الدين شاعر الكوفة. ففي تعليق د. عبد الجبار السعيد بعنوان "من المتنبي الى جبار جمال الدين" نجد أنه أدرك بحدسه المرهف هذا التشابه، وشاركه الرأي كل من الأدبية دلال الخالدي ونوال البارودي ود. صباح العريض ود. ضياء العاني والاستاذ حسنين شمران الطفيلي. وها هي الادبية دلال الخالدي تقول: "حين قرأت هذه القصيدة الرائعة شعرت اني في مجلس من مجالس الامير سيف الدولة الحمداني وعصورنا الذهبية، والمتنبي ينشده الشعر. الامير الحمداني والامير الحسن كلاهما من امراء الفكر". أذكر هذا التشابه لكي اضع بين يدي القراء نموذجا آخر على توارد الخواطر بين المفكرين والعلماء في ظروف ثقافية متشابهة.

شجعتني بشاشة سمو الامير وترحابه بالجميع على تقديم نفسي الى سموه وتحيته باسم "رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق". تقدمت منه بخطى مترددة، إذ تذكرت حديث البروفيسور فيليب ألكسندر والرهبنة التي اصابتها من هيبية الحديث مع سموه. فسمو الأمير من كبار العلماء ولعله الوحيد بين الزعماء العرب والمسلمين من الذين درسوا الفكر اليهودي واللغة العبرية وآدابها، وتبحروا في العلوم اللاهوتية والفلسفية والسياسية والاقتصادية في العصر الحديث، ومثل هؤلاء العلماء معروفون بالتواضع ودماثة الأخلاق. تقدمت نحو سموه وقد شجعتني ترحابه وبشاشته للمحتفين به، وقلت لسموه مصادفا: "استاذ الأدب العربي الحديث في الجامعة العبرية ورئيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق!" لم أدر ما الذي أسقط الحواجز الرسمية بيننا بمثل هذه السرعة؟ هل هو اللقب الجامعي أم جملة "يهود العراق" موضوع المؤتمر؟ فما كان من سموه إلا ان احتضنني كمن يلاقي اخا عزيزا له افتقده منذ سنين طويلة. أثارتنى هذه الحفاوة وهزتنى من الأعماق، فسموه من أقرباء ملك العراق

المرحوم فيصل الثاني الذي احببناه والذي كان يكبر المغفور له الملك الحسين بن طلال بسنة واحدة و-١٢ عاما على ولادة سموه حفظه الله. سألت نفسي، هل أثار اهتمام سموه ذكر اسم "العراق" الذي كان جلالة الملك فيصل الأول من أعمامه؟ هذا الملك الذي انتشل العراق في فترة قصيرة ونقله من الجمود العثماني الى مصاف الدول البرلمانية الناهضة؟ أم اسم "رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق"؟

أما انا فقد أعادني هذا اللقاء الحار في لحظة خاطفة الى العهد الملكي وذكريات الطفولة في العراق، الى ملكنا اليتيم المفدى فيصل الثاني. تذكرت كيف نادتنى ربيبة الملكة عالية (واسمها فريدة على ما اتذكر) وهي احدى ست يتيمات ربتهن العائلة المالكة رحمة بهن، والتمست من المعلمة خروجي من الصف بطلب من الست فاطمة للاشتراك في اعداد هدية لجلالته في عيد ميلاده قائلة: "صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني المعظم سيشرّف مدرستنا بعد قليل وعلينا تقديم هدية له"، ثم أردفت: "تقول الست فاطمة إن سامي يحسن صنع الجمال من الطين الحر، وهي ترغب في تقديم هدية له بمناسبة عيد ميلاد جلالته على صورة واحدة من الجمال والخيول والخيام حول بئر ماء". تذكرت الفتاة اليتيمة السمراء بقامتها الطويلة وباقي اخواتها اللواتي كن يدرسن معنا في مدرسة السعدون تقلهن سيارة البلاط الملكي كل صباح للدراسة معنا، وكانت فريدة تهوى مداعبتي بأن تلوح بكفها أمام عيني لترى كيف كانت تخفق جفوني دون إرادة مني وتضحك من اعماق قلبها. ثم قرأت عنها فيما بعد انها كانت مع الملك الشهيد وعبد الإله والحاشية صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ المشؤوم حينما هاجم الجيش قصر الرحاب، وكيف خرجت العائلة المالكة وفي مقدمتها الملكة نفيسة والدة عبد الإله. فلما رأّت رجال الجيش يسددون السلاح الى صدورهم، أيقنت جدته الملكة نفيسة خطورة الموقف، وحاولت انقاذ

حياة حفيدها الملك الشاب الوحيد من الموت ووضعت القرآن الكريم على رأسه لتحميه من الحقد الأسود الذي اندلع من عيون شريرة تقدح شررا كقوهة الرشاشات التي حملها المهاجمون في مذبحه قصر الرحاب مطلقيين رصاصات الغدر على العائلة المالكة المسالمة. نعم، أطلقوا النار بالرغم من أن الأمير عبد الإله فضل الاستسلام حقنا للدماء ووافق على تنازل الملك الشاب عن العرش ومغادرة العراق، ولكن هيهات! لم يخش المتوردون احفاد حاصبي الحجاج ناكثي دعوتهم للحسين في كربلاء، من المساس بحرمه القرآن الكريم الذي انزل على جده النبي الكريم، ولم يتذكروا أن الله يُمهّل ولا يُهمل، فصدر الأمر المريع بأطلاق رصاص الغدر، فاستباحوا حرمة آل البيت، كما استباح الأمويون حرمة الحسين الذيح وآله وكونه حبيب الرسول وحفيده سيد شباب الجنة في وقعة كربلاء الدامية. والى اليوم يحز في نفسي قول القتال الأثيم عبد الستار العبوسي الذي أطلق النار على سليل آل البيت بقوله مفاخرا: "اطلقت النار وهوى الجميع كالسعة الساقطة"، فكان جزاء هذا المجرم الأثيم الجنون والانتحار. ومرة أخرى، يقتل الثوار والمتوردون ملكهم غدرا فيدفعهم تأنيب الضمير الى الانتحار ويدفع باقي المتآمرين الثمن بأن يقتل بعضهم البعض فيما بعد، والثورات تأكل أبناءها، كما حدث في كثير من الثورات وبرزها الثورة الفرنسية. هل هذا انتقام لدني؟ وإذا كان كذلك فلماذا اتاح جيش الرحمن فرصة لجيش الشيطان؟ أم ان الامر كما كان اليونان يقولون، إن الأقدار تعبت بمصائر البشر، كما يعبت القط بالفار الذي يقع بين مخالبه وأنيابه وليمة سائغة.

سمعنا عن كل هذه الأحداث الدامية بعد هجرتنا، وبكينا شباب هذا الملك الشاب المحبوب والبريء الذي أُخذَ بجريرة غيره. قالت والدتي وهي تبكي شبابه الغض: "ملك شاب في مقتبل العمر لم يهنأ في حياته منذ ان تيتم، يقتل وهو في عز شبابه

وفرحة خطوبته، فيكون دمه الزكي في تلك الليلة خضابه بدل ليلة الحناء، آه يا ولدي، أَلف رحمة على روحك الطاهرة!".

وليهود العراق ذكرى عطرة مع أخلاق جلالته السامية منذ نعومة أظفاره. حدثني الصديق لطيف الياس الذي قام بالدور الرئيسي في تمثيلية "يأس ورجاء" من تأليف أخيه نوري منشي استاذ الحساب والجبر في مدرسة فرنك عيني في بغداد ونظم اناشيدها مدرس اللغة العربية فيها محمد حسن الصوري، قال: قمت بالدور الرئيسي في مسرحية "يأس ورجاء" التي مثلت على مسرح قاعة الملك فيصل الثاني في سنة ١٩٤٣ برعاية الملك المفدى، لمنفعة "جمعية حماية الأطفال" التي كان رئيسا لها. أعجب جلالته بتمثيل الفتى لطيف الياس وبغنائه، ودعاه جلالته الى مقصورتة وهنأه على نجاحه في هذه الاوبريته ثم دعاه لزيارته في قصر الزهور لمشاهدة بعض الأفلام معه، وارسل سيارته وسائقه والمرافق لجلالته ليأتي بالمثل والمغني الموهوب واجلسه الى جواره في إحدى قاعات القصر لمشاهدة الافلام السينمائية سوية. فأى تواضع وأية مساواة رائعة وأي تقدير للمواهب الفنية تمتع بها هذا الملك الطفل الذي لو كان اليوم حيا يرزق لكان في عمر يقارب عمر المغفور له جلالته الملك الحسين الأخ الأكبر لسمو الامير الحسن حفظه الله ورعاه.

وفي ١٤ تموز، ١٩٥٨ كان حمام الدم الغادر في قصر الرحاب ثم السحل والتعليق على اعمدة الكهرباء في الشوارع، وانطلقت شياطين الحقد الاسود من القمم الذي انفجرت سدادته. أعمى الحقد الأسود بصيرة الانقلابيين، ولم تكن حدة طباع هؤلاء العسكريين العراقيين تتيح لهم التروي والمحافظة على طهارة السلاح وعلى برودة اعصابهم أو كرامة العائلة المالكة الهاشمية أو احترام الاعراف الدينية والأخلاقية، من احترام آل البيت النبوي وعدم المس بالنساء والشرف العسكري يحضر اغتيال

من يرفع علما ابيض، ناهيك عن رفع القرآن الكريم. قال لي اللواء غازي الجميل: "لم يبق عرف مقدس لم يندسوه. دنسوا سلاحهم، وشرفهم ولم يحافظوا على طهارته". وتذكرت كيف حافظ الضباط المصريون الأحرار على طهارة سلاحهم وشرفهم العسكري بضبط النفس والتروي واحترام العائلة المالكة. كان موقف الضباط المصريين الأحرار مشرفا نبيلًا حافظوا فيه على كرامتهم وكرامة ملكهم وبلادهم، فأرسلوا الملك فاروق وعائلته المالكة المعزولة على يخته حرا طليقا مع تحية عسكرية مشرفة تشرف كل نائر يحترم نفسه ورموز بلاده وتاريخه، والعفو عند المقدرة من انبل الصفات، وستبقى مكرمتهم هذه بقاء الأهرام خالدة في التاريخ الحديث.

استيقظت من سرحة ذكريات الطفولة عندما انطلقنا الى قاعة الطعام والوليمة التي اولمها سموه للمشاركين في المؤتمر. كان أمام كل كرسي اسم الشخص المدعو وكان مكان جلوسي على المائدة الرئيسية، ولما مر سموه من وراء الكرسي الذي كنت جالسا عليه قمت واقفا احتراما له لأفسح له الطريق، فما كان منه إلا ان منعني من النهوض بحزم وود، لأنه يستطيع ان يمر الى مكان جلوسه بسهولة. وتذكرت ما رواه لي الاستاذ كاظم حبيب أثناء زيارتي له في برلين، وكيف ان صدام حسين عندما لاحظ في اثناء محاضرة الدكتور فخري قدوري رئيس مكتب الشؤون الاقتصادية لمجلس قيادة الثورة العراقية آنذاك، أن المصور التلفزيوني يركز عدسته على المحاضر، أوعز إلى مساعده بعد ان شفع أمره بمسبة مقدعة لا يتفوه بها من كان في مكانته، أن توجه الكاميرا عليه " وبَسْ "، ولكن "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"، واخلاق الملوك تدل على منبتهم ومَحْتَدِهِمْ.

وبعد العشاء دعيت الى تقديم هدية متواضعة الى سموه، تضمنت كتابين لي عن الشعر العربي الحديث وعن المسرح العربي في القرون الوسطى نشرتهما باللغة

الانكليزية وكتابين من منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق باللغة العربية. وقد تقبلهما سيادته شاكرا وصافحني مهنا غير مكترث بآلات التصوير التلفزيونية وبالمصورين واضواء آلات التصوير تومض كل ثانية ومن كل حذب وصوب كالبروق الخاطفة.

ألقى سموه خطابه التاريخي عن حوار الاديان ومبادرته الى عقد المؤتمرات ولقائه برؤساء رجال الدين من اليهود والمسلمين والمسيحيين ودعوته الى ضرورة التفاهم والحوار المتبادل للتقريب بين اباع الديانات وللتوفيق بين شتى المذاهب لبناء جسور التعاون بين ابناء الثقافات والديانات عن طريق الحوار وايمانه بأن الحقيقة ليست حكرا على طرف دون الآخر، وكيف ان سموه شارك السيد "يهودي منوحين" عازف الكمان والموسيقي الانكليزي الشهير، الدعوة الى انشاء "برلمان للثقافات" في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، بالإضافة الى إنشاء مؤسسة الثقافات الدولية عام ٢٠٠٢ لتعزيز الفهم والتفاهم بين شتى الثقافات في العالم وتشجيع الحوار بين المفكرين والمتقنين عن طريق "برلمان الثقافات".

انصت الجميع باعجاب الى خطابه البليغ باللغة الانكليزية. وكان الشعور السائد هو ان أمير الفكر سمو الامير الملكي الحسن بن طلال هو رسول السلام الذي كنا نتظره وباركنا هذه الخطوة الجبارة نحو انقاذ الشرق الاوسط من ويلات الحروب بخطابه المبارك. وبهذا الخطاب وبنشاطه ومقالاته وخطبه، يتم سموه رسالة الزعيمين العظيمين رائدي السلام في الشرق الأوسط من القادة العسكريين، سيادة الرئيس المصري المرحوم محمد أنور السادات والمغفور له صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال في عقد اتفاقية السلام مع اسرائيل، وكلاهما من ذوي الآراء التنويرية والحساسية الصوفية والإخاء الإنساني. لقد كان شعوري بأنني تعرفت أخيرا على

المفكر الكبير والوحيد الذي يستطيع بثقافته الواسعة وشعوره برسالته الإنسانية ومحتده الشريف ونسبه الهاشمي وذكائه ونشاطه الدائم أن يكون ضمير أمة ولسان حالها الداعي الى استبدال الجهاد الأصغر، الجهاد بالسيف، الى الجهاد الأكبر، جهاد النفس، الذي يحتاج اليه العالم اليوم.

بارك الله في سمو الأمير الحسن، أمير الفكر والسلام العالمي وحقق آماله رافة بالإنسانية التي تقف اليوم على حافة انهيار القيم الخالدة والتهديد بحروب ذرية مبيدة، ليقودها الى طريق التعاون والتفاهم والعلوم الحديثة لخير الإنسانية جمعاء.



يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٥.

يوم الرحيل اضعت رشادي

ستون عاما على تسقيط الجنسية العراقية عن يهود العراق ١٩٥٠-١٩٥١

الخميس ٢٢ أبريل / نيسان ٢٠١٠

يعاهدني لا خانني ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنثُ
وذلك دأبي لا يزال ودأبه فيا معشر الناس عنا تحدثوا
أقول له صلني يقول نعم غدا ويكسر جفنا هازئا بي ويعبثُ
أمولاي إني في هواك معذب فحتامَ أبقى في الغرام وأمكثُ
فخذ مرة روعي ترحني ولا أرى
أموتُ مرارًا في النهار وأبعثُ
فإني لهذا الضيم منك لحامل ومنتظر لطفًا من الله يحدث

البهاء زهير

غناء سليمة مراد ودواد الكويتي



كلما حاولت كتابة تنمة انطباعاتي عن لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في إنكلترا، في سلسلة "يهود العراق، ذكريات وشجون، ٤٩"، بعد الخطاب التاريخي الذي ألقاه سمو الامير

الحسن بن طلال في جامعة كمبريدج في مؤتمر "يهود الحضارة العربية"، يلوح في ذاكرتي بالبحاح اقتراب تاريخ أهم الأيام في حياتي وهو يوم ٢٥ نيسان (أبريل) من كل سنة. وما أدراك يا صاح معنى هذا التاريخ؟ إنه تاريخ لن انساه ما دمت حيًا، وفي هذه السنة خاصة، سيصادف مرور تسعة وخمسين عاما على اطول يوم مرّ في حياتي وستين عاما على بداية مغادرة يهود العراق الذين اختاروا الهجرة الى اسرائيل بعد ان لم يبق في قوس صبرهم منزع. ترددت في كتابة ذكرياتي عن ذلك اليوم الطويل الحزين. وسألت نفسي لماذا أُلقت الأقدار على عاتقي تدوينها؟ ولكني استدركت مناجيا نفسي، ولماذا لا أدون ما عانيته؟ أليست هي قصة عذاب كل من طرد من جنة وطن طفولته وصابه، قصة الملايين الذين طردوا في هذا العالم الذي مزقته اطماع الدول وصراع الحضارات والأديان والأجناس. أليست هذه قصة كل لاجئ في العالم مع الاختلاف في بعض التفاصيل؟ فلأدونها بالرغم من انها ستعيد الذكريات الأليمة لكل من عانى من اقتلاع جذوره عنوة وتنكأ جراحات الماضي الأليم، لعله يتأسى ويرى فيها صدى لما جرى له وتخفف من عذاب الذكريات.

كان ذلك يوم ٢٥ نيسان (أبريل)، ١٩٥١، استيقظت مبكرا لأعيش يوما حافلا بالأحداث التي لم استطع فهم مغزاها وخطورتها، ولم اكن أعني هل أنا في كابوس

مخيف، أم تمر بي احداث حقيقية لم تكن في الحسين، أم إنه كان، كما كان يقال، تحقيق حلم تاريخي ظل يهود بابل خلال ٢٥٠٠ عاما يحلمون به ويرددون في كل عيد فصح، الذي يسميه اليهود "عيد الحرية"، حين كنا نقرأ "الهجداء" أو قصة خروج بني اسرائيل من مصر وتخلّصهم من عبودية فرعون على يد النبي موسى كليم الله. هل كانوا يفهمون حقا مغزى الشرح العربي باللهجة العامية، "في السنة الجاية في ارض اسرائيل، بنين المطلوقين". هذا الحلم دفع بعض المتدينين المشعوذين من شيوخ الطائفة اليهودية في بغداد الى بث بشرى عجيبة إثر الاعلان عن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ واندلاع الحرب العربية الإسرائيلية. وزع بعض الشيوخ النصابين بطاقات كتب عليها اسماء الله سبحانه وتعالى وأسماء ملائكته بالحروف العبرية، وأكدوا ان ليلة اعلان دولة اسرائيل هي ليلة مقدسة، وان على النساء اشعال القناديل والصلاة لسلامة يهود العراق وقراءة دعاء العيد، "الحمد لله الذي احيانا وابقانا لنرى هذا اليوم السعيد"، وأن على الجميع الاستحمام ولبس الملابس النظيفة والجلوس على السطوح وشرفات المنازل والانتظار الى منتصف الليل، بترتيل المزامير وقراءة الادعية والصلوات بانتظار ملائكة الله التي ستأتي لنقل يهود بابل الى اورشليم العامرة على اجنحتها. ضحك الوالد وأخي يعقوب وعقلاء الرجال من هذه الأخبار والمعتقدات والبطاقات التي انطلت على السذج من النساء وضعاف العقول والاولاد، وجلسوا في شرفات البتاوين بانتظار الملائكة وقد ارتدوا أفضل واجمل انواع البيجامات الحريرية. ومر الوقت في الجدل كيف ستحمل الملائكة هذه الجموع، وكيف ستحط بهم في ارض الميعاد ومن سيستقبلهم؟ فمعاناة الظلم وبأس الشعوب من الحكومات الظالمة يخلق الأمل في الخلاص من الجور عن طريق احلام يقظة مستحيلة رغبة منها في ألا تنهار معنوياتهم وتبقي العقول سليمة في الحقب الحرجة من تواريخ الأمم. وعندما أعلن أولئك الذين يملكون ساعات اليد أنه حانت الساعة

وستنشق السماء عن اسراب الملائكة، توقفت الانفاس بانتظار هبوطها، وارهفنا السمع لنشرف آذاننا بحفيف اجنحة الملائكة المباركة التي ستأتي لانقاذ اليهود من فرهود آخر انتقاما لقيام دولة اسرائيل. ومر الوقت بتوتر منهك للأعصاب، وممرت الدقائق بطيئة ثقيلة منتظرة ساعة منتصف الليل الحرجة، ولكن هيهات. لم يُشرف اي ملاك أية شرفة تكدس فيها يهود البتاويين والحارات الأخرى وهم يلهجون بآيات المزامير. بدأ اليأس ينسل الى القلوب الواجفة، وسرى خدر التعب والنعاس في الاجساد المنهوكة من الانتظار ونام الأطفال في احضان امهاتهم وانقضى ليل الانتظار الطويل بدون ملائكة ودون معجزة "خروج" اخرى. وأخيرا أدركنا ان هذا عصر لا تجترح فيه المعجزات بل تنشب فيه الحروب والمذابح وقنابل الدمار الشامل، أو بالأحرى أن هؤلاء النصابيين افلحوا في بيع اكبر عدد من الطاقات.

وفي الأيام التي اعقبت هذه الخيبة، أقبل مكان ملائكة الخلاص المزعومة، زبانية الارهاب، وأخذوا يصولون ويجولون في شوارع بغداد اليهودية. "ولك شلون اتصير دولة لليهود؟؟ مو أنكتب عليهم الذل والمسكنة؟ والله متصير، هاي دولة مزعومة!" انطلق الزبانية يشبعون اليهود الذين يصادفونهم في الدروب بالإهانات والضرب والبصاق تقربا من الله تعالى. قبع أغلبهم في بيوتهم متوجسين قيام فرهود جديد. سرت اشاعات بان هناك حركة سرية مسلحة تقوم بحماية الشوارع والمحلات التي يقطنها اليهود من المعتدين ليكيلوا لهم الصاع صاعين. وتكاثرت شكوى الرجال الذين فصلوا عن وظائفهم الحكومية وخاصة بعد إلغاء إجازات التصدير والايراد، من ضيق الحال. ودار الشباب المناضل على محلات ودكاكين اليهود يطالبونهم بالتبرع لإنقاذ فلسطين، أعقبتها موجة من هروب الشبان الذين التحقوا بالمنظمة الصهيونية السرية وبالحزب الشيوعي العراقي للتخلص من القاء القبض عليهم بالهروب الى

أيران والى سوريا ولبنان ومنها الى اسرائيل. وكثر القاء القبض على كل من تصله رسالة من الأرض المحتلة او عشر على كتب عبرية ومجلات يهودية في بيوتهم في موجة التفتيش عن اعضاء المنظمة السرية. كان هذا بعد محاكمة التاجر شفيق عدس وشنقه أمام داره بالبصرة عام ١٩٤٨. ثم تلا ذلك اعتقال كل من مردخاي بن بورات ويهودا تاجر في محلات اروزدي باك، وامتلات السجون بالمعتقلين اليهود من الذي ألقى القبض عليهم في محاولة الهروب من العراق، واخذت المدارس تفرغ تدريجيا من طلابها اليهود. إلى أن اضطرت الحكومة العراقية إلى اصدار قانون اسقاط الجنسية والاعلان عن السماح ليهود العراق سنة ١٩٥٠ بالهجرة والخروج إلى إسرائيل عن طريق قبرص. وجاءت الطائرات التي شارك في تأجيرها كل من نوري السعيد وابنه صباح وغيرهما من الشركاء الذين تقاسموا الأرباح من صفقة نقل اليهود الى إسرائيل. واقلعت الطائرات الضخمة في مطار بغداد تقلهم الى ارض الميعاد بدل الملائكة التي لم تهبط على شرفات اليهود الذين خابت آمالهم وظنونهم بعود شيوخهم وصلواتهم.

كنا نشق طريقنا في الزحام الشديد إلى بوابة كنيس مئير طويق، حيث عقد قبل سنوات زفاف أختي اسبرونس على زوجها الوسيم يعقوب كوهين، وحيث كنا نصلي في الأعياد، ويرمي علينا بعض الرعاع الحجارة في طريقنا اليه وفي أوقات الصلاة. أما في ذلك اليوم فقد تحول الكنيس الى مكتب للتسقيط ولملاء الاستثمارات والتوقيع عليها. وعندها تبدأ مرحلة مراجعة قائمة المسافرين وتواريخ السفر وساعاتها. وقفت أمام القائمة في شهر أبريل عام ١٩٥١ وفجأة عثرت على اسمي، خفق القلب وشعرت بالاضطراب، اذن فقد حان الرحيل، وأصبح الامر حقيقة لا يمكن التراجع عنها. ما هذا الذي فعلته؟ والى أين سأذهب؟ وماذا سيكون مستقبلي ومصيري؟

ولحسن حظي اني كنت قد اجتزت امتحان البكلوريا واستطعت الحصول على قائمة المعدلات التي نلتها في الامتحان من إدارة مدرسة شماش، وأسرعت الى وزارة الداخلية ووضعت ما نشرته في الصحف العراقية من الشعر المنشور والترجمات تحت اسم "سامي ابراهيم" في ملف، طالبا باخراجها معي الى إسرائيل. فلما استلم الرقيب المسؤول الملف، سأل "هاي القصاصات من الجرايد شنو؟" قلت، "اشعار وترجمات نشرتها في الصحف العراقية"، القى نظرة خاطفة عليها وانبسطت اسارير وجهه وابتسم، وشجعني على مواصلة الكتابة وربت على كتفي ووقع عليها وختمها وكتب عليها "لا مانع من الاخراج". عج شارع الرشيد باليهود الذين أسقطت عنهم الجنسية العراقية وبدأوا يتأهبون للسفر وشراء الملابس والحاجيات من افخر المحلات التجارية وقد ظنوا انهم سيخرجون الى نزهة وأفراح وولائم لا نهاية لها.

نعم، في مثل هذا اليوم من عام ١٩٥١، في عيد الفصح، أفلعت بي الطائرة من مطار بغداد، مع عشرات من يهود العراق من مختلف انحاء وادي الرافدين، ومن جميع الطبقات والازياء في رحلة مباشرة، رحلة متعبة، مقلقة حائرة تنطلق بنا الى المجهول بجميع ما في هذه الكلمة من توجس وهواجس وخوف وضياح. قيل لنا اننا سنحط رأسا في مطار اللد، لا في مطار قبرص، إلى الدولة التي كانت تسمى آنذاك بـ"دولة عزرائيل المزعومة"، وكنت لا استطيع استيعاب معنى ان تكون الدولة التي أرحل إليها مزعومة، وإذا كانت كذلك، فكيف ستحط فيها طائرة مليئة بالمسافرين ليعيشوا فيها كقادمين جدد؟ وإذا كانت مزعومة حقا، فهل لها ارض وكيان؟ فقد عاد الجيش العراقي الذي ذهب بين التهليل والتكبير لإنقاذ فلسطين وشارك معظم الطلاب اليهود المدارس الأخرى في الاحتجاج على قيامها هاتفين "فلتتش فلسطين حرة مستقلة". ثم كانت عودة الجيش العراقي "ظافرا" في مسيرات نصر

امتدت من شارع الرشيد والى شارع غازي. إذن، كيف سرحل الى دولة مزعومة بعد هذه الانتصارات؟ كانت غصة مريرة في الحلق من هذا المجهول. وها أنا حتى اليوم أحاول التخلص من تلك الذكريات الأليمة، التي كنت اتمزق فيها بين حبي لمسقط رأسي، وطني العراق، وبين الجرح الدامي الذي احدثته الاحداث الغريبة منذ فرهود عام ١٩٤١ و حرب ١٩٤٨ التي ابتدأت في الساعة الأولى من قيام هذه الدولة المزعومة التي يحاول البعض الانتقام منها من اليهود العزل تقريبا الى الله يهانتنا في كل خطوة نخطوها خارج البيت. وها أنا احاول الآن كبح جماح الذكريات لكي لا تنكأ الجراح، ولكنها تعود فتنتصب امامي كالمارد الجبار العنيد تجعلني اجترها قسرا، بل الانكى من ذلك، فهي تدفعني الى تسجيلها ليقراها الآخرون. ولماذا أسجلها أنا بالذات وهناك الملايين من جميع الاجناس والأديان الذين هُجروا في الحرب العالمية الثانية وما بعدها قسرا من مسقط الرأس الى بلاد أخرى لم يحلموا بها من قبل؟ ولكن الذكريات، كما قال أحمد شوقي أمير الشعراء، هي "صدى السنين الحاكي". وأما ذكرياتي فإني اشعر أنها ليست "الصدى الحاكي" فحسب، بل شريط سينمائي ناطق بالأغاني العراقية الشجية الحزينة، وأفراح أيام سعيدة قضيناها بين الأهل والاخوان وعلى ضفاف دجلة وفي الجزيرة مع اصدقاء من كافة الطوائف والاديان. ثم تعود اصوات أخرى في هذا الشريط تقذف حمم شتائم الحقد والاحتقار، وما أزال اشعر بحرارة الجو الربيعية التي تعكر صفوه عواصف رملية من الغبار التي تجتاح العراق في شهر نيسان، عندما تزدهر اوراق العنب والأزهار والورود بعد سبات الشتاء، وتنبت الاعشاب بكثافة في كل مكان، بل ما ازال اتذكر رائحة ذلك الغبار ممزوجة بشذي زهور الربيع في حديقة دارنا بالتاويين وأمام حدائق شاطيء أبو نواس وبارك السعدون وبستان مامو.

في ذلك اليوم شعرت بألم مريع وبأس مخيف، هذه جذوري الممتدة في أكثر من الفين وخمسمائة سنة في تربة العراق الخصبة المعطاءة تجتثها الأحداث بقسوة لا تعرف الرحمة، قسوة غاضبة عنيفة مفاجئة، تضاربت فيها العواطف والأحاسيس وتراوح بين خيانة الصداقة والتشفي برحيلنا انتقاما لفلسطين، وبين ترحم الاصدقاء الأوفياء والجيران المحبين وبكائهم معنا حزنا على فراقنا وعلى ايام العشرة والخبز والملح. كان لبعضنا معهم صداقات تمتد من الاجداد الى الاباء والبنين. نعم ستون عاما مرت كلمح البصر ولا ازال الى اليوم اشعر بنفس الالم المريع الذي حز في نفسي من جراء مغادرتي العراق برغم ارادتي، عندما طفح الكيل ولم اعد احتمل الالهات والشتائم والسباب من بعض الحاقدين. كانت لحظة القرار الحاسمة التي دفعنتي للذهاب الى كنيس مئير طويق قرب دارنا لأسجل اسمي في قائمة التسقيط عند ضباط وزارة الداخلية وأوقع، والقلب لا يطاوعني، على قرار التخلي عن بطاقة الجنسية العراقية، فقد كنت أعلم علم اليقين بأنه ليس من المستطاع التخلي عن الجنسية التي تجري في الدماء خلال عدة آلاف من السنين؟

ثم جاءت لحظة القرار الحاسم، جاءت مفاجئة قاسية يا حساس لسعة سوط (قرباج) ظالمة أهوى به على ساعدي الايسر أحد الشباب الغيورين على فلسطين الجريحة، شفعتها بمسبة الدين والآباء، سألته بغضب: "ولك ليش؟ اسويت لك؟" اجاب ببديهة ساخرة لا يمكن مناقشتها: "كيف انت ايهودي، روح ولي الفلسطينيين!". نظرت الى مكان الضربة، فرأيت خطا ازرق متورما يرشح بالدم القاني. آلمتني الأهانة أكثر من الألم المحرق في ساعدي. وسمعت في لسعة السوط ذلك الصرير الذي صاحب سقوط اطول نخلة في بستان مامو عندما بدأوا في قلع النخيل لبناء سوق الأمانة الجديد والبيوت المجاورة له، منها بيت التاجر مهدي طعيمة وبيت نسيم كوهين امام

بيتنا في البتاوين. كان لضربة الفأس الأخيرة في جذع النخلة، دوي لعلعة ذلك السوط الذي جرح ساعدي وحز في فؤادي. هوت النخلة وارتجت الارض تحت قدمي وأنا اشاهدها تسقط بحزن معذب بقامتها الباسقة الى الأرض بكبرياء جريحة واحتجاج مدوي. ثم تلاها قلع باقي اشجار النخيل وطرد اصحاب الأكواخ الذين سكنوا في هذا البستان الذي شهد أجمل ساعات العمر. جاء رجال الشرطة يحملون البنادق وبدأوا بوالد الفتى الذي استقبلنا بالكفر بالدين في أول يوم خرجنا فيه عام ١٩٣٦ باكرا، أخي وأنا، نلتقط التمر المتساقط في الليل. قال له رجال الشرطة "ولك كواد، قلنا لك هذ الكوخ وولي ورا السدة"، أجب، "هذا بيتي وين اروح أولي؟"، وكان الجواب ضربة قاسية باخمص البندقية في بطنه طوحته من "الطوفة" (سياج التين المزوج بالطين المجفف في الشمس) المحاذية لكوخه أمام دار عقيد الركن. نظر الفلاح إلي نظرة كسيرة مستنجدة، وهوى الى الأرض، واكمل رجال الشرطة هدم الكوخ. لم اكن ادرك آنذاك ان مصيرنا سيكون مثل هذا الترحيل القسري لهؤلاء الفلاحين المساكين.

كانت لعلة السوط هذه في عام ١٩٥٠ وكان علي ان التقى بالوالد في شركة اندرو- واير الانكليزية للايراد والتصدير، حيث كان يعمل فيها رئيسا للمحاسبين. ثم التحق بها أخي يعقوب (جاكوب) بوظيفة "شورت هاند تاييست" (مختزل وكاتب على الآلة الطباعة) وسكرتير المدير الانكليزي وذلك قبل هجرته عام ١٩٥٠ للدراسة في الجامعة العبرية مع الأفواج الأولى من رحيل اليهود الذين اختاروا تسقيط الجنسية العراقية الى "الدولة المزعومة". نظر والدي الى الجرح وقال: "ما هذا؟" قلت، "ضربة قرباج!" - "ليش؟" - "كيف أنا يهودي". هزّ الوالد رأسه ألما وأسفا. قلت له: "الآن قررت الهجرة الى إسرائيل، سأذهب للتسقيط". لم يعلق على قراري. قال: "إذن

ستلتحق بجاكوب، كونوا سوية وتعاونوا فيما بينكم"، ثم أردف، "حل محله صديقنا تشارلس روفائيل حوريش، وهذا امر يعزيني". كان المرحوم تشارلس يدرسي الرياضيات تمهيدا للامتحانات. نجح في عمله في هذه الشركة وافلح في الحصول على وكالات لشركات اجنبية، وصار من كبار الأغنياء ولكن ثروته وغناه تسببا في اصدار حكم الإعدام عليه بتهمة الصهيونية ضمن تسعة من يهود العراق بينهم فتى في السادسة عشرة من عمره أغروه بتغيير سنه، علقهم حزب البعث عام ١٩٦٩ في ساحة التحرير انتقاما لهزيمة ١٩٦٧ وتصفية لأموالهم، ودعا راديو بغداد جماهير الشعب العراقي الى الاحتفال بشنق "الجواسيس الصهاينة" والرقص حول جثثهم المعلقة.

وقبل حرب انقاذ فلسطين عام ١٩٤٨ بدأت السياط تتوالى على يهود العراق، وكان أخي يعقوب أول من شعر بلسعة السوط هذه بين أفراد العائلة. كان ذلك عام ١٩٤٣. عاد الى دارنا والدم يسيل من رأسه ووجهه بصحبة شاب يهودي وقد صبغ الدم القاني قميصه وتحطمت نظارته ودراجته. أخبرنا بغضب باك انه عندما وصل الى محلة "باب الشيخ" رجمه بعض الفتيان بالحجارة، فأصابوا وجهه وسقط عن دراجته فأخذوها منه وهربوا بينما كان الآخرون يصرخون محرضين على مواصلة ضربه: "ولك حيل ضربه على راسه، هل ايهودي!". فأنقذه أحد الشيوخ المسلمين الخيّرين وأعاد اليه دراجته وسلمه الى احد الرجال اليهود الذي أوصله إلى دارنا متورم العينين ينزف دما.

أما لذعة السوط الثانية التي اصابتها، فقد كانت رفض قبوله لإلتحاق ببعثة دراسية حكومية الى لندن بالرغم من انه كان من الأوائل على العراق في امتحانات البكلوريا العراقية. قيل للوالد "ترا ما تمشي المسألة بلا واسطة وبلا دستة دنانير تسلم لاحد

المتنفذين في وزارة المعارف". قال الوالد بإصرار: "أبني متوفق في دراسته وقد حاز على أعلى المعدلات، فلا يمكن رد طلبه، ولا أريد ان اعلمه على شق طريقه في الحياة عن طريق الرشوة والبراطيل". وقع خبر رفض طلبه للالتحاق ببعثة حكومية وقوع الصاعقة علينا جميعا. جاء في الرسالة على ما أتذكر: "التلميذ يعقوب ابراهيم معلم يضع نظارات طبية. وعليه فلا يمكن قبوله في بعثة دراسية الى الخارج"، كان هذا والله حكم قراقوش! ولكنه كان يوما حزينا لنا جميعا، فقد خابت الآمال في عبقرى العائلة بقبوله في بعثة لمواصلة الدراسة والحصول على شهادة من جامعة لندن في الاقتصاد. وفي أول فرصة سنحت له لمغادرة العراق قام بالتسجيل للهجرة الى اسرائيل للدراسة في الجامعة العبرية.

كان الجو مشحونا بالخوف والارهاب بعد إعلان استقلال دولة إسرائيل وحرب عام ١٩٤٨ لإنقاذ فلسطين، عانى فيها اليهود من الاضطهاد والفصل من العمل في الوظائف الحكومية والعامّة وتضييق الخناق عليهم وتجميد الاموال المنقولة وغير المنقولة، وقد آلم والدتي تجميد مدخراتها في بنك الرافدين وتجميد بيوت اخوتها في البتاويين ومحلة حنون صغير. فوجئوا بقانون التجميد، ولم يصدقوا بانهم لا يستطيعون التصرف باملاكهم التي اشتروها بعرق جبينهم أو ورثوها عن آبائهم. ولما حان يوم الرحيل لم يبق لهم مناص إلا ان يقفلوا الأبواب ويسلموا المفاتيح الى جيرانهم المسلمين، باكين هلعين، قال لهم جيران العمر: "ما يخالف، مو انتو رايعين الفلسطين وراح يسكن ابيوتكم لاجئين فلسطينيين بدلکم! هذا تبادل سكان عادل، والعوض عند الله!". كنا قبل ذلك قد وقفنا على مرارة هذه الحرب التي كنا نخاف نتائجها مقدما، سبعة جيوش عربية مدججة بالسلاح الثقيل واسراب الطائرات تهدد بسحق "شراذم عصابات اليهود في فلسطين" في ساعة ولادة هذه الدولة، وكيف

ستستطيع هذه الحفنة من المستوطنين والناجين من المحرقة النازية، الوقوف أمام هذه الجيوش المتحمسة لخوض معركة المصير والمتفائلة بالنصر المبين على المعتدين الغاصبين لترميمهم في البحر؟ فقد تواعدوا على أن تكون "تل أبيب الموعد".

ثم سمعنا فجأة أن هناك لاجئين فلسطينيين اسكنتهم الحكومة العراقية في المدارس والنوادي اليهودية التي صادرتها ليقيمون فيها. أي لاجئين هؤلاء بعد دحر الصهاينة المعتدين؟ مرّ من امام دارنا ذات صباح فتية بيض الوجوه بملابس اوربية ولا يرتدون الدشداشة العراقية، وعجبنا من يكونون؟ سألناهم، "من وين أنتم؟" قالوا: "نحن لاجئون فلسطينيون نقلونا الى هنا بعد ان صدقنا وعود القادة العرب بان علينا ان نخلي بيوتنا لكي تتمكن جيوش الانقاذ العربية من تحرير فلسطين واعادتنا الى ديارنا سالمين غانمين، وهكذا جاءوا بنا الى هنا لنتظر الجولة القادمة!" قال لهم ابن مهدي طعيمة: " ولكم انتقموا من اليهود هنا، ضربوهم، كتلوهم!"، قال بعضهم، "ما شأن يهود العراق بضياح فلسطين"، أما الآخرون فقد بدأوا بمنع اليهود من المرور امام النادي اليهودي الذي اصبح معسكرا للاجئين، وقام البعض الآخر بتحطيم زجاج السيارات اليهودية التي كانت تمر بهم. ثم كان ذات يوم سمعنا فيه ضوضاء تبعث من المعسكر، فلما استفسر البعض عما جرى، قيل لهم: "شرطي عراقي اغتصب لاجئة فلسطينية!" شاركت النساء اليهوديات في الأسى والحزن الذي ساد المحلة، وقلن، "أشلون ظلم اسود؟ مساكين، راحت عليهم، هم مالهم وهم عرضهم، الله يقبلها؟"

كان بعض طلاب مدرسة شماش قد بدأوا بالاهتمام بالأدب والشعر العراقي كسالم الكاتب وداود أصلان وساسون والتعرف على الادباء العراقيين في المقاهي التي كانوا يرتادونها، أتى زميلي ساسون القاطن في محلة بستان الخس والذي درس معي في

مدرسة شماش الثانوية لزيارتي في بيتنا بصحبة شاعر فتي قدمه باسم زهير أحمد القيسي ليتعرف على سامي ابراهيم الذي نشر بعض الاشعار المنتورة وترجم من اللغة الانكليزية قصائد للشعراء الانكليز والامريكيين الرومانسيين. وعندما سمع زهير بانني متفوق في الرياضة والملاكمة أيضا، وفزت بالمداوية الاولى في وزن الريشة في الملاكمة عام ١٩٤٩، ارتجل هذا الشاعر البغدادي بيتا شعريا للدلالة على سليقته في نظم الشعر الموزون المقفى ارتجالا، فقال على الفور مداعبا وموظفا كلمة "هم" الفارسية بمعنى "ايضا":

همّ رياضي وهمّ أديب ناسي نفسه بتل أيب

ضحكنا لهذا البيت المرتجل، ولكن الوالدة توجست خيفة من جراء تلميحته بتهمة الصهيونية وهي تهمة كانت كافية آنذاك للإلقاء بأي يهودي في غياهب السجون. وعندما نشر الاستاذ مازن لطيف مقاله عن الشاعر زهير القيسي ملتمسا من الحكومة العراقية أعانة هذا الشاعر الكبير في شيخوخته ومرضه، كتبتُ له رسالة مستفسرا فيما اذا كان زهير يتذكر تلك الزيارة ولقاءه بنا في دارنا؟ تأسفت لعدم اسعاف ذاكرة هذا الشاعر الموهوب بهذه الحادثة التي حفرت في ذاكرتي التي لا تنسى اية شاردة واردة من حياتي. كان الله في عونته في شيخوخته.

وفي أثناء تجوالي في شارع الرشيد بين المحلات التجارية لشراء الملابس قبل الرحيل، مررت بصالونات الجابي للحلاقة وكان صديقي عبد الرحمن زميلي في مدرسة السعدون واقفا أمام الصالون الذي كان يديره والده. رحب بي وسألني السؤال المعتاد الذي كان يجري على ألسنة الجميع: "ها! سَقَطْتُ لو ما سَقَطْتُ؟"، فلما اجبته بالإيجاب قال مستنكرا "ولك ليش؟ لا تروح لأسرائيل، مو هناك عايشين بالخيام وميتين من الجوع ويحترقون اليهود العرب". أجبته، " مو انت تعرف الاوضاع هنا

ومبقيتوا لنا عيشة وياكم!، قال: "بعد شوية تستقر الأوضاع وتبدل الامور، وهي أحسن من الأوضاع باسرائيل الفقيرة". تذكرت وعد عبد الرحمن بحمايتي قبل أيام من الفرهود وقد أحاط بي اصدقاء المدرسة متسلحين بالسكاكين والقبضات (بوكس) الحديدية للاعتداء عليّ وعلى كل من يصادفونه من اليهود. هل أصدقه اليوم، وقد خانني ونكث عهده معي مرة، و"المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين". من يضمن عدم العودة الى نكث اليهود في الفرهود القادم؟ أجبته بأسي، "سقطت واتجمدت الاموال وبعد ما اكدت اغير وأبطل التسقيط، راح أسافر والله كريم!".

أيقظني الوالد صباحا وهيأنا الحقيبة ومألأناها بأغلى وافخر الثياب التي اشتريناها من شارع الرشيد، ولم ننس شراء القبعات الإفرنجية وبالكاد استطعنا شراء حقيبة صفيح من سوق الصفاير وضعنا فيها الحاجيات الضرورية وارتديت، بنصيحة بعض المطلعين على أحوال المسافرين، عدة فانيالات وقمصان وبنطلونات الواحدة على الاخرى للتخفيف من وزن الحقيبة. لم أستطع النوم تلك الليلة فقد فرق القلق و"السهد بين الجفن والوسن"، وفي الصباح عندما ايقظني الوالدان للوداع، وضع الوالد يده على رأسي ليباركني بركة الرحلة، كما بارك يعقوب اولاده، "ليبارك الرب ويحفظك " وسقطت دمعة من عيني الوالد حاول اخفاءها، أما الوالدة فقد اغرقتني بالقبل والدموع، "سلمنا على جاكوب وريمون ومراد، سألحق بكم عن قريب مع أختك كلادس. دير بالك على نفسك والله يحفظكم!"، أوقفنا عربة وأدرك العربي من حقيبة الصفيح أنني ذاهب الى كنيس مسعودة شمطوب حيث الترحيل يجري من هناك منذ اسابيع على قدم وساق، قال "يابا! انت رايح الفلسطينيين من الكنيس اللي ضربوا عليه قنابل من شغلة الصهانية؟" كان بعض طلاب مدرسة شماش قد اصيبوا بشظايا القنابل وهم جالسون في المقهى واكدوا بان الرجال الذين القوا القنابل اليدوية

كانوا من غير اليهود، وقد تعرفوا عليهم من سحناتهم ولهجتهم البغدادية. وزنوا حقيبة الصفيح مع المحتويات وفتشوا عن مواد ممنوعة وخاصة الثياب التي كانت بلون الخاكي العسكري، ثم سافروا الى المطار الذي كان يعج بالمهاجرين، وانتظرت دوري للمثول بين يدي مفتش الجمارك بعد أن عيل صبري، فقد أنهكني التعب والعطش والجوع. نظر هذا الموظف إلي غاضبا وهو يلعن ويسب ويضرب قفا كل من يتقدم لفحص محتويات حقيبته. عبس في وجهي وهمّ برفع كفه الى وجهي. نظرت اليه نظرة غضب واحتقار وتحدي فإذا بيده تقف في الهواء وتهبط بفشل وخجل على كتفي وتتحسس حشية أكتافي وجيوبي. طلب نزع الحذاء الجديد وأخذه بيده يقلبه، ولم افهم سبب ذلك إلى أن قال: " أكو ذهب ابجعب القندرة؟" فتعجبت لسؤاله، ولما فتح الحقيبة وشاهد ملف القصائد، أخذه بيده وسألني بنبرة متحدية كأنه شعر ان هذا الملف أعلى عندي من الذهب الذي كان يفتش عنه: "ولك شنو هذا؟" أجبت منتظرا اطراءً آخر، "هاي اشعاري سمحت الوزارة باخراجها، وهذا ختم وتوقيع الموظف!"، فاذا به يصرخ محتدا: "ولك ايهودي شتسوي بالعربي باسرائيل، مو أنت راح تصير جندي هناك وترجع اتحارنا خاطر تصير دولة إسرائيل، من الفرات الى النيل!". أخذ الملف بحدة ومزقه والقاه في سلة المهملات. وعندها أتى حمال يحمل عدة حقائب فاخرة بصحبة امرأة يهودية تتزين بالمجوهرات النفيسة وترتدي آخر مودة باريسية، ودس في يده طرفا وقال، "الباشا يسلم عليك ويكول سهّل!"، انبسطت ارسارير وجهه هذا الكمركي الفظ وهو يتناول الظرف الثقيل ويدسه في جيبه. انتهزت فرصة انشغاله بالسيدة الجميلة المعززة وتناولت ملف أشعاري الممزق ووضعتة في حقيبتي وأنا أعجب لهذا التغيير المفاجئ في تصرفه.

وأخيرا سعدنا الى الطائرة واقلعت بنا وحامت في الجو فوق بغداد وعلى الجسر الذي يجري من تحته نهرا الخالد الذي روى عروقي وعظام آبائي خلال آلاف السنين. انتهزت الفرصة لكي ألقى نظرة وداع أخيرة على مراتع الطفولة والصبأ، وشعرت بالحزن والوحشة والضياغ مرة أخرى. هل يا ترى ستتاح لعشاقك فرصة العودة اليك يا عراق ويا بغداد، يا حبيبي، يا جارحة القلوب! فما زال الجرح يؤلمني وما زال فراقك يؤسفني، وما زال شهداؤك من الجانبين ومن الأقليات يثيرون في نفسي الألم واللوعة يا عراق، يا قاتل عشاقه ومحبيه!

وفي الطائرة كان هناك فتى مقعد حملوه واضجعوه على بطانية قرب سلم الطائرة. قال والده مناديا زوجته بخشونة، "قومي يا مغة، ديفي بالك على ابنك المكسغ!"، اجابته، بلطف وأمل "وي ابدالو، ليش بقى مكسغ، اسا يغوح اليسرائيل ويداوونو ويسغ معافى كنو ورد". كانوا يظنون ان اسرائيل تجترح المعجزات في الطب والعلوم وأخذوا ولدهم المصاب بالكساح لمداواته. ولما استوت الطائرة وصرنا فوق صحراء الأردن صارت الطائرة تغوص في مطبات هوائية قابلها المسافرون في أول رحلة جوية في حياتهم بصراخ وخوف وهلع، "والله هسا توقع الطياغة وكلنا انموت"، ولأول مرة في حياتي رأيت رجالا ونساء يتبادلون قبلات الوداع والهلع قبل ان تهوى الطائرة بهم الى الموت المؤكد. جلست بجانب فتاة وطفاء ساحرة العينين واحتمت بي. طمأنتها بان الطائرة سوف لا تسقط، وما هي الا جيوب هوائية باردة تدخلها الطائرة فتهبط ثم تحملها مرة اخرى جيوب حارة الى الأعلى. كانت الفتاة تتحجب الي، ثم أدركت فيما بعد ان بعض النساء كن يقلن للفتيات اليهوديات لتشجيعهن على الهجرة الى اسرائيل، انه ما ان تحط الطائرة في مطار اللد حتى يكون في انتظارهن شباب يأخذون بيد من اعجبوا بهن ويعرضون عليهن الزواج على سنة موسى وشريعته. اما هذه الفتاة

فقد ارادت ان تستبق الاحداث بتعلقها بي، فالعصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة؟ وقيل هبوطنا من الطائرة الى باحة المطار، رشنا أحدهم وهو عابس الوجه بمادة الادي دي تي. سكتت على مضض، فقد اعتبرت هذه الخطوة المهينة من فروض المحافظة على صحتنا. وعند خروجي الى ساحة المطار رأيت بعض الرجال والشبان يركعون لتقبيل الارض المقدسة ثم الاتجاه الى سيارات الحمل التي أرسلت لأخذنا الى الكرنتينة في معسكر بريطاني مهجور جعلوا منه محجرا صحيا للقادمين الجدد اطلق عليه اسم "بوابة الهجرة" ويقع على سفح جبل الكرملة الأشم قرب حيفا. لحقت بي الفتاة الوظفاء وصاحت: "لا تتركني وحيدة خذني معك!"، وبدفعة دلع منها، اندفعت حقيبة يدي بين قدمي، واختل توازني وسقطت على ركبتي فارتطم جبيني بأرض المطار. خفقت حافة القبعة الاوروبية من ألم السقطة، وكنت في وضع يشبه الركوع وتقبيل الأرض، هل تجربني الأقدار على تقبيلها؟ لاحظت امرأة بغدادية سقوطي ودفعاً الفتاة لي، فصاحت وقد اخذتها النخوة: "بنت الكلب، وكيجي وما تستحي، وقعتو العجال وقتتمقلج (تدلع) ويانو بلا حيا قدام العالم!". وبلمح البصر عادت بي الذاكرة الى زينب بنت رشيد. كان مروض الخيل يعلمني الركوب، وربط الفرس الأصيل الى سير طويل وضع طرفه بيده، وشرع في تعليمي الخب على سهوة الفرس. مرت من أمامنا فتاة وطفاء ساحرة العينين، أخذت تحدق بي كما حدقت عبله بعنتره، وهي تشد عباءتها الصوفية على رأسها وتسير الى الورا لكي لا اغيب عن عينيها، هبت نفحة نسيم خفيفة فانفتحت العباءة وأطل نهداها الكاعبان الساحران. صاح المدرب بغضب، "هاي زينب بنت رشيد العربيجي، هاي بنت كلب، وقحة وما تستحي، منبوشة الصفحة". بقيت سهام نظراتها مغروسة في قلبي عاشق الجمال. قررت العودة للقائها. اكرتيت فرسا وطلبت الركوب وحدي، فقد اصبحت في نظري فارسا مغوارا يخرج للتفتيش عن حبيته. امتطيت سهوة الفرس وأنا امّني

النفس بلقاء زينب، عدوت بالفرس مسافة كيلومتر وأنا اتلفت مفتشا عنها وهو يخب بي بهدوء. وفجأة ثنى عنانه نحو الطوثة (الاصطبل) وانطلق كالسهم نحو بابها المفتوح، ادركت بسرعة البرق ان اسكفة الباب العليا ستطيح برأسي كالمقصلة. جذبتُ عنانه بشدة لأكبج جماحه، شاهدني صاحب الاصطبل وصاح، "سدوا باب الطوثة بالعجل، سدوا الباب!"، خرج ابنه واغلق باب الاصطبل في آخر لحظة ووقف في وجه الفرس ورفع يديه ليكف جماحه، وقبل أمتار قليلة من الباب المقصلة، شب الفرس على قدميه الخلفيتين وحاول ضرب وجهي برأسه مرتين واسقاطي عن صهوته. تشبث بعرفه وبالرشفة (العنان)، وبقيت منتصبا فوق السرج. أسرع صاحب الاصطبل الى انزالي عن صهوة جواده الجموح وهو يردد "الحمد لله على السلامة، اشكان خلصنا من ابوك!". هل كان هذا فألا يندرنى بتجنب الفتيات الفاتنات والاستجابة لمغازلتهن لي؟ ومنذ حادثة زينب وإلى اليوم كلما احببت حسناء أو استجبت لتحرشها تجرح قلبي الذي لم يللمم الى اليوم شباكه من طرق الحسان، وما زال الجرح الذي خلفته في قلبي حبيتي بغداد اللعوب، جارحة القلوب، يؤلمني، "فيا ويح قلبي، كم يحن وكم يصبو!".



يهود العراق. ذكريات وشجون

الحلقة ٥١ (لأخيرة)

الرؤيا المباركة

الأثنين ١٧ مايو / أيار ٢٠١٠

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ "[بَارَكْنِي]" و"[الْوَعْدُ]" عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

معارضة لزهير بن أبي سلمى

رأيت أن انهي الآن ذكرياتي بهذا الفصل بالرغم من انني كنت عازما على تنمة الفصول السابقة عن لقاءات في مؤتمرات عقدت صيف ٢٠٠٩ في إنكلترا، وعن المحاضرات التي القيت فيها بعد المحاضرة التاريخية لسمو الامير الحسن بن طلال، والتي قطعت جملها ذكرى مرور ستين عاما على بداية ترحيل يهود العراق عام ١٩٥٠ إلى اسرائيل (رقم ٥٠). ثم وصلتني نسخة من ذكرياتي التي نشرتها في "إيلاف" الغراء من صديقين عزيزين عن طريق برلين وطُبعت في بغداد، ٢٠١٠ بدون اذن مني وبدون ذكر اسم الناشر الذي تكرم بنشرها وإضاف عناوين من عنده للأقسام المختلفة من الذكريات متغافلا عن ذكر اسم المطبعة، ولما تصفحت الكتاب وجدت أن الكثير من الكلمات غير واضحة والبعض فيها بياض بدل الكلمات واسقط الناشر الكريم بعض التواريخ ومكان طبع الكتب التي نشرتها رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، الى غير ذلك من التصرف فيها. فقررت التوقف عن الكتابة باللغة العربية

ونشر جميع ذكرياتي باللغتين الانكليزية والعبرية وإتمامها مع اضافات غابت عني عندما نشرتها بسرعة باللغة العربية لضيق الوقت. بدأت بنشر هذه الذكريات عام ٢٠٠٦ في مجلة "ايلاف" الغراء، وقد اعيد نشرها في مجلة "الأخبار" بعد ان قمتُ بتلافي بعض الاخطاء المطبعية التي وقعتُ فيها، ضمنيتها المقامة البغدادية التي اهديتها الى د. أمل بورتو.

وفي كتابي "المسرح الحي والأدب الدرامي عند العرب في القرون الوسطى" الذي نشرته باللغة الانكليزية، توصلت الى نتيجة مهمة وهي أن فن المحاكاة هو فن شعبي قديم عند العرب، منذ رقص سويداء الإيماني بين يدي السيدة عائشة لإضحائها، وتقليد الحاكي الحكم بن أبي العاص الذي كان يحكي مشية رسول الله ص (فالتفت يوماً فرآه، فدعا عليه فلم يزل مخلج المشية عقوبة من الله تعالى، >عن الجاحظ، في: رسالة "فضل بني هاشم على بني عبد شمس"<)، ومحاكاة لاعبي الكرج من المخنثين في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب للفرسان في كرههم وفرهم، إلى أن اصبح لمصطلح "حكاية" معنى القصة والنادرة، فابتكر الممثلون مصطلحا جديدا وهو "الخيال" أي التمثيل الحي، فلما قدم التمثيل الظلي من الشرق الأقصى اطلق العرب عليه مصطلح "خيال الظل"، أي اللعب بالشخوص الظلية أمام مصباح بحيث يعكس ظلها على ستارة، وأطلق على الممثل البشري مصطلحات عديدة منها "الحاكي" و"المخنث" و"المخايل" أو "الخيالي" و"اللغاب" و"المحَبَط"، وهي تمثيلات كانت تحاكي عن طريق الحوار والحركات وتعابير الوجه، وصيغة قلبها الحوار الذي أصبح النموذج الذي قلدهه المقامة العربية، ونسج على منوالها كل من ابن شهيد الاندلسي في "رسالة التوايح والزوايح" والمعري في "رسالة الغفران"، وهما، أي المقامة والرسالة الفلسفية، من الفنون التي توظف الحوار بين الشخصيات والتي

تعد أوج الفنون النثرية في الأدب العربي الفصيح وفخر الادباء العرب. فالمقامة حسب النتائج التي توصلت إليها، ما هي إلا تقليد لفن الحكاية أو الخيال بمعنى المحاكاة والتمثيل، وهو فن ذو قالب خاص يعتمد على الحوار والسجع وبلاغة اللغة والبديع والزخرف اللفظي والنكات والسخرية من شخصيات متنفذة، وخاصة القضاة منهم، التي تبنى صيغة قالبها بديع الزمان الهمداني وهو أحد عظماء اساتذة النثر العربي في القرون الوسطى الذي بلور قواعد هذا الفن في مقاماته، ثم تبعه الحريري واطاف إليها محسنات لفظية جديدة.

وفي ذات يوم من صيف سنة ١٩٨٨ وأنا اقضي عطلة الصيفية لمواصلة ابحتاتي في إحدى الجامعات الأوروبية أو الأمريكية، بعيدا عن مشاغل الجامعة والعائلة كدأبي كل عام، وكانت هذه المرة في لندن في منزل اصدقائي في شارع برينسس بارك أفينو رقم ٧٣، في ضاحية جولدروز جرين اليهودية، قررت بعد عشر سنوات من البحث المضني أن لا أنام تلك الليلة حتى انهي طباعة مبيضة الكتاب بنفسى باللغة الانكليزية لإرسالها الى الناشر. وعند منتصف تلك الليلة عندما سجي الليل على تلك الضاحية الهادئة طبعت السطر الاخير من الكتاب على الآلة الطباعة القديمة، وشعرت بالارتياح برغم آلام كنتفي من طول الجلوس، وراودني الامل في ان يتوفر لدي الوقت الكافي أثناء هذه الزيارة لكي اكرسه لارتياح المتاحف ومشاهدة المسرحيات العديدة التي تعرضها مسارح لندن. كنت منهك القوى ولكنى راض عن نفسى وعن النتائج الجديدة التي توصلت إليها والتي أثبتت أن العرب عرفوا المسرح الهزلي والترفيهي والديني الذي يستعيد فيه ممثلون بشر، دون استخدام الدمى أو الشخصوس الظلية، لإحياء أحداث الماضي في الحاضر عن طريق الحوار ولهجته وعن طريق الحركات وتعابير الوجه أو ارتداء القناع وأزياء العصور التي وقعت فيها تلك الأحداث. وغرض هذه

التمثيلات الهزلية كان وما زال نقد المجتمع أو الشخصيات التي يتناولها المخيلون. وبعد انتهائي من طبع المبيضة، أويت الى الفراش مغتبطا بإنجاز مشروعي الذي كرس له عشر سنوات طوال لم يكن باستطاعتي التفرغ لشؤون عائلتي وحياتي الاجتماعية.

أويت الى الفراش وغمرني الشعور بالغبطة والرضى، وفجأة انفتح أمام عيني أفق منور ملفع بروحانية لطيفة، ثم تلاه وقع سنابك خيول مطهمة واحتشد الأفق الزاهي بجيش جرار من الفرسان تحيطهم هالات من نور بثياب بيضاء على جياذ اصيلة سابحة في فضاء من الضوء القدسي الذي يملأ النفس رهبة وخشوعا. زحف صف الفرسان الأمامي الطويل متقدما نحوي، واصابتي الدهشة عندما شاهدت فوق الفارس الجليل الذي يلفه النور، ملاك يرفرف بجناحيه عليه. وفي هذا الجو الرهيب العجيب سمعت هاتفا ينادي بصوت جهوري رددته الآفاق والروابي، "أين سامي اليهودي؟ هذا محمد رسول الله يريد لقاءه!". هزّ نداء الهاتف كياني، وعقدت الدهشة والعجب لساني، وساءلت نفسي ترى من الداعي وما السبب؟ وبالكد استطعت ان اجيب بصوت وجل وأنا أتقدم نحو الصف الأمامي قائلا، "أنا سامي اليهودي!". تقدمتُ نحو الفارس الذي شاهدت الملك يرفرف بجناحيه فوقه، وحدقت في وجهه رغبة مني في رؤية وجهه المنير. لم أستطع رؤية قسماات وجهه الكريم، فقد كساه نور على نور يعشي الابصار، ولم استطع تبين ملامحه. ترحل الفارس المهيب وترجل معه باقي الفرسان وتقدم نحوي وأخذ يدي مصافحا وقال لي بصوته الهادئ المطمئن الواثق: "خدمت أمتي، فأنت في رعايتي وذمتي، لا تخش شيئا!"، شعرت برهبة ودهشة عظيمتين، وقلت لنفسي، ماذا فعلت كي أستحق مثل هذا الشرف العظيم، ليصافحني نبي كريم تتبع هديه البلايين من البشر؟ انتفضت

واستيقظت وأنا لا اصدق ما رأيته عيناى فى هذه الرؤيا المباركة، بقيت مستلقيا على فراشي دون حراك، وانا فى غاية الانبهار فى تهويمه من السرور والاعتاق من الهموم، مشفقا من تلاشي الرؤيا كليا، ثم دبت الطمأنينة إلى نفسي حين شعرت بحرارة يده المباركة باقية فى كف يدي بعد يقظتي مدة نصف ساعة أو أكثر بعد المصافحة. لم أستطع النوم بقية ليلتي وأنا أردد وعده الكريم لي لكي لا انساه، "خدمت أمتي، فأنت فى رعايتي وذمتي، لا تخش شيئا!". وكنت فى فرح تشوبه حيرة من مغزى هذا الحلم العجيب!

بدأت يومي متفانلا باليمن والخير، اخبرت صديقي الدكتور فيليب سادجروف، الذي كان قد انتقل من عمله محاضرا فى جامعة ادنبرا الى جامعة مانشستر، بانتهائي من كتابة مبيضة الكتاب، فإذا به يعرض عليّ نشره فى سلسلة منشورات مطبعة جامعة ادنبره التي عرضت بدورها على جامعة مدينة نيويورك المساهمة فى نشر الكتاب فى الولايات المتحدة أيضا. وبعد مدة قصيرة أرسلت الي مسودات الطبع لتصححها، وصدر الكتاب فى نفس اليوم فى انكلترا والولايات المتحدة وقابله النقاد الكبار فى مجالات المستشرقين باللغة الانكليزية بتقريظ وإطراء على هذا الجهد الكبير، وقال عنه احد المستشرقين الامريكان، ان كل فصل فيه يمكن ان يوسع الى اطروحة دكتوراة كاملة، وقال عنه البروفيسور تشارس ادوارد بوزوروث، بأن المؤلف انتهج طريقا جديدة فى البحث لم يتطرق اليها باحث من قبل، ولم يُبق مخطوطة أو كتابا أو حجرا دون ان يقبله ويفحصه. وعندما ارسلت نسخة الى الاستاذ الكبير أنيس منصور فى "دار الازهرام" بالقاهرة، قال، "واصلتُ قراءته مدة ثلاثة ايام متوالية دون انقطاع ولم استطع نزعته من يدي حتى اتممت قراءته"، ثم اقترح على أ.د. فوزي فهمي أحمد ترجمته فى اكاديمية الفنون والترجمة التي يترأسها فى القاهرة، وشرعت فى تصحيح

بروفات الترجمة العربية التي استغرقت مدة ثلاثة اشهر كاملة، معيدا كتابة الابيات الشعرية والنصوص المقتبسة من مصادرها الأصلية، وأخبرت الاستاذ أنيس منصور عن الرؤيا المباركة بعد انتهائي من طبع مخطوطة الكتاب فلم يعلق عليها. ولكنه نشر تقرير الاستاذ د. عطية العقاد المسهب لمقالتي المختصرة لفحوى البحث الذي نشرته في مجموعة من المقالات نشرتها الجامعة العربية تكريما للبروفيسور دافيد أيلون خوفا من أن يسطو احدهم على نتائج بحثي، ثم نشر الأستاذ د. عطية العقاد هذا التقرير في مجلة "عالم الفكر" الكويتية تحت عنوان "تأملات جديدة في أوراق قديمة للمسرح العربي، (مجلد ٢٦، ١٩٩٧). وعندما سمع صديقي استيفان حديشي عن الرؤيا المباركة، ظن انني اختلقتها، فقلت له بأني كشرقي ولد في البلاد العربية، أو من بكرامات الانبياء واحترم رسالاتهم ولا تطاوعني نفسي على اختلاق احلام أو الكذب في روايتي، وأعد ذلك تطاولا عليهم، فلنا اعتقاد راسخ بحرمة الأنبياء وقد استهم.

وفي عام ١٩٩٩ رشحتني الجامعة العربية لنيل جائزة الدولة في الاستشراق في الحفل السنوي الذي يجري كل عام للمتفوقين في العلوم والفنون في يوم الاستقلال والذي يحضره كبار رجال الحكومة ويقوم رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير التربية والتعليم بتقديم الجوائز والأوسمة على الفائزين. دعيت الى المنصة ووقف رجال الحكومة على اقدامهم عندما كان عريف الحفل يقرأ قرار المحكمين في جائزتي برئاسة البروفيسور مناحيم ميلسون الذي شغل سابقا منصب عميد كلية الآداب في الجامعة العربية، وقد أكد القرار على أهمية كتابي عن المسرح العربي وريادته العلمية في بحث المسرح العربي منذ فجر الإسلام وإلى نهاية القرون الوسطى.

وفي عام ٢٠٠٢ سافرت الى جامعة بون بالمانيا لإتمام تحقيق مخطوطة "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي بضيافة البروفيسور ستيفان ويلد. وفي ذات صباح استيقظت وانا اتصبب عرقا واشعر بضعف شديد. اتصلت بصديقي البروفيسور ويلد وقلت له باني اشعر بالإعياء الشديد واريد نقلتي الى المستشفى، فنصحني باستشارة طبيب واجراء فحوص لتحليل الدم. ذهبت الى طبيب الماني وبعد الفحوصات قرر ارسالي فورا الى المستشفى للاشتباه بمرض في الكبد. أخذني صديقي المخلص الى المستشفى وطلبتُ النزول في غرفة خاصة بي دون ان يشاركني فيها أحد لكي لا يزعجني زوار المرضى الذين يعالجون في نفس الغرفة. قرر الاطباء استخراج عيّنة من الكبد بغرز إبرة معقوفة الرأس لاستخراج قطعة صغيرة من كبدي لفحصها، تمت العملية بدون تعقيدات تذكر. قال لي الطبيب المشرف علي، "استخرجنا عينة من الكبد لكي نتأكد فيما اذا كنت مصابا بمرض عضال من امراض الكبد حسبما أشار تحليل الدم سابقا!". شعرت بالضيق والقلق وانتابتنى الهواجس وأنا وحيد غريب ومريض بمرض قيل لي إنه قد لا يمهلني أكثر من ستة اشهر حسب نتائج المواصفات التي القمتها بعض الصديقات للحاسوب معتمدات على فحص الدم. نصحتني إحداهن بان اكتب وصيتي، وناحت الأخرى، فقال زوجها ليرفه عنها، يا للأسف، انظري الى جمال شعره، فأجابته والدموع تترقرق في مآقيها، بل انظر الى جمال عينيه، يا للأسف! وفي ذلك المساء بعد العملية ارتفعت درجة حرارتي الى ٣٨:٦ مئوية الامر الذي اشار الى تفاقم خطورة وضعي الصحي. وفيما انا غارق في هواجسي تذكرت فجأة في منتصف الليل، الرؤيا المباركة، فقلت في نفسي، مبتهلا وجلا خاشعا، "يا النبي محمد الكريم، اريد علامة منك بانك لم تنسني وإنك لا تزال عند وعدك لي بأنني في رعايتك وذمتك، وان لا أخشى شيئا!". حاولت النوم وأنا مخصل الجفون.

وفجأة شعرت ببداية توقظني كالمعتاد لقياس درجة حرارتي، توقعت ان تكون الممرضة الالمانية الشقراء التي عينوها لرعايتي، والتي كانت توقظني كل صباح في الساعة السادسة صباحا بقولها: هير دكتور بروفيصور موريه جوتن مورغن، فتحت عيني فوجدت قرب فراشي فتى في العشرين من عمره أسود الشعر ويده مقياس الحرارة، سألته من انت؟ اجاب أنا الممرض الذي دعيت لاستبدال الممرضة، وقد أيقظوني في منتصف الليل وقالوا لي بان الممرضة لا تستطيع الحضور اليوم لمرض ألم بها وطلبوا مني ان احل محلها. سألته ومن انت؟ قال، انا متطوع في المستشفى بدل الخدمة العسكرية، لانني مسلم من أصل جزائري ولا اريد ان يرسلوني لمحاربة اخواني من المسلمين في الشرق! سألته، وما أسمك؟ قال اسمي محمد!، كررت سؤالي غير مصدق ما سمعت، "ما اسمك؟" اجاب "اسمي محمد"، انتفضت جالسا في فراشي وقد اقشعرت جسدي ووقف شعر رأسي، وصرخت: "الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله"، ابتسم الممرض المسلم وسأل بلهفة: هل انت مسلم؟ أجبت: لا أنا يهودي، ولكنك العلامة التي طلبتها من النبي محمد الكريم ليخبرني بواسطتها بانه ما زال عند وعده لي. صدمه كلامي وامتقع وجهه، فقلت له، "لا تخشى شيئا! ما انت الا العلامة التي طلبتها منه عليه الصلاة والسلام فاستجاب لي، وأنا متأكد الآن من شفائي". ثم قاس درجة حرارتي فإذا بها ويا للعجب! ٣٦:٨ درجة مئوية، وهي درجة اعتيادية للأشخاص الاصحاء، هل حدثت المعجزة؟

وفي نهاية الاسبوع تحسن وضعي الصحي، وقرر الأطباء عودتي الى غرفتي في مسكن ضيوف جامعة بون ووعدوني بإرسال نتائج فحوصات عينة الكبد والدم التي اجريت لي مدة مكوثي في المستشفى بالبريد. وبعد اسبوع من عودتي الى غرفتي، سمعت طرقا خفيفا على باب الغرفة، نظرت من عدسة الباب فإذا بالآنسة فاطمة الباكستانية

الأصل والتي كانت مُشْرِفة مع بعض الطلبة على توزيع الرسائل وراحة الضيوف، واقفة ويدها رسالة، استبشرتُ خيرا فقد كان المشرفون الآخرون من جنسيات أخرى. فتحت الباب وقلت لها، "الآنسة فاطمة! قفي مكانك وسأقول لك من اين أرسلتُ الرسالة وما مضمونها؟ إنها مرسلة من المستشفى وهي تتضمن نتائج الفحوصات ويقول التقرير بأنني خال من المرض العضال!". ابتسمت غير مصدقة وهي تقرأ لي الرسالة باللغة الألمانية. قالت، "كيف علمت ذلك؟"، أجبتها بثقة مطلقة، "اسمك فاطمة، وانت علامة أخرى مؤكدة من النبي الكريم"، واخبرتها بالرؤيا المباركة. فأشرق وجهها بنور عجيب كأنها نفضت عنها غبار المادية الأوربية وهمست بسرور: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله!", وأسرعتُ بالهروب الى غرفتها وهي تتمتم بالشهادتين! ومنذ ذلك الحين، كلما كنت في ضيق وبحاجة الى مساعدة يكون الشخص الذي يساعطني مسلما على الأغلب.

أخبرت بعض الأصدقاء المسلمين بالرؤيا، فقالوا لي، يجب ان تسلم، قلت: "لا، فان النبي الكريم ناداني قاتلا <سامي اليهودي>، ولو قال لي بأنني مسلم، لأسلمت، كما حدث لصديقة العائلة من أصل عراقي تدعى ليلي من مدينة أكتسفورد والتي جاءها النبي محمد عليه الصلاة والسلام في الحلم عند زيارتها لقبر نبي الله ابراهيم الخليل وسألها، ما هو دينك يا ليلي؟ قالت له، أنا يهودية، فقال لها، لا، انت يا ليلي مسلمة، فأسلمت في اليوم التالي على يد احد أئمة الحرم الابراهيمي الشريف في الخليل."

سألني بعضهم، كيف تفسر زيارة النبي صلعم ليهودي في هذه الأيام التي احتدم فيها الصراع بين المسلمين وغير المسلمين، فأجبتته، لقد كرسيت حياتي لخدمة الحضارة والأدب العربي، وشكرني قاتلا بأنني خدمت امته، ومعظم سكان العالم اليوم يجنحون

الى سلم كما جاء في القرآن الكريم، "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله".

نشرت ذكرياتي في جريدة "إيلاف" الإلكترونية، وتوثقت عرى الصداقة مع الكثير من كبار الادباء والشعراء وعلى رأسهم الدكتور جبار جمال الدين، وهو علوي النسب شريفه، أثارت ذكرياتي والشخصيات التي وصفتها مشاعره، فارسل لي قصيدة نظمها في مدح كتاباتي، وقال لي بانه كان يبكي عند نظمه لكل بيت دون ادراك السبب. وبعدما أخبرته بالرؤيا المباركة، بطل عجبه وآمن بانه نظم القصيدة بإلهام سماوي لدُني. وعندما التقيت بسليل العترة النبوية الهاشمية الشريفة الأمير الحسن بن طلال حفظه الله، قدمت له نفسي باني استاذ الادب العربي في الجامعة العبرية ورئيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، فاحتضني وقبلني وكأنه يلاقي أخوا له بعد فراق طويل. وفي هذه البادرة النبيلة رأيت أيضا علامة أخرى من كرامات النبي الكريم ورضاه. ولذلك اقدمت في ذكرياتي رقم ٤٩، على كتابة الفقرة التالية عن سموه: " لقد كان شعوري بأنني تعرفت أخيرا على المفكر الكبير والوحيد الذي يستطيع بثقافته الواسعة وشعوره برسالته الإنسانية ومحتدته الشريف ونسبه الهاشمي وذكائه ونشاطه الدائم أن يكون ضمير أمة ولسان حالها الداعي الى استبدال الجهاد الأصغر، الجهاد بالسيف، الى الجهاد الأكبر، جهاد النفس، الذي يحتاج اليه العالم اليوم." فما أحوج العالم اليوم الى السلام بين الدول والشعوب لخير الانسانية ومستقبل الأجيال القادمة ورفاهيتها عن طريق التعاون في ميادين العلم والتكنولوجيا الحديثة للقضاء على الفقر والجهل والمرض والتعصب الديني والتصحح وتلوث البيئة.

قرأت وسمعت عن كرامات حدثت لأشخاص من ديانات مختلفة، ولم أجرؤ على تدوين حلمي إلا بعد أن وجدت تفسيراً علمياً لمثل هذه الكرامات، ففي الآونة الأخيرة قام بعض العلماء الاسرائيليين بمشاركة علماء أمريكيين بأبحاث حول الكرامات التي تحدث للمؤمنين بالتصوف اليهودي المعروف بـ"القبالة"، وفسروا هذه الكرامات بالإيمان الذي يوحى إلى الدماغ الانساني العجيب بأن يصحح الخلل في افراز الهرمونات التي تؤدي إلى التهابات وتنشيط الخلايا السرطانية، وهكذا تتم المعجزة بتوازن الهرمونات، فيشفى المريض تماماً من دائه العضال. وها أنا الآن أترك المجال لعلماء النفس والأطباء ومفسري الأحلام ورجال الدين لتحليل هذه الرؤيا المباركة التي رويتها بأمانة المؤمن برسالات الأنبياء وحوار الأديان والثقافات.

.....

انتهت سلسلة ((يهود العراق، ذكريات وشجون))

يتحدث الكاتب عن ذكرياته منذ ولادته في بغداد القديمة وانتقال عائلته الى حلة البتاوين الجديدة ودراسته في مدرسة السعدون وذكرياته عن الفهود والحرب العالمية الثانية والصداقات التي ربطته باصدقائه في دراسته الابتدائية والثانوية والاضطهاد الذي عانى منه اليهود بعد حرب 1948، وهجرته الى إسرائيل والمصاعب التي واجهته ثم إرسال الجامعة العبرية له في بعثة دراسية في جامعة لندن ولقائه مع طلبة وشخصيات عربية مختلفة وعودته للتدريس في الجامعة، إلى إحالته الى التقاعد. سرد الكاتب ذكرياته بأسلوب غنائي سلس يتراوح بين مأساة قلع الجذور وشجونها والمزاج والفكاهة اللاذعة، ترميزه اللهجات العراقية المختلفة في الحوار والتصانيد والأمثال العربية والأغاني العراقية، مازجا التاريخ العربي الإسلامي وقيمه الانسانية بالحاضر.

ملحق

مقالات بقلم الكاتب

وعن الكاتب

بصراحة

رد على استفسارات

الأحد ٠٩ ديسمبر / كانون الأول ٢٠١٢

أ. د. شموئيل (سامي) موريه

يَا سَاكِنِي الْعِرَاقِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ أَحْيَا بِهَا، يَا سَاكِنِي الْعِرَاقِ
وَأَلْهَفْتِي، ضَاعَ الزَّمَانُ وَلَمْ أَفْزُ مِنْكُمْ، أَهْيَلِ مَوَدَّتِي، بَعْنَاقِ

(معارضة ابن الفارض، لموريه)

تمضي الايام والحنين الى العراق يزداد "يا أهيل اشواقي"، وأنا اعلل النفس بقرب اللقاء، والاسئلة تنهال علي من الأصدقاء الصحفيين بين مشفق ومواسٍ، لِمَ كل هذا الحنين بعد كل هذه السنين، التي نيفت على الستين، وها أنا اليوم وأنا اقترب من السن التي يحتاج فيها المرء الى ترجمان، فأقول: "إن الثمانين وبلغتموها"، والقلب يتمزق مع كل مفخخة ومجزرة ينقل انباءها المفجعة الراديو والتلفزيون، أكاد اقول يا "اهيل مودتي"، كل عام وانتم بالف خير، ولكن الشر يستطير، في بلادي بلاد الأنبياء، بلاد التاريخ وكنوز قارون، بلاد الطغاة الظالمين، والشعب جائع "وفي كل عام وفي العراق جوع". اريد اليوم وقد اخذني الأسى لما يجري في هذا العالم الذي يتأرجح بين العلم والجهل، بين التعصب والتسامح، بين الحق والباطل. بين الحب

والكراهية، بين فهم لرسالة الأديان وبين تزويرها، والقلب لا يطاوعني سوى ان اجيب بصراحة على استفسارات السائلين.

اصدقائي الأعرءاء، شكرا على رسائلكم واقترحاتكم لاجراء مقابلات صحفية معي، أعرّف بأن رسائلكم توقعني فيما كنت أتجنبه واحذره، من ان أنكأ الجرح الذي ظننته قد التأم، كما كان عاشق عاتكة "يتجنب دارها حذر العدى، وبها الفؤاد مُوكّل". فقد كنت أخشى أن تهال علي رسائل العذل إذا استجبت لعقد مقابلات أدبية عن العراق لاحدكم دون الآخر. والسبب في تفضيل كاتب عراقي على غيره هو بأنني اعلم علم اليقين، وكما قلت مرارا لأصدقاء عراقيين، راسلوني في الماضي، بأني عندما تصلني رسالة من أخ عراقي، "تنشق المرائر مني، وتتقطع النياط ويكي لها في حنايا الصدر عرييد"، شوقا لايام الطفولة والصبا:

ويا للشباب الحلو في التصابي روائح الجنة في الشباب

فلا استطيع أن أتجاهلها ولا يطاوعني وجداني ألا أن أرد عليها بالرغم من ضيق وقتي. ولكنني اليوم بعد أن قرأت ردود قراء جريدتي "إيلاف" و"الأخبار" الالكترونيتين، أدركت أن لكتاباتي محورين أساسيين جعلها "رهينة المحبين"، كما كان الأمر مع فيلسوف الشعراء العرب، أبي العلاء المعري، وكم اخشى ان تلك طائرات الاسد ودباباته، قبر فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة، في معركة لاحتلال معرة النعمان. المحبس الأول الذي تعاني منه ذكرياتي هو، "حب العراق والحنين إليه"، "وما الحب إلا للحبيب الأول"، وهو محور يشكك فيه بعض القراء؟ لأن الكاتب هو يهودي من العراق هاجر إلى إسرائيل، وغيّر اسمه من سامي إلى شموئيل، وهو ينوح على الفردوس المفقود فيها، ولكنه لا يسب إسرائيل صباح مساء كما عودهم بعض الكتاب الذين كانوا مدللين في العراق، لذلك فيجب التشكك في

نواياه، مثلما كان أدباء الأندلس المسلمون يشككون في إسلام الشاعر والوشاح الكبير إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأندلسي، هذا الذي ابدع في وصف غرقه احد الادباء الاندلسيين، في وصفه لـ"غصن الاندلس الرطيب"، بقوله بتورية رائعة: "عاد الدرّ الى قعره". فإذا أراد أحدهم القول "هذا أمر مشكوك فيه"، كانوا يضيفون إليه "كإسلام الشاعر إبراهيم بن سهل الإسرائيلي". حتى أصبحت أخشى أن يقول القومجية العراقيون والعرب عامة، من الآن وصاعداً، عن الأمور المشكوك فيها "هذا أمر مشكوك فيه كحنين شموئيل موريه الإسرائيلي إلى العراق!"، والعياذ بالله.

ومن خلال نشر ذكرياتي بأسلوب "تيار الوعي" وتداعي الذكريات، أدركت أن الغرض من كتابة ذكرياتي هو المحافظة على الاجواء العراقية واللهجتين الاسلامية واليهودية العراقية، وما يحز في نفسي من نكران الجميل في "فهود اليهود" عام ١٩٤١ و حرب انقاذ فلسطين عام ١٩٤٨، والنكبة التي اصابه الفلسطينيين ويهود البلاد العربية سواسية. فتدوين الذكريات عامة غرضها "فتح دفاتر عتيقة" لمحاسبة الماضي والفترة التاريخية التي عاشها المؤلف وعتاب الأهل والأصدقاء والسياسيين والأعداء، فهو حساب عسير مع التاريخ والزمن والعائلة والمدرسين والأصدقاء بل محاسبة النفس عن الأخطاء التي ارتكبتها المؤلف في حياته والتي ارتكبتها الآخرون في حقه، كما يظن، كل ذلك للعبرة والاعتبار بها وليتجنبها الكاتب ولتجنبها الأجيال القادمة لأجل مستقبل أفضل. وبما أن العراق هو قدرتي الذي يلاحقني الى كل مكان اذهب اليه، واصبح "سجن العمر"، وما يزال جزءاً حياً من حياتي وكياني، في الماضي والحاضر، والحنين الذي يقض مضجعي ليل نهار، فأنا أرجو أن تساهم هذه الذكريات في تلافي الأخطاء في المستقبل لأجل عراق أجمل، عراق الخير والبركة والإخاء والوفاق الوطني، عراق دار السلام، وإن كان السلام ابعده ما يكون، وهل يستطيع

النقد البناء، وهو أضعف الإيمان، بناء عراق المستقبل، وليس كما قال أحد القراء في تعليقه على فصل رقم ٢٩ من سلسلة ذكرياتي عن يهود العراق، في "إيلاف" و"الأخبار" وفي كتابي "بغداد حبيتي" (حيفا، مكتبة كل شيء، ٢٠١٢)، معلقا في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٧، معلنا للقراء على رؤوس الأشهاد ومحذرا: "أدعوكم أن تمنعوا في مذكراته كلها ستجدون خطأ دراميا يروي لكم قصة سوء قوميتكم وديانتكم، فلا تدافعوا عن الباطل بحسن نية!". وقد شك بعض القراء في وجود سوء نية من قبل الكاتب المعلق بإقحامه النعرات الدينية لإثارة الكراهية والحقد والبغضاء، وأساء تفسير رسالة الأدب في النقد البناء وإصلاح ما يمكن إصلاحه لخير المستقبل.

أصدقائي الاعزاء، يخاطبني بعض قراء ذكرياتي "بشموئيل"، هذا أمر فيه مغزى. وقد سألتني أحد المشاركين في ندوة نادي الرافدين في برلين، التي ترأسها البروفيسور كاظم حبيب، كيف أريد أن يخاطبني، هل باسم "سامي" أو "شموئيل"؟. قلت له نادني كيفما تشاء، لأنني سأعلم موقفك مني. فإذا دعوتني "سامي" فسأعلم أنك تراني أcha لك من العراق، أما إذا دعوتني "شموئيل" فسأعلم أنك تعتبرني "يهوديا إسرائيليا" يجب الحذر من "كلامه المعسول ونواياه الغادرة!" (كما ذكر أحد المعلقين على ذكرياتي رقم ٢٩ والذي نعته القراء النابهون "بالقومجي التكريتي")، فقررنا مناداتي باسم "سامي"، فأدركت أن نواياهم صافية، وهكذا كان والحمد لله.

ثم كان اللقاء التاريخي في جامعة كمبردج في مؤتمر يهود البلاد العربية بمبادرة سمو الامير الحسن بن طلال ووقوفه على آرائه الرائدة الجريئة نحو السلام والتفاهم بين الشعوب والاديان، جعلني افكر مرة أخرى في موقف الرافض من المقابلات الصحفية التي عرضها علي بعض الأدباء التي اتشرف بصدائقي معهم عبر الانترنت والتي وصلتني أسألتهم عن طريقه العابر للقارات والرقابات السياسية والحدود المغلقة

والاسلاك الشائكة، فاصبحنا والحمد لله "أصدقاء بلا حدود"، ولكن معزة العراق والدالة الكبرى عليّ، للعاصمة عمان مقر الأمير المجل الحسن بن طلال، وعاصمة عاهاها جلالة الملك عبد الله الثاني، والتي تشبه بقصورها الرخامية والصخرية الملونة العامرة، مدينة ذات العماد التي شادها عاد بن شداد، عمان المحروسة برعاية الله وأحفاد بيت رسوله العرّ الميامين، مما اثار قريحة صديقي الشاعر الكوفي الوفي الدكتور جبار جمال الدين بقصيدة عصماء في "أمير الفكر" كبر لها كبار المثقفين العرب. والدالة الكبرى لعمان عليّ الى جانب اطلاعي على آراء سمو الامير الحسن الرائدة في الإحاء الانساني وحل المشاكل الى تعترض طريق السلام ورفاهية الشعوب عامة في العالم، هي دعوة السفارة الإسرائيلية لي عندما كان السيد السفير يعقوب روزن، وهو تلميذي سابقا، السكرتير الأول في السفارة الإسرائيلية في عمان، وكان المرحوم فكتور نحمياس الملحق الثقافي فيها، وذلك لافتتاح قاعة المحاضرات في السفارة عام ١٩٩٧ لإلقاء محاضرة عن "مكانة الأدب العربي في المجتمع وفي جامعات إسرائيل". هناك التقيت بكبار المثقفين والأكاديميين الأردنيين وانعقدت بيني وبين بعضهم أواصر صداقة حميمة، وأخذني أحد كبار الأدباء من بينهم (ولا أريد ذكر اسمه، خوفا عليه من أعداء التطبيع)، باريحيته، للقاء الشاعر الكبير المرحوم عبد الوهاب البياتي في إحدى مقاهي عمان، ودعاه لحضور حفلة العشاء التي أقامها هذا الصديق تكريما لزيارتي لعمان في بيته الكبير العامر، وقد تدلت فيه عناقيد العنب، كثرات الذهب. ولذلك أصبحت لا أسمع باسم العاصمة عمان العامرة، إلا ويتبادر إلى ذهني لقائي بالشاعر العراقي الكبير عبد الوهاب البياتي، الذي عاش مشردا بين الدول العربية والأوربية لأنه اراد، رحمه الله، خير العراق وشعبه. حمدت الله الذي قدر لي لقاء البياتي في عمان المحروسة، وأنا إلى اليوم نادم على ضياع فرصة لقاء الشاعر الكبير بدر شاكر السياب في المستشفى في لندن، إذ حذرني

المشرف على أطروحتي وهو البروفسور بوب سارجنت من مغبة مثل هذه الزيارة عليه من يهودي عراقي من إسرائيل لشاعر العراق الكبير، مما قد يؤدي إلى عواقب وخيمة للشاعر وحرمانه من رعاية الحكومة العراقية في المستشفى الذي كان يرقد فيه في لندن على حساب الحكومة العراقية، وما أزال آسفا لضياع فرصة أخري حرمتني منها المقاطعة العربية "الحكيمة"، ضد اسرائيل، وهي زيارة عمر بن ابي ربيعة المحدث، الشاعر السوري الكبير نزار قباني، شاعر الحب والمرأة، الذي كتب عن الحب ولواعجه انتقاما لانتحار اخته التي منعوا زواجها من حبيبها، ويا لقسوة التقاليد. حتى في لندن وقفت الاقدار في طريق لقائي بكبار الشعراء العرب المعاصرين، فقد كان وقته مكروسا هناك لمعالجة ابنه الذي أصيب بالسرطان فاعتذر لذلك، رحمهما الله، ولات ساعة مندم.

وأقولها صراحة، انه عند تسلمي أسئلة بعض الاصدقاء قبل اجراء المقابلات شعرت بالحرج، فقد سألتني الاستاذ إبراهيم حمزة من جمهورية مصر العربية "هل ساءني سؤاله عن ابحاثي عن المسرح العربي وسبق الاستاذ الاعرجي في التوصل الى وجود مسرح حي في العراق في العصر العباسي،"؟ وإلحاح الاديب والناشر مازن لطيف في ان تكون له الاسبقية في نشر مقابلة له معي.

ولكن الحقيقة يجب ان تقال، فقد سبقهما كاتب عراقي بطلب مقابلة والح في طلبه وسألني اسئلة سياسية اخرجتني حقا، فشعرت أمامها كأني في وسط حقل ألغام بعد أن زودني بخريطة مفصلة لهذا الحقل وهي مقال "يهود العراق" بقلم سيادة رئيس السلطة الفلسطينية الدكتور محمود عباس - أبو مازن، وطلب مني الخروج بسلام من هذا الحقل. قلتُ لنفسي، والله هذا أديب من دهاة الأدباء والصحفيين، وضعني في موقف حرج ليسبر غور انتمائي الفكري والعقائدي، ليقرر موقفه مني، هل أنتمي

إلى التيار الفكري العراقي العربي، أو انتمي إلى التيار اليهودي الاسرائيلي الصهيوني؟ وهكذا شعرت بنفس موقف طارق بن زياد وقد قام بإنزال مجاهديه على ساحل الأندلس الرطيب، وحررت هل أحرق سفني فأبقى على الساحل الإسرائيلي أم أعود بها الى ساحل الأمان، وهو الساحل العراقي العربي؟

.....

سألني هذا الصحفي العراقي، قبل ان اتناول فنجان القهوة العراقية الذي ارتشفنته مع الاديبة الكبيرة ايمان البستاني في مجلنها الثقافية جردينيا التي تحررها مع الاستاذ جلال جرمكا، والذي اعده تنمة لهذا القسم من ذكرياتي:

(١) هل بالإمكان المقارنة بين بغداد أمس واليوم بعد الذي جرى للعراق منذ ثلاثينات القرن الماضي وحتى غزو العراق؟

- لا يمكن المقارنة أبداً، فشتان بين الأمس واليوم، في الأمس أعني حتى مغادرة يهود العراق عام ١٩٥١، كان الحكم ملكيا دستوريا برلمانياً، وإن لم يكن الحكم برلمانياً دستوريا بكل معنى الكلمة الأوروبية، لكن الحقوق كانت محترمة، وخاصة قبل اندلاع الحرب العربية - الإسرائيلية في فلسطين عام ١٩٤٧، وكان التعايش بسلام بين الطوائف والمذاهب والأديان على ما يرام، وكان للصحافة بعض الحرية في النقد وحرية التعبير، ولكن عدم تمييز الحكام والسياسيين والصحفيين وبعض أفراد الشعب بين الانتماء الديني والانتماء القومي، أدى إلى اضطهاد الأقليات الدينية والعرقية في العراق وتدهور الوضع إلى حد نشوب الحروب مع الدول المجاورة واضطهاد الأقليات تحت حكم البعث العراقي الذي رفع شعار: حرية، عدالة،

اشتراكية، وكانت النتيجة وخيمة على جميع أفراد الشعب العراقي وخاصة المثقفين منهم ممن لم ينتم إلى الحزب الحاكم ولم يتملق زعيم الحزب.

٢) ماذا بقي من ذاكرتك عن بغداد ومكان تواجدكم في هذه المدينة؟

معظم ما بقي من ذاكرتي عن العراق وبغداد ومحلة البتاوين التي عشت فيها طفولتي وصبايا، دونتها بحلوها ومرّها في سلسلة ذكرياتي التي نشرتها في مجلة "إيلاف" الألكترونية الحرة الغراء، تحت زاوية كتاب إيلاف، تحرير الأستاذ الشاعر عبد القادر الجنابي، تحت عنوان: "يهود العراق، ذكريات وشجون"، الحلقات ١-٥٠، وقد قامت جريدة "الأخبار" العراقية الغراء التي يحررها الأستاذ علي نوري بنقلها على صفحات جريدته الخضراء. فهذه الذكريات انطلقت بصورة عفوية بعد المقابلة التي أجرتها مجلة "إيلاف" بمبادرة ميمونة من الشاعر والاديب عبد القادر الجنابي لعقد مقابلة ادبية معي، فأطلقت عقالي وقلمي العنان ليكتب على سجيته، وليرصع ذكرياتي بلآلى الأشعار العربية وجواهر الأمثال العراقية وتعابيرها الجميلة المغروسة في ذاكرتي فتنتطق من أعماقها كالجواد الجامح، وأنا نائم ملء جفوني عن شواردها. فذكريات الطفولة تغلفها الذاكرة بنعيم نفحات جنات عدن، إلى أن جاء الفرهود (المذبحة التي جرت في بغداد يومي ١-٢ يونيو، ١٩٤١)، ثم قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨) فجعلوا حياة اليهود في العراق جحيما لا يطاق بعد أن سال لعاب الحكام لفكرة الاستيلاء على أموالنا المنقولة وغير المنقولة انتقاما لحرب ١٩٤٨. وبعد هجرة اليهود من العراق في عام ١٩٥١ بقي حوالي خمسة آلاف يهودي مخلص لوطنيته العراقية وتعلقوا بالعهد الملكي إلى أن أطيح به عام ١٩٥٨، وأعيدت إليهم مكانتهم في عهد عبد الكريم قاسم "ابو المساكين"، وبعد أن أطيح بحكمه عام

١٩٦٢ وجاء حكم البعث فشرّد من بقي من اليهود أيدي سبأ. وأنا أرى أن أهم الأخطاء الكبرى نحو اليهود في الحكم الملكي هي مذبحه الفرهود ١٩٤١ ورفض صالح جبر اقتراح السيد داود باشا الحيدري تعيين الأستاذ مير بصري وزيراً للمالية عام ١٩٤٨ وشنق شفيق عدس أمام قصره في البصرة في نهاية نفس العام. فلو تم تعيين الأستاذ بصري وزيراً للمالية وامتنع الوصي عن المصادقة على حكم إعدام المرحوم شفيق عدس، وانتهاج الديمقراطية وحرية الفكر، وامتناع الحكومة العراقية من اضطهاد الموظفين اليهود وتجارهم، لامتنع معظم يهود العراق عن الهجرة إلى إسرائيل، ولم يجنّ القاء القنابل على محلات اليهود التي ساهمت فيها الشرطة العراقية لطردهم وحث عملية الهجرة ثمراته، ولما حدث ما كان، "وكلمة يا ريت، ما كانتش اتعمر بيت!". ولكن الحكومات العراقية المتتالية كانت تحسن دائماً ارتكاب أعظم الأخطاء في انتهاج المبدأ القرآني في العدل والمساواة والإمام العادل، ودولة الظلم ساعة ودولة العدل حتى قيام الساعة، وانصاف الشعب دون تمييز بين الأقليات الدينية والمذهبية والعنصرية والقومية للشعب العراقي عامة، واضطهدت وشردت مثقفيه الشرفاء وكل من عارض سياساتها الرعناء تحت كل كوكب.

أما فخامة السيد محمود عباس أبو مازن رئيس السلطة الفلسطينية، فقد ردّ في مقالته التاريخية عن "يهود العراق"، أسباب هجرة يهود العراق إلى فلسطين "إلى" "تواطؤ ثلاثي صهيوني- بريطاني- عراقي"، وخاصة "التنظيم السري الصهيوني ... (و) سلسلة عمـ[د]يات إلقاء القنابل على البيوت والمقاهي والمتاجر والكنس اليهودية"، وهي اتهامات أنكرتها المحاكم الإسرائيلية في دعوى أقامها الوزير السابق مردخاي بن فورات على من افترى عليه. ولا أريد أن أدخل هنا في جدل عن الأسباب الحقيقية، ولكن بعض المثقفين من الصهاينة في إسرائيل يشير إلى ما حدث فيما

بعد في العراق وإلى الحروب والدمار التي ألحقها حزب البعث بالعراق وبجاراته وبالأقليات ويحللها بقوله "أن الحركة الصهيونية في العراق أثبتت بعدَ نظرها في مساعدة يهودها على الهجرة إلى إسرائيل وإنقاذهم في الوقت المناسب من الكوارث الهائلة التي حلت بالعراق"، وذلك بغض النظر عن المعاناة التي لاقاها يهود العراق بعد هجرتهم، والتي اقتبسها سيادة الرئيس أبو مازن من كتاب "الخروج من العراق"، للأديب اسحق بار- موشيه الذي كان من كبار مؤرخي هذه الفترة الحرجة من حياة المهاجرين اليهود، وهو كتاب كتب بقلم موظف يهودي إسرائيلي فيها، ومع ذلك لم يطرد من وظيفته ولم يلقِ في غياهب السجن بسببها بل عين فيما بعد ملحقاً ثقافياً لسفارة إسرائيل في القاهرة، ونشر كتابه "مصر في قلبي" ولم يتهم بالخيانة. نعم، إن كل ما قاله حول ما رآه اضطهاداً ليهود العراق في إسرائيل هو صحيح، وهو من باب التنفيس والتخلص من الضغط النفسي الهائل لكي لا يحدث الانفجار. وهذا النقد اللاذع لسياسة الحكومة الإسرائيلية وموقف المجتمع الإسرائيلي تجاه يهود العراق ويهود البلاد العربية والذي كتب وطبع باللغتين العربية والعبرية في إسرائيل، فإن دل على شيء فإنما يدل بصورة لا تقبل الشك على ديموقراطية إسرائيل وحرية النقد والرأي والتعبير والتفكير فيها لأجل اصلاح الأخطاء التي وقعت فيها، وهذا هو السر في بقاء اليهود في إسرائيل بالرغم من الحروب المتوالية ضدها. فبعد السكنى في الخيام مثل اللاجئين الفلسطينيين، وتعاطفنا مع اللاجئين الفلسطينيين وأديهم، بل وانعكاس مصائبنا في شعر النكبة الفلسطيني، انتقلنا من الخيام إلى دور ثابتة لا تطوحها الرياح ولا تغرقها الأمطار بسهولة، شاركنا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية ونجحنا في اجتياز المحنة بشرف، "فعند الصباح"، يا سيدي الرئيس، "يحمّد القومُ السرى". أما اللاجئين الفلسطينيون فما زالوا ينتظرون الفرج رغم مرور أكثر من نصف قرن من الزمن. فقد رفض الزعماء العرب جملةً، قرار

التقسيم، ورفعوا شعار "خلي السيف يقول"، ثم شعار "الحل الإسلامي" وقد حاول السيد مردخاي بن فوراث عندما كان وزيراً في وزارة الليكود توطين اللاجئين في دور ومجمعات سكنية جديدة حديثة تمهيدا لحل مشكلة اللاجئين، ولكن السلطات الفلسطينية رفضت ذلك وفضلت بقاءهم على حالتهم المزرية، بدعوى أن العراة الجياع الحفاة يحسنون الانتقام واسترجاع حقوقهم، وتبجح ابو عمار بان ارحام النساء الفلسطينيات هي القبلة الذرية للعرب. برافو على هذا المنطق السليم القويم. أما ما فعلت السلطات الفلسطينية والدول العربية باللاجئين الفلسطينيين أينما حلوا، فحدث ولا حرج عن المأساة الإنسانية المحزنة والمخزية، وتركهم يستجدون مسحوق الحليب والطحين والزيت من وكالة الغوث الدولية بينما تتدفق أموال النفط على بناء القصور وتشجيع التطرف الديني، ولم تشأ توفير السكن والعمل لهم لأجل حياة كريمة بمبلغ يساوي ثمن ملء براميل النفط العربي وتصديرها إلى أوروبا خلال أسبوع واحد فقط. رحم الله سمي السموأل بن عادياء اليهودي الذي قال بيته الخالد:

وما ضرنا أنا قليل عدينا وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

قالت لي مستشرقة ألمانية، "أخذونا في رحلة منظمة لزيارة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في الضفة والقطاع وهالنا وضعهم المزري، وبؤسهم وشقاؤهم. طردتموهم من ديارهم وسكنتم في بيوتهم!" قلت لها "ولكن يهود البلاد العربية ينظرون الى هذه المأساة بمنظار آخر، وهو أنهم طردوا من ديارهم واقتلعوا من جذورهم، وصودرت أموالهم، وقيل لهم اذهبوا إلى فلسطين مكان اللاجئين الذين طردتموهم!. ولا شك أنك تعلمين أنه لولا الاستعمار الأوربي، ولولا هتلر والنازية واللاسامية في أوروبا، لما كانت هذه المأساة المريعة التي عانى ويعانى منها الفلسطينيون واليهود على حد سواء. فمتى يدرك زعماء العالم والمسؤولون

الفلسطينيون والإسرائيليون أن حان الأوان للتوصل إلى حل نهائي لهذه المعاناة المريعة والحروب المتوالية ومتى ينتهي هذا الاستخفاف بحياة الإنسان وكرامته وحقوقه في العيش بسلام في بلاد الأنبياء وفي هذه المنطقة من العالم؟".

كتب سيادة الرئيس محمود عباس - أبو مازن، في مقاله "يهود العراق" الذي لم أستطع الوقوف على تاريخ نشره وأورد حديث الشاعر الراحل إبراهيم عويديا في الإذاعة الإسرائيلية عن أسباب هجرة الشاعر إلى إسرائيل وكيف "اقتلعتة الحركة الصهيونية في العراق من جذوره رغم أنه"، وأورد ما قاله الشاعر معتبرا إياه "كشاهد من أهلها". ولكن علينا أن ننتميه إلى حقيقة أن هذا النقد العنيف أذيع من محطة إسرائيل وباللغة العربية، وإنه إن دلّ على شيء فعلى حرية التعبير وإبداء الآراء بصراحة مطلقة والى ديموقراطية هذه الدولة التي تتيح لناقديها منبرا مفتوحا على الدنيا. ويردف سيادة الرئيس أبو مازن بقوله "أي دافع صهيوني أو عقائدي وراء هجرته (أي إبراهيم عويديا) إلى فلسطين، بل أن هجرته إليها كانت قهريّة وقسرية استهدفت اقتلاعه من جذوره رغم أنه". نعم، كان المرحوم إبراهيم عويديا من أنصار الوطنية العراقية وتبرا من الصهيونية في نشراته وقصائده التي أعلن فيها عن ولائه للعراق ولملكه وشعبه وترايه، فقد كان يؤمن بأن الجالية اليهودية هي إحدى العناصر الأصيلة في نسيج البناء الاقتصادي والاجتماعي والأدبي والتاريخي في العراق، ولكن الحكومة العراقية طارده بسبب نقده لاضطهادها للوطنيين المخلصين، فأصدرت الأمر بالقبض عليه فهرب إلى إيران، ولما عاد إلى العراق بعد سنة من مغامرة عاطفية مؤلمة في طهران وجد أن عائلته قد هاجرت إلى إسرائيل، فالتحق بها بعد أن أدرك ألا جدوى من نقده الإصلاحى للعراق وانتظار إنصافه شاعر وطني عراقي يهودي، فقد صدق وها هي العراق كما ترى اليوم أعانه الله على الخروج منها. ويا سيادة الرئيس، من مثلكم يعلم

ان اصرار القادة الفلسطينيين على اباده اسرائيل واثارت الدول العربية والاسلامية ضدها كم كلف الدول العربية من آلاف من خيرة الشباب العربي ومن مليارات الدولارات ذهبت هباء في الحروب، لو كانت قد انفقت في سبيل اعمار واستقرار اللاجئين، كما اقترح الرئيس الاسرائيلي السيد شمعون بيرس، لاصح قطاع غزة والضفة واسرائيل مراكز تجارية ومالية وصناعية وطبية وعلمية من افضل البقاع في العالم. ولكن حب الانتقام والثأر ومقولة "علي وعلى اعدائي يا رب" التي صدرت من شمشون الغزاي، جنت المصائب على الشعب الفلسطيني الذي فقد ارضه وانزل في رقعة محاطة بالاسيجة والحصار البحري، بصورة يرثى لها وتثير ضمائر الاحرار ضد اسرائيل وضد تعنت القادة الفلسطينيين الذين يرفضون قبول الامر الواقع، لا مبالين بمصالح الشعب الفلسطيني الأبي المظلوم الذي قدم الغالي والنفيس لاجل قيادته التي تظن ان اباده الآخر هو الحل السليم والعدل لمشكلته التي خلقها لنفسه.

فيا سيادة الرئيس محمود عباس "أبو مازن" لولا حبي للعرب الذين ارتويت من ثقافتهم واخلاقهم النبيلة لما كتبت هذا العتاب بمثل هذه الصراحة.

.....

نشرت في جريدة "إيلاف" الالكترونية مقالا تأبينيا عن الشاعر إبراهيم عوبيديا، فإذا ياحدى المعلقات على المقال التي ظنت نفسها خولة بنت الأزور الجديدة في جهادها في سبيل الله ضد الكفار، تكتب بسخرية بالغة عن الشاعر الذي نظم قصيدته وهو في حشرجة احتضاره قائلا: "يارب نج العراق من محنه"، وقالت خولة الجديدة وهي تسخر من اسمه اليهودي: "يا افراهم عوفديا! إلى حيث ألفت!" وعندما قرأت هذه الكلمات، شعرت بأن كل حرف فيها يقطر سما زعافا من انياب رقطاع مترعة

بالحقد الأسود، ورأيت فيها زبانية الجحيم وهي تكشر عن أنيابها الصفراء التي تقطر
ضعيفة وكراهية وعنصرية، وبأن هذه الأنياب تنغرز كالصيافي في جسد العراق الذي
خارت قواه من الحقد والقتل وقطع الرؤوس وهدم دور العبادة على رؤوس المصلين
الركع السجود والمفخحات والاغتيالات التي تودي بخيرة العراقيين، آملين أن تشفع
لعراقنا الحبيب صلاة شاعرنا عويدبا لأجل خولته الجديدة وخلص العراق من الأحقاد
والترفة الدينية والمذهبية: "يا رب نجِ العراق من محنه!".

قُلْتُ يا فخامة الرئيس السيد محمود عباس، أبو مازن، إن يهود العراق هاجروا
بسبب "عمليات إلقاء القنابل على البيوت والمقاهي والمتاجر والكس اليهودية".
ولكن العجب هو كيف لم يهرب يهود البلاد العربية الذين عاشوا فيها قبل الغزو
الإسلامي، من إسرائيل والفلسطينيون يمطرون اسرائيل بصواريخ القسام العشوائية
وقنابل الهاون والمفخحات التي امتاز بها الفلسطينيون في هجماتهم على اسرائيل،
ولم يمرض على قودومهم إلا سنوات قليلة ومع ذلك لم يهربوا منها؟ وبالرغم من أنهم،
كما قال بار- موشيه، يشعرون في إسرائيل بعد هجرتهم مباشرة، بأنهم "كالأيتام في
مأدبة اللئام". فمنذ هجرتهم إلى إسرائيل يعانون من هجمات الفدائيين وحزب الله
وصواريخه، ثم من الحروب المتوالية، ثم السيارات المفخخة والانتحاريين الذين
يفجرون أنفسهم في وسط الباصات والأسواق في المدن الاسرائيلية، وفي حرب
الكويت الغاشمة عانوا من صواريخ صدام، تطلق بصورة عشوائية "على البيوت
والمقاهي والمتاجر والكس اليهودية" بل على رياض الأطفال والمدارس والأسواق
التي اغلب سكنها من يهود العراق، لغرض القتل والتدمير فقط، وذلك وسط تهليل
المجاهدين من حماس والجهاد الإسلامي وكتائب الأقصى على سطوح بيوتهم
وصواريخ حزب الله، وتهديد الرئيس الإيراني أحمددي نجاد بإبادة إسرائيل عن بكرة

أيها بالقنابل الذرية والصواريخ. وكأنه لا يدري ان معظم مدن اسرائيل وقراها يسكنها عرب فلسطينيون آمنون ينعمون بالتأمين الصحي والوطني والعمل كاطباء اخصائين وأساتذة جامعات، ويعيش معظمهم في فيلات واسعة ، ويتمتعون بحصانة تمثيلهم لعرب اسرائيل في الكنيستين، فإذا ارسل صواريخه برؤوس نووية لآبادة اسرائيل وسيباد الملايين من عرب اسرائيل والفلسطينيين، لا سمح الله مع اليهود. فإذا كان حقا ما قيل، فلماذا لا يهربون من إسرائيل ويعودون إلى بلادهم الأصلية وبالرغم من أن ملك المغرب وحكومته الحليفة لا تسقط الجنسية عن أي مغربي ولد هناك. إذن، فعلىنا أن نفتش عن سبب آخر لتمسك يهود البلاد العربية بإسرائيل التي تفتح أبواب مطاراتها وموانئها لكل من يريد مغادرتها. ألم تسأل نفسك يا سيادة الرئيس، كيف يتمسكون بأسرائيل بعد كل ما ذكرتم. لأن اسرائيل تتيح لهم الحرية والديموقراطية والحرية وحرية التنقل ومغادرة البلاد متى شاؤا؟ سألتني السيد رؤوف صيام صاحب مطبعة الشرق في المنطقة الصناعية الاسرائيلية في عطاروت قرب رام الله، لماذا تسمح حكومتكم لليهود الذين يريدون مغادرتها الى اوربا واميريكيا؟ قلت له كل مواطن اسرائيل حر في النقل ومغادرة البلاد متى يشاء، ومعظم عرب اسرائيل لا يرغبون بالرغم من "عنصرية اسرائيل اضهادها لهم" حتى بضم مدنهم الى السلطة الفلسطينية، ولماذا؟ أليس لانهم يتمتعون بالتأمين الوطني والصحي والمدارس والجامعات والعمل في المستوصفات والمستشفيات كأطباء وممرضين وصيادلة والتي يزورها العرب للمعالجة أكثر من اليهود، ومن يزر القرى العربية في اسرائيل فيرى الفيلات والقصور والحدائق الغناء. ولكن القومية، كل قومية بين الكثير من الأقليات، تعد كل رفاهية تحت حكم تراه اجنبيا، قفصا ذهبيا، تريد تحطيم قضبانها لتنتقل الى ما تراه الافضل، بمقتضى المثل "الطيور على اشكالها تقع".

قال لي الكثير من القادمين الجدد بأنهم حين قدموا إلى إسرائيل بالطائرات، نظروا من خلال نوافذها فرأوا أجنحة الطائرات كأنها أجنحة النسور، فهللوا وسبحوا وتذكروا وعد الله بجمعهم من أرض الشتات ونقلهم إلى "أرض الميعاد على أجنحة النسور"، وقالوا: إن وعد الله حقّ، وها هي نبوءات أنبياء إسرائيل المدفونين في العراق تتحقق. أما المفكر والأديب الكبير المرحوم أنيس منصور فيقول في مقالة عن الطبيب والمنجم الفرنسي ميشيل نوسترداموس (١٥٠٣-١٥٦٦)، بأن معظم نبوءاته عن مستقبل العالم ومن بينها قيام دولة إسرائيل وبقيائها بالرغم من معارضة جاراتها لها، قد تحققت. ولعل المرحوم أنيس منصور وهو الذي كان مستشارا للرئيس المصري السابق المغفور له محمد أنور السادات، قد همس له بهذه النبوءة، فاختار الرئيس الحكيم أنور السادات السلامة في عدم معاكسة الأقدار وما قدره الله، ووفق في خطوته المباركة وأنقذ مصر من حروب وويلات متتالية لا جدوى منها، والله أعلم، وها نحن اليوم نرى بدأ تحقق النبوءة في بزوغ الربيع العربي وثورة الشعب السوري على حكومة بشار الاسد الحبار العتيد تبيد شعبها، ننسأل الله ان يهدي الاخوان المسلمين الصراط المستقيم، "وإذا جنحوا للسلم فاجنح لها"، صدق الله العظيم.

إذن فعلينا أن نأخذ بالحسبان ليس الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية ونزاهة المحاكم في اسرائيل بحيث لا يسلم من ميزانها العادل أحد، حتى رئيس الدولة ورئيس الوزراء، بل علينا التفتيش الى جانب التأمين الوطني والصحي والحرية، عن الدوافع الدينية والروحية لليهود أيضا في حتمية العودة إلى ما يؤمنون بأنها "أرض الميعاد". قال لي أحدهم، إن العجيب هو أن سكان المثلث من المسلمين في إسرائيل يرفضون اقتراح بعض الساسة الإسرائيليين المتطرفين في ضمهم إلى أراضي السلطة الفلسطينية مقابل ضمّ المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية إلى إسرائيل!.

ولماذا يا سيادة الرئيس؟ وهم مسلمون وهم عرب فلسطينيون يرفعون الراية الفلسطينية في مظاهراتهم واحتجاجاتهم ضد "ظلم إسرائيل لهم" ومصادرتها لأراضيهم وقتل بعضهم في مظاهراتهم، ومع ذلك فيرفضون الالتحاق بقومهم ودولتهم وعلمهم وعروبتهم. ثم يضيف هذا الإسرائيلي المتطرف: "يتهم العرب إسرائيل بأنها تسعى إلى التوسع لكي تجعل حدودها من الفرات إلى النيل، ولكنها عندما تقيم الجدار الأمني للتخطيط لحدودها الضيقة، يقولون إنه جدار عنصري. فلماذا لا يدعون إسرائيل للعيش بأمان في هذا "الكتيو العنصري" ليتخلصوا من خوفهم من هذا اللحم الصهيوني الكبير المزعوم من الفرات إلى النيل؟" ثم يردف هذا المتطرف "الصهيوني" قائلاً: لكن للسياسة أصولها ومنطقها". هذه الآراء أوردتها هنا كما سمعتها من الكثير من يهود البلاد العربية، وما على الرسول إلا البلاغ، والرجاء أن لا تحملوني وزرها. "ولا تزر وزر أخرى"!

يا سيادة الرئيس! إن مسؤولية تاريخية وإنسانية كبرى تقع اليوم على عاتقك وعاتق السيد بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل الحالي، لإنهاء الصراع اليهودي-العربي الدموي المدمر للفلسطينيين أكثر من تدميره لإسرائيل ولحقن الدماء من الطرفين وهما من أبناء العمومة، فأنتما يا سيدي اليوم، أمل الدنيا في عقد معاهدة سلام بين الشعبين الساميين وأبناء الأعمام من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام. ويرى علماء الاجناس، ان اقرب الناس من الناحية الجينية وصلة الرحم هم الفلسطينيون والأكراد. سدّد الله خطاكم بما فيه خير المنطقة بل العالم أجمع، وآمل أن تدخلوا بوابة التاريخ والخلود كصانعي السلام وحماة الإنسانية المعذبة.

٣) هل تشعر أن هناك أجواء مشابهة للأجواء التي كنت تعيشها في العراق؟

هاجر معظم يهود العراق إلى إسرائيل لذلك لم يكن لنا حنين إلى الأهل والأصدقاء، فقد قدموا جميعهم معنا وإن تفرقوا في مدن وقرى ودول مختلفة، ولكن حينهم كان إلى مراتع الطفولة ومرابع الشباب، وقبور الأنبياء في العراق، ويحمل معظم يهود العراق أسماء أنبيائهم، مثل حسقيل الذي ورد اسمه في القرآن الكريم باسم ذي الكفل، والنبي ناحوم (في القوش قرب الموصل) والنبي دانيال (في كركوك) والنبي يونا (يونس، في الموصل) ويهوشع الكاهن الأكبر (في بغداد) والعزير (عزرا الكاتب) قرب الحلة. فلما استقر يهود العراق في إسرائيل من الناحية المالية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والمعاشية تدريجياً، تبوءوا المناصب الرفيعة من وزارية وعسكرية وعلمية وإدارية كإدارة البنوك ودوائر الضرائب والمتاجر الكبرى وشركات التأمين وجمعيات خيرية لتشجيع التعليم والفنون والآداب ونبغ منهم كبار الكتاب والشعراء باللغة العبرية وحافظوا على اللغة العربية والتراث الأدبي الفني والموسيقي العراقي الشعبي، فيقال إن صدام حسين قال عندما سمع بالاندماج السريع ليهود العراق في المناصب العالية في إسرائيل: "وليش لا؟" مو هاي هي العبقرية العراقية! أما رجال الطبقة العاملة ففتحوا الحوانيت والمتاجر والمطاعم والأسواق وعليها لوحات محل بغداد الصغيرة، محل اكو ماكو للمأكولات العراقية، مطعم سعيد العراقي، مخبز الكورك العراقي، الخ... التي تحتوي على جميع المأكولات والتوابل والفظائر العراقية، بل بنيت تنانير ومخابز ومعامل تقوم بخبز أقراص الخبز العراقية والكورك وبيع العنبة والزلاية (زنكولة)، والحلوات والملبس العراقية وخاصة في بيتح تكفا وسوق الكرمل في تل-أبيب ورمات غان وغيرها من الأسواق التي تقطنها الأغلبية العراقية، حتى انك تظن نفسك أنك موجود في قلب حارة اليهود في بغداد، هذا بالإضافة إلى الجو العراقي السائد في المقاهي حيث يلعبون الطاولة والنرد لقتل الوقت والدردشة، وحيث تذاق الأغاني والموسيقى العراقية. وهي صور حية يتهافت

عليها الاعلاميون لتسجيلها، هذا بالإضافة إلى تأسيس النوادي المخصصة لليهود العراق والمتقاعدين منهم خاصة مثل نادي الرافدين في رمات غان الذي يرأسه السيد يسرائيل شهرباني برعاية رئيس بلدية رمات غان السيد صفي بار (اختصار لاسم العائلة العراقي الكردي: برزاني)، والى اطلاق اسم صالح الكويتي والمغنية المصرية أم كلثوم على بعض شوارع اسرائيل. واعجب ظاهرة هنا هي نبوغ عدد كبير من الموسيقيين والمغنين اليهود الذين يحسنون الغناء العراقي التقليدي حتى باللهجة المعيدية ولهجة حضيري أبو عزيز. بل عرضت الممثلة شوش جورن محاورات نسائية بلهجة يهود العراق وقام دافيد يوسف رئيس بلدية مدينة أور- يهودا الحالي، بعرض تمثيلات باللغة العربية لليهود العراق عن حياتهم في مخيماتهم في الخمسينات من القرن الماضي. وعندما يجتمع يهود العراق في أمسيات أدبية وعلمية وفنية وغنائية واحتفالية لتكريم الأدباء والشعراء والفنانين اليهود من العراق أو من أصل عراقي في مركز تراث يهود العراق بإدارة السيد مردخاي بن بورات وفي الأمسيات التي تقيمها جمعية تشجيع الآداب والأبحاث برئاسة عضو الكنيست السابقة نزهت قصاب والاجتماع السنوي الذي يقيمه صندوق تشجيع التعليم والثقافية من تأسيس يهود العراق برئاسة السيدين عزرا كباي وعوبيد بن عوزير لجمع التبرعات للصندوق وكذلك في الأمسيات الأدبية والعلمية والغنائية التي تعقد في مركز أبحاث الحركة الصهيونية في القدس برئاسة المرحوم أبراهام كحيلة، والسيد يوثيل زلخا، والأمسيات التي تعقدتها رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق التي نشرت ما يقارب الخمسين كتابا باللغة العربية الفصحى والعبرية عن ذكرياتهم في العراق لأدباء وشعراء من يهود العراق، فانك تجد نفسك في أجواء عراقية خالصة، بل تستطيع ان تقول كما كتب لي الادبية وداد العزاوي بأسى بالغ: "نحن العراق الباقي"، فالغناء والموسيقى والقصائد تلقى باللغة العربية الفصحى والعامية فتعم الأفراح وتعود أجواء ليالي العراق

الملاح، وعند وفاة الشعراء أنور شاول ومراد ميخائيل والصحفي نعيم طويق وسليم البصون وإبراهيم عوبيديا وغيرهم أقيمت قصائد التأبين في أمسيات ذكراهم باللغة العربية، وعلى قبورهم الطرية، سقاها الله بوابل من غيثه العميم. حتى أن بعض العراقيين المغتربين من غير اليهود الذين شاركوا في مثل هذه الاحتفالات أو الذين زاروا مركز ومتحف تراث يهود العراق الذي أطلق عليه في الآونة الأخيرة اسم المحسن الكبير، يعقوب نمرودي صاحب جريدة "معرب" المسائية، يجدون أنفسهم غارقين بأجواء العراق التاريخية والأدبية والفنية والاجتماعية. فالمتحف يضم حارة يهودية بغدادية بمقهى الشاي والقهوة بالحجم الحقيقي، ومحلات الخياط والصانع والتنجي والعمار والبزار بواجهاتها المكتوبة باللغة العربية، والتي أعيد تشخيصها مع تماثل الصانع والصانع والخياط والبزاز والعمار وهم يعملون في محلاتهم والتي تصاحبها الأصوات والضوضاء والأغاني العراقية القديمة لتعطيك جوا بغداديا أصيلا. وفي هذا المتحف تعرض الأزياء العراقية اليهودية والحلي والملابس التي كان يرتديها اليهود في النصف الأول من القرن الماضي في جميع مراحل حياتهم أي من المهد وإلى الشيخوخة. وهناك عدة فترينات تحيط بنموذج للكنيس الكبير (صلاة الكيفي) في بغداد القديمة بنفس الارتفاع العرض، تحتوي على مصاحف الأعياد الخاصة وتحيط بها فترينات لجميع الأعياد وإيام السبت وبها نماذج من الطقوس التي كانت تمارس فيها وقد أعيد بنائها بصورة مصغرة والطعام الخاص بتلك الأعياد، كما نجد إدراج التوراة الفضية منها درج التوراة التي كتبها بخط يده الحاخام المجدد الشهير المرحوم يوسف حايمم على رق الغزال. هذا بالإضافة إلى عرض تاريخ يهود العراق بالخرائط المضئنة والتماثيل والأرقام والصور والوثائق والخرائط والمخطوطات والكتب النادرة والصور الفوتوغرافية. كل هذا يجعلك تشعر بأنك في العراق ولكن الفارق هو أن يهود العراق أيام سبي بابل كانوا يكون على أنهارها حيننا الى صهيون، أما اليوم فهم

يحنون إلى مشاهدة أنهارها ويتساءلون إذا كانت قيثاراتهم التي منعوا من مصاحبته معهم، ما زالت معلقة على صفصافها، أم حطمتها المفخخات والمتفجرات في هذه الحرب الطائفية والمذهبية والدينية والعنصرية المقيتة. ومع كل ما وصفنا، فلم يتهمهم احد بالخيانة والحنين الى البلاد العربية، بل ان المرحوم الكاتب الشهير سمير نقاش عندما اراد مغادرة اسرائيل الى مصر والعيش فيها مع زوجته المصرية واولاده لكي لا يخدمون في الجيش الاسرائيل، لم يسمح له بالبقاء فاضطر الى الإقامة في مانشستر، واخيرا ادرك ان افضل مكان له ولمستقبل اولاده هو اسرائيل، فعاد اليها ليموت فيها بعد قليل، رحمه الله رحمة واسعة.

.....

أما السؤال الرابع الذي وجهه الي هذا الصحفي العراقي فهو:

٤) هل أحسست بالاضطهاد أو التفرقة خلال تواجدك في بغداد؟

عند تصاعد الآراء النازية والفاشية في العراق في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات بدأ الاضطهاد من قبل السلطات والمنظمات القومية التي تأثرت بها وخاصة حركة الفتوة وكتائب الشباب ونادي المثني. كان المنتمين إليها من الشباب الذي تحمس للآراء النازية والفاشية ظنا منهم انها ستحررهم من الاستعمار البريطاني. وقد رأوا أن من واجبه إهانة اليهود وضرهم في الشوارع، حسبما اعترف بعض المعلقين على سلسلة ذكرياتي في حديثي عن "الفرهود" من الذين اتسموا بالنزاهة والصدق والإخلاص للعراق والوطنية العراقية لشعورهم بتأنيب الضمير، أما الجيران المسلمون فقد كانوا مسالمين معنا بل كان البعض من المدافعين عن جيرانهم اليهود قد عرضوا أنفسهم للخطر وإن لم يقتل أحد من المدافعين المسلمين كما ادعى البعض تملقا

بان ٢٠٠ من المسلمين قتلوا دفاعا عن جيرانهم ولم يقل لنا من قتلهم وكيف وعلى أي كتاب أو صحيفة أو وثيقة تؤكد شطحاته التاريخية التي اشتهر بها تملقا وظنا منه ان "محاضرته" لم تسجل بالفيديو. وقد أخبرني السيد يوسف شيمطوب وهو سائق سيارة تاكسي في مدينة بنى براق الذي ولد في بغداد يوم الفرهود، بأن جارهم المسلم، (ومع الأسف الشديد لم يستطع تذكر اسمه لتخليده في متحف الكارثة والبطولة في إسرائيل)، نقل والدته التي كانت في مرحلة الطلق والولادة، إلى داره مع حوالي الثلاثين من أفراد عائلته، فأواهم وواساهم وقام بحمايتهم وإطعامهم، وأرسل في طلب قابلة مسلمة لتقوم بالإشراف على ولادتها، واستضاف الجميع بدون مقابل، بل لوجه الله وذمة الإسلام السمح ما يقارب الثلاثة أسابيع. وكان يوسف شيمطوب خلال سفري إلى القدس يذكر هذا الجار المسلم الشهم وعائلته بالخير والدعاء له بالرحمة وجنات النعيم في عالم الخلود، بينما روى لي أصدقاء آخرون من وقائع الفرهود حالات غدر تقشعر لها الأبدان، "وكل إناء بما فيه ينضح". وقد قدم أحد الزائرين العراقيين لمتحف ومركز تراث يهود العراق في أور يهودا، من الذين اغتربوا في كندا، وهو الاعلامي الكبير حسين الحلبي، صينية من الفضة طبع عليها أسم الصائغ اليهودي العراقي "عمل حسقيل الياهو"، اشتراها من أحد محلات التحف في الأردن. وقال للسيد مردخاي بن بورات رئيس إدارة المركز بأنه يعتقد بأن هذه الصينية نهب في الفرهود من عائلة يهودية، ولذلك يشعر بان من واجبه كعراقي مخلص لوطنيته إن عليه إهداءها إلى مركز تراث يهود العراق في إسرائيل لإيداعها في متحف يهود العراق وليعيد الأمانة إلى أصحابها. فأكبرنا إخلاصه ليهود العراق ولذكراهم، كثر الله من أمثاله.

وفي عراق الخير والبركة، كانت تربطني روابط صداقة متينة بصديقي إباد ابن الدكتور علي غالب من ام سويسرية وكان بيننا من الود ما بين اخوين حميمين، وتربط اليهود بكثير من العائلات العراقية المسلمة والمسيحية والكردية روابط صداقة حميمة فتزاور ويشاركوننا ونشاركهم في حفلات الزواج والولادة والختان، أما في نهاية عيد الفصح حين لا يجوز لليهودي تناول الخبز الخمير بل الفطير فقط، فقد كان الجيران المسلمون يرسلون الخبز واللبن الى إخوانهم اليهود بانتهاء النهار الأخير لعيد الفطر لكي يشاركوننا لذة عودة الحياة إلى طبيعتها بانتهاء العيد والتذوق بشهية ما كان محظورا خلال أكثر من أسبوع من تناول الخبز الخمير واللبن الرائب والشينة. وفي المحلات المختلطة كان الجيران المسلمون إذا سمعوا بفتاة يهودية فقيرة في حاجة إلى إكمال جهازها ومهرها الذي عليها تقديمه لعريسها حسب العادات والتقاليد اليهودية القديمة البالية، كان الجيران المسلمون يقومون بمد يد المساعدة لعائلتها لتكمل فرحة العرس. وقد روي المرحوم ساسون عزت معلم من الديوانية في كتابه "على ضفاف الفرات" كيف كان اليهود الأغنياء في الديوانية يقومون بواجبات الضيافة وتكاليف الولائم للعائلات المسلمة في احتفالات الزفاف والختان. أما الأديب اسحق بار- موشيه، فقد روى أن والده قام بدفع نفقات ابن جاره التعليمية إلى أن أنهى دراسته الثانوية لكي يساعد جاره المسلم الذي لم يستطع القيام بذلك. أما الشاعر والأديب العراقي الشهير المحامي انور شاؤل محرر مجلة الحاصد فقد ارضعته جارته المسلمة السمحة حين تيتيم بعد ولادته، فأبى سيدة نبيلة هذه؟ الا تستحق اقامة تمثال لها في العواصم العربية، لتكون مثالا بحتدى للاخاء والانسانية الخيرة النبيلة، اسكنها الله تعالى واسع جناته وغفر لها ولاهلها الميامين، والأمثلة كثيرة رواها الأدباء أنور شاؤل وعزت ساسون معلم ومير بصري ومنشي زعرور وغيرهم

في كتبهم ومقالاتهم باللغة العربية التي نشرت أغلبها رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق.

وبعد عام ١٩٣٨ بدأنا نشعر بالاضطهاد والتفرقة في الشارع حين أخذ الصبيان والشبان يرحمون اليهود بالحجارة وخاصة في شارع غازي ومحلة باب الشيخ وفي أثناء صلواتهم في الكنس. أما في المدرسة فقد بدأنا أخي وأنا في مدرسة السعدون النموذجية نعاني من تحرش واضطهاد الطلبة وخاصة من قبل فيصل بن رشيد عالي الكيلاني وغيره من الذين تشبعوا بالآراء النازية، أما الطلبة الذين كانوا من أبناء الأجنيات فقد كانوا يتعاطفون معنا ومخلصين لنا. وقد رويت كثيرا من هذه المواقف في ذكرياتي عن مدرسة السعدون و"الفرهود" وشنق شفيق عدس التي نشرتها مجلة "إيلاف" الحرة.

٥) هل تحن إلى أجواء بغداد وما هي الأكلة التي كنت تفضلها حينذاك؟

العجيب ان نفس هذا السؤال وجهته الاديبة الفنانة ايمان البستاني، وارى ان ردي هناك يعد تنمة لهذا السؤال الذي تهتم به الامهات اكثر من الآباء.

- كانت والدتي تردد على مسامعنا نصيحة غالية رأيت اتباعها في هذه الردود، وهي: "ادخل في البيت اللي بيكيك ولا تدخل في البيت اللي يضحكك."، واليوم ادركت مغزى هذا المثل الحكيم، كان بالامكان التملق لمشاعر الفلسطينيين بصب الشتائم على الصهاينة لما فعلوه بالفلسطينيين من تشريد وقتل وعيش ذليل، ولكن

مثل هذا التعاطف الطفولي الساذج سيكون له فعل تسكين مؤقت لمعاناة الفلسطينيين كل هذه السنين الطوال، ولكن من الأفضل التحدث اليهم بصراحة من وجهة نظر موضوعية. ما معنى "النكبة الفلسطينية" ومن تسبب بها؟ النكبة هنا ان الشعب اليهودي بعد المحرقة النازية او الهولوكوست ادرك ان أوروبا العنصرية تريد التخلص من يهودها، وانه آن الأوان للعودة الى الديار المقدسة واحياء وعد الله لهم، أما المسلمون فيرون ان الصهاينة اعتدوا على شعب مسالم واغتصبوا دياره المقدسة التي فتحوها عنوة فوفحت وفقا اسلاميا لا يباع ولا يشتري. وكل جانب يروى ان الله هو الذي وعده ، ولا يمكنهم مخالفة وعد الله لهم. في العصر الحديث طالب اليهود بحق العودة، وقد صوتت الامم المتحدة على قرار التقسيم، وقبله الصهليون، ورفضه العرب واعلنوا عشية اعلان استقلال اسرائيل حرب إبادة، وهشوا الى هذه الغزوة الجديدة ظنا منهم ان يهود اوربا مثل يهود البلاد العربية، يخشون من مقابلة العرب، فكان نكبة فلسطين الأولى ثم تلاتها حرب ١٩٦٧ وكانت النكبة اكبر، وهذا تكرر الامر في حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ وتكررت الاعتداءات والمؤامرات والهزائم وكل مرة لا يقبلون بنتائج الحروب المتتالية،

-

- و ؤ

- الحنين إلى العراق هو شعور ملازم لمن هرب من العراق او هجر عنوة، وحيننا وتعاطفنا مع العراق اليوم هو بسبب ما يحدث الآن من المآسي يوميا، إذ تذكرنا أسماء الأماكن والصور التي نشاهدها في التلفزيون بمسقط الرأس فنترحم ونشفق وندعو إلى خلاص العراق من محتته. والحنين الرئيسي الذي نتبادل الحديث عنه في إسرائيل هو الصداقة الحميمة مع اصدقاء اعزاء ولليالي الجزيرة والنزهات بالبلاد

(القوارب) النهرية على دجلة في أيام الصيف المقمرة، وإيقاع المجاذيف و"نقر الدرابك من بعيد" مصاحبا العتابا والغناء العراقي الشجي، ورائحة ضفاف دجلة والفرات ودخان السمك المسكوف يعطر الأجواء، وغناء المستحمين "هذا الكيش حلاوي، يأكل تمر خستاوي"، والسباحة في مياه دجلة العطرة ومعلم السباحة الذي كان يعني معنا: "يا اولاد بلبول!" فرد "بلي" ثم يسأل: "ما شفتم عصفور؟" بلي! ينقر بالطاسة! "بلي لابس حياصة بلي ونهيهها بهوسة: ههبي ههبي! وقد تخلص رئيس الوفد الرياضي العراقي الذي اشترك مع العرض الكبير للكشافة الالمانية والاجنبية مشكلة انشاد النشيد الوطني العراقي، الذي طلب من الوفود المشتركة انشاده في مسيرتهم امام منصة الزعيم النازي المتعجرف مثل باقي الفرق الكشفية، هذه الهوسة الطفولية "لاولاد بلبول"، التي تظاهر رئيس الوفد العراقي بانها النشيد الوطني، ففازت بالتصفيق الحاد وترديد الفرق المحفلة والالمان بلازمة "بلي" من قبل الجمهور النازي الالمانى المتحمس، و"الطيور على اشكالها تقع!". كما كنا نغني للطيور عند مشاهدتها وخاصة للقلق، فيغنون له: "لكلك للكل للكل، بواق الصابونة من جوا الرازونة"، ومع الفاخطة في نواحها الذي أشجى ابي فراس الحمداني. وفي أغاني الأطفال هذه نجد أبياتا ليست ذات معنى ولكن الشئ الذي كان يطربنا فيها هو رنين القافية والإيقاع المرح، واليوم أدركت أن مثل هذا الغناء كان قد سبق المذهب العبثي (الأبسورد) في الأدب الأوروبي ورواية "في انتظار جودو". أما إذا شاهدنا جملا في شارع غازي فقد كان الصغار يعدون وراءه ويغنون له: "أبو حلق الجايف، أبو حلق الجايف"، فإذا أسمع هديره الغاضب، يستدركون مخافة أن بعضهم بأسنانه التي يسيل لعابه منها وينسبها في لحمهم الغض بقولهم: "لا، مو جايف، مو جايف!"

أما الأكلة التي كنا نفضلها في العراق فهي الكبة والباجة والقوزي في الشتاء والسّمك المسكوف في الصيف. وفي الصباح الصمون المقسب مع العسل والقيمر وعلب اللين التي كانت نساء المعدان تأتين بها من وراء السدة وكل واحدة منهن تحمل العديد من العلب على رؤوسهن في غبش الفجر سيرا على الأقدام مسافات طويلة بقامتھن المنتصبه بكبرياء واعتداد الرماح العوالي، رحم الله تلك الأيام الخوالي.

.....

٦) هل حصلت على كامل حقوقك بعد هجرتك إلى هذا البلد؟

في كل هجرة جديدة من القادمين الجدد يشعر أفرادها بشيء من التمييز بسبب عدم إتقانهم للغة العبرية والرطانة التي تميزهم والتي تصبح موضوعا لنواديرهم، أو أزياء ثيابهم أو المظهر الخارجي والعادات والتقاليد الجديدة عليهم، هكذا كان وضع يهود البلاد العربية، ثم يهود روسيا اليوم ويهود الحبشة بعدهم. وكانوا يسمون يهود العراق "عراقي بيجامة" لارتدائها في البيت وفي الشارع في بعض الأحيان، وكان اليهودي المغربي يسمى "ماروكي سكين" بدعوى أنهم كانوا يستعملون السكاكين في عراقهم، ويطلقون على القادم الجديد من رومانيا أسم "روماني حرامي" أو بسخرتهم من اليهودي القادم من ألمانيا بقولهم "يهودي عسير الفهم" (بيكي)، وغير ذلك من السخرية التي تثير حفيظة القادمين الجدد على المجتمع الإسرائيلي المشهور بعدم حساسيته تجاه مشاعر الآخرين. ولكن استيعاب القادمين الجدد يتم تدريجيا إلى أن تتلاشى الفوارق عندما يندمجون في المجتمع الإسرائيلي الذي أصبح اليوم يتسامح بسبب تعدد الجنسيات واللغات والعادات والذي اضطر إلى استبدال طريقة استيعابه للمهاجرين الجدد. فبعد محاولة الحكومات السابقة صهر القادمين الجدد في بودقة الحضارة الكيتو (الحارة) اليهودية الشرق أوروبية، تبنت اليوم تعدد الحضارات

والتقاليد والعادات واحترامها والتعايش بينها، فأخذوا يشاركون يهود المغرب في احتفالات الميمونة وتقاليد يهود كردستان في احتفالات السهرانة الشعبية ويهود الحبشة. وأنا اليوم اشعر باني حصلت على كامل حقوقي بل أكثر مما كنت احلم به لسبب رئيسي واحد وهو أنى ألقى اللوم على نفسي فقط إذا لم انجح في استيعاب مبادئ المجتمع الجديد وفهمه، فالمجتمع الإسرائيلي يقدس الثقافة والفن والتنافس العلمي والأدبي والفني فهو مجتمع يكره الكسل والتواكل والتقاعس وإلقاء اللوم على الآخرين. لذلك لم اتهم الآخرين بالتقصير نحوي، وإني كان عليّ كيهودي شرقي أن أبذل أضعاف الجهد الذي يبذله اليهودي الأوروبي لكي أكون على قدم المساواة معه. وقد طالبتُ بذل الجهد من نفسي أكثر مما طالبتُ من غيري، وهكذا أرسلتني الجامعة العبرية في بعثة دراسية إلى جامعة لندن لتقديم أطروحة الدكتوراه عن الشعر العربي الحديث ولما أنهيتها دعنتي الجامعة عام ١٩٦٦ إلى التدريس فيها. أما إخوتي الثلاثة الآخرين فقد نال الأخ البكر منا بعد إنهائه الماجستير في الجامعة العبرية درجة دكتور في الاقتصاد من جامعة لندن والأخ الثاني نال درجة دكتور في الفيزياء، أما الأخ الثالث فقد حصل على منح دراسية في أوروبا وأصبح من كبار الرسامين في باريس. أما أبناء أختي الكبرى فقد نالا لقب بروفسور في الطب والفيزياء العملية في الولايات المتحدة بعد نيلهما الدكتوراه من الجامعة العبرية، ومعظم الأحفاد في العائلة نالوا شهادات الطب والحقوق من جامعات إسرائيل والجامعات الأمريكية، وما عائلتي إلا نموذج لما بلغته كثير من عائلات النازحين من البلاد العربية بعد أن اندمج أبناؤهم في المجتمع الإسرائيلي. وهكذا نرى، إن إسرائيل تتيح للحميع الحرية في التنافس في الميدان العلمي والأدبي ومن لا يستطيع الفوز في مثل هذا التنافس، يسقط، أو كما يقول المثل العراقي الشعبي: "أبو كريبو يبيّن بالْعُبر!". ولم أجلس مكتوف اليدين في حياتي الجامعية وقمت بنشر الكتب العديدة والمقالات العلمية

عن الأدب العربي الحديث، ورشحتني الجامعة للمراتب العلمية من محاضر إلى محاضر أول إلى أستاذ مساعد (Assistant Professor) ثم إلى أستاذ كامل (Full Professor)، دون تأخير وذلك لنشري الكتب العلمية بصورة متتالية، ثم رشحتني الجامعة للحصول على أعلى جائزة تمنحها الدولة لعلمائها وهو جائزة إسرائيل في العلوم الشرقية عام ١٩٩٩. وأنا اليوم احصل على راتب تقاعدي ممتاز ، يمكنني من الحياة وعائلتي ببجوحة من العيش مكرما معززا في هذه الدولة التي تتهم بتهمة العنصرية والتفرقة من قبل من كانوا سادة التفرقة الدينية والمذهبية كما يحدث اليوم في سوريا وغيرها من الدول ويتهمون اسرائيل بتهم "ما أنزل الله بها من سلطان".

٧) لماذا تتصرفون مع سكان فلسطين الأصليين بطريقة عنصرية وتكفرون حقهم في أرضهم؟

هذا سؤال عويص كنت أود أن لا أخوض فيه. ولكن لا بد من كلمة صريحة. اللاجئون الفلسطينيون مظلومون، ونحن اليهود الذين سكنا مثلهم في الخيام في السنوات السوداء الأولى من قدومنا كنا نتعاطف معهم ونرثي لهم كما كنا نرثي لحالنا، بل كانت قصائد الشعراء الفلسطينيين في وصف معسكراتهم وحياتهم في الخيام تعكس شعورنا بالذل والفقر والعار لأن أموالنا جمدت ولم يسمح لنا بإخراج أكثر من خمسين دينارا على الأكثر، كل ما استطعت أخذه معي هو خمس دنانير. كنا نقرأ عن الفلسطينيين وكيف ظلمهم قادتهم وحكام البلاد العربية ولم يحسنوا رعايتهم والعناية بهم، فآلقوا تبعات حياتهم على لجنة إغاثة للاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة وقد وعدهم الزعماء العرب بالعودة بعد تدمير إسرائيل وشنوا حروب ١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٨٢، و٢٠٠٧، ولم يرضوا بالتقسيم عام ١٩٤٧ وفضلوا الحروب

وسياسة "خلي السيف يقول"، وما زالوا لا يقبلون بحل المشكلة الفلسطينية عن طريق المفاوضات، فيزيدون الطين بلة وفقدان الأرض والنفوس ومعاناة الجوع ويتكبدون الخسائر ويسعون إلى التدمير بدل البناء وبناء مستقبل جديد لشعبهم المنكوب. ولو قبلوا بقرار التقسيم لكانت النتيجة على غير ما هي عليه الآن.

.....

أواصل نشر موقفي الصريح من الصراع العربي مع اسرائيل، بالرغم من اتهامات كالهنا لي بعض القراء الذين ما زالوا لا يستطيعون فهم مغزى ما كتبت، وهو أن أظهر للقراء العرب ما خفي عليهم، ولكشف الخسائر الفادحة في الانفس والاضرار الجسيمة في الاموال على التسلح والافتتال من الجانبين، وما كان حاصل الصراع الى هجمة عمود السحاب؟ أليس العودة الى نقطة الصفر، حين رفض العرب التقسيم الذي صوت له مجلس الأمن حول قضية فلسطين لصالح اليهود بأغلبية ساحقة في ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، وقررها اليوم نفس المجلس لصالح الفلسطينيين في ٢٩ من نوفمبر ٢٠١٢ بأغلبية ساحقة ايضا، أي بعد ٦٥ عاما، قبل بها العرب اليوم باحتفالات الانتصار والشعور بالزهو لهذا الفتح التاريخي الاول من نوعه، ففيه قتلوا بالصواريخ الغزاوية-الايرائية بضع اسرائيليين وهدموا بضعة بيوت في اسرائيل، أما في غزة فمن سقط من الغزاويين هو ما كتب لهم وهم اليوم شهداء يعمون بجنات النعيم، وما هدمت من بيوت، ففداء لعيني فلسطين الصمود. كل ما فعله العرب هو التضحية لاجل الحصول على حقهم المشروع، فما دام الله منحهم البترول رخيصا، ليشتروا به الاسلحة من الغرب والشرق يملؤون بها جيوب المتاجرين بالاسلحة بالملايين، فعلى الشعب الصامد البطل ان يبقى جائعا وجاهلا ومريضا وان تنفق امواله على الجهاد الاصغر، وإذا لم يرض الشعب بالإمام الجائر او بالدكتاتور المصلح،

الضرورة، البطل، فإن اسلحته ستقوم كل من تسول له نفسه بالاحتجاج على سلطة الحاكم المظلمة. ما اسعد العرب وبوجود دولة اسرائيل كمشجب لسياستهم الفاشلة وإلقاء اللوم عليها لا على طرق تفكيرهم البالية.

ولنعد الى سؤالكم السابع: لماذا تتصرفون مع سكان فلسطين الأصليين بطريقة عنصرية وتنكرون حقهم في أرضهم؟

- السؤال محرج ولا شك فإذا نظرنا من وجهة نظر عربية، نرى ان ارض فلسطين هي وقف اسلامي لا يباع ولا يشتري بحكم شريعة منزلة مقدسة تمت بالفتح الاسلامي، أما من جانب اليهود فهو عهد الله لشعبه المختار، لاستيطان الديار المقدسة، في توراته التي نزل بها الكليم الى الشعب المختار بلغته المقدسة. فكلا الشعبين ينسب قدسية ارضه الى خالق السماوات والارض، ولا راد لإرادة الخالق، لذلك لم يرض الفلسطينيون المتدينون ولن يرضاها، أما الساسة اليهود فقد كان اصحاب الحل والعقد فيها، علمانيون يتعايشون مع الترسبات الدينية ويستطيعون المساومة عليها.

من يتصرف مع سكان فلسطين بصورة عنصرية؟ فالقادة الفلسطينيون أعلنوا الحرب على إسرائيل من أول ساعة إعلان استقلالها، إذ تأهبوا مع سبع دول للقضاء على شبل أسد يهودا في الساعات الأولى من ولادته خشية أن "يرد البحيرة شاربا، فيرد زئيره الفرات والنيلا،" كأسد المتنبى في مدحه لسيف الدولة الحمداني.

وبعد، فإن بين الفلسطينيين واليهود ما صنع الحداد، ودارت حروب طاحنة شنتها الدول العربية على إسرائيل والكل يعلم بأن غرض هذه الحروب لم يكن ترك الدبابات

والمدرعات غنيمة للصهاينة، أتريد ان اقولها بالقلم العريض، كانت الغاية منها إبادة اسرائيل، ففي عام ١٩٤٨ كانت الشعارات يومها: "تل أبيب الموعد" و"تل أبيب، سوف تصلى باللهيب"، ثم طرد على اثرها يهود البلاد العربية وصودرت اموالهم، فمنذ وعد بلفور عام ١٩١٧ والى اليوم وقعت إعتدآت متتالية على يهود البلاد العربية" المسالمين العزل ولم يحملوا السلاح داخل اوطانهم وهم الذين اخلصوا لمسقط رأسهم وخدموه من الناحيتي الاقتصادية والمالية والاجتماعية على الاقل، وقد قتل في الاضطرابات التي اثيرت بتشجيع من الحكومات العربية والجامعة العربية من اليهود ما يلي:

في قسطنطين - الجزائر	قتل عام ١٩٣٤	٢٥	يهوديا
في بغداد	قتل عام ١٩٤١	١٧٩	يهوديا
في ليبيا	قتل عام ١٩٤٥	١٣٥	يهوديا
في عدن	قتل عام ١٩٤٧	٧٦	يهوديا
وفي سوريا في مدينة حلب	قتل عام ١٩٤٧	٧٥	يهوديا
وفي المغرب في مدينة وجدة	قتل عام ١٩٤٨	٤٤	يهوديا
وفي المملكة المصرية	قتل عام ١٩٤٨	٢٠٠	يهوديا
المجموع		٧٤٣	يهوديا

هذا بالإضافة الى مصادرة أموالهم وطردهم الى جانب المسيحيين والاقليات الاخرى من معظم البلاد العربية، ما هو معروف، وتنشره الصحف العربية والاوربية والامريكية، ومن بقي من الاقليات ما زال يعاني من الاضطهاد العلني والخفي كما هو معروف.

وقد تسبب الفلسطينيون وتحريضهم ضد اليهود عامة بكل هذه الاضطرابات اضافة الى تحريض الدول العربية على الانتقام من اليهود جيرانهم وشركائهم في التجارة، كما ادت الحروب مع اسرائيل الى استشهاد آلاف الجنود مما أثار الحقد والكراهية والبغضاء من الجانبين، ففي الحروب صراع مرير من الجانبين. ويتساءل بعض معارفي الذين أثيراً من آرائه براءة الذئب من دم ابن يعقوب: هل تصرف العرب نحو اليهود وإسرائيل بصورة أفضل؟ فإذا دخل يهودي المناطق الفلسطينية خطأ أو للتجارة فمصيره الموت المحتم ولكن الفلسطيني يجرؤ على التسلل إلى إسرائيل للعمل فيها فهو يعلم بأنه في أسوأ الأحوال سيعاد إلى المناطق الفلسطينية أو يقبع في سجونها يرتع ويمرح كأنه في أحسن الفنادق بل يحق له أكمال دراسته. ولكن ماذا تعني سكان فلسطين الأصليين؟ فمعارفي من الصهيونيين يقولون إن هناك الكثير من اليهود من سكان فلسطين الأصليين سكنوها منذ الغزو العربي الإسلامي، ويضيف بعض الصهيونيين الأكثر تطرفاً عندما عرضت عليهم سؤال سيادتكم، ماذا يعنون بالفلسطينيين العرب خارج حدود دولة إسرائيل؟ ومن هو الذي ينكر حقهم بعد أن فقدوه في حروبهم المتوالية وإصرارهم على تدمير إسرائيل؟ إن عرب إسرائيل لهم حقوقهم التي يسعون إلى استكمالها وإصدار الجرائد المعارضة للحكومة ولهم ممثلون في الكنيست وحرية الإضراب والسفر الى الدول العربية المعادية لإسرائيل وحرية الخروج في مظاهرات وحرية الصحافة والانتخاب، ولو نشرت مثل المقالات العربية التي تصدر في الصحف العربية الإسرائيلية في البلاد العربية، لأودع كتابها في غياهب السجون ولأغلقت صحفهم. ثم يضيفون، إن الكثير من يهود البلاد العربية في إسرائيل يؤمنون بان طردهم من بلادهم القديمة كان بسبب حرب ١٩٤٨ والاعتداء عليهم وفصلهم من أعمالهم ثم طردهم بعد مصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة. والحروب المتتالية كانت بسبب عرب فلسطين وان هذا الطرد وتجميد

الأموال أو اغتصابها، كان بمثابة تبادل السكان وتبادل الأملاك بين عرب فلسطين ويهود البلاد الغربية. أما أنا فأقول إن أغلب اليهود الشرقيين يتعاطفون مع اللاجئين الفلسطينيين ويرون أنهم أيضا ضحية السياسات الاستعمارية الأوروبية ومطامعها في البلاد العربية وثرواتها النفطية خاصة، فقد كانوا ضحية فساد الحكومات العربية وسياستهم الانتقامية وبطشها بشعوبهم وتشريد الأقليات واضطهادها.

٨) بماذا يمتاز العراق وخصوصا سكان بغداد عن غيرهم في العادات والتقاليد والرفقة الحسنة؟

أما بماذا يمتاز العراق وخصوصا سكان بغداد عن غيرهم في العادات والتقاليد والرفقة الحسنة؟ فالبغداديون "عينهم شبعانة" وعندهم كبرياء وأنفة، ويخلصون في صداقتهم، عاطفيون يحبون الغناء والطرب، وتسيل دموعهم عند سماعهم للأغاني العراقية والمصرية، يحبون الولائم ويكرمون الضيف ويقدمون له افخر ما لديهم. ولكنهم يتحزبون بسرعة ويغضبون بسرعة ويغتابون خصومهم بسرعة ثم يندمون، ولات ساعة مندم. وعندهم أريحية وطول بال وإخلاص للأصدقاء والأقرباء يراعون لحمة النسب، ويشيدون دور العبادة أكثر من اهتمامهم بإنشاء المدارس والمستشفيات والمكتبات. واغلبهم يفضلون الذهاب إلى الملاهي والجلوس في المقاهي وشرب النارجيلة وتدخين السجائر ولعب الطاولة والنرد والبوكر والاستماع إلى الأغاني ودفع أهبظ الأثمان في سبيل الحصول على تذاكر حفلات الغناء والموسيقى، أما الكتب فينتظرون من الأديب أن يهدي كتابه لهم "إبلاش" وإلا فلا يغفرون له زلته إذ لم يهدا لهم بكلمات التبجيل والتعظيم والمديح. وهذا التصرف شبيه بتصرف يهود العراق في

إسرائيل فبعضهم ما زال يتصرف مثل "مكدي كركوك وخنجره بحزامه" ولكنهم على الأغلب يتصرفون بكبرياء ونخوة ووجود وكرم.

٨) هل تحس بالغبرة في مكانك الجديد وهل تعاملون بطريقة تختلف عن طريقة تعامل اليهود الغربيين؟ هل لليهود الشرقيين الذين جاءوا من الدول العربية إلى إسرائيل مكانة خاصة في المجتمع الإسرائيلي وهل هناك خطوط حمراء عليهم؟ لا أحس بالغبرة في مكاني الجديد، فقد قدم أغلب يهود العراق إلى إسرائيل وفضل القليل منهم الهجرة إلى أوروبا والولايات المتحدة وكندا والقليل إلى أستراليا، وهم ويعيشون في تكتلات سكانية، ولذلك فلا مكان للشعور بالغبرة، كما أنهم تعلموا اللغة العبرية بسرعة ونبع من بينهم كبار الكتاب اليهود من أصل عراقي من أمثال سامي ميخائيل وشمعون بلاص وإيلي عمير وكبار الشعراء من أمثال روني سوميك ويعرا بن دافيد والدكتورة ليليان دبي-جوري، وأصبح منهم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ورئيس الكنيست السابق السيد شلومو هليل ورئيسة كنيست سابقة هي السيدة دالية أتسيك من أصل عراقي، ووزير البنية التحتية هو بنيامين اليعيزر الذي يدعى تحببا باسمه العراقي فؤاد، والمرحوم السيد جدعون عزرا وزير البيئة وجمعهم من أصل عراقي، أما الوزراء من أصل شمال إفريقي فهم إيلي يشاي وزير التجارة والصناعة والسيد أتياس وزير الإتصالات، وعضو الكنيست رونيت تيروش من حزب كيدما فقد كانت تشغل منصب المدير العام لوزارة التربية والتعليم، وهناك الكثير من يهود البلاد العربية الذين يشغلون مناصب عليا وحساسة في القضاء والحسابات العامة من أمثال السيد ميني مزوز المستشار القضائي السابق للحكومة وزليخة المحاسب العام في الدولة، وقبل مدة أقبل موشي قصاب رئيس دولة إسرائيل من منصبه وهو من أصل إيراني، وذلك لأنه لم يثبت جدارته من الناحية الأخلاقية، هذا

بالإضافة إلى مئات من الأطباء والمحامين والقضاة والمحاضرين الجامعيين، والشعور العام هو أن المواهب والكفاءات لها الأولوية، ولم يعد للتمييز والفرقة الآن ذكر بعد الزواج المختلط ونشوء جيل جديد من مواليد البلاد، أما التمييز فيمارس بصورة خاصة بين المتدينين المتشددين الذين يرون أن يهود البلاد العربية أكثر تحرراً وأقل عصبية دينية وتمسكا بقشور الدين من يهود أوروبا الذين يتمسكون بأزيائهم بالمعطف الطويل صيفا وشتاءً والقبعة الأوروبية السوداء التي كان يرتديها الأوروبيون في شرق أوروبا وبنمط حياتهم والتدقيق في كل صغيرة وكبيرة من القوانين الدينية التي وضعوها لأنفسهم لتجنب الاندماج في الأغيار، أما أبناء الطبقة العاملة فيتشكون في بعض الأحيان من النظرة المتعالية لليهود من أصل أوروبي.

هذا، فمن الأولى أن أنهي كلامي هنا لكي لا أغضب الجميع أكثر مما أغضبتهم بصراحتي. ولكي لا يقولوا عني كما قال المرحوم سمير نقاش في قصته "والقصة- خون إذا خرف" بأني أصبحت قصة-خون العراق اليوم! ندعو الله أن يلهم الساسة والزعماء في العالم الحكمة والصبر والرأفة بالعباد، وفهم الأديان بانها لخير الإنسان وتنظيم حياته بصورة تؤدي الى سعادته في الدنيا والآخرة، ففي الأرض متسع للجميع، وتعاون الشعوب تؤدي إلى خير الإنسانية، والحروب لا تؤدي إلى حل جذري للمشاكل الدولية، بل تزيد الطين بلة، ويبد الإنسان الحديث من الأسلحة الفتاكة ما يهدد الحياة على هذه الأرض التي خلقها الله ليتمتع الإنسان بخيراتها وأنزل الأديان لصالح البشرية، وقانا الله شر الحروب والشقاق، وهدانا إلى خير الإنسانية جمعاء، إنه السميع المجيب.

(انتهى)

ميسيريت يروشلايم، أكتوبر، ٢٠١٢

ذكريات عراقية.

سلسلة جديدة يقدمها أ.د. شموئيل (سامي) موريه (٢)

مقدمة: التدمير الذاتي في العراق

الأربعاء ٣٠ مارس / آذار ٢٠١١

عندما أتأمل في تاريخ حياة كبار المثقفين العراقيين من أدباء وشعراء وعلماء وصحافيين من الذين قرأت عنهم أو التقيت بهم في المهاجر الأوربية والأمريكية أو راسلتهم بالبريد الإلكتروني الذي هدم سدود الرقابة الحكومية بين الشعوب، يأخذني الأسى لما آل إليه مصير الكثير منهم من مطاردة وسجون وتشريد، مما أدى الى هروب الأدمغة والكفاءات والمواهب العظيمة لكثير من العراقيين، فأتذكر البيت التالي الذي يلخص سياسة الحكام العراقيين خاصة نحو الشعب العراقي الكريم:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم أتذكر أبيات بدر شاكر السياب الخالدة في مواطنة مظلومة تلخص محنة العراق الذي لم ينتفع الشعب من ثرواته الطبيعية:

ويح العراق أكان عدلا فيه أنك تدفعين

سهاد مقلتك الضريبة

لملاء يديك زيتا من منابعه الغزيرة

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين؟

وعند تدويني لذكرياتي وقراءتي لمذكرات الأدباء العراقيين، ادركت ان هذه الأبيات تلخص موقف الحكومات العراقية خاصة نحو المواهب الفذة الرائعة التي يتمتع بها الكثير من المثقفين العراقيين وأفراد من عامة الشعب. ويمكن ان نسمي هذه الخصلة التي يتميز بها الحكام العراقيون بخصلة "التدمير الذاتي"، من جراء الاستبداد والظلم والابتزاز، دون التروي والتفكير في العواقب. فهم كما قيل، "قوم إذا أرادوا الثمرة قطعوا الشجرة". ويرون في العنف وقسر الشعب على الاستجابة لأهوائهم، الطريق الوحيد نحو تنفيذ مخططاتهم العشوائية الجهنمية، وهكذا افلحوا في تمزيق وحدة الشعب العراقي وتدميره، وشرذوه في جميع اقطار المعمورة.

عند طردنا من العراق لم يسمحوا لنا بإخراج بعض مدخراتنا وبيع املاكنا، ووصلنا إلى اسرائيل خاوي الوفاض، والقليل منا من كان يملك الخمسين دينارا، وهي اقصى ما سمحت به الحكومة العراقية الناكرة للجميل، بإخراجه معنا من العراق، فاضطر معظم الشباب للعمل لإعالة والديهم والعمل في اعمال وضيعة، بدل الدراسة في مدارس وجامعات البلاد والخارج، كما منعنا من اصطحاب الكتب والوثائق وآلات المهن المختلفة التي حذقها يهود العراق كالآلات الموسيقية، لذلك أخذ كاتب هذه السطور على عاتقه تشجيع أصدقائه العراقيين من المثقفين والأدباء على تدوين ذكرياتهم وتجاربهم في حياتهم العملية في العراق بصورة موضوعية، للحقيقة والتاريخ ولنشرها في سلسلة منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق في اسرائيل التي أسسناها عام ١٩٨٠، أما الذكريات التي تضم عددا قليلا من الصفحات فإني أحاول اليوم نشرها في جريدة "إيلاف" الالكترونية الغراء، الحصن الحصين لحرية الفكر والنشر باللغة العربية، حفاظا عليها من الضياع ولاطلاع القراء الكرام على

احداث أيام زمان بحلوها ومرها وخاصة ذكريات التهجير الثاني تحت حكم البعث الغاشم، وقد شجعتني استجابة الاستاذ الصحفي مراد العماري لاقتراحي في كتابة ذكرياته وموافقته على نشرها في "إيلاف" وعلى التفتيش عن ذكريات لأصدقاء آخرين ونشرها في هذه السلسلة الجديدة من "ذكريات عراقية" والتي اعتبرها الجزء الاول من سلسلة المقالات التي اعتزمت على نشرها. أما اليوم فاني أنشر السلسلة الثانية بقلم الاستاذ المرحوم أهرون موريه (معلم) من إخوة رجل الأعمال والشاعر الشعبي من الديوانية الفقيه عزت ساسون معلم مؤلف كتاب "على ضفاف الفرات، ذكريات أيام مضت وانقضت"، مراجعة واعداد الاستاذ نير شوحيط العماري، (شفا عمرو، دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، ١٩٨٠)، وذكرياته وحكاياته التي نشرها في كتابه "بعيد وقريب"، (شفا عمرو، دار المشرق للترجمة والطباعة والنشر، ١٩٨٣). وذكريات الاستاذ أهرون موريه-معلم هذه، تعد تنميما للأحداث التي رواها أخوه السيد عزت ساسون معلم. ومن بين الحكايات التي رواها، هي ذكرياته عن نزوله ضيفا علينا في البتاويين كأحد اقرباء الوالد الأعمام. وهي ذكريات جديدة بإعادة طبعها مرة أخرى ليقف القراء الكرام على الاخاء بين مختلف الطوائف العراقية في الفرات الأوسط "من اليهود وبين بدوه وحضره من العرب، في فترة نافث على القرن تحت حكم متتال - عثماني، بريطاني، ثم عراقي عربي". والسيد عزت ساسون معلم يمت بصلة القرابة الى عائلة والدي، ولقب معلم كان يمنح لرجال الدين اليهود خاصة، لانهم كان يعلمون الشريعة اليهودية، وقليل ما كانت العائلات المسلمة تتخذ لقب "معلم"، بل كانت تتخذ لقب "مدرس" لتمييزها عن العائلات اليهودية. وقد ربطت بيني وبين السيد عزت معلم، بعد ابتزاز حكومة البعث بصورة دينية معمل الطابوق الفني الذي أنشأه مع عائلته في الديوانية وهروبه الى إسرائيل. وقد جمعتنا رغم الفارق

في عمرينا، رابطة صداقة متينة الى آخر يوم من حياته، ومدحني بقصيدة نظمها بلهجة
الفرات الأوسط لا أزال اعتر بها.



وعندما كنت محاضرا للأدب العربي في وظيفة جزئية في جامعة بار-إيلان في رمات
كان، الى جانب عملي الثابت في الجامعة العبرية، كانت السيدة سيلفيا موريه زوجة
السيد أهارون موريه من بين طلابي، فطلبت منها أن تحتّ زوجها على تدوين ذكرياته
عن الأيام الأخيرة في العراق تحت حكم البعث، وخاصة بعد أن قرأت كتابي أخيه
السيد عزت ساسون معلم، فاستجاب مشكورا. ومضت السنون ثم سمعت عن وفاته
في مدينة رمات كان، ثم عثرت على ذكرياته بين أوراق، وطلبت الاذن من ارملته
السيدة سيلفيا السماح لي بنشرها لأهميتها التاريخية، فسمحت لي مشكورة.

واليوم بعد المحن التي مرّ بها العراق الجريح، ما احرى بالحكومات العراقية والعربية
اليوم بالإتعاظ بهذه الذكريات وأخذ العبرة منها في معاملة الأقليات الدينية والطائفية
معاملة تليق بأبناء الوطن الواحد الذين بنوا حضارته ومجده قبل الفتح الإسلامي
وساهموا مساهمة كبيرة في بنائه بإخلاص. وفي هذه المرحلة الحرجة من حياة
الشعوب العربية، مرحلة بقطعة الشباب العربي الناهض وانتفاضتهم ضد طغيان حكامهم
الذين استأثروا بثروات البلدان العربية وألهوا شعوبهم ببيع خطر اسرائيل الوهمي
للبقاء في الحكم أطول مدة ممكنة ولتوريثه لأبنائهم الذين تربوا على فكرة ان الشعب

هو بقرة حلوب يتمتعون بخيراتها دون الاهتمام الحقيقي بحاجات شعوبهم في العيش بكرامة وتحسين اوضاعهم المادية والاجتماعية والثقافية وحرية العبادة والفكر. فإلى القراء الكرام أهدي هذه السلسلة الجديدة من ذكريات أحد ضحايا حكم البعث الغاشم، الذي دمر العراق تدميرا وأوقع بين طوائفه واديانه، انشرها للعبرة والتاريخ.

شموئيل (سامي) موريه

٢٥ آذار، ٢٠١١

ذكريات عراقية. سلسلة جديدة يقدمها أ. د. شموئيل (سامي) موريه (٢)

ذكريات من العراق

بقلم أهارون موريه (معلم)



الحلقة (١)

كيف تطورت علاقاتنا مع المواطنين العرب

نشأنا في مدينة الديوانية الواقعة في وسط العراق، كان أبى المرحوم إياهو رئيس عائلة (معلم) قد كرس حياته للديانة فقط وكان كبير عائلتنا أخي الأكبر المرحوم ساسون معلم وهو شخصية معروفة لدى الكثير من العراقيين عرباً ويهوداً كرجل أعمال ومزارع كبير وقد تعلمنا منه نحن أفراد عائلته الاستقامة والأخلاق الفاضلة وإكرام الضيف ومحبه الغير ونحن كنا وما زلنا نؤمن بالنظام العائلي فكبير العائلة له مكانته واحترامه لدى أفراد العائلة.

كانت علاقتنا مع بقية السكان غير اليهود ودية لا أحقاد في القلوب ولا ضغائن في النفوس، لا تفرقه في الدوائر الحكومية ولا في المدارس، حيث لا فرق بين طالب يهودي وأخر غير يهودي وقد شارك كثير من اليهود الرجال العرب في أعمالهم التجارية، كما وقد اشغل اليهود الدوائر الحكومية والشركات والبنوك والتعليم والوظائف الكبيرة منها والصغيرة، كما وقد خدم في الجيش العراقي عدد من الضباط اليهود وتخرج من الكلية العسكرية كثير من ضباط الاحتياط برتبة ملازم ثاني منهم ابن أخي المهندس نعيم شيمش وأخي المرحوم ناجي معلم وغيرهما، ولذا فقد قام اليهود بدور كبير في إنهاض العراق وتقدمه ثقافيا واقتصاديا بعد تحرره من الاستعمارين التركي والبريطاني نظرا لثقافتهم ونشاطهم في كل الميادين في الوقت الذي لم يكن بين المواطنين العرب في العراق من المثقفين إلا القليل كنتيجة لفترة

الاستعمار التي مَرَّ بها الشعب العراقي وحرمانه من المدارس في حين كان للشباب اليهود مدارس خاصة بهم.

كنا نشارك أهالي مدينة الديوانية وشاركونا الأفراح والأتراح بالأعياد وبحفلات الزواج وحتى في تشييع موتاهم إلى مدينة النجف وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية المختلفة وكانوا يستقبلوننا بكل تقدير واحترام ونستقبلهم كذلك. كنت اشعر بسرور عندما كان أخي المرحوم ساسون معلم يتراًس وفداً من أبناء عائلته وبعض أصدقائه يزور وجهاء البلد في دورهم لتقديم التهاني بمناسبة العيد فيستقبلوننا بحفاوة وود حيث تقدم القهوة العربية والحلويات وكانوا هم يزوروننا بتلك المناسبات أيضاً ويلاقون منا أحسن استقبال، وعند وفاة المرحوم الملك فيصل الأول أقيمت في كنيس اليهود في مدينة الديوانية حفلة تأبينية كبرى حضرها متصرف اللواء وكبار الموظفين وجمهور غفير من الأهالي أُلقيت فيها الخطب التأبينية من قبل اليهود والعرب وكان من بين الخطباء فيها الدكتور نسيم عزرا نسيم الذي شغل في إسرائيل منصب معاون رئيس بلدية رمات-كان حالياً مع كاتب هذه السطور، كما وأقيمت حفلة تأبينية مماثلة بوفاة المرحوم الملك غازي الأول، كنت احد الخطباء فيها وخطب أيضاً المرحوم داود سلمان خلاصجي والآنسة صبيحة ربيع.

وكان اليهودي بنظر المواطنين العرب رجل أمانة وثقة واني أتذكر جيداً كيف كان بعضهم يودع نقوده أمانة عند احد سكان المدينة المدعو الياهو جبره وذلك قبل تأسيس بنك في المدينة آنذاك بدون وصولات أو أي مستحقات، وفي اجتماع لجمعية مكافحة السل في الديوانية انتخب أخي المرحوم ساسون معلماً أميناً لصندوق الجمعية وحساباتها. هكذا كانت العلاقات السائدة بيننا وبين المواطنين العرب، علاقات ودية طيبة وصافية من الشوائب. ترى هل يعود يوماً ذلك الصفاء والتآخي

بيننا وإنما لذلك لمنتظرون. وعندما كنت أرافق أخي المرحوم ساسون معلم في بعض سفراته إلى مضاييف شيوخ العشائر يأخذني العجب مما أرى من حسن الأخلاق والتقاليد العربية الأصلية الطيبة وكرم الضيافة منذ قديم الزمان، فأطابق (صواني) التمن الكبيرة ذات الرائحة الزكية التي اشتهر بها التمن المزروع في الفرات الأوسط مرصوف عليها الذبائح الأغنام الصغيرة (القوازي) والخبز الحار الذي اخرج من التنور توا تثير الشهية وتدل على الكرم والسخاء. يأكل الضيوف أولاً ثم يعقبهم أفراد العشيرة علماً بأن مضيف شيخ القبيلة هو دار الضيافة التي تستقبل أي فرد يلجأ إليها للأكل أو المبيت مجاناً وهو النادي الذي يتسامرون فيه وهناك تروي الأخبار والقصص، وإكرام الضيف واحترامه عند العرب من أهم الواجبات الاجتماعية وقد أغلقت هذه المضاييف بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ التي قام بها المرحوم عبد الكريم قاسم بسبب مصادرة أراضيهم الزراعية بموجب قانون الإصلاح الزراعي وانقطاع مورد تمويل هذه المضاييف.

بدأت العلاقات بيننا وبين المواطنين العرب تتغير تدريجياً عند ظهور بعض الأحزاب اليمينية المتطرفة في العراق والتغيير الذي طرأ أولاً كان لدى قلة من المواطنين وعندما ظهرت النازية المجرمة وبثت سموم دعاياتها بعمق بواسطة أجهزة إعلامها القوية أثرت في نفوس الكثير من العراقيين تأثيراً معادياً لليهود انعكس ذلك على علاقاتنا مع الدوائر الرسمية بصورة سلبية وظهرت بوادر التفرقة بين اليهودي وغير يهودي وعندما بلغت هذه الدعاية أوجها وحصلت ثورة رشيد عالي الكيلاني ضد الانكيز سنة ١٩٤١ قتل وجرح المئات من يهود بغداد ظلماً وبدون أي سبب وحصلت تلك المجزرة المعروفة "بالفرهود" بتحريض الدعاية النارية لمواطنين ضد اليهود ليس إلا - وبحضرتي هنا حادث قد يكون طريفاً، فقد كنت ذات يوم من أيام ثورة رشيد عالي

ماشيا في الشارع الرئيسي لمدينة الديوانية فرأيت الشاب حسقيل يعقوب ماشيا يتأبط ذراعيه رجلين خوفا من هروبه يحيط به عدد من الرجال والأولاد متجهين به نحو سراي الحكومة، فسألت احد المحيطين به عما فعله هذا الشاب اليهودي ولماذا يقودونه إلى الشرطة، فإجابتي إن المذكور ضبط وهو يقطع بالمقص أسلاك التلفون الممدودة على الأرض والتي تربط بين وحدات الجيش المرابطة للدفاع عن مدينة الديوانية، فتابعت الموكب عن كذب لأرى النتيجة وعندما بلغ الموكب مركز الشرطة سأل مأمور المركز الذين أتوا به قائلاً: أين المقص الذي كان يقطع به الأسلاك التلفونية؟ أجابوه لقد ابتلعه، أما مأمور المركز فقد أمر بتوقيفه إرضاء للذين اقتادوه بسبب غليان العواطف آنذاك، وبعد انصرافهم أطلق سراحه. وفي حديث لي مع ضابط كردي في الجيش العراقي حول ما لحق بنا من الظلم والخسائر في النفوس أثناء تلك الثورة، قال موسياً، إن شر البلية لم يقتصر عليكم وحدكم فقد شمل علماء وأكابر وضباط كثيرين، فأجبتته من قتل أو سجن من غير اليهود كان معارضا لرجال الحكم، أما من قتل منا فقد كان ضحية للنازية المجرمة.

بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني كانت الحالة بالنسبة لليهود بين مد وجزر تارة حسنة وأخرى سيئة حسب أهواء ومتطلبات الطاقم الحاكم، فإذا احتاج إلى كبش فداء أو سلم للصعود أو استعراض العضلات، كان اليهود طوع أمرهم يتحملون الظلم والجور بصبر، وعند قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨) وهجرة يهود العراق الجماعية (١٩٥٠) زدوا اليهود الذين أبوا مفارقة مسقط رأسهم بالبطاقة الصفراء المعروفة بهوية عدم إسقاط الجنسية العراقية، وبدأت حملة ظالمة ضد يهود العراق الباقين بعد انقضاء السنة المخصصة لإسقاط الجنسية العراقية على اليهود الراغبين في الهجرة، واشتدت الحملة بعد اكتشاف منظمة الصهيونية السرية (التنوعة) في بغداد والقبض على معظم

أفرادها، وكانت محاكمتهم مثيرة للعواطف ضد اليهود وزاد الطين بله إعدام التاجر الكبير المرحوم شفيق عدس في البصرة (١٩٤٨) بعد محاكمة عسكرية بتهمة إرسال أسلحة لإسرائيل، كان لهذين الحادثين وقع سيء على نفوسنا سيما وان رسائل الإعلام العراقية استغلتهما لبث الحقد والكراهية ضد اليهود استغلالا واسعا. تلا ذلك حملة قوية من قبل الحكومة استهدفت تقليص أعمال اليهود حين فصل جميع الموظفين من وظائفهم في الدوائر الرسمية والبنوك وسحب إجازات المستوردين ومنع قبول الطلاب اليهود في الجامعات وألغيت اعتمادات التجار في البنوك وغير ذلك من الإجراءات التعسفية المختلفة.

في يوم ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، قامت ثورة المرحوم عبد الكريم قاسم وزملائه من الضباط تلك الثورة التي أطاحت بالنظام الملكي في العراق، وفي اليوم الأول من قيامها وفي قمة هيجان العواطف وتحريض الشيوعيين، قتل جميع أفراد العائلة المالكة بما فيهم المرحوم الملك فيصل الثاني الشاب ومريته البريطانية الجنسية، وقد قال لي ضابط كبير في الحرس الملكي إن العراق خسر ملكا ذو شخصية محبوبة وأخلاق فاضلة وذكاء واسع، كان من الممكن للعراق الاستفادة منه كثيرا في تكوين مستقبله، أما الأمير عبد الإله الذي كان وصيا على العرش قبل أن يتوج المرحوم فيصل الثاني ملكا، فقد ربطت جثته بسيارة نقل وسحلت في شوارع بغداد الرئيسية وسحلت كذلك جثة - السياسي المخضرم نوري السعيد الذي ترأس الوزارة العراقية لفترات كثيرة ويعتبر من أشهر ساسة العراق وأكثرهم حنكة ودهاء، سحلت جثته في شارع الرشيد والشوارع الرئيسية الأخرى، وكان قد أطلق النار على نفسه عندما عثروا عليه في مجلة البتاوين في بغداد متنكرا بزي امرأة ومحاولا الهرب إلى خارج العراق، وأثناء سحل جثته كان هذا الشخص أو ذاك يقطع قطعة من الجثة إلى أن بقي منها

فخذ واحد فقط أخذه الساحبون للأشلاء جثته إلى صوب الكرخ وجمعوا حطبا لشيء وحرقة أمام قصره، وعندما حلّ الظلام وأعلن نظام منع التجول انصرفوا عنه. وكان لمدينة الديوانية نصيب أيضا من حوادث السحل حيث قتل عقيد في الجيش العراقي داخل ثكنات الجيش على يد الجنود ثم سحلت جثته بالحبال من قبل ثلة من الجنود من الفرقة الأولى إلى الجانب الثاني من المدينة وعلقت على شجرة أمام سراي الحكومة.

وعندما نعود بالذاكرة إلى ثورة عبد الكريم قاسم لا يغيب عن البال محكمة المهداوي، فقد شكل الانقلابيون محكمة عسكرية سميت بمحكمة الشعب برئاسة فاضل عباس المهداوي، وكان المقدم ماجد أمين مدعيا عاما فيها، لقد كانت تلك المحكمة منبرا عاما للهتافات والشعارات الشيوعية البراقة وجد فيها الشيوعيين متنفسا لشعاراتهم ومشاعرهم المكبوتة خلا الحكم الملكي وكل بضعة دقائق تمر اثنا المحاكمة كنا نسمع الشعارات الهاتفة بسقوط (الاستعمار والرجعية والامبريالية) وغيرها يسبقها هتاف "يعيش" أو "يسقط"، حسب الحاجة ثم يليه تصفيق يصم الأذان بالإضافة إلى خطب المهداوي وماجد أمين التي لا تخلو من السب والاهانات للذين جاءت بهم الأقدار إلى قفص الاتهام أمام هذه المحكمة، ووقف في قفص الاتهام جميع رؤساء وزارات ووزراء وقادة الحكومات السابقة تقريبا وهنالك وسط جموع المشاهدين الغفيرة تلقوا من الشتائم والاهانات الشيء الكثير فاعدم من اعدم وسجن من سجن.

بعد أن هدأ الغليان الناتج عن ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ أعاد المرحوم عبد الكريم قاسم لليهود حريتهم واطمئنانهم فكان ينادي دائما في خطبه بالمساواة بين المواطنين بغض النظر عن اختلاف الدين أو اللغة أو القومية وهذا ما حصل في عهد حكمه

قولاً وعملاً، فقد تمتع الشعب العراقي بكافة طبقاته بالحرية التامة مما جعل المرحوم عبد الكريم قاسم اقرب زعيم إلى قلوب الشعب العراقي بكافة طبقاته ما عدا الفئة القليلة المعارضة الطامعة في تسلّم الحكم، وأعاد لليهود معظم حقوقهم وقبل آبائهم في الكليات، واستمرت هذه الفترة من الحرية حتى استيلاء عبد السلام عارف على الحكم بانقلاب عسكري دموي أطاح بحكم المرحوم عبد الكريم قاسم، وأصبحت الانقلابات مألوفة لدى العراقيين لكثرتها، فكثيراً ما كنا نصبح على بيان رقم ١ لقائد إحدى الثورات معلناً الثورة باسم الشعب، بينما أفراد الشعب في دورهم نائمين ولا يعلمون ما يجري حولهم، وفي هذه الثورة المضادة لثورة ١٤ تموز قتل عبد الكريم قاسم زعيم الثورة وكثير من أتباعه في الحكم ورئيس محكمة الشعب فاضل المهدي والمدعي العام ماجد أمين وعرضت جثة الزعيم في التلفزيون العراقي للمشاهدين وبصق أحد جنود الجيش على وجهه وهو جثة هامدة، كذلك عرضت جثة رئيس محكمة الشعب والمدعي العام فيها ولم يراعوا حرمة الموتى.

ذكريات من العراق

بقلم اهارون موريه (معلم)

الحلقة (٢)

مجازر حزب البعث

بعد حرب الأيام الستة وانتصار الجيش الإسرائيلي الساحق الذي أدهش العالم بفترة قصيرة استولى حزب البعث على الحكم في العراق بانقلاب عسكري كالعادة وأبعد الرئيس عبد الرحمن عارف إلى تركيا وشيئا فشيئا احكم سيطرته التامة على كل أجهزة الحكم في العراق وأصبح لعضو الحزب المنظم الكلمة العليا في دوائر الجيش والشرطة والإدارة وباقي دوائر الحكومة فلا وزن لرتب العسكرية ولا قيمة للمناصب الإدارية وجرى تصفية كل من يشم منه رائحة معارضة بوحشية في حمامات دم لا رحمة فيها والظاهر كانوا يهتدون بقول الشاعر:

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّدَ، ذَا عَقَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلَمُ.

بدأ اضطهاد اليهود من قبل البعثيين بقطع التلفونات عن بيوتهم ومحلات أعمالهم ومنعوا من السفر إلى خارج العراق ومن بيع أملاكهم بالطابو وبدأت اعتقالات كانت أولا بأوامر (حجز اليهودي فلان حفظا لحياته) ثم تحولت إلى إلصاق التهم وأهمها تهمة الصهيونية والتجسس لحساب إسرائيل وعقوبتها الإعدام وتطور الأمر إلى إعدامات بالجملة والمفرد. وفي يوم ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩٦٩، وكان من أسوء الأيام التي عاشها يهود العراق وأعمقها أثرا في نفوسهم اعدم عشرة يهود دفعة واحدة، ففي صباح ذلك اليوم الباكر كانت جثثهم معلقة على أعواد المشانق المنصوبة في ساحة التحرير والغوغاء يرقصون من حولهم ويغنون مثلما يفعل أكلوا لحوم البشر في

مجاهل إفريقيا والراديو والتلفزيون يحثان أهالي بغداد للتوجه إلى ساحة التحرير للفرج، واحمد حسن البكر رئيس الجمهورية يحضر الاحتفالات ويعلن ذلك اليوم عطلة رسمية عامة احتفالاً بالنصر العظيم الذي حققه على أناس أبرياء عزل لا حول لهم ولا قوة، وبقيت جثثهم معلقة حتى ساعات الظهر، لقد كان يوماً حالك السواد شديد المرارة ترك أثراً عميقاً في نفوسنا بحيث اشعر الان وكان الحادث وقع بالأمس القريب، تلا هذا الحادث إعدامات أخرى علنية ثم تطور الأمر إلى قتل اليهود داخل السجون وبدون محاكمة فمنهم من سلمت جثته إلى ذويه مثل المرحوم المقاول داود زيده الذي اعتقل لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع سلمت جثته إلى ذويه الذين لم يجرؤوا حتى السؤال عن سبب وفاته، أما المرحوم نسيم يئير الذي اغتيل في السجن وضعت جثته في ثلاجة لمدة ستة أشهر حاول أهله خلالها معرفة مصيره دون جدوى ولم يتركوا باباً الا وطرقوه وكان موظفو السجن يستلمون ما يرسله له أهله من الطعام والملابس في حين هو جثة هامدة في الثلاجة وقد طلب ذويه من العم عزرا أبو النيل مساعدتهم لمعرفة مصيره فطلب من صديقه سكرتير وزارة الدفاع التحري عما إذا كان حياً وعندما سأل المسؤولين عن السجن أجابوه بأنه حي يرزق فكذبوا حتى على سكرتير وزارة الدفاع وهو ضابط برتبة كبيرة، كانت هذه أساليب حكام البعث في معاملة ضحاياهم وبعد مضي ستة أشهر من اغتياله داخل السجن سلمت جثته إلى ذويه وكذا كان الحال بالنسبة للمرحوم فؤاد شاشا الذي قتل ولم يعرف أهله وكان جثته، أما المرحوم التاجر شوع سوفيير فقد اغتيل داخل السجن وظلت زوجته السيدة مارسيل تفتش عنه في جميع المواقف والسجون دون جدوى وكانت لا تصدق أو لا تريد أن تصدق بموته رغم كثرة الإشاعات عن اغتياله وأخيراً قيل لها أن زوجها هرب من السجن، كما واغتيل الكثيرون من اليهود داخل من اليهود داخل السجون وبدون محاكمة ولم يعرف ذووهم أين دفنوا أمثال الخياط المرحوم عزرا قحطان وأخيه

والمحامي يعقوب عبد العزيز وشاؤل شماش وشاؤل رجوان وكثيرون غيرهم وقد شهدت حجرات قصر النهاية وهو الموقف الكبير الخاص بحزب البعث فقط شهدت أقسى أنواع التعذيب وأشدّها فظاعة ورددت جدرانها صدئ أهات المعذبين وصيحاتهم ومن دخل هذا الموقف وحالفه الحظ وخرج منه حيا خرج عليلا على الأرجح وهذا الأمر ينطبق على باقي المواطنين من غير اليهود أيضا.

ازدادت الحالة سؤا وعشنا آنذاك في جحيم من الرعب لا يطاق ويكفي أن يدق جرس الدار في دار أجدد اليهود ليلا ليدخل الخوف والفرع إلى قلوب ساكنيه وكثرت الإشاعات عن تجريد أموال اليهود الباقين وحجزهم في مخيمات خاصة وفي كل صباح عندما يلتقي يهوديان يسأل احدهما الآخر عن اليهود الذين اعتقلوا في الليلة السابقة وأقراص الغاليوم المهدئة لا يخلو منها أي دار فيما كانت شرطة الأمن تلاحق اليهود في دورهم وأماكن عملهم دون هوادة وتحصى خطواتهم وانقطعت أبواب الرزق عن البعض إما بسبب إخراجهم من وظائفهم اون لفقدانهم مصادر عيشهم من أعمال حرة مما حدا ببعض أساتذة مدرسة فرنك عيني إلى القيام مشكورين بجمع التبرعات وتوزيعها على العوائل المحتاج سرا لسد الرمق. كنا آنذاك أقلية صغيرة تحت رحمة حكومة ظالمة لا حول لنا ولا قوة لا جبا فان تأريخ اليهود الطويل عبر آلاف السنين يشهد بشجاعتهم. وخاصة في الحروب والانتفاضات الوطنية ضد المستعمرين ولم يكن لنا والحالة هذه ما نفعله سوى الصوم وإقامة الصلوات الخاصة في الكنس نتضرع من خلالها إلى الله تعالى أن يزيل عنا هذا الكابوس المرعب وكانت الدموع تذرّف من عيون النساء والرجال غزيرة هذا ما كنا قادرين على القيام به الأمر الذي كان يمنحنا بعض الواحة النفسية والأمل وقد دفع هذا الوضع بالكثيرين من اليهود إلى الهروب عن طريق إيران إلى إسرائيل بالرغم من

المخاطر التي قد يتعرضون لها، لقد دامت هذه الحالة إلى أن شنت وسائل الإعلام العالمية حملاتها على حكومة العراق مستنكرة سفك الدماء البريئة كنا وان الدول الصديقة لإسرائيل بذلت مساعها الحميدة لدى حكومة العراق مما اضطرها للتخفيف من حدة الضغط فهدأت العاصفة ومرت فترة من الزمن لم يجر خلالها اعتقالات ولا إعدامات ولا اغتياالات داخل السجون ولا حتى مضايقات بسيطة وسمح لبعض اليهود بمغادرة العراق وقد وجهت الدعوة إلى الأديب والشاعر الكبير الأستاذ أنور شاول المحامي مرتين للظهور في ندوات أدبية في التلفزيون العراقي كما وقد أرسل له الرئيس احمد حسن البكر باقة من الزهور عند دخوله إلى المستشفى للعلاج فرأينا بهذه اللفتة بادرة طيبة لحسن النية واستبشرنا خيرا وحسبنا أن عهد الظلم ولى وانقضى غير أن ذلك الهدوء كان كالهدوء الذي يسبق لعاصفة وعلى حين غرة وبدون أي سبق مبرر بدأت الحملة الجديدة ضد اليهود بمذبحة عائلة قشقوش التي تناولتها بعض وسائل الإعلام العالمية (عادت حليلة إلى عاداتها القديمة) فقد ذبحوا جميع أفراد العائلة في عقر دارهم. الأب، الأم، ولدين كبيرين، بنت واحدة، ونجت البنت الثانية لكونها كانت غائبة على الدار أثناء تنفيذ المجزرة، وهي الان من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، ذبحوا الجميع ثم قطعوا جثثهم إلى قع وضعوها في حقائب حملاتها سيارة شحن أمام أعين الناس وفي وضح النهار كما وان عائلة قشقوش الثانية المكونة من رجل وزوجته اغتالوهما بعد أن اغتصبوا الزوجة أمام أعين زوجها وهنا يجدر بنا السؤال في أي عصر نعيش؟ هل قي عصر العلم والنور؟ أو في العصر الالكتروني؟ أو عصر هبوط الإنسان على القمر؟ ولأي درك وصلت إليها أخلاق بعض البشر؟ نعم قد تحصل مثل هذه الجرائم من قبل شخص معتوه فلا غرابة بذلك، أما وقد حصلت من قبل المسؤولين عن الأمن ويعلم من الحكومة القائمة فهنا الطامة الكبرى، ولماذا ارتكبت هذه الجرائم وما ذنب ضحاياها الأبرياء؟ تلا

هذين المجزرتين اعتقالات واغتيالات أخرى داخل السجون دون معرفة مصير جثثهم فكانوا يساقون إلى السجون يدخلونها ولا يخرجون، ترى هل ارتوت نفوس قادة البعث وشرب الداء من اليهود وغير اليهود أو لمرتو بعد؟ وقبل أن اختتم هذا الفصل أود أن انوه بأننا لم نلق أية مضايقات أو تحرشات من قبل أفراد الشعب العراقي وكل ما حدث لنا من الماسي والمصائب وجرائم القتل وسلب الأموال كان بتدبير وإيحاء من حكام حزب البعث وعلى الموظفين التنفيذ فقط والويل لمن يخالف لهم أمرا.

ذكريات من العراق

بقلم اهارون موريه (معلم)

الحلقة (٣)

ذكريات من السجون العراقية أيام حكم حزب البعث - ١

دق جرس الباب في حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً ليلة "عيد المظلة" في الدار التي أسكنها في محلة الهندية في بغداد، وعندما اتجهت أنظارنا نحو النافذة رأينا سيارة شرطة الأمن رابضة قرب الباب وقد جلس في وسطها ابن أخي وشريكي في معمل الطابون السيد صالح معلم تعلو وجهه إمارات الحيرة والارتباك يحيط به نفر من شرطة الأمن، وأنت لا تعلم أيها القارئ الكريم ماذا يعني هذا المنظر بالنسبة لنا آنذاك، فقد كان مجرد سماع دقات جرس الدار ليلاً يبعث الفرع في نفوس ساكنيه فزبانية حزب البعث كانوا يعتقلون ضحاياهم ليلاً وفي جنح الظلام، والاعتقال معناه التوقيف والمحفوظ من عاد من التوقيف حياً وفداً لا يعود إطلاقاً.

فتحت زوجتي الباب ولا مفر من فتحه طبعاً، فدخل معاون شرطة الأمن ومرافقوه فأجلسناهم في الصالون وبعد شرب المرطبات قال لي إن مدير أمن بغداد يرغب في توجيه بعض الأسئلة إليك فيلزم مرافقتنا، فطلبت منه زوجتي أن يسمح بأخذ ملابس نوم وبطانية فأجابها لا حاجة لذلك فبعد نصف ساعة يعود لك زوجك، علماً بان زوجتي ظلت ساعات تنتظر عودتي وقد جلست قرب الشباك محتضنة طفلها حتى الصباح وهي ترتعد خوفاً حيث بقيت لوحدها في ذلك الجو الرهيب الذي كنا نعيش

فيه وهي لا تتمكن من اللجوء إلى دار ذويها أو احد الجيران في ساعة متأخرة من الليل لئلا تفرغهم.

سارت بنا السيارة مسرعة فوصلنا إلى مديرية أمن بغداد وأدخلونا أنا وابن أخي إلى ديوان مدير أمن بغداد الفخم، فأشار علينا بالجلوس وعندما جلسنا شعرت بشي من الارتياح وقلت يظهر أن الأمر ليس بالخطورة التي تصورناها، ثم قال لنا مدير الأمن أن متصرف لواء الديوانية يطلب حضوركم فوراً، فأجبتة إننا رهن إشارة السيد المتصرف، واتصل هاتفياً بأحدهم وقال لقد أحضرنا اليهوديين المطلوبين وسنسفرهما على ضوء برقية متصرف الديوانية وغادر مكتبه، ثم عاد معاون الأمن الذي اعتقلنا وقال نعبركم إلى موقف الأمن العام لقضاء ليلتكم هناك وغدا يجري تسفيركم إلى الديوانية، فطلبت منه أن يسمح لنا بجلب ملابس نوم وبطانية، فرفض، توسلت إليه فاجب هذه هي الأوامر الواجب علي تنفيذها. وصلنا موقف الأمن العام بعد منتصف الليل فأدخلونا إلى غرفة صغيرة فيها بضعة موقوفين فتكرم احدهم مشكوراً وأعطانا بطانية خفيفة تمددنا عليها أنا وزميلي حتى الصباح. لقد سبق واعتقلنا قبلاً أنا وزميلي وأمين صندوق الشركة السيد صبيح جبرائيل وبقينا مدة في التوقيف في موقف الجانب في الديوانية وكانت التهمة الموجهة إلينا ظاهرها الصهيونية والتجسس لحساب إسرائيل وباطنها ممارسة الضغط والتهديد لانتزاع معمل الطابوق العائد لي ولشركائي ولدي أخي السادة عزت وصالح ساسون معلم بدون أي مقابل أو تعويض، ثم أطلق سراحنا لإتاحة الفرصة لنا للمداولة والرد على طلبهم بعد أن حصلنا على قدر لا بأس به من التعذيب النفسي والتهديد والوعيد، ولقد قال لنا صراحة معاون الجانب السيد شمسي، بأن المسؤولين كلفوه بإبلاغنا إذا لم نترك معمل الطابوق

وتتنازل عنه طوعا نصبح نحن وعوائلنا شدر مدر، وها نحن الان نتعرض لحملة اضهاد جديدة، توقعت أن تكون أشد من سابقتها وأقوى.

في الصباح نقلونا إلى موقف السراي لكي يجري تسفيرنا من هناك إلى الديوانية وقد بذلت السيدة خالدة زوجة زميلي الأخ صالح جهودا كبيرة حتى عرفت مكان توفيقنا فأوصلت لنا قينة حليب وبعض الطعام وبطانيتين. أدخلونا إلى ردهة كبيرة فيها خليط من الموقوفين من كل الأصناف. جلسنا ومرت الساعات بطيئة ننتظر تسفيرنا وكنت وصاحبي نضرب أحماسا بأداس، ترى لماذا تتخذ كل هذه التدابير الشاذة الصارمة لتسفيرنا؟ إذن الموقف خطير والله يعلم ما ينتظرنا هناك، وبينما نحن في هذه الدوامة من الأفكار اقترب نحوي أحد الموقوفين والشرر يتطاير من عينيه وبادرني قائلا: لماذا أعطيت عليّ إخبارية في البصرة أدت بي إلى السجن يا داود؟ أجبته أنا لم أخبر عنك لسبب بسيط وهو أنني لست داوداً، بل اسمي هارون ولم أكن في البصرة منذ أكثر من عشر سنوات، فقال لا أنت داود واحتد الجدل بيننا إلى أن تدخل احد الموقوفين وأنبه بشده فعاد إلى مكانه.

قضينا يومين في هذا الموقف وفي صبيحة اليوم الثالث قادونا إلى سيارة هيكلها عبارة عن صندوق محاط بالأسلاك غليظة وأدخلونا فيها بعد أن قيدونا أنا وزميلي معاً يدا بيد بالحديد (كلبجة) وقفلوا بابها. طافت بنا السيارة داخل بغداد فترة، تارة لملء خزان البنزين وأخرى لأخذ موقوفين من هذا الموقف أو ذاك استغرق زمنا، حتى سارت السيارة على الطريق العام نحو الديوانية. وما أن وصلت السيارة إلى المحمودية حتى أوقفها مفوض الشرطة وأمر السائق أن يعود بها إلى بغداد. حاولنا أنا وزميلي أن نجد تفسيراً لذلك فلم نفلح، أخيراً وصلنا إلى موقف السراي أي عدنا إلى المركز الذي خرجنا منه، ففتح باب السيارة معاون الشرطة وحملق في وجوهنا واقفل الباب

مجددا. وهنا علمنا بان أحدهم أخبر الشرطة بان سيارة خاصة تنتظرنا خارج بغداد لكي نعبّر إليها لتقلنا إلى الديوانية بعد رشونا سائق السيارة، ولذا أمروا بعودة السيارة للتأكد من عدم نزولنا منها. عادت السيارة وسارت بنا نحو الطريق العام إلى الديوانية. كان الهواء البارد يعصف بنا طوال الطريق ويدانا مقيدتان بالحديد أنا وشريكى معا، وأنا شارد الذهن أحملق في السحب المتناثرة هنا وهناك في السماء ولعلي كنت أحاول الهروب من التفكير في الحالة السيئة التي نحن فيها. وصلنا مدينة الديوانية مساءً واستغرقت السفر من الصباح حتى المساء ثم طافت بنا السيارة داخل بلدة الديوانية إمعانا لإذلالنا وأهانتنا، وكنت ألاحظ على وجه من يرانا من معارفنا ونحن بهذه الحالة المزرية إمارات الاستغراب والإشفاق. أدخلونا السجن الكائن في الصوب الكبير ففكوا القيود من أيدينا وبعد تفتيشنا أدخلونا إلى غرفة طويلة مكتظة بالمساجين تمر فيها ساقية صغيرة يجرى فيها مياه قدرة تنبعث منها روائح كريهة فذهبنا إلى مأمور مركز السجن فاستعطفناه لتغيير مكاننا فحولنا إلى غرفة صغيرة فيها موقوف واحد من أبناء العشائر متهم بالإخلال بالأمن، وقد رحب بنا وقال لا تحزنوا فالسجن هو مدرسة للرجال الشجعان. وما أن حل الظلام وقبل أن نأخذ قسطا من الراحة استدعانا مفوض السجن وأبلغنا بان مدير شرطة اللواء يرغب في مقابلتنا، فنقلنا إلى جناح مديرية شرطة اللواء. أدخلونا على مدير شرطة الديوانية فأشار إلينا بالجلوس وطرح علينا بعض الأسئلة عن معمل الطابوق وعن الشركاء المساهمين، كميات الإنتاج، محتويات المعمل، متى أنشئ إلى أن دخل إلى صلب الموضوع فقال هل أبلغكم المعاون شمسي بقرار المراجع العليا فيما يخص التنازل عن المحل عندما كنتم موقوفين سابقا؟ أما قال لكم إن لم تتنازلوا تكون العواقب وخيمة عليكم وعلى عوائلكم؟ عندها علمنا أن كل هذه المناورة هي من ضمن نطاق التهديد والتعذيب لإرغامنا على التنازل مجاناً عن المعمل. حاولت إقناعه قائلا إن شريكنا

رجل مريض في بغداد ونحن كما ترانا ثلاث عائلات تعيش على واردات المعمل وليس لنا أي مورد آخر فكيف نعيش إذا تركناه وماذا يمكننا عمله في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها يهود العراق، لقد وضعنا كل ما تملك من مال وما ربحناه وما استلفناه على توسيع وتجديد المعمل ولم تبق لنا والحالة هذه الطاقة المادية أو المعنوية لنبداً حياتنا من جديد، فأجاني ببساطة قائلاً خير لكم أن تتركوه فقد ربحتم منه ما فيه الكفاية وهربتم الكثير إلى إسرائيل. ثم أشار إلى المعاون شمسي فاصطحبنا إلى موقف الجانب حيثما كنا موقوفين سابقاً للسبب الذي نحن موقوفين من أجله الآن وهو لإرغامنا للتنازل عن معمل الطابوق في حين كانت التهمة التي أوقفنا من أجلها هي التجسس والصهيونية. أدخلونا إلى غرفة التوقيف وهي غرفة صغيرة لا شبك فيها، لها باب من القضبان الحديدية وفي ركن فيها توجد صفيحة فارغة للتبول - وكنت لا اشرب الماء بتاتا لكي لا اضطر لاستعمالها - وعلى جدرانها ترى طواير القمل صاعدة نازلة وفيها موقوفين من مختلف الأصناف وعند دخولنا ارتمينا أنا وزميلي على البطانية ورحنا في سبات عميق حيث إن حوادث الأيام الماضية وقلة النوم ومشقة السفر أنهكت قوانا وحطمت أعصابنا ومعنوياتنا.

في صباح اليوم التالي تعرفت في الموقف على الشيخ سلمان الناصر وهو من شيوخ عشائر الرميثة ورئيس إحدى عشائرها وبالمناسبة نذكر إن عشائر الرميثة كانت معروفة بشدة بأسها وشجاعة أفرادها في القتال وهم الذين هزموا الجيش البريطاني في معارك العارضيات قرب الرميثة وذلك أثناء الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ فقتلوا أو أسروا جميع أفراد القوة الموجودة في المنطقة آنذاك وهم الذين أنشدوا الهوسة المشهورة (الطوب أحسن لو مكواري). والشيخ سلمان هو رجل ذكي وقور وبالرغم من عدم تلقيه ثقافة في المدارس فقد كان واسع الاطلاع في مجريات السياسة الداخلية في العراق وهو

ذو أخلاق ممتازة وكان وجوده في التوقيف بسبب نزاع دموي حصل بين عشيرته وعشيرة أخرى فحجزوه في التوقيف كي لا يتجدد القتال بين العشيرتين. دعانا للجلوس إلى جواره وكنا نتجاذب أطراف الحديث مما خفف عني بعض الهموم والهواجس التي كنت أعاني منها فحكيت له أسباب توقيفنا وعن الضغوط والتعذيب والتهديد التي نتعرض لها لإرغامنا على التنازل عن معمل الطابوق المصدر الوحيد لإعالة ثلاث عائلات وكيف إن هذا المعمل كان الوحيد في المنطقة بتنظيمه وسعته وجودة إنتاجه وكيف أن حياتنا مهددة من قبل الحكومة على لسان موظفيها المكلفين بحماية أرواح المواطنين، فأبدى أسفه الشديد للمأزق الذي كنا فيه، ومرة قال لي (شوف يا هارون) صحيح إن تقاليدنا تقول إن الرجل يتوجب عليه أن يموت دفاعاً عن عرضه أو دينه أو ماله ولكن نصيحتي لكم هي أن تفكروا بالموقف بحذر، فإذا تطور إلى درجة الخطر على حياتكم حينئذ يجب التضحية بالمال حفاظاً على حياتكم، ولا يمكنكم مقاومة إرادة الحكومة فأنت تراني محجوزاً في هذه الغرفة القدرة مع رجال من السراق والمجرمين وأنا رئيس قبيلة كبيرة. ولقد ارتحت إليه كثيراً طوال أيام الفترة الثانية من توقيفنا في هذا الموقف وهو الوحيد بين الموقوفين الذي تمكنت من تبادل أطراف الحديث معه بين الحين والآخر.

ذكريات من العراق

بقلم اهارون موريه (معلم)

الحلقة (٤)

ذكريات من السجون العراقية أيام حكم حزب البعث - ٢

مرت الأيام في موقف الجانب بطيئة وعلى وتيرة واحدة يخرجونا كل يوم صباحاً ومساءً إلى فناء المركز لمدة نصف ساعة لاستنشاق الهواء الطلق ثم يعيدوننا حيث كنا، وذات صباح استدعانا معاون مخفر الجانب السيد شمسي وقال لنا نحن ذاهبون لتفتيش داركم. كنا نسكن داراً في محلة حيّ الجزائر أنا وابن أخي وشريكي السيد صالح معلم لوحدنا حيث سبق وسفرنا عوائلنا إلى بغداد قبل تأزم الموقف وسكن شريكنا الثالث ابن أخي السيد عزت معلم في بغداد وكن يزورنا بين الحين والآخر للوقوف على سير العمل. كانت اللجنة المكلفة بتفتيش الدار مكونة من معاون شرطة الجانب ومعاون الجانب الكبير وضابط من الغرفة الأولى وعدد من أفراد الشرطة. دخلنا الدار ففتشوها تفتيشاً دقيقاً وبعد التفتيش جاؤا بجهاز كاشف الألغام أمره على ارض الغرف للتفتيش عن أسلحة مخبئة وبعد فحص الغرف بالكاشفة قال معاون الجانب الكبير يجب فحص الجدران أيضاً فقد تكون بعض الأسلحة مخبئة بداخلها ففحصوها أيضاً ثم انتقل الجميع إلى حديقة الدار وبدأوا بفحصها بكاشفة الألغام بحثاً عن الأسلحة وفي وسط الحديقة رنّ جرس الإنذار في الجهاز معلناً وجود شيء. هنا تملكني الخوف وخفق قلبي عالياً، كنت اعلم بعدم وجود أي شيء لدينا مخالف للقانون ومع ذلك أصابني الفرع، قلت في نفسي رحماك يا ربي إن حياتنا مهددة

بالخطر من قبل الحكومة وقد سبق واسمعونا صراحة لا تلميحاً وبوسع أي كان اجتياز سياج الحديقة ويكفيه أن يخبي في أرضها جهاز لاسلكي عاطل أو أية قطعة سلاح فيما نحن موقوفين يكفيه ذلك لإرسالنا إلى حبل المشنقة آنذاك. قام أفراد الشرطة بحفر الأرض بواسطة معاول جلبوها خصيصاً لهذا الغرض في حين شخصت جميع الأبصار على مكان الحفر وكان كلما يهبط معول على الأرض كنت اشعر وكأنه يهبط على جسمي. مرت لحظات حسبتها ساعات إلى أن ظهرت قطعة حديد كانت مدفونة في ارض الحديقة حينئذ قلت شكراً يا رب.

أعادونا إلى الموقف وقد حكيت للشيخ سلمان ريفي بالموقف ما حصل فقال لي تحلّوا بالصبر فلا بد لهذه الشدة أن تزول. مرت أيام أخرى واشتد بنا الملل وتكررت الأسئلة والأجوبة يتخللها التهديد والوعيد، وذات مرة قلت لمعاون الجانب أرجو أن لا تنجرف مع التيار المناوئ لليهود السائد حالياً، فقال لي نحن شبان مثاليين ليس لنا آراء عدائية ضدكم لكننا نعمل ما نؤمر به فقط. لم تعد أعصابنا تحتمل الموقف نحن في هذه الغرفة الضيقة القذرة وكل يوم يخرج فيه موقوف يأتي آخر أو اثنين والجو خانق والأكل لا يستساغ ولم ندقه إطلاقاً ولا مرة واحدة فكانت زوجة المرحوم ساسون سلمان خلاصتي تحمل لنا صينية الطعام كل يوم ظهراً ومساءً جزاها الله أحسن الجزاء بسبب وجود عوائلنا في بغداد وتتوسل إلى الحرس لإيصالها إلينا ونحن لا نأخذ منه إلا القليل بسبب الحالة النفسية التي كنا فيها ولم يحاول احد من أصدقائنا في المدينة الاتصال بنا أو مساعدتنا خوفاً من بطش حكام البعث ولم تنمر تشبثات شريكنا الأخ عزت معلم في بغداد لإنقاذ الموقف، كما وقد أرسلت من يكلم محامي الشركة (شركة الطابوق الفني) السيد عبد الله الخفاجي لمحاولة إخراجنا بكفالة على الأقل فلم يعمل شيئاً والظاهر كان يخشى التدخل بسبب التيار القومي

المنافسة لليهود آنذاك شأنه شأن الكثير من أصدقائنا من كبار الموظفين، إذ كان الإرهاب الذي أشاعه حكام البعث قد طغى على كل اعتبار آخر فطلبت محاميا آخر أغريته بمبلغ كبير فتمكن من إخراجنا بكفالة.

عدنا لمزاولة أعمالنا في مكتب الشركة فيما كثرت الإشاعات في المدينة عن قرب استلام الحكومة لمعمل الطابوق، وكانت المخابرات بين الدوائر الحكومية بهذا الخصوص تجرى بصورة سرية ولم نعرف ما يجرى حولنا وما هي نوايا المسؤولين وماذا يخططون، وبعد يومين من خروجنا من التوقيف جاءنا مفتش ضريبة الدخل حاملاً كتابا يطلب منا فحص سجلات شركتنا للعشرة سنوات الماضية ففحص جميع سجلات الشركة ومستنداتها للسنوات المذكورة واستغرق فحصها أكثر من أسبوعين ولم يجد ما يستوجب إدانتنا، كان ذلك في نطاق الضغوط الموجهة إلينا.

في إحدى الأمسيات فيما كنا جالسين في مكتب الشركة دخل رجل لا نعرفه فأشار لشريكه الأخ صالح بان يتبعه وعندها تبعه إلى خارج المحل صفعه على خده صفقة قوية أمام مكتب الشركة وعلى مرأى من الناس دون أن يتفوه بكلمة واحدة وانصرف. كان لهذا الحادث تأثير سيء في نفوسنا وفي معنوياتنا ورأينا فيه اهانة كبرى لتحتيم معنوياتنا نحن الذين تعودنا أن نتلقى التقدير والاحترام من المواطنين في المدينة إذ ساهمنا في أعمال خيرية كثيرة في البلد قمنا بها برضانا التام وبطيبة خاطر، ساهمنا في بناء الجوامع والنوادي ودور لسكن عوائل شهداء الجيش، وطلب إلينا مساعدة أفراد الشرطة في بناء دور لسكناهم فلبينا الطلب والكل يعرف أن معمل الطابوق ساهم في انفتاح المدينة واتساع عمرائها إلى درجة كبيرة فكيف يتجرأون على مقابلتنا بمثل هذه الإهانة، غادرنا المكتب إلى الدار وما أن وصلناها حتى استدعينا أنا وزميلي الأخ صالح طبعاً إلى مديرية الشرطة مرة أخرى.

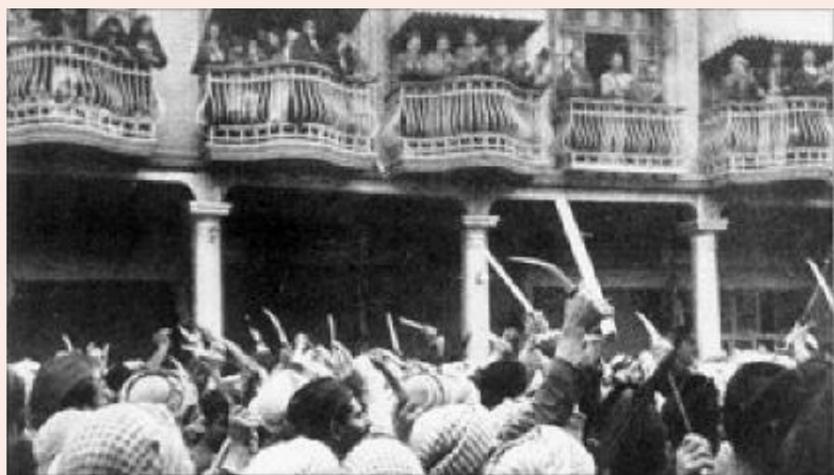
في الظروف الأولى من المدرسة الابتدائية قرأنا قصة قصيرة وهي قصة الذئب الذي قال للحمل: إن لم تكن أنت قد شتمتني فقد شتم أبوك أبي، وافترسه، هذه القصة تنطبق علينا تماما إذ تبين لنا عند وصولنا إلى مديرية الشرطة أن الشخص الذي ضرب زميلي الأخ صالح بدون أي سبب قصد أهانتنا قد اشتكنا وقال في دعواه (عندما مررت أما مكتب الشركة أشار عليّ هارون بأصبعه وبصق صالح على الأرض) علماً بان المشتكي كان عريفا في استخبارات الجيش ولم نفلح في إقناع الشرطة بكوننا لا نعرف هذا الشخص إطلاقا ولم نره من قبل وان ادعاءه هو محض افتراء وللمرة الثالثة أدخلونا إلى سجن الديوانية وكانت الطبخة واضحة وهي خططت لإعادتنا إلى السجن في نطاق الضغوط لإرغامنا على ترك المعمل.

كان الوقت ليلا والجو باردا ولم نصطحب معنا من متطلبات التوقيف شيئا حتى ولا بطانية تتمدد عليها حيث فوجئنا بالتوقيف على غير انتظار، فتمددنا على الأرض بملابسنا. الأرض باردة ومبلطة بالاسمنت وفي التبليط حفر ونتوات وهل لجسمي النحيل والحالة هذه أن يرقد ويستريح؟ لم يتطرق النوم إلى جفوني إطلاقا وكنت أسائل نفسي، لما أنا هنا وفي هذا الوضع اللاإنساني الكئيب؟ هل أنا مجرم، قتل، سرقت، أجمرت في حق البلد الذي عشت فيه ومن خيراته؟ كلا وألف كلا كنت طوال حياتي ول

ذكريات عراقية: سلسلة جديدة يقدمها أ.د. شموئيل (سامي) موريه (٢)

الأثنين ١٣ يونيو / حزيران ٢٠١١

شاركت الحكومات العراقية والصحافة والوزراء العراقيون في مذكراتهم والادباء والشعراء العراقيين في كتاباتهم، مؤامرة صمت طويلة حول احداث مذبحه "الفهود" في بغداد التي وقعت في يومي ١-٢ من حزيران ١٩٤١ بعد فرار رشيد عالي الكيلاني والمفتي الحاج أمين الحسيني والعقلاء الاربعة وغيرهم من انصار النازية في العراق، لفشل الجيش العراق في الصمود أمام القوات البريطانية في الحباية وتراجعهم الى بغداد. وتبعه الجيش البريطاني الى أن عسكر حول السفارة البريطانية في بغداد لكي لا يتدخل في المذبحة التي كان السفير البريطاني السير كينهان كورنواليس، أو كما كان العراقيون يسمونه: مختار محلة الكريمات، يسمع صراخ الضحايا وحرصاص المعتدين وطواير المفرهدين وهي تعبر من الرصافة الى الكرخ محملة بغنائمها في هوسات صاخبة، "حلو الفهود كون يصير يومية". وعندما أخبر الأديب القاص اسحق بار-موشيه صديقه الأديب عدنان رؤوف من مؤسسي جماعة الوقت الضائع، بعزمه على كتابة ذكرياته عن الفهود "يومان في حزيران"، (٢٠٠٤، ص ١)، نصحه صديقه أن ينسى ما حدث وان يلتفت الى الأمام فقط، ويظن أدينا أن شعور صديقه الوطني، أبي عليه ان يقوم صديق له برواية ما شهدته وسمعه في "يومان من حزيران" وفيه "ما يلطخ بعار الأبد حكومات العراق في تلك الفترة وما سبقها وما تلاها. ولكن التاريخ كما قال كونراد اديناور، هو بعد كل شيء، سلسلة من الأخطاء التي ما كان يجب أن تقع ."



لم يكف المفرهدون عن القتل والاغتصاب والحرق والتدمير الا بعد ان أمر الوصي الذي عاد الى بغداد بإطلاق النار على المفرهدين بعد ان اصبحت ممتلكات المسلمين في خطر النهب أيضا. ثم شكلت لجنة تحقيق عن حوادث يومي ١ و ٢ حزيران ١٩٤١ بقرار من مجلس الوزراء الصادر بتاريخ ٧ حزيران ١٩٤١ برآسة السيد محمد توفيق النائب، ولم ينشر التقرير الذي قدمته لجنة تقصي الحقائق عن الفرهود الى الحكومة العراقية، سوي بعد ١٧ عاما من الاحداث الأليمة في كتاب المؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسيني (١٩٠٣-١٩٩٧)، "الأسرار الخفية في حوادث السنة ١٩٤١ التحررية"، وذلك في صيدا، اي في لبنان، عام ١٩٥٨. أما الادباء اليهود الذين طردوا من العراق في الهجرة الجماهيرية الاولى في العهد الملكي في مطلع الخمسينات من القرن الماضي من امثال اسحق بار-موشيه وسمير نقاش وسامي ميخائيل، وأدباء الهجرة الثانية في مطلع السبعينات من القرن الماضي في العهد البعثي، من امثال أنور شأؤل والدكتور سلمان درويش ومير بصري، وعزت ساسون معلم، فلم يكتبوا باللغة العربية عن الفرهود سوى بعد استقرارهم في اسرائيل وبعد تأسيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق عام ١٩٨٠. والوحيد الذي كرس رواية كاملة باللغة العبرية عن الفرهود هو الكاتب الكبير سامي ميخائيل في كتابه "عاصفة بين النخيل"، ثم تلاه الاديب إيلي عمير في بعض فصول ثلاثيته عن يهود العراق. ثم تلاهما الاستاذ الأديب والصحفي الكبير سليم فتال الذي كان خاله اول ضحايا الفرهود، في روايته الرائعة "في دروب بغداد"، وكتابه التاريخي "صنم في حرم الاكاديمية الاسرائيلية" ردّ فيه على الادعاء الكاذب بان ٢٠٠ من المسلمين قتلوا في الدفاع عن جيرانهم اليهود في الفرهود، وفي سيرة حياة الدكتور نسيم قزاز

الذي قتل والده مع خال سليم فتال في نفس اليوم بعد ان أنزلا عنوة من الباص في محلة باب الشيخ وذبحا على قارعة الرصيف .

أما الشعراء من يهود العراق فقد نظموا القصائد عن الفرهود باللغة العبرية كالشاعر شالوم (سالم) الكاتب والتوأمين هرتصل وبلفور حكاك اللذين انتخبا رئيسين لجمعية الأدباء العبريين بصورة متوالية، والشاعر يحزقييل مورئيل (معلم) من مواليد بغداد والشاعر عزرا مراد من مواليد العمارة، ولم ينس جميع هؤلاء الشعراء الإشادة بحماية جيرانهم المسلمين الأباة في الدفاع عنهم وحمايتهم من القتل والنهب. كما نشر كل من الأستاذ نسيم رجوان والبروفيسور يحزقييل حداد والدكتور دافيد قزاز ابحاثهم ومذكراتهم عن الفرهود باللغة الانكليزية والاديب نعيم قطان باللغة الافرنسية. أما ادباء العراق فلم يكتب عنها سوى الكتاب اليساريين الهاريين الى أوروبا وفيها يستنكرون وقائع الفرهود، وخاصة الاديب حمزة الحسن، والدكتور رشيد الخيون. أما الوحيد الذي كرس لها دراسة تاريخية جادة مدعومة بالوثائق والابحاث ونشرها فهو المؤرخ والباحث العلامة أ.د. كاظم حبيب من زعماء اليسار في العالم العربي ونزيل برلين، في كتابه الموضوعي الشامل "اليهود والمواطنة العراقية، أو محنة يهود العراق بين الأسر الجائر والتهجير القسري"، في طبعتين اصدرتهما مؤسسة حمدي للطباعة والنشر في السليمانية في عامي ٢٠٠٧ و ٢٠١٠. ولعل أفضل كتاب يشير إلى جذور النازية في العراق منذ جلوس الملك غازي على عرش العراق هو كتاب من أوراق الملك غازي، وهو مجموعة من الوثائق بخط الملك، جمعها وحققها ونشرها القاضي زهير كاظم عبود، (شرق غرب للنشر، ٢٠١٠)، لا غنى للباحثين عنه .

وفي ذكريات كاتب هذه السطور التي نشرتها جريدة "إيلاف" الغراء واعيد نشرها في مجلة الأخبار الالكترونية، تحت عنوان "يهود العراق: ذكريات وشجون" والتي نشرت في طبعة خاصة في بغداد ٢٠١٠، وستصدر هذه الذكريات قريبا، مزيدة ومنقحة تحت عنوان "بغداد، حبيتي: يهود العراق - ذكريات وشجون" عن "دار النشر كل شيء" في حيفا لصاحبها الأستاذ صالح عباسي. وقد كتب الأديب خضير طاهر في مجلة "إيلاف" الغراء في ٢٤ ابريل، ٢٠١٠، مقالا عن هذه الذكريات تحت عنوان: "شموئيل موريه يعذبنا بعار وحشيتنا ضد اخواننا يهود العراق" يبدي فيه أسفه لما وقع ليهود العراق من اجحاف ونكران الجميل .

وأخيرا صدر كتابان باللغة الانكليزية وثقا للفهود بصورة مفصلة عن اسبابه ونتائجه، الكتاب الاول ويقع في ٣٨٢ صفحة، يضم مقالات علمية تاريخية ووثائق يكشف النقاب عنها لأول مرة، عن الفهود بقلم كبار الباحثين في العالم، وهما كتاب "الفهود، مذبحه ١٩٤١ في العراق"، اعداد شموييل موريه و تصفي يهودا، اصدار مركز فيدال ساسون العالمي لدراسة اللاسامية، مطبعة ماغنيس التابعة للجامعة العبرية، ومركز تراث يهود العراق، يونيو ٢٠١٠ :

Al-Farhud: The Pogrom in Iraq, ed. S. Moreh & Zvi Yehuda, Jerusalem, The Vidal Sassoon International Center for the Study of Antisemitism at the Hebrew University, Magness Press & The Babylonian Jewry Heritage Center in Or-Yehuda

والكتاب الثاني هو للباحث الأمريكي ادوين بلاك (Edwin Black) بعنوان "الفهود، جذور التضامن العربي - النازي اثناء الهولوكست"، تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الحاج أمين الحسيني في الحرب العالمية الثانية بالتعاون مع هتلر وزبانيته :
The Farhud, Roots of the Arab-Nazi Alliance in the
.Holocaust, Washington, DC, Dialogue Press

واليوم فقط أخذ المثقفون العراقيون يدركون مدى المأساة التي مرت بيهود العراق في مذبحه الفهود ويدركون أنها كانت أحد الأسباب التي أدت بيهود العراق إلى الهجرة الجماهيرية عام ١٩٥٠ بالإضافة إلى الخوف من تكرارها بعد قيام دولة إسرائيل. ولعل الأديب والمثقف العراقي الوحيد الذي صور فظاعة الفهود في قصة له لم تنشر بعد، هو الأديب المحامي عدنان نور الدين في قصته التاريخية "هتلر في الإبريق" التي رفضت نشرها الصحف والمجلات العربية.

يقول الأديب عدنان نور الدين في هذه القصة في يقظة من ضميره المسلم الحي الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، متحدثا عن الفهود كشاهد عيان مصورا فظاعته بقلم نزيه لم يستطع بلوغ مستواه التصويري الكثير من يهود العراق الذين أرحوا لهذه الأحداث في إسرائيل وإن بالغ في عدد الضحايا من القتلى من الجانبين:

" واستغل الناس فقدان السلطة وعدم وجود جيش أو شرطة في البلاد فخرجوا إلى الشوارع والأسواق والساحات مسلحين بالخنجر والعصي والسكاكين ليقوموا بعمليات (الفهود) التاريخية وينفذوا ضد اليهود حملة قتل ونهب واغتصاب قلما شهد لها تاريخ العراق مثيلا، أجل كان اليهود في العراق يتعرضون لعمليات (البوغروم)

الفوضوي البدوية بين حين وآخر أما (فرهود) اليوم الثاني من حزيران ١٩٤١ فكان مجزرة وحشية رهيبة حقا.

هب المسلمون يهاجمون دور اليهود ومحلاتهم التجارية ويفتحونها فيسرقون ما كان فيها ويحطمون ما لا يقدرّون على حمله ويبقرون بطون النساء الحوامل ويقتلون الأطفال ويذبحون الرجال ثم يعمدون إلى أثاث الدار ومحتوياته أو إلى ما في المحل من بضائع فيسرقونها بأسلوب النهب البدوي المتوارث، كان الجار المسلم يقتحم دار جيرانه من اليهود الذين ترعرع معهم منذ الطفولة وعاش معهم العمر بسلام وصدقة ليسي بناتهم ونساءهم وينتزع منهن مصاعن الثمينة من الذهب والفضة ويغتصبهن بضراوة جنسيا ويقتل من أهل البيت من يشاء بكل قسوة.... فشهدت أزقة بغداد والاعظمية وبيوت اليهود فيها مآسي ظل الناس يروونها بتلذذ غريب.

وبعد أن تمكنت السلطة الشرعية ممثلة بالملك الصغير وخاله الوصي على عرشه الأمير عبد الإله والداهية نوري السعيد من السيطرة على العاصمة وفرض الأمن بواسطة الشرطة وبعض وحدات الجيش التي انهزمت من معارك مايس، ووضع حد قاطع لعمليات البوغروم الرهيبة، توقف نشاطات (الفرهود) كما يسمى البوغروم في العراق وشرعت الحكومة في إحصاء الخسائر البشرية والمادية التي تكبدها يهود بغداد خلال ست وثلاثين ساعة من غياب السلطة : ثلاثة آلاف قتيل [؟؟؟]، آلاف من حالات الاغتصاب منها الكثير مما وقع بينات قاصرات بل طفلات وبصبيان أيضا، أملاك سُرقت وقدرت بملايين الدنانير ومنها أربعة آلاف دراجة هوائية وثلاثمائة سيارة... تلك كانت حصيلة الفرهود الخاطف المريع...

والأمر الذي أثار دهشة التاريخ هو أن جموع الشعب العراقي أجمعت على التلذذ بالفرهود واعتباره ملحمة قومية إسلامية مجيدة وظلت تتغنى به لعدة سنوات بعد العام ١٩٤١ وشاعت بين الناس اهزوجة شعبية تقول:

الله اشحلو الفرهود يا أسلام يا ريته يعود كل سنة وكل عام

وأدى سكان شارع العشرين دورهم النشيط في الملحمة الدموية حتى النساء من ذوات العباءات الصوف السوداء ساهمن مع الرجال والصبيان في عمليات النهب والسلب وكان ثمة في الحي بضعة دور لليهود منها دار البقال شلومو حيث يسكن مع زوجته رفقة أم عاشير زميل بشير في المدرسة وصديقه في أيام الطفولة وأخت عاشير روزا وأختها الصغيران ... وقد اقتحم بعضهم بيت شلومو وسلبوا ما كان فيها من أثاث حتى آخر ستارة ووسادة وقدر ثم حطموا باب الدكان الملحق بالدار وأفرغوه مما كان فيه من أقمشة وخيوط وابر وماكانت للخياطة ومقصات وغير ذلك ، كما اغتصبوا نساء الدار جميعا حتى الجدة العجوز، إلا رفقة التي التجأت إلى دار الحاج محمود قارئ القرآن في الإذاعة، فحماها واعتدى ثلاثة على الشاب عاشير وقتله الرابع حين حاول المسكين المقاومة ولم ينج أبوه من القتل بهجوم وحشي وجده رجال الشرطة بعد يومين وقد هشم رأسه بيد الهاون الثقيل مطروحا كالشلو إلى جانب ابنه على الأرض وسط بركة من دم جاف اسود وقد جرد جثماناهما من الملابس....

وبعد يومين من الفرهود التاريخي تمكنت السلطة العائدة من سيطرتها على البلد وأخذت تتحرى حالات القتل والاعتصاب والسرقه وثم توقيف أكثر من ألف إنسان

وأعلن الراديو بيانا شديداً للهجة دعت فيه الحكومة جميع المواطنين الذين سلبوا اليهود إلى إعادة الممتلكات التي سرقوها إلى مراكز الشرطة بأقرب فرصة واتبعت الإنذار بحملات تفتيش عشوائية على الدور والمحلات واضطر بشير وخلدون تحت ضغط أبويهما إلى التخلص من الدراجتين فحطماهما ما أمكنهما التحطيم والقيام بهما إلى نهر دجلة حيث ابتلعتهما أمواج الفيضان وغاب أثرهما .

ومرت شهور الحرب وسنواتها تترى حاملة المفاجآت السارة والتحويلات المؤلمة فكان بشير يفرح ويهنئ نفسه إذ تحقق ألمانيا انتصاراتها الباهرة الأولى وقد احتسى البيرة لأول مرة مع خلدون عند شاطئ دجلة يوم بدأت معركة ستالينغراد ونهياً للجيش الألماني لقهر الروس واحتلال منحى نهر الفولغا والاندفاع إلى القفقاس .

- جماعتنا على أبواب إيران وعمما قريب سيتدفق جيش هتلر عبر حدود العراق ليمت له الاتصال بالقوات الألمانية التي تدق أبواب القاهرة والإسكندرية .
- آه لو أنهم يزيحون ستالينغراد جانبا ويهزمون الروس الحمر إذن لقرب يوم النصر .

- انه سيكون نصرنا نحن العرب يا أخي يومئذ سنتحرر من الاستعمار وسنتقاسم الدنيا كلها مع حلفائنا الألمان .

- سمعت أن مفتي فلسطين أمين الحسيني ورشيد عالي وعزيز علي المصري قد قابلوا هتلر واخذوا منه عهد التحالف والصداقة .

- ومقابل ذلك أكد هتلر على المفتي بان يكثف من نشاطه في صفوف مسلمي البوسنة والهرسك للالتحاق بصفوف الجيش الألماني والمساهمة في قمع الحركات التخريبية لمن يسمون أنفسهم بالأنصار وقائدهم الشيوعي تيتو.
- هل علمت أيضا أن مسلمي يوغسلافيا الذين عبأهم المفتي في القوات المسلحة الألمانية هم أنشط حراس المعتقلات واشد ضراوة من الألمان أنفسهم في إبادة اليهود والشيوعيين بالحمامات الغازية ثم حرق جثثهم التنتة في محارق خاصة لاستخلاص الزيوت من أجسامهم كمادة ممتازة لإنتاج الصابون.
- عظيم ... رائع ... إبادة اليهود نصر للعرب وللمسلمين حيا الله مسلمي يوغسلافيا الأبطال.
- أنسيت أننا ساهمنا في هذا الواجب المقدس يوم الفرهود....."



هذا ما رواه المحامي عدنان نور الدين بالحرف الواحد وهو وثيقة نادرة ودقيقة في وصفها لفظائع الفرهود، إذ لم يرض ضميره الأبّي إلا رواية ما شاهده وما سمعه من أحداث تقشعر لها الأبدان ارتكبت ضد أقلية مسالمة خدمت العراق خلال منات السنين وكانوا من بناء صرح العراق الحديث، فكان جزاؤهم هذا الاضطهاد الشنيع الذي أدى فيما بعد إلى هجرتهم إلى إسرائيل.

يا وادي الرافدين "حيك الحيا وسقى الله رباك ورعى

فيك ناغينا (المجد) في مهده ورضعناه فكنت المرضعا"

ذكريات عراقية في وثائق منسية – (٢)

ما هو لغز حنين يهود العراق الى ماضيهم في وادي الرافدين (أ)

الأثنين ٢١ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠١١

أ. د. شموئيل (سامي) موريه

مهداة الى اصدقائي العرب الذين أرسلوا اليّ تهانيمهم بمناسبة عيد رأس السنة العبرية الجديدة

ما زلت الى اليوم كلما استمعت الى قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي التي غناها مطرب الاجيال محمد عبد الوهاب في حضرة الملك الهاشمي فيصل الأول في بغداد، أشعر بقشعريرة عميقة من الحنين تسري في كياني، مستشعرا حريقا في شغاف القلب، ونباطه تتقطع حنينا الى ربوع الطفولة والشباب وانا استمع الى الصوت المخملي الحنون يفتت الصخر الجلمود حنينا وأسى:

يا شرعاً وراء دجلة يجري في دموعي تجنبتك العوادي

سرّ على الماء كالمسيح رويداً واجر في اليمّ كالشعاع الهادي

وأت قاعاً كرفرف الخلد طيباً أو كفردوسه بشاشة وادي

قف، تمهل، وخذ أماناً لقلبي من عيون المها وراء السواد

وأسلوب شوقي في اسلامياته وغزله هو إلهام لديني وسحر حلال. وأعود الى سنوات الصفاء قبل هجرتنا حين كنا نشعر بنفحات الخلد طيبا، تهب من دجلة والفرات

رافدي الخير والبركة، نسيمًا عليلاً، يوم كان اهله في بشاشة الفردوس ونعيمه، في أيام عز العراق تحت رعاية الملك فيصل الأول، يأترون بوصيته الوطنية: "الدين لله والوطن للجميع".

وما زلت أتذكر بساتين العراق وقد كستها الأعشاب الى خاصرتي، تبدو برقة الديباج، "كرفرف الخلد طيباً". وأسائل النفس، ترى لماذا هذا الحنين الطاعني بعد أكثر من ستين عاماً على الرحيل؟ واي شيء يشد يهود العراق إليه إلى يومنا هذا؟، فتراهم محافظين على لهجتهم وأغانيتهم وعاداتهم وتقاليدهم وذكرياتهم في العراق وذكري الاصدقاء والجيران الذين عاشوا معهم اياما خصيبة وعصيبة، وهم يتسقطون أخباره ويحزنون لمآسيه؟ ورحت اقلب صفحات التاريخ لعلي اعشر على الجواب الشافي. فأفتح كتاب "رحلة بنيامين التطيلي النباري الاندلسي" (من ١١٦٥م-١١٧٣م) التي ترجمها عن الاصل العبري وعلق حواشيتها وكتب ملحقاتها الاستاذ عزرا حداد، (بغداد، ١٩٤٥)، لاقف على شهادة شاهد من أهلها. ويسعفني الحظ، فأعثر على حديث هذا الرحالة اليهودي الأندلسي عن بغداد (ص ١٣١-١٣٩)، في أواخر خلافة المستنجد بالله العباسي (١١٦٠-١١٧٠م). فإذا به يتحدث عن عز الخلافة العباسية وعن اليهود وثورتهم واملاكهم والاحترام الذي كانوا يتمتعون به لدى الخلفاء العباسيين الذين كانوا متمسكين بالآية الكريمة: "ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوءة" (الآية ١٦ ك سورة الجاثية ٤٥). فيحترمون أنبياءهم واحفاد ملوكهم وأنبيائهم ويجعلونهم.

يقول بنيامين التطيلي عن يهود بغداد التي زارها: "يقيم في بغداد نحو ٤٠ ألف يهودي وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهية في ظل أمير المؤمنين الخليفة ... اما رئيس هؤلاء العلماء جميعهم فهو الربى دانيال بن حسداي الملقب "سيدنا رأس الجالوت" ويسميه المسلمون "سيدنا ابن داود"، لأن بيده وثيقة تثبت انتهاء نسبه الى الملك داود ... وتقضي التقاليد المرعية بين اليهود والمسلمين وسائر ابناء الرعية بالنهوض أمام رأس الجالوت وتحيته عند مروره بهم. ومن خالف ذلك عوقب بضربه مائة جلدة. وعندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير معه الفرسان من اليهود والمسلمين. ويتقدم الموكب مناد ينادي بالناس: "اعملوا الطريق لسيدنا ابن داود". ويكون الرئيس ممتطيا صهوة جواد وعليه حلة من حرير مقصب وعلى رأسه عمامة كبيرة تتدلى منها قطعة قماش مربوطة بسلسلة منقوش عليها شعار الخليفة. وعندما يمثل في حضرة الخليفة يبادر الى لثم يده. وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية، فيجلس الرئيس فوق كرسي مخصص لجلوسه قبالة الخليفة ... وجري الاحتفال بنصب رأس الجالوت الجديد بمهرجان مشهور، إذ يبعث اليه الخليفة بأحدى ركائبه الملوكية فيتوجه الى قصر الخلافة، وفي ركابه الأمراء والنبلاء ومعه الهدايا والتحف النفيسة للخليفة ورجال قصره. وعندما يمثل بين يدي الخليفة يتسلم منه كتاب العهد..."

ويبدو أن مثل هذا النظام بقي جاريا مع كبار العلماء اليهود والأطباء منهم خاصة، الذين كانوا يتعممون بعمامة لها ذؤابة لعلها شبيهة بعمامة رأس الجالوت في بغداد أيام عزها، بل كان جلوسهم قبالة السلطان أيضا، وعند دخولهم كان المسلمون يقفون لهم احتراما. ويروي ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٨) الغرناطي والطنجي مولدا

والمتعصب في تطبيق أحكام الذمة، في رحلته (بيروت ١٩٦٤، ص ٣٠٢)، إنه عند زيارته للسلطان التركي محمد بن آيدين: "أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة، فسلم عليه وقام له القاضي والفقهاء، وقعد أمام السلطان فوق المصطبة والقراء اسفل منه، فقلت للفقهاء: من هذا الشيخ؟ فضحك وسكت، ثم اعدت السؤال، فقال لي: هذا يهودي طيب، وكلنا محتاج اليه، فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له". فأخذ ابن بطوطة الامتعاض، وجعل يهين الطبيب على جلوسه فوق قراء القرآن، وشتمه، ورفع صوته، فأنكر السلطان فعلته، وغضب اليهودي وخرج من المجلس. ألا يذكرنا موقف ابن بطوطة المتعصب من موقف المتعصبين اليوم من الأقليات الدينية في البلاد الإسلامية، فزرعوا الكراهية وقاموا باضطهادها وبتهجيرها وتدمير الكنس والكنائس. ويبدو ان الرحالة المغربي في زمن الموحدين المتعصبين قدم الى العراق في أواخر العصر العباسي الذهبي، وقد صوح غصن الاندلس الرطيب بالحروب الداخلية والأحقاد والتعصب الديني، ولم يكن هذا السائح يعلم بالاحترام الذي كان يكنه المشرق الإسلامي لليهود، فلم يستطع عقله استيعاب ما يراه من عجائب المجتمع العراقي من سماحة الاسلام في العصر العباسي الذي ازدهرت فيه الفلسفات اليونانية وتياراتها الاسلامية من معتزلة ومتكلمين وملاطية ودهريين، ذكرتي هذه الحادثة التاريخية بموقف المتزمتين من كارهي الأقليات والحاقدين الذين يرون ان الديمقراطية والمساواة هي من عمل الشيطان، فيهاجمون كل من ينصف يهود العراق ويحاول رد الاعتبار إليهم من احرار الكتاب اليوم، ويهاجمون في تعليقاتهم على مقالات الكتاب الديمقراطيين، لان ميولهم السياسية لا تروقهم مستخدمين كلمات واسلوب ذكرني باسلوب الموحدي المغربي، فأسلوب الحقد والكراهية يسود ايام

غروب مجد الأمم، وفي عز إشراقها يسود فيها التسامح والاحياء والتعاون واكتساب العلوم ونشرها وانفتاح العلماء على علوم الشعوب الأخرى ودراستها والاستفادة منها. وهذا ما جرى في الأمبراطورية العثمانية التي فتح السلطان العثماني بايزيد الثاني ثغورها أمام يهود الاندلس الذين طردهم التعصب المسيحي مع المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢، فقد فتح هذا السلطان بلاطه أمام الاطباء والعلماء اليهود ومنهم من كان خبيراً في صنع المدافع الثقيلة وصب ماسوراتها، وهو فن برع فيه يهود الاندلس ويتطلب خبرة خاصة. ويقال ان الامبراطورية العثمانية صمدت أمام الصراع مع أوروبا خمسة قرون إضافية بفضل الصناعات اليهود وحكمائهم الذين خدموا العثمانيين باخلاص وصدق وكان منهم المستشار والطبيب والمنجم والصراف باشي وهو بمثابة وزير المالية آنذاك.

ويبدو ان هذا الصفاء والوفاء بين المسلمين واليهود في العصر العثماني بقي الى بعد سقوط الامبراطورية العثمانية ودخول البريطانيين الى بغداد يوم ١١ آذار/ مارس، ١٩١٧. وعن الحياة الرغيدة التي سادت بين المسلمين والاقليات الدينية في العراق. حيرني تفسير هذه الظاهرة في حب يهود العراق لأرض السبي حيث علقنا اعوادنا على صفصافها الغض تتدلى اغصانها كسواد فروع النائحات على ضياع الملك، واليوم ينوح العراق على ماضٍ مجيد انتهى بمصرع العائلة المالكة الهاشمية بكل وحشية حاكمة تكتسح أمامها كل من اراد خير العراق، حتى الزعيم الخيّر عبد الكريم قاسم الذي اراد خير الشعب العراقي بقلبه طاهر، أعدموه بغدر تعف عنه الوحوش الكاسرة. ثم عثرت بين اوراق المبعثرة على مقال لاحد محبي العراق كتبه

الصحفي الكبير الأستاذ منشي زعرور، الصحفي العراقي الذي خدم الصحافة اليسارية في العراق والذي غمط حقه حتى زعيم الحزب الذي خدمه بكل اخلاص، الى ان اضطر الى مغادرة مسقط رأسه مع الهجرة الجماهيرية لليهود عام ١٩٥٠-١٩٥١. يروي لنا الأستاذ منشي زعرور، الصحفي العراقي الذي خدم الصحافة اليسارية في العراق وحوزي جزاء سنمار، الى ان اضطر الى مغادرة مسقط رأسه مع الهجرة الجماهيرية لليهود عام ١٩٥٠-١٩٥١. انار هذا المقال حلقة الحيرة و اشار الى احد الاسباب الرئيسية لحلول الخير والبركة في وادي الرافدين في الماضي، ألا وهو التسامح الديني وحب ابناء العراق بعضهم لبعض دون حزازات طائفية أو دينية أو مذهبية، وعملهم الدؤوب لخير العراق واهله.

كتب الأستاذ الصحفي المرحوم منشي زعرور، أبو ابراهيم الذي كان يرتاد حلقات جامع الحيدرخانة ويوقع مقالاته باسم السَّمِيدَع العربي، مقاله الذي يحن فيه الى ماضي العراق حين عاش المسلمون مع غيرهم من الملل بالتآخي والحب والصفاء، في مقال له بعنوان: "خواطر عن ليالي بغداد"، نشره في مجلة "المصور" [تل ابيب - يافا، العدد ١٢٥، السنة ٦، ٢٥ مايو/أيار ١٩٦٦، ص ٢٦] فتحدث عن: "ذكريات جميلة عدت عليها السنون وكادت أن تطمس معالمها مع ما فيها من عبر وعظات وشواهد على أن القوم في العراق كانوا يعيشون متعاونين متحابين على اختلاف مللهم ونحلهم بما كانوا عليه من خصال حميدة وتقاليد موروثه هي من القيم الروحية في الصميم ومن الضوابط الخلقية في مدى بعيد..."

ويواصل الاستاذ منشي زعرور قوله: "ذكرتنا "المصور" بما نشرته في عدديها الأخيرين من عرض لكتاب "المقام العراقي" [للدشاعر ابراهيم عوبديا، رابطة الجامعيين النازحين من العراق، ١٩٩٩] والتعقيب عليه، ذكرتنا بأيام حلوة وليال أحلى ، ذكرتنا بعهد في بغداد كانت أغانيها ومقاماتها في ليلها البيض قاسما مشتركا بين مسلميها ويهودها. ذلك العهد الذي كانت السياسة فيه لم تخضع تلك الأغاني والمقامات لخدمة أبالستها وشياطينها، وكان أصحابها أرفع من أن يقبلوا على أنفسهم أن يكونوا آلات مسخرة لأي طاغية من الطغاة يسبحون بحمده ويحرقون له البخور...

ذكريات عراقية في وثائق منسية (الحلقة ٢)

ما هو لغز حنين يهود العراق الى ماضيهم في وادي الرافدين (ب)

ويواصل الاستاذ منشي زعرور حديثه عن بغداد بقوله: "وبغداد هذه التي نتكلم عليها، هي بغداد قبل الاحتلال البريطاني وبعده بقليل، يوم كانت مدينة صغيرة تمتد على حافتي دجلة من جانبيها الشرقي والغربي- الرصافة والكرخ- ولم يكن عرض كل جانب أكثر من أربعة كيلو مترات، أما في الطول فهي ممتدة من باب المعظم إلى باب الشرقي لا أكثر من بضعة كيلو مترات ... وصفوها هذا هو الذي كان يساعد ساكنيها على سماع أي مغن في الليل في أي مكان منها، خاص وأنها كانت خالية من وسائل النقل لهذا العصر من محركاته الميكانيكية ومن مصانعه الآلية... فليلها ساكن هادئ ولا يعكر صفو هذا السكون إلا دوي اطلاقات نارية بعض الأحيان ينبعث من بساتين ضواحيها ومن بعض طرفاتها حين يطارد العسس اللصوص فيتبادل الطرفان إطلاق العيارات النارية... كان أهل بغداد يومذاك شغوفين كثيرا بالمقام العراقي، وكانت مدينتهم لا تخلو في لياليها من أفراح كثيرة، وقد اعتاد الموسرون منهم أن يحيوا حفلات ساهرة في بيوتهم تمتد كل ساعات الليل حتى الصباح يعزف فيها جوق الجالغي ويغني مغنون كثيرون هم على أصناف من حيث مرتبة فن المقام. وكان هؤلاء المغنون يكادون يشنفون أسماع أكثر سكان المدينة لصفوها وهدوئها، ومن هنا يقول الشيوخ، إن احمد زيدان مثلا كان يغني في جانب الرصافة فيسمعه أهل الكرخ، وكانوا يحسبون خطأ أن ذلك يعود إلى قوة صوته! ... وأعود إلى ليالي

بغداد يومذاك فأكثر مسلميها كانوا يفضلون في أفراحهم وأعراسهم إقامة المواليد النبوية وهذه المواليد تحييها أجواق عديدة من منشدي التسايح والحمد للخالق العظيم ونبيه الكريم، وكان يغشى هذه المواليد أناس كثيرون من غير دعوة فيعمرون صدورهم من الروحانيات فتزداد مروءاتهم وتخفق قلوبهم بحب الخالق وبمصافاة خلقه طرا، ويتناولون كل ما لذ طعمه وطاب شربه فيحمدون ويشكرون وأكثرهم يرددون في دخائل نفوسهم: "إن شكرتم لازيدنكم"، وتمتد السهرة حتى الفجر غير أن أناسها يمضون ساعات بعد منتصف الليل بعد اختتام قراءة قصة المولد الكريم بإقامة الذكر، والذكر أيضا فيه امتداح للخالق ولأنبيائه ورسله جميعا، ففيه يؤلف نفر من الحاضرين دائرة وهم وقوف ماسك احدهم بيد الآخر فيتحركون حركات منظمة رتيبة وكلهم بأصوات منسجمة منغمة يرددون: "لا إله إلا هو"، بينما يواصل ضاربو الدفوف نقر دفوفهم وفق تنغيم أهل الدائرة، وبين حين وآخر يغني احدهم مقاما بالاماديح النبوية فيتساوق تماما مع النقر والتنغيم ويكون في وسط الدائرة شاب وسيم الطلعة يغطي رأسه "بقاووغ" طويل منقوش بألوان زاهية ويرتدي "تنورة" فضفاضة من النسيج الحريري ويسمون هذا الغلام "ملوي"، يظل يدور بخفة كاللؤلؤ وسط الدائرة طيلة مدة الذكر فلا يتعب ولا يكل خلال ساعة أو أكثر وترى الناس من حول الدائرة سكارى وما هم بسكارى ولكن الخشوع الروحاني قد أغرقهم بفيضه المقدس فراح كل منهم يمدح ويسبح ويستغفر ويتضرع إليه تعالى أن يمد خلائقه بالخير والبركات والإيمان.

وفي وسط وهج هذا الجو الروحاني يرتفع صوت احد ضاربي الدفوف وكان صاحبه كالقمر وسط هالة من زملائه يغني مقاما بصوت عريض رخيخ فيه بحة محببة، وكان

أهل بغداد عامة يعرفون هذا الصوت وصاحبه فيطربون له أكثر مما يطربون لغيره وكل منهم يقول "الله يطول عمرك يا احمد شعبان". وكان هذا أكثر ما يغني من شعر التزهد لأبي العتاهية إسماعيل بن القاسم العباسي من ذلك مثلا في الذكرى الحسنة بعد الموت:

كل حي عند ميته حظه من ماله الكفن

إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

في سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتهن

وكان أهل بغداد يحبون مغنيا آخر يهوديا هو واحمد شعبان في مستوى رفيع واحد عندهم من حيث أغانيهما الدينية والروحانية وهذا المغنى اليهودي هو "إفرايم باباي"، بلغ الان من الكبر عتبا ويعيش في إسرائيل بعافية وصحة، أتمنى على الله أن يكون زميله احمد شعبان لا يزال حتى الان حيا معافى يرزق في بغداد.

وإفرايم هذا كان يرأس جوقا يغني أفراده تساييح واماديح لله بكلمات عبرية شعرية من نظم الحاخامين البغداديين، وهذا الجوق يكاد يشبه احد أجواق قراء المولد النبوي عند المسلمين. ولا تدهش يا أخي القارئ حين أقول ذلك، أن تساييح واماديح أغنيات باباي وجوقه تكاد لا تخرج عن نطاق مثيلاتها الروحانية عند أجواق المواليد النبوية، وأكثر من ذلك أن سكان أي حي من إحياء بغداد المختلطة بسكانها تجد مسلميها فرحين مسرورين بليلة يحيى فيها جوق باباي حفلة في احد بيوت يهودها وكان أكثر اليهود يفضلون - كالمسلمين - إقامة مثل هذه السهرات التسيحية

الروحانية على الجالغي. وكثيرا ما كان يدعى مسلمون ومسلمات من الجوار إلى حضور هذه السهرات فيحضورونها بشوق وفرح، ويقاسمون أهلها اليهود أطيب أطعمتهم على أساس "طعامهم حل لكم وطعامكم حل لهم".

أما تلاحين أغنيات التسايح والاماديح الروحانية فهي واحدة في النغم والأداء والمقاطع والقفلات عند المسلمين واليهود.

وجوق افرام باباي هذا كان مؤلفا برئاسته من طلاب ثانويات يهود من أصحاب الأصوات الرخيمة والحناجر القوية المرنة، أما صوته هو فكان "داوديا" كما يصفه أهل فن الغناء البغداديون، أي انه صوت فيه رخامة وفيه نبرة حلوة وقوية، وكان صاحبه يدرّب أفراد جوقته على الغناء والأداء ويترجم لهم كل عبارة وعبارة من المنظومات الشعرية العبرية ومعانيها وما تتطلبه هذه المعاني من الأداء ليستقيم المعنى والنغمة، وكان أفراد أجواق قراء المواليد المسلمون يعجبون بوحدة أصوات افراد جوق باباي، وأهل بغداد كما أسلفت، على اختلاف منازعهم ومذاهبهم، وكانوا يقدرّون جوق باباي فينصتون لتراتيله وتنغماته كإنصاتهم لتراتيل وتنغمات اجواق المواليد، وكانوا حين يذكرون احمد شعبان يقرنونه بافرام باباي فيطرون الاثنين معا، لان صوتهما كانا يجلدجان في أجواء بغداد أكثر لياليها والدعوات المتبادلة بين المسلمين واليهود إلى حضور الأفرح والأعراس عند الفريقين كانت تقليدا اجتماعيا يحرص عليه الكل، فعندما كان رويين رجوان احد مغني المقام العراقي البارزين يشترك مع جوق الجالغي في سهرة ببيت احد المسلمين كان يحلو لهم الرجاء إليه أن يغني

عند الفجر المقام الخَلَوْتِي بكلمات اعتاد مؤذنو جوامع بغداد في تمجيدهم بصحن
المتدنة قبل صلاة الجمعة أن يقولها بنغم هذا المقام ومطلعها:

"سبحانك ما حمدناك حق حمدك، يا موجود"

وكان الحاضرون يهللون للمغني رجوان ويشكرون على أدائه هذه الكلمات الروحانية
كما يؤديها أي مؤذن، ولكن صوت رجوان كان أرخم وتمكنه من المقام كان يجلو
هذا التمجيد للخالق جلاء نورانيا مقدسا.

إلى هنا ما رواه الاستاذ زعرور، وما زال يهود العراق الى اليوم ينشدون باللغة العربية
في صلواتهم الصباحية بصوت رخيم الرباعيات التي مطلعها:

قوموا صلّوا الفجر بين أدي فرضك لا تدين

واليقول القبر هيّن فيه عقرب ثم حية

تُرى هل تسري مثل هذه الذكريات الصافية في لا وعي اليهود العراقيين الى اليوم أبا
عن جد، ويبقى الحنين؟ كنا في اجتماع تكريمي في يوم ٣٠ آب من هذا العام،
للأديب والصحفي باروخ مئيري لمناسبة صدور مجموعته القصصية "حب الرقي"
(رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، ٢٠١١) يروي فيها باللغة العبرية
حكايات طفولته وهجرته وعمله مراسلا ومديرا لمكتب جريدة "معاريب" في
اورشليم-القدس. فإذا باحد الحاضرين البصراويين يقدم نفسه باسم فريد، يطلب
إلقاء قصائد حنين الى مسقط رأسه. ومن يستطيع في مثل هذه الاجتماعات رد مثل
هذا الطلب، وقف على المنصة وأنشد:

أيا دجلة والفرات ما للشوق يدفعني؟
ليتة لربي بغداد والبصرة يرجعني
أذوب حيناً إليكم فهل الصبر يرحمني
أم ترى لا رجع للصدى، فليس من يسمعي

صفق له الحاضرون، سألت السيد موشيه هنجبي، المعلق للشؤون القانونية في صوت اسرائيل باللغة العبرية الذي شارك في الأمسية، كيف يفسر حنين اليهود الى العراق؟ وهل سمع بشاعر من يهود أوروبا ينشد شعر حنين الى اية دولة من دولها؟ فقال في حيرة مما سمع، بانه لا يدري كيف يفسر هذا الحنين، ولم يسمع عمّن كتب قصائد حنين الى دول أوروبية.

ولكن هذا الحنين يشوبه ألم لما يحدث في العراق اليوم وما جنته دول الجوار من شيعة وسنة على الفراتين الخالدين. واليوم لم تُجدِ دموع أمير الشعراء ولا دعاء الشاعر ابراهيم عويديا قبل وفاته بأيام: "يا ربّ نج العراق من محنه"، من تجنيب دجلة والفرات من العوادي، ولم تجدِ دموع الايتام والأرامل ومحيي العراق ومغتربيه في تجنيبه المصائب، وتذكي نيران اللوعة في جوانحنا مآسي العراق المتتالية، منذ ان دخلت النظريات الغربية وفلسفاتها فشوهت اخلاق الشرقيين بإثارة الاحقاد والكرهية والاطماع وانكار الآخر وتجريده من حقوقه الوطنية من مساواة وحرية وتسامح وديموقراطية، هذه النظريات القومية الشوفينية المتطرسة كانت السبب في تشريد واعتقال وشنق خيرة الشباب العراقي.

واليوم أرهف السمع لعلي أسمع اصدااء أغاني العراق في مقاهي شارع أبي نواس
والرشيد وعلى مياه دجلة والفرات حين كانت الزوارق تنهادى بعشاقها وبالأصدقاء
والعائلات السعيدة من سمار الليالي المقمرة والاسماك تمرح حولها في قفزات سرور
ومرح وفوانيس الزوارق تعكس اشعتها المزغردة المهللة لأفراحهم على صفحات
النهر الخالد، والندامي في سمرهم تحت قمر العراق الضاحك، ينطلقون بالأغاني
عن ظلم الحبيب وجراحاته وآهات الغرام؟ فلا اسمع اليوم سوى دوي المفخخات
وأنين الجرحى وبكاء الأرامل والأيتام، وقد صمت ايقاع نقر الدرابتك في ليالي العراق
المقمرة ايام طفولة السياب. كان ذلك في ايام عزّ العراق، واليوم يا عراق، حنيني
إليك يكوي اضلعي ومصائبه حرائق في دمي، فقد أصبح العراق اليوم شماتة
للأعادي، فتقطع عن دجلة والفرات المياه من الشرق فتاوى العمائم واللحى، ومن
الشمال يقطعها وريث السلطان الأحمر الغاشم، الذي ما زالت البلاد العربية تعاني
من آثاره، وما زالت ساحات دمشق تحمل اسماء الثوار العرب الذين شنقهم جمال
باشا السفاح، وسفاح دمشق الجديد يقتل خيرة شبابها في شوارع سوريا التي تحمل
اسماء شهداء العرب ضد العثمانيين، ونرى هذا الوريث يصبح أسداً على شعبه وهو
في الحروب نعامة. ولسان الحال يقول:

يا جراحاً وراء دجلة تدمي في دموعي تجنبتك العوادي

تأتي قاعا قد كان بالأمس روضا صار قفرا شماتةً للأعادي

قف، تمهل، وخذ أماناً لقلبي من دموع الأيتام تحت السواد

في شاعر هعليا أو بوابة الهجرة التي سماها العراقيون (شارع إيليا)

ذكريات منسية

الثلاثاء ٢٣ أغسطس / آب ٢٠١١

أقلعت الطائرة الضخمة من مطار بغداد بعد أن انهكنا التعب في الوقوف في طوابير فحص محتويات حقائبنا خشية أن نهرب ذهب العراق في ملابسنا وكعوب أحذيتنا، ثم حطت بهبطة عنيفة في مطار اللد في الدولة التي كانت الأذاعات العربية تدعوها بالدولة المزعومة، حطت في أحرج الأوقات في تاريخ الشعب اليهودي، بعد حرب دامية والدولة على وشك الإفلاس وقد استقبلت فجأة هذه الجموع الهائلة من القادمين الجدد بعد محرقة الهولوكوست في أوروبا. كان عليها الإختيار بين انتهاز فرصة السماح لنا بالخروج أو التريث، ومن يستطيع ضمان الخروج إلى إسرائيل فيما بعد، وكانت إسرائيل بحاجة ماسة إلى أيدي عاملة رخيصة ودعم لأمنها. ولكن الشيء الذي حيرنا وأغضبنا هو هذه البرودة التي صدمنا به الموظفون في إسرائيل والذين لم يجيبوا على ترحيبنا: "شالوم حبير"، بل رشوا علينا الـ "دي دي تي"، بوجوه صارمة، نحن الذين تعودنا على الترحيب بالضيوف واکرامهم. كانت خشيتهم أن ننقل "مكروبات العراق" إلى الدولة التي أرادوا أن تبقى أوروبية نظيفة، ثم شحنونا بلوريات البهائم إلى معسكر الحجر الصحي في "شاعر هعليا" (بوابة الهجرة) التي حرقها العراقيون إلى رنين عربي له معنى وهو "شارع إيليا". تكلموا بالعبرية دون الاكتراث فيما إذا كنا نفهم أوامرهم أم لا، أوقفونا في طوابير التطعيم الصحي وطوابير الطعام للحصول على نصف بيضة مسلوقة، وشريحة من الخبز الأسود وخمس حبات زيتون وبرتقالة وقطعة من الفسيخ (السّمك المالح) كادت تقلب معدتنا المدللة برائحتها الكريهة، بعد أن تعودت على السمك "المسكوف" المتبّل بـ"الكاري".

وفي الصباح جلست على طاولة الطعام مع مصعوق من توالي الأحداث الغربية لإقلمتنا، تلخبطت عليه الأمور، حائر من مقلوعي الجذور، رأته يتأمل نصف البيضة التي أمامه وهو يردد بينه وبين نفسه ويختلس اليّ نظرات متعجبة، "والله عجيب، القشغ (قشر البيضة) قشغ، والبياض بياض، هسه هذا الصفاغ اشلون عبونوا ابطن البيضي؟"، قلت له ما وجه العجب؟ هذه بيضة طبيعية مسلوقة، مقسمة بالسكين إلى نصفين لقلة البيض في هذا البلد الفقير". نظر اليّ نظرتة الى غشيم لا يعلم عن معجزات إسرائيل شيئاً: "لكنّ متعغف (ألا تعرف)؟ هذا بيض اصطناعي، هوني كل شين اصطناعي حتي الحليب من طوز (مسحوق) ما من هاشا (بقرة)!" كتمت ابتسامة مشفقة، لعل اقتلاع جذوره اطار صوابه. قلت له، "نعم هناك مسحوق للبيض، ولكن أماننا بيضة قسموها الى نصفين لعدم توفر العدد الكافي للمهاجرين"، لم يصدق ما قلته، وقال لي "متفوح! متمشي بقا، قففهمني ابيسرائيل؟". وفي البانكولو (الصريف) الكبير الذي تركه جنود الانتداب البريطاني الذين عيل صبرهم بين العرب الثائرين الرافضين واليهود المطالبين بحصتهم من وعد بلفور، صُفّت عشرات الأسرّة الحديدية بحشايها الملوّءة بالأعشاب اليابسة التي يعيث فيه البق اللاسع الذي عرفه الآباء في معسكرات الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى والمسمى بـ"التختا كلسي" والذي قضّ مضاجعنا بلسعاته الشديدة المحرقة، إذ لم نكن نعهده في العراق حيث البعوض الذي تعودنا عليه، ارحم من هذه الحشرة اللعينة التي تلاحقنا الليل بطوله تشاركنا فراشنا بلسعاتها القارصة، تقض مضاجعنا مع همومنا الجديدة. حشدوا عشرات العوائل معا، كل عائلة احتلت مجموعة من الأسرّة لتكون قريبة الواحدة الى الأخرى، وأنا الوحيد على فراش منفرد اتطلع بعينين شاردتين، كأني أشاهد يوم القيامة والحشر، كل شيء مكشوف هنا، ولا خلوة للرجال مع نسائهم مما جعلهم أكثر عصبية ونفاذ صبر، وهذا الفتى الكرديستاني بسنه الذهبية، قد عيل

صبره، يمد يده العطشى النهممة الى فخذ زوجته وهي ترضع طفلهما البكر، فتنهزه بضربة دلال وتقول له، "عيب، ما تستحي قدام العالم تعمل هيكي مكلّم مقيشعوك؟" وهذا العريس الجديد، جالس مع عروسه وما زالت كفاهها مخضوبتين بالحناء وأظافرها مطلية باللون الأحمر القاني وبقايا أحمر الشفاه الباهتة على شفثيها، ويبدو أنهم رحلوا بعد حفلة الزفاف مباشرة، عيل صبره من الكبت وهو يكتم غيظه شاعرا بالغين وخيبة الأمل والحيرة مرسومة بوضوح على وجهه، ثم يلتفت الى حميه بحمية وغضب ممسكا بيد عروسه يستمد منها الجرأة للاحتجاج على الجوع والتعب والحرمان وقلة النوم بين جموع غريبة وعيون متلصصة، وقرر المطالبة بحقه، طالبا الوفاء بشروط المهر والجهاز التي وقع عليها والدها، نتر صائحا بوالد العروس بغضب وقد طارت من رأسه الأصول المرعية في احترام الكبار:

- "أشو وين البيت ابو اغع قب (أربع غرف) اللي قلتلي غاح تشتغليانا ويا الجهاز؟"

- ابني! الخاطر الله، هسا هذا موقنا، متحطينا نطلع من هايي الوحلة قبل، واتالي نتراجع وكل شين يقعد بمكانو!".

- لا ! قشمرتمني وجبتني الهل جهنم، لا ليل ليل ولا انهاغ انهاغ وقفاغ وماي حاغ، وموت من الجوع.

- ليش اكدبتو عليك، همي كذبوا علينا، مقتعين اشلون وقعه سودا وقعنا كلنا، حطينا نطلع من شارع إلّيا (شاعر هعليا - بوابة الهجرة) قبل، خاطر الله فك عني! ولا تلزمتني من خصياني هسه، وتقلي ياالله وين البيت. مقتعين بأشلون وقعة سودا ومصبوغا وقعنا !.

- لا، أنا ما أغيد، رجعني البيت أبوي بالعراق أحسن لي، كنا عايشين مثل المملوك!
- أبني، قلتولك اصطبغ وشويا لاخ تفرج ونشتغلك بيت!
- لا، ما أغيد، وَهْدِنْتُمْنِي (غررتم بي) وجتمني ابهل المكانات، الكاولية هم ميقدغون ايعيشون بيها، يلاً، رجعني للعراق!
- ولك بس بقا، دوختو الغاسي وأنا الليل كلو منمتو، قتسكت، لو احجی أخلص خبزك هسه؟
- أغيد أرجع للعراق، ياالله!
- ضاق صدر والد العروس وعيل صبره من إلحاح صهره الجديد على شراء بيت أو العودة الى عز العراق، وقام صائحا بغضب:
- ولك ابن الكلب، مشفت غيغ وقت تلزمني من خصياني واتقلي اغيد وأغيد! والله لاوم أأدبك اليوم.
- أمسك بناصية العريس الطير ووضعه رأسه بين ركبتيه وانهاه عليه ضربا، "هَيّ پاط، هَيّ پَيط". حاول العريس ان يتخلص من القبضة الحديدية وهو يعوي ويستغيث، وصارت العروس تلطم وجهها وتصرخ بوالدها، "بس بقا لمتيتو!"، وصاحت أمها، "سيّو بقا، بس، ليش الخايب اشقال؟". وانقلب المشهد الى هوسة وصخب عراقي عنيف من صياح وعويل ودموع وغضب وضرب وشتائم، الى أن تمكن العريس من التخلص من بين رجلي العليح الغاضب، قفز العريس الخايب على الفراش ومن هناك الى الخارج عن طريق الشباك المفتوح وغاب عن الأنظار، وصاحت الحمأة، "غوحوا لحقونوا ولزمونوا! لا يسوي امغ ابفسو" (الحقوه وامسكوه، قد يقدم على الانتحار!)، والعروس تبكي وتولول، "ابدالك بابا، ليش اتهدلو الزوجي العريس قدام العالم، الله

يقبلا عليك؟" وولدت الوالدة، "أسود على بن غريون وعلى نوري السعيد وعلى الطيارة السودا اللي جابنتي، الله يهجملم بيتهم!"

خرجت لأرى أين هرب العريس المسكين المغدور المطالب بحقه الخرافي في هذه النكبة التي حلت بيهود العراق، فإذا بي اشاهد معركة حامية بين شابين مهجّرين أسمرين وشرطي اشقر أحمر الوجه وقد ضرب احد الشابين المطالبين بتحسين الأوضاع في المعسكر الكرنيتية ونقله الى معسكر قرب تل أبيب رافضا قبول معسكر للقادمين الجدد على الحدود في النقب. رفسه الشرطي رفسة ظالمة بين فخذيه جعله يتمرغ على الأرض وهو يئن ممسكا بيديه الموضع الحساس من جسمه وهو يتلوى على الأرض من الألم، صارخا: "آخ يابا، آخ يابا!، ولك يا ابن الكلب، حتي بالعراق هم ما سووا هيكد بينا، انشا الله تغوح فدوه حتى على بسطال الشرطي العراقي!"، وواصل الصراخ وهو يسب بن غريون ونوري السعيد والتنوعة!

وفي اليوم التالي، ونحن نفتش عن أقرباء جاءوا ينصحوننا إلى اين نطالب بالانتقال من هنا، فإذا بي أرى أخي ريموند يفتش عني، "وي ابدالك!"، ارتمينا دون وعي في الأحضان وغمرتُ الوجه الحبيب بالقبل، "أش قتسوي هون؟" ولأول مرة شعرت بيد أخي الاصغر مني والذي كان يعتمد علي في كل مشاكله، تمتد نحوي كيد من خلال غمرات النكبة العراقية لتنتشلي من حيرتي، وليقول لي، "أطلب التصدير إلى معبرة سكيّة (أ)، قرب تل أبيب، فعندي خيمة ولا استطيع البقاء فيها لأنني أعزب، إلا إذا انضمت اليّ".

خرجت في اليوم التالي للتنزه في الحقول المحيطة بالمعسكر مع فتى تعرفت عليه في الطائرة، قال إن اسمه شاؤول منشي، (الذي أصبح فيما بعد من كبار المعلقين السياسيين في إسرائيل)، وجاء صديقه وانضم إلينا، تجولنا في حقل أشجار الزيتون

على منحدرات الكرمل نتحدث عن عذابنا في الكرنتينة وأمانينا في المستقبل، مر الوقت سراعاً ثم توقفنا ونحن حائرون، نريد التخلص من احتقان المثانة، قال الفتى العراقي الجديد، "لا نستطيع التبول على أرض إسرائيل، انها ارض مقدسة!"، أكّد شاورول على قوله، "نعم، أنت صادق فيما تقول"، قال الآخر، "وما الحلّ والمعسكر بعيد؟"، قلت دون وعي مني: "نظير الشرب على جذع شجرة الزيتون، نسقيه حتى لا يصل الى التراب المقدس!" قلت ذلك بالبديهية ف"العلم في الصغر كالنقش في الحجر!". استبشر الصديقان بالحل المعقول، ووقفنا ثلاثتنا، بعد عذاب التروي، نستمع الى أحلى سنفونية خريبر تشنف أسماعنا منذ أول جالغي بغداد سمعناه في صغرننا في العراق حيث كان الجميع في حلّ من أن يتبول في كل مكان، في الدروب وعلى الحيطان وحتى في أثناء سباحتنا في مياه دجلة العذبة الطاهرة، دون تأنيب ضمير أو حرج.

وفي اليوم التالي، جاءت جوليت تعرض عليّ التنزه خارج المعسكر، جلسنا صامتين تحت شجرة زيتون وارقة، فإذا بها تأخذ يدي وتضعها على ثديها، شعرت بقشعريرة لذبذبة تسري في دمي، قدمت فاهها، وغبنا في قبل محمومة، تأوهت وقالت وهي في نشوة طاغية، "بس! ما قدقدغ (لا أستطيع الاحتمال)، كل دقيقي فتتخضو الدمى!"، عدنا صامتتين الى المعسكر، بعد ايام جاءت سيارة حمل ونقلتها مع عائلتها الى خيام اللاجنين قرب تل أبيب، قالت لي "صدّرونا الى معبرة خيرية، تعال زرنا"، ساعدتها على الصعود الى السيارة، وناولتها نظاراتي الشمسية لكي لا تعيقني في مساعدتها، همست بنشوة حاملة، "قَتْنِيَشْنِي؟" (هل هذه هدية تمهيدا للخطوبة)، صدمني السؤال، قلت بعفوية، "لا! ناولتها لك لأستطيع مساعدتك على الصعود فقط!"، بدت على وجهها علامات خيبة أمل شديدة وسهمت نظراتها. وبعد سنين، التقينا في

نزهة قام بها عراقيون لتبادل الذكريات. التقيت بها وجها لوجه وتبادنا القبل أمام الجميع. قالت معاتبية، "لماذا لم تخطبني؟" قلت، "كنت بدون عمل ووبدون شهادة جامعية تمكيني من العيش بكرامة، كيف أتزوج بمثل هذا الوضع الأغبر؟"، قالت، "ولم لا؟ لقد تزوج الجميع بهذه الصورة". ثم اردفت: "أتعلم؟ كلما تظهر على شاشة التلفزيون، أنادي أبنائي وأقول لهم، "هذا كان لازم يكون ابوكم، أغماد على أبوكم، أشقيسوي بيبي". هالتي ما سمعت واقشعر جسدي باشمنزاز، كيف تربي أطفالها على احتقار والدهم؟ ولكن الحقيقة المرة هي أن الكثير من العراقيات آنذاك كنّ يرين في الزوج وعائلته العدو الأكبر لهن طيلة حياتهن.

وفي المعسكر نادوا على اسماء من سيصدرون الى معبرة "سَكِيَّة" الرملية المحاطة ببيارات البرتقال الذهبي قرب تل أبيب. إذا، فالمعركة التي خاضها العراقيان المهجران مع الشرطي الأشقر كانت ناجحة، فقد نزلت سلطات الوكالة اليهودية عند رغبة يهود العراق في السكن قرب تل أبيب ورمات جان. أقلّتنا سيارات نقل البهائم لتوزعنا على معسكرات الخيام الأخرى لنبدأ حياتنا الجديدة جائعين في الأرض "التي تدر لنا وعسلا" وتركونا "كلمن وحظه ونصيه" وكلّ ومقدرته على الصمود أمام هذه النكبة في هذا العالم الجديد الغريب الذي انقلبت فيه الأمور والعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية واللغة رأسا على عقب. فقد أصبحت تقاليدنا تعد من القيم المتخلفة " ومن أيام العسملبي" (العثمانلي)، وصار الأبناء من بنين وبنات، ويا للعار، يعملون ويعيلون الآباء الذين انزروا في أركان خيامهم المظلمة خشية نور الشمس التي ستظهر لهم انهيار عالمهم وضياح أموالهم المجمدة التي جمعوها بعرق جبينهم وجبين آبائهم وأجدادهم، ويتخرجون من طلب نقود من أبنائهم لشراء السجائر ليحرقوا بها غيظهم وكمدهم. مات من لم يستطع احتمال الصدمة، أما الباقون فقد ترحموا على أيام

زمان، ويقولون: "أبدالا الهديكي الايام" (فداء لتلك الأيام الخوالي!)، وصاروا
يشتمون نوري السعيد وبن غريون والطائرة التي أتت بهم في أغانيهم التي نظموها:

أويلك بن غريون هججتْ كُلَّ الكون

وساعة السودا على الطائرة ال جابتنا!

مباشرة أورشليم، ٢٠١١ ٨ ١٩

أنيس منصور هذا الكاتب والمفكر المعروف

الأحد ١٥ أبريل / نيسان ٢٠٠٧

أكتب هذا المقال لمناسبة حلول الذكرى الخامسة والعشرين لاتفاقية السلام بين مصر واسرائيل، وعنوان هذا المقال هو معارضة لعنوان كتاب أ. د. محمود فوزي "أنيس منصور ذلك المجهول"، وقد عزمت على كتابته بعد أن اخبرني صديقي رجل الأعمال الاستاذ صالح عباسي صاحب مكتبة كل شيء في حيفا، بأن زوجته الأستاذة لبنى صفدي - عباسي، تلميذتي والمعيدة سابقا في الجامعة العبرية، ستحرر العدد الجديد من مجلة "الشرق"، ولابد من نشر مقال لي عن الأديب الكبير أنيس منصور في هذا العدد الخاص. لم أستطع رد طلب تلميذتي النجبية لبنى وهي التي تضاهي أستاذها في دقة البحث والتحقيق وخاصة في مراجعتها للترجمة العربية لكتابي "الشعر العربي الحديث" الذي قام بترجمته الأستاذان سعد مصلوح وشفيع السيد لأعداد طبعته الجديدة المحققة، حتى أن دقتها افرغت صبر صديقنا الدكتور محمود عباسي صاحب ومدير مطبعة المشرق وكاد يضيق ذرعا بدقتها العلمية في مراجعة البروفات وعدم موافقتها على التفريط حتى بالفارزة والنقطة، ناهيك عن التصحيف والتحريف في الطبع .

أما الداعي الأعظم لكتابتي هذا المقال عن المفكر والاديب والصحفي المصري الكبير أنيس منصور، فهو الخبر السار الذي زفته الي الدكتورورة سيجال كرجي عن احتمال زيارة صديقي أنيس منصور القريبة لإسرائيل لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لتوقيع اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل. والاستاذ انيس منصور من كبار المثقفين والمفكرين والادباء والصحفيين العرب في العالم الذي يحتفي به ملوك ورؤساء الجمهوريات العربية والاسلامية والأدباء والعلماء في العالم أجمع ونال العديد

من الجوائز وأوسمة التقدير منهم، فهو في مصر عضو مجلس الشورى وعضو المجلس الأعلى للثقافة ورئيس نادي القلم وعضو المجلس الأعلى للسياحة وعضو المجلس الأعلى للصحافة ومؤلف أكثر من ١٣٥ كتابا معظمها ترجمة ذاتية بالإضافة الى دراسات سياسة ومجموعات قصصية ونقد أدبي ومسرحيات كوميدية ومسرحيات مترجمة ودراسات نفسية ودراسات علمية وفلسفية، أي كما قيل عن المتنبى "مالي الدنيا وشاغل الناس".

والدكتورة سيجال هي احدى الطالبات المتفوقات في دراستها في جامعة بار-ايلان، وهي الوحيدة التي وافقت، بعد تردد، على كتابة أطروحة الدكتوراه عن هذا الاديب الكبير الثرّ العطاء في النثر العربي الحديث. أقول هي الوحيدة، لأنني كلما عرضت على طلابي المتفوقين الكتابة عن أنيس منصور اجفلوا وقالوا: هذا بحر متلاطم الأمواج من العلوم والمعارف والفلسفات والآداب، ولا طاقة لنا على مصارعتها. وعندما عرضت هذا الموضوع أخيرا على تلميذتي سيجال، قالت: والله يا أستاذ أخشى الغرق في هذا البحر المحيط، قلت لها: "لابد من أن تكتبي عن هذا الكاتب العظيم قبل أن أحال الى التقاعد من الجامعة، وانت خير من يقوم بهذا العمل لتفوقك في الدراسة ولسرعة قراءتك باللغة العربية، فأنت وان كنت من مواليد اسرائيل فأنت من أسرة بغدادية مازالت تتكلم اللغة العربية في البيت وبين افراد العائلة والأصدقاء، فاذا اشرفت على الغرق فسأرمي لك طوق النجاة." وهكذا اقنعتها بالشروع في كتابة أطروحتها عن صديقي الأستاذ الكبير .

قلت "صديقي أنيس منصور" وأنا أعترف أن عدد اصدقائي قليل جدا، فأنا لا اطارد كبار الأدباء والشخصيات للتعرف عليهم وللتفاخر فيما بعد بصداقتهم، وسبب ذلك ضيق الوقت عندي، فأنا بسبب أبحائي ونشاطي الاجتماعي والعلمي في سباق دائم

مع الزمن ولذلك لا أحب الدردشة في أروقة الجامعات أو الجلوس في المقاهي، ولا أحب القيل والقال واغتياب من نعرف ومن لا نعرف. وعندما قلت لأحد الأصدقاء المصريين عندما انهيت كتابة أطروحة الدكتوراه في جامعة لندن، بأني عائد الى البلاد، سألتني: هل ينست من العنور على موضوع لأطروحتك؟ قلت له: لقد قدمت الأطروحة وحصلت على اللقب وأنا عائد لأدرّس في الجامعة العبرية! قال لي: الله، كيف استطعت ذلك خلال ثلاث سنوات؟ قلت: في الوقت الذي وفرته من الدردشة في كافتيريا معهد الدراسات الشرقية والأفريقية في الجامعة هنا. أما السبب الثاني من عدم رغبتني في الدردشة فهي انني في بعض الأحيان أخبر أصدقائي عن نتائج أبحاثي وإذا بي أرى بعد حين أن بعضهم نسب هذه النتائج الى نفسه دون أن يذكر بأنها من بنات افكاري. وعندما قلت لأحد الباحثين بانني توصلت الى نتيجة أن أحد كبار المؤلفين العرب له شخصيات نمطية لها خصائص وميول فكرية وسياسية ودينية واجتماعية محددة ويستخدم هذه النماذج في رواياته بتشكيلات مختلفة، قال لي متعجبا: والله، أنا قرأت وكتبت عن هذا الكاتب مدة ثلاثين عاما، ولم اتوصل الى هذه النتيجة الهامة التي توصلت إليها أنت بعد قراءة تك لعدد محدود من رواياته! وبعد أسبوع جلست في محاضرة يلقيها هذا الباحث، فإذا به يعلن أمام المأى بأنه "توصل الى نتيجة هامة وهي أن بعض مشاهير الكتاب لهم نماذج من الشخصيات النمطية يستخدمونها في رواياتهم بتشكيلات مختلفة". كنت غصبي لهذه السطو في واضحة النهار ولهذا الجرأة في نسبة نتيجة بحثي الى نفسه وأنا جالس أمامه، وعندما عاتبته قال لي بدون مبالاة: وهل أنا بحاجة الى آرائك بعد ثلاثين عاما من البحث؟ والمثل العراقي يقول: "عيش وشوف"، يعني بالعربي الفصيح: "عش رجبا ترّ عجبا". ولذلك فإن الأستاذ أنيس منصور هو من أصدقائي القلائل الذين اثق بهم. فنحن اصدقاء منذ نهاية السبعينات من القرن الماضي وذلك عندما التقت دار النشر

"يديعوت أحرونوت" على عاتق البروفيسور منحيم ميلسون وعلى عاتقي اختيار قصص مصرية قصيرة تعكس الأجواء الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية في مصر، شرعت أولاً في قراءة قصص الاستاذ أنيس منصور لأختار له "قصة مصرية تعبر عن الواقع المصري" لضمها الى المجموعة المترجمة الى جانب قصص لنجيب محفوظ ويوسف أدريس ويحيى حقي ومحمد مستجاب (الذي اثار قصته المترجمة "الغراب الخامس" اهتمام الأدباء والباحثين في اسرائيل)، وسكينة فؤاد وجمال الغيطاني وغيرهم. وبعد قراءة معظم قصصه التي تزيد على الأربعمئة قصة، وجدته أديبا يهتم بالصراع النفسي والعقلي، وبالذوايق والغرائز والعواطف الإنسانية، فهو من رواد ما بعد الحداثة في الأدب، لا شأن له بالزمان وبالمكان وفي بعض الأحيان لا نجد ذكرا لأسماء الأبطال، فهو يهتم بالتكنيك الغربي الجديد ويرى نفسه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العالمية، فهو إذا من رواد العولمة في الثقافة والأدب والنشر، مثل أدونيس شاعر العولمة في الشعر العربي الحديث، أما دار النشر فقد طلبت منا شيئاً آخر. كتبت الى الأستاذ أستنجدته طالبا أن يختار لي قصة مصرية أصيلة "يعني مصرية بنت حلال"، فإذا به يرسل إليّ رسالة طويلة جعلها فيما بعد مقدمة الطبعة الرابعة في كتابه "عززي فلان وقصص أخرى" (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ٥-٩)، تكاد تكون خارطة أو برنامجاً لكتابة اطروحة دكتوراه عن قصصه .

وعندما زرت القاهرة عام ١٩٨١ مع زوجتي كان أنيس منصور أول من اتصلت به لأشكره على مقدمته، فردّ عليّ قائل: أهلاً وسهلاً بك في مصر، سأرسل لك سيارتي مع السائق والمرافق الشخصي ليأتيا بكما من فندق ماريوت الى مكنتي ثم أخذكما لزيارة كنيس ابن عزرا وحرارة اليهود. تعجبت زوجتي من هذه الأريحية والضيافة، قلت لها هذه تقاليد الضيافة والحفاوة العربية العريقة، فباي تونس أرسل لفارس الشدياق

بارجة حربية احتفاءً وتقديراً لقصيدة مدّحه فيها معارضا قصيدة "بانت سعاد" لزهير بن أبي سلمى (وقد قرأت فيما بعد بأن الرئيس حسني مبارك أرسل الى الأستاذ أنيس منصور الذي اصيب بجلطة في ساقه، طائرة مع طبيين مصريين لنقله على وجه السرعة الى باريس، لمعالجته من قبل أحد كبار الأطباء المتخصصين بالأوعية الدموية في فرنسا)، هكذا يقدر بعض زعماء العرب العلماء والمفكرين، فجئني بمثلهم، بارك الله فيهم .

وأثناء زيارة الرئيس السادات لإسرائيل عينت الحكومة الإسرائيلية البروفيسور مناحيم ميلسون من الجامعة العبرية مرافقا له، فما كان من سيادة الرئيس الراحل الا ان دعاه لزيارة القاهرة، وهناك لقي من الحفاوة والضيافة ما جعله يلهج بالثناء على الرئيس الراحل وعن زيارته مدة طويلة. وهناك التقى صديقي البروفيسور بأنيس منصور، وكانت خير هدية منه لنا مقالة كتبها عن الفلسفة الوجودية قام د. محمود عباسي محرر مجلة الشرق بنشرها مع الإهداء .

وعند صدور كتابي عن "المسرح البشري في العالم العربي في القرون الوسطى" باللغة الإنكليزية، قال لي الأستاذ أنيس: قرأت كتابك دفعة واحدة خلال ثلاثة ايام ثم قررت إرساله الى الأستاذ د. محمود فوزي عميد أكاديمية الفنون والترجمة لترجمته الى اللغة العربية ونشره في دار الشروق بالقاهرة، ثم طلب مني نسخة من الكتاب لإرسالها للترجمة. وعند زيارتي للقاهرة عام ١٩٩٢ مع تلميذتي الدكتورة ألغا برامسون التي كانت تعد أطروحة الدكتوراه عن الطيبة والرواية د. نوال السعداوي والتي نالت بعدها الدرجة بامتياز، أخذت معي ثلاث نسخ من الكتاب هدية له. دعانا الأستاذ أنيس الى الغداء في فندق سميراميس في القاهرة وكان في استقبالنا في الوقت المحدد قرب بوابة الفندق الأستاذ أنيس مع رئيس تشريفات الفندق مرحبا بنا. أخذنا

الأستاذ الى المائدة المحجوزة لنا قرب نافذة كبيرة مظلة على النيل. فإذا بنا نجد تلميذتي السابقة، الصحفية المعروفة المتخصصة بشؤون الشرق الأوسط السيدة سمدر بيرى من جريدة "يديعوت أحرونوت" مع المصورة الصحفية المرافقة لها. جلسنا لتبادل الحديث وحدثنا الأستاذ عن الرئيس الراحل المغفور له أنور السادات ومرافقة أنيس له في زيارته التاريخية للقدس ومحادثات السلام، وتساءلت برامسون عن سبب تلكؤ التطبيع بين مصر واسرائيل، فأشار أنيس الى النيل ومياهه التي تجري بهدوء وقال: "نحن المصريين لنا صبر وأناة، لا نتسرع في الأمور، ومزاجنا يشبه مزاج النيل الذي يجري بتأن وهدهوء، أما انتم الإسرائيليون فستعجلون الأمور وتريدون أن نجاريكم في تسرعكم". لم أشأ التعليق على ما قاله الأستاذ وإن كانت ذاكرتي التاريخية التي تمتد من "المدراس" <شروح وتفسير التوراة> (الذي يحدثنا عن فيضان النيل وأن يوسف الصديق بقي في دار سيده لمراجعة حساباته بينما ذهب الجميع للاحتفال بوفاء النيل ومشاهدة المسرحيات التمثيلية، فانتهزت زليخا الفرصة وراودته عن نفسه)، مارة بالمقرنيزي وابن تغري بردي وابن أياس والجبرتي، والتي تقول لي إن النيل كان يفيض سنويا بتياره الهادر المتدفق الحامل للطمى فيغرق الصفتين والقرى المحاذية ويعيد خصوبة الأرض بالجرين المترسب، وان الحياة الاقتصادية والزراعية والسياسية والاجتماعية كانت تدور حول وفاء النيل والمقياس، وأن جريانه الهادئ المستديم هو نتيجة لبناء السد العالي. لم أعقب، فقد تعودت على الآراء التي يبلورها المهتمون بالحاضر من الأدباء والمفكرين، فهم يقيسون المستقبل به، بينما نحن المؤرخين نقيس الحاضر بالماضي. طلبت تلميذتي من الأستاذ أن يعرفها بالدكتورة نوال السعداوي فهي تكتب أطروحتها عن رواياتها، فاستجاب لطلبها، ثم علمنا فيما بعد أن السعداوي كانت في الولايات المتحدة بعيدة عن تهديد المتطرفين لها بسبب آرائها. وعندما طلبت السيدة برامسون شراء بعض الكتب من المكتبات

الشعبية، غضب اصحابها قائلين: لماذا تهتمين بهذه الكافرة المتمردة التي تسمى الى
الاسلام والمسلمين .

وبعد عودتي الى القدس هاتفني الأستاذ وقال لي: مبروك يا أستاذ! قلت له: خير
أنشاء الله، قال: أمامي على مكتبي بروفات كتابك المترجم الى العربية مع مقدمة
الصديق د. محمود فوزي، قلت له: أرجو ارسال البروفات قبل طبع الكتاب لمراجعتها
وذلك لأن بعض المصادر العربية التي استشهدت بها غير متوفرة لديكم. وعدني
الأستاذ بإرسال البروفات لمراجعتها ووفى بوعده كالمعتاد، وأنفقت الساعات الطويلة
لمراجعتها واطافة الاقتباسات والاستشهادات حسب المصادر العربية النادرة،
وارسلتها اليه، وآمل أن ترى هذه الترجمة النور عن قريب فأنا ما زلت أنتظر هذه
الترجمة العربية التي قام بها مترجمون مصريون من أكاديمية الفنون والترجمة بمصر
من عام ١٩٩٦ .

دأبت منذ مطلع التسعينات خلال كل عطلة صيفية، التفرغ الى تحقيق كتاب
"عجائب الآثار في التراجم والأخبار" (في أربعة أجزاء)، للمؤرخ المصري عبد الرحمن
الجبرتي مع فهراس ومعجم مصطلحات في أربعة مجلدات ضخمة أخرى، فقد أخذت
على عاتقي، بارشاد أستاذي وزميلي في الجامعة العبرية المرحوم البروفيسور دافيد
أيلون، إصدار نص هذا الكتاب الرائع معتمدا النسخة التي كتبها الجبرتي بخطه،
ولذلك كنت أقضي أشهر الصيف كل عام للبحث وقراءة المخطوطات في مكتبات
أوروبا وخاصة في كمبردج ومانشستر وأكسفورد وبون ولوس أنجليس، أما عطلة الشتاء
فقد كنت أقضيها على الأغلب للعمل في قسم المخطوطات والميكروفيلم في دار
الكتب القومية بالقاهرة. وقد مدّ الي العاملون في دار الكتب بالقاهرة يد المساعدة

في كل ما كنت أطلبه وخاصة العالم الجليل الأستاذ د. أيمن فؤاد السيد الذي كان آنذاك من كبار موظفيها .

وحين كنت في عام ١٩٩٧ في إجازة البحث السنوية التي كنت اقضيها ذلك الصيف في ضيافة معهد الدراسات الشرقية لجامعة بون برآسة المستشرق، الأستاذ د. ستيفان ويلد، (وهو رئيس رابطة الصداقة الألمانية العربية، والذي يحاول منافسة العرب في الضيافة والكرم) كتبت مع الاستاذ ويلد طلبا من بون الى مدير دار الكتب المصرية آنذاك، بالحصول على ميكروفيلم لإحدى مخطوطات الجبرتي، وبدل الرد قرأنا خبرا غريبا في مجلة "الأهرام العربي" في عدد أكتوبر ١٩٩٧ "إن رئيس مجلس إدارة دار الكتب المصرية الجديد، أمر بمنع الباحث الاسرائيلي "شاموئيل [كذا] موريه، الذي يسعى الى تحقيق الجزء الرابع من كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار للعلامة عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ولإعداد فهرس شامل لجميع الأجزاء"، من دخول الدار. وعجبت كيف منعوا دخولي دار الكتب القومية بالقاهرة وأنا موجود في جامعة بون بألمانيا؟ ومع ذلك فقد شجب الشاعر والصحفي الكبير عبد المعطي حجازي هذا الخبر في صحيفته وعده عملا مشينا وماسا بسمعة الدار، كأن هذه الدار المكرسة لخدمة الباحثين والعلماء أصبحت وفقا لهذا المدير الجديد يمنع ويسمح حسب أهوائه .

ولكي أتجنب مثل هذه المعاملة طلبت عام ١٩٩٨ من الأستاذ أنيس منصور أن يتوسط لدى إدارة الدار بمساعدتي على الحصول على ميكروفيلم لبعض المخطوطات فأرسل اليّ والى الدار رسالة توصية عملت عملها السحري عند المدير الجديد الحضيف للدار في الحفاوة بعلمي في قاعة مطالعة المخطوطات والميكروفيلم، في دار الكتب المصرية، بارك الله فيه وفي مسعاه .

وفي عام ٢٠٠١ سافرت مرة أخرى الى القاهرة لإكمال مقارنة مخطوطات الجبرتي وكانت ترافقني آنذاك مساعدتي في أبحاثي العلمية الآنسة ألوما سولنك، ووزنا الصديق أنيس منصور في مكتبه في الأهرام ودعانا الى حضور ندوة تقام في معرض الكتاب العالمي في القاهرة. كنت قد زرت معارض الكتب السابقة في القاهرة، والتقيت في احد اقسام المعرض بصديقي الشاعر وصاحب دار النشر "الجمل" في كولون خالد المعالي، ولكن هذا المعرض كان مختلفا عن المعارض السابقة، فقد كانت أكثر الكتب المعروضة كتباً دينية وكتب طبّ عربية قديمة وكتبا عن حجاب المرأة ومكانة المرأة المسلمة في العائلة وكتبا عن السحر والجن وتفسير الأحلام لابن سيرين وغيره، إلى جانب كتب معادية لليهود ولإسرائيل والولايات المتحدة طبعت معظمها طبعات انيقة ومتقنة في المملكة العربية السعودية ومصر. ثم ذهبنا الى الندوة التي تحدث فيها الأستاذ أنيس منصور. دارت الندوة حول انعدام قيادة أدبية وفكرية في مصر التي كانت في النصف الاول من القرن الماضي تعجّ بالصالونات الادبية المصرية التي كانت مركز القيادة الفكرية والثقافية في مصر والبلاد العربية والإسلامية كافة وعلى رأسها صالون العقاد وصالون مي زيادة، والرافعي وغيرهم من كبار المثقفين والمفكرين المصريين، كما دار الحديث حول قرارات الحكومة المصرية نشر الحاسوب والتكنولوجيا الحديثة بن الجيل الجديد وغير ذلك من الموضوعات المهمة بالنسبة لمستقبل مصر. وعندما سمع أحد الحاضرين أن مساعدتي ألوما تتحدث معي باللغة العربية، طلب الاذن في القاء سؤاله. قدم المتحدث نفسه بانه طالب في جامعة الأزهر وأنه يعجب كيف سمحت الحكومة المصرية بعقد معاهدة مع إسرائيل، فإسرائيل بالنسبة للمتحدث هي كيان غير شرعي يجب ازالته. كان سؤالاً محرّجا جدا وانتظرت ردّ الأستاذ أنيس منصور لأرى كيف يجب على مثل هؤلاء المتطرفين. كان الاستاذ لبقا في رده واثقا من وجهة نظره،

وقال بصوت المرشد الأمين والأب الروحي للجيل الجديد: أننا نحن العلمانيين لنا نظرة أخرى الى الأحداث، وقد حارب جيلنا إسرائيل وضحي بالكثير من أجل القضية الفلسطينية، حاربنا في ١٩٤٨ وفي ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧ وفي ١٩٧٣، ثم أصبح همنا تحرير أرضنا عن طريق التفاوض، وبهذه الطريقة فقط افلحنا في تحرير آخر ذرة من أرضنا عن طريق المفاوضات السلمية، أما اذا كان لجيلك طريقة أخرى في حل المشكلة فأهلا وسهلا". وهكذا افحم الاستاذ بلباقته وفكره الثاقب صاحب هذا السؤال الذي جلس وهو يتصبب عرقا .

ثم دعانا الأستاذ الى سيارته لنقلنا الى فندق هيلتون قرب ميدان التحرير، وفي السيارة سألتني ما رأيي في الندوة، قلت له ان رده كان مفحما ولكني منزعج من هذا التطرف الذي أبداه بعض المستمعين والمتحدثين ومن غلبة الكتب القديمة على الكتب العلمية الحديثة واختفاء كتب أحرار المفكرين العرب من الأسواق وكل من يسأل عن مثل هذه الكتب يسمع الاهانات عن مؤلفيها الكفرة الملحدين. وأنا الآن آمل ان يستطيع الزعماء العرب والمسلمون الوقوف أمام هذا التيار الذي أدى الى مقتل الدكتور فوده وطعن الأديب الكبير الحائز على جائزة نوبل للآدب المرحوم نجيب محفوظ ورش دار الأستاذ أنيس منصور بالرصاص لصدّ مدّ التحرر الفكري في مصر الرائدة .

عندما قدم الاستاذ أنيس منصور الى إسرائيل عام ١٩٧٩ كان الحماسة التي بشرت بتوقيع اتفاقية السلام بين المرحومين السادات ومناحيم بيغن، واليوم كنا نأمل أن قدومه هذه المرة سييسر بوقف هذا التناحر الدامي بين الفلسطينيين واسرائيل والتوصل الى حلّ سلمي للقضية الفلسطينية التي أكلت الأخضر واليابس. ولكن هذه الزيارة ألغيت وكان ما كان من التناحر والانتقام المتبادل واختطاف الأسرى لتبادل

ألف أسير أو أكثر بجندي إسرائيلي واحد، رحم الله أيام كان الفارس المملوكي
المصري يساوى ألف فارس من "الإفرنج الكفرة" في ميدان القتال .

عن الشرق، فصلية - أدبية - ثقافية، شفاعمرو، العدد ١، المجلد ٣٤ - كانون الثاني - ٢٠٠٤، ص ٦١ -
٦٦ .

شموئيل موريه

الجامعة العبرية بأورشليم - القدس

في غمرة أحداث الربيع العربي العيفة المتلاحقة في الشرق الأوسط ومطالبة الشباب العربي الناهض بالحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة وتحرير المرأة والديموقراطية واسقاط النظم السياسية الدكتاتورية التي قامت على انقلابات عسكرية بدعوى إنها ثورات شعبية، يقف ثلاثة من عمالقة الفكر العربي في مصر، وهم توفيق الحكيم (١٨٩٨-؟-١٩٨٨) ونجيب محفوظ (١٩١١-٢٠٠٦) وأنيس منصور (ولد في المنصورة عام ١٩٢٤) حفظه الله وأطال من عمره، في طليعة المفكرين والكتاب العرب الذين يدافعون عن حرية الفكر والديموقراطية والعلمانية والعلوم الحديثة ويرون فيها الحل الناجع لمشاكل البلاد العربية عامة ومشاكل مصر خاصة. وفي حين اتخذ كل من الحكيم و محفوظ الفن القصصي والروائي لبث هذه الآراء التقدمية والفلسفية، وهي فنون يفهمها ويتذوقها كبار المثقفين خاصة، نجد أن الاستاذ أنيس منصور يفضل وسائل الاتصال الجماهيرية المباشرة بالإضافة الى الفن الروائي، ليلعب الدور الرئيسي في نشر الفكر العلماني وحرية التعبير وتحرير المرأة والديموقراطية والفلسفات الغربية والفلسفة الوجودية بصورة خاصة، وذلك عن طريق مقالاته المتنوعة في الصحف والمجلات الواسعة الانتشار وأحاديثه الواضحة المبسطة للأفكار والفلسفات والعلوم الحديثة في الراديو والتلفزيون بحيث تغلغلت آراؤه الاصلاحية والحرية في وعي اوسع الطبقات الشعبية وبين الشباب العربي خاصة. وقد سبق بسنوات عديدة نقد الروائي علاء الأسواني لنظام الرئيس المصري السابق حسني مبارك في روايته "عمارة يعقوبيان" و "حكاية للكبار والصغار" الرمزية وغيرهما. ويبدى الأسواني في مقالاته السياسية تعصبا قوميا لا يتناسب ومكانته الثقافية والأدبية التي تحتم على أمثاله الانفتاح الإنساني على الآخر ومحاولة تفهمه للوصول الى حل وسط يرضي الأطراف المعنية ولخير الإنسانية جمعاء. فقد عارض الأسواني صدور الترجمة العبرية لروايته "عمارة يعقوبيان" في اسرائيل وهي الترجمة الرائعة التي قام بها الاستاذ

المترجم موشيه حاخام العراقي المولد، والذي يحاول أن يكون جسرا للتواصل اليهودي العربي في مجال الثقافة والعلوم، وقد نشر هذه الترجمة المركز الاسرائيلي - الفلسطيني للأبحاث والإعلام. وبمقاطعته لهذه الترجمة يريد الأسواني أن يقول بصراحة، إنه ضد التطبيع مع إسرائيل التي نال عشرة من علمائها جائزة نوبل للعلوم وضد التواصل الأدبي والفني بين الدول والشعوب المجاورة. وأنا اتعجب من مثل هذا الموقف العدائي الذي يشجع الكراهية وشجب الآخر وقد أدى مثل هذا الموقف في الماضي الى احراق الكتب ثم احراق الآخر، كما رأينا في الماضي القريب وكما يحدث في بعض الدول التي اتخذت التعصب الديني والعنصري مبدأ مقدسا لها. فكان الدمار وسفك الدماء نتيجة حتمية لمثل هذا الموقف. إنه موقف يشجع الأبارتهايد (Apartheid) (التمييز العنصري) ثقافيا والجنوسايد عنصريا الذي يتهمون اسرائيل به بعد ان شنوا عليها الحروب المتتالية لإلقائها في البحر ثم طهروا البلاد العربية من يهودها ويرفض القادة الفلسطينيين بقاء أي يهودي في غزة والضفة؟ إذن، فما الفرق بين الأسواني وبين فاروق حسني، وزير الثقافة المصري السابق؟ الذي كان أعدى أعداء التطبيع. وهدد بانة "لو وجد كتبنا يهودية في معرض الكتاب فسوف يقطعها ويحرقها" (ويستدرك الاستاذ أنيس منصور، في ذكرياته الأخيرة في "الأهرام" عن الرئيس أنور السادات، بأن "كلمة "يحرق" في اللهجة المصرية لا تعني احراق الكتب بالمعنى الحرفي"، ولكنني أعلم، أن "التقطيع والحرق" هنا هما ترادف المعنى للتأكيد، أي بمعنى الابداء، والله أعلم!)، فما أسهل منع صدور كتابي عن المسرح العربي في القرون الوسطى الذي كان تحت الطبع ويظن انه بفعلته العنصرية هذه قد انتصر على إسرائيل انتصارا باهرا!!

ثم وصلتني مكالمة هاتفية في عام ٢٠١٠، من الاستاذ أنيس منصور يقول لي فيها بأنني استطعت ارسال بروفات كتابي عن المسرح العربي المترجم الى العربية لنشره في مصر. استبشرت خيرا وقلت لعل ترشيح معالي الوزير فاروق حسني لمنصب الأمين العام لمنظمة اليونيسكو (منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية)، سيفرج عن الحجر على كتابي المترجم. ثم اتهمت الصحف العربية كعادتها، اسرائيل، بعرقلة إنتخاب الوزير لهذا المنصب المرموق، وهكذا ضاعت عليّ مرة أخرى فرصة صدور كتابي عن المسرح العربي مترجما الى اللغة العربية. أما العلماء العرب في العصر الذهبي فقد كانوا يترجمون كل كتاب مفيد حبا في المعرفة والعلوم، دون تمييز.

أما الأستاذ أنيس منصور فبعد أن عادى إسرائيل وهاجم اليهود والصهيونية، أصبح فيما بعد من أنصار التطبيع والانفتاح الفكري على إسرائيل وعلى العولمة، فهو اول من دعا الشباب العربي في كتابه "الوجودية" (١٩٥٣)، الى اعتناق الفلسفة الوجودية الأوروبية (إكزيتنشياлизм Existentialism) التي قال بها كبار الفلاسفة الوجوديين، من امثال سارتر المناصر لليهود وكامي والبيرتو مورافيا والفيلسوف اليهودي مارتن بوبر، كحرية الفكر والمساواة بين البشر ومحاولة فهم الآخر. فالفلسفة الوجودية تلقي المسؤولية على المثقف لخدمة مجتمعه وتغييره وليكسر حياته للتخفيف من المآسي الإنسانية وآلامها، بدل التعصب الديني والتخريب والقتل العشوائي. فهو يرى أن الفلسفة الوجودية خير بديل للتوكل والإيمان بالقضاء والقدر وعداء الأديان الأخرى وتهميش الآخر واضطهاد الأقليات واعتبار الحكام الطغاة أولي الأمر على المسلمين، بعد الله ورسوله، ووجوب الطاعة العمياء والخضوع لهم والمحافظة على الطبقية وانعدام المبادرة الشخصية واضطهاد الأقليات كالأقباط والمسيحيين وغيرهم من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى. واليوم نجد أن معظم هذه الأفكار المتحررة

ترفع مع الشعارات التي أطلقها ويطلقها الثوار العرب في ربيع العروبة في جميع أنحاء الدول العربية، في تونس ومصر وليبيا واليمن وغيرها من الدول التي بدأ الشباب فيها يعي مهمة الحكومات وواجبها في توفير الرفاهية والتعليم والعيش بكرامة وتوزيع الثروة بالمساواة بين جميع طبقات الشعب، وان المشكلة قائمة ليست في عدو وهمي أو حقيقي يشغلون الشعب به، بل في الحكام أنفسهم وانانيتهم وجبروتهم ضد أبناء شعبهم، فبدلاً من القيام بإصلاحات تربوية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية بناءة، نراهم يقومون باستخدام الجيش وسلاحه لقمع مطالب الشعب العادلة وإخضاعه لأطماعهم بوحشية بالغة دون الاستجابة لمطالبه بالعدل والمساواة، طمعا في أن يحافظوا على مصالحهم ومصالح عائلاتهم وعشائرتهم والمقربين اليهم.

وأنا أرى ان العالم العربي اليوم مدين لريادة الاستاذ أنيس منصور في الدفاع عن العولمة والانفتاح على الفكر العالمي والحضارات عامة وفي بزوغ شمس الربيع العربي في البلاد العربية. فكل كتبه موجهة الى الشباب العربي الناهض والى محاولة خلق جيل من الشباب الواعي بقضايا وطنه وتأمين مستقبله بالإطلاع على انجازات الغرب وتياراته الفكرية والعلمية واعتناق التفكير المنطقي العقلاني الى جانب اهتمامه بالغيبيات وما وراء الطبيعة وبالعقيدة الاسلامية الصافية السمحة وبمبدأ خذ العلم ولو في الصين.

تعرفتُ على الأستاذ أنيس منصور في القاهرة بعد أن كان قد مهد الطريق بمقالاته أمام اعلان الرئيس المصري عن رغبته في زيارة إسرائيل لإنهاء حالة الصراع معها في حلقة مفرغة مفرغة عقيمة من العداة والحروب. أي بعد مرافقته للرئيس المغفور له أنور السادات في زيارته التاريخية لأورشليم - القدس كمستشاره ودعمه لاتفاقية السلام بين مصر واسرائيل. كان ذلك بعد مرحلة مهاجمته لإسرائيل بصورة خاصة،

ولليهود بصورة عامة، وبعد نشره لكتبه التي استمد آراءه فيها من الكتاب المعادين للصهيونية ولليهود بل وعلى بعض الكتب العنصرية النازية وبروتوكولات حكماء صهيون الزائفة والمناهضة للتلمود. ومع ذلك فقد غير رأيه في إسرائيل. وفي لقاءاتي معه، لم يدر بيننا نقاش حول هذه المواضيع، وكل ما قاله لي في لقائنا عام ١٩٨٩ هو اعجابه بأبيات الشاعر المصري الحسن بن خاقان، في نقده لسيطرة اليهود في العصر الفاطمي، فأنشدني الأبيات التالية كأنه يشير الى صدقها في أيامنا هذه أيضا:

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشارُ والملكُ
يا أهلَ مصرِ إني نصحت لكم تهودوا، فقد تهودَ الفلكُ

فضحكنا لما في هذه الأبيات من الحقيقة التي جعلت الشعوب الآخري تحقدنا عليهم.

وفي يوم ١٢ أبريل، ١٩٨٩ أثناء زيارتي للقاهرة، التقيت بالأستاذ أنيس منصور في مكتبته في مجلة "أكتوبر"، وكان الاستاذ غاضبًا على "تصريحات الدكتور عمر عبد الرحمن الضرير" (الدقهلية ١٩٣٨) أمير الجماعة الإسلامية سابقا وهو اليوم معتقل في سجون أمريكا بتهمة التورط في تفجيرات نيو يورك عام ١٩٩٣، وهو من المتطرفين الإسلاميين، الذي صرح في حديث أجري له في جريدة "الأبناء" الكويتية، إن نجيب محفوظ هو رجل كافر فلذلك وجب قتله، وذلك بسبب نشره كتاب "أولاد حارتنا" وبسبب تشككه في هذا الكتاب بالله، وكان د. عمر عبد الرحمن قد أعلن في ١٩٨١ إن أنور السادات هو رجل كافر بعقده اتفاقية السلام مع إسرائيل، ولذلك وجب قتله، وعلق الأستاذ أنيس منصور وأنا في ضيافته على ذلك بقوله: "إنه خبر

مفزع ومروّع، وفجأة يظهر بيننا خميني جديد، وتحول أعز أبناء مصر، نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل، مثل سلمان رشدي، الى كافر يجب قتله". وأضاف الأستاذ قاتلا، إن سجع منظمات دينية متطرفة حكمت عليه بالإعدام بسبب علاقته مع إسرائيل، وبسبب موقفه من ثورة مصر الناصرية القذافية، التي اصدرت حكم الإعدام ضده، وقد أرسلوا له رسائل تهديد وسيارة محملة بالشباب والبنادق والمسدسات وأطلقوا النار على بيته في أكتوبر عام ١٩٨٨، وذلك لنشره كتاب "عبد الناصر، المفترى عليه والمفترى علينا"، الذي شن فيه نقدا عنيفا على عبد الناصر وسياسته العشوائية، ومع ذلك فقد صدرت ٣ طبعات من الكتاب خلال ٦ أشهر بالرغم من مطالبة الرئيس حسني مبارك أمام جمع كبير من الصحفيين، وبالرغم من مكالماته التلفونية والتحدث معه وجهًا لوجه، طالبا منه التوقف عن نقده العنيف لجمال عبد الناصر. ولكن الأستاذ المؤمن برسائله وموقفه، رفض بإباء هذه الطلبات المتكررة.

ومن بين ما رواه لي الأستاذ، إن امرأة يهودية التمسث منه الذهاب معها لرؤية دارها الذي تركته بعد طردها مع يهود مصر، فأجابها الأستاذ بأنه من المستحيل زيارة دارها لأنه تحول الى سفارة للمملكة العربية السعودية، كأنه يشير الى صدق قول الشاعر الفاطمي: "العزّ فيهم والمال عندهم". فدار لسيدة يهودية مصرية لائق لأن يصبح سفارة لإحدى أغنى الدول في العالم. وإذا كان مثل هذا القصر ملكا لسيدة يهودية واحدة، فما بالك بأمالك ما يقارب المليون يهودي، كانت قصورهم في بغداد في العصر العثماني يلائم لكي يجعلوه مستشفى أو قصرا يليق بضيافة الملك فيصل الأول، ثم اضطهدوا وهجروا وطردها ونهبت أموالهم وصادرت الدول العربية جميع أملاكهم من أموال منقولة وغير منقولة في نكبتهم ليهود البلاد العربية ولا نكبة

البرامكة. ثم يتحدث سيادة الأديب الكبير الأسواني بكل بساطة وبحماس عن تعويضات يجب أن تقدمها إسرائيل التي آوت هؤلاء اللاجئين ضحية العدوان ضدهم، عن تعويضات. وقد نشأ في البلاد العربية وخارجها وخاصة في العراق، جيل جديد من المثقفين المفكرين الأحرار أدركوا الخسارة الفادحة التي خسرها العرب من جراء طردهم لليهود الوقوف امام طرد المسيحيين اليوم منها. أتريد يا أسواني جدلا جادا عن التعويضات؟ إذا والله لاقيت جلدًا على مثل هذا الجدل. ألا تأسى يا أسواني لهذه السيدة التي كانت عزيز قوم ذلّ، طردت من دارها ولا تستطيع إلقاء نظرة خاطفة عليها لتتذكر طفولتها وشبابها وأهلها وأحبابها الذين فرقتهم سياسة الانتقام والتهجير أيدي سباً؟ وقد يكون الاسواني محقا في طلب تعويض لبعض المصريين، ولكن من سيعوض يهود البلاد العربية عن الأرواح التي أزهقت وعن مصادرة أموالهم بعد كل نكسة عربية في الحروب نصره لشعب فلسطين المظلوم الذي ظلمه قادة العرب وساستهم في موقفهم المتعنت، إما الحصول على كل شيء وإلا احرقوا كل شيء، فقادوا العرب الى حروب متتالية هدفها إلقاء اليهود في البحر أو الشعار الشعري الطنان "تل أبيب الموعد"، والبادئ أظلم، لإبادة شعب كامل هرب من المحرقة الأوروبية وطرد من البلاد العربية حاوي الوفاض؟

أما سيادة الأستاذ أنيس منصور، فقد عانى من حكومات البلاد العربية بعد أن وقف الى جانب السلام، فقاطعته مع نجيب محفوظ مدة عشرة أعوام، إلى أن نشر مقالا عن موقف المثقفين الإسرائيليين من نجيب محفوظ وحديث الرئيس الخامس لدولة إسرائيل السيد اسحق نافون عن العقاد ونجيب محفوظ، وفاضطرت الصحف العربية بعد تردد نشر المقال الذي كان سببا في إلغاء مقاطعة الدول العربية لعبقري الرواية

العربية والفائز بجائزة نوبل، الأديب الكبير نجيب محفوظ. هكذا يكون موقف الأديب الانساني العالمي من القضايا السياسية والانسانية في العالم.

وكثيرا ما يحيرني السؤال، هل كان الاستاذ أنيس منصور وهو المستشار الأفضل للرئيس السادات، قد أشار على السادات بالقيام بخطوته المباركة بزيارته التاريخية لأورشليم-القدس في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، وتوقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل في كامب ديفيد مع مناحيم بيغن وجيمي كارتر عام ١٩٧٩؟ والسبب في حدسي هذا هو ان الاستاذ، كان مستشارا شخصيا ومرافقا للسادت في جميع مراحل عقد الاتفاقية، ويقول الاستاذ د. محمود فوزي في كتابه الشامل الكامل "أنيس منصور، ذلك المجهول" (١٩٨٦)، ص ١٤، ١٦١، عن صلة الأديب الكبير بالرئيس المصري البطل: "ولقد اجرى أنيس منصور مع السادات أكبر عدد من الأحاديث الى الصحافة المصرية والعربية ... بل أن انيس منصور جلس مع الرئيس السادات أطول ساعات يمكن ان يجلسها معه إنسان، ولو كان أقرب المقربين له". وقد أخبرني الأستاذ أنيس بأن الرئيس كان يستشيريه في كل شاردة وواردة عن السلام مع إسرائيل. وكان أنيس معجبا بالعلماء ذوي الحدس والقدرة على التنبؤ، وبالذين يربطون بين الغيبيات والقضايا العلمية. وهو يؤمن مثل الرئيس المصري الراحل بالجزلة والتأمل قبل اتخاذ القرارات، ويميل الى التصوف، ويؤمن بالنبوءات وبالتنجيم، وذلك تمسكا بالآية القرآنية الكريمة "وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" (القرآن الكريم، سورة ١٦، النحل /الآية ١٦)، وهي الآية التي دفعت المؤرخ المصري الخلوتي عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٣-١٨٢٥)، إلى تسجيل توقعاته في بعض السنين متنبئا بأحداثها الجسام عن طريق قراءة الطالع بواسطة قرانات الأفلاك والنجوم، وقالت الصحافة الإسرائيلية آنذاك، ولا أدري صحتها، ولعله "كلام جرنيل"، إن التأخير الذي وقع

في فتح باب الطائرة التي أقلت السادات ووفده بعد أن حطت في مطار بن جريون، راجع إلى انتظار إشارة الفلكي المرافق له لتكون الدقيقة التي يفتح فيها باب الطائرة ساعة سعد حسب قرانات النجوم. وقد عقد الأستاذ أنيس منصور في كتابه "لعنة الفراغنة، وشيء وراء العقل" (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧، ص ٨٥-٩٣)، فصلا عن الطبيب الفرنسي اليهودي الأصل نوستراداموس (-١٥٠٣) (Nostradamus ١٥٦٩)، الذي تنبأ بأحداث ستقع في المستقبل بصورة دقيقة منها أنه "تنبأ أيضا بقيام الثورة الفرنسية ... وبإعدام زعمائها ... وهو أيضا الذي تنبأ بنفي نابليون إلى جزيرة سانت هيلانة ... وهجوم هتلر وزحفه على روسيا وعودته مهزوما ... وانتحاره ومصراع موسليني ... ومصراع الأخوين كندي". أما عن إسرائيل، فيقول الأستاذ أنيس منصور بالحرف الواحد: "وتوقع [نوستراداموس] حرب ١٩٤٨ واستيلاء اليهود على أرض فلسطين، قال: "فالدولة الجديدة تحتل أرضا حول سوريا ويهودا وفلسطين .. وتنهيار القوات البربرية". (قارن: Nostradamus, The Complete Prophecies, by John Hogue, Shaftesbury, Elements Books, Ltd). ، ويعلق أنيس منصور على هذه العبارة بقوله: "القوات البربرية هي القوات غير المسيحية. وقد كان من المألوف في أوروبا أن يوصف كل من ليس أوربيا بأنه بربري، وبعد ذلك أصبح البربري هو كل من ليس مسيحيا. فالقوات البربرية التي يتحدث عنها هي القوات العربية الإسلامية" (إلى هنا كلام أنيس منصور). كما أشار برموزه الى ما فسره المحقق جون هوج بأنه يعني كل من صدام حسين ومعمر القذافي والأخير لقي حتفه اليوم لاحقا بالأول واللهم لا شماتة، والله يمهل ولا يهمل، ويقول جون هوج بأنه يرى إشارات واضحة نحو كل من حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله وغير ذلك، ويعلق هوج بقوله "إذا نجحت الجهود السلمية، فإنها ستدفع الى

إقامة إمبراطورية تعتمد على الانتقام والكراهية لليهود مما سيؤدي الى تفسخ هذه الامبراطورية وانهارها" (تفس الصفحة من نبوءات نوستراداموس، أعلاه).

إذن، فالدولة الجديدة التي أشار إليها نوستراداموس، وأكد إنها ستصمد أمام حروب عديدة تشنّ لإبادتها، وسيكتب لها البقاء، هي دولة إسرائيل التي صمدت أمام جميع الحروب لإبادتها. والمنطق يقول، ما فائدة كل هذه الحروب والتضحيات بخيرة الشباب فيها وبذل النفس والنفيس في سبيل الوقوف أمام الأقدار، "فالإنسان بالتفكير والله في التقدير" ؟ والمنطق يقول، ما فائدة كل هذه الحروب إذا قُدّر لها البقاء، وأكدت ذلك التوراة بقول انبيائها بأن الله سبحانه وتعالى سيجمع شتات بني اسرائيل من بين جميع الشعوب وعلى اجنحة النسور (الكتاب المقدس، ط ١٩٦٦، سفر الخروج، الاصحاح ٤/١٩ وأنا حملتكم على أجنحة النسور، وأرميا الإصحاح ١٤/٢٩، وحزقيال، الاصحاحات ١١، ١٦، ٢٠، ٣٦، ٣٩)، وكل من عاد الى اسرائيل وشاهد أجنحة الطائرات التي حملته، أدرك انه عائد على اجنحة النسور، وأنه في زمن تتحقق فيه نبوءات الانبياء والمنجمين، ولا ينفع الحذر من القدر!! وما على الرسول إلا البلاغ!!!

وأكرر سؤالي هنا مرة أخرى، ترى؟ هل حدث الاستاذ أنيس منصور الرئيس المصري الخالد بهذه النبوءات وأقنعه بعدم جدوى الحروب مع إسرائيل؟ وأنه من الاولى عقد اتفاقية السلام لاسترجاع آخر ذرة من رمال سيناء حول مائدة المفاوضات، والتفرغ للبناء والأعمار ومحاربة الفقر والجهل والمرض والتصحر وتلوث البيئة والأوبئة التي تهدد الانسانية جمعاء ولتستطيع الشعوب التفرغ لرفاهيتها والاستفادة من ثروتها الطبيعية لتأمين مستقبل الابناء والأحفاد بعد أن كشفت لعبة الحكام في تكديس البلايين من الدولارات لمصالحهم الانانية وإلهاء شعوبهم بعدو وهمي ليحفظوا على

كراسيهم؟ هذا أمر لا يستطيع البت فيه سوى صديقي أنيس منصور، الذي يرقد الآن في المستشفى لمعالجته من الالتهاب الرئوي. ندعو الله أن يمن عليه بالشفاء العاجل وان يعود الى ممارسة نشاطه الثقافي والصحفي والاجتماعي والسياسي، ولتوجيه الشباب العربي في ربيع الجديد ولإسداء النصح للقيادات الميمونة الجديدة التي ظهرت على الساحة اليوم وإرشادها نحو سبل النجاح لخير الشعوب العربية والعالم، وأنا منتظر ردّه على استفساري هذا، للحقيقة والتاريخ.

.....

* فصل من كتاب: بغداد حبيتي، يهود العراق : ذكريات وشجون، حيفا، مكتبة كل شيء، لصاحبها الاستاذ صالح عباسي، ٢٠١٢. ش. م

أنيس منصور وتصوره لمستقبل الصراع العربي الإسرائيلي

الأربعاء ١٧ يوليو / تموز ٢٠١٣

إن الداعي الأعظم لإعادة نشري هذا المقال الذي نشر اولاً في ايلاف الغراء عن المفكر والاديب والصحفي المصري الكبير المرحوم أنيس منصور، هو تفرده في فهم الاحداث التي وقعت في مصر وفي البلاد العربية، فقد كان يحاول تطبيق الماضي على الحاضر وسعة اطلاعه وتقييمه الصحيح للاحداث ونتائجها، ولا غرو أن يحتفي به ملوك ورؤساء الجمهوريات العربية والاسلامية والأدباء والعلماء في العالمين العربي والاسلامي، بل خارجهما ايضاً ، ولم يظهر حتى اليوم من يحل مكانه في العالم العربي من ناحية قيادته لفكر الشباب المصري التقدمي الواعي وأنه نال العديد من الجوائز وأوسمة التقدير من الزعماء الذي اطاح بهم اليوم الربيع العربي الجديد. فقد كان في مصر عضو مجلس الشورى وعضو المجلس الأعلى للثقافة ورئيس نادي القلم وعضو المجلس الأعلى للسياحة وعضو المجلس الأعلى للصحافة ومؤلف أكثر من ١٣٥ كتاباً معظمها ترجمة ذاتية بالإضافة الى دراسات سياسة ومجموعات قصصية ونقد أدبي ومسرحيات كوميدية ومسرحيات مترجمة ودراسات نفسية ودراسات علمية وفلسفية، أي كما قيل عن المتنبي "مالي الدنيا وشاغل الناس". وأنا أرى ان العالم العربي اليوم مدين لريادة الاستاذ أنيس منصور للعولمة والانفتاح على الفكر العالمي والحضارات عامة، في بزوغ شمس الربيع العربي في العالم، فكل كتبه موجهة الى الشباب العربي الناهض والى محاولة خلق جيل من الشباب الواعي بإنجازات الغرب وتياراته الفكرية والعلمية واثق بنفسه يعتمد على نفسه في حل مشاكل بلاده بالحكمة والتفكير العقلاني المنطقي والفلسفي الى جانب اهتمامه بالغيبيات وما وراء الطبيعة.

وصديقنا الراحل كان من كبار المثقفين والمفكرين والادباء والصحفيين العرب في العالم الذي جبل من طينة أخرى، فهو العبقري الذي تأتبه الشهرة من تلقاء نفسها، وهو من أصدقائي القلائل الذين اثق بهم. فنحن اصدقاء منذ نهاية السبعينات من القرن الماضي وذلك عندما ألفت دار النشر "يديعوت أحرونوت" على عاتق البروفيسور مناحيم ميلسون وعلى عاتقي اختيار قصص مصرية قصيرة تعكس الأجواء الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية في مصر، شرعت أولاً في قراءة قصص الاستاذ أنيس منصور لأختار له "قصة مصرية تعبر عن الواقع المصري" لضمها الى المجموعة المترجمة إلى جانب قصص لنجيب محفوظ ويوسف إدريس ويحيى حقي ومحمد مستجاب (الذي اثارت قصته المترجمة "الغراب الخامس" اهتمام الأدباء والباحثين في اسرائيل)، وسكينة فؤاد وجمال الغيطاني وغيرهم. وبعد قراءة معظم قصصه التي تزيد على الأربعمئة قصة، وجدته أدبيا يهتم بالصراع النفسي والعقلي، وبالذواغ والغرائز والعواطف الإنسانية، فهو من رواد ما بعد الحداثة في الأدب، لا شأن له بالزمان وبالمكان وفي بعض الأحيان لا نجد ذكراً لأسماء الأبطال، فهو يهتم بالتكنيك الغربي الجديد ويرى نفسه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العالمية، ولا يؤمن بالتدرج البطيء في التجديد الحضاري، بل يشارك مع العالم الحديث من حيث بلغت الحضارة الانسانية الحديثة، زمن رواد العولمة في الثقافة والأدب والنشر، مثل الشاعر السريالي عبد القادر الجنابي وأدونيس شاعري العولمة في الشعر العربي الحديث، أما دار النشر فقد طلبت منا شيئاً آخر. كتبت الى الأستاذ أستنجدته طالباً أن يختار لي قصة مصرية أصيلة "يعني مصرية بنت حلال" تتكلم وتتصرف وتلبس مثل فتيات خان الخليلي، تتحدث عن هموم لشعب المصري الذي يعيش على الطعمية والعيش

الحاف، فإذا به يرسل إلي رسالة طويلة جعلها فيما بعد مقدمة الطبعة الرابعة في كتابه "عزيمي فلان وقصص أخرى" (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٨، ص ٥-٩)، تكاد تكون خارطة أو برنامجا لكتابة اطروحة دكتوراه عن قصصه.

وعندما زرت القاهرة عام ١٩٨١ مع زوجتي كان أنيس منصور أول من اتصلت به لأشكره على مقدمته، فردّ عليّ قائلا: أهلا وسهلا بك في مصر، سأرسل لك سيارتي مع السائق والمرافق الشخصي ليأتيا بكما من فندق ماريوت الى مكنتي ثم أخذكما لزيارة كنيس ابن عزرا وحارة اليهود. تعجبت زوجتي من هذه الأريحية والضيافة، قلت لها هذه تقاليد الضيافة والحفاوة العربية العريقة، فباي تونس أرسل لفارس الشدياق بارجة حربية احتفاء وتقديرا لقصيدة مدّحه فيها معارضا قصيدة "بانة سعاد" لزهير بن أبي سلمى (وقد قرأت فيما بعد بأن الرئيس حسني مبارك أرسل الى الأستاذ أنيس منصور الذي اصيب بحلطة في ساقه، طائرة مع طبيين مصريين لنقله على وجه السرعة الى باريس، لمعالجته من قبل أحد كبار الأطباء المتخصصين بالأوعية الدموية في فرنسا)، هكذا كان يقدر بعض زعماء العرب العلماء والمفكرين في العصر الاقطاعي. ولذلك دعا الأستاذ أنيس منصور الأدباء والشباب العرب الى اعتناق الفلسفة الوجودية التي تلقي المسؤولية على المثقف لتغيير مجتمعه وليكرس حياته للتخفيف من المآسي الإنسانية بدل التوكل والتعصب الديني والتخريب والقتل العشوائي.

وكثيرا ما يحيرني السؤال، هل كان الاستاذ أنيس منصور وهو المستشار الأفضل للرئيس السادات، ممن أشار عليه بالقيام بخطوته المباركة بزيارته التاريخية للقدس في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل في كامب ديفيد مع مناحيم بيغن وجيمي كارتر عام ١٩٧٩؟ والسبب في حدسي هذا هو ان الاستاذ أنيس منصور، كان مستشارا شخصيا ومرافقا للسادات في جميع مراحل عقد الاتفاقية، ويقول الاستاذ محمود فوزي في كتابه الشامل الكامل "أنيس منصور، ذلك المجهول" (١٩٨٦)، ص ١٤، ١٦١: "ولقد أجرى أنيس منصور مع السادات أكبر عدد من الأحاديث الى الصحافة المصرية والعربية ... بل أن انيس منصور جلس مع الرئيس السادات أطول ساعات يمكن ان يجلسها معه إنسان، ولو كان أقرب المقربين له"، وقد أخبرني بأن الرئيس كان يستشيريه في كل شاردة وواردة عن السلام مع إسرائيل. وكان أنيس معجبا بالعلماء ذوي الحدس والقدرة على التنبؤ، وبالذين يربطون بين الغيبات والقضايا العلمية، ومثل الرئيس المصري فهو يؤمن بالغيبيات وبالعزلة والتأمل قبل اتخاذ القرارات، وهو يميل الى التصوف، ويؤمن بالنبوءات وبالتنجيم، وذلك ناتج عن الآيات القرآنية "وبالنجم يهتدون"، وهو ما جعل المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي يدأب على تسجيل توقعاته في بعض السنين ويتنبأ بأحداثها الجسام عن طريق قراءة الطالع بواسطة قرانات الأفلاك والنجوم، وتقول الصحافة الاسرائيلية "أن التمهل في فتح باب الطائرة التي أقلت السادات ووفده، راجع إلى انتظار اشارة الفلكي المرافق له لتكون الدقيقة التي يفتح فيها باب الطائرة حسب قرانات النجوم ساعة سعد." وقد عقد الأستاذ أنيس منصور في كتابه "لعنة الفراغة، وشيء وراء العقل" (القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٧، ص ٨٥-٩٣)، فصلا عن الطبيب اليهودي الأصل نوستراداموس (١٥٠٣-١٥٦٩)، الذي تنبأ بأحداث ستقع في المستقبل بصورة دقيقة منها أنه "تنبأ أيضا بقيام الثورة الفرنسية ... وبإعدام زعمائها ... وهو

ايضا الذي تنبأ بنفي نابليون الى جزيرة سانت هيلانة... وهجوم هتلر وزحفه على روسيا وعودته مهزوما ... وانتحاره ومصرع موسليني ... ومصرع الأخوين كندي. أما عن إسرائيل، فيقول أنيس منصور بالحرف الواحد: "وتوقع [نوستراداموس] حرب ١٩٤٨ واستيلاء اليهود على أرض فلسطين قال: "فالدولة الجديدة تحتل أرضا حول سوريا ويهودا وفلسطين .. وتنهار القوات البربرية". ويعلق أنيس منصور على هذه العبارة بقوله: "القوات البربرية هي القوات غير المسيحية. وقد كان من المؤلف في أوروبا أن يوصف كل من ليس أوروبا بأنه بربري، وبعد ذلك اصبح البربري هو كل من ليس مسيحيا. فالقوات البربرية التي يتحدث عنها هي القوات العربية الإسلامية". ترى، هل حدث الاستاذ رئيسه المبجل بهذه النبوءة وأقنعه بعدم جدوى الحروب معها، وأنه من الاولى عقد اتفاقية السلام لاسترجاع آخر ذرة من رمال سيناء؟ وحقنا لدماء المصريين من حروب مستقبلية، فبعضهم يتشدد بانه مستعد للتضحية بمليون مسلم وعربي في سبيل استرجاع القدس، ترى ان مطلق مثل هذه الشطحات البطولية على حساب شعبه كان سيبعث بأفراد عائلته مع هذا المليون عربي؟

وكنت اعلم ان مثل هذا الأمر لا يستطيع البت فيه سوى صديقي أنيس منصور الذي لم استطع خلال مرضه الأخير مهاافته على رقم تلفونه ولم يصلني رده على رسائلي الالكترونية اليه من مكتبه في الأهرام.

وفي يوم ١٢ أبريل، ١٩٨٩ أثناء زيارتي للقاهرة، التقيت بالأستاذ في مكتبه في مجلة أكتوبر، وكان الاستاذ أنيس منصور غاضباً "لتصريحات الدكتور عمر عبد

الرحمن الضربير" (الدقهلية ١٩٣٨) أمير الجماعة الإسلامية، وهو من المتطرفين الإسلاميين، الذي جلس على عرش ذي الجلال وقسم العالم الى اصحاب اليمين واصحاب الشمال، ففي حديث أجرته معه جريدة الأنباء الكويتية، ذكر من هم اصحاب اليسار، منهم نجيب محفوظ فهو رجل كافر فلذلك وجب قتله، ولماذا يا أمير المؤمنين، نورنا؟ فاجاب بثقة العارف بامور الدنيا والآخرة، أنه نشر كتاب "أولاد حارتنا" وفيه ادى تشككه بقضاء الله وقدره بل بوجود العزة الإلهية ، وكان د. عمر عبد الرحمن قد أعلن في ١٩٨١ أن أنور السادات هو رجل كافر لعقده اتفاقية السلام مع إسرائيل، ولذلك وجب قتله، وعلق الأستاذ على ذلك بقوله: "إنه خبر مفزع ومروّع، وفجأة يظهر بيننا خميني جديد، وتحول أعز أبناء مصر، نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل، الى كافر يجب قتله". كما أخبرني الأستاذ منصور بأن جماعة متطرفة حكمت عليه بالاعدام بسبب علاقته مع إسرائيل، وبسبب موقفه من ثورة مصر الناصرية القذافية، وقد أرسلوا له رسائل تهديد وسيارة محملة بالشباب والبنادق والمسدسات وأطلقوا النار على بيته في أكتوبر عام ١٩٨٨، وذلك لنشره كتاب "عبد الناصر، المفترى عليه والمفتري علينا"، الذي شن فيه نقدا عنيفا على عبد الناصر، ومع ذلك فقد صدرت ٣ طبعات من الكتاب خلال ٦ أشهر بالرغم من مطالبة الرئيس حسني مبارك أمام جمع كبير من الصحفيين، وبالرغم من مخبراته التليفونية والتحدث معه وجها لوجه طالبا منه التوقف عن نقده العنيف لجمال عبد الناصر. ولكن الأستاذ رفض هذه الطلبات المتكررة. ومن بين ما رواه لي الأستاذ أن امرأة يهودية التمسث منه الذهاب معه لرؤية دارها التي تركتها بعد طردها مع يهود مصر، فأجابها الأستاذ بأنه من المستحيل زيارة دارها لأنها تحولت الى سفارة للمملكة العربية السعودية. وقال إنه مع نجيب محفوظ قاطعتهم البلاد العربية خلال عشرة أعوام، ونشر مقالا عن موقف المثقفين الإسرائيليين من نجيب

محفوظ وحديث الرئيس الخامس لدولة إسرائيل السيد اسحق نافون عن العقاد ونجيب محفوظ³ وقد اضطرت الصحف العربية بعد تردد نشر المقال الذي كان سببا في إلغاء مقاطعة الدول العربية لعقري الرواية العربية والفائز بجائزة نوبل، الأديب الكبير المرحوم نجيب محفوظ.

وعند صدور كتابي عن "المسرح البشري في العالم العربي في القرون الوسطى" باللغة الإنكليزية، قال لي الأستاذ أنيس: قرأت كتابك دفعة واحدة خلال ثلاثة أيام ثم قررت إرساله الى الأستاذ د. محمود فوزي عميد أكاديمية الفنون والترجمة لترجمته الى اللغة العربية ونشره في دار الشروق بالقاهرة، ثم طلب مني نسخة من الكتاب لإرسالها للترجمة. وعند زيارتي للقاهرة عام ١٩٩٢ أخذت معي ثلاث نسخ من الكتاب هدية له وللدكتور محمود فوزي. ودعانا الأستاذ أنيس الى الغداء في فندق سميراميس في القاهرة وكان في استقبالنا في الوقت المحدد قرب بوابة الفندق الأستاذ أنيس مع رئيس تشريفات الفندق مرحبا بنا. أخذنا الأستاذ الى المائدة المحجوزة لنا قرب نافذة كبيرة مطلة على النيل. فإذا بنا نجد تلميذتي السابقة، الصحفية المعروفة المتخصصة بشؤون الشرق الأوسط السيدة سمدار بيبي من جريدة "يديعوت أحرونوت" مع المصورة الصحفية المرافقة لها. جلسنا لتبادل الحديث وحدثنا الأستاذ عن الرئيس الراحل المغفور له أنور السادات ومرافقة أنيس له في زيارته التاريخية للقدس ومحادثات السلام،

وبعد عودتي الى القدس هاتفني الأستاذ وقال لي: مبروك يا أستاذ! قلت له: خير انشاء الله! قال: أمامي على مكتبي بروفات كتابك المترجم الى العربية مع مقدمة الصديق د. محمود فوزي، قلت له: أرجو ارسال البروفات قبل طبع الكتاب لمراجعتها وذلك لأن بعض المصادر العربية التي استشهدت بها غير متوفرة لديكم. وعدني الأستاذ بارسال البروفات لمراجعتها ووفى بوعده كالمعتاد، وأنفقت الساعات الطويلة لمراجعتها واطافة الأقتباسات والاستشهادات حسب المصادر العربية النادرة، وارسلتها اليه، ولكني مع الاسف الشديد لم اسمع بصدور الكتاب، وقلت لعل تهديد وزير الثقافة المصري فاروق حسني بانه سيحرق الكنب الاسرائيلية إذا عثر عليها في المكتبات المصرية، فما بالك بمنع صدور كتاب هو تحت الطبع؟ الى ان وصلتني مكالمة هاتفية قبل بضعة اشهر (من عام ٢٠١٠)، من الاستاذ أنيس منصور يقول لي فيها بأنه موجود الآن في قاعة الموسيقى في القاهرة يستمع الى الكونسرت الذي يقدمه الملحن الاسرائيلي دانيال بيرنباوم الذي منح هوية فلسطينية، وهو بصحة كل من فاروق حسني وزير الثقافة والباحث جابر عصفور، وانني الآن استطيع ارسال بروفات كتابي عن المسرح العربي المترجم الى العربية لنشره في مصر. استبشرت خيرا وقمت بارسال البروفات على وجه السرعة، وقلت لنفسي لعل ترشيح معالي الوزير فاروق حسني لمنصب الأمين العام لمنظمة اليونيسكو (منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية)، سيفرج عن الحجر على كتابي المترجم. ثم اتهمت الصحف العربية كعادتها، اسرائيل، بعرقلة الانتخاب، وهكذا ضاعت عليّ مرة أخرى فرصة صدور كتابي عن المسرح العربي مترجما الى اللغة العربية، هذا الكتاب الذي انفقت في تأليفه عشر سنوات من زهرة عمري في سبيل تأليفه وقال عنه الباحثون العرب بأنني انصفت الحضارة العربية بنتائج بحثي المضمنى هذا. والآن بعد ثورة ربيع الشباب العربي المباركة في الدول العربية والمطالبة بالحرية والديموقراطية والمساواة، كنت

أمل ان يصدر هذا الكتاب في مصر بالرغم من تعاضم قوى التعصب الديني منذ التسعينات من القرن الماضي حين نشرت مجلة "نصف الدنيا" المصرية (٢٦ يناير، ١٩٩٧)، بعنوان "إحذروا شموئيل"، وعرفوه بأنه "إسرائيلي يعمل أستاذا في القدس، سيتردد اسمه في الفترة القادمة كثيرا وسيضطر الى المجيء للقاهرة ولقاء كتابها وشعرائها ومثقفها بعد ما صار رئيسا لتحرير "مجلة الأدب العربي" "جورنال أوف اريبك ليترتشر" خلفا للاستاذ محمد بدوي من أكسفورد والتي تصدرها دار النشر بريل في لايدن بهولندا، واطاف معلق "نصف الدنيا":

" ولايدن مثل مدن كترة في هولندا معقل اليهود المتطرفين الذين يساعدون اسرائيل وبناء اقتصادها ... فيكفي أن نقول إن رئيس تحريرها الجديد الاسرائيلي شموئيل موريه كان آخر كتبه "المساهمة اليهودية في المسرح العربي في القرن التاسع عشر، بالاشتراك مع د. فيليب سادجروف من جامعة مانشستر ونشرته جامعة أكسفورد، ومن يقرأ الكتاب يتأكد له أن اليهود هم أساس النهضة المسرحية في الوطن العربي..."

وحين كنت في عام ١٩٩٧ في إجازة البحث السنوية التي كنت اقضيها ذلك الصيف في ضيافة معهد الدراسات الشرقية لجامعة بون برئاسة المستشرق الأستاذ د. ستيفان ويلد، (وهو رئيس رابطة الصداقة الألمانية العربية، والذي يحاول منافسة العرب في الضيافة والكرم)، كتبت مع الاستاذ ويلد طلبا من بون الى مدير دار الكتب المصرية آنذاك، بالحصول على ميكروفيلم لإحدى مخطوطات الجبرتي، وبدل الرد قرأنا خبرا

غريبا في مجلة "الأهرام العربي" في عدد أكتوبر ١٩٩٧ "إن مدير دار الكتب القومية في القاهرة، والذي شغل بين (١٩٩٤-٢٠٠٦) منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، د. جابر عصفور، أمر بمنع الباحث الاسرائيلي "شاموئيل [كذا] موريه، الذي يسعى الى تحقيق الجزء الرابع من كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار للعلامة عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ولاعداد فهرس شامل لجميع الأجزاء، من دخول الدار". وعجبت كيف منعوا دخولي دار الكتب القومية بالقاهرة وأنا موجود في جامعة بون بألمانيا؟ ومع ذلك فقد شجب الشاعر والصحفي الكبير عبد المعطي حجازي هذا الخبر في صحيفته وعده عملا مشينا وماسا بسمعة الدار، كأن هذه الدار المكرسة لخدمة الباحثين والعلماء أصبحت وقفا لهذا المدير الجديد يمنع ويسمح حسب أهوائه. رحم الله ايام حرية الفكر التي دعا اليها رفاة رافع الطهطاوي ومحمد عبده والعقاد والمازني وطه حسين وحسين فوزي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وصالونات العقاد ومي زيادة ومدرسة المهجر الامريكى ومدرسة الديوان ومدرسة أبوللو ومدرسة شعر، وعوضنا خيرا بالجرائد الحديثة المتمسكة بحرية الفكر والديموقراطية، "إيلاف" و"الأخبار" و"الحوار المتمدن" و"الكاردينيا" وغيرها من الجرائد والمجلات الحديثة التي تدافع عن الحرية والديمقراطية والعلوم الحديثة وتحريروالمرأة.

واليوم دار القدر دورته، فإذا بثورة ربيع الشباب العربي المباركة تطيح بكل من حارب حرية الفكر والتعبير وإذا بالوزير المصري السابق فاروق حسني وخلفه د. جابر عصفور، من الذين حاربوا التطبيع، يلقون مصيرهم مع المستبدين الذين تكتسحهم هذه الثورات.

وفي عام ٢٠٠١ سافرت مرة أخرى الى القاهرة لإكمال مقارنة مخطوطات الجبرتي وزرت الصديق أنيس منصور في مكتبه في الأهرام ودعاني مع مساعدتي العلمية الى حضور ندوة تقام في معرض الكتاب العالمي في القاهرة. كنت قد زرت معارض الكتب السابقة في القاهرة، والتقيت في أحد اقسام المعرض بصديقي الشاعر وصاحب دار النشر "الجمل" في كولون خالد المعالي، ولكن هذا المعرض كان مختلفا عن المعارض السابقة، فقد كانت أكثر الكتب المعروضة فيه كتبا دينية وكتبا طبّ عربية قديمة وكتبا عن حجاب المرأة ومكانة المرأة المسلمة في العائلة وكتبا عن السحر والجن وتفسير الأحلام لابن سيرين وغيره، إلى جانب كتب معادية لليهود وإسرائيل والولايات المتحدة طبعت معظمها طبعات انيقة ومتقنة في المملكة العربية السعودية ومصر. فعجبت لهذا الانقلاب الحضاري بالعودة الى مئات السنين الى الوراء وتخطي كتب ابن الهيثم وابن خلدون وابن النفيس وابن رشد ابن سينا التي اقامت عليها اوربا عليها حضارتها المعجزة الحديثة، ثم ذهبنا الى الندوة التي تحدث فيها الأستاذ أنيس منصور. دارت الندوة حول انعدام قيادة أدبية وفكرية في مصر التي كانت في النصف الاول من القرن الماضي تعجّ بالصالونات الادبية المصرية التي كانت مركز القيادة الفكرية والثقافية في مصر والبلاد العربية والإسلامية كافة وعلى رأسها صالون العقاد وصالون مي زيادة، والرافعي وغيرهم من كبار المثقفين والمفكرين المصريين، كما دار الحديث حول قرارات الحكومة المصرية نشر الحاسوب والتكنولوجيا الحديثة بن الجيل الجديد وغير ذلك من الموضوعات المهمة بالنسبة لمستقبل مصر. وعندما سمع أحد الحاضرين أن مساعدتي تتحدث معي باللغة العبرية، طلب الاذن في القاء سؤاله. قدم المتحدث نفسه بانه طالب في جامعة

الأزهر وأنه يعجب كيف سمحت الحكومة المصرية بعقد معاهدة مع إسرائيل،
فإسرائيل بالنسبة للمتحدث هي كيان غير شرعي يجب ازالته. كان سؤالاً محرجاً جداً
وانتظرت ردّ الأستاذ أنيس منصور لأرى كيف يجيب على مثل هؤلاء المتطرفين. كان
الأستاذ لبقاً في رده واثقاً من وجهة نظره، وقال بصوت المرشد الأمين والأب الروحي
للجيل الجديد: "أنا نحن العلمانيين لنا نظرة أخرى الى الأحداث، وقد حارب جيلنا
إسرائيل وضحى بالكثير من أجل القضية الفلسطينية، حاربنا في ١٩٤٨ وفي ١٩٥٦
وفي ١٩٦٧ وفي ١٩٧٣، ثم أصبح همنا تحرير أرضنا عن طريق التفاوض، وبهذه
الطريقة فقط افلحنا في تحرير آخر ذرة من رمال أرضنا عن طريق المفاوضات
السلمية، أما اذا كان لجيلك طريقة أخرى في حل المشكلة فأهلاً وسهلاً." وهكذا
افحم الأستاذ بلباقته وفكره الثاقب صاحب هذا السؤال الذي جلس وهو يتصبب
عرقاً.

ثم دعانا الأستاذ الى سيارته لنقلنا الى فندقنا قرب ميدان التحرير، وفي السيارة سألتني
ما رأيي في الندوة، قلت له ان رده كان مفحماً ولكني منزعج من هذا التطرف الذي
أبداه بعض المستمعين والمتحدثين ومن غلبة الكتب القديمة على الكتب العلمية
الحديثة واختفاء كتب أحرار المفكرين العرب من الأسواق وكل من يسأل عن مثل
هذه الكتب يسمع الاهانات لمؤلفيها "الكفرة الملحدين". وأنا آمل الآن ان يستطيع
الزعماء العرب والمسلمون الوقوف أمام هذا التيار الذي أدى الى مقتل الدكتور فرج
فوده وطعن الأديب الكبير الحائز على جائزة نوبل للأدب المرحوم نجيب محفوظ
ورش دار الأستاذ أنيس منصور بالرصا ص لصدّ مدّ التحرر الفكري في مصر الرائدة.

انزعجت لعدم وصول رد على رسائلي العديدة الى الصديق الوفي فكتبت بقلق شديد الى الاستاذ المصري عمرو زكريا مستفسرا عن صحة الاستاذ، إلى ان وصلني مع الأسف الشديد النعي التالي منه من القاهرة، يقول :

"حضرة أستاذنا الدكتور الكبير سامي موريه:

أنعي إليك ببالح الأسى والحزن الأستاذ الكبير والمفكر العملاق أنيس منصور، فهو الآن في ذمة الله، فقد تُوفِّيَ في مستشفى الصفا متأثراً بالتهاب رئوي حاداً، وكانت صحته قد تدهورت تدهوراً شديداً جداً منذ أمس الأول في غرفة العناية المركزة، ولَقِيَ رَبَّهُ فَجَرَ اليوم، وشُيِّعَ جنازته من مسجد عمر مكرم بميدان التحرير عقب صلاة الجمعة، ودُفِنَ بمدافن الأسرة بمصر الجديدة. إنا لله وإنا إليه راجعون، وبما أننا لا نزال نحيا في هذه الحياة الدنيا، فلنتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بأن يرحمه رحمةً واسعةً وأن يتغمّده برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يُسكِنَهُ فسيح جناته، إنه نعم المولى ونعم النصير
أدعو الله لك بأن لا ترى مكروهاً في حبيبٍ أو عزيزٍ لديك.
تلميذك المخلص"

رحم الله العلامة المفكر والأديب الكبير أنيس منصور، كان يفهم التاريخ ويتعلم العبر منه وكانت آراؤه صائبة، دعا الى الفلسفة الوجودية التي انفذت الشرق الاقصى من التخلف الفكري، وحفزت معتنقي هذه الفلسفة الى التحرر من المنقول الى المعقول ولكن يبدو ان الحضارات لا يمكن ترقيتها فهي ليست ملابس قديمة يمكن اصلاحها بالترقيع والتلفيق بل المشاركة فيها وجهل الدين والعقائد امر بين الخالق والمخلوق

لا شأن للحكومات والسياسة، آمل الا تضيع جهود كبار مفكري العرب وعلمائهم هباء بهذه النكسة الفكرية والدينية، وإلا فعلى الدنيا السلام والمدينة الفاضلة وحجر الفلاسفة وبساط الريح والحصن الممنح وغيرها من احلام الانسانية خلال تاريخها الطويل والتي شاركت الحضارة العالمية في بنائها قد تذهب هباء في هذا الصراع العقيم بين قوى الظلام وقوى النور، مؤمنا ان قوى النور والحياة والبقاء هي اقوى من قوى الموت والفناء العبثي.

في ذكرى مرور عام على رحيل الأديب سمير نقاش

عندما قبلتني الست فاطمة*

الثلاثاء ٢ يناير / كانون الثاني ٢٠٠٧

أقبلت علينا الست فاطمة مدرّسة التاريخ والطبيعة في مدرسة السعدون الابتدائية النموذجية وهي تبتسم لأول مرة منذ مصرع الملك غازي (١٩٣٩) وأخبرتنا نحن تلامذة السنة الثانية بأن على جميع طلاب المدرسة المشاركة غدا باحتفال المدارس العراقية بعيد ميلاد الملك المفدى فيصل الثاني في برك السعدون (المنتزه الواسع الذي أقامته أمانة العاصمة تقليدا لهايد برك في لندن) الذي يقع قرب مدرستنا. سرّت الفرحة الطاغية بعد الحزن الغامر الذي عمنا منذ أن صعقنا نبأ مصرع الملك غازي المفاجئ وخروجنا في مواكب العزاء التي قادها طلاب أكبر سنا منا جاءوا من مدارس أخرى. كنا نخرج من المدرسة وفي مقدمتنا أكبرنا سنا عبد الرحمن الجابي وأخوه طالب، وينضم إلينا كل من إياد ابن الدكتور علي غالب وفيصل ابن رشيد عالي الكيلاني وابنا فاضل الجمالي وأبناء عائلة الأزري وصادق ابن محمد مهدي كبة ولؤي القاضي وغيرهم من أبناء كبار رجالات العراق الذين درسوا معي في هذه المدرسة النموذجية، وكنا نخرج من المدرسة ونحن نردد وراء الطلاب الكبار الهتافات ونلطم على صدورنا على وقع الشعارات :

الله أكبر يا عرب غازي انفكد من داره واهتزت أركان السما من صدمة السيارة

ثم نتقل إلى الهتاف التالي الذي آلمنا جميعا أكثر من غيره :

مات غازي واشتفتْ به العدا فيصل الثاني الله يساعده

فهذا البيت خاصة كان يذكرنا بيتهم المليك الطفل وبمصراع والده وقد اتهم الشعب العراقي أعداء الملك غازي الشاب الحكومة البريطانية خاصة بتدبير مصرعه، ثم أدرنا فيما بعد أن "العدا" هم الأنكليز والآثوريون الذين نكل بهم الملك غازي أثناء غياب والده في أوروبا بسبب مطالباهم القومية لكي يظهر بمظهر الملك الشاب الحازم المتحمس وليثبت للشعب العراقي وللشعوب العربية رجولته وبطولته، (ثم جاء حزب البعث فيما بعد وادعى إن سبب مصرعه كانت أمور أخرى عاطفية لا يصدقها العقل).

كان الملك الطفل اليتيم فيصل الثاني محور عطفنا وشفقتنا نحن الصغار، لأنه تيمم في سن تقارب سننا الذي نخشى فيه من فراق الوالدين، لذلك غمرتنا الفرحة العارمة عندما أخبرتنا الست فاطمة باحتفال العراق بعيد ميلاد المليك المفدى في الغد في بارك السعدون وأن على جميع الطلاب والطالبات المشاركة في الاحتفال. فرحنا لأننا وجدناها فرصة سانحة لتفريغ كربنا بعد الحزن الذي عمّ العراق خلال أسابيع طويلة .

صادف يوم الاحتفال أحد الأعياد اليهودية، وقال لي صديقي ابن وزير المعارف هامسا: "تيالكم، أنتو الله يحبكم وانطاكم هوايا (الكثير) أعياد". وهرعت مع أطفال شارعنا قرب صلاة مئير طويق في البتاويين الى المشاركة في الاحتفال. كان بارك السعدون القريب من دارنا مزينا بالأعلام العراقية والموسيقى تصدح وفرق الرقص الشعبي تقوم بعروضها والخطباء يخطبون بحماس معزين العائلة المالكة والشعب العراقي على فقيد العراق ومتفائلين بالمليك الطفل، والمغنون منتشرون في كل مكان من هذا البارك الجديد الذي يضم مساحات واسعة من بساط "الثيل" (العشب) الأخضر اليانع، والزهور والنباتات الغريبة الألوان والأشكال رسم بواسطها البستانيون عبارات الترحيب: "صباح الخير" و"اهلا وسهلا"، إلى جانب الأشجار المشدبة على شكل حيوانات مختلفة. وكان في وسط البارك عمود منتصب كالصاري، طويل أملس

التف حوله أساتذة وطلاب من مدارس مختلفة وتدلى من رأس العمود حبل طويل أمسك بطرفه أحد الأساتذة أما الطرف الثاني فكان يمرّ على بكرة وهو مربوط إلى إطار حديدي علقت عليه أكياس السكاكر و"الحامض حلو" من مصنوعات أوروبا وهي مغلفة بالورق الشفاف الملون البراق. أقبل بعض الطلاب والطالبات يجربون حظهم ويحاولون تسلق العمود. كان مدير مدرسة التفيض هو المسئول عن هذه اللعبة، وكان يقرب الأكياس من رأس الطالبات حتى قبل أن يتسلقن العمود ليتمكن من نزع الأكياس بسهولة، أما إذا تسلق أحد الطلاب فكان يقرب الأكياس من رأسه وإذا مدّ يده أسرع المدير إلى سحب الأكياس بسرعة إلى الأعلى مسافة قصيرة من رأسه المتسلق ليواصل محاولاته. استهزأت بطريقة الطلاب في التسلق فقد كنت مع إباد علي غالب من هواة تسلق الأشجار والأعمدة في حديقة بيته الواسعة. تقدّمت إلى المدير وقلت له بعد أن أخفق بعض الطلبة في التسلق: "أريد أضعده!". نظر إليّ المدير باستخفاف لصغر سني وقال لي بتحدٍ: "يلا اصعد، دنشوف شطارتك!". فتحمس إخوتي وأصدقائي وصاروا يصيحون: "أي سامي اصعد! أبدالك اصعد، لا تخاف!". كشف هذا التشجيع عن هويتي، وما أن وضعت يديّ على العمود حتى همس أحد الأساتذة للمدير: "أستاذ! دير بالك ترا هذا حسقيل!". وما أن سمع المدير كلمة "حسقيل" حتى أكفهر وجهه وكأن أفعى نهشته، وسحب الحبل بسرعة إليه وإذا بالأكياس الملونة تحلق طائرة نحو السماء بسرعة مذهلة. ندت من الطلاب والمتفرجين صيحات دهشة واستنكار، تشوبها ضحكات تشفي واستهزاء، وابتسم المدير ابتسامة صفراء، فخورا بفعلة المشبطة للعزيمة، كأنه يقول: "يلا اصعد! هسّا أنشوف حسقيل شيسوي!". أغضبني هذا التحدي السافر وزادني إصرارا على مواصلة الصعود رغم الارتفاع الشاهق للعمود ورغم المسافة الشاسعة بيني وبين الأكياس اللامعة التي بدت كأنها تشارك المدير بسمته الساخرة. تعالت أصوات الجموع

المحتشدة وأنا أوصل التسلق بإصرار "إي! ولك عفيا، أصد بعد يا سبع، اصعد ... أصد ...!!". بلغت منتصف العمود، وتوقفت عندما بدأ العمود يترنح يمنة ويسرة، وندت صيحة خيبة أمل من المتفرجين،، ثم ساد صمت عميق. قلت للمدير: "العمود صار يميل، أخاف يوكع". بادر ثلاثة من المعلمين إلى الإمساك بالعمود ودعمه، وقالوا لي: "لا تخاف! إحنا لازميننا". وعندما تأكدت من ثباته واصلت التسلق بسرعة وتعاليت الأصوات المحرصة مرة أخرى بحماس أشدّ: "إي عفيا سبع، إصد، إصد..."، وانضمّ الجميع كجوقة موسيقية تردد: "ولك على الأصفر... ولك على الأحمر... ولك على الأخضر...!!" وأنا أوصل الصعود وبدت الأكياس الصفراء والحمراء والخضراء والزرقاء هذه المرة ضاحكة متهللة لاقترابي منها، حين بلغت القمة وتوقفت وهي تلامس شعر رأسي، وأخذ كل واحد من المتفرجين المتحمسين يطالب بإنزال الكيس ذي اللون المفضل لديه. توقفت قليلا لألتقط أنفاسي، وتعاليت الأصوات مرة أخرى مشجعة ومرددة: "على الأحمر ... على الأصفر... على ... على..."، أمسكت فجأة بالكيس الأحمر بغضب وقطعت الخيط المعلق به... تعالت أصوات الاستحسان من الذين فضلوا الكيس الأحمر، وتعالى التصفيق والهتاف من كل جانب: "والله بطل... والله سبع...". وفجأة، قربت الكيس من أسناني بغضب بالغ ومزقته وألقيت بمحتوياته على رأس المدير والمعلمين وانزلت بسرعة إلى الأرض. كان بعض المعلمين يلتقط السكاكر المغلفة بورق شفاف لامع ويجمعها في كفيه ثم يدسها في جيوبه ... وربّت أحدهم على خدي قائلاً بإعجاب: "والله سبع... والله بطل...". انقض عليّ مدير مدرسة التقيص بغضب وسألني بتحدٍ: "ولك ليش شكيت الجيس؟" (ويلك، لماذا مزقت الكيس؟) فأجبت بفخر وكبرياء وشماتة: "آني ما طلعت على العمود خاطر الجيس، آني طلعت على شرف المدرسة!!!". بهت المدير من جوابي المفحم وقال لرفاقه: "أشو هذا طلع أيهودي ابن أيهودي". أحاط

بي الأصدقاء طالبين حصتهم وألعاب تشجيعهم وتصفيقهم... وزعت السكاكر عليهم وهم يهللون لهذا النصر لمدرستهم، وعافت نفسي من تناول واحدة منها لأشاركهم بفرحة بالنصر. سار الأقارب والأصدقاء محيطين بي بفخر واعتزاز وهم يقولون لمعارفنا الذين يمرون بنا في الطريق إلى دارنا: "سامي صعد على العمود وشقوا الكيس وأغمانو على غاس المدير" (سامي تسلق العمود ومزق الكيس ورماه على رأس المدير). ولما سمع والدي بالقصة قال والقلق باد على وجهه: "كل المعلمين ساغوا نازيين، الله الستار!" (كل المدرسين أصبحوا نازيين، والعياذ بالله). فقالت والدتي: "أبيل وأغماد على هيكذ مدير! فيتغالب ويا ولد يطلع مقد أبن أبنو!" (الويل والشبور لمثل هذا المدير، يتنافس مع طفل في سن حفيده). "فردّ عليها الوالد: "مقد تفتهمين! قيغيد أيقلو أننا أيهودي، انت ما عراقي، ما منّا، وانتي قتحفين على سامي! ليش سامي يتعبًا بالجيب؟!" (ألا تفتهمين! يريد أن يقول له أنت يهودي، أنت لست عراقيا، لست منّا. وأنت تخشين على سامي! هل هو ممن لا يعأ به؟ ."

دخلت المدرسة في اليوم التالي وكان شيئًا لم يحدث البارحة. فإذا بال طالبة بثينة الكيلاني تقول للست فاطمة: "ست فاطمة، ست فاطمة! البارحة سامي طلع على العمود وشك الجيس باسانه، ولما سأله المدير، ليش؟ كلّه: "آني ما اصعدت على مود الجيس والحامض حلو، آني اصعدت على شرف مدرسة السعدون..." ابتسمت الست فاطمة ابتسامة عرضة ولمع السن الذهبي بين شفثيها ببريق خلاب، وربّنت على رأسي ثم قبلتني من خدي وقالت لي بفخر واعتزاز: "عفيا سامي! والله أنت سبع وراح يصير براسك خير، عندك مستقبل". عند ذاك فقط أدركت بأني قمت بعمل يستحقّ الإعجاب، وإلا لما قبلتني مدرّستي المفضلة الجميلة.

وفي عام ١٩٩٩ عندما قرأ عريف حفل توزيع جائزة إسرائيل قرار لجنة التحكيم التي رشحتني لنيل الجائزة عن أبحاثي في الأدب العربي ودعاني إلى منصة الرئاسة حيث وقف على أقدامهم رئيس الدولة آنذاك السيد عيزر وايزمان، ورئيس الحكومة السيد بينامين نتنياهو ووزير التربية والتعليم السيد أسحق ليفي، ورئيس العاصمة السيد يهود أولمرت، وغيرهم من كبار رجالات الدولة، اعترضتُ طريقي إلى المنصة الست فاطمة وقبلتني مرة أخرى وقالت لي: "سامي! آني ما كلتلك أنت راح يصير براسك خير؟! ". قلت لها: "ولله تمام، لكن بالله كوليلي صدك من سِمع الرئيس صدام حسين انو يهود العراق تقدموا هنا وصار منهم رئيس أركان الجيش ورئيس الكنيست ووزراء وأساتذة جامعات وأطباء وعلماء وكتاب وشعراء مشهورين، كال: وليش لا! مو هاي هيّ العبقريّة العراقيّة؟"، ضحكت الست فاطمة وأجابت: والله هيج يكلون، لكن يكلون همين (أيضاً): من راحوا اليهود من العراق، راح الخير ويّاهم؟"، قلت لها مواسيا: "كل ما يقوم به يهود العراق وما يقدمونه من خير إلى إسرائيل ينسب إلى العراقيين، فنحن هنا ما زلنا نسمّى عراقيين، شايفه شلون؟ إسمعي !!".

وواصل العريف: "ولد البروفيسور ... في العراق ... ودرس في مدارس العراق ... ونشر أشعاره في جرائد العراق ... وقدم إلى البلاد عام ١٩٥١ مع الهجرة الجماهيرية من العراق ... ونشر المقالات والكتب العديدة عن الأدب العربي وعن يهود العراق ... عراق ... عراق ... عراق ... " أطل السياب بوجهه النحيل الحزين وقال: "من الأفضل أن يقرؤوا قصيدتي "غريب على الخليج" فهي تعبر خير تعبير عن موقفكم يا يهود العراق، وذلك عندما قلت :

الريح تصرخ بي: عراق!
والموج يعول بي: عراق! عراق، ليس سوى عراق!
والبحر أوسع ما يكون، وأنت أبعد ما تكون
"والموت" دونك يا عراق..."

فانطلق حمزة الحسن من عزلته في "أورستا" النرويج وقال لي: "أرانا الآن يا شأول،
غرفنا في وحل واحد. لكنك أفضل حالا، أنت في وطن وأنا في منفى. هل تقبل بهذه
المقايضة؟". قلت لحمزة بإشفاق: "كل واحد منا يؤمن بكتبه السماوية، فمتى نؤمن
بالإخاء الإنساني أيضا .!"

وعند مصافحتي لرؤساء الدولة المهنيين نظرت إلى وجوههم لأعرف هل سمعوا
حواري مع "الأعداء"؟ وهل يعلمون سبب نظراتي الساهمة؟؟؟

قالت لي الأدبية سميرة المانع بعد أن انتهى الحفل: "نحن المسلمين العراقيين،
سوف لا نعود إلى العراق إلا بعد أن يعود إليها اليهود لنرى كيف ستعاملهم الحكومة
العراقية!". أجبته بأسف: "أما نحن يهود العراق، فما زلنا أكثر من خمسة وخمسين
عاما نتمنى أن تهتم الحكومات العراقية بالشعب العراقي المسكين وأن يسود السلام
والإخاء بين أفراد الشعب العراقي وبين العراق وجاراتها، قائلين: "لعل السلام يسود
قريبا ونزور العراق مرة واحدة في العمر لتتذكر أيام الطفولة الرائعة، فشربة ماء من
أنهارها العذبة ستعيد لنا شبابنا الراحل!". دمعتُ عينا سميرة وهي تودعني واختفت
معها الجموع المحتفية وهي تقول: "تري! هل ستجود الأيام وتحقق الأحلام؟ .!!"

أورشليم - القدس

أمسية أدبية لذكرى الشاعر إبراهيم عوبديا (يا رب نج العراق)

حمزة الحسن قال عنه بأنه (اليهودي الجميل)

الخميس ١ مارس / آذار ٢٠٠٧

عقدت في قاعة مركز ومتحف تراث يهود العراق في أور- يهودا قرب تل- أبيب، أمسية أدبية لذكرى الشاعر والأديب الراحل إبراهيم عوبديا حضرها عدد كبير من أفراد العائلة وعلى رأسهم أرملة الفقيد وبناته الثلاث وابنه وأحفاده وأصدقائه والمعجبين به من جميع أنحاء إسرائيل.

ترأس الحفل السيدة نزهة قصاب رئيسة جمعية تشجيع الآداب والفنون (آحي) ليهود العراق وأشادت بشخصية الشاعر الراحل ومساهمته في إغناء الشعر العربي والغناء العراقي في إسرائيل وتخليده للأحداث التي مرت عليه في العراق وفي إسرائيل. ثم تحدث الوزير السابق والحائز على جائزة إسرائيل السيد مردخاي بن بورات رئيس مجلس إدارة مركز تراث يهود العراق، عن الشاعر وتمسكه باللغة العربية في قصائده وأغانيه ومساهمته في الحياة الأدبية. ثم ألقى صديق الشاعر الوفي شموئيل (سامي) موريه رئيس رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق كلمة عن الشاعر وتحدث عن رد القراء على المقال التأبيني الذي نشره باللغات العربية والعبرية والإنكليزية وتعليقات قراء "إيلاف" الغراء على المقال باللغة العربية وترحمهم على الشاعر الراحل ونقد البعض ممن لا يقدر المواهب الفنية والأدبية إلا حسب الانتماء الديني أو القومي وأشاد بالصدقة المتينة التي ربطت الشاعر بكثير من الشعراء العراقيين في المهاجر وخاصة بالأديب الروائي الكبير حمزة الحسن الذي قال عنه بأنه "اليهودي

الجميل" وحديثه عن المعاناة التي عانى منها الشاعر في العراق بسبب وطنيته ودفاعه عن الشعب العراقي في روايته الرائعة "عزلة أورستا" وأسهب في الحديث عن تعلق العراقيين وحبهم للعراق وأسفهم لما يجري فيه من مآسٍ وشقاق وقتل وتدمير يأكل الأخضر واليابس والعالم واقف مكتوف الأيدي، وختم حديثه متمنيا انتهاء محنة العراق والرجوع الى الصفاء والسلام والاتحاد الوطني كما كان عليه أيام زمان .

أما المتحدث الثالث فقد كان الأستاذ الأديب والمترجم المعروف الدكتور محمود عباسي صاحب "مجلة الشرق" الأدبية الغراء التي احتضنت الشاعر والذي رعى الصداقة والإخاء اليهودي العربي في إسرائيل منذ الخمسينيات من القرن الماضي وقام بنشر الكثير من كتب شاعرنا الراحل بالتعاون مع رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. ثم قرأ الدكتور محمود عباسي آخر قصيدة أرسلها له الشاعر عوبديا وهو على فراش المرض أياما قليلة قبل رحيله مازجا بين آلامه وآلام العراق، أدزت الدموع من عيون الحاضرين حزنا على شاعرنا وعلى ما يجري في العراق:

يا ربّ نجّ العراق

يا ربّ نجّ العراق اليوم من مِحْنَتِهِ واجعله يزهو كما قد كان في زَمَنِهِ

يا ربّ وانعمْ عليه بالسلام، فقد آن الأوان لينجُو اليوم من شَجْنِهِ

دع الرخاء يعمّ الشعب أجمعه والخيرَ في ريفه يجري وفي مُدُنِهِ

وانشر عليه جناح العزّ . ليس له إلّا كَ في يأسه يا ربّ أو وَهْنِهِ

تُغْنِيهِ وَخُدْثَهُ إذ جدّ عن فِتْنٍ حتى وان جعلتها اليوم من مِحْنِهِ

صفق الحاضرون طويلا لهذه القصيدة التي يتذكر فيها الشاعر وهو على فراش الموت، قبل كل شيء، محنة العراق وشعبه وهو أقرب ما يكون الى الله، داعيا

لمسقط رأسه بالنجاة من محنه، فهل تجد حُباً أروع وأخلص من هذا الحب العراقي الأصيل لأرض العراق ولشعب العراق وما يقاسيه اليوم بالرغم مما جرى ويجري فيها؟ ثم وقف الشاعر والمحامي سليم شعشوع رفيق الفقييد في دربه الأدبي والقي كلمة طويلة باللغة العربية عن شعر الشاعر وفنه الأدبي ومساهمته في احياء الأغنية العراقية باللهجة الإسلامية في إسرائيل، وعندما القى أبياته في تأبين الفقييد قاطعه المستمعين بكلمة الإستحسان "أعدّ ! أعدّ !" مما ذكر الجميع بإيام عزّ العراق، أيام الوفاق وأيام الشعر الرقراق، وصفق لها الحاضرون طويلاً .

وبعد الكلمة التي ألقاه ابن الفقييد، عزفت الجوقة الموسيقية لدار الإذاعة الإسرائيلية المكونة من ألبير الياس و ابراهام أهارون عوبديا والمغني المطرب صالح الشبلي الذي لحن وغنى الكثير من قصائد الشاعر الراحل وشنف أسماع الحاضرين ببعض اغاني الشاعر الراحل الشجيرة .

وهكذا انضمّ شاعر آخر إلى قافلة الذين ماتوا بحسرة العراق وهو يردد مع آخر أنفاسه "يا ربّ نجّ العراق اليوم من محنه!"، وانفضّ الحفل يعاتب العراق والدهر مع سليمة مراد:

هذا مو إنصاف منك غيبتك هلگد تطول

الناس لو تسألني عنك شرد أجابوهم شگول

أما أحفاد الفقييد فلم يفهموا كلمة مما قيل باللغة العربية عن جدهم الراحل، عاشق اللغة العربية، ولماذا يكفّف البعض دموعه لسماع الأغاني العربية التي نظمها يراعه الرقراق بدم قلبه الكبير .

ميسيرت يروشلايم، شباط ٢٠٠٧

الموسيقى العراقية. في ذكرى وفاة الشاعر الكبير والأديب الشهير السيد إبراهيم عويديا. رحمه الله تعالى

الأثنين ٣٠ يوليو / تموز ٢٠٠٧

في الفاتح من شهر كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٧ رحل عنا الشاعر الكبير إبراهيم عويديا في مستشفى الكرمل في حيفا عن عمر يناهز الثانية والثمانين بعد أن نشر ١٥ كتابا منها ١١ ديوانا شعريا جميعها نظمت باللغة العربية الفصحى، وديوان واحد باللهجة العراقية العامية الإسلامية وهو "أغنيات عراقية، من الغناء الشعبي الحديث في ضفاف الرافدين" (شفا عمرو، مطبعة الشرق، ١٩٩٥)، من تأليفه ومن غناء المطربين صالح الشبلي وعزيز جلال وعبد داوود، ويعقوب العلالى ولفل كرجي وفايزة رشدي وشادية الكرمل ودلل سالم وصبري خلف وصبري عاشور ويوسف دهان والسيدة نجاته ويوسف بغداددي وتلحين صالح الكويتي ويوسف يعقوب وابراهيم سلمان وصالح شبلي وابراهيم داوود والبير إلياس وبرهوم ونعيم رجوان ولطيف حلو وشفيق جبالي ولفل كرجي وساسون عبديو وابراهيم البصون وسليم النور وسيد روجي ممن هاجر من العراق وعمل في دار الاذاعة الاسرائيلية منذ الهجرة الى اسرائيل عام ١٩٥١.

والأهمية كتابه "مع الغناء العراقي" كتب ا. د. شموئيل (سامي) موريه هذه المقدمة لكتابه هذا نشرها للقراء تخليدا لذكراه العطرة:

الموسيقى العراقية

بقلم شموئيل موريه

عندما بلغ العرب اوج الحضارة الانسانية في القرون الوسطى اخذوا يترجمون علوم الشعوب المتحضر كاليونان والفرس والسريان والهند للوقوف عليها ومحاكاتها لإغناء حضارتهم واهتموا بصورة خاصة بالعلوم اليونانية كالمنطق والحساب والفلسفة والموسيقى وترجموا كل ما عثروا عليه من كتابات أرسطو الذي لقبوه بالمعلم الأول عملا بالحديث النبوي القائل: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها أخذها فهو أحقّ بها". وقد لخصّ الفلاسفة العرب ومن بينهم "اخوان الصفا" هذه العلوم وتحدثوا عنها في رسائلهم بما فيها "الموسيقى" في الرسالة الخامسة من القسم الرياضي، وعرفوها بأنها "الغناء" وقالوا بأنه "فضيلة يتعدّر على المنطق اظهارها ولم يقدر على اخراج العبارة، فاخرجتها النفس لحنا موزونا"، فالغناء والموسيقى هما حاجة نفسية "للشعور بالفرح والسرور في الاعراس والولائم والدعوات وعند الحزن والغم وفي بيوت العبادات وفي الاعياد"، وقالوا بأن "الهيولي [كلمة يونانية بمعنى: المادة الأولى] في الصناعة الموسيقية كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين وتأثيراتها فيها مظاهر كلها روحانية أيضا"، ثم اضافوا بأن اصحاب النواميس "استعملوا الموسيقى" في الهياكل وبيوت العبادات وعند القراءة في الصلوات وعند القرابين والدعاء والتضرع والبكاء كما كان يفعل داود النبي عليه السلام عند قراءة المزامير وكما يفعل النصارى في كنائسهم والمسلمون في مساجدهم من طيب النغم ولحن القراءة فان كل ذلك لركة القلوب ولخشوعها والانقياد لأوامر الله تعالى... فمن الألحان ما يعزي النفوس ويخفف ألم المصائب ويسلي عن الاشتياق ويسكن الحزن... (ص ١٣٢-١٣٦)

وقد احسن مؤسس ومدير القسم العربي في دار الاذاعة الاسرائيلية الاستاذ شاؤل بار- حايم عند تكريسه برنامجا أسبوعيا بعنوان "من الغناء العراقي" قدمه الاستاذ شفيق كباي والمرحوم نعيم توينه، غنى فيه المغنون والموسيقيون العراقيون منذ هجرة أو تهجير العراقيين عام ١٩٥١ والى اليوم، وكان العراقيون يستمعون اليها بشغف بالغ لشفاء الحنين والغليل، وكان والداي رحمهما الله مثل باقي القادمين الجدد لا يفوتون على انفسهم اية فرصة للاستماع اليها، ويرددون مع سليمة مراد: أنا الأقولن آه واتذكر أيامي". ولا يزال العراقيون اليهود يحبون رواية النكتة النالية التي تكشف عن مدي حنينهم الى العودة الى العراق في السنوات الأولى من قدومهم: "قال قادم جديد من العراق في احدى المقاهي العراقية قرب تل- أبيب لأحد أصحابه: "أبو حسقيل، سمعت أش قال راديو عمان، يقلك إسرائيل ما غاح أطول أكثف من سنتين- ثلاثي"، فأجاب أبو حسقيل: "أبدالك أبو صيون، أش غاح يقضيها" (أسمعت ما قال راديو عمان؟ يقول بأن إسرائيل سوف لا تستطيع الصمود أكثر من سنتين - ثلاثة، فأجابه أبو حسقيل قائلاً: جعلت فداك يا أبا صيون، كيف سنستطيع الصبرعلى هذا الوضع كل هذه المدة الطويلة". ولكن الغناء العراقي من صوت أسرائيل خفف من الحنين وجعل هؤلاء المهاجرين اليوم من أخلص المواطنين في الدولة.

كان معظم قراء المقام في العراق من المسلمين وعلى رأسهم القبانجي والكندرجي، وكان الأخير من بين المغنيين المحبوبين عند يهود العراق. وقد روى لي صديقي الدكتور حسقيل فوجمان مؤلف كتاب "الموسيقى الفنية المعاصرة في العراق"، اثناء زيارتي له في بيته في لندن مع الصديق الراحل البروفيسور دافيد صيمح، بان الجوق العراقي الذي شارك في مؤتمر الموسيقى العربية في القاهرة عام ١٩٣٢ كان مؤلفاً من الموسيقيين اليهود برئاسة يوسف پتتو عازف السنطور وقارئ المقام العراقي المغني

المسلم القبانجي. وبعد فوز الجوق العراقي بالجائزة الاولى اجرى مراسل الاهرام مقابلة فنية مع الموسيقار پتو وسأله المراسل: "الاستاذ بتاو، إزاي حال الفن في العراق؟" لم يكن الاستاذ پتو بحسن العربية الفصحى او لهجة المسلمين في بغداد. فأجابه باللهجة اليهودية العربية قائلاً: اش فن مال القبوغ (القبور) بالعراق. ليش آكو فن؟ نحنا عبارة يعزومنا اندق بالعغاصه (بالاعراس)، وتآلي لما يقدمون مزّة ويشغبون (يشربون) عقق (العرق) والشغب يطلع على غاسم (راسهم)، أتقوم تلعب السككين (السكاكين) والخنيجغ (والخناجر)، ونحن ناخذ دغبنا (درينا) ونختل (ونختي) بالادبات (بالمراحيض)، والله وكيلك، هذا أول الفن وهذا تلينو بالعراق". لم يفهم مراسل الاهرام كلمة مما قال الموسيقار الشهير، فلما سأله عن معنى قوله . اجابه پتو قائلاً: "مقدحكي وياك بالعربي! انتا متفتهم عربي؟" (انا اتكلم معك باللغة العربية، الا تفهم العربية؟) . هكذا كان يفهم العراقيون الفن وهكذا كانوا يتعاملون معه آنذاك، بعد أن كانت مكانة الموسيقى والغناء من أسمى الفنون كما قال إخوان الصفا وأكدها ابن سينا.

اما عن مكانة الفنان او الموسيقار والمغني في العراق وغيرها من البلدان العربية، فقد كانت تعادل مكانة "القواد" كما نفهم من الفكاهة العراقية التالية: "سأل القاضي عن مهنة احد المتهمين، فأجابه بانه مغني، فقال القاضي لكاتب المحكمة: سجله "قواد"، فاحتج المغني قائلاً: حضرة الحاكم آني من عائلة شريفة، واحنا أباً عن جد من المغنيين، فتوجه القاضي الى كاتب المحكمة قائلاً: "لعاد سجله قواد ابن قواد". وهكذا تدهورت مكانة الفنانين من مكانة الكاهن في المعابد والهياكل والمساجد الى مكانة هي في حضيض المجتمع العربي.

كثيرون هم المعجبون باغاني التراث الغنائي العراقي وكثيرون هم عشاق الغناء العراقي، بأغانيه الفولكلورية من پسته وأبوذية ومقام غنائي وموال بغداداي. وكان العراقيون وما زالوا يعتزون بالغناء التراثي الذي ألف شعره شعراء مجهولون ولحن اغانيه مجهولون وغناه لأول مرة مجهولون!!

ربما كان من غناه هو الشاعر وهو الملحن وهو المغنى معاً ويؤكد لنا هذا ما قيل عن قارئ المقام الكبير الراحل الاستاذ محمد القبانجي فقد كان يؤلف الاغنية بشتى صورها ويلحنها بإبداع وبغيتها وأحياناً كان يبتكر المقام أيّ يكتشفه في السلالم الموسيقية والتي لم يسبقه إليه سابق، كمقام اللامي ومقام الحويزاوي- وعلى سبيل المثال نذكر له هذه الابوذية التي نظمها وهو موجود في المانيا اثناء تسجيله بعض اسطواناته في سنة ١٩٢٦، وقد لحنها من مقام اللامي. وهناك وصله نعي والده المرحوم عبد الرزاق القبانجي:

علام الدهر شتتنا وطرنا عكب ذاك الطرب بالهم وطرنا

الف يا حيف ما گضينا وطرنا ليالي اللي مضت متعود ليه

ولست انسي ابيات الشعر التي غناها في المقام الحويزاوي الذي وضعه لقصيدا "يا راهب الدير"، (وقد وجدت هذه القصيدة مخطوطة بخط والدتي المرحومة بين مذكراتها الكثيرة التي كتبتها باللغات العربية والعبرية والفرنسية والانكليزية والفارسية وهي من القصائد التي اعجبتها وسجلتها) والايات التي غناها من هذه القصيدة كانت كالآتي:

يا راهب الدير

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو وحملوها وسارت بالهوى الإبل
وارسلت من خلال السجف ناظرها ترنو اليّ ودمع العين ينهمل
وودعت بينان عضده علم ناديت لا حملت رجلاك يا جمل
يا حادي العيس عرّج كي أودعهم يا حادي العيس في ترحالك الاجل
اني على العهد لم انكث موذّتهم يا ليت شعري بطول البعد ما فعلوا
لما علمت بأن القوم قد رحلوا وراهب الدير بالناقوس منشغل
شبكت عشري على راسي وقلت له يا راهب الدير، هل مرّت بك الابل
فحنّ لي وشكى، وأنّ لي وبكى وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيل
إنّ البدور اللواتي جئت تطلبها بالامس كانوا هنا واليوم قد رحلوا
صحت محروم مهموم مهضوم خايب يا گلبي

وينهيها بـ:

آه وآه الخ

ما من عجب، لو اعتز المواطنون العراقيون في العراق بالغناء العراقي، فالحنين الى الوطن يصاحب المواطنين العراقيين الذين هاجروا من العراق او هُجروا منها او هربوا بجلودهم خلال عشرات السنين، وربما يبلغ عددهم اليوم اربعة ملايين، عاشوا في

المهاجر والمنافي مكرهين، كلاجئين، وتشرذوا في جميع اقطار المعمورة، والعراق يحملونه في قلوبهم وفكرهم ويحملون ذكريات العراق الوطن وهمومه، ذكريات وطنهم الغالي في نفوسهم الأبية الجريحة بمدنه وقراه، بشوارعه ومقاهيه، بتقاليده وعاداته، والغناء العراقي ما زال يعود بهم الى خوالي الأيام. وكلما راودهم الحنين اليه هرعوا الى الاستماع والاستمتاع باغنية من اغاني التراث، ولكل عائلة من عوائل المغتربين، إضمامة كبيرة من الكاسيتات للاغاني المنقولة عن الاذاعات او من كاسيتات الفيديو المنقول بعضها عن الفضائيات. وقد طلب مني الكثير من الأخوة العراقيين ارسال مثل هذه التسجيلات اليهم في مهاجرهم. وهكذا يعلو صوت الشعب العراقي باغانيه التي تحمل الحسرة واللوعة و نار الشوق، لا في العراق وحده بل في لندن وباريس وكندا ونيويورك وكل اليهود العراقيين في مدن اسرائيل وغيرها من اقطار المعمورة. وكثيرا ما يحلو للعراقيين الاستماع الى اغنية حضيرى ابو عزيز موجّهين عتابهم لحكامه الذين شردوه وهو يردد "هلي يا ظلام هلي":

هلي أوي هلي	خلهم يولون هلي
هلي أوي هلي	ما ريد أنا هلي
ال ما جابوا ولفي إلي	خاييين يا ظلام
ترى الفرغة چوت	گلبى چوي

وفي الأفراح والأعراس يترنمون مع ناظم الغزالي وهو يغني:

طالعة من بيت ابوها رايحة البيت الجيران

والعجيب أن يهود العراق ما زالوا يرددون اغنية صديقة الملاية :

يا صياد السمح صيد لي بُنيّة عجب انت حضيري وانا بدوية

أو نسمعهم يرددون أغنية سليمة مراد: "نوبة مخمرة ونوبة مغشاية...". وهم لم يشاهدوا في اسرائيل لا صياد سمك ولا يوجد قريهم بدوي، والخمار أصبح اليوم في عداد خبر كان. ولكنها الأغاني تنقلك الى اجواء الطفولة والشباب السحرية وتجعلك تعيش ذكرياتها الحلوة مرة اخرى. ولا ادري لماذا كان والدي يحب ترديد اغنية عراقية قديمة تحتج فيها الفتاة على تزويجها من شيخ هرم، وهو الرجل الشاب الوسيم المتزوج: "أوف يما حيل دگيني شايب ما اريده ابصبي زوجيني"، وبالابوذية: "لاصعد الجبل حميرين، للكا (لألقى) وادور على الولف سنتين، ومالكاه (ولا ألقى) لو خضّر العود بالملح ورگا (ورقه) ذاك اليوم يحن الولف عليا"، وهو في بغداد و"ولفه" بجانبه تحن عليه وترعاه. أما جدتي لوالدي فقد روت لي بأنها كانت قد بكت مع من بكى في وداع مدحت باشا الوالي العثماني الذي أحبه المواطنون لعدالته، وقد كانت تحب انشاد الايات التالية من العصر العثماني: "أحنا الماللي والكيب قاتلينا قَدَموا صحن الحلاوة واسمعوا طقّ النوا". وأنا اسجلها اليوم للتاريخ وإن كنت لا اعلم من هم هؤلاء الماللي، ولماذا يطلبون صحن الحلاوة ولماذا يفتخرون بطقّ النوا؟ ولكنه سحر الأغاني القديمة وما تثيره في النفس من ذكريات.

ان الاغاني العراقية بمجموعاتها وبمواضيعها تعبر عن احساس وامااني الشعب العراقي، وعن حبه أو سخطه وغيرته على الوطن وغضبه على الحكومة او نقده لبعض

التقاليد والعادات، وفيها صور من الحياة الاجتماعية العراقية، وعن لواعج الحب التي اجبتها الحواجز التي تفرق بين الجنسين في المجتمع العراقي التقليدي. انها بكلماتها تعبر عن كل همومه العاطفية والسياسية والاجتماعية سواء بالكلمة المنظومة على أوزان الشعر العربي الفصيح كما نسمعه في بعض المقامات الغنائية او كانت منظومة شعراً عاماً باللهجة العراقية الشعبية كما نرى في المواويل المؤلفة كل واحد منها من سبعة اشطر، وموزونة على بحر البسيط، وكذلك ما تراه في بقية الوان الاغنية العراقية كالابودية والنابل والعتابة والدبكة. وهكذا نجد ان الاغنية العراقية تتناول شتى شؤون حياة الانسان العراقي واهوائه. ففي الغناء الريفي شعر في الغزل والنسيب والغبن والحرمان والرتاء والدموع والحنين. وفي شعر المدينة نجد اضافة الى فنونه في الريف النقد المكشوف الجريء او الرمزي للحكومة او لوزرائها بل ونجد نقدا موجها حتى الى العرش. وعلى سبيل المثال نذكر ما قاله محمد القبانجي في السخط على الملك:

دار الملوك اظلمت عكب الضيا بسروج

من قلة الخيل شدوا على الجلاب سروج

وفي نقده اللاذع لرجال الحكومة العراقية غنى:

وكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم العبيد

عبيد للاجانب هم، ولكن على ابناء جلدتهم أسود

وهو صدى لقول الشاعر غزالة الخارجية تشكو زوجها للحجاج: "أسد عليّ وفي الحروب نعامه". ولكنه كان يغني البيت الثاني في الحفلات الخاصة بعيدا عن اسماع المخبرين:

كلاب للاجانب هم، ولكن على ابناء جلدتهم اسودّ

وقد صدر المنع من الرقابة بالاستماع الى بعض اغانيه واعتقل الاستاذ القبانجي عدة مرات كانت بدايتها حين غنى ينقد تحرير المرأة والحضارة الحديثة:

لبنية بنت البيت گصت شعرها على موده تمشي دلوع عافت سترها

ومثل هذا المنع جري مع المطرب الريفي حضيري ابو عزيز، فقد منعت له عدة اغان من التسويق او من اذاعتها في الراديو لتعرضها للحكومة ولموظفيها ولتنفسي الرشوة في دوائرها، مثل:

١ . يا بو البشت بيش ابلشت .

٢ . عمي يا بو التموين مشّ العريضة .

٣ . شيريد مني المختار .

اما المونولوجست والناقد الاجتماعي والسياسي الشهير عزيز علي الذي كان اذا غنى مونولوجا جديدا باتت بغداد ساهرة تسمعه، ثم تسمع في صباح اليوم التالي الكثير ممن حفظها وهو يردددها في سيره في طريقه الى العمل لأنها "على جرح الغلب" وتكاد تلحق بقول المتنبي: "اذا قلت شعرا اصبح الدهر منشدا"، وما أكثر

المونولوجات التي أَلفها في النقد الاجتماعي، كمونولوج "القبول": مالي راحه بيتي
بلوى بلنتي مراتي، ومونولوجه، "دكتور":

يا ناس مصيبه امصيبتنا نحجي تفضحنا مصيبتنا

نسكت تكتلنا علّتنا بس وين انولي وجهتنا

ومونولوجه :

شوباش شوباش - كلفتنا المدنيه بلاش الخ

وليس مثيرا للعجب عندي أنه بعد مرور أكثر من خمسة وخمسين عاماً على هجرة اليهود من موطني العراق سابقاً، والاغنية العراقية لا تزال حيّة في نفوسهم. فيهود الأندلس الذين طردوا منها مع إخوانهم المسلمين عام ١٤٩٨ من إسبانيا، ما زالوا يغنون أغانيهم بلغة اللادينو الاسبانية التي تكلموا وغنوا بها في عصور الاندلس الزاهرة ايام فاح الطيب من زهور غصنها الرطيب، وأشادوا حضارة هي أساس الحضارة الغربية الحديثة.

لذلك لا أرى عجباً ان نسمع اليوم مغنّين من أصل عراقي ولدوا في اسرائيل وخارج العراق وهم الجيل الثاني والثالث من المهاجرين اليها والذين لم تتكحل عيونهم برؤية العراق، وان نجدهم يحترفون الغناء العراقي بلهجاته البغدادية والريفية والبدوية، بل نجد بينهم عازف الربابة ايضا. هذا وما زلنا نجد من بين المواطنين اليهود ممن هُجروا عن العراق من يكتب الاغنية العراقية ومن يلحنها حسب انغام المقامات العراقية المألوفة التي ما زالت تغنى من راديو صوت إسرائيل ومن محطات التلفزيون فيها وفي الحفلات الغنائية التي يحييها العراقيون في قاعات الاعراس وفي

الحفلات وفي مركز تراث يهود العراق في أور - يهودا ويغني فيها المغنون، آنذاك نجد القاعة تغصّ بروادها ممن ولدوا في العراق كباراً كانوا ام صغاراً وبرفقتهم احياناً اولادهم. وقد قام بعض المغنين والملحنين اليهود المتدينين باقتباس الألحان العربية ومن بينها الألحان العراقية في أغانيهم الدينية باللغة العبرية في الكنس والاحتفالات الدينية ومن محطات الراديو والتلفزيونات المحلية. ونجد المغني في هذه الأغاني والتسايح الدينية يردد كلمة "يا إيلي" باللغة العبرية، أي "يا إلهي"، بدلا من "يا ليلي" العربية. اما الحفلات التي يقيمها هؤلاء في بيوتهم فإن الحاضرين المحتفين يحبون الإستماع الى اغان من الفولكلور العراقي بالإضافة الى أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، فيطرب الحاضرون ويعلو التصفيق. فإذا كان هذا ما يحدث بين افراد الجالية اليهودية من مواطني العراق سابقاً في اسرائيل، فما يحدث للمهاجرين العراقيين في اوربا او دول امريكا وفي غيرهما، فحدث ولا حرج. واليوم نشاهد في إسرائيل، بعد أن صارت تؤمن بالتعددية الثقافية وعدم جدوى صهر الشعب اليهودي في بودقة ثقافة شرق أوربية، مدارس لتعليم العزف والغناء العربي وتطعيم الغناء العبري به، وتقيم المتاحف والمؤسسات الثقافية المختلفة المعارض لآلات العزف الشرقية والدورات التعليمية المختلفة يدرس فيها ليس أبناء المهاجرين من البلدان العربية فقط بل ومن مواليد البلاد من أصل أوربي أيضاً، ويقف على رأس هؤلاء المطربون والمطربات والموسقيون من أصل عراقي من أمثال أبيعيزر - أبو العز ويثير دلال العازف الشهير على العود بمرافقة مغنين من عرب إسرائيل.

حدثني عام ٢٠٠٢ الصديق عزرا دينس (دنوس) وهو من أصل يهودي عراقي نزيل لوس أنجلس اثناء زيارتي له مع الصديق فكتور عوزير المولع بالغناء العراقي، انه اشترك في حرب الأيام الستة في صحراء سيناء وكان يحمل معه الكثير من علب

الكوكاكولا وعصير البرتقال والمعلبات التي كان المحاربون في أشد الحاجة إليها، وبلغ في سيره موقعا فيه بعض الأسرى المصريين، فقدم لهم بعض العلب، ولكن بعض الجنود من أصل عراقي اعترض قائلا: "لماذا تعطي علينا لهؤلاء الذين قتلونا واغتصبونا في الفرهود (مذبحة يهود بغداد عام ١٩٤١)؟ فأجابهم دينس قائلا: "هؤلاء مصريون وعندهم أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، ولا شأن لهم بالفرهود!"، وعند ذلك وافق باقي الجماعة على توزيع العلب على الأسرى المصريين أيضا. وما ان أكلوا وشربوا حتى أخذ الجنود اليهود بالغناء مع الأسرى المصريين الأغاني المصرية المحببة لديهم. ثم حاول بعض العراقيين الغناء مع المصريين الأغنية العراقية التي غنتها أم كلثوم أثناء زيارتها للعراق وهي "قلبك صخر جلمود ما حن عليًا". ولما غنى أحد الأسرى المصريين في ذلك الموقع قصيدة أحمد شوقي الخالدة التي غناها المطرب عبد الوهاب في حضرة الملك فيصل الأول في بلاطه:

"يا شرعا وراء دجلة يسري بدموعي تجنبتك العوادي"

جرت دموع الجنود اليهود من أصل عراقي مع دموع الجنود المصريين، وتناسوا الحرب وولاياتها". وهذا خير مثال على تأثير الغناء على الإنسان، فهو يؤاخي بين الجنود المتحاربين ويجعل من الأعداء أصدقاء.

رحم الله الصديق الوفي الأستاذ الشاعر إبراهيم عوبديا، لقد كان محبا للعراق وأهل العراق وأغاني العراق ولهجتها الإسلامية والبدوية وخلدهما في كتيبه ودواوينه وتاريخ حياة المغنين والمطربين العراقيين للأجيال القادمة. وكنت آمل أن يتفرغ إلى تدوين ونشر الأغاني التي نظمها وغناها يهود العراق بعد هجرتهم إلى إسرائيل احتجاجا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة آنذاك وعلى تهجيرهم بمثل هذه السرعة قبل أن تنهياً إسرائيل لاستقبالهم بصورة لائقة.

توفي المرحوم وفي نفسه شوق إلى زيارة العراق ومرتع طفولته في البصرة ومقيل شبابه في بغداد ولكن "تجري الرياح بما لا تشتهي السفن". فوداعا يا شاعر العراق أيام زمان، حين كان الزمان زمان والناس ناس!

يا حادي العيس عرّج كي أودعهم يا حادي العيس في ترحالك الأجل!!!

أورشليم- القدس، كانون الثاني ٢٠٠٧

صالح وداود الكويتي، عاشقان من الكويت

الثلاثاء ٢٣ فبراير / شباط ٢٠١٠

الموسيقى كما يعرفها القدماء، هي "الغناء" وهو لغة الروح أخرجتها النفس الانسانية نغما موسيقيا عندما عجزت الكلمات عن الافصاح عنها، وذلك بمصاحبة الآلات الموسيقية. وفي الرسالة الخامسة من القسم الرياضي، عرف "اخوان الصفا واخلان الوفا"، في رسائلهم الفلسفية التي حاولوا فيها تلخيص الفكر والعلوم الانسانية المعروفة في عصر عولمة العلوم في العصر العباسي الذهبي، الغناء بأنه "فضيلة يتعذر على المنطق اظهارها ولم يقدر على اخراج العبارة، فاخرجتها النفس لحنا موزونا"، فالغناء والموسيقى هما حاجة نفسية "للشعور بالفرح والسرور في الاعراس والولائم والدعوات وعند الحزن والغم وفي بيوت العبادات وفي الاعياد"، وقالوا بأن "الهيولي [كلمة يونانية بمعنى: المادة الأولى] في الصناعة الموسيقية كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين وتأثيراتها فيها مظاهر كلها روحانية أيضا"، ثم اضافوا بأن اصحاب النواميس "استعملوا الموسيقى "في الهياكل وبيوت العبادات وعند القراءة في الصلوات وعند القرابين والدعاء والتضرع والبكاء كما كان يفعل داود النبي عليه السلام عند قراءة المزامير وكما يفعل النصارى في كنائسهم والمسلمون في مساجدهم من طيب النغم ولحن القراءة فان كل ذلك لركة القلوب ولخشوعها والانقياد لأوامر الله تعالى... فمن الألحان ما يعزي النفوس ويخفف ألم المصائب ويسلي عن الاشتياق ويسكن الحزن..." (ص ١٣٢-١٣٦)، من رسائل إخوان الصفا). ولم يكن في الحضارة اليهودية والمسيحية صراع بين الداعين الى النهي عن الغناء والموسيقى وابطاحتهما.

وفي العصور الاسلامية ازدهر الغناء. ويدعي بعض العلماء العرب إن ازدهار الغناء والموسيقى في مكة والمدينة جاء نتيجة لرغبة الخلفاء في إلهاء اهلها وإبعادهم عن الطموح السياسي والتطلع الى الخلافة. وفي "كتاب الأغاني" لابي الفرج الاصفهاني، ما يكشف عن ولع الخلفاء والعلماء العرب بالغناء والموسيقى في فترة بلغت فيها الحضارة الاسلامية أوجها. ولكن المتصوفة المسلمين اباحوا الغناء والموسيقى والرقص في طرقهم الصوفية في محاولتهم لبلوغ الوجد والفناء في الخالق وخاصة في الفترة العثمانية من حكم البلاد العربية.

وبسبب تحريم الغناء والموسيقى من قبل العلماء المسلمين في الكثير من البلاد العربية انحصر الغناء والموسيقى بين يهود العراق خاصة، لان هذين الفنين كانا من الفنون الدينية كما هو الامر عند المسيحية، ولذلك قال الأديب الكبير توفيق الحكيم بأن الدين عند الأوروبيين هو الفن وأن الفن عند العرب هو الدين. ولذلك نرى يهود العراق يتفوقون في الغناء والموسيقى منذ العصر العثماني خاصة. وكان عصرهم الذهبي في فترة الحكم الملكي الهاشمي في العراق. فلما قامت دولة اسرائيل اضطر معظم اليهود العراقيين بما فيهم الموسيقيين والمغنين، بسبب المد القومي المتطرف فيها، الى مغادرة وطنهم الذي عاشوا فيه خلال ٢٥٠٠ عاما، وبعد التهجير أو الهجرة الجماهيرية ليهودها شعر هؤلاء بالفراغ الروحي في الدولة الجديدة التي قدموا إليها وذلك نتيجة للثقافة والفنون الاوربية التي سادت بين مؤسسي دولة إسرائيل، فقد حاول هؤلاء دمج جميع القادمين الجدد من البلدان العربية في الثقافة الشرق - أوروبية التي نشأوا عليها. ولكن صهر ثقافة يهود البلاد العربية في بودقة الثقافة الأوروبية بين ليلة وضحاها باءت بالفشل، فاضطر القائمون على الثقافة والتعليم الى اللجوء الى التعددية الثقافية في المجتمع الاسرائيلي واتاحت لكل فئة من القادمين

الجدد حرية تشجيع تراثها الفني والثقافي الذي أتت به من مواطنها الاصلية. ويقال إن الحكومة العراقية قررت بعد اعلان تسقيط الجنسية العراقية عن أولئك اليهود العراقيين الذين اجبروا على مغادرة العراق عدم السماح لاثنين من الموسيقيين اليهود بالسفر إلا بعد أن يقوموا بتعليم فن العزف علي السنطور والجوزة لاثنين من الموسيقيين العراقيين اللذين انشأ فيما بعد فرقة للجالغي البغدادي كما قاما بتدريس فن العزف على هاتين الآلتين في المعاهد الموسيقية. وقد اعتمدنا في الفقرة اعلاه على ما ذكره مؤرخ الموسيقى العراقية النزبه، الاستاذ حسين السكاف في مقابلة اجراها مع الموسيقار باهر هاشم الرجب ابن عازف السنطور العراقي هاشم الرجب، في الصحيفة الالكترونية الحوار المتمدن - العدد ١٣٠٢، بتاريخ ٣٠/٠٨/٢٠٠٥ حيث قال طاهر الرجب بالحرف الواحد:

"وللأمانة الفنية والتاريخية لا بد من ذكر حقيقة هامة، وهي ان الفضل في تعلم والذي العزف على آلة " السنطور " والفنان شعوبي ابراهيم على آلة " الجوزة " يعود الى رئيس الوزراء نوري السعيد الذي كان يعيش المقام أيضاً، فلقد أمر بتأخير تسفير اليهوديين العراقيين (يوسف بتو وصالح شُميل) عازفَي (السنطور والجوزة) إلى فلسطين المحتلة (إسرائيل) إلا بعد أن يعلمًا هاشم الرجب وشعوبي العزف على الآلتين. وهكذا كان نوري سعيد سبباً مباشراً في بقاء هاتين الآلتين في تراثنا. وللتخفيف من شدة الحنين الى العراق بين اللاجئين اليهود من البلاد العربية، فقد قرر مؤسس ومدير القسم العربي في دار الاذاعة الاسرائيلية الاستاذ شاول بار- حايم العراقي الأصل تكريس برنامج أسبوعي بعنوان "من الغناء العراقي" قدمه الاستاذ شفيق كباي والمرحوم نعيم توينه، غنى فيه المغنون والموسيقيون العراقيون منذ عام ١٩٥١ والى اليوم، وطالب بمساواة راتبهم براتب الموسيقيين والمغنين من أصل

أوروبي، وكان العراقيون يستمعون الى هذه البرامج الموسيقية بشغف بالغ لشفاء الحنين والغليل الى مسقط رأسهم.

وكان على رأس هؤلاء الموسيقيين الذين عملوا في دار الاذاعة الاسرائيلية الأخوان صالح الكويتي (١٩٠٨-١٩٨٦) وداود الكويتي (١٩١٠-١٩٧٦)، وهما من مؤسسي جالغي بغداد منذ تأسيس الإذاعة العراقية في بغداد عام ١٩٣٦، وكانا من كبار الموسيقيين والملحنين العراقيين فيها الى هجرتهما عام ١٩٥١. وقد اطلق على عائلتهما العراقية البصراوية الأصل، اسم "الكويتي" لانهما من مواليد الكويت، فقد ولد صالح عام ١٩١٠ وولد اخوه داوود في عام ١٩١١، وبقيت العائلة تعيش في الكويت في الحي اليهودي المعروف في شارع "الغربي" حيث كان الاطفال اليهود يدرسون الديانة اليهودية في كتاب الكنيس اليهودي في ذلك الحي. وقد بدأ ولوعهما بفن الموسيقى والغناء في صغرهما قبل بلوغ صالح سن الثامنة وكان الاخوان يقومان بصنع الآلات الموسيقية البدائية والعزف عليها، ثم اهدى اليهما عمهما آتي العود والقانون كان قد اشترهما في اثناء رحلة له الى الهند، وشرعا في العزف عليهما، فلما رأى والدهما ولعهما هذا بالموسيقى ارسلهما ليتعلما على الموسيقار الكويتي الكبير خالد البكر الذي علمهما الأغاني الكويتية والبحرينية والحجازية واليمينية، أما الغناء العراقي والمصري فقد تعلماه عن طريق الاستماع الى الاسطوانات المسجلة. وكانا يميزان وهما في صباهما بين الفوارق البسيطة لهذه الانواع العربية في الموسيقى والغناء، وهو امر يحتاج الى موهبة موسيقية فريدة من نوعها. وقد مهر صالح في العزف على الكمان أما داوود فقد مهر في العزف على العود والغناء وشاركا في الحفلات الغنائية التي كانت تعقد في الكويت وفي اقطار الخليج العربي. فلما ذاع صيتهما سافرا في عام ١٩٢٧ مع المطرب الكويتي عبد اللطيف الكويتي إلى مدينة

البصرة التي نرح عنها والداهما الذي عمل في التجارة، لتسجيل بعض اغانيهما على اسطوانات، ولدراسة فن المقام العراقي بفنونه المختلفة. وبعد عودتهما الى الكويت قررا النزوح الى البصرة عام ١٩٢٨ ومنها انتقلا الى بغداد عام ١٩٢٩، وهناك فتح لهما باب دنيا الفن على مصراعيه للقاء كبار المغنيات والمغنين العراقيين مثل سليمة مراد المطرب الكبير محمد القبانجي وكبار شعراء الشعر الشعبي والغنائي من امثال الشاعر ابراهيم وفي والملا منفي الشيخ عبد العباسي وعبد الكريم العلاف، وسرعان ما اصبحا من كبار رجال الموسيقى العراقية وملحنيها. وعندما زار كل من أمراء الطرب عبد الوهاب وأم كلثوم العراق، في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، تعرفا عليه وتأثرا بالحانه العراقية وغنت ام كلثوم من الحانه:

قلبك صخر جلمود ما حن عليا / وانت ابطرب وابكيف والبيه بيّه.

وكانت اغلب اغانيه في الحب ولواعجه، كدأب العراقيين عامة. وقد قام مركز تراث يهود العراق في مدينة أور-يهودا بمبادرة البروفيسور أمنون شيلوح مؤرخ الموسيقى العربية من الجامعة العبرية بتسجيل حفلات لهما وعقد مقابلات عن فنيهما على اشرفة ما تزال محفوظة في مكتبة المركز.

ومع ذلك فقد بقي آل الكويتي مخلصين للكويت وأميرها وكان الأخوان الكويتي يذهبان بين الحين والآخر لاحياء حفلات في بيوتات وجهائها وخاصة في قصور العائلة الحاكمة التي كانت تكرم وفادتهما، وكان هذان الأخوان يحتفیان بالكويتيين الذين كانوا يزورون بغداد، وبقياً على صلة وثيقة باصدقائهما، ولكن اليوم لم يبق للعائلة بعد هذه السنين الطويلة اصدقاء يستطيع الابناء والاحفاد تذكرهم، وان كانت امنية ابنه شلومو الكويتي زيارة الكويت والوقوف على آثار نشاط والده على الفن

الموسيقي والغنائي الكويتي ومشاهدة الاماكن التي كان والده يحن اليها ويكثر الحديث عنها بشوق ويذكر آل الصباح والاصدقاء من خلان الوفاء بالخير .

ومما يعد من مناقب الفقيدين انهما طورا الأغاني الكويتية وألحانها وجعلها مستساغة للاذن العراقية. وخير مثال على ذلك هي قصيدة البهاء زهير:

يعاهدني: لا خانني ! ثم يَنْكُثُ / وأحلفُ لا كَلَّمْتُهُ ! ثم أَحَثُّ ، التي غناها بلحن كويتي، فاشتهرت في العراق وغنتها المطربة الكبيرة سليمة مراد وسجلتها على اسطوانة في الثلاثينيات من القرن الماضي. كما غنى اخوه داود الكثير من الاغاني الكويتية على خشبات الملاهي العراقية، وما زالت عائلة الكويتي تفتخر بحبها وتعلقها بالكويت مشيرة الى أن صالح الكويتي اطلق اسم "صباح" على ابنه البكر تيمنا باسم العائلة الكويتية الحاكمة التي كان يحمل لها كل الاحترام والود، وبقيت عائلة الفقيدين متمسكة باسمها بفخر واعتزاز حتى بين الابناء والاحفاد، واصبح اليوم اسمها مرفوعا على احد شوارع تل ابيب الذي يحمل اسم الاخوين الكويتيين، تخليدا لمواهبهما.

وكان دأب صالح في جميع المقابلات في الاذاعات والصحف الاشادة بحبه للكويت وشعبها المضيف ومناظرها الخلابة، وكان يقول دائما أنه كان يشعر هناك بالأمن والطمأنينة حتى أن اهلها كانوا يتركون ابواب دورهم مفتوحة دون خشية السرقة، وكان يقول عن الكويتيين ذوي القلوب الصافية بأنهم شعب طيب السريرة يهوى الموسيقى وإنهم كانوا يستمعون الى الموسيقى بكل كيانهم ومن اعماق قلوبهم وليس بأذانهم. وكان طوال حياته يحن الى الكويت وقد ورث هذا الحب والحنين ابنه شلومو والذي أصبح حلمه زيارة الكويت يوما ليحقق حلم والده. ولصالح الكويتي خمسة أولاد، ولا تزال زوجته مزال (حظ) على قيد الحياة وتعيش في تل ابيب مع العائلة.

لقد عانى يهود البلاد العربية بعد هجرتهم الى اسرائيل من شظف العيش فيها، وسكونا الخيام وعانوا من البطالة والاعمال اليدوية الدنيئة بعد ان كان اغلبهم يعمل في التجارة والمحاسبات، فقد كانت رغبة الحكام في بلادهم الاصلية اغراق اسرائيل بالمهاجرين الجدد لكي تنهار اقتصاديا، وكان الاغلبية من السكان الغربيين ينظرون اليهم كمن يحمل ثقافة الاعداء ولغتهم وتقاليدهم، واتهموهم بالكسل والتخلف الثقافي، فحاولوا دمجهم بالمجتمع الأوروبي، فلما عجزوا عن صهرهم ببودقة الثقافة الشرق - اوروبية، لجأوا الى السياسة التعددية في الثقافات، فحافظ يهود البلاد العربية على تقاليدهم ووعاداتهم ومآكلهم، واصبح المجتمع الاسرائيلي اليوم منفتحا على الثقافة العربية وعلى فنونها الموسيقية والغنائية التي اخذت تغزو المجتمع الاسرائيلي، فهناك اليوم مدراس لدراسة الموسيقى والغناء العربي والرقص الشرقي يشارك فيها اليهود الى جانب العرب في اسرائيل، كما اصبحت المآكل الشرقية مستساغة وشائعة في المطبخ والمطاعم الاسرائيلية.

كان الكويتيان من واضعي اسس الموسيقى الكويتية والعراقية الحديثة كما هي عليه اليوم. وقد سار الملحنون الكويتيون والعراقيون على خطاه، ولم تتغير كثيرا منذ ان غادر العراق والى يوم وفاته عام ١٩٨٦. وقد مدحه كبار اساتذة الموسيقى العراقية امثال عبد الرزاق العزاوي وحسن اسماعيل الأعظمي وعادل الهاشمي واعتبروه من أعظم الملحنين العراقيين الذين انجبههم العراق في العصر الحديث ومن ملحني الأغنية العراقية الحديثة. ومما يدل على مكانته السامية في قلوب العراقيين خاصة والعرب عامة، أن معهد الدراسات الشرقية والافريقية لجامعة لندن احتفل عام ٢٠٠٨ بالذكرى المئوية لميلاده، وهي خطوة مباركة نحو ردّ الاعتبار ليهود العراق الذين اخلصوا في خدمة العراق وما زالوا يحنون اليه.

ليالي العراق الملاح في مهاجر العراقيين

شموئيل موريه

الإثنين ٧ فبراير ٢٠١١



فرقة دار الاذاعة العراقية عام ١٩٣٦

من اليمين الى اليسار: ابراهيم طقو - تشلو، داود الكويتي - عود، يعقوب العماري -
ناي، محمد القبنجي - قارئ المقام، صالح الكويتي - كمان، يوسف زعرور - قانون،
وحسين عبد الله - دنبك

إلى ذكرى الصديق الراحل نعيم حلبى

عندما نفى جيش نبوخذنصر اليهود الى بابل بعد ان خرب الهيكل الأول واحرقه عام ٥٨٦ ق.م.، سمح لهم الغزاة المنتصرون بمصاحبة آلاتهم الموسيقية التي كانوا يعزفون عليها في تراتيل صلواتهم ومزاميرهم في الهيكل الذي بناه الملك سليمان النبي. وهناك جلس اسرى السبي البابلي العاشم على ضفاف انهار بابل باكين نائحين، متذكرين ايامهم الزاهرة في صهيون-اورشليم، فعلقوا على أغصان صفافها الغض اعوادهم وكنانيرهم، ليلتقطوا انفاسهم على ضفافها بعد عناء النفي سيرا على الاقدام خلال اسابيع طويلة وسياط الغزاة تلهب ظهورهم. وهناك طلب منهم جنود مملكة بابل القساة بعنجهية المنتصر ونشوته، ان يترنموا بترانيم صهيون ليطربوهم. صدمهم هذا الطلب الباغى، وأبوا بأنفة وكبرياء الاستجابة لأعدائهم وأعولوا باكين، "كيف نرتم ترنمة الرب في أرض غريبة؟". وعملوا بنصيحة النبي إرميا، "واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها الى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام". وهكذا الفلحوا في الصمود أمام الاندماج والذوبان في المجتمع الجديد والبقاء طوال هذه القرون الطويلة محافظين على دينهم وديانهم.

وبعد ٢٥٠٠ عام من العيش على ضفاف انهار بابل الثرة ومائها الفرات النмир، وبعد أن كانوا قد ساعدوا العرب الفاتحين في احتلال فارس واسقاط عرش كسرى الساساني في العراق، وهو الامر الذي لم ينسه الفرس ابدا، وما زالوا يعيرون به يهود العراق الى يومنا هذا، حتى كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وصمد اليهود هذه المرة، فانتقمت الحكومة العراقية من اليهود، بقوانين لم يحلم بها لا فرعون ولا

هامان ولا نمرود، قوانين اطارت صواب كل من ابتلع صنارة قانون التسقيط ، ثم تلاها في عام ١٩٥٠ قانون أمر من سابقه، وهو قانون تجميد اموالهم المنقولة وغير المنقولة، وطردتهم على متن الطائرات التي استأجرها صباح نوري السعيد لحمل اليهود العراقيين المسلوبي الصبر والقلب والمال من هذه الداهية التي دهاهم بها داهية العراق نوري السعيد، سعيدا بتقاسمه أجور السفر مع ابنه ومع وزراء آخرين، ثم فرهدوا مع العامة، بيوت اليهود وقصورهم التي تركوها عام ١٩٥١ بما فيها من الأثاث والمفروشات. ولكنهم لم يدركوا بأن ذلك اليوم كان اليوم الذي تحققت فيه نبوءة كليم الله بحمل بني اسرائيل على أجنحة النسور. وطلب الموسيقيون والمغنون اليهود من وزارة الداخلية حمل آلاتهم الموسيقية معهم آملين أن يأخذوها معهم كما فعل آجدادهم في سبي بابل ايام نبوخذنصر، حين حملوا أعودهم وعلقوها على صقفاص انهار بابل حزنا ويأسا. أما موسيقيو العراق الحديث فقد حاولوا أصطحاب آلاتهم الموسيقية العزيزة عليهم كفلذات اكبادهم، آلات العود والكمان والسنطور والقانون والمزمار والجوزة والدف والنقارات، فإذا بقلوب جلاوزة التسقيط أقسى من الصخر الجلمود ومن قلوب جنود نبوخذنصر، فلم يحنوا عليهم ورفضوا طلبهم باخراج آلاتهم الموسيقية من العراق بدعوى انها أصبحت، بعد قانون تسقيط الجنسية العراقية وتجميد أموال اليهود المنقولة وغير المنقولة، ملكا للحكومة العراقية، ولا يمكنهم التصرف بها والرحيل معها الى فلسطين المحتلة .

وأمام ضباط الكمارك قساة القلوب كعشاري الجليل بل كجنود فرعون الذين طاردوا بني اسرائيل بين لبحر القلزم (البحر الأحمر) الذي فرقه موسى الكليم بعصاه في سلسلة من المعجزات التي عجز عنها من جاء بعده. وفي مطار بغداد وقف

الموسيقيون وعلى رأسهم صالح وداود الكويتي بوجوه وجلة، واجسة، مكفهرة "وقد تهدم منهم ثلثين الحيل"، و"روحهم ترف وتغيب" بعد أن أنكروا فضلهم على المقام العراقي والأغاني العراقية الشجية، متحسرين على الماضي ومتذكرين أيام عزهم عندما كانوا يحيون الليالي الملاح في قصور زعماء العرب في افراحهم واعيادهم. فتح الجلاوزة بعنف وبكراهية مسعورة حقائق الصفيح فعثروا على نوتات أغاني الاخوين الباكين، فصادروها شامتين بملكي الطرب العراقي العربي الاصيل، ومقاماته التي أغنوها بالحنهم الشجية، وشيعوهم بققهات الشماتة والاستهزاء "ولك حسقيل، قلنالك سلم!". ثم جاء دور ملك النافخين في المزمار السحري، البير الياس، ومعه علبة فيها ثلاثة مزامير من قصب أهوار العراق الرطيب. فلما فتح العلبة هال رجل الكمارك ما يرى، ويا لهول، ثلاثة انايب وفيها خزوق مستديرة على ظهرها، وتبدوا مربية، لعلها آلة تجسس من اختراع زعماء صهاينة "التنوعة" وهي الحركة الصهيونية السرية العراقية التي ادارت فيما بعد، حركة الهجرة من كنيس مسعودة شمطوب مع موظفي وزارة الداخلية، فسأل بغضب، وقد انتفخت أوداجه:

"-ولك هاي شنو؟ هاي تريد تضرب بها دربين وتتجسس بيها على العراقيين، يا صهيوني يا خائن؟".

اجاب البير الياس وقد امتقع وجهه وشعر بأن عليه ان يتخلى عن فلذات كبده "المرضض"،

-والله يا عمي هاي مزمار يعني مطيح"،

-ولك يا مطبخ، هذا لازم يكون سبطانة بندقية لو دريين للتجسس، لا هذا طويل ما تكدر تاخذه

وياك"،

-زين عمي انطيني الثاني الاقصر منه".

-لا هذا هم طويل شوية وهم ينضرب بي دريين وتكدر تتجسس بيه"،

-زين، خاطر الله، انطيني الثالث الصغير، ميطلع طوله شبر، بعده زغIRON وما يعرف يتجسس!

ضحك الموظف ضحكة بلهاء وكشر عن انيابه فبدا كأنه ليث يبتسم، وسمح لصاحبنا بأخذه معه إكراما منه وهو يشعر بأريحية العفو عند المقدرة.

أما الوحيدة التي يقال انها افلحت في اخراج كمجتها ومصاحبها لها في الطائرة الى مطار تل أبيب فقد كانت اخت فيوليت زوجة الشاعر شلومو شبيرو، التي عشقت العزف على الكمان وصحبتة معها مستميتة، ومصممة على اخراجه معها بكل ثمن، قال الكمرکجي:

-إي والله خوش بسته، تريدين اتهربي اموال الحكومة؟

قالت له باصرار وأدب:

-لا والله عمي، هاي ورقة وزارة الداخلية ، "لا مانع من الاخراج"،

-آني ما اعرف ورقة شمركة، آني اعرف انت تريدين اتهريبها وتبيعي املاك الحكومة العراقية باسرائيل المزعومة، واي واي، لا لزم اصادرها،
سمع احد الضباط كلامهما فتقدم اليهما وقال لها بشفقة، وليس تريدين تاخذيهما وياج يا أختي؟

-آني احب الموسيقى وما اقدر اعيش بلا هل الكمنجة!

-زين اذا هيج، اشو ذكي عليها، واذا ما عرفتي اذكين عليها نصادرها،

فتحت بيت الكمنجة الفاخر المبطن بالقماش الحريري الوردى، ودهنت القوس، وصارت تعزف على كمانها وقد اطبقت جفونها في سكرة عاطفية حاملة، لحنا ما ان سمعه اليهود الذين اطارت هذه الاحداث صوابهم، حتى جمدت دماؤهم في عروقهم متوقعين الويل والثبور. ثم سكن روعهم عندما علت ابتسامة الدهشة والاعجاب شفاه الكمركية ورجال الشرطة لهذا اللحن الجديد، ولم يفهموا لماذا بدا الخوف والقلق واصفرت وجوه المطرودين لهذا اللحن الحنون، والذي اقنع موظفي المطار بموهبتها الموسيقية، "واذ خمد الصوت الأخير بمسمع رجال الشرطة عادوا الى رباطة جأشهم وكبريائهم المتناثرة شظايا صارخين بصوت عال : "يلله، يالله! ولي من هنا يا يهودية" (من كتاب البستان، لسيجال شبيرا، ترجمة سمير نقاش).

تنفس المطرودون الصعداء إذ لم يدرك المسؤولون ان هذا اللحن الذي عزفته الفتاة الصغيرة كان "نشيد الأمل" (هتقوا أو باللهجة الاشكنازية : هتكفا)، وهو النشيد الوطني الصهيوني لدولة اسرائيل الفتية. وعندما صعدت الفتاة سلم الطائرة، علت

على شفيتها ابتسامة انتصار وتشرف، لقد عزفت النشيد الوطني الصهيوني الاسرائيلي، وهو خير ختام لمرحلة العذاب الطويل من الاهانات والتحقير والطرده النهائي فقد أبدل الاضطهاد والظلم، النشيد الوطني العراقي بالنشيد الوطني الاسرائيلي، عند هؤلاء الذين أخلصوا للعراق العربي وفرحوا عندما كان العراق أول من ابدل أسماء الرتب العسكرية العثمانية الى اللغة العربية الفصحى، ورفعوا وطنهم الى مصاف الدول الحديثة، كانها تقول لهم، مع مجنون ليلى:

دعوني فأرض الله واسعة غدا أبدل أحبابا وأوطانا

وحين وصل القادمون الجدد إلى أرض الميعاد وسكنوا في خيام معسكراتهم المظلمة، كاد هؤلاء المطربون والموسيقيون يموتون جوعا وكمدا في أيام الفقر والعوز والبحث عن عمل يكسبون به لقمة العيش لهم ولأولادهم. وبدل اقواس الكمان وريشة النسور للعرزف على العود، اعطتهم السلطات مساحي العمال وفؤوسهم في عمل موقت، أدمت اكفهم التي لم تتعود على الأعمال الشاقة، وعندها تذكروا انهيار العراق وليالي الجزيرة المقمرة، بكوا وشكوا، فلم يكن لهم حتى اعواد يعلقونها على أغصان أشجار الزيتون والبرتقال التي كان عليهم نكش الاعشاب من حولها تفاديا لشبوب الحريق فيها ايام الصيف المحرقة. بكوا شاتمين نوري السعيد وبن غريون والطائرة التي اقلتهم. أما من ابتسم له الحظ من اصحاب المبادرة منهم، مثل صالح وداود الكويتي فقد فتحا لهما دكانا في سوق "شخونات هتكفا" لبيع ادوات منزلية، ثم اصبح دكانهما مجمعا للموسيقيين والمغنين يزوره كل من يرغب في عقد حفل عائلي. وسافر آخرون الى اورشليم القدس ودقوا باب مبنى إذاعة صوت اسرائيل ليقفوا في طابور

طويل أمام باب مديرها البغدادي الذي تعلم عزف العود على خريجي مدرسة مواسة العميان اليهودية في بغداد. وابتسم الحظ لصالح وداود الكويتي ولألبير الياس، وداود اكرم الكمنجاتي، ويوسف زعرور عازف القانون، وحسقل شبت قارئ المقام، وغيرهم، إذ تعرف عليهم مديرها السيد شأؤول بار- حايم، واحتضنهم وأصرّ على مساواة اجورهم بأجور عازفي السمفونيات في أوركسترا الموسيقى الأوروبية في إسرائيل. وفي حيفا ثابر الشاعر ابراهيم عويديا على احياء الغناء العراقي والمساهمة في تأليف اغنياته العراقية باللهجة الاسلامية وكتبه عن المقام والغناء العراقي عامة.

ورويدا رويدا انتقل المهاجرون من الخيام الى الصرائف ثم الى بيوت من حجر صخور جبال يهودا، بعد ان أصر القادمون من العراق على سكنى المدن القريبة من تل ابيب ورفضوا توطينهم في مستوطنات على الحدود بعيدين عن المراكز التجارية والاقتصادية والعلمية والمدارس العالية، وسرعان ما امتلأت بهم البنوك ودوائر ضريبة الدخل والكمارك والمكوس وإدارة الحسابات وتدقيقها وفتحوا المتاجر والمطاعم ومقاهي الطاولي والدومنة وحوانيت البهارات والعنبة الهندية والطرشي، وتنانير الخبز والكورك العراقي، والتي أطلقوا عليها اسماء عراقية بحتة، فأنشأوا عراقهم الجديد وبغدادهم الجديدة واقتنوا الآلات الموسيقية الشرقية من ايران وتركيا، وأجبروا المشرفين على الثقافة في اسرايل على التخلي عن سياسة صهرهم في بوتقة الثقافة الشرق - أوروبية التي كانت سائدة في السنوات الأولى لهجرتهم .

وعندما طردوا شبح الجوع والفاقة، ظهر أمامهم شبح الظمأ الى تراثهم المهمل يتلوى كالعريد في صدورهم شوقا إلى احياء أدبهم وموسيقاهم وغنائهم العراقي، وأصروا

على الكتابة باللغة العربية والتكلم فيما بينهم باللهجة العراقية اليهودية، وأنشأوا الجمعيات الثقافية التي شجعت الموسيقى والغناء العراقي، هذه الجمعيات التي انتشرت في مهجرهم الجديد كانتشار المآذن في أوروبا وأمريكا. ولعل اعظم انجازاتهم في هذا المضمار هو انشاء صندوق تشجيع التعليم في اسرائيل لدعم الطلبة من يهود العراق وغيرهم بمبادرة مدقق الحسابات السيد عزرا كباي والاستاذ عوبيد بن-عوزير، ومركز ومتحف تراث يهود العراق بمبادرة الوزير السابق مردخاي بن فورات، وجمعية تشجيع الثقافة والفنون من تأسيس نخبة من المثقفين العراقيين الحريصين على تراثهم الثقافي تولاها المحامي مردخاي بيبي ثم عضو الكنيست السابقة نزهت قصاب، ونادي الرافدين في رمات كان من تأسيس إسرائيل شهرباني وحسقل يوجيب، ورابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ومعهد ابحاث الحركة الصهيونية في العراق، من تأسيس ابراهام كحيله ويوئيل زلخه، هذا بالاضافة الى جمعيات اتحاد يهود كردستان ويهود المدن العراقية المختلفة كالموصل واربيل والعمارة والبصرة وتأسيسهم للمكتبات والمجلات والمتاحف للحفاظ على تراثهم. وهذه المؤسسات تهتم بالابحاث العلمية والمحافظة على الفلكلور والغناء العراقي.



شولي - أمسيات عراقية - فرقة موسيقية عراقية تحيي حفلات الحنين الى ليالي العراق المقمرة. من اليمين الى اليسار: الراوي والمؤرخ نسيم دنكور في امسية عن تاريخ يهود العراق وتقاليدهم وعاداتهم، والى يمينه هرصل ساجي- ضابط ايقاع، البير إلياس - مزمار، أ.د. شموئيل (سامي) موريه، المطرب عزيز جلال، فيكتور عيدا - عازف قانون، روني دلال- عازف عود ، شولي كباي، منظم أمسيات الذكريات العراقية، يهودا معلم - دف بالصنوج، إلياس زبيده-عازف الكمان، في قاعة بيت شموئيل في أورشليم القدس، كانون الثاني، ٢٠١١

وفي الآونة الأخيرة تأسست جمعية "شولي الثقافية العراقية" الفريدة من نوعها، وشولي كباي هو من مواليد البلاد من ابوين غادرا العراق في اوائل الخمسينات وأن لم يكن من قراء العربية الفصحى فهو من المتبحرين في العادات والتقاليد الدينية والاجتماعية ليهود العراق. وقد جذبت اليها هذه الجمعية التي لم يمض على تأسيسها سوى ثلاث سنوات، المئات من المعجبين الذين يتراوح عددهم بين ٤٠٠ الى ٨٠٠ زائر في

كل أمسية من جميع الاعمار. والجديد فيها انها تعتمد على طريقة الراوي الذي يروي تاريخ يهود العراق السياسي والديني والتقاليد والعادات وفنون غناء الأغاني الدينية والفولكلورية العراقية بمصاحبة جوق موسيقى من كبار الموسيقيين. وفي كل حفل يدعى أحد كبار المغنين ليغني الأغاني المتعلقة بموضوع المحاضرة. أما كلمات الاغاني والمقامات العراقية فتعرض بحروف عبرية وبترجمة عبرية لها تظهر على شاشة كبيرة من وراء الجوق الموسيقي. ويصاحب الاغاني عرض لصور الأماكن والمحلات والمدن والجسور والشخصيات العراقية حسب موضوع البحث، وتعد هذه الجمعية حفلاتها في كبريات القاعات الرئيسية في المدن الاسرائيلية المختلفة تحت عنوان "دورة الحياة في طوائف يهود العراق... أمسية دموع وعواطف واعتزاز"، بإدارة شولي كباي وهو المسؤول عن إدارة الصوت والانارة والاعلانات.

يبدأ الراوي نسيم دنكور، (وهو مدرس ومربي هاجر من العراق في سن السادسة ونشأ في مخيم القادمين الجدد، ثم عمل موظفا في احد البنوك وهو اليوم يشغل وظيفة مرتل ترانيم دينية ورجل دين ورئيس جالية "ابناء دجلة والفرات" في الخضيرة) حديثه عن تاريخ الموضوع الرئيسي الذي يتحدث عنه، ثم يدعو الى المنصة المغني الذي يحيي الحفل كالمطرب ميلو حمامة وعزيز جلال، (وهما من الذين جابوا الجاليات العراقية المختلفة في اوربا وكندا والولايات المتحدة واستراليا)، بصاحبة فرقة العازفين الذين يظهرون في الصورة أعلاه. ولم يبق من المطربين والموسيقيين من الذين قدموا من العراق سوى القليل من المخضرمين الذين عزفوا في دار الاذاعة العراقية في بغداد. وهكذا أفلح منظمو هذا البرنامج المتنقل في مدن اسرائيل في اجتذاب اكبر

عدد من المعجبين واحياء التراث والذكريات الحلوة والليالي الملاح الحنين الى الماضي .

وفي عرض السيد دنكور للأغاني العراقية المتعلقة بمدن وادي الرافدين من الجنوب الى الشمال، يبدأها بأهل البصرة ويصف اخلاقهم وعداتهم، ثم يغني المطرب عزيز جلال بمشاركة الجمهور :

أحيا وأموت عل بصرة، خلت باكليبي حسرة، أحيا وأموت عل لبصرة،
ثم يختمها بأهل الموصل الذين يلعبون القطار وابو حركاتو، وبنهونها بالبيت الغامض
السياق: "سعادتي الماتت، دلال أوي أوي دلال". ثم يروي قصة تأليف أغنية: "ظلام
ما عندكم رحم يا اللي ظلمتوني"، فيقول بان ناظمها هو يهودي من مساجين سجن
ابي غريب اتهم بتهمة الصهيونية ظلما وعدوانا، ثم هربها مع احد السجناء الذين
قضوا مدة محكوميتهم وارسلها الى المغنين اليهود العراقيين في بغداد، فاصبحت
اغنية الاحتجاج على الاحكام الاعتباطية فيها، بقوله :

ظلام ما عندكم رحم يا اللي ظلمتوني بالفرح تقضون العمر واني نسيتوني
جنت ماشي بالدرب صهيوني تهموني وحكمت علي المحكمة وللأبو غريب ودوني
والله لأهجر العراق وما أشوفه بعيني ما أرضى أنا بهل حكم، حكم فرعوني
ومن حين الى آخر يسألني الاعلاميون في برامج الاذاعة والتلفزيون في مقابلاتهم
المختلفة معي، سؤالهم الحائر المتكرر: "كيف تحن الى العراق، حتى بعد ستين
عاما من الفراق؟" فاقول لنفسي وقد تفجرت في قرارة روحي المعذبة ألف ذكرى
والف عاطفة: "والله سؤال غريب لا استطع الإجابة عليه، فالعبرات تغصّ بجميع
الكلمات، فاعذروني!"

نظرة خاطفة عن العرب والمسرح من الجاهلية وإلى القرن التاسع عشر

الثلاثاء ١٢ فبراير / شباط ٢٠٠٨

عندما بدأ المستشرقون الأوروبيون وعلى رأسهم المستشرقون الألمان دراسة نشوء المسرح في الإسلام، توصلوا إلى نتيجة إلى أن العرب عرفت تمثيلات خيال الظل ومسرح الدمى ولم يمارسوا التمثيل البشري سوى في تمثيلات التعزية الشيعية ومن هؤلاء هـ . راينج وجورج ياكوب وجـ . هوروفيتس وبروفر . وردد آراءهم دون تمحيص كل من د . إبراهيم حمادة ود . محمد عزيزة ومحمد عزيزة ومحمد عنبر وعمر الدسوقي وتوفيق الحكيم وغيرهم، وقد أنكر هؤلاء وجود مسرح بشري محتجين بعدم وجود تمثيلات مخطوطة من القرون الوسطى . أما القسم الثاني من الباحثين فقد قالوا بوجود تمثيلات عربية في القرون الوسطى لم تدون لان أغلبها كانت باللغة العامية، وهي مسرحيات مرتجلة . ومن هؤلاء الباحثين البروفيسور يعقوب لاندو ومحمد كمال الدين ومحمد حسين الاعرجي وعلي عقله عرسان وعمر الطالب ود . نادية رءوف فرج وغيرهم . ولعل د . يوسف إدريس القصصي والروائي والكتاب المسرحي المصري الكبير هو من أعظم الباحثين المصريين بل العرب كافة من الذين كتبوا عن المسرح العربي عامة والمسرح المصري خاصة وأعمقهم في فهم المسرح الشعبي المصري وبلور خلاصة ملاحظاته القيمة وقراءاته الواسعة عن المسرح العالمي والشعبي في مقدمته الرائعة لمسرحيته "الفرافير" (الطبعة السابعة: القاهرة، ١٩٨٨ ، الطبعة الأولى: ١٩٦٤)، وأكد على وجود مسرح مصري بقوله: "إنه متى وجد شعب ما فلا بد أن يخلق هذا الشعب فنونا، كافة ألوان وأشكال الفنون، فنونا متميزة عن فنون الشعوب <ال>أخرى ومختلفة اختلاف الحياة عند هذا الشعب وعند ذلك، نستطيع أن نقول إن هناك مسرحا مصريا كائنا في حياتنا وموجودا، ولكننا لا نراه لأننا

نريد أن نراه مشابها ومماثلا للمسرح الإغريقي والأوروبي الذي عرفناه وترجمناه واقتبسناه وعزّيناه ونسجنا على منواله من أواخر القرن التاسع عشر إلى اليوم". ورأى عن حق أن مسرح "السامر" هو "الشكل المسرحي الذي تبلور لدى الغالبية العظمى من جماهير شعبنا في الريف والمدن". وفي بحثه عن المسرح العربي قال إنه يشعر بحدسه أن العرب عرفت المسرح البشري ولكنه لم يستطع مثله مثل باقي الباحثين تقديم الأدلة الدامغة على قيام مثل هذا المسرح إلى جانب "السامر" الذي لا يعرف أصله. ونحن نرى أن حضارة زاهرة مثل الحضارة العربية التي هضمت الحضارات الفارسية والبيزنطية وغيرها من الحضارات التي ازدهر فيها التمثيل لا بد وأنها سمحت بمواصلة التمثيل البشري، على الأقل في الأماكن الشعبية مثل الأسواق والحانات التي يتعاطى فيها الرواد الخمر وتدخين الحشيش. وقد لاحظت أثناء دراستي لمسرح يعقوب صنوع (١٨٣١-١٩١٢) انه يذكر في مسرحيته "موليير مصر وما يقاسيه" (بيروت، ١٩١٢) بأن بين اللاعبين ممثل شعبي يقوم بدور الخلبوص (الراقص والممثل الهزلي) - ففي مسرحيته هذه يقول صنوع بأنه لا يخشى من إضراب ممثليه عن التمثيل لأنه يستطيع أن يأتي بدلهم بـ "عشرين لعيب من أولاد البلد اللطاف". ومن الجدير بالملاحظة أن مصطلح "أولاد البلد اللطاف"، وكلمة "ظراف" وردت في بعض النصوص العربية القديمة والحديثة كصفة للممثلين الشعبيين، على أقل تقدير، منذ على ابن مولاهم الخيالي مؤلف مسرحية "المقامة المختصرة في الخمسين مرة" التي أكتشفها البروفيسور يوسف سدان، معاصر مؤلف بابات خيال الظل محمد ابن دانيال الموصلي (توفي في القاهرة، ١٣١١)، وعبد الرحمن الجبرتي (ت ١٨٢٥) في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" (١٦٨٨-١٨٢١) ويعقوب صنوع (توفي في باريس ١٩١٢) في مسرحيته "موليير مصر وما يقاسيه".

وإذا عرفنا المسرح البشري بأنه المسرح الذي يقوم فيه ممثلون بإعادة تمثيل واقعة أو حادثة حقيقية أو خيالية عن طريق الحوار والحركات والملابس الملائمة واستحضار الماضي في الحاضر أمام المتفرجين إلى جانب مسرح خيال الظل والدمى والتعزية، فسنجد أن الباحثين انقسموا إزاء ذلك إلى قسمين : قسم يُنكر وجود مسرح بشري عند العرب ويدعي وجود مسرح خيال الظل ومسرح الدمى فقط بدعوى أن الإسلام ينهى عن المزاح والمحاكاة وان العرب كانوا بدوًا رحلا وان المسرح لا يقوم على ظهور الجمال وإنما يحتاج إلى بناء ثابت كالمسرح اليوناني. هذا بالإضافة إلى أن الإسلام يحرم الصراع العبثي بين المخلوق والخالق والتمرد على القضاء والقدر، وهو موضوع يدور حوله الصراع الدرامي في المسرح اليوناني والأوروبي.

أما المستشرق الانكليزي وليم لين فقد ذكر في كتابه *Manners and Customs of the Modern Egyptians* فيحدثنا عن تمثيلية موسمية تعرض في موسم وفاء النيل عندما يبلغ فيضانه أوجه (في شهر أكتوبر الموافق لشهر مسرى القبطي من كل سنة، وذلك قبل بناء السد العالي)، ويتمثل في الحفل المعروف بكسر السد أو الخليج، يمثل في الحقيقة حفل زواج رمزي بين النيل (الذكر) وأرض مصر (الأنثى) يقوم بعملية إفتراض السد المكون من حاجز ترابي، ضابط مصري ينقضّ بقاربه على الحاجز الترابي ويهوي مع شلال المياه إلى قناة الخليج مع انطلاق الزغاريد بمشاركة رقص الراقصات أو العوالم والخلابيص وعزف الموسيقيين وغناء المغنين وإطلاق الشنك والصواريخ والبنادق ونثر الباشا لنقوط الذهب عند كسر الخليج، محاكيا حفل الزفاف في الأعراس وتفصيله عندما يدخل العريس على عروسه.

أما التمثيل المسرحي الثاني الذي يذكره المستشرق البريطاني إدوارد لين فهو أن بعض الممثلين المعروفين بالمحظين قاموا بعرض تمثيلية أمام محمد علي باشا عام ١٨٣٤ كان الغرض منها لفت نظر الباشا إلى استفحال ظاهرة الرشوة في المجتمع المصري. وإبطال هذه المسرحية هم الناظر والكاتب القبطي والفلاح وزوجته وشيخ البلد وخادمه وجميعهم يستغلون الفلاح بسبب ديونه. وبعد حيس الفلاح تذهب زوجته لرشوة الناظر وشيخ البلد لفقك زوجها من سجنه. أما الجبرتي المؤرخ المصري فيذكر أن المحظين من الممثلين كان لطائفهم شيخ وكانوا في القرن السادس عشر يمثلون في الأعراس والموالد وفي القصور والأسواق مؤكدا ما ذكره إدوارد لين.

واعتمادا على هذه الحقائق التي تؤكد وجود مسرح عربي قبل احتكاك العرب بالمسرح الأوربي في البلاد العربية، فقد عقدت العزم على بحث موضوع الممثلين المحظين وغيرهم في التراث العربي في القرون الوسطى ونشرت خلاصة بحثي فيما بعد في كتابي:

Live Theater and Dramatic Literature in the Medieval Arab World
الذي صدر عام ١٩٩٢ عن مطبعة جامعة ادنبره وجامعة نيويورك.

تطور المسرح العربي في القرون الوسطى:

إن خلاصة ما توصلت إليه في كتابي هذا هو أن العرب في فجر الإسلام عرفوا المضحكين أمثال النعمان، وهو المعروف بمضحك النبي محمد، وكان لعائشة امرأة تضحكها وتقلد النساء تدعى "سويداء"، أما الحكم بن أبي العاص فقد كان يدعى بالحاكي "لأنه كان يحكي مشية رسول الله" حسب رواية الجاحظ (ت ٨٦٨) في

"البيان والتبيين". وقد جاء في الحديث النبوي أن لاعباً من المهاجرين كان يلعب بالكرج (وهو فرس العود الذي كان يلعب به المخنثون في الجاهلية والإسلام) كَسَحَ رجلاً من الأنصار فتداعى الأنصار بدعوى الجاهلية فزجرهم النبي محمد. وفي ديوان جرير إشارة إلى المخنثين اللاعبين بالكرج فحين يهزأ جرير من الفرزدق يشبهه بلاعب كرج:

أمسى الفرزدق في جلاجل كرج بعد الاخيطل زوجة لجرير

وفي نقيضه أخرى يسخر فيها جرير من الفرزدق واصفا إياه بأنه يبدو بملابسه كلاعب كرج وعليه جلاجل وله سبال قرد (أي أن شاربيه يشبهان شاربي القرد). ويقول شراح النقائض بان الممثلين (المخنثين) كانوا يلعبون لعبة الكرج ويحاكون كَرَّ وفر الفرسان في الحروب وغير ذلك من المحاكاة. كان التمثيل في فجر الإسلام يعرف باللعب أو المحاكاة أي تقليد الآخرين. غير أن هذا المصطلح تغير في القرن التاسع الميلادي وأصبح يعرف بالخيال وأطلق مصطلح "الخيالي" على الممثل بعد أن كان يدعى بالمخنث أو اللاعب أو الحاكية. وعندما وصل التمثيل الظلي من الشرق الأقصى أي الصين والهند إلى العالم الإسلامي أطلق عليه العرب مصطلح "خيال الظل"، أي التمثيل الذي تقوم به دمي من جلد جمل شفاف ملون يقوم اللاعب أو الخيالي بوضعها على شاشة بيضاء يعكس عليها ظل الشخصوس الجلدية من فانوس أو مصباح على الشاشة ويقوم المخايل بتحريك أطرافها ويجراء الحوار بين الدمي.

وهكذا نرى أن التمثيل البشري عند العرب، أي الخيال، سبق التمثيل بالدمى أي خيال الظل. ولا نجد في الأدب العربي سوى فقرات قصيرة يلخص فيها بعض

المؤلفين مضمون التمثيليات التي شاهدوها. ففي زمن الخليفة العباسي المهدي (٧٥٥-٧٨٥) كان احد الصوفية يقوم بتمثيل محاكمة خيالية للخلفاء المسلمين من أبي بكر والى الخليفة المهدي في سبيل "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر":

وكان يركب قصبه في كل جمعة يومين: الاثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة. فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلى صوته: "ما فعل النيون والمرسلون، أليسوا في أعلى عليين؟ فيقولون: نعم، قال: هاتوا أبا بكر الصديق. فاخذ غلام فاجلس بين يديه، فيقول: جزاك الله خيراً يا أبا بكر عن الرعية فقد عدلت... اذهبوا به إلى أعلى عليين... ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس فسكت . فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين، قال بلغ أمرنا إلى بني هاشم، ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.

أما التمثيليات الموسمية فأشهرها موكب أمير النيروز في يوم النيروز في مصر والعراق في القرون الوسطى الذي كان يمثل العام المنصرم الهرم ثم طرده. يركب هذا الأمير على حمار دميم أعرج ليحبي الضرائب وييده دفتر يقيدها فيه وحوله لابسو الأقتعة وراكبو الكرج ولاعبو الخيال، وهي تمثيلية معروفة عند أمم عديدة تمثل حكم أمير ليوم واحد في جمع الضرائب وإنفاقها على حاشيته من اللاعبين في مهرجان تهتكى يشاركه فيه جماهير الشعب الغفيرة محتفلة بذهاب الشتاء بأمراضه وآفاته وقدم الربيع والدفء. وفي كتاب الأغاني إشارة واضحة إلى أن بعض التمثيليات الهزلية

كانت تدون وتقدم إلى الممثلين الزفانين والراقصين لإخراجها، مثل التمثيلية التي كتبها علويّو المغني يسخر فيها من صلافة وكبر القاضي الخلنجي أيام الخليفة العباسي الأمين (٨٠٩-٨١٣) وقدمها للزفانين أي الممثلين الراقصين "ليخرجوه فيها"، أي ليقوموا بتمثيل حاكيتته، كما يقول مؤلف الأغاني.

ومعظم هذه التمثيليات كانت تمثيلات هزلية باللهجة العامية وإشارات مستهجنة وألفاظ فاحشة تسخر من رجال الدين والحكام والقضاة خاصة، فابن الحاج العبدري الفاسي (١٣٣٦) في كتابه "المدخل" أو "مدخل الشرع الشريف"، يذكر كيف أن المخاييلين كانوا يلبسون ثياب القاضي بطول أكمائها وكبر العمامة ويرقصون بها أي يمثلون أثناء رقصهم ويذكرون فواحش عليها، وقد قام بديع الزمان الهمذاني (٩٦٨-١٠٠٧) بإعادة صياغة هذه التمثيليات باللغة الفصحى ومحاكاة حوارها في مقاماته بأسلوبه المبتكر المسجوع المزخرف. ونحن نرى ان المقامة هي تقليد لحوار التمثيليات الهزلية المشهورة في العالم العربي. إذ نجد أن بعض هذه المسرحيات الهزلية الواردة في "نثر الدرّ" للأبي أعيدت صياغتها في "حكاية أبي القاسم البغدادي" لأبي المطهر الازدي وفي مقامات الهمذاني وبابات ابن محمد ابن دانيال (ت ١٣١٠)، مما يدل على تأثير هذه التمثيليات الهزلية على صياغة الحوار في المقامات.

ومن المرجح أن تكون "حكاية أبي القاسم البغدادي" لأبي المطهر الازدي تمثيلية تتيح لمن يريد تمثيلها الارتجال، وذلك لان هذه الحكاية (بمعنى المحاكاة) تحتوي على حوار بين الشخصيات المختلفة، وبالإضافة إلى ذلك يقول المؤلف أبو المطهر بان هذه الحكاية تستغرق يوماً كاملاً أي نهارة ولبيلة (هذا هو طول المسرحيات اليونانية عند أرسطو)، ثم يضيف بان هذه الحكاية هي مثل حكاية الجاحظ في كتابه

"البيان والتبيين". فالحاكية يحاكي كلام الفأفاء وحركات الأعمى وأصوات الحمير والطيور. ويقدم المؤلف إرشادات للممثل ويقترح عليه ما يقول في مناسبات مختلفة، فإذا حدثه إنسان ذو مهنة ما أو قدم له طعام ما، يقترح عليه أن يقول كذا وكذا من الكلام المناسب.

أهمية المؤلفات اليهودية باللغة العربية لفهم التمثيل المسرحي عند العرب في القرون الوسطى:

وإذا كان المؤلفون العرب يذكرون هذه التمثيليات بصورة مقتضبة وعابرة فإن المؤلفين اليهود الذين كتبوا باللغة العربية وبحروف عبرية، أسهبوا بعض الشيء في وصفها. فالعالم الديني موسى بن ميمون الأندلسي (١١٣٥-١٢٠٤) الذي أصبح بعد هجرته إلى مصر طبيبا في البلاط الأيوبي يصف آلة الكرج في كتابه "مشنيه تورا" بأنها "فرس العود يركب عليه الملهيين(!) يلعبون به في الخيال وهو مشهور عند أهل اللعب".

وفي فصل آخر يذكر موسى بن ميمون مصطلحا آخر لأهل اللعب مرادفا له وهو الزمرة والخيالين(!) فيقول: "فرس العود الذي يلعب به الزمرة وهو مشهور عند أهل اللعب والخيالين(!)". أما داود بن أبراهام الفاسي فيعرف في كتابه "جامع الألفاظ" (الذي كتبه باللغة العربية وبحروف عبرية) اللاعب في عصره بأنه "المتلاهي المتميمس (من اليونانية: *mimos*) الذي يرمي الشرار والسهام وسائر آلات الموت". وبالإضافة إلى ذلك فإن موسى بن ميمون يتحدث أيضا عن وجود ممثلات فهو يعرفهن بقوله: "ויצאנת ההקק", وهي التي تخرج الوجوه والألعاب، فهي

تلبس هذه الثوب المشوه الذي لا يصلح للباس ليضحك منها. وكثيرا ما يفعل الخيالون(!) ذلك. ثم يضيف في مكان آخر معنى كلمة **למחילה** أي الشبكة التي تلبسه الممثلة فيقول: "والغرض أن تكون هذه (السيباخا) للعب في الخيال".

ولعل "الثوب المشوه" الذي ذكره ابن ميمون هو القميص الذي يصفه الشاعر العادلي الطوسي (ت حوالي ١٢٥٦) حين يقول يصف جارية مخيلة [الطويل]:

مخيلة مثل الخيال إذا سرى	متى ما ترد اتمامة منه ينقص
عليها قميص يطلع البدر طوقه	علاه ظلام بالنجوم مفصص
فحورية إنسية حين تجتلي	وجنية من خفة حين ترقص

التمثيل العربي في الأندلس

وتعريف موسى بن ميمون لمصطلح **למחילה** (أي المرأة الخارجة): "بأنها التي تخرج الوجوه والألعاب...". يلقي ضوءاً على مصطلح غامض ذكره ابن شهيد في كتابه "رسالة التوابع والزوابع" حيث يطلق على الممثلات مصطلح "خارجيات الخانات" وكلمة "خارجيات" غير واضحة في المخطوطة التي اعتمدها عليها د. إحسان عباس في تحقيقه لكتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام (ت ١١٤٧)، ويرى انه يطلق على المومسات اللواتي يسكن الخانات ويدفعن الخراج. ولكن الخراج يدفع على الارض لا على "المهن". لذلك فإننا نرى أن هذا المصطلح قريب من "المرأة الخارجة" الذي وظفه ابن ميمون، ولعل الصواب هو "خارجيات

الخانات" وهن اللواتي "يخرجن الوجوه" (أي أقنعة التمثيل) والألعاب التمثيلية في خانات المسافرين وفيها يقوم بعض النزلاء بشرب الخمر وتدخين الحشيش. فابن شهيد في معرض رسالته في حديثه عن ابن الافليلي الكاتب يقول إن ابن الإفليلي كان من الكتاب والمعلمين القلائل الذين لم ترو قصائدهم ورسائلهم في الأندلس، فقد كان من البخل بحيث لا يحاول رشوة تلامذة المساجد ولا "خارجات الخانات" ليروين قصائده ورسائله قرب "المياه الاسنة ومطراح الزبول"، مما يمكننا من الاستنتاج أنه كان لأغنياء الكتاب من المغنيات والراقصات اللواتي كن يقمن بتمثيل رسائلهم في الرياض الغناء وقرب الجداول الصافية بصفافها ذات الخضرة الكاسية، ولذا فهو يقوم بنفسه بعرض تمثيلته "لعبة اليهودي": "وحكوا انه إذا تقدم قليلا ورجع القهقري والعصا بيده والخرج على عاتقه كان أحذق الناس في إخراج لعبة اليهودي". ونحن نرى أن "رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد هي مسرحية تمثيلية سنحاول في مناسبة أخرى مناقشتها وإظهار عناصرها التمثيلية والبرهنة على أنها لم تكتب للمطالعة فقط. وذلك بدليل أن الجواري المغنيات في الأندلس كن يقمن باللعب بالكرج والإخراج في الخيال ورواية الرسائل وغناء الموشحات حسبما ذكر احمد التيفاشي مما يؤيد قول ابن شهيد في سخريته من ابن الافليلي بان خراجيات الخانات يقمن برواية الرسائل أي تمثيلها.

وبالإضافة على ذلك فإننا نجد في احد الأجزاء التي نظمها ابن قرمان (ت ١١٦٠) إشارة إلى فرقة تمثيلية تقوم بتمثيل مسرحي إيماني مثل بكاء يعقوب على ابنه يوسف وغير ذلك من العروض المسرحية.

أما دي الكالا في Pedro de Alcalaa, Vocabulista aravigo en lietra في castellana, Granada; فيعكس تأثير المسرح العربي الأندلسي على الاسباني

ومصطلحاته، مثل "الممثل أو لعاب الخيال"، وأما رئيس الممثلين فهو "كبير لعاب الخيال"، والشاعر هو الذي "يمثل الملهاة والمأساة"، واللعب هو "المحاكي"، المسخرة، واللعب للمسرح (انظر موريه، المصدر السابق).

المقامة والمسرح

لقد عثر البروفسور يوسف سدان أستاذ الأدب العربي القديم في جامعة تل- أبيب على مخطوطة "المقامة المختصرة في الخمسين مرة" لمحمد بن مولاهم الخيالي. ولعل محمداً هذا هو من أقرباء علي بن مولاهم الخيالي الذي كتب إلى محمد بن دانيال رسالة يطلب فيها منه تأليف بابات الخيال لان التمثيلات التي كانت تعرض في ذلك الحين "محتها الاسماع" من كثرة التكرار، فيستجيب ابن دانيال بتأليف ثلاث بابات هي "بابة طيف الخيال" وبابة "عجيب وغريب" وبابة "المتيم".

وفي مقدمته لهذه المقامة يقول محمد بن مولاهم حين التقى بمضيفه: "وسألني من أنت وما مهنتك، فقلت أنا محمد بن مولاهم، الخيالي"، وهكذا نفهم أن المؤلف يقول أن اسمه محمد بن مولاهم ومهنته "الخيالي" أي الممثل. وفي نهاية "المقامة" يوجه المؤلف ندائه إلى إخوته الممثلين بقوله: "(يا) أولاد مولاهم". والمقامة تحتوي على شخصيات نسائية ومن بينها الخيالية بالإضافة إلى الخياطة والراقصة والطبيبة والمغنية الخ. وبإمكاننا أن نستنتج من تعريف الخيالية لمهنتها بان مصطلح "خروج" يطلق على التمثيل الذي يقوم به الممثلون وان التمثيلية التي تقول الخيالية بتمثيلها وهي الخصام بين "أم قاوشتي وضررتها". يقول محمد بن مولاهم: "قالت الخيالية: عهدناكم ظراف، كأنكم أم قاوشتي وضررتها وقت يتقايسوا، اخرجوا من دي البابة

وادخلوا غيرها يا خوارج، قوموا اشغلوا الطابق برقصة قبل ما نصبح، وأنشدت شعر
(كان وكان):

إن الخروج لي أصلح من الدخول بيناتكم، فكل من هو داخل بيناتكم مخروج

ويقول الباحث البروفيسور أمنون شيلواح، في كتابه القيم عن الموسيقى العربية، بأن
كلمتي الدخول والخروج في الموسيقى العربية هما مصطلحان موسيقيان. وهكذا
نرى أن المؤلفين في القرون الوسطى لم يميزوا بين هذه الأنواع الأدبية وأطلقوا على
التمثيليات مصطلحات مختلفة مثل "حكاية"، "خيال"، "لعبة"، "بابة"، "مقامة"،
"رسالة"، وعلى الممثلين أطلقوا مصطلحات مثل "المخنت"، "اللاعب"، "المحاكي"،
"الحاكية"، "الخيالي"، "الصفعان"، "المساخر"، "المضحك"، "المهرج"، "الممثل"،
و"الخلبوص" وغيرها. وهذه المصطلحات المختلفة والمتداخلة هي التي جعلت
الباحثين يشكون في معرفة العرب للمسرح. فللحكاية أصبح معنى مشهور آخر هو
القصة وأهمل معنى المحاكاة ونسي و"الخيال" ظنوه مختصراً لمصطلح "خيال
الظل"، و"الخيالي" أصبح في عرفهم المثل الذي يعرض خيال الظل. وهكذا جنت
هذه المصطلحات على المسرح العربي البشري، ولم يحاول الباحثون الوقوف على
معناها عند الأدباء العرب في القرون الوسطى وأنكروا وجوده. ولم يزل هذا الاصطلاح
"الخروج" دارجاً عند العرب إلى يومنا هذا.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ظهر مصطلح جديد للممثل البشري وهو المحبط. ومن أوائل من استعمل هذا المصطلح هو الشاعر ومؤلف تمثليات خيال الظل محمد بن دانيال (ت ١٣١١) في بابه "طيف الخيال" وفيها يقول الأمير وصال: "أنا محبط الشيطان، أنا ملاكم الحيطان". ويميز ابن إياس في تاريخه "بدائع الزهور" بين لاعب خيال الظل الذي يأتي بعدته (كالشاشة أو الستارة والفانوس والشخوص الظلية وصندوقين لوضع الشخوص مرتبة حسب ظهورها على الشاشة في صندوق اليمين وهو الذين يرمز إلى رحم حواء وبعد انتهاء دورها يضعها اللاعب في صندوق اليسار الذي يرمز إلى القبر) وبين المحبط وهو الممثل وبين لاعب خيال الظل الذي يحرك الشخوص الظلية على الشاشة ويجري الحوار بينها، وفي أحداث شهر جمادى الثاني (سنة ٩٢٤/أيار - حزيران ١٥١٨)، يقول: "وفيه توفي الرئيس محمد فئات العنبر، ريس المحظين وكان أستاذاً في صنعة الخيال وكان قد فاق على "بريوه" في هذا الفن.

وفي أحداث شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ / أيلول - تشرين أول ١٤٩٨، يقول عن السلطان الملك الناصر انه "أرسل من يستدعي أبو (!) الخير، بعدة خيال الظل ومغاني العرب وبريوه ريس المحظين، أي الممثلين ولم يحفظ لنا التاريخ سوى تمثيلية (خيال) ليمثلها ممثلون كتبها عبد الباقي الاسحاقي، وتعرف بعنوان "مسطرة خيال، منادمة أم مجبر"، عثر عليها د. محمد زكريا عناني وطنها مسرحية ظلية، أعدت نشرها في كتابي **Live Theater** (ص ١٧٠-١٧٣)، ولحسن حظ المسرح العربي في مصر سجل لنا المستشرق البريطاني إدوارد وليم لين وصفاً لتمثيلية قام بها المحظون المصريون أمام محمد علي، وهي تمثيلية تشبه تمثليات

المسرح الأوروبي من حيث الحوار وارتداء الملابس الخاصة بالطبقة التي تنتمي إليها الشخصيات. وقد سجل الرحالة والمستشرقون الذين بعثتهم حكومات الدول الأوروبية المستعمرة إلى البلاد العربية لوصف هذه البلدان والتعرف على طبيعتها وثرواتها المعدنية والزراعية وموقعها الجغرافي تمهيدا لاستعمارها، سجل هؤلاء الرحالة والعلماء الأوروبيون أمثال الكسندر رسل (Russell) الذي زار حلب عام ١٧٥٠، ما شاهدته من مثل هذه العروض المسرحية، ثم أعقبه بعد حوالي العشرين عاما المستشرق نيبور (Niebuhr) الدانماركي الذي سجل بدوره ما شاهدته من التمثيليات في القاهرة. ويضيف قائلا بأن الممثلين كانوا من المسلمين والمسيحيين واليهود ويمثلون باللغة العربية. وفي عام ١٧٩٨ ذكرت الجريدة التي كان يصدرها الجيش الافرنسي المحتل لمصر Courier de l' Egypte بان المعلم يعقوب قائد الفرقة القبطية أولم وليمة على شرف القائد العام نابليون بونابارته وجنرالاته وضباطه، عرضت بعدها مسرحية عربية هزلية Comedie arabe. هذا وقد ذكر الرحالة بلزوني (G. Belzoni) انه شاهد مسرحيتين في القاهرة عام ١٨١٥. ثم أعقبه المستشرق لين الذي قدم لنا تلخيصا للمسرحية الهزلية التي شاهدها. وقد بالغ جميع المستشرقين في حديثهم عن المستوى الأخلاقي والفني والتمثيلي المنحط لهذه المسرحيات.

أولاد رابية

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر يذكر لنا علي باشا مبارك (١٨٢٣-١٨٩٣)، في روايته التعليمية "علم الدين" (الإسكندرية ١٨٨٢) فرقة تمثيلية أطلق عليها اسم "أولاد رابية" تقوم بتمثيل مسرحيات هزلية بديئة باللغة العامية. وذلك في

أثناء وصفه للمسرح الأوروبي ومسرحياته التهذيبية والتاريخية الرفيعة المستوى وأشار إلى أن مستوى تمثيلات يعقوب صنوع شبيه بمستوى تمثيلات أولاد رابية.

أما المستشرق الألماني بروفر فقد ذكر في مقاله عن الدراما عند العرب (Drama Arabic) في Encyclopedia of Religion and Ethics التي صدرت في نيويورك عام ١٩١٤، إن لأحمد فهم الفار المصري المعروف باسم ابن رابية تمثيلات شعبية.

ولحسن الحظ وصلتنا مخطوطات هذه المسرحيات. وقد قام المستشرقان البروفيسور يعقوب لاندو من الجامعة العبرية والمستشرق الألماني مانفريد فوديش بنشرها مع الترجمة الألمانية بعنوان: "المسرح الشعبي العربي في القاهرة سنة ١٩٠٩: احمد فهم الفار ومسرحياته الشعبية"، وقدما لها بمقدمة عن تاريخ المسرح العربي مع نصوص مسرحيات احمد فهم الفار العربية، قاما بترجمتها إلى اللغة الألمانية، وقد صدر الكتاب في ٤٩٦ صفحة في بيروت عام ١٩٩٣ عن دار النشر فرانس شتاينر في شتوتكارت، في سلسلة النشرات الإسلامية رقم ٣٨:

Arabisches Volkstheater in Kairo, im Jahre, Ahmad il-Far)
und seine Schwanke. Herausgegeben, ubersetzt und
eingefuhrt von Manfred Woidisch und Jacob M. Landau.
Beirut, in Kommission vom Franz Verlage, Stuttgart.
(Bibliotheca Islamica).

وهذا الكتاب هو في غاية الأهمية، وقد قطع الشك باليقين حول نتائج بحثنا هذا، ويؤكد ما توصلنا إليه في بحثنا حول استمرارية هذا التراث الرائع والغامض للمسرح العربي الشعبي وممثليه من اللاعبين بالكرج والمخايلين والمؤلفين المبدعين. وفي

مقدمة رواية الشيخ الطريقي، أي ضارب الرمل، ذكر أن كتاب "كشف الستار عن بلديات احمد الفار" هو من تأليف الممثل "الشهير بابن رابية". وهذا الكتاب في غاية الأهمية لفهم استمرارية المسرح الشعبي العربي إلى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ومحافظته على نفس المصطلحات القديمة التي حاولنا تفسير معناها الأصلي في كتابنا هذا حسب مصطلحات التراث المسرحي العربي في القرون الوسطى والبرهنة على مصداقية ما توصلنا إليه من نتائج خطيرة بالنسبة إلى التراث المسرحي العربي. فالممثل احمد فهيم الفار يقوم بدور "الخلبوص"، أي الممثل الهزلي أو المساعد للراقصة (العالمة). وقد اشتهرت فرقته التي كانت تعرف بأولاد رابية بتمثيل هزليات وتمثيلات مختلفة في الأعراس وحفلات الختان ويقوم الممثلون قبل العرض بأداء رقصة وفاضل موسيقي كما هو الأمر في وصف المستشرق ادوارد لين المسرحية التي شاهدها أيام محمد علي. ويحتوي هذا الكتاب على خمس مسرحيات يطلق عليها اسم رواية وهي: (١) رواية ابن البلد "في ٥ فصول"، (٢) رواية الشيخ الطريقي والمرأة وزوجها، (٣) رواية الصعيدي، (٤) رواية الحجاز، (٥) رواية النجار. ثم تليها خمس العاب وهي: (١) حكاية الطريقي، (٢) تقليعة الصعيدي، (٣) تقليعة الحجية، (٤) تقليعة ابن البلد، (٥) تقليعة النجار.

وفي مقدمة تقليعة ابن البلد نجد وصفا مسهبا لهذه الألعاب أو التمثيلات ويؤكد صحة الوصف الذي ورد عند المؤرخين العرب والرحالة الأوروبيين. ويصف الممثلين وجمهور المشاهدين ومتى تعرض هذه الألعاب (ص ٣٥٠).

"العب احمد الفار المصري في أفراح المصريين، عم احمد الفار المصري، رجل يحضره المصريين (كذا في الأصل) للإفراج عند الزواج (كذا) أولادهم ولكن الذين يستحضرون ذلك الرجل هم أهل الطبقة الذنية قبل ليلة الدخلة بيوم أو يومين صحة

طائفة رجال الطبل البلدي ورجل طبال وآخر زمار ومشاعلي. المشعل والعمامه عند اللعب، وتبتدي هذه الحفلة بدق الطبل البلدي وأصحاب العريس يرقصون على صوت الطبل من بعد العشاء لغاية الساعة أربعة عربي مساء. بعد ذلك يخرج الخول (أي الراقص) في صفة مرآة ويرقص.

وهذه العبارة "يخرج الخول في صفة مرآة ويرقص" تذكرنا بقول عبد الوهاب الشعراني (توفي ١٥٦٥) في لطائف المنن (القاهرة، ١٣٢١/١٩٠٣) ح ٣، ص ١٧٢، حيث يقول: "خلبوص المغاني إذا خرج في بابة الخيال في صفة قاض أو عالم". ومن هنا نعلم أن "خلبوص المغاني" أصبح يسمى "الخول" حتى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهو مرادف لمصطلح "الممثل" الذي عرفناه في الأندلس من قاموس دي الكالا، وهذا الخول هو احمد فهيم الفار، الشهير بابن رابية والذي "يخرج في صفة مرآة ويرقص". وبهذه التمثيليات نجد الحلقة الذهبية التي تربط المسرح العربي القديم ومصطلحاته وتوضح لنا الأساس الذي شيد عليه المسرح العربي الحديث. وهكذا فتح الباب على مصراعيه لدراسة المسرح العربي التقليدي في العصور الوسطى من الناحية النظرية والدراسة المقارنة المؤسسة على أرض ثابتة.

أما أول تمثيلية كتبت باللغة العربية الفصحى وطبعت طبعة حجر فهي على ما بلغنا حتى اليوم، مسرحية "نزهة المشتاق وغصة العشاق في مدينة طرباق في العراق"، طبعت في الجزائر عام ١٨٤٧ تأليف المترجم في المحكمة المركزية الجزائرية أبراهام دانيوس.

وكان الدكتور فيليب سادجروف من جامعة مانشستر قد عثر عليها في مكتبة Institut National des Langues et Civilisations Orientales باريس، أهداها المؤلف إلى الجمعية الآسيوية الفرنسية Societe Asiatique عام ١٨٤٧، وتعد هذه التمثيلية همزة وصل بين المسرح العربي الشعبي التقليدي وبين المسرح العربي الحديث المتأثر بالمسرح الأوروبي، وقد ألفها أبراهام دانيوس بطريقة التليفق المعروفة في التمثيليات العربية العامية ومسرح خيال الظل وحكاية أبي القاسم البغدادى، ففي مثل هذه التمثيليات يقوم المؤلف بالاقْتباس من أشعار ومقامات ونوادير مؤلفين آخرين يلقى بينها في حوارهِ بين الشخصيات بأجواء اجتماعية وحكمة يتكرها. وقد استمد دانيوس الكثير من أبيات تمثيلته من ألف ليلة وليلة ومن كتاب عز الدين بن عبد السلام المقدسي "كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار" (Les Oiseaux et les fleurs... avec une traduction et des notes, par M. Garcn de Tassy (paris, التي أثارَت اهتمام المستشرقين الألمان والفرنسيين وكتبوا عنها. وبذا يكون أبراهام دانيوس قد سبق مارون النقاش منشى المسرح العربي في لبنان بمسرحيته "البخيل" التي اقتبسها عن مولير.

يبدو أن مسرحيته "نزاهة المشتاق" لدانيوس - الأنفة الذكر - تشكل حلقة الوصل بين المسرح العربي التقليدي الذي تمتد جذوره إلى العصور الوسطى، وبين المسرح العربي الواقع تحت تأثير الحضارة الغربية، ذلك أن هذه المسرحية تجمع في ثناياها ميزات ومظاهر نوعي المسرح: المسرح التقليدي والمسرح المتأثر بالغرب. فمن مظاهر المسرح التقليدي: أشعار الغزل، أسلوب ألف ليلة وليلة، النثر المسجع، اقتباسات من أمهات الكتب القديمة، مشاهد لألعاب الشطرنج، الغناء وغيرها. وبينما تعرض المسرحية التقليدية فكرة أن الإنسان محكوم بقدره ولا يستطيع الإفلات من

قبضته، نرى أن الحضارة الغربية والمسرح المتأثر بها تضع الإنسان في مركز الكون سيداً لنفسه.

أما الكتاب الثاني الذي يلقي أضواء ساطعة على نتائج بحثنا فهو: The Egyptian Theater in the Nineteenth Century, Berkshire, Itbaca, (المسرح المصري في القرن التاسع عشر ١٧٩٩-١٨٨٢)، تأليف الأستاذ الدكتور فيليب سادجروف من جامعة مانشستر، وقد أضاف هذا الكتاب الرائد الكثير من المعلومات الهامة عن نشاط المسرح الشعبي وتاريخ المسرح الأوروبي في مصر استقاها من الصحف اليومية والمجلات الأوروبية والكتب والمذكرات التي نشرها الرحالة الأوروبيون والتي صدرت في القرن التاسع عشر بلغات أوروبية مختلفة وذلك إلى جانب تنقيبه في الصحف العربية المعاصرة لها. وقد عثر في كتب الرحالة الأوروبيين التي لم تكن معروفة لدى العاملين في حقل المسرح العربي على معلومات تؤكد وجود المسرح العربي الشعبي وممثليه من المسلمين والمسيحيين واليهود ومن العرب والأتراك أيضاً. فإلى جانب كتب نيبور (١٦٩٦) وبلزوني (١٨١٥) ولين (١٨٣٤) ووارنر (١٨٧٤-١٨٧٥) المعروفة فإنه يورد مشاهدات جيمس سانت جون (١٨٣٣) وجون بورينك (١٨٣٩) وور.ل.ن. ميشيل (١٧٨٨) وبتلر (١٨٨١) وكلها تصف مسرحيات مصرية شبيهة بالمسرحيات الأوروبية وورد ذكر بعضها في المصادر العربية وتلقى ضوءاً ساطعاً على العروض المسرحية الشعبية التي وردت في كتب التاريخ العربي.

وبعد كل هذه الشهادات التاريخية التي أدلينا بها من بطون التاريخ لهذا المسرح العربي الحي، فيمكننا القول بثقة بأن المسرح العربي الضارب جذوره في القدم هو فن عربي أصيل، تناول المشاكل الاجتماعية والدينية والأخلاقية والإدارية والطبقية

في المجتمعات العربية. لكن شعبية هذا المسرح وتوظيفه للهجات العامية وتطرقة إلى المواضيع الجنسية والهزل ونقد العلماء والقضاة والحكام المسلمين، كل هذا ابعده عنه كبار الشعراء والأدباء العرب الذين تجنبوا الهزل، فاللغة العربية الفصحى لغة القرآن والكتب الدينية، تأنف من المجون والإسفاف إلا في القليل النادر، وعلماءها يفضلون الجد على الهزل والحقيقية والواقع على ما يعد سخفا وخيالا، فتركوا هذه الفنون الشعبية إلى اللهجات العربية العامية والمؤلفين الشعبيين الذين فشلوا في نظم القصيدة العربية التقليدية والمقامة الجدية اللتان تعيان بمدح المتنفذين والثاني ينفق سوقهما في ميدان نفاق الحكام والأغنياء.

هذا ولا نستطيع في هذا المجال غض النظر عن جناية المصطلحات المسرحية العربية وتسببها في غموض تاريخ المسرح العربي في تطوره الطويل عبر القرون الطويلة للتاريخ العربي وتداخل هذه المصطلحات المسرحية وتشابهاها مع الفنون الأدبية المختلفة في القرون الوسطى كمصطلح الحكاية والخيال واللعبة والرواية والمقامة والمسامرة والمناظرة والمحاورة، والتباسها هذه المصطلحات على الباحثين. وقد بقي المسرح العربي الشعبي المتأثر بالمسرح التركي الشعبي تحت وطأة الحكم العثماني، يواصل كفاحه المستميت في البقاء إلى مطلع القرن العشرين رغم الغزوة الثقافية الأوروبية المتعالية التي أخذت في القرن التاسع عشر، قرن الاستعمار الأوروبي، تقيس الحضارات الأخرى بميزانها وبمقاييس حضارتها المادية والفكرية والتي أخذت بخناق الحضارات الشرقية حتى أجبرتها على التخلي عن ثروتها الحضارية. وقد آزر هذا الموقف المجددون العرب. وخير مثال لهذه المؤازرة هو ما فعله علي مبارك في دعمه لموقف درانيث باشا (Draneth Bey) "رئيس الأوبرا والتياترو الفرنسي" في القاهرة المناوئ لمسرح يعقوب صنوع بسبب توظيف اللغة العامية المصرية في

تمثلياته واهتمامه بالهزل. وما زال بعض الباحثين العرب المعجبين بالحضارة الأوروبية ينكرون على العرب معرفتهم لفن المسرح والتمثيل البشري ويرددون آراء الباحثين الأوروبيين الذين اعتمدوا في القرن التاسع عشر على نظريات التفوق العرقي والعنصري ليبروا الاستعمار الأوروبي على الدول الشرقية والإسلامية.

أمسية تذكارية لضحايا الفرهود في بغداد عام ١٩٤١

الأثنين ٢٨ يونيو / حزيران ٢٠١٠

دأب مركز تراث ومتحف يهود العراق في مدينة أور- يهودا، كل عام على إحياء أمسية تذكارية لضحايا فرهود عام ١٩٤١ في العراق، تقام فيه الصلوات على ارواح الضحايا الابرياء العزل تتلى فيه أسماء الضحايا، وتعالج فيه العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والقوى الخارجية والداخلية التي لعبت دورها في هذه المأساة.

تميزت الامسية التذكارية هذا العام (٢٠١٠) بحديثين جديدين هامين، هما صدور كتاب الاديب والإعلامي السيد سليم فتال (الذي قتل خاله مئير خليف في الساعات الاولى لاندلاع المذبحة في باب الشيخ)، عن الفرهود بعنوان "صنم في حرم الاكاديمية الاسرائيلية"، يدحض فيه الادعاء الكاذب الذي اشاعه من نصب نفسه مؤرخا ليهود العراق والذي يقول فيه إن يهود العراق تناسوا وقائع الفرهود الأليمة وضحاياها، مدعيا انه بعد فترة قصيرة من وقوع الفرهود تناسى يهود العراق احداثه في أعقاب الرفاه الاقتصادي الذي ساد اثناء الحرب العالمية الثانية. وازاف هذا المدعي اختلاق قصة وقوع ٢٠٠ من الشهداء المسلمين سقطوا أثناء دفاعهم عن جيرانهم اليهود في يومي الفرهود في الفاتح من شهر حزيران عام ١٩٤١. أي ان عدد المسلمين، حسب هذا الادعاء، فاق عدد اليهود البالغ عددهم حسب قائمة بأسمائهم، ١٤٥ نسمة بين امرأة ورجل وطفل وشيخ، بالإضافة الى المئات من حوادث الاغتصاب والخطف والنهب والسلب واضرام النار في البيوت المنهوبة. وقد قام الاستاذ سليم فتال بدحض هذه التخريعات وأفحم من ادعاها.

أما الحدث الثاني فهو صدور كتاب "الفرهود، مذبحه ١٩٤١ في العراق" باللغة الإنكليزية، اعداد شموئيل موريه و تصفي يهودا، اصدار مركز فيدال ساسون العالمي لدراسة اللاسامية، مطبعة ماغنيس التابعة للجامعة العبرية، ومركز تراث يهود العراق، يونيو ٢٠١٠، في ٣٨٢ صفحة. ويضم هذا الكتاب مقالات علمية تاريخية ووثائق يكشف النقاب عنها لأول مرة، عن الفرهود بقلم كبار الباحثين في العالم، كالأستاذة ستيفان ويلد (بون)، وايلي كدوري (حضورى) (لندن)، وحايم كوهين (نيويورك)، ونسيم قرز (جامعة بن جريون) واستير مثير - جليزنتاين (جامعة بن جريون) وشموئيل موريه (الجامعة العبرية) الذي ساهم فيه بثلاث مقالات، وتصفي يهودا (مدير معهد أبحاث يهود العراق في مركز تراث يهود العراق) الذي أعد قائمة باسماء الضحايا وخارطة الاحياء اليهودية التي وقع فيها الفرهود في بغداد ووثائق مختارة عن الفرهود، بالإضافة الى مقاله القيم "فرهود عام ١٩٤١ في ضوء مصادر جديدة".

اعلن رئيس إدارة مركز تراث يهود العراق، السيد مردخاي بن- بورات، في كلمته الافتتاحية، رغبته في اقتراح اتجاه جديد نحو أحداث فرهود عام ١٩٤١ في العراق، بقوله: "إن الشعب اليهودي عانى من أبشع جريمة نكراء في الحرب العالمية الثانية وهي المحرقة النازية، ومع ذلك فإننا نجد اليوم علاقات سياسية حميمة مع المانيا الديمقراطية، وعليه فيامكان يهود العراق ودولة اسرائيل اتباع سياسة ودية نحو العراق، فليس لحكام العراق اليوم ولزعمانه أية علاقة بمذبحه فرهود عام ١٩٤١، وواجبنا اليوم ان نأخذ بنظر الاعتبار الواقع الجديد وأن نبادر الى ابداء الصداقة وحسن النية نحو العراق الحديث في جميع المجالات والتصريحات التي ندلي بها والتي تدلي بها دولة اسرائيل. وموقفنا هذا لا يقف حائلا امامنا دون مواصلة عقد امسيات تذكارية للفرهود في المستقبل". وقد قوبل اقتراحه بالارتياح والموافقة.

قام الدكتور نسيم قزاز الذي قتل والده المرحوم ناحوم قزاز مع المرحوم منير خليف خال سليم فتال، في حادث انزال اليهود من الباصات المارة بباب الشيخ وقتلهم، بايقاد الشموع وتلاوة الصلاة على ارواح القتلى.

ثم قرأ الدكتور تصفي يهودا أسماء ١٤٥ طفل ورجل وامرأة من قتلى الفرهود التي جمعها خلال ثلاثين عاما من شهادات أقرباء المقتولين. وتطرق الدكتور يهودا، مدير معهد أبحاث يهود العراق، إلى أهمية صدور كتاب "الفرهود، مذبحه ١٩٤١ في العراق" باللغة الأنجليزية لدحض أدعائات مسترزي صدام حسين الوهمية، بأن مذبحه ١-٢ من حزيران سنة ١٩٤١ هي من صنع "الموساد" ومنظمات اليهود في فلسطين. كما كتب شامل عبد القادر في مقاله "بريطانيا... المخطط والشريك"، الذي نشر في مجلة "ألف باء"، عدد ١٣٤٢، ١٥ حزيران ١٩٩٤، التهمة التالية بدون ان يدعماها بوثائق، بقوله: "يجب الاعتراف بكل أسف أن الموساد قد "نجح" بتدبير "الفرهود" والقاء مسؤولية ما حدث على عاتق غير اليهود..."

ويتضمن كتاب "الفرهود، مذبحه ١٩٤١ في العراق" بالاضافة الى الابحاث العلمية المستندة على وثائق حكومية ودبلوماسية وارشيف حكومة المانيا النازية ومذكرات سياسيين، الرسائل التي بعثها سفير المانيا النازية الدكتور فريتز جروبا في بغداد لأسياده في برلين. وهي تزيح الستار عن فحوى الدعاية التي بثها هذا السفير في العراق وهو يحث الشعب العراقي على قتل اليهود لكونهم، حسب ادعائه، عملاء لبريطانيا. وقد أكد الواقع كذب هذه الافتراءات عندما ترك الأنجليز "عملائهم" يذبحون بأيدي الرعاع وهم يسمعون صراخ يهود بغداد طالبين النجدة وصوت اطلاق النار عليهم دون أن يحركوا ساكن، حسبما دونه الدبلوماسيون الأنكيز أنفسهم في مذكراتهم.

ثم القى شموئيل موريه محاضرة بعنوان "موقف المثقفين العرب اليوم من الفرهود"، أشاد فيه بالتعاطف الذي أبداه القراء العرب عامة والعراقيون خاصة، مع اليهود لما عانوه من الظلم والاضطهاد أثناء "الفرهود" وفي العقود التي تلتها، وعبر الكثير منهم عن أسفهم لوقوع هذه المذبحة، بل وأعلن بعضهم طلب الصفح عما اقترفه انصار النازية من العراقيين من جرائم نكراء في حق اليهود الذين كونوا عنصرا مخلصا للعراق وللوطنية العراقية وساهموا في احياء الاقتصاد والمال والادارة والعلوم والادب والفنون، وأشاد بالموقف المشرف لجريدة "ايلاف" الغراء ومجلة "الأخبار" وغيرهما من الصحف الالكترونية والمطبوعة في العراق، في افساح المجال أمام القراء للتعليق على سلسلة "يهود العراق، ذكريات وشجون" التي نشرها شموئيل (سامي) موريه، والتي ذكر فيها بعض القراء المعلقين ما رواه لهم آباؤهم وأجدادهم عن "الفرهود" وموقفهم المستنكر من هذا الحدث الرهيب، وعن يهود العراق الذين كونوا نسيجا مهما في المجتمع العراقي وفي طليعة العناصر الوطنية المثقفة الساعية للسير قدما بالعراق معلنين ان الجيل الجديد من العراقيين قد قلب صفحة جديدة أعرب فيها أبناؤه عن اعجابهم بما قدم يهود العراق من خدمات جليلة لوطنهم ولما بلغه يهود العراق في إسرائيل من مكانة أدبية وعلمية وسياسية واقتصادية مرموقة، متمنين لو ساهم يهود العراق في المشاركة في بناء العراق الحر الديموقراطي الجديد. وهناك قائمة طويلة من كبار الاساتذة الجامعيين في العالم والمثقفين والشعراء والادباء والمؤرخين والصحفيين العراقيين الذين قاموا في اعقاب نشر سلسلة "يهود العراق، ذكريات وشجون"، بكتابة المقالات والذكريات والتحقيقات الصحفية عن يهود العراق أنصفوهم فيها واشادوا بمساهماتهم في نهضة العراق في النصف الاول من

القرن العشرين، وهو يرى في هذا الجيل الجديد من المثقفات والمثقفين العراقيين أمل العراق في بناء دولته الحرة الديمقراطية الجديدة الساعية الى المساواة والتضامن.

وألقى في هذه الأمسية التذكارية الاستاذ الأديب والصحفي الكبير سليم فتال محاضرة عنوانها "الفرهود في وسائل الاعلام العربي"، قال فيها: ان مذبحه بغداد عام ١٩٤١ استهدفت الجالية اليهودية التي وقع ضحيتها حوالي ١٥٠ من افرادها. كانت هذه المذبحة من ابشع الجرائم التي ارتكبت بحق مواطنين يهود، مسالمين وعزل أحبوا العراق وأسهموا قدر الامكان بتطويره في مختلف المجالات. ولكن العراق رفضهم واضطهدهم وعاملهم أسوأ معاملة. وتجاهلت وسائل الاعلام العربي في العراق وخارج العراق هذه المذبحة جملة وتفصيلا. كانت سنة ١٩٤١ سنة حاسمة حثت اليهود على الدفاع عن حياتهم وممتلكاتهم واعراضهم وادت في نهاية المطاف الى هجرتهم او بالاحرى الى تهجيرهم بعد ان اسقطت جنسيتهم. وكانت عملية التسقيط اجراء عقابيا فرضته السلطات العراقية ضد اليهود، وهو اجراء لم يفرض على اليهود في اي دولة من الدول العربية. وتلت عملية التسقيط عملية عقابية اخرى هي عملية مصادرة الاموال والممتلكات التابعة لليهود.

وفي نهاية الامسية علق كاتب هذه السطور بقوله: كل ما نطلبه من هذا الذي يدعي سقوط مائتين من القتلى المسلمين أثناء دفاعهم عن جيرانهم في "الفرهود"، هو تزويدنا بالوثائق التي تؤكد ما ذهب اليه، وأن يذكر اسماء الضحايا من المسلمين المدافعين عن اليهود، لا الذين سقطوا في نزاعهم الدموي حول المنهوبات وسلبها من الناهيين. فإذا كان حقا ما يدعيه فسنقوم، بموجب ما يحتمه علينا واجبنا وضميرنا

كباحثين محايدين تهمنا الحقيقة فحسب، بتصحيح وقائع هذه المذبحة في كتب التاريخ. فإذا عجز عن ذلك، فسيصح ادعاه تخرصات من باب "المقامة الساسانية في الشطحات الساسونية". كما نلتمس من المؤرخين العراقيين ومن عاصر أحداث الفرهود أن يزودونا بوثائق تاريخية تؤكد هذا الادعاء أو تدحضه، فإذا كان ذلك صحيحاً فسنتكتب أسماء القتلى من المسلمين الذين يدعي إنهم سقطوا في الدفاع عن جيرانهم اليهود "بحروف من نور ونار"، نكتبها الى جانب أسماء القتلى من اليهود، ولنقيم نصبا تذكاريًا لهؤلاء المائتين من الشهداء، ونسجل أسماءهم في متحف الكارثة والبطولة في وسط اورشليم القدس كما فعلنا عند ذكرنا لأسماء بعض المسلمين المخلصين الأوفياء الذين حاموا جيرانهم اليهود في بغداد، بل سيحب علينا آنذاك أن نلتمس من الحكومة العراقية الجديدة إقامة نصب تذكاري لهم الى جانب نصب آخر يجب ان يقام لتخليد ضحايا الفرهود من اليهود بدل القبر التذكاري الجماعي لهؤلاء الضحايا الذي كان قد أقيم في المقبرة اليهودية في بغداد، والذي دُكَّ وأزيل عندما أزيلت المقبرة لإقامة برج عبد الكريم قاسم.

فمنذ عدة سنوات يقوم متحف الكارثة والبطولة لضحايا المحرقة النازية في اوروبا، المقام في اورشليم- القدس، بجمع أسماء الأشخاص الذين أنقذوا اليهود وحموهم في الحرب العالمية الثانية في اوروبا والبلاد العربية، وقد بعثنا ببعض أسماء الجيران المسلمين الشرفاء الأبطال الذين حاموا جيرانهم اليهود العراقيين من الناهيين والمغتصبين الى هذا المتحف في اسرائيل والى متحف واشنطن للكارثة، لتخليد اسمائهم في سفر "انصار اليهود من بين أمم العالم أيام الكارثة" الذي يحتفظ به هذا المتحف.

رحيل الأديب شاؤول حداد كبير المعمرين من كتاب يهود العراق

الأحد ١٢ سبتمبر / أيلول ٢٠١٠



شيع يوم الجمعة ٣ سبتمبر ٢٠١٠ جثمان الاديب والمربي والصحفي الكبير الاستاذ شاؤول حداد (بغداد ١٩١٠- رماث غان ٢٠١٠) إلى مثواه الأخير، في موكب حافل، قام بتأبينه ابنته الشاعرة اسنات ابراهامي، والمحامي يحزقييل فتال وكاتب هذه السطور عن رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق، عددوا فيه مناقب الفقيه الذي كان من كبار المربين في العراق، ومدير مدرسة مسعودة شمطوب الابتدائية في محلة قرب باب الشرقي في بغداد. وكانت لغة التدريس فيها هي اللغة العربية، واطاف اليها في السنة السادسة اللغة الافرنسية ليتسنى للطلاب الراغبين للاتحاق بمدرسة "الليانس" التي كانت تدرس العلوم باللغة الافرنسية. وكان المرحوم من اوائل مدرسي الالعاب الرياضية الذين ادخلوا الالعاب الاوربية الى المدارس اليهودية، ككرة الطائرة والقدم والملاكمة والجنباذ التي حلت فيما بعد محل الرياضة التقليدية المعروفة "بالزيورخانة" التي كانت شائعة عند عامة الناس، يتصارع فيها الرجال ويقومون بالتمارين في حفرة على ايقاع نقر الدنابك أو اللعب باثقال خشبية على شكل القثاء كانت تعرف بالميل (جمع اميال)، ويعد أن توقفت مجلة المصباح (١٩٢٨)

لمؤسسها المحامي سلمان شينة ومحورها أنور شاول، من الصدور، تولى الفقيه مواصلة نشر وتحرير جريدة "البرهان"، الجريدة الأدبية الانتقادية الأسبوعية في ١٧ أكتوبر ١٩٢٩-١٩٣٠، وذلك بعد سنة من تحريرها من قبل الاستاذ سلمان كوهين، الذي اشرف على تحرير ١٣ عددا سابقا منها. وقد اعلن المحرر الشاب بانه فخور بخدمة الصحافة العراقية وناشد الشعب العراقي مساعدته على خدمته عن طريق الصحافة، عالج فيها المشكلات الاجتماعية والحضارية، وشجب اضاءة وقت الشباب في العادات التقليدية القديمة كالخمر والميسر، والزواج طمعا في المال والانغماس بالملذات بدل المطالعة والاهتمام بالعلوم الحديثة، وابدى انتفاحا كبيرا على الافكار التقدمية في الشرق والغرب، ودافع عن تعميم العلوم والثقافة الحديثة في العراق ودعا الى الاصلاح اقتداء بتركيا الحديثة وغيرها من الامم، والى وحدة الشعب العراق بكل طوائفه واديانه، وطالب بالاستقلال السياسي للعراق ليقف على قدم المساواة مع باقي الامم الراقية، وساهم مساهمة جلية في كتابة المقالات وترجمة القصص عن الافرنية والانكليزية في مجلة "الحاصد" لصديقه الشاعر انور شاول، والعجيب انه ذهب الى دار الخلود بعد اكثر من ثمانين عاما على كتابته لافتتاحيات جريدته هذه وما اشبه اليوم بالماضي إذ لم يزل العراق بحاجة الى اتباع نصائحه ونصائح غيره من الوطنيين العراقيين الاخير في الاصلاح والوحدة والاستقلال، وكأنه يتحدث اليوم الى الشعب العراقي الذي احبه وكرس زهرة عمره في التعليم والثقافة والصحافة، وكان من بين طلابه الكثير من الذين نبغوا واصبحوا من اعلام الثقافة والعلوم فيما بعد، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الاديب الكبير سامي ميخائل والبروفيسور ريموند موريه استاذ الفيزياء في جامعة النقب وكاتب هذه السطور. وكان يدعو في كل مناسبة الى استقلال العراق ونهضته العلمية الحديثة مهيبا بالشباب العراق للقيام بنهضة علمية واجتماعية وثقافية والالتزام بها لبناء صرح

العراق الحديث ومجده التليد. ومن مبادراته القيمة أن احد القراء نشر مقالا باسم مستعار شكر فيه المحرر على موقفه الشجاع وألقى اسباب التخلف في الشرق على بعض رجال الدين الجامدين من شيوخ وقسيسين وحاخامين. وفي اعقابها اعلن المحرر عن جائزة مالية تمنح لكل اديب يكتب قصة تؤكد على هذا الجانب من الجمود الديني في العراق المؤدي الى التخلف الحضاري.

واصل المرحوم واجبه التعليمي والثقافي، بعد قيام دولة اسرائيل وهروب الآلاف من الشباب اليهودي الى خارج العراق هربا من الاعتقالات والتعذيب، حتى اعلان تسقيط الجنسية العراقية عن الراغبين في التخلص من الاضطهاد، فوضع الاستاذ حداد مدرسته وكنيس المدرسة تحت تصرف وزارة الداخلية العراقية وهيتم الحركة الصهيونية على ادارة الهجرة الجماهيرية الى اسرائيل عامي ١٩٥٠-١٩٥١ من داخل المدرسة.

وفي عام ١٩٥١ وجد نفسه بعد الهجرة في في خيام معسكرات اللاجئين اليهود من البلاد العربية، فانضم الى دورة معلمين لمدة ثمانية اشهر لتأهيلهم للتدريس في المدارس الاسرائيلية ولإتقان اللغة العبرية التي كان يجيدها اثناء دراسته في مدرسة الاليانس، فبادر الى تأسيس مدرسة موقنة من خيام لم تستطع الصمود أمام الرياح والامطار في معابر القادمين الجدد مثل معبرتي قرية أونو وسكية الى ان منحته وزارة المعارف بعض الصرايف ليوصل عمله التطوعي فيها فجهزها بالكتب والمقاعد (الرحلات) لكي يستطيع تلاميذه الاربعمائة مواصلة دراستهم فيها، وواصل وظيفته التعليمية الى ان احيل الى التقاعد عام ١٩٧٣.

فاجأ الاستاذ حداد عام ٢٠٠٨ الاوساط الأدبية بصدور مجموعة قصصه القصيرة "وردة الحب" باللغة العبرية التي تعد بأسلوبها السلس ومواضيعها الواقعية وطريقة

السرد من روائع الادب العبري الحديث تحدث فيها عن ذكرياته عن العراق منذ بداية القرن العشرين والعلاقات الاجتماعية بين العرب واليهود فيها، وموقف المجتمع العراقي من المرأة ومآسي الزواج بين القاصرات والشيوخ وعلاقات الحب بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ليهود بغداد وقرية سندور في شمال العراق والمصاعب العسيرة التي واجهت القادمين الجدد في الفترة الاولى من تأقلمهم في اسرئيل والعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين القادمين الجدد من يهود البلاد العربية والمواطنين القدماء بالاضافة الى قصتين تناولتا ضحايا المحرقة النازية في اوربا.

وفي شهر (يوليو/حزيران) من هذه السنة، استبشرنا بصدور روايته القصيرة "الفلك الدوار" بالرغم من بلوغه من العمر عتيا وهو ١٠١ سنة من حياته الحافلة بالانجازات، تحدث فيها عن معاناة يهود كردستان من معاملة الأكراد المسلمين ومعاملة يهود بغداد الفظة لهم (أنظر مقالتنا في ايلاف والاحبار في ١٩/٠٧/٢٠١٠) وكنا قبل وفاته، على اهبة الاحتفال بصدور الكتاب في مركز تراث يهود العراق، ولكنه اضطر الى دخول المستشفى لضعف اعتراه فجأة، وهناك حدثني عن كتابه الثالث وهو مجموعة ذكريات عن حياته في العراق، فسرت للخبر ووعده بالقيام بنشره حال انتهائه من كتابته، ولما خرج من المستشفى واصل العمل في تأليف كتابه على الحاسوب، وعندما زرته في بيته اخبرني بانه يكاد ينهي كتابه ولم يبق سوى قصة واحدة سينجزها قريبا، تمنيت له الصحة وانجاز كتابة قصته الاخيرة. وفي اليوم التالي هاتفني ابنته اسنات قائلة بأنه بقي البارحة عاكفا على كتابة القصة الأخيرة من كتابه حتى انجزها في منتصف الليل وأوى الى فراشه. وفي صباح اليوم التالي عثروا عليه فاقد الوعي بسبب جلطة دماغية نقل على اثرها الى المستشفى، لم يمكث سوى خمسة ايام ثم جاءني نعيه الباكي بصوت ابنته المخلصة التي لم تترك لحظة واحدة

دون رعايته وتشجيعه على مواصلة الكتابة. وهكذا سقط كاتبنا سقوط الابطال في
ساحة الادب، رحمه الله برحمته الواسعة واسكنه فسيح جناته،
ولسان حالنا اليوم يردد مع السموأل بن عادياء:

تَعَيَّرْنَا إِنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقَلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ

المؤتمر الدولي الأول ٢٤-٢٥ أيار ٢٠١١ حول رحلة مع الصوفية

التاريخ، التنظير والممارسة في أكاديمية القاسمي، مجمع القاسمي للغة العربية، بمشاركة قسم الدراسات الإسلامية

الثلاثاء ٢١ يونيو / حزيران ٢٠١١

عندما وصلتني الدعوة الى المشاركة في هذا المؤتمر الدولي الأول حول "رحلة مع الصوفية: التاريخ، التنظير والممارسة"، الفريد من نوعه في إسرائيل، من أكاديمية القاسمي الخلوتية، تذكرت السنين الطويلة التي قضيتها في تحقيق كتاب "عجائب الآثار في التراجم والاخبار"، للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الحنفي الخلوتي (١٧٥٤ - ١٨٢٥)، وفيه يدون تاريخ مصر وتراجم رجالها من (١٦٨٩ - ١٨٢١) وتذكرت قول استاذي المرحوم البروفيسور دافيد أيلون عن الجبرتي إنه يعد عملاقا بين مؤرخي مصر من أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن التاسع عشر، أي "عملاقا بين اقزام"، ولم ادرك آنذاك عظمة الجبرتي إلا بعد أن قضيت عقدين من السنين عاكفا على كتابة بحثي باللغة الانكليزية عن حياته ومؤلفاته وعصره والأعلام الذين عاصروهم، ثم واصلت تحقيق كتابه "عجائب الآثار" باللغة العربية بعد مقارنة العشرات من مخطوطاته التي خطها بيده او نقلت عنها بعد وفاته، والطبعات التي نشرت في مصر وبيروت واشهرها طبعة بولاق عام ١٨٨٨، ثم تلتها طبعة دار الكتب المصرية، تحقيق أ.د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم وطبعة مدبولي التي عكف على تحقيقها الاستاذ عبد العزيز جمال الدين وألحق بها العشرات من الوثائق النادرة والايحات القيمة التي عثر عليها تكملة للفائدة وخدمة جلييلة لتاريخ مصر، غير انه لم يعتمد على مخطوطة الجبرتي بخط يده المحفوظة في مكتبة جامعة كمبردج بانكلترا وهي النسخة الأم التي يجب اعتمادها، بل اعتمد على طبعة بولاق التي

تصرف فيها الناسخ. ثم ادركت أخيراً أن سر عظمة الجبرتي كامن في تطبيق مبادئ الطريقة الخلوتية التي تلتزم بالقرآن والسنة، ومن مبادئها "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وان على المرید أن "لا تأخذه في الحق لومة لائم"، ولذلك ابتعدوا عن حطام الدنيا وعكفوا على الذكر والتلقين وتسليك المریدین لنشر العدل والتواضع والتوسط بين الرعية المظلومة والحكام الظالمين، فالعلماء هم أمناء الله على تطبيق الشريعة وإرشاد الحكام الى العدل والرفق بالرعية. ولذلك نراه يرتب تراجم الاعلام حسب تبحر العلماء في الشريعة والحديث النبوي الشريف وخاصة من كان من اقطاب الصوفية وشيوخ السجادة ومدى حمايتهم للرعية من جور الحكام الظالمين، وأعتبر العلماء "أولي الامر منكم" لا الولاة والحكام الذين تجب طاعتهم، كما نصّ عليه القرآن الكريم، ذلك لان الولاة الاتراك والمماليك المصرية لم يراعوا العدل الذي تنص عليه الشريعة الاسلامية وطبقها الخلفاء الراشدون من الصحابة والخلفاء العباسيين من سلالة النبي محمد، بل اصبحوا من الحكام الجائرين، ولذلك وضع الجبرتي تراجم الولاة وحكام المماليك والتجار في آخر قائمة تراجم اعلام كل سنة آرخ لها.

والتصوف الاسلامي هو ثورة روحية أمام ارسنقراطية الحكام المسلمين والكبراء العسكرية للجهاد الأصغر، جهاد دار الحرب، وتمجيد القوة والعنف وتكريسهما لخدمة شوكة الاسلام، أمام المشركين، وهو ايضا هروب من الواقع الاجتماعي والسياسي والظلم والفقر والجوع والبحث عن دواء روحي مستمد من العزة الالهية والنور النبوي لأدواء الحياة اليومية والسياسية والفوارق الاجتماعية والطبقية في العالم الاسلامي، حاولوا مداواتها بزيارة الاضرحة والتوسل بالأنبياء والاولياء وكراماتهم والدعاء والصلوات والاحلام والرؤيا. ويشق اسم الطريقة الخلوتية من الخلوة التي

هي من رياضاتهم ويمارسونها اربعين يوماً، وهم يعرفون بالسادة الخلوتية وأهل الله، وطريق القوم، لالتزامها بأحكام القرآن والسنة، وعماد هذه الطريقة هو "الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" وعلى المرید أن "لا تأخذ في الحق لومة لائم"، وأن يتنزه عن حطام الدنيا، وإذا عرضت عليه الدنيا، كالتقضاء والفتوى فلا يقبلها، وان يكون فيه أنس وتواضع وتقشف وانكسار وأن يكون متواضعاً في حديثه وتصرفاته وفي ملبسه ومأكله، وأن التلقين والتسليك يعتمدان على الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس في تدرجها في تلقين الأسماء السبعة، من الاسم الاول هو: لا إله إلا الله"، والى السابع، وفي السادس تسمى النفس فيه مرضية، وفي السابع: قهار، وتسمى النفس فيه: كاملة. هذا تلخيص ما ذكره الجبرتي عن طريقته الخلوتية.

وفي النظرة الخاطفة التي سألقياها فيما يلي عن وقائع المؤتمر، سأشير الى انطباعاتي العامة عن بعض المحاضرين ومحاضراتهم، وهذا لا يعني ان الآخرين لم يتميزوا بمحاضراتهم وتجديداتهم. ولا بد لي من ان اشير هنا الى انشاد الموشحات الروحية والمدائح النبوية بمصاحبة الكمان الذي تخلل الجلسات، والذي أضفى على جو المؤتمر تسامياًً روحياً وطمأنية نفسية تهفو اليها الأرواح، فالمتصوفة يتميزون بالتسامي الروحي والتواضع ويبيحون السماع والموسيقى بمصاحبة الدف والكمان، كعنصر هام في الأذكار والتسامي والوجد للإتحاد الروحي مع العزة الإلهية والاشراق النبوي.

وعند دخولي أكاديمية القاسمي في باقة الغربية في المثلث، شعرت بروحانية لطيفة تسود مبنى الاكاديمية الواسع. كان النظام والترتيب والهدوء والنظافة والوقار من السمات الرئيسية التي سادت هذا المؤتمر، فكل سؤال وطلب يجاب بابتسامة وينفذ بسرعة، مع ثقة بالنفس وسيطرة تامة على الأجهزة الالكترونية التي نقلت بعض

المحاضرين من دولهم الى قاعة المؤتمر، وشعرت كأن عجلة الزمن تدور عائدة بي عقودا عديدة من السنين الى الوراء، عشرات من طلابي النجباء الذين لم التق بهم منذ بداية تعييني محاضرا في الجامعة العربية في مطلع عام ١٩٦٦، حين تهافت الطلاب على دراسة الادب العربي الحديث باشراف البروفيسور مناحيم ميلسون واشرافي، مما ازعج الاساتذة الكبار الذين كانوا يدرسون الادب العربي الكلاسيكي، من الجاهلية والى نهاية العصر العباسي. هؤلاء الشباب الذين كانوا في نهاية العقد الثاني من حياتهم، أصبحوا الآن من كبار الاساتذة في الجامعات الاسرائيلية وفي أوروبا وأمريكا، وقد وخط الشيب رؤوس معظمهم، ولكنهم ما زالوا محافظين على الاحترام والود والاخلاص الذي تميزوا به دائما، يحيطون بأساتذتهم من الجامعة العربية والجامعات الأخرى، مرحبين. عندها شعرت بأن قبسا من شعلة العلوم التي تميّز شعار الجامعة العربية قد انتقل الى أكاديمية القاسمي والى اساتذتها الذين حافظوا عليها وهاجت منيرة، ملتزمين بمبادئ النزاهة العلمية والتفكير المنطقي السليم والإحاطة بالمصادر الموثوق بها، مع تواضع العلماء. ولم اصدق نفسي بأن اربعة عقود مرت بمثل هذه السرعة منذ ان كانوا طلبة من القرى العربية في مقتبل العمر، يهرهم كل شيء جديد في الجامعة، فالانتقال من القرية أو البلدة الى المدينة، ومن المدرسة الى الجامعة، ومن اللغة العربية الى الدراسة باللغة العربية، والاعتماد على كتب بلغات اوروبية وطريقة تدريس مختلفة تماما عما تعودوا عليه في المدارس العربية، يدرسون جنبا الى جنب مع الطالبات والطلاب اليهود الذين كانوا اكبر سنًا منهم بسبب خدمتهم في الجيش، ولكن النبوغ والمثابرة اللذين تميز بهما هؤلاء الطلبة النجباء، مهذا جميع الصعاب. وها هم ما يزالون يقابلون اساتذتهم القدامى بمبدأ جليل هو "من علمني حرفا"، طلاب أوفياء، قابلو اساتذتهم بكل الترحاب والوفاء والمحبة. هذه المشاركة بين الاساتذة من مختلف الاديان والقوميات والدول

في مثل هذا الجو الاكاديمي الحر، وجلوس اساتذة اسرائيليين من يهود وعرب، فلسطينيين واسرائيليين جنباً الى جنب في جو علمي موضوعي متحرر، جدد الامل بمستقبل جديد تنهار فيه أسوار الكراهية والاحقاد والتدمير والحروب، فحمدت الله على أن الدنيا هنا في أكاديمية القاسمي العامرة، ما زالت بخير وأن بعض طلابي الذين اكتويت بنار نكران الجميل منهم ممن اشرفت على اطروحاتهم لنيل الدكتوراة ورعيتهم الى ان بلغوا الاستاذية، هم قلة ضئيلة، فقد كان هنالك ممن حذرني من بعضهم، وقال: "عقرب لا تقرب"، ونصحوني باستعمل الدواء العراقي للعقارب، ولكني لم افعل، رحمة بهم، وقلت، نزوة شباب وستأدبهم الايام والليالي، و"من لا شيخ له، فشيخه الشيطان"، وخاصة عندما تمسكنا، فلما تمكنوا قال لي [أشطرهم] "لست بحاجة اليك بعد اليوم!"، وشعرت آنذاك كأنني "مجير ام عامر"، ومثلها لحقه العار والشنار، وترحمت على المتنبّي الذي قال، "إن أنت اكرمت الكريم ملكته"، ولكن الله عوض بمثل هؤلاء الاساتذة الكرام الذين أصبحوا ينادوني الآن "بأستاذ الأجيال"، بارك الله فيهم، وبارك الله في الحليب الذي رضعوا منه وعوضنا بهم خيرا عن ناكري الجميل.

حضر هذا المؤتمر بالاضافة الى الأساتذة اليهود والعرب من اسرائيل وفلسطين بما فيهم أ. عمار بدوي مفتي محافظة طولكرم، يتداولون في أمور علمية وتاريخية جالسين كالأخوة جنباً الى جنب مع أساتذة من اوروبا وامريكا والشرق الأوسط، من جامعة نورث كارولينا وجامعة مدريد وجامعة اسطنبول، ومركز التعددية الاسلامية في نيو يورك، وجامعة سلجوق بتركيا، وجامعة القدس وجامعة النجاح وأكاديمية القاسمي، والجامعة العربية وجامعة حيفا وتل ابيب، لا يشغلهم شغل سوى مبادئ التصوف

الإسلامي. فبعد الافتتاحية التي رُحِبَ فيها د. محمد عيسوي رئيس الكلية بالضيوف، استعرض د. ياسين كتاني، رئيس مجمع اللغة العربية ورئيس المؤتمر، مشاريع مجمع اللغة العربية، ابتداءً بالقاموس الوافي في ألفاظ العربية المعاصرة، وموسوعة أبحاث في الأدب الفلسطيني الحديث، وانتهاءً بمجلته المحكمة "المجمع"، هذا وقد أكرم المشرفون على المؤتمر اساتذتهم في الجامعة العبرية بتروؤس الجلسة الافتتاحية لليوم الأول، التي تناولت: "التصوف الإسلامي في الطور ما بعد الكلاسيكي" بأدارة أ.د. سارة سويري المتخصصة في التصوف الإسلامي، فألقت محاضرة عن "الملاطية في الأندلس"، وحاضر البروفيسور يوحنا فريدمان العميد السابق لكلية الآداب وعضو المجمع العلمي القومي الإسرائيلي في القدس، عن "إرتباط الصوفية بالنشاط العسكري- المهدي في السودان"، وشارك عن طريق الفيديو الدكتور أدوارد بدين من جامعة زوريخ بحديث عن الصوفية بين السلفية والوسطية في عصر القنوات الفضائية، والقى د. يتسحاق فايسمان حديثاً عن "التصوف في عصر العولمة"، ولم يحضر أ.د. بيرند رادتكه من جامعتي أوترخت وهامبرغ المؤتمر لمرض طارئ.

أما الجلسة الثانية فقد ترأستها د. عرين سلامة - قدسي من أكاديمية القاسمي وجامعة حيفا، ودارت حول: التنظير الصوفي ومكانة الرسول (ص) فيه، وتحدثت عن "التشبه بالصوفية"، وابدت تحراً في محاضرتها، وبرزت شخصيتها بين الحضور، وادهشتهم بتمكنها من الخطابة باللغات العربية والعبرية والانكليزية، وثقتها بالنفس وادارتها الحكيمة، وشارك في هذه الجلسة أ.د. كارل ايرنست من جامعة نورث كارولينا، وحاضر عن "الذات في شعر الحلاج"، أما الدكتور مويزيس جارسيا من جامعة مدريد، فقد طبق نظريات جديدة من علم النفس الحديث على الوحي النبوي

في محاضراته عن "حالة ما بين النوم واليقظة، الاحلام، الرؤى والتأملات كعناصر صوفية في تجربة الوحي النبوية"، وساهم بمحاضرة شيقة كل من أ.د. جمال جودة من جامعة النجاح عن النبي محمد إمام الزهاد والمتصوفين، في دراسة له عن كتاب الزهد لابن حنبل، والباحث خالد أبو راس من جامعة بار ايلان، عن "التخلق بأخلاق الله" في التصوف الإسلامي.

وفي الجلسة الاولى من اليوم الثاني من المؤتمر، التي ترأسها د. علي جبارين، تحدث فيها متخصصون في التصوف الاسلامي في العصر الكلاسيكي، تحدثت أ.د. دفته إفرات من الجامعة المفتوحة، عن شيوخ الطرق، والورثة الروحانيين للرسول، وأ. ستيفان سليمان شوارتص، المسلم من اصل يهودي متزمت، من مركز التعددية الاسلامية بنيويورك، ألقى فيها محاضرة قيمة حول "العلاقات بين الطريقة البكتاشية والفكر العلوي في كردستان التركية. جماعة "أهل الحق" والعقائد المسيحية- اليهودية والبوذية" وهي احدى المحاضرات الشاملة التي تبين العناصر المستمدة من عقائد دينية مختلفة للطرق الصوفية التي ينتمي إليها اليوم أكثر من ٢٦ مليون من المسلمين كالطريقة البكتاشية في ألبانيا والعلوية في كردستان التركية والعراقية، والأكراد الايرانيين والعراقيين، ووضح ان مشايخ الحركة البكتاشية الذين تبنا شيئا من العناصر الروحية المسيحية كانوا المرشدين الدينيين لجنود الجيش الانكشاري العثماني، وان هذه الحركات الصوفية تشترك بملامح خالصة وهي التزامها بالعلمانية والسلطة الممنوحة للنساء، وتوظيف الغناء والرقص والادوات الموسيقية في التعبير الروحي. ثم تلاه أ.د. ناحم ايلان، عن "إرهاصات الادب الصوفي اليهودي"، ثم تلاه د. عرين سلامة- قدسي عن "التشبه بالصوفية" في التصوف البغدادي في القرنين

١٢-١٣. ود. مشهور الحبّازي من جامعة القدس عن الحكيم السهروردي ونظرية
الاشراق

وفي الجلسة الثانية، عن الطريقة الخلوتية، التي ترأسها الباحث النابه أ.د. خليل عثمانه، الذي لم يجد أساتذة الجامعة العبرية افضل منه في اسناد تحقيق كتاب أنساب الأشراف للبلاذري: القسم الثاني من الجزء السادس، وقد شرف هذه الجلسة سماحة الشيخ عبد الرؤوف القواسمي وغيره من المشايخ الكبار الذين اضافوا اليها هبة ووقارا خاصا، القى فيها د. خالد محمود كلمة عن "آداب المريد مع الشيخ"، وعندما جاء دوري لإلقاء محاضرتي، وقد طُلب مني ان القيها باللغة الانكليزية، وجدت أن من المناسب إلقاءها باللغة العربية اكراما لسماحة الشيخ القواسمي وباقي الحضور من المشايخ والأساتذة العرب والمستشرقين الذين يحسنون اللغة العربية، وخاصة لان المؤتمر يعقد في مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، وفي باقة الغربية، وعن المتصوفة الخلوتية. وقلت ان ما يميز تاريخ الجبرتي والتزامه الصدق والدقة ونقده لظلم الحاكم الجائر دون رياء وتملق ومدح كاذب، ودعوته الى نصره الامام العادل، ودفاعه عن الشعب المظلوم، جاء نتيجة لتطبيق مبادئ الطريقة الخلوتية.

وكانت الجلسة الثالثة الختامية مكرسة لبحث "النزعة الصوفية في الادب العربي"، كان من فرسانها أ.د. فاروق مواسي الذي نقشت ابياته في حجر الزاوية لتدشين الاكاديمية وفيها يؤرخ في البيت الأخير بحساب الجمل لتاريخ بناء الأكاديمية، وتحدث في كلمته عن المصطلحات الصوفية في شعر عبد الصبور، كالوارد والتلوين والتمكين، وبلوغه الذروة في كتابه "مأساة الحلاج" حيث "تضفي تفسيراً جديداً لمواقف وحالات ومقامات، فجعل الوجد متحركاً يقاوم الشر، والبطل يقبل على صلبه

تضحية وبطولة وكأنه المسيح في العقيدة المسيحية...". وكانت محاضرات كل من د. احسان الديك من جامعة النجاح عن "النزعة الصوفية في الشعر الفلسطيني المعاصر"، والعلامة يوسف سدان المتخصص بالادب الشعبي الوسطي محاضرة عن "حكاية الفقير عبد الله الأندلسي ودلالاتها الصوفية"، واد.د. لطفى منصور، عن شعر العشق والخمر عند الصوفية، باللغة الالهية في تجديدها، وانهى المؤتمر رئيس مجمع القاسمي للغة العربية ورئيس المؤتمر د. ياسين كتاني في محاضرة رائدة عن "موتيفات صوفية في ثلاثية الخراط الروائية "رامة والتنين". وستنشر المحاضرات التي القيت في هذا المؤتمر الفريد في كتاب خاص. وقام بتلخيص المؤتمر الدكتور ياسين كتاني والسيدة د. عرين سلامة- قدسي بالكلمات التالية:

"اختتم مؤتمر مجمع اللغة العربية وقسم الدراسات الإسلامية في أكاديمية القاسمي أعماله يوم الأربعاء الماضي، وقد استغرق يومين كاملين، عقدت فيهما سبع جلسات، شارك فيها من مختلف دول العالم نحو ثلاثين باحثًا متخصصًا في التصوف الإسلامي بسياقاته المختلفة. وقد أقيم المؤتمر على شرف أتباع الطريقة الخلوتية الجامعة ومرشدهم الشيخ عبد الرؤوف القواسمي، الذي شارك بحضوره اللافت في بعض الجلسات. وبعد تلاوة عطرة من الذكر الحكيم، افتتح المؤتمر الدكتور محمد عيساوي رئيس الأكاديمية، تلاه الدكتور ياسين كتاني رئيس مجمع اللغة العربية، مرحبين بالحضور، مؤكدين على ميثاق الأكاديمية وأهدافها، وعلى أهمية المؤتمر في مدّ الجسور مع الباحثين وهيئات البحث العلمي في جميع أنحاء العالم، بغية تأليف القلوب والعقول وتقريب وجهات النظر صوب أهداف العلم النبيلة. في أعقاب ذلك توالى المحاضرات وفق البرنامج المقرّر، تتلخّص أهمّ الانطباعات على ما جاء فيه بما يلي:

أبرز المؤتمر جمال التنوع والتلون في الفكر الصوفي الإسلامي، في عصر بات فيه نزعات التعميم هي الأروج والأيسر منالا، كان هناك في المؤتمر إصرار على إبراز الفريدة التي تعكسها النظريات والمفاهيم الصوفية المختلفة، والحركات والممارسات التي تتخذ لها في كل زمان ومكان شكلا ولونا خاصين. لقد أفرز التصوف الإسلامي منذ أن حظي بالتأسيس، ترسيخ الهوية الجماعية الواضحة للجماعات الصوفية في إطار حياة منظمة الملامح داخل المراكز الصوفية المنتشرة في البلاد الإسلامية، وذلك منذ الطور الذي تقدّم نشأة الطرق الصوفية في القرن الثاني عشر للميلاد، وما تلاه. استطاع التصوف الإسلامي المؤسس داخل المراكز الصوفية أن يقدم للإنسان المسلم خطاباً آخر لحياة الروح وحياة الجماعة. لقد شرع التصوف الإسلامي المنظم يفتح مضاربع أبوابه أمام كل طبقات المجتمع مسهما في خلق رابطة دينية محكمة تشكّل البديل المنشود لواقع مفكك يعجّ بالصراعات الدينية والسياسية. استطاع نشاط المشايخ في المراكز الصوفية الممتدة شرقاً وغرباً منح العامّة صيغةً جديدةً لروح التعاضد والتماسك بين المسلمين. من هنا كانت المحاضرات التي بينت دور الشيخ الصوفي في رسم جوهر المشروع الصوفي، وباتت ضمنه العلاقة بين الشيخ والمريد المحور الأساس منذ الطور الكلاسيكي، وصولاً إلى عصر الطرق والسلاسل الصوفية. وبدخول التصوف العصر الحديث بتحدياته الجديدة، تجد بعض الأنشطة الصوفية ملاذها في العمل السياسي، ولا يتوانى كثير منها عن التعاطي مع العولمة، وتوظيف عناصرها في الانتشار والتواصل مع الأتباع والمنتسبين. ورغم إحاطة المؤتمر الشاملة لمختلف القضايا من خلال المقاربات المميزة للباحثين الأجلاء، فلا يزال الكثير مما يمكن بحثه في الفكر الصوفي في الإسلام، ولا تزال أسئلة كثيرة تشغل الباحثين في هذا الحقل الشاسع. وحسبنا في هذا المؤتمر أن نكون قد وفقنا في إثارة الأسئلة التي ينبغي لها أن تُطرح، وفي استشارة الباحثين على المضى في تناول

ما أثير خلال الجلسات. وإنما عازمون على نشر المحاضرات التي قُدمت خلال أعمال المؤتمر في كتاب سيصدر قريباً، إسهاماً منا في التأسيس لخطاب عالمي جديد ينظر إلى حضارة الإسلام في أطوارها وأشكالها المختلفة نظرةً حقّ وإحراقٍ بعد مرور زمن طويل على رؤى التعميم والتسطيح والانتقائية الفكرية التي جعلت تخدم أهدافاً لا يجمعها والبحث العلمي أيُّ جامع".

قضيت يومين رائعين من المشاركة في المحاضرات المجددة عن طرق اسلامية صوفية تدعو الى المبادئ السامية من عدل وتواضع ورحمة ومساعدة الضعفاء والمساكين والتسامح ومشاركة المرأة في الحياة العملية ودراسة العلوم الحديثة والمشاركة فيها، وزاد سروري عندما سمعتي لقول الباحث ستيفان سليمان شفارتس بأن هناك بضعة ملايين من المتصوفة في العالم الاسلامي يدينون بالتسامح والتواضع والحب وأن هناك من اتباع الصوفي الأكبر ابن العربي من الذين يدينون بدين الحب، و"الحب دينهم وايمانهم"، ولا يقولون بالجهاد الأصغر بالسيف وكرهية الآخر وقتله عن طريق القنابل والرصاص والمفخخات والدمار وإبادة من لا يجاريهم في معتقداتهم حتى ولو كانوا من المسلمين، فتركوا الملايين من الأرامل والأيتام المسلمين في العالم الاسلامي وحده. وأسألك الآن، ماذا كان يحدث لو اتبع الطالبان الأفغان وغيرهم من المتشددين الإسلاميين والاخوان المسلمين، مبادئ الطريقة الخلوتية التي اتبعها سماحة الشيخ عبد الرؤوف القاسمي الذي انشأ أكاديمية مرشحة لتكون أول جامعة اسلامية في إسرائيل ومدارس بمستويات مختلفة لنشر "العلم الصحيح والأدب اللبابة"، واخرج أجيالاً من الشباب العربي المسلم المتنور ما تفخر به كل امة وكل دولة في العصر الحاضر. إذن، لحقنوا دماء المسلمين وجنبوا العالم هذا الخوف من الاسلام والمسلمين وهذا العار الذي يلحقونه بالدين الحنيف كما يفهمه الخلوتية،

وتوصلتُ الى نتيجة هي: لو أنشأت الشعوب الاسلامية قيادة شعبية تتبنى مبادئ
الخلوتية بالإضافة الى قيادة فكرية علمية حكيمة في الدول العربية تبادر الى نشر
العلوم والتكنولوجيا الحديثة كمنتدى الفكر العربي والمجلس الأعلى للعلوم
والتكنولوجيا، الذي يشمل مركز تنمية الموارد البشرية، وجميعها من تأسيس سمو
الأمير الحسن بن طلال لمحاربة الفقر والمرض والجهل وشحّ المياه والتصحر في
الشرق الأوسط، بتعاون جميع دول المنطقة والعالم الغربي، لأصبحت منطقة الشرق
الأوسط بغناها بالثروات الطبيعية، في طليعة الدول الحرة الديمقراطية التي تنعم
بالرفاهية والتمدن.

تأملات في (روح جديدة - خطاب مهاجري الدول الإسلامية) ودمهم لخطاب الرئيس أوباما

الأربعاء ٢٧ أبريل / نيسان ٢٠١١

كنت اظن أنني عاشق العراق الوحيد ولذلك "ألقت الاقدار تبعات هذا الهوى على كفتي"، ولكنني أدرك الآن بأني أكاد أن أكون الوحيد الذي ألقت الأقدار على عاتقه تدوين ذكرياته عن العراق باللغة العربية، هذه اللغة الشاعرية التي تأسر كل من يقع في شبك سحرها الحلال، فإذا بي اتلقى رسالة من الصحفي والاعلامي الإسرائيلي - العراقي الأصل جاكى حوكي، يضمناها بيان بعنوان: "روح جديدة - خطاب مهاجري الدول الإسلامية" كتب باللغات الإنكليزية والعبرية والعربية والفرنسية والإيطالية لتعميمها بين جميع الشعوب. وعند قراءتي لهذا الخطاب الجريء تذكرت بأني اقترب من ٢٥ أبريل وهو تاريخ رحيلي عن الرافدين المباركين اللذين روياء عروفي خلال ٢٥٠٠ عاما وما يزالان يجريان بحنين دافق لا ينضب في دمائي، وان أخبرني أصدقائي بأن اعداء العراق، "لا ردّد الله لهم صوتا ولا البيد"، يقطعون عنه المياه بسدودهم ومكرهم "والله خير الماكرين". أخذت أنقب عن عشاق آخرين من بين الكتاب اليهود ومثقفهم الذين يترنمون بحنينهم الى مسقط الرأس في البلاد العربية وإلى العادات والتقاليد الشرقية التي تسري في دمائهم خلال آلاف السنين التي عاشوا فيها في ربوع شمال افريقيا والهلال الخصيب وغيرها من الدول العربية والإسلامية، أو يتماهون ويتضامنون مع ذكريات آبائهم وحنينهم الى أوطانهم التي فارقوها عنوة أو هجروها عن إيمان ديني أو غيبي بحتمية العودة الى أرض الميعاد. وقد قامت الدكتورة حيلي ابراهام ايتان اليمانية الأصل ومحرة مجلة "شبيليم - سُبل، بنشر اطروحتها "آلام الجذور المزدوجة"، وهو دراسة مسهبة عن آلام الذكريات لمن

هجر وطنه الأول الى وطن آخر ووجع الحنين والصراع بين الماضي والحاضر في نفسه.

وعند قيام دولة اسرائيل ورفض العرب لقرار الأمم المتحدة في التقسيم، شنت جيوش الدول العربية السبع هجومها في ساعة إعلان قيام الدولة. ترى ماذا كان سيحدث لو أفلحت هذه الجيوش الجرارة المتحمسة، في إلقاء إسرائيل في البحر كما وعد قادتها؟ أو لو وافقت الدول العربية على قرار التقسيم الذي كان يعد آنذاك من رابع المستحيلات؟ ولكن الأمر المؤكد هو انهم كانوا سيحقنون دماء الآلاف من خيرة الشباب بين الطرفين، ولساد السلام والرفاهية والخير جميع دول المنطقة. ولكن "كلمة يا ريت، عمرها ما كانت تعمّر بيت". وبعد نجاح اسرائيل في صد الهجمات الكاسحة، أخذ الكثير من اليهود الشرقيين والمتدينين عامة، يؤمنون بوعود أنبياء إسرائيل التي تحققت بالعودة على أجنحة النسور، وفسروها بأنها الطائرات التي أكثرها صباح نوري السعيد وشركائه من الوزراء العراقيين. ولكن سرعان ما خاب أمل الكثير من يهود البلاد العربية في المرحلة الأولى من استيعابهم في معسكرات خيام اللاجئين التي ضُربت أطناؤها على عجل قرب رمال بيارات البرتقال الحزين في كثير من القرى المهجورة المحاطة باسياج نبات الصبار، وكان آخر من بقي في هذه الخيام، اللاجئين من يهود البلاد العربية الذين جُمّدت اموالهم المنقولة وغير المنقولة، واعانتهم الحكومات الاسرائيلية باعمال يدوية شاقة موفته على التأقلم وفرضت عليهم ثقافة جديدة يشوبها شعور بالتفوق الحضاري بعد استقلال إسرائيل الذي بدا أول الامر اسطورة مستحيلة أمام ثقة القادة العرب والشعوب العربية التي اعتادت على ضرب الأمثال عن اليهودي التائه، كالذل والمسكنة والجبن والبخل والتعامل بالربا الفاحش واستغلال الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيتها. أما يهود أوروبا

الذين طبقوا النظريات القومية الأوروبية وأسلوب حلّ المشاكل عن طريق التخطيط والمفاوضات أو السلاح وفرض الأمر الواقع، فقد ادركوا ان الدعاء والصلوات خلال قرون طويلة لم تحقق الطموحات الدينية والقومية والسياسية، فخططوا لبناء دولتهم المستقلة الحديثة القائمة على التصميم المسبق والنظريات العلمية والديموقراطية الجديدة وحرية الفكر والتصنيع والعلوم والتكنولوجيا الحديثة، وفتحوا الابواب عنوة أمام بقايا يهود المحرقة النازية للعودة الى الديار المقدسة، مصممين على عدم الوقوع مرة اخرى تحت رحمة شعوب الأغيار وحكوماتهم، رضي الجيران أم أبوا. ولتعويض يهود أوروبا من بقايا المحرقة النازية عن المأساة المروعة التي حلت بهم، قامت الحكومات الإسرائيلية بنقلهم على وجه السرعة من الخيام الى بيوت ثابتة بفضل التعويضات التي حصلوا عليها من المانية اديناور الديموقراطية وتبرعات يهود الشتات واعتناء الحكومات الاسرائيلية بتعويضهم عما قاسوه من ويلات الوحش النازي.



ويبدو أن مؤامرة تهجير يهود البلاد العربية بدأت تحاك بين المانيا النازية وحكومة رشيد عالي الكيلاني وتحريض الحاج أمين الحسيني وبطانته الفلسطينية التي رافقته الى العراق في عام ١٩٤١، وقد فضحت مجلة "روز اليوسف" في عددها المؤرخ ١٣ ١٢ ١٩٩٣، مؤامرة الحكومات العربية التي تبنتها جامعة الدول العربية حول طرد اليهود: "ففي الفترة من ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٥٥ اصدرت الجامعة العربية عدة توصيات - غير معلنة - بممارسة ضغوط على اليهود في البلاد العربية لمغادرة بلادهم المنتمين اليها .. وتبعت مصر اسلوبا أمنيا مشددا .. وكان على من يرغب السفر للخارج لا يقبل طلبه الا بشروط الالاعودة النهائية...)(فيكتور نحيماس، الرجل الذي ولد مرتين، ٢٠٠٤) وكان العراق السبّاق الى هذه "المكرمة المجيدة"، فبعد الفرهود تم تجميد اموال اليهود وترحيلهم خالي الوفاض. حتى أن المرء ليتساءل هل التاريخ يعيد نفسه أم أن الشعوب تعيد تكرار تاريخها؟ أو لعله من قبيل الصدف أن "غزوة خيبر" التي تلاها طرد يهود الجزيرة العربية بدعوى ان لا مكان لديانتين فيها، لا يبدو مصادفة تاريخية. وكما ان يهود الجزيرة العربية لم يسمح لهم باصطحاب شيء من اموالهم المنقولة بعد غزوة خيبر، سوى حاجياتهم الضرورية واسكفة أو عضادات الأبواب التي حفرت فيها "المزوزه" (رق تدوّن عليه اصحابان من سفر التثنية مغلف ومثبت في عضادة أو اسكفة دور اليهود يعتقد أنها تدفع الشر عن ساكني الدار. قاموس سجيبي، عبري-عربي)، لم يسمح ليهود البلاد العربية والعراق بصورة خاصة اصطحاب اموالهم المنقولة، فبعد فرهود العراق (١٩٤١) والاعتداءات بالقتل والنهب على يهود البلاد العربية في حرب ١٩٤٨ وبعدها، طرد اليهود من أوطانهم. وقد استطاع يهود العراق اصطحاب حاجياتهم الضرورية وأخذوا معهم "مزوزات" دورهم لنقلها الى بيوتهم الجديدة في اسرائيل، ويحدثنا الأستاذ فاضل شناشيل محرر "مجالس حمدان" مع الاستاذ جلال جرمكا، عن النحوس

والمصائب التي حلت بمن سكن دور اليهود وحوانيتهم بعد هجرتهم، وخاصة في سوق الشورجة، روى فيها ما يعد من غرائب المصائب، كقوله في رسالة له الى كاتب هذه السطور:

" .. اما بخصوص بيوتات اليهود العراقيين فهناك قصص كثيرة وشاهدتها وعاصرتها بعيني عن تلك البيوت التي اصبحت منحوسة اصلا، وكل من يسكن فيها فلن يرى خيرا بالبيت، وقد كنا نسكن منطقة القشل التي غالب سكانها من اليهود وكان جارنا صالح اليهودي قد ترك بيته واستلمته الحكومة العراقية وسكنت فيما بعد بالبيت جارتنا ام قاسم، فقد جن اخوها بالبيت وبعد سنين قتل ابنها بالحرب العراقية الايرانية، وقد ولدت فيما بعد ولدا قصيرا قرما ,, وفي محلة طاطران قد حلت اللعنة على اغلب البيوت، فاغلب ساكنيها يعملون ليلا ونهارا وهم في حالات البؤس والشقاء وقد قتل ابناء الكثيرين بتلك البيوت في حروب وقضايا سياسية، وفي محلة النوراة تسكن احدى النساء وقد بقيت أرملة ولم تتزوج لحد الان وحين سألتها لماذا لم تتزوجي لحد الان ؟ اجابتنى، اني سكنت بيت أناس يهود ظلما، لهذا بقيتُ ما متزوجة، فقلت لها، لماذا لا تتركين البيت؟ اجابتنى اين اذهب؟ ولم يبقَ لديّ أخوة او أهل فكلهم ماتوا وقتلوا بالحرب..."

اللهم لا شماتة في ابناء وطني الأول و"الحب للحبيب الأول". حقا "إن الله يمهّل ولا يهمل"، ولكن هل هناك شيء من الصدق في معتقدات اليهود بأن البيت الذي لا تدق على عضادة بابيه من جهة يمين الداخل الى البيت، تحل فيه اللعنة وتصاحب النحوس سكانه، كما تحدثنا مجالس حمدان وما يرويه الشيوخ ورجال الدين اليهود؟ فهم يؤكدون أن المصائب التي تحل ببيت من البيوت راجع الى خطأ في كتابة

الأصحابين، أو أن "الممزوجة" مزورة، فيقومون باستبدالها بآخري كتبت على رق "كاشير" (حلال)، والله أعلم بمثل هذه الغيبيات والمعتقدات وصحتها أو كذبها.

وقد نجحت الحكومات العربية في طرد يهودها كلاجئين معدمين رغبة منها في تحطيم اقتصاد الدولة الوليدة وانهارها عندما كانت تعاني من ضائقات مالية واقتصادية وعسكرية، غير أن نقمة الحكومات العربية كانت قد انصبت على يهودها اللاجئين الى إسرائيل. فقد اضطر يهود البلاد العربية الذين سلبت اموالهم الى القدوم الى اسرائيل وقام الشباب منهم بإعالة الآباء بدل مواصلة الدراسات العالية التي طمحو اليها، واضطرت بعض الامهات الى العمل كخادمات في بيوت الأغنياء، ما أسقط مكانتهن القديمة من العز والكرامة، في حين مكنت التعويضات الألمانية من الناجين من المحرقة من الاستقرار في أحياء محترمة واكمال الدراسات الجامعية والعالية، الامر الذي أدى الى الفوارق الطبقية والعلمية والثقافية بين يهود البلاد العربية ويهود اوربا وامريكا. وأمام تعالي اليهود الغربيين على يهود البلاد العربية، ظهر "ادباء الاحتجاج والشكوى" على الاجحاف بحقوق يهود البلاد العربية، وخاصة بين أدباء يهود العراق الذين انقسموا على انفسهم الى أربعة تيارات سياسية وفكرية وثقافية:

التيار الاول، تيار اعضاء الحركة الصهيونية السرية في العراق الذين تعلموا اللغة العبرية سرا نطقا وكتابة، واستطاع قادتهم بمواهبهم السياسية وتجاربهم التنظيمية، الاندماج في الحياة السياسية في اسرائيل وتسلم مهام حكومية ومناصب وزارية أو تم ترشيحهم من قبل الأحزاب السياسية التي انتموا اليها لمنصب أعضاء في الكنيست الإسرائيلية، ومن ابرز هؤلاء الوزراء، السادة شلومو هليل ومردخاي بن فوراث وشوشانه اربيلي-الموزليانو وفؤاد - بنيامين بن إيعزير وجدعون عزرا وموشي نسيم، وغيرهم من الوزراء من مواليد العراق، ومن النواب الذين انتخبوا أعضاء في

الكينست، نذكر على سبيل المثال لا الحصر دافيد فتال ومرديخاي بيبي ونزهت قصاب ودالية اتسيك ورونيث تبروش وغيرهم كثيرون، أما الآخرون من الذين عرّضوا حياتهم للخطر في نشاطهم الصهيوني السري في العراق ونجوا من حبل المشنقة، فقد اكتفوا بمناصب تلائم مواهبهم الإدارية، بينما شعر آخرون بان الأحزاب الصهيونية لم تقدّر تضحياتهم حق قدرها، فعانوا من احساسهم بالغبن والخذلان، فانقلبوا على الدولة كما فعل جدعون جيلادي (جلعادي) (الحلة ١٩٢٩ = نعيم خلاصجي)، في كتابيه باللغة الانكليزية المترجم الى العربية عن "عنصرية اسرائيل ضد اليهود الشرقيين"، (فالحلاوي راسه حار ويبيعها بكلمتين)، بينما عبر آخرون عن خيبة املهم في تسنم المناصب التي تطلعوا اليها في كتاباتهم من امثال يوسف مئير الملقب بيهوشافاط، الذي كان مسؤولاً في الحركة السرية عن مهام الدفاع عن يهود العراق، فقد تشكى في نهاية حياته من الاجحاف الذي لحق به بالرغم من مكانته الهامة في الحركة الصهيونية السرية في العراق. وقد أسس أعضاء الحركة الصهيونية السرية في إسرائيل جمعية نشطة يترأسها السيد زبولون هارثيلي الذي كان رئيساً للقسم الثقافي للأعضاء الكبار في "التنوعة" (الحركة السرية)، ومن زعمائها المحامي شموئيل موريا (وهو المحامي سامي معلم، الذي كان مسؤولاً عن تهريب اليهود في البصرة، ثم التحق بجهاز الأمن في إسرائيل. وبعض الصحفيين لا يميزون بينه وبين كاتب هذه السطور، لذلك يميز الأخير نفسه بإضافة درجته العلمية أ.د. [أستاذ دكتور]). وتعد هذه الجمعية اجتماعات شهرية لألقاء المحاضرات وتوثيق نشاطهم في كتب تاريخية مدعومة بوثائق مهمة وتدوين ذكرياتهم التي تنشر جميعها باللغة العربية وإلقاء المحاضرات التاريخية والثقافية. ثم شيّد السيد ابراهام كحيلية، العضو السابق في مجلس بلدية أورشليم القدس والسيد يوثيل زلخه، المسؤول السابق عن ثقافة أعضاء قسم الشبيبة، وآخرون من نشيطي حركة "هاشورا" السرية، دارا لهذه

الحركة في منطقة "جيلوه" المحاذية لبيت لحم ونشرا ذكرياتهما عن نشاطهم في العراق واسرائيل. وقد ترجم كبار الساسة من يهود العراق، ذكرياتهم هذه الى لغات اوروبية مختلفة، ولكننا لا نجد من بينهم من استطاع تخليد نشاطه الصهيوني في روايات لفتت انتباه النقاد سوى القليل منهم ممن لم يتبوا مناصب خطيرة من أمثال د. أميل مراد والبروفيسور دافيد ربيع (رابي) الذي يعيش اليوم في الولايات المتحدة. وممن كتبوا مذكراتهم باللغة الانكليزية عن حياتهم في العراق وعن هجرتهم، البروفيسور يحزقيل حداد من كبار جراحي العيون في نيويورك والعالم، والدكتور دافيد قزاز، من كبار علماء النفس في الولايات المتحدة، والأديب نعيم قطان نزيل كندا رئيس جمعية الادباء والاعلاميين في كندا والذي ترجمت ذكرياته عن العراق الى الانكليزية والعربية (منشورات الجمل، كولون). ومن بين اعضاء الحركة الصهيونية السرية، كتب الاستاذ افير - يعقوب يارون، في ذكرياته باللغة العبرية "وداعا يا بغداد" (٢٠٠٤) وثلاثيته "قيثارة بابل" (٢٠٠٧) يروي فيها بحماس عن إنتحاقه كعضو فعال في الحركة الصهيونية السرية في بغداد وهروبه الى اسرائيل والتحاقه بجهاز الامن بأسلوب عاطفي غيبي ليظهر لقرائه انه كان مسيرا بيد الاقدار في كل مغامراته. أما كتاب شمال إفريقيا من اليهود فلا يقلون حماسة عن الأديب البغدادي يعقوب يارون، فقد كتب الاديب البيرت ميمي باللغة الفرنسية، عن طفولته في الجزائر، وكتب البروفيسور روفائيل يسرايلي المحاضر في الجامعة العبرية حول الصراع العربي الاسرائيلي، ذكرياته كشاب مغربي اعتنق الآراء الصهيونية بحماس في كتابه باللغة العبرية "العودة الى اللا مكان، يهودي مغربي في مرآة فترة زمنية وتجارب حياة"، (٢٠١٠)، ويشير اهداؤه الى اتجاهاته الصهيونية التي يؤمن بها الكثير من اليهود الشرقيين المحافظين، يقول فيها: "الى الفكرة الصهيونية والى دولة إسرائيل، اللذين

جمعا شتات يهود العالم الذين عانوا من الفاقة والاضطهاد، ومنحوهما الحرية والرفاه، والاحترام الذاتي ومناخا ثقافيا لكي يستطيعوا تربية أجيال يهودية جديدة فخورة وحررة، من اصحاب المبادرة والصحة النفسية."

والتيار الثاني، هو تيار الأدباء الذين كانوا ينتمون الى الحزب الشيوعي العراقي السري ومن الذين هجروا اللغة العربية لكساد سوقها في اسرائيل الى الكتابة باللغة العبرية، وقد نال أدباء هذا التيار شهرة واسعة في اوساط الكتاب العبريين اليساريين والعرب، نذكر منهم الروائي الكبير سامي ميخائيل والبروفيسور شمعون بلاص، كما نالوا شهرة عالمية كأدباء محترفين وخاصة عن طريق ترجمة كتبهم الى لغات عالمية، وقد تناولت رواياتهم الأولى موضوع الاحتجاج على اوضاع يهود البلاد العربية والتمفرقة التي عانوا منها في المرحلة الأولى من استيعابهم في معسكرات خيام القادمين الجدد، أما الشاعر البروفيسور دافيد صيمح فإنه كرس حياته للبحث العلمي كمحاضر في الأدب العربي في جامعة حيفا وبقي مخلصا للغة العربية ولم ينتقل الى الكتابة الادبية باللغة العبرية سوى في أبحاثه العلمية عن الأدب العربي الحديث.

والتيار الثالث كان التيار الوطني العراقي الذي لم يتخلّ عن الكتابة باللغة العربية، فهي اللغة التي يستطيعون التعبير بها عن مشاعرهم وآرائهم بصورة حرة وتلقائية، وقد تربع على عرش هذا التيار كل من الشاعر الفقيه ابراهيم عوبديا والقصاص اسحق بار موشيه والاديب سمير نقاش الذين صوروا العلاقات اليهودية العربية في العراق خير تصوير وكتبوا ادب الحنين الى العراق والى الحياة اليهودية التي ذاقوا حلوها ومرها هناك، الى جانب احتجاجهم وشجبهم للحالة المزرية التي بلغها يهود البلاد العربية

في إسرائيل واهمال مكانتهم الأدبية. ولعل المحامي جاد بن مئير، شاعر الحب والجمال، نزيل استراليا الذي اصدر ثلاثة دواوين شعرية موزونة ومقفاة، بعضها باللهجة المصرية المحببة لدى العراقيين المثقفين الذين يرون في الثقافة المصرية اندماحا ناجحا بثقافة حوض البحر المتوسط، وان كانوا يحبون الثقافة الشعبية العراقية وأغانيها، فهو ممن أضنى قلبه عشق الجمال متحدئا عن شوقه وخيبة امله في "منال" الحبيبة المصرية التي وفي لعهدا وقد نكثته، بعد أن "وفي العمر لناس ما وفي"، والمربي إياهو منصور في دواوينه من الشعر المنتثر يترنم بـ "زوارق دجلة" ويشكو من مآسي "مخيمات القادمين"، ويعاتب الهوى الغابر والشباب السعيد الذي ولي. أما كاتب هذه السطور رهين محبس ذكرياته التي ترغمه على تدوينها بصورة تلقائية عفوية جامحة قبل ان تنضب في ذاكرته روافد الذكريات مع مياه روافد دجلة والفرات. وهؤلاء الثلاثة هم من أواخر الأدباء من مواليد بغداد الذين لا يزالون يكتبون باللغة العربية الى جانب اللغة العبرية في نثرهم وشعرهم وهم في خريف العمر، فهل من خلف، يا ترى، لهذا السلف الوفي، في مجتمع إسرائيلي ينظر اليهود اليوم إلى أدبهم العربي نظرتهم الى مخلفات ماضي السبي البابلي والعصور الإسلامية، وينظر العرب الأسرائيليين والفلسطينيين إلى أدبهم نظرتهم الى أدب غريب عنهم من مهاجرين حلوا مكان اللاجئين الفلسطينيين الفارين الى العراق ولا يعبر عن حياتهم وآمالهم؟

والتيار الرابع هو تيار الأدباء الذين قدموا إلى إسرائيل في سن الطفولة وانهاوا دراستهم الثانوية ثم الجامعية فيها، فقد استطاعوا بسهولة نسبية الاندماج في الادب العبري الحديث، بينما لم يستطع الاندماج في الشعر العبري الحديث من القادمين الجدد على ما نعلم سوى شاعرين، الاول من مواليد بغداد وهو شلومو زمير (بلبول) (بغداد

١٩٢٩) الذي كان أول من نال اعجاب النقاد وتكريم الأوساط الأدبية العبرية لمهاجر من مهاجري العراق (١٩٥٠)، على موهبته الشعرية باللغة العبرية في ديوانه "الصوت عبر الاغصان"، (١٩٦٠). وقد حافظ على مكانته الشعرية حتى بعد أن نشر ديوانه السادس عام ١٩٩٠، والشاعر الثاني هو الشاعر الموصلية التريية زكي بنيامين أهرون (كركوك ١٩٢٧) الذي ساهم مساهمة كبرى في ترجمة الادب العربي الى العبرية والادب العبري الى العربية في المجلات العربية والعبرية وفي صوت اسرائيل والصحف الهستدروتية ومجلة لقاء - פגישות التي كانت تصدر باللغتين العربية والعبرية والتي حررها مع الاديب والمترجم نير شوحيط (العمارة ١٩٢٨)، وبدعم من الأستاذ إياهو أغاسي (بغداد ١٩٠٩) المدير والمحرر العام لدار النشر العربي التابعة للقسم العربي لحزب عمال اسرائيل (مباي) والذي حرر كعضو في مركز الثقافة في الهستدروت (اتحاد العمال) مجلاتها باللغة العربية، كحقيقة الأمر والسندباد واليوم لأولادنا وزهرة الشباب التي اهتمت بثقافة طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة وبشؤون العمال العرب والادب العربي المحلي وترجمة الادب العبري الى العربية.

أما مواليد العراق ممن قدموا مع عائلاتهم في طفولتهم فقد برز منهم الشعاران التوأمان هرتصل وبلغور حكاك اللذين ولدا في عام ١٩٤٨ أي بعد سبع سنوات من مصرع خاليهما في مذبحه الفرهود، فأطلق والدهما على التوأمين اسماء صهيونية بحته انتقاما لمصرع الخالين. ولألمعيتهما وتبخرهما بالكتاب المقدس وفوزهما بحفظه عن ظهر قلب في المسابقة السنوية ودراستهم العميقة للأدب العبري. فقد انتخب هرتصل حكاك رئيسا لجمعية الكتاب العبريين في اسرائيل (٢٠٠٣-٢٠٠٥) وهو منصب كان أول من حظي به هو الشاعر القومي اليهودي حاييم نحمان

بياليك أمير الشعراء العبريين، ثم تلاه في رئاسة الجمعية اخوه التوأم المشابه له بلفور (٢٠٠٥ والى اليوم). أما الشاعر سالم الكاتب (شالوم كَتَّاب) فقد انتقل بعد نشره ديوانين باللغة العربية، "مواكب الحرمان" بيروت، دار الكشاف، ١٩٤٩) ووشوشات الفجر (تل أبيب، ١٩٥٩) الى اللغة العبرية، وكان يعد من كبار شعراء الاحتجاج على التمييز بين الأوروبيين والشرقيين وموقف الشعراء العبريين من شعره العبري ومن الأدباء الذين قدموا من البلاد العربية، ونشر عدة دواوين باللغة العبرية روى فيه فضائع الفرهود وشعوره بالغبن لعدم تقدير مواهبه من قبل الشعراء العبريين وإن كان المعجبون بشعر من الشرقيين يطلق عليه اسم "بيالك الشرق" كما يقول. وقد اعتزل الأدب في السنوات الآخيرة وانضم مع أبنائه الى رجال الدين المتزمتين، وأرخی لحيته واعتمر قبعة سوداء اشكنازية ومعطف اسود بولوني الزبي يلائم مناخ اوروبا الشرقية حتى في عز الصيف.

ويعد الشاعر الكبير روني سوميك من أبرز شعراء الاحتجاج من بين يهود العراق الذي تنضح دواوينه بالحنين الى العادات والتقاليد العراقية والأغاني والأجواء الشرقية والتي تتصاعد منها رائحة العرق الزحلاوي والمزة الشرقية ونغمات العود وانين الكمان الكويتي وشذى عبير غناء مطربة الشرق أم كلثوم ومطرب الاجيال الاستاذ محمد عبد الوهاب. وخير نموذج لشعر الاحتجاج الذي يكتبه سوميك عن التفرقة بين الجاليات اليهودية المهاجرة والسخرية منها من قبل مهاجرين اقدم منهم هو قوله:

ولدت في بغداد، وزوجتي من رومانيا، ولذلك اصبحت ابنتي "حرامي بغداد"،

وذلك لان قدماء المواطنين اليهود في اسرائيل، كانوا يلصقون تهمة السرقة بيهود رومانيا، وتهمة التهديد بالسكاكين ليهود المغرب، وتعبير يهود العراق بارتداء البيحامات في بيوتهم وشرفات الدور.

أما عدد الشعاعرات باللغة العبرية من أصل عراقي فيبلغ العشرات أشهرهن أميرة هس من مواليد بغداد، التي تلمع اشعارها العبرية بتعابير عربية ولا تتورع عن ذكر مسبات عراقية في تمردتها على موقف المجتمع من المرأة وريائه، وهي اخت الاستاذ شاؤول بار حاييم مؤسس ومدير صوت اسرائيل باللغة العربية. ومن الشعاعرات اللواتي لعبن دورا فعالا في ميدان الأدب العبري هي يعاره بن دافيد من بيت أبو داود اصحاب كنيس أبو داوود في السنك، والدكتورة ليليان دبي جوري وليلي زلوف، وجاكلين شعشوع. أما البروفيسور حبيبة فداية فهي متخصصة بأدب يهود البلاد العربية وخاصة بالصراع الرئيسي في بين الأدباء والشعراء الشرقيين الذين رحبت بهم الهيمنة الاشكنازية في الادب بدعوى انه ادب انساني عالمي يهتم بالنقد الذاتي وحرية الفكر، وبين الادباء المناوئين لهيمنة المؤسسات الرسمية التي تقيّم ادبهم كأدب فلكلوري انطوائي طائفي لا يرمي الى قيم انسانية خالدة. أما الادبية المرحومة إستير خبازة - مركادو فقد نشرت كتابين باللغة العبرية، الاول "العراق - شهادتي"، تحدثت فيه عن اضطهاد اليهود هناك والقاء اقربائها في سجون العراق بتهمة الصهيونية، وكتابها الثاني ينم عنوانه عن فحواه: "في ظل التمييز الطائفي" في اسرائيل، ١٩٩٨.

--- --

أما الروائي الكبير إيلي عمير (واسمه في سجل النفوس البغدادي: فؤاد الياس ناصح خلاصجي) اليساري المعتدل، الذي ولد في بغداد عام ١٩٣٧، أي في نفس العام الذي ولد فيه الاديب سمير نقاش الذي تمسك باللغة العربية، فقد فضل الكتابة باللغة العبرية بالرغم من تعلقه الشديد باللغة العربية والتي ما زال يتكلم بها مع أهله وأصدقائه، فهو يحدثنا عن هويته المحببة الى نفسه وهي الاستماع أثناء ذهابه الى

العمل في سيارته، الى ترتيب القرآن الكريم أو "ما تيسر من آي الذكر الحكيم"، وخاصة للشيخ المصري المقرئ الشهير أبو العينين شعيشع، فيشعر بسعادة روحية سابحا في أجواء قدسية تطهر النفس وتريحها من عناء المادة، على حد قوله. وهو يتعاطف في رواياته مع الفلسطينيين، بل اعلن بانه لا يعارض إذا ما أصبح الأقصى وقبة الصخرة تحت السيادة الفلسطينية. وقد صور في ثلاثيته العراقية من بغداد الى اورشليم - القدس، وأولها روايته "ديك الكفارة" التي يروي فيها عن الهوان ومشقات الهجرة الى اسرائيل في الخمسينيات من القرن الماضي وبداية الصدمة الثقافية والاجتماعية للمهاجرين الشرقيين، والتحاقه وهو فتى يافع باحد الكيبوتسات والصراع بين الشرق والغرب فيه ومنافسته للفتيان الاوربيين في الموسيقى الغربية، ورفض والدته التقية، طبخ الديك الذي ذبح في الكيبوتس على غير الطريقة التقليدية اليهودية، والذي أتى به فخورا الى عائلته المتضورة في عرفات يوم الغفران المقدس، بالرغم من حاجة العائلة الماسة اليه في وجبة الافطار، ولكن وصايا الدين عن الأم الحنون التقية أكبر من الديك المغربي بالشبع، وبدلا من ان تحظى به افواه الاطفال الجائعة، تلقيه الوالدة في مزبلة معسكر خيام اللاجئيين اليهود من البلاد العربية. وقد حظيت روايته هذه بعرضها على المسرح مرتين وصورت في مسلسل تلفزيوني، وانتخبت كواحدة من بين أفضل عشرين رواية كتبت باللغة العبرية منذ قيام دولة اسرائيل وما زالت تعد من أركان الادب العبري الحديث. وفي روايته "المطيرجي" يروي تخبط العائلة أمام قراري تسقيط الجنسية وتجميد الأموال وانقسام آراء العائلة حول موقفها من العراق بعد ان ألقي خاله الصحفي مثير معلم في غياهب سجن أبي غريب لتحريره صحيفة "البريد اليومي". وقد نالت رواية "ياسمين" اقبالا منقطع النظير لتناولها الصدام بين العرب واليهود في حرب الستة ايام وبعدها ومعاناة العرب الفلسطينيين النفسية من آثارها، وأديننا يروي موقفه وموقف عائلته من حرب الأيام

الستة والعلاقات العربية اليهودية في القدس وعلاقته بياسمين الفتاة الفلسطينية المثقفة. وقد ترجمت الى لغات عديدة منها العربية. وثلاثيته هذه هي من روايات الترجمة الذاتية التي تتناول حياة العراقيين عامة، وهو فخور جدا بترجمة كتبه الى لغات عديدة وخاصة الى اللغتين العربية والتركية. أما رواياته الثلاث الأخرى فهي تصور حياة يهود شرقيين في علاقاتهم مع المجتمع الاسرائيلي، الغربي النزعة. ففي روايته "حب شاؤول"، يروي لنا حياة احدى الشخصيات من يهود الشرق ممن نشأ في بيئة فقيرة من ابناء الجيل السابع في الديار المقدسة، وبطلها شاؤول ينتمى الى "منظمة الارغون" اليمينية المتطرفة، فيلتقي في خدمته العسكرية بقائده العسكري الذي نشأ في بيئة اجتماعية مشابهة، فتتعدق بينهما رابطة صداقة طويلة في اسرائيل وخارجها، تشمل الحديث عن مغامراتهما مع النساء وحب شاؤول لفتاة من الناجين من المحرقة النازية. وهي رواية فريدة في بابها تروي تمسك الشباب من اصول شرقية بالآراء الصهيونية وتطور المجتمع الاسرائيلي في أيامه الحلوة والمرة. وفي روايته الأخيرة "ماذا تبقى" (٢٠١٠) التي تعد من روائع الروايات التي تعتمد على التحليل النفسي في الأدب العبري الحديث. الراوي الشرقي يتحدث باسهاب عن البنوية القلبية التي أصابته ، متذكرا بعد خروجه من المستشفى حبه لطبية اسنان في شبابه كانت خطيبة ضابط في الجيش، مع ذلك فهي تسمح لنفسها بلقاءات سرية لحب مسعور مع عاشقها الشرقي الذي تزوج من اخرى، وبقي مخلصا لذكرى حبهما خلال ثلاثين عاما. إن رواياته الست التي نشرها بوأته مكانة سامية بين الكتاب العبريين، فهي تصور حياة الطائفة اليهودية في العراق والمجتمع الإسرائيلي بأطيافه الاجتماعية من وجهة نظر تاريخية واجتماعية وثقافية موضوعية مؤثرة. ومنها يستطيع القارئ الوقوف على تاريخ يهود العراق وحياتهم الاجتماعية وأغانيمهم وموسيقاهم وأمثالهم والظروف السياسية التي مروا بها واسباب هجرتهم، ثم تأقلمهم في دولة اسرائيل.

وفي رواياته هذه يحاول كاتبنا الوقوف على الاختلاف بين العرب واليهود، والاسرائيليين والفلسطينيين، بين المهاجرين والمستوطنين القدامى، بين السود والبيض.

وكاتبنا يدعو الى المساواة بين اليهود والفلسطينيين لإحلال السلام المنشود في دولتين، دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل، والى العدالة الاجتماعية في مجتمع أكثر مساواة وعدالة، والى منح العرب في اسرائيل حقوقهم الكاملة على أن يؤدوا واجباتهم الكاملة تجاهها. وهو من أنصار التقارب مع العالم العربي ويرى ان على اسرائيل ان تسعى الى الاندماج في دول الشرق الاوسط وان يكون تدريس اللغة العربية إلزاميا والاهتمام بالتعرف على الثقافة العربية وتاريخها بصورة أعمق، لكي نستطيع العيش جنبا الى جنب بسلام وتعاون ورفاه لخير الاجيال القادمة في هذه المنطقة المنكوبة بالحروب لموقعها الجغرافي ولغنى بعض دولها بالبتروال والغاز الطبيعي الضروري للدول الصناعية الكبرى للحفاظ على تفوقها العسكري والسياسي.

ولعل الأديب أيلي عمير من أكثر الكتاب في اسرائيل شعبية، وقد حظيت رواياته بأعجاب القراء وترجمت الى لغات أوربية وشرقية مختلفة كما نال الجوائز الأدبية ومنح درجة دكتوراة فخرية من جامعة بن غريون في النقب وغيرها من الجامعات. وهو يتمتع بشهرة منقطعة النظير لموهبته الفذة في تصوير الاجواء الاجتماعية والسياسية والثقافية في العراق واسرائيل، وله برنامج إذاعي أسبوعي باللغة العبرية "عن اليسار واليمين" مع النائبة السابقة جؤلا كوهين يعالجان فيها قضايا الساعة من وجهات نظرهما. ولتحليله الصائب وجرأته في التعبير عن آرائه الموالية للعرب اقترح بعض المستمعيين ترشيحه لمنصب رئيس دولة إسرائيل في المستقبل. وهو يعد حقا من كبار أدباء الاحتجاج من مواليد البلدان العربية في إسرائيل.

يتبع: تأملات في "روح جديدة - خطاب مهاجري الدّول الإسلاميّة" ودعمهم لخطاب الرئيس أوباما، (٣)

تأملات في (روح جديدة - خطاب مهاجري الدّول الإسلاميّة) ودعمهم لخطاب الرئيس أوباما -٣-

الأثنين ٩ مايو / أيار ٢٠١١ - ٢٠:٢٣:٠٨

أما كتاب البلاد العربية الأخرى في اسرائيل فالقليل منهم من كتب باللغة العربية، واغلبهم من مصر، ومن روائع الذكريات عن يهود مصر باللغة العربية هي ذكريات موريس شماس (أبو فريد) (القاهرة، حارة اليهود، ١٩٣٠)، الإذاعي الفنان الذي دون اعترافاته في كتابه المؤثر "ذكريات الضباب - عزة، حفيذة نفرتيتي، من القاهرة الى القدس الى نهاريا!"، وكان قد نشر قبل ذكرياته هذه مجموعة قصصية واقعية حول حارة اليهود في القاهرة بعنوان "الشيخ شبتاي وقصص أخرى". أما الصحفي والديبلوماسي الفقيه فكتور نجمياس (١٩٣٣-٢٠٠٤) فقد عبر عن احتجاجه على معاملة السلطات المصرية لليهود بعد حرب عام ١٩٤٨ وحرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ التي عانى منها يهود البلاد العربية عامة. وفي ذكرياته "الرجل الذي ولد مرتين، قصة يهودي مصري هاجر الى إسرائيل" (٢٠٠٤)، يروي لنا هذا الصحفي والديبلوماسي المتمرس بصورة صريحة عن قسوة معاملة الحكومات المصرية لليهود مصر المسالمين، وفيه يتهم الحكومة المصرية بخيانة يهودها المخلصين وطردهم طمعا في ممتلكاتهم وانتقاما من دولة إسرائيل.

أما الشاعرة والأديبة والباحثة والمترجمة، البروفيسور عادة أهروني (القاهرة ١٩٣٣) المهتمة بتاريخ يهود مصر، فقد كانت في صباها عضوا في حركة الشبيبة الصهيونية المصرية، وألفت عدة كتب تصف فيها حنينها الى مسقط رأسها مصر والأيام الجميلة التي قضاها مع عائلتها واصدقائها المصريين الأوفياء. ويبدو موقفها المشرف نحو مسقط رأسها ونقاء قلبها من غريزة الانتقام، في روايتها لحادثة طرد السلطات المصرية لوالدها (١٩٤٩) الذي كان يحمل الجنسية الفرنسية الى فرنسا، وذلك في اعقاب القوانين المجحفة بحقوق اليهود التي سنتها مصر في حرب ١٩٤٨، وعندما وصل الى فرنسا، علم أن جميع مدخرات العائلة التي أودعها في بنك سويسري في القاهرة قد صادرتها السلطات المصرية، فأصيب بسكتة قلبية أودت بحياته، ولم يبق لديها خيار سوى الهجرة الى إسرائيل، ومع ذلك فلم تحمل لمصر وللعرب ضغينة وتصميم على الانتقام. ومما يدل على حبه لمسقط رأسها قولها إنها التحقت في عام ١٩٥٠ مع زوجها بكيوتس "عين شيمر" اليساري، وقد قامت إدارة الكيبوتس بطردها وزوجها مع ٢٠ عضوا آخر من يهود مصر لاصرارهم على إقامة علاقات ودية مع المواطنين العرب بدعوى أن الامر قد يؤدي الى تحريض يتعارض مع موقف الادارة، على حدّ قولها. ثم أسست عام ١٩٩٩ جمعية السلام بين العرب الفلسطينيين ويهود البلاد العربية، لأنها ترى أن كلا الطرفين قاسا بما فيه الكفاية وكانا ضحية هذا الصراع الطويل الدامي، ولذلك فمن الاولى أن يقوم يهود البلاد العربية والفلسطينيون بالتفاهم وعقد صلحة بين الطرفين. وتدعم مؤسسة الصداقة الاسرائيلية المصرية برئاسة السيدة ليفانا زمير (القاهرة ١٩٣٨) هذه الاهداف، ونحن نأمل أن تعود مؤسسة الصداقة هذه إلى نشاطها الثقافي والأدبي بعد ثورة الشباب المصري الأخيرة.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا المضممار أن تصرف د. عادة أهروني النبيل في رفضها الانتقام لموت والدها، يشبه تصرف والدي الصحفي الاميريكي المرحوم دانيال بيرل (والدته روت من مواليد بغداد، ووالده يهودا بيرل من مواليد أوروبا)، من عدم المطالبة بالانتقام لإعدام الطالبان في الباكستان لابنيهما الصحفي، المرحوم دانيال بيرل، مراسل صحيفة "وول ستريت جورنال" النيويوركية، بوحشية بالغة وقطع رأسه ظلما وعدوانا لاعترافه الصريح وبكبرياء شامخة وإصرار أبي بقوله: "أنا يهودي وأمي يهودية ووالدي يهودي!" بالرغم من علمه بمصيره الفظيع نيتهم الغادرة، فما أن أتم رده الصريح حتى أطار جلاده الأثيم رأسه بضربة سيف ووحشية ظالمة. ترى هل كانوا سيرحمون زهرة شبابه اليبانة لو قال لهم: "أمي عراقية بغدادية عربية، غنت لي اغاني المهد العراقية بلغتها العربية!" هل كانوا سيطلقون سراحه في ساعة ظن فيها المجرمون انهم يخدمون الدين الاسلامي والامة الاسلامية بتقديمه قربانا بشريا على مذبح الحقد والكراهية والانتقام وبهتافهم "الله أكبر"، بحقد ووحشية منافية لكل الأعراف والأديان والتقاليد؟ نعم لم يطالب والداه الحكومة الأمريكية بالانتقام، بل أعلنوا الصفح عن قتالي ابنيهما الوحيد، لتمسكهما بالعقيدة اليهودية، بأن "على الانسان أن يساهم في اصلاح هذا العالم وأن يكون قدوة للآخرين"، وجعلوا ذكرى يوم مصرعه احتفلا موسيقيا عالميا لجمع التبرعات لنشر فكرة الاخاء والسلام بين الاديان والشعوب. إن مثل هذا التصرف النبيل لهو فوق طاقة البشر ووفاء سموألي آخر، من والده اليهودي وأمه العراقية اليهودية.

والى جانب الكتب التاريخية والذكريات والتقصص عن مآسي التهجير، نشر يهود البلاد العربية عدة مجلات يدافعون فيها عن عاداتهم وتقاليدهم الشرقية والعربية

وماضيهم المشرف، ومن أوائل هذه المجلات هي المجلة التي أسسها الشاعر المغربي إيريز بيطن، من مواليد أوران في الجزائر (١٩٤٢) لوالدين مغربيين، وهو يعيش مأساة فقدان بصره في سن ١١ الغض من عمره المديد جراء انفجار بعبوة ناسفة عثر عليها في أحد الحقول، ففقد بصره وقطعت كف يده اليسرى، ومع ذلك فقد واصل دراسته الجامعية ونال درجة الماجستير في علم النفس. وهو من دعاة وحدة حضارة البحر الأبيض المتوسط أسوة بالمفكر المصري البصير د. طه حسين، وانشأ مجلته الأدبية الثقافية الاجتماعية تحت عنوان "أبريون" (هودج) (١٩٨٦) ليؤكد انتماءه الى الحضارة العربية وحضارة البحر الأبيض المتوسط، وقد نشر الدواوين العديدة التي تفوح منها روحية ورائحة الشرق العطرة، منها "صلاة مغربية"، و"كتاب النعناع" وغيرهما من الدواوين التي تؤكد تعلقه بالمغرب العربي وعاداته وتقاليده وثقافته ومجتمعه وموسيقاه.

وفي عام ١٩٩٦ أسس بعض المثقفين من أبناء الطوائف اليهودية من البلاد العربية مجلة بعنوان "القوس الديمقراطي الشرقي" (هقيشت هديموقراطيت همزرحيت) (تأسست عام ١٩٩٦) ومن أبرز محرريها الأديب والشاعر والباحث الدكتور سامي شطريت المغربي الاصل (الرشدية، ١٩٦٠) والبروفيسور يهودا شهاب (شهرباني) من مواليد بئر السبع لوالده العراقي الشهرباني الأصل، وغيرهما من كبار المثقفين الشرقيين، وهدفها الجسر بين الفوارق الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الإسرائيلي. غير أن ميولها اليسارية لم تلق اقبالا واسعا لدى جمهور اليهود الشرقيين المحافظين. وأخيرا صدرت عام ٢٠٠٠ مجلة عبرية أدبية ثقافية فنية يحررها ابناء يهود البلاد العربية أيضا تحت عنوان "الاتجاه شرقا" (هكؤون مزراح)، ورئيس تحريرها اسحق جورمزانو جورن، الأديب والروائي المسرحي والسينمائي المصري الأصل من

مواليد الاسكندرية (١٩٤١)، وهي مجلة تعالج قضايا الثقافة الشرقية والكتاب الشرقيين في اسرائيل، للتعريف بالشرق والحضارة الشرقية. ومن اطرف اعدادها العدد ١٦ الخاص بتعريف الشباب الشرقي في المجتمع الاسرائيلي الذي يطلق على الشاب الشرقي العنيف الصاحب المشاكس كلمة "عَرَس" (القواد باللغة الفصحى)، بينما يطلق اسم "فريحة" على الفتاة الشرقية المتبرجة التي تخضب شعرها وترتدي "الميني" القصير الزاهي الألوان المقمط وتهش للعراك وتعلك العلكة في كلامها المليء بالكلمات البذيئة النابية. واسحق جورن هو زوج الممثلة العراقية الاصل شوشا جورن، المتخصصة بادوار النساء اليهوديات العراقيات وتصرفاتهن وعاداتهن ولهجتهم العراقية التي تلقى نجاحا كبيرا واقبالا من الجمهور الشرقي الاسرائيلي على خشبة المسارح وعلى شاشة التلفزيون.

وقد عقدت في السنوات الأخيرة عدة ندوات وجمعيات مطالبة بتبني مبادرة السلام العربية التي اطلقها الملك عبد الله بن عبد العزيز (٢٠٠٢) للسلام في الشرق الأوسط بين اسرائيل والفلسطينيين. ومن المبادرين الى قيام "لجنة مبادرة السلام العربية"، الناشط اليساري نفتالي راز ومؤازرة البروفيسور آلاي ألون من جامعة تل-أبيب وعدد كبير من رجال السياسة والعسكريين المتقاعدين وأغلبهم ممن الاشكناز. ويدعو زعماءها اليوم إلى تشكيل حزب اشتراكي ديموقراطي جديد هدفه إحلال السلام بين اسرائيل والدول العربية. أما من جانب اليهود الشرقيين فقد برز الناشط الإجتماعي إيلي أبيدار (الاسكندرية ١٩٦٤)، الذي طرد من مصر مع والديه الى إسرائيل بعد حرب الأيام الستة (١٩٦٧). فبعد دراسته الجامعية التحق بالسلك الدبلوماسي وعين مستشارا سياسيا لأريئيل شارون ورئيسا للممثلة الإسرائيلية في قطر سابقا، قام بتأسيس منتدى "نحو شرق أوسط حكيم" (٢٠٠٨)، انضم اليها

كبار الأساتذة الجامعيين من مهاجري البلاد العربية وأبنائهم، منهم الصحفية ليندا عبد العزيز - منوحين. ومن أهداف هذا المنتدى تقديم التوصيات للسلطات بانتهاج سياسة واقعية حكيمة لانتهاء الصراع العربي الاسرائيلي.

وهكذا نرى أن المثقفين اليهود من البلاد العربية ساهموا ويساهمون منذ قيام الدولة في انشاء علاقات صداقة وتفاهم مع اخوانهم العرب في جميع البلدان العربية وعقد معاهدات سلام مع جميع الدول العربية والإسلامية وتطبيع العلاقات مع شعوب الشرق الأوسط، فهم يتعاطفون مع الفلسطينيين ويطالبون بأن تعترف إسرائيل وباقي الدولة بمأساة يهود البلاد الإسلامية كلاجئين عانوا من هذا الصراع بما لا يقل عن معاناة الفلسطينيين انفسهم في الخيام والضميم اللاحق بهم بسبب نظرة الآخر اليهم، وانهم ينتظرون منذ عقود بفارغ الصبر انتهاء هذه الدوامة الخطرة من مفاوضات فاشلة تعقبها حروب دامية بدلا من التوصل الى سلام دائم وشامل، ويرون في خطاب الرئيس الأمريكي أوباما خير طريق نحو مثل هذا السلام المنشود.

أما من الجانب العربي، فلحسن الحظ، قام أحد كبار المفكرين العرب، إن لم يكن أكبرهم، وهو سمو الأمير الحسن بن طلال، الداعي الى سلام عالمي متكافل وشامل ورئيس منتدى المفكرين العرب، بتحليل الموقف في الشرق الأوسط والصراع العربي الاسرائيلي. وقد نشرتْ انطباعاتي عن لقائي بسموه في مؤتمر كمبردج ليهود البلاد العربية، وذلك في ذكرياتي التي نشرتها في جريدة "إيلاف" الألكترونية تحت عنوان "يهود العراق، ذكريات وشجون، رقم ٤٦-٤٩، أكتوبر ٢٠٠٩ - يناير ٢٠١٠، قلت فيها، إن سموه يدعو الى: "التوصل الى سلام شامل، لا عن طريق العنف بل عن "طريق البحث العلمي والتكنولوجيا الحديثة ودراسة مشاكل المنطقة بصورة موضوعية وجذرية بالمشاركة في الندوات والمؤتمرات الفكرية والاقتصادية العالمية.

فهو ذو منهج فكري واضح واطلاع واسع على العلوم الحديثة ومعرفة باللغات الأوروبية والشرقية ودراسات علمية في أرقى الجامعات في العالم ومؤلفات عميقة مدعومة بالوثائق والمقالات والكتب العلمية والمنطق السليم، والأهم من ذلك كله، أصالة في التفكير ونظريات إنسانية مباشرة بالسلام والتعاون بين الشعوب والتسامح والاعتدال وحوار الأديان والحضارات والوقوف على أسباب التخلف والفقر والبيئة والمياه والتطرف والإرهاب للتوصل إلى حل وسط لخير الجميع والتعاون بين علماء الشرق والغرب والمبادرة إلى تشكيل لجان ومؤتمرات يشارك فيها كبار العلماء في العالم لحل المشكلات والمخاطر التي تواجه الإنسانية. فهو يرى أن العلم الحديث والتكنولوجيا والحوار والتعاون بين الشعوب هي الطرق القويمة والسبيل إلى خير الإنسانية ومستقبل الأجيال القادمة".

وفي مقابلة سموه التلفزيونية مع الاستاذ سلام مسافر، في قناة روسيا اليوم، في برنامج "اصحاب القرار"، (٧-٨ أبريل، ٢٠١١) صرح سموه بأنه يرى أن فلسطين هي السبب الأكبر في انعدام الاستقرار في المنطقة، وذلك بسبب الشعور بالاحباط. وهو يرى أن تدهور العلاقات الأخيرة بين العرب وإسرائيل راجع إلى هجرة مليونين من اليهود الروس وهمينتهم على السياسة الخارجية الإسرائيلية. ففي سياستهم يتجهجون المصلحة المادية فقط، ولا يفهمون الإسلام ولا يحسنون اللغة العربية. ثم تطرق سموه إلى مؤتمر جامعة كامبردج المنعقد في ٢٢-٢٤ يونيو - حزيران، ٢٠٠٩ حول يهود البلاد العربية، وهو المؤتمر الذي شاركته فيه محاضرة ونقاش مع الكثير من المحاضرين اليهود والعرب، قال سموه: " بعد تجربتي في دعوة اليهود العرب إلى مؤتمر في جامعة كامبردج، وكذلك الأشكيناز من اليهود الغربيين، من الذين عاشوا أو آباؤهم عاشوا مع العرب دون نفور ودون حرب، وكذلك مع

الفلسطينيين، ومنهم مواطنو ٤٨، أقول أن هذا اللقاء كان مبنياً على النوستالجيا الرومانسية، الذكريات الجميلة، واللغة العربية كقاسم مشترك، إنما من يأتي من روسيا، لا يأتي لا مزوداً باللغة العربية، ولا بفهم متواضع عن الإسلام، او حتى المسيحية في الشرق، ويأتي باحثاً عن ظروف مادية تتلاءم مع قدراته، وغالباً ما يكونوا علماء مثقفين، فيفضلون العزلة من وراء الجدار، من الانخراط مع الآخرين الأقل حظاً، فالمسألة طبقية حقيقة في المجتمع الإسرائيلي ذاته. "ومن الملفت للنظر إن هذا الرأي يشكل خلاصة ما يرمي الى "خطاب مهاجري الدول الإسلامية" ادناه. ونحن نشهد اليوم بفضل الصحف الالكترونية الحرة كأيلاف والأخبار والحوار المتمدن والمشرق، وإسرائيل- كرد وعشرات من المواقع الحرة والقنوات التلفزيونية والإذاعات المختلفة التي يكتب فيها ويعلق على الأحداث كبار الكتاب والشعراء والمثقفين من جميع البلدان العربية والعراق خاصة، من الذين يتعاطفون مع يهود العراق خاصة، ويهود البلاد العربية عامة، والذين يطالبون بصراحة بضرورة السلام الشامل بين العرب واسرائيل وتطبيع العلاقات ليس مع الزعماء العرب فقط، بل مع الشعوب العربية والإسلامية بصورة مباشرة، فعن طريق الشعوب لا الحكام فقط، نستطيع التوصل الى سلام حقيقي ودائم.

أكتب هذا المقال باللغة العربية لانقله مباشرة الى أخواتي واخوتي واصدقائي العرب والمسلمين موضحاً تهميش موقف وآراء يهود البلاد العربية من قبل الهيمنة المؤسسية والإعلامية، ولكسر هيمنتها اضطر السيد يعقوب نمرودي العراقي المولد والذي خدم دولة اسرائيل خدمة جلي، الى شراء جريدة "معاريب المسائية"، شماتة باحد محرريها الذي رفض نشر مقال له ليبين وجهة نظره، ثم طرده من وظيفته في

الجريدة. وأنا لا أحتاج ولا أستطيع شراء مجلة الكترونية عربية، علما مني بأن جريدة "إيلاف" الغراء الحرة الديمقراطية ستنشر مقدمتي لهذا الخطاب التاريخ المرفق ادناه والذي وصلني من الإعلامي والصحفي العراقي الأصل الاستاذ جاكى حوكي، أنشره هنا ليقف القارئ العربي والمسلم على موقف مثقفي يهود البلاد العربية والإسلامية من ثورة الشباب العربي الواعي وتضامنهم مع خطاب الرئيس الأميركي السيد باراك أوباما ومع الشباب العربي والمسلم ضدّ دكتاتورية الحكام الذين لا يتورعون عن سفك دماء الأحرار من ابناء شعبهم لأجل البقاء متربعين على كراسي الحكم، بينما تقيم عائلة الجندي الأسير ومثقفي إسرائيل الدنيا وتقعدها لاطلاق سراح جندي واحد وهو جلعاد شليط من الأسر. أما الحكام الآخرون فلا يصغون الى مطالب شعوبهم في بناء مستقبل افضل ومجتمع عادل لخير الأجيال القادمة. وكلي أمل في ان يلقى هذا الخطاب آذانا صاغية لدى الشباب المتحرر الواعي الثائر في البلاد العربية والإسلامية اليوم، قد أخذ العديد من الشباب العربي والمسلم المثقف، ينظرون الى اسرائيل كمثال للديموقراطية والحرية وحرمة القضاء والمحاكم التي لا تتهاون في تقديم رئيس الدولة، ورئيس الحكومة، والوزراء، وكبار الموظفين الى المحاكم العادلة ليكونوا عبرة لغيرهم وليتصرفوا بنزاهة ووفق دستور وقوانين ديموقراطية تتيح حرية التعبير والعيش بكرامة والوقوف على مجالات انفاق الثروات لصالح مجتمع متضامن ومتكافل، لا قرق فيه بين الأديان والمذاهب والقوميات في الوطن الواحد. فهناك من الجمعيات العربية والكردية والايروانية والتركية والتركمانية من مسلمة ومسيحية التي بدأت تنادي بالإخاء والتضامن بين الاقليات الدينية والمذهبية والعرقية في الوطن الواحد وبانتهاء الصراع العقيم مع اسرائيل ولتطبيع العلاقات معها لصالح المنطقة وتطويرها لخدمة شعوبها واقتصادها وللمستقبل الأجيال الصاعدة.

نص خطاب مهاجري الدول العربية :

روح جديدة - خطاب مهاجري الدول الإسلامية

نحن، بنات وأبناء إسرائيليين، من سلالة آباء وأمّهات قدموا من الدول العربية والإسلامية، نعبر بهذا عن دعمنا للروح الجديدة التي طرحها الرئيس أوباما خلال خطابه في القاهرة - روح تصالحية، نظرة ثابتة، سعي نحو العدل والاحترام. احترام للأديان المختلفة، للثقافات المتباينة، وللشركاء.

وُلدنا في إسرائيل ونحن إسرائيليون. تهمتنا دولتنا، ونرغب برؤيتها آمنة، عادلة ومزدهرة لصالح مواطنيها. في الوقت ذاته، لا يمكن للتاريخ الجديد، الذي ولدنا في رحمته، أن يمحو تاريخًا يعود لمئات وآلاف السنوات، حيث عاش آباؤنا وأجدادنا في الشرق الأوسط، في مساحات مترامية الأطراف يحكمها المسلمون والعرب. لا يقتصر دور آبائنا وأمّهاتنا على كونهم عاشوا في هذه المناطق منذ الأزل، بل يتعدى ذلك بكونهم قد شاركوا وساهموا كثيرًا في نسيج الحياة في هذه الدول، وواكبوا تطوره. في هذه الفترة أيضًا، ثقافة الدول الإسلامية، الشرق الأوسط والثقافة العربية، تُعتبر جزءًا من هويتنا، جزءًا ليس بمقدورنا اجتنائه، ولا نرغب باقتلعه أصلًا.

شهد تاريخ يهود الدول الإسلامية لحظات مؤلمة. لكن نظرة فاحصة، متمحصة وعادلة، تدلنا على أنّ تلك اللحظات الصعبة لا يمكنها أن تتستر على تاريخ هائل من التعاون المشترك. اتسمت السيادة الإسلامية على اليهود بالتسامح والكرم، أكثر

بكثير مما كان عليه حالهم تحت السّيادات غير الإسلاميّة، ولا يمكننا أن نعقد مقارنةً بين مصير اليهود في الدّول الإسلاميّة وبين المصير التّراجيديّ الذي ألمّ بمجتمعات يهوديّة كاملة في مناطق أخرى، وأساسًا في أوروبا.

يمكننا أن ننظر إلى العقود الأخيرة على أنّها شرح بين إسرائيل واليهود وبين العالم العربيّ والإسلاميّ. فضلًا أن ننظر إلى هذا الشّرخ على أنّه شرح مؤلم مؤقّت في تاريخ أطول بكثير، تاريخ يشمل ماضيًا مشتركًا ومستقبلاً مشتركًا. حتّى حينما نلقي نظرة على الخارطة، فإن إسرائيل بالنّسبة إلينا هي جزء من الشّرق الأوسط، وليس فقط من النّاحية الجغرافيّة.

اليهوديّة والإسلام ليستا بغريبتين الواحدة عن الأخرى من النّاحية التّوحيدية - الرّوحانيّة، التّاريخيّة والثّقافيّة. فقد انعقدت بينهما شراكة، طيلة أجيال كثيرة، تم محو ذكرها في العقود الأخيرة، سواء في إسرائيل أم في غالبيّة العالم الإسلاميّ، على الرّغم من التّاريخ الخاصّ الذي احتفي به يهود الشّرق الأوسط والعالم الإسلاميّ (والذين يشكّلون اليوم ما يقارب الـ ٥٠% من المجتمع اليهوديّ في إسرائيل!). خلال هذه المرحلة من المصالحة المطلوبة بين الشّرق والغرب، ونحو عودة مرغوبة من الخوف إلى التّعاون والحياة المشتركة، يجب على اليهوديّة واليهود أن يكونوا جسراً حيّاً للذاكرة، التّرميم والتّعاون.

تخلص وجهة نظرنا إلى أن الشّرخ القائم بين إسرائيل وبين العالم العربيّ والإسلاميّ، لا يمكنه أن يظلّ قائماً لفترة أطول، إذ أنّ هذه الهوة تشرخ هويّتنا ونفسيّاتنا. وبالنّسبة للصراع التّراجيديّ الإسرائيليّ - فلسطينيّ، فكلّنا أمل بأن يتمّ العنور، وبأقرب فرصة،

على حلّ عادل يقوم على الاحترام والاعتراف المتبادل، آخذين بعين الاعتبار كل من آمال الطّرف الفلسطينيّ، تخوّفاته وآلمه، كما وأيضاً لدى الجانب الإسرائيليّ. وبهذا فإننا نعبّر عن دعمنا الرّوح الجديدة التي طرحها الرئيس أوباما في القاهرة، وننضمّ للأمل الذي يحدو بنا نحو مستقبل تتغيّر فيه جدران الشكّ والعدوانيّة والكراهيّة إلى جسور من الاحترام المتبادل. كل هذا بروح العدل والإنسانيّة المشتركة لليهوديّة وللإسلام.

قائمة الموقعين: كوبي أوز (تونس)، ألون ابو طبول (مصر - الجزائر)، يوسي أوحانا (المغرب)، حدفا إيال (إيران)، نيطع إلكيام (المغرب)، ألموج بهار (العراق)، معز بن هراش (المغرب)، نوريت بر-إيل (طرابلس - ليبيا)، يعيل بردا (تونس)، يتسحاق جورمیزانو (من مواليد مصر)، بت شاحر جورمیزانو جورفرنكل (مصر-العراق)، يالي هشاش (ليبيا - اليمن)، كلريس حربون (المغرب)، يعيل يسرائيل (إيران - تركيا)، شلوميت لير (إيران)، د. نتالي مسيكا (تونس)، شمعون مارملشتاين (أفغانستان)، أورلي نوي (من مواليد إيران)، يونيت نعمان (تركيا - اليمن)، تسيي نوح (العراق)، درور نيسان (طرابلس - ليبيا)، يحزقييل نقشي (العراق)، يوفال عبري (العراق)، كتسيعا علون (کردستان - تركيا)، أدميت بيرى (اليمن)، يحزقييل رحميم (العراق)، يوديت شاحر (تركيا)، ماتى شموتيلوف (سوريا - إيران - العراق)، نفتالي شيمطوف (إيران - كردستان - عراق)، سيجاليت بناي (اليمن - العراق)، يرون ابيطوب (المغرب)، ايلن شاول (تركيا - مصر)، رؤيين ابرجل (من مواليد المغرب)، عدي عسيس (حلب - سوريا)، شيرا اوحيون (المغرب)، شلوميت بنيامين (سوريا - تركيا)، أبشلوم أليتنسور (من مواليد إيران)، يعيل بن يفت (العدن - العراق)، أورنا يهودا (إيران)، بوغز كوهين (أذربيجان - أفغانستان)، شاؤول بار-حاييم (بغداد، العراق)، البروفيسور بدرى عزاز (من مواليد بغداد، العراق)

وكلي رجاء في ان يلقي هذا الخطاب آذانا صاغية من شباب شعوب المنطقة وحكوماتها، وان تبادر الشعوب العربية والاسلامية، هذه الشعوب التي اثبتت قدرتها اليوم على التغيير لصالحها ولصالح الأجيال القادمة، الى مد يد الصداقة والصفح لإنهاء حالة استنزاف الثروات وإراقة الدماء عبثا واهدار المواهب المبدعة، فقد آن الاوان لنلقي صخرة سيزيف عن كاهلنا، ونبدأ مستقبلا جديدا للعمل على حل المشاكل الانسانية في مجال العلوم الحديثة والتكنولوجيا في خدمة الانسان وانقاذ البشرية من الأخطار التي تترصص بها كالانفجار السكاني، والتصحر وشحة المياه وتلوثها، واطار التلوث البيئي والتفتيش عن طاقة جديدة نظيفة بديلة للطاقة الذرية الخطرة، لأنقاذ الاجيال القادمة من الدمار الشامل. ونحن بانتظار رد الشباب العربي والإسلامي على هذا الخطاب المسالم.

مع فائق الاحترام والود.

المخلص

شموئيل (سامي) موريه

مقابلة مع البروفيسور شموئيل موريه من الجامعة العبرية

اجراها: موريه صفوان

٢٠١٢-٠١-٣٠



وُلد في بغداد وأنهى دراسته الثانوية فيها. هاجر إلى إسرائيل وهو في الثامنة عشر ربيعاً، تاركاً وراءه ذكرياته وحنينه ليستقر في شارع "نهر الفرات" مع زوجته. إنه البروفيسور اليهودي شموئيل موريه أو بإسمه العربي العراقي سامي إبراهيم معلم. أحد كبار أساتذة اللغة العربية اليهود الذين هاجروا من العراق... يحدثنا في مقابلة خاصة عن أعماله الأدبية وحنينه لبلد الأم، وعن اندماج يهود العراق في أرض الميعاد... كما أفصح موريه عن ما لا يعرفه إلا القلائل حول النوايا السياسية للرئيس العراقي السابق صدام حسين تجاه إسرائيل... اتفاقية سلام... وهو بنفسه يناشد العراق حكومة وشعباً، بإبرام معاهدة سلام مع إسرائيل.

بداية، حدثنا عن آخر أعمالك الأدبية ...

في هذه الأيام أضع لمساتي الأخيرة على ثلاثة كتب جديدة عملت عليها خلال العشرين عاما الماضية. أهمها، تحقيق كتاب "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للمؤرخ المصري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في أربعة أجزاء محققة على حوالي خمسة وثلاثين مخطوطة محفوظة في مكتبات وجامعات مختلفة في أوروبا، آسيا وأفريقيا، بالإضافة إلى أربعة أجزاء من الفهارس وقاموس للمصطلحات الإدارية، المعمارية، الدينية، العملية والأدبية.

وقد اعتمدت في هذا التحقيق على النسخة الأم وهي مخطوطة بخط الجبرتي. عثرت عليها في مكتبة جامعة كمبريدج بإنجلترا. وقد اشترى هذه النسخة الرحالة السويسري يوهان بوركهارت الذي أشهر إسلامه في حلب ليطلق على نفسه فيما بعد اسم الشيخ إبراهيم.

من هو البروفيسور شموبيل موريه (سامي معلم)؟

ولدت في بغداد ودرست في مدرسة السعدون الابتدائية النموذجية في البتاوين قرب برك السعدون، ثم في مدرسة "فرنك عيني" المتوسطة ومن بعدها في مدرسة "شماش" الإعدادية. نلت شهادة البكلوريا العراقية (١٩٥٠) ونشرت شعري المنثور وترجمت قصائد رومانسية لكبار الشعراء الإنجليز والأمريكيين، نُشرت في صحف عراقية عدة منها "العراق اليوم"، "النبا" و "الكرخ". من بين أساتذتي في اللغة العربية محمد حسن الصوري والأستاذ حسين مروة.

هاجرت إلى إسرائيل في ١٩٥١/٤/٢٢ والتحق بالجامعة العبرية لدراسة الأدب

العربي الحديث وعلوم الشرق الأوسط. أنهيت اللقب الجامعي الثاني، الماجستير بتفوق. فأرسلتني الجامعة العبرية لكتابة أطروحة الدكتوراة في معهد العلوم الآسيوية والأفريقية في جامعة لندن حيث نلت درجة الدكتوراة عن أطروحتي حول الشعر العربي الحديث. وفي مطلع عام ١٩٦٦ دعيتني الجامعة العبرية لتدريس الأدب العربي الحديث وترأست قسم اللغة العبرية فيها بين الأعوام ١٩٨٣-١٩٧٩. وفي العام ١٩٨٠ أسست رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق. ونشرت ثمانية وأربعين كتابا في سلسلة منشورات الرابطة لكبار الأدباء والمؤرخين والشعراء اليهود النازحين من العراق.

أعمل أيضا كعضو في هيئات تحرير للعديد من المجالات العلمية الإستشرافية والأدبية كما وقمت بنشر العشرات من الكتب ومئات المقالات باللغات الإنجليزية والعربية والعبرية، وشاركت أيضا في عشرات المؤتمرات العلمية في العالم يالقاء محاضرات عن تخصصي في الأدب العربي. نلت جائزة الدولة في الاستشراق عام ١٩٩٩ بالإضافة إلى وسام فيلق الأسد الفنلندي من رئيس دولة فنلندا عام ١٩٨٦ لنشاطي كرئيس رابطة الصداقة الإسرائيلية الفنلندية في أورشليم القدس. ولا أزال أحاضر وأرشد طلبة الدكتوراة في الجامعة العبرية وأعقد وأشارك في المؤتمرات الأدبية حول أدب يهود العراق وتاريخهم.

كيف كان خروجكم من العراق؟

حقا خروجنا من العراق كان صعبا جدا وخاصة عندما يجبرونك على اقتلاع جذورك التي تمتد إلى ألفين وستمئة عام في تربة العراق وحضارتها فجأة. قدمونا إلى إسرائيل

كان صدمة حضارة ولغة ومال وشعور "بعزيز قوم ذل"، ولم يكن بشكل عائلي جماعي وإنما تفرقنا في الطريق. قدمت إلى البلاد لوحدي عندما كان عمري ثمانية عشر عاماً. أخي البكر جاكوب (يعقوب) كان من أوائل من قَدِم إلى إسرائيل للدراسة في الجامعة العبرية عام ١٩٥٠ بسبب رفض قبوله في بعثة علمية عراقية عام ١٩٤٦. أخوَي الأصغر مني سنا، ريموند ومراد (مردخاي)، قدموا إلى إسرائيل بعد ضمهم كأبناء عائلات يهودية أخرى. أمي جاءت بعد قدومي إلى البلاد مع أختي كلادس. والدي قرر البقاء في بغداد على أمل تصفية أملاكه تدريجياً، حتى عام ١٩٦١، وبالتحديد ضياع المنزل والأراضي.

غياب والدي عنا وعدم تمكننا من اصطحاب المال معنا لشراء منزل، كل هذا سبَّب لنا معاناة في الخيام أو فيما يُعرف بـ"السكن المؤقت" (المعبورت بإسمها العبري). لكن في المقابل تخلصنا من هيمنة الوالد على كل صغيرة وكبيرة في حياتنا الأمر الذي مكننا من أن يختار كل واحد منا مسار حياته المهني أو الأكاديمي الذي يناسب مواهبه. أخي الكبير يعقوب درس الفلسفة والاقتصاد، ريموند الرياضيات والفيزياء، ومردخاي تعلم الرسم في معهد "بتسلئيل" للفنون الجميلة في أورشليم القدس. وأنا غيَّرت في اللحظة الأخيرة موضوع دراستي من الفيزياء إلى اللغة العربية وآدابها. وبعد العمل في مجال البناء بمدينة رمات غان، انتقلنا إلى أورشليم القدس إلى حين بعث لنا والدنا المال لشراء دار لنا.

كيف تغلبتم على تعلم اللغة العبرية؟

اكتساب لغة جديدة هي مشكلة صعبة بحد ذاتها. واكتساب اللغة العبرية كانت إحدى المشاكل التي ابتلي بها يهود العراق ومن بينهم عائلتي، خصوصا عدم تدريس اللغة العبرية كلغة حيّة في المدارس اليهودية وذلك بعد صعود القومية العربية الراديكالية في ظل حكومة الملك غازي. فبعد وفاة والد الملك فيصل الأول عام ١٩٣٣ وصعود الضباط الوطنيين الذين درس بعضهم في ألمانيا وتوظيف الفلسطينيين اللاجئين بعد ثورتي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ في جهاز التعليم في العراق محل المعلمين اليهود الذين طردوا من وظائفهم، كان له دور في الشد من عزيمة يهود العراق على تعلم اللغة العبرية. لذا تعلمنا هذه اللغة سرا إلا أن ذلك كان بصورة سطحية لأنه لم يتم بشكل مستمر. وجُلَّ اهتمامنا كان اجتياز امتحانات الثانوية العراقية. لكن، وبعد التسقيط (التخلي عن الجنسية العراقية) أخذنا، أنا وأخي ريموند، نتعلم العبرية بصورة أكثر جدية.

هل حصلت على كامل حقوقك بعد هجرتك إلى هذا البلد؟

في كل هجرة جديدة من القادمين الجدد يشعر أفرادها بشيء من التمييز بسبب عدم إتقانهم للغة العبرية والرطانة التي تميّزهم والتي تصبح موضوعا لنوادير السكان القداماء، أو أزياء ثيابهم أو المظهر الخارجي والعادات والتقاليد الجديدة عليهم، هكذا كان وضع يهود البلاد العربية، ثم يهود روسيا اليوم ويهود الحبشة في المدة الأخيرة. يهود العراق كانوا يُسمون "عراقي بيجامة" لارتدائهم البيجاما في البيت وفي الشارع في بعض الأحيان، وكان اليهودي المغربي يسمى "ماروكي سكين" بدعوى

أنهم كانوا يستعملون السكاكين في حل مشاكلهم وعراهم. ويطلقون على القادم الجديد من رومانيا إسم "روماني حرامي" أو بسخرتهم من اليهودي القادم من ألمانيا بقولهم "يهودي عسير الفهم" (بيكي)، وغير ذلك من السخرية التي تثير حفيظة القادمين الجدد على المجتمع الإسرائيلي المشهور بعدم حساسيته تجاه مشاعر الآخرين.

ولكن استيعاب القادمين الجدد يتم تدريجيا إلى أن تتلاشى الفوارق عندما يندمجون في المجتمع الإسرائيلي الذي أصبح اليوم يتسامح بسبب تعدد الجنسيات واللغات والعادات وحركات مكافحة العنصرية التي نشطت في الفترة الأخيرة خاصة، ولعل ذلك جاء كاستجابة لحراك الربيع العربي الذي اضطر إلى استبدال طريقة استيعابه للمهاجرين الجدد. فبعد محاولة الحكومات السابقة صهر القادمين الجدد في بوتقة "الحضارة اليهودية الشرق أوروبية"، الفاشلة، تبنت اليوم تعدد الحضارات والتقاليد والعادات واحترامها والتعايش بينها. فأخذوا يشاركون يهود المغرب في احتفالات "الميمونة" وتقاليد يهود كردستان في احتفالات "السهرانة" الشعبية، وتقاليد يهود الحبشة في احتفالاتهم الدينية الخاصة. وأنا اليوم أشعر بأني حصلت على كامل حقوقي بل أكثر مما كنت أحلم به. لسبب رئيسي واحد وهو أني ألقيت اللوم على نفسي فقط إذا لم أنجح في استيعاب مبادئ المجتمع الجديد وفهمه، فالمجتمع الإسرائيلي يُقدس الثقافة والفن والتنافس العلمي والأدبي والفني، فهو مجتمع يكره الكسل والتواكل والتعاس وإلقاء اللوم على الآخرين. لذلك لم أتهم الآخرين بالتقصير نحوي، وإن كان علي كيهودي شرقي أن أبذل أضعاف الجهد الذي يبذله اليهودي الأوربي لكي أكون على قدم المساواة معه. وقد طالبتُ بذل الجهد من نفسي أكثر مما طالبتُ من غيري.

إلى أي تيار تنتمي... إلى التيار الفكري التقليدي المحافظ أم إلى التيار الفكري المتجدد؟

أنا ممزق بين شوقي وحنيني لمسقط رأسي وطفولتي بالرغم من أنها لم تكن جنة عدن. وأسفي الشديد على ما يحدث في العراق منذ أن غادرناها بسبب الانقلابات الدموية التي لم تهتم بمصلحة الشعب العراقي على كافة أطرافه الدينية والمذهبية والعنصرية، إلا في فترة الزعيم عبد الكريم قاسم الذي قام بثورة ١٩٥٨ ضد الملكية. وهذه لم تكن ثورة شعبية بل ثورة ضباط لهم مصالحهم. والفكر العربي الذي ترنم بأمجاد العرب في ماضي، إلى أين وصل؟ إلى ثورات... لم يتوصل إلى أي نتيجة لصالح الشعوب العربية... أما الشعور القومي والفخر بأمجاد العرب دون أن يقوم بثورة فكرية حضارية جديدة نحو الديمقراطية وحرية الرأي وتنقيف العرب نحو قيم إنسانية ومحاربة الثلاثي المخيف (الفقر، الجهل والمرض) الذي يقف حائلا دون كل نهضة. وهذا أدى إلى قيام نظم عسكرية اهتمت بإنماء الشعور بالتفوق العربي الحضاري في الماضي لكنها فشلت في الحاضر في تحقيق أي شيء لصالح الشعوب العربية بل قام بتهميش واضطهاد الاقليات.

ما الذي جئت به من العراق؟

جئت بكنوز من التراث والتاريخ والأدب والقصائد التي تعلمتها عن ظهر قلب في المدرسة وفي البيت، فقد كان أخي الأكبر يعقوب يحفظ المعلقات والقصائد التي كانت فرضا دراسيا لامتحانات البكلوريا الثانوية وكان يُنشدنا أمامنا لحفظها، فكان

نحفظها معه ونحن صغار. وكذلك يروي لنا ويُعلق على تاريخ الفتوحات الإسلامية ونوادير المدرّسين في مدرسته. وقد صاحبتَه إلى مكتبة "المثنى" في شارع المتنبي ببغداد حينما أراد الحصول على نسخة من القرآن الكريم لحفظ بعض السور القرآنية الكريمة وفق برنامج الامتحانات العامة. وقال لي "يجب علينا أن نقول لبائع المصحف الشريف "هني قرآنا كريما" وأن لا نقول "بعني المصحف" وذلك احتراماً وإجلالاً للقرآن الكريم، ثم نمنحه ثمنه هدية لا كسواء. وهكذا حفظت بعض سور القرآن معه. وعلمي أيضاً احترام القرآن واللغة العربية الفصحى التي كان يُجيد قواعدها ويحفظ العشرات من القصائد التي تُعد من عيون الأدب العربي وفرائده، وهو الذي غرس فينا حُب هذه اللغة الشاعرة التي تُعد من أغنى لغات العالم، وبالنسبة لي فهي من أشعر اللغات في العالم وأجملها وفيها فقط أستطيع أن أعبر عن أعماق مشاعري.

ما أثر كل لغة (العربية والعبرية) على أعمالك الأدبية؟

أعظم تأثير على أبحاثي العلمية كمستشرق هي اطلاعي الواسع على اللغة العربية وآدابها والتاريخ الإسلامي، إذ استطعت بواسطة دراستي لها كلغة أم كتابةً وقراءةً، فهم النصوص العربية منذ الجاهلية وإلى اليوم وذلك بسبب المكتبة الغنية التي كان يملكها الوالدان وأخي البكر يعقوب، وقد استطعت بواسطة امتلاكي لِناصية هذه اللغة الشاعرية الغنية بمفرداتها ومرادفاتها حل الكثير من المشاكل والمصطلحات العلمية العربية في عصور مختلفة. وكثيراً ما يسألني الطلبة، أنت الوحيد الذي تقول إن معنى النص الذي نقرأه هو هكذا، ولا يقبل التأويل، بالرغم من التلاعب اللفظي المتعمد في الأدب، بينما نرى بعض الأساتذة يقولون إن النص الفلاني يقبل التأويل على وجهين، فأقول لهم نعم هو في الأدب ولكن المؤلف والمؤرخ يعني في الأغلب

ما ذهبْتُ إليه. فأنا أستقرئ النص لا القواميس العربية القديمة التي تهتم بالشعر القديم والنصوص الدينية. أما اللغة العبرية فإني أستطيع التعبير فيها بصورة دقيقة في أبحاثي العلمية وهي تساعدني في فهم اللغة العربية بصورة أعمق، وكذلك المصطلحات العلمية، ومن الأسماء التي حار في تحريكها وفهم معناها الكتاب العرب هي إسم يعقوب "صنوع" الذي يقرأه بعض المصريين بتشديد النون، ولكن الإسم هو إسم عبري و"صنواع" أو كما كان يكتبه "سنوا" بالفرنسية، هو بمعنى "متواضع" باللغة العربية. وكذلك مصطلح "مياميس غزة" في شعر حسان بن ثابت في البيت "ميامس غزة ورماح غاب"، فهناك في اللغة العبرية مصطلح "מַיָּמִים" (ميومسي غزة)، وهو يعني "الممثلون المساخرون الذين كانوا يمثلون في حانات غزة مسرحيات هزلية قبل الإسلام" والتي فهمها الشراح العرب القدماء بهذا المعنى أيضا، ولكن الشراح المحدثين حاروا في تفسيرها.

ماذا عنك بشكل خاص، بأية لغة تفكر؟

في الشعر والأدب أفكر باللغة العربية طبعاً، أما في الأبحاث العلمية فأفكر بالإنجليزية والعبرية حسب اللغة التي أكتب فيها الكتاب أو المقال. أما في حديثي مع أختوتي وإخوتي وأصدقائي من العراق، فأفضل التكلم باللغة العربية بلهجة يهود بغداد التي أحبها، فاللغة العربية تهدم جميع الحواجز الاجتماعية مع اليهود الشرقيين والعرب، كذلك الأمر مع اللهجة الإسلامية البغدادية التي تهدم حواجز الدين والقومية وغيرها من الحواجز في لقائي بالأدباء العرب في الخارج.

عندما ترى ما يحدث في العراق، ما يخطر ببالك؟

أكثر ما يؤلمني، شيئان. الأول، ما حدث ويحدث في العراق من مذابح بين الشيعة والسنة، بين المسلمين العرب والأكراد وبين الأغلبية وباقي أطراف الشعب العراقي خاصة المسيحيين اليوم بعد أن أفرغوا هذا البلد من اليهود والأكراد ومن الكثير من المسيحيين الذين كانوا عاملاً بناءً في إنشاء النهضة الحقيقية للعراق والاقتصاد والفن والأدب العراقي.

الشيء الثاني الذي يؤلمني حقاً، هو الكارثة التي حلت بعرب فلسطين من جراء الصراع السياسي مع الصهيونية كحركة سياسية. فالخيارات والحلول التي اختارها الزعماء العرب الذين حاربوا وضُحُوا في سبيل إنقاذ فلسطين لم تكن صحيحة وناجحة على الأغلب، لأنها اقتصرَت على شعارات "خلي السيف يقول"، وكما يقول العراقيون "لو كلها، لو سيع لياكلها" (إما أن أحصل على جميع مطالبتي أو فليذهب الجميع إلى الجحيم). فلا يمكن إقامة كيان على حساب إبادة كيان آخر. فالعرب حاولوا من أول دقيقة لقيام دولة إسرائيل إبادة كيانها، في حروب متتالية أنهكت الاقتصاد العربي والاهتمام بمستقبل الشعوب العربية. وجعلوا كأن الأمر يتعلق فقط بإبادة دولة إسرائيل. الضحية الكبرى في هذا الصراع كان الشعب الفلسطيني الذي ما زال يعاني مع الأسف الشديد من الأوضاع المأساوية وغير الإنسانية في فلسطين وفي الضفة الغربية وفي قطاع غزة في خيام اللاجئين الفلسطينيين وفي باقي البلدان العربية المجاورة. أنظر إلى أين وصلت إسرائيل في التطور بالرغم من هذه الحروب... بينما لو قبل العرب بالتقسيم عام ١٩٤٨ (وكان الأمر آنذاك مستحيلاً بسبب ترسبات الماضي ونظرتهم الخاطئة نحو اليهود عامة ويهود البلاد العربية خاصة) لكان الوضع مختلفاً.

لو تعاونت الشعوب العربية مع إسرائيل في تنمية الاقتصاد والزراعة والصحة والتربية وفي جميع مرافق الحياة الأخرى، لأصبح الشرق الأوسط غير ما هو عليه اليوم. وأنا أقول ذلك بصراحة ولا أريد أن أدغدغ مشاعر الفلسطينيين والعرب بإبداء التعاطف وذرف الدموع التي يستحقونها ولكني أكون خاطئا معهم ومع نفسي إن لم أقل الحقيقة. وأنا أقول ذلك من منطلق المسؤولية تجاه الأجيال القادمة. ففي هذا العصر الإلكتروني الحديث لم تعد الأرض تشكل المشكلة الأساسية في العالم، بل التكافل العالمي لخير الإنسانية جمعاء لتوفير الحياة للأجيال القادمة بالتنافس العلمي الحضاري لخير الإنسانية، لا التوقف العسكري التدميري، والالتفات نحو حل المخاطر الكبرى التي تقف أمام الإنسانية كالجهل والمرض والفقر والأوبئة والتصحر والتلوث البيئي وشحة المياه الصالحة للشرب والتعصب الديني والتحريض على إبادة الآخر وخطر وقوع أسلحة الدمار الشامل في أياد متطرفة حاكمة ناقمة.

وأنا أؤمن بأن العالم يتوجه الآن نحو تحقيق نبوة سفر إشعيا ٢ : "فَيَقْضِي بَيْنَ الْأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ، فَيَطْبَعُونَ سِيُوفَهُمْ سِكِّكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ. لَا تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَيَّ أُمَّةً سَيِّفًا، وَلَا يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ."

ماذا تتمنى للعراق؟

اتمنى لعراق اليوم كل الخير، السلام والاتحاد والتفاهم بين التيارات الدينية والسياسية، والتسامح والتعاون فيما بينها لإحياء نهضة ثقافية وحضارية كانت في بداية نشأتها في العهد الملكي. والآن بعد أن غادر الأمريكان العراق، على القوى السياسية والثقافية في العراق الاتحاد ونبذ العنف والمحسوبية القبلية والحزبات

الدينية وإنصاف الأقليات التي لها طاقة كبيرة كعنصر مساعد للقيام بهذه النهضة. وأنا أرى أن عودة المُشرِّدين في العالم من بين العراقيين إلى العراق بعد أن أُطلعوا على مُقوّمات الحضارة الحديثة المساهمة في هذه الوُحدة والنهضة وإحلال السلام والوفاق والتخطيط لمشروع نهضوي حضاري والتخلص من الهيمنة الدينية السياسية لدول أجنبية لا تراعي مصلحة العراق بل تراعي مصالحها.

ما يحتاج العراق هو فترة هدوء للإعمار والتثقيف والتعليم حسب المبادئ الحديثة للحرية والديمقراطية والتسامح وتحرير المرأة وتحرير الرجال من قيود الماضي ومن العادات والتقاليد البالية. ويجب أن يبدأ التعليم من الطفولة وتثقيف الأم ووضع برامج جديدة شعارها "الإيمان بالله... والوطن للجميع".

هل إنتهى دور يهود العراق في العراق؟

دور يهود العراق إنتهى بطرد جميع يهود العراق إلى إسرائيل والدول الأوروبية والأمريكية. ماذا ينتظر اليهودي العراقي الذي عان من الفرهود (المذبحة التي حلت بيهود العراق عام ١٩٤١) ومن تجريد أمواله ومن الملاحقات ومن الكراهية التي بُثت ضده وعدم التمييز بين اليهودي وبين الصهيوني، وبعد أن ضربوا جذورهم زرعوا بذورا جديدة في إسرائيل والعالم وتمتعوا بالحرية والرفاهية والتعليم العالي بكل ما تمنحه هذه الدول من تأمين وطني وصحي واجتماعي وفتح جميع الفرص أمامه من الناحية العلمية والسياسية والاجتماعية والأدبية. لا أظن أن أحدا يريد أن يعيش في أجواء عراق اليوم أو البلاد العربية، فحتى العرب والمسلمون يهاجرون من البلاد

العربية ويرون أنفسهم محظوظين أنهم في بلاد أوروبية أو أمريكية تتيح لهم إمكانية العيش بسلام. أقولها بصراحة ودون تملق أو مواربة بأن الحياة والأمن في البلاد العربية أصبحت غير آمنة، فالحكومات تقتل أبناء الشعب لمطالبته بالإصلاح، وهناك مشكلة الانفجار السكاني ووضع المرأة والتعصب الديني ضد الأقليات، فقد أصبح كل شيء مكشوفاً ومعروفاً من خلال التلفزيون والاتصالات الإلكترونية.

هناك مشاكل كبرى تقف أمام معظم الحكومات العربية والإسلامية. فما مستقبل الدراسة والتنمية الاقتصادية وحرية الفكر والديمقراطية التي لا تزال العوائق أمامها جسيمة حتى اليوم. فالهجرة على الأغلب تكون إلى بلد أفضل وليس إلى بلدان تعاني من مشكلات الأمن والتطور الاقتصادي، وإن كانت مسقط الرأس أو الأوطان، وكيف يريد المواطن العودة إلى وطنه وهو يعاني من أوضاع في غاية الصعوبة والخطورة.

أختصر حديثي في هذا المضممار للقول، بأني إذا عُدت إلى العراق لوحدي بدون سلام فسأكون خائناً لقوميتي وللدولة التي منحت يهود البلاد العربية الحماية والتقدم الحضاري. لذا أحث وأدعوا العراقيين حكومة وشعباً إلى إبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل أسوة بمعاهدات السلام مع مصر والأردن والمغرب. وهذا السلام سيعود على الجميع بالفائدة الكبرى.

بعد إنتهائه من الإجابة على هذا السؤال. صمت البروفيسور موريه لنحو نصف دقيقة ثم قال لي: "سأقول لك ما لا يعرفه أحد عن نوايا الرئيس العراقي السابق صدام حسين السياسية تجاه إسرائيل في الثمانينيات من القرن الماضي".

أطلق للسناك العنان قلت له...

عندما كنت في مؤتمر "المستشرقين" في مدينة هامبورغ الألمانية عام ١٩٨٦،
إلتقيت بمعروف الدواليبي، الذي شغل مناصب عدة في سوريا منها رئيسا للوزراء
(١٩٥١) ووزيرا في وزارتي الدفاع (١٩٥١) والخارجية (١٩٦١-١٩٦٢). وبعد
الانقلاب في سوريا (١٩٦٣) فرَّ إلى السعودية وأصبح رئيسا للمجلس الإسلامي
الأعلى. قال لي الدواليبي ملتصقا مني أن أخبر الحكومة الإسرائيلية بأن صدام حسين
يريد عقد معاهدة سلام سرية مع إسرائيل لمساعدته في حربه مع إيران. فقلت له
بأنني كأستاذ جامعي ليس لي علاقات مع الحكومة الإسرائيلية وأستطيع فقط أن
أكتب مقالا عن ذلك، وأنا متأكد بأن إسرائيل لن تقبل بسلام سري وإنما علي،
خاصة بعد زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات لإسرائيل (١٩٧٧) وعقد
اتفاقية سلام بين البلدين (١٩٧٨).

نعود الآن إلى الأدب والشعر، من الشعراء العراقيين تأثرت به بصورة خاصة؟
بالطبع الشاعر العراقي الكبير بدر شاكر السياب (١٩٦٤-١٩٢٦) الذي درسته
دراسة وافية في كتابي الذي صدر عام ١٩٧٥ "الشعر العربي الحديث ١٨٠٠-
١٩٧٠" باللغة الإنجليزية وترجمه د. سعد مصلوح ود. شفيق السيد، ثم قامت
بتنقيحه الأستاذة لبنى صفدي. وأشارت في هذا الكتاب إلى عمق مواهبه الشعرية
وإطلاعه الواسع على الشعر العالمي وعلى الشعر الإنجليزي بصورة خاصة، حيث
استطاع أن يجعل التأثير الأوروبي على الشعر العربي طبيعيا ومندمجا بصورة رائعة
عميقة وليس بصورة خارجية سطحية.

كذلك أعتبر شاكر بدر السياب من كبار ورواد الثورة الحديثة في الشعر العربي الحديث الذي وضع أسس الشعر الحر وعبّر تعبيراً عن أمراض العراق وعن ظلم الواقع على الشعب العراقي، كما أفلح في تطعيم الأشكال الأوروبية ورموزها في الشعر العربي عامة. فقد تحدث عن ظلم الإقطاعيين وظلم المرأة الشرقية وسيطرة رجال المخبرات على الأحرار والمفكرين وعلى حرية التعبير الفكري والفلسفي.

أضيف أيضاً أنني تأثرت بالشاعر والأديب العراقي عبد الوهاب البياتي (١٩٩٩-١٩٢٦) والذي يُعد واحداً من أربعة أسهموا في تأسيس مدرسة الشعر العربي الجديد في العراق. وكذلك الشاعرة العراقية الكبيرة نازك الملائكة (٢٠٠٧-١٩٢٣). كما أعجبت بكبار المفكرين العراقيين كالمفكر علي الوردي عبد الأحد لؤلؤة والبروفيسور كاظم حبيب والدكتور رشيد الخيون والصحافي خالد القشطيني والدكتورة أمل بوتر وغيرهم ممن عانوا في إغترابهم وتشردهم في العالم والذين حَرَمَت الدكتاتورية في العراق فكرهم النير. على فكرة أنا على اتصال هاتفي وعبر الإنترنت مع عدد كبير من الشعراء، الصحفيين، والأدباء والعلماء العرب وخاصة مع العراقيين والمصريين في البلاد العربية وأوروبا وأمريكا بهدف التواصل لتبادل القصائد، المؤلفات والكتب، بحيث اشعر أن التطبيع الثقافي والروحي يعيش ويتنفس بصورة حرة طليقة وطبيعية بواسطة الاتصالات الالكترونية السريعة التي هدمت الحواجز المصطنعة بين الشعوب والشباب المثقف الواعي، ولا حاجة لتدخل السلطات الحكومية في السماح أو عدم السماح بمثل هذا التواصل المثمر بين الشعوب.

حدَّثنا عن مساهمات يهود العراق للغة العربية ...

كان ليهود العراق مساهمة كبرى في تطعيم الأدب العربي في العراق بالأدبين الفرنسي والإنكليزي وتطبيق أنماط تَقْفِيَّة (من كلمة قافية) وتنوع أطوال الأبيات وعدد التفاعيل في الأبيات مثلما فعل مير بصري في اقتباس نمط تقفية السوناتا الانكليزية الى أدوار وموضوعها النقدي على الشعر العربي، وقد ساهم في نشر قوالب السوناتا الشاعر والاقتصادي يعقوب بلبول في سلسلة سوناتاته التي نشرها في جريدة "العالم العربي" العراقية عام ١٩٤٢ والتي نشرت في ديوانه "محنة العقل".

أنت تسكن اليوم في شارع "نهر الفرات". ماذا يعني لك ذلك؟

أسكن في شارع يحمل اسم "نهر الفرات" في بلدة "ميفاسيريت يروشلايم" والتي تبعد نحو ستة كيلومترات فقط عن العاصمة. بعد أن علِمَت السلطات في البلدية بأنني أسكن في هذا الشارع الذي كان يحمل في السابق اسم "مدخل أ" قامت بتحويل الاسم إلى شارع "نهر الفرات"، فكان سروري عظيما لذلك، وشكرت رئيس البلدية على خطوته المباركة، ثم نَمَت في نفس السنة فسيلة نخلة تمر من نواة لم يخطط لها أحد. فرأيت في ذلك تعويضا عن العراق التي سالت فيه الدماء أنهارا بعد طردنا منها وتجميد أموالنا المنقولة وغير المنقولة. فكان إسم الشارع والنخلة، عزائي لترك العراق، وكثيرا ما يتعجب الزوار من هذه الصدفة المباركة. فأقول لهم "يبدو أن العراق قدري".

هل تحن إلى أجواء بغداد؟

الحنين إلى العراق هو شعور ملازم لنا وخاصة بسبب ما يحدث الآن يوميا في العراق، إذ تذكرنا أسماء الأماكن والصور التي نشاهدها في التلفزيون بمسقط الرأس فنترحم ونشفق وندعو إلى خلاص العراق من محتته. والحنين الرئيسي الذي يتبادل الحديث عنه في إسرائيل هو للبيالي الجزيرة والنزهات بالبلاد (القوارب) النهرية على دجلة في أيام الصيف المقمرة، وإيقاع المجاذيف و"نقر الدرايك من بعيد" مصاحبا العتابا والغناء العراقي الشجي، ورائحة ضفاف دجلة والفرات ودخان السمك المسكوف يعطر الأجواء، وغناء المستحمين "هذا الكيش حلأوي، ياكل تمر خستاوي"، والسباحة في مياه دجلة العطرة العذبة الصافية، ومعلم السباحة الذي كان يغني معنا: "يا أولاد بلبول!" فنرد "بلي" ثم يسأل: "ما شفتم عصفور؟" \ بلي! \ ينقر بالطاسة!" بلي \ لابس حياصة \ بلي \ ونهيهها بهوسة: هههه هههه! وهي الأغنية التي أصبحت في استعراض الكشافة العراقية أمام هتلر أيام عز مغالنته للعرب الذي درجهم في الخانة السابعة من سلمه العنصري في رقي الشعوب بعد الشعوب الآرية.

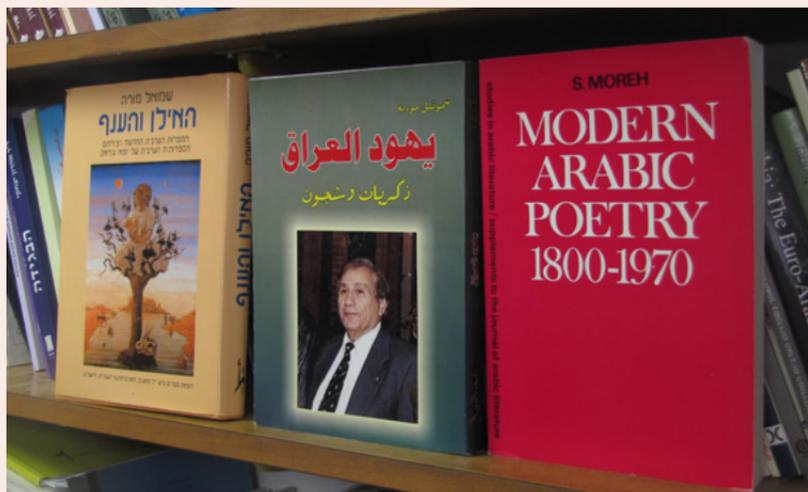
كما كنا نغني للطيور عند مشاهدتها وخاصة للقلق، فيغنون له: "لكلك لگلك بواگ الصابونة..." وفي أغاني الأطفال هذه نجد أبياتا ليست ذات معنى ولكن الشيء الذي كان يطربنا فيها هو رنين القافية والإيقاع المرح، واليوم أدركت أن مثل هذا الغناء كان قد سبق المذهب العبثي (الأبسورد) في الأدب الأوروبي ورواية "في انتظار جودو".

وما هي الأكلة التي كنت تفضلها حينذاك؟

الأكلة التي كنا نفضلها في العراق فهي الكبة والباجة والقوزي في الشتاء والسمك المسكوف في الصيف. وفي الصباح الصمون المقسب مع العسل آو السيلان (عسل التمر) والقيمر وعلب اللبن التي كانت نساء المعدان تأتي بها من وراء السدة وكل واحدة منهن تحمل العشرات من العلب على رؤوسهن في غبش الفجر سيرا على الأقدام مسافات طويلة بقامتتهن المنتصبة بكبرياء واعتداد كالرماح العوالي، رحم الله تلك الأيام الخوالي.

وماذا عن الفن والموسيقى. من هو فنانك العراقي المفضل في الماضي والحاضر؟

صالح وداود الكويتي وسليمة مراد وباقي المغنّين والملحنين اليهود وقد برز في إسرائيل ملحنون وعازفون كبار من أمثال أبو العز (إسحق أبيعيزر، وهو الأستاذ شفيق كباي من مؤسسي زاوية الموسيقى والغناء في صوت اسرائيل) ويثير دلال ومغنون من أصل عراقي ما زالوا يُغنون الأغاني العراقية المُحببة وخاصة "فوق النخل فوق" وغيرها من الأغاني الشعبية خاصة لفلل كرجي ونشاوي والبغدادية وعزيز جلال وإلياس شاشا وإيمان (سوزان شهرباني) وصبري عاشور ويعقوب العلالى وعبد داود ولطيف الحلو وغيرهم من الجيل الثالث والرابع الذي وُلد هنا في البلاد. كذلك أطرب على أغاني وصوت الفنان العراقي العملاق كاظم الساهر.



رسالة شفوية. لرئيس سابق للدولة السورية. من بطل القادسية. الذي نسي مواعظ الآيات القرآنية

الجزء الثاني من كتاب "بغداد حبيبتني. ذكريات وشجون": ١- ذكريات منسية

الأحد ٠٤ مارس / آذار ٢٠١٢

أ. د. شموئيل (سامي) موريه

الجزء الثاني من كتاب "بغداد حبيبتني، ذكريات وشجون": ١- ذكريات منسية

طاردي العراق مرة أخرى في عام ١٩٨٦، وهو الذي يطارديني حيثما أذهب في هذا العالم الذي أصبح بفضل مخترعات الكفار الشيطانية، بابتكار وسائل نقل جوية وبرية، وآلات اتصال إلكترونية، لم يحلم بها لا الأنس ولا الجنس، إلا رواية قصص الف ليلة وليلة الذين تحدثوا عن بساط الريح (الطيارة)، والحصان المجنح (الطائرة المروحية)، والمنظار السحري (التلفزيون) والتفاحة الشافية (البنسلين)، وأصبح العالم بواسطة تحقيق الأفرنج لهذه الأحلام بمخترعاتهم الحديثة قرية صغيرة لا يخفى فيها على الشعوب لا شاردة ولا واردة. وكدأب قدرني هذا مع العراق دائما، ودون إذن مني، أمسك بتلابيبي في مدينة هامبرغ الألمانية ووضعني وجها الى وجهه مع واسطة خير سوري، حملة صدام العراقي إقتراحا سريًا. كان ذلك عندما شاركت في مؤتمر المستشرقين العالمي الذي عقد في جامعة هامبرغ:

International Congress of Asian and North-African
Studies (ICANAS), Hamburg

نزلنا زوجتي وأنا مع أولادنا مايا و ابراهيم (آفي) في فندق "البلاط الاوربي" (إيرويشر هوف Europäischer Hof, Hamburg) مع الصديقين اللذين شاركوا فيه ايضا،

وهما الاستاذان ميريام روزن-أيالون، المحاضرة في تاريخ الفن المعماري الاسلامي ودافيد ايلون المتخصص في تاريخ الممالك في العالم الإسلامي في الجامعة العبرية. والآخر هو عَرَّاب ولدي ابراهيم ولذلك نزلنا معهما في نفس الفندق اكراما لهما، وقد حظي الطفلان بالرعاية والحب منهما وبدعوة معنا الى وليمة خاصة تمتع فيها الطفلان بأنواع الطعام والحلوى واللعب التي تقدم للأطفال في مثل هذه الفنادق الفاخرة. وكان برنامجنا في هذه السنة حافلا بالمؤتمرات والرحلات، فبعد انتهاء المؤتمر كان علينا السفر إلى لوس أنجلس لقضاء سنة تفرغ في جامعتها العامرة لإنجاز الأبحاث العديدة وتسجيل اولادنا في مدرسة امريكية قرب جامعة كليفورنيا لمواصلة دراستهم الابتدائية.

وفي نطاق هذا المؤتمر أقيمت محاضرة عن "المسرح البشري عند العرب في القرون الوسطى"، أثارت اهتمام الحاضرين. وهناك تعرفت لأول مرة على الاستاذ د. ستيفان ويلد الذي ربطتني معه منذ ذلك الحين صداقة حميمة، فقد كان كما يقول الجبرتي "سيد كريم في نفسه" بمعنى انه جبل على هذه الصفات بالفطرة وليس عن تصنع. وبعد إلقاء المحاضرة، جلست في الكرسي الوحيد الذي بقي شاغرا، الى جانب رجل حسن الهندام تبدو على وجهه مخايل الذكاء والوجهة، وكان بصحبته مساعد له بملاح سعودي طويل القامة، يلخص له المحاضرات باللغة العربية التي كانت تلقى باللغة الانكليزية، فقلت في نفسي، لعله من مثقفي الانتداب الفرنسي .

هنأني السيد الكريم على المحاضرة، وتحدث معي بالأفrensية، إذ ظنني فرنسيا بسبب اسمي الفرنسي الرنين، وقدم نفسه باسم "الدكتور معروف الدواليبي"، رئيس وزراء سوريا الأسبق (١٩٦١-١٩٦٢) ورئيس مؤتمر العالم الإسلامي منذ عام ١٩٧٤. ولما علم بأني عراقي الاصل ومن مواليد بغداد وأعمل أستاذا للأدب العربي الحديث

في الجامعة العبرية في اورشليم- القدس، بش في وجهي على عكس الاستاذ الفيلسوف المصري الكبير د. عبد الرحمن بدوي في لقائنا في مؤتمر المستشرقين في باريس عام ١٩٧٣، ولعله كان يعلم ما تخبؤه الاشهر القادمة في أكتوبر من مفاجآت ومآسي، فأبدى تحفظه من ترحيبي به واعجابي بفضل العظم على تعريف العرب بالفلسفات اليونانية والأوروبية. قال لي د. الدواليبي إنه مسرور لهذه الصدفة، لأنه يودّ أن يحملي رسالة شفهوية سرية الى الحكومة الاسرائيلية بأسم الفائدة الضرورة المحنك، الرئيس العراقي صدام حسين، جذيل البعث المحنك وعذيقها المرجب. وهمس في أذني بأن الرئيس العراقي يعرض توقيع معاهدة سلام سرية بين العراق وإسرائيل، وسيكون من الشاكرين إذا استطعت إبلاغ ديوان رئيس الوزراء في إسرائيل بالأمر. كان ذلك اللقاء في اخرج أيام الحرب الايرانية العراقية، وفهمت أنه يطلب مساعدة إسرائيل في حرب صدام ضد إيران (١٩٨٠ - ١٩٨٨ م). قلت له بانني أستاذ جامعي وليس لي صلات مع الحكومة الإسرائيلية لا من قريب ولا من بعيد، ولكني أعلم أن إسرائيل ترحب بكل معاهدة سلام مع الدول العربية قدوة بالرئيس أنور السادات الذي عقد مع إسرائيل معاهدة سلام علنية، ولا أظن ان إسرائيل ترغب في عقد معاهدة سرية مع اية دولة اجنبية. أجبني الدكتور الدواليبي بان الرئيس صدام يخشى غضب العرب إذا قام بمثل هذه الخطوة علنا، ولا يخفى على احد موقف الدول العربية من مصر ومقاطعتها بسبب مبادرة السلام التي قام بها الرئيس أنور السادات. قلت له، من الأولى، على ما أعتقد، عقد معاهدة علنية، فعند ذلك من الممكن أن تقوم إسرائيل بدعم العراق في حربها مع إيران، وفي مثل هذه الحالة فإن المستشارين العسكريين الاسرائيليين قد يمكنون الجيش العراقي من احتلال طهران خلال بضعة ايام! أجبني الدكتور الدواليبي بثقة وتفاؤل، بأنه متأكد من ذلك ولهذا

السبب يعرض على إسرائيل مثل هذه المعاهدة السرية. وانتهى اللقاء بوعدني له بتبليغ المسؤولين عن الرسالة الشفوية التي حملني اياها.

رفضت الصحف الإسرائيلية الكبرى نشر المقال الذي كتبتته لأسباب لم تفصح بها، فكتبت مقالا عن هذا اللقاء في مجلة "أپريون" (الهودج) العبرية، لمحورها الاديب المغربي الاصل ايريز بيطنون الذي لم يخش من عاقبة نشره لمثل هذا المقال السياسي المريب. ثم أكدت بعض الصحف الاسرائيلية فيما بعد، هذا الطلب ومنها جريدة "هآرتس" وهي من الصحف المهمة والموثوق بها، ورفض اسرائيل ان تكون معاهدة السلام مع العراق معاهدة سرية، وذكرت بأن احد كبار الساسة العرب طلب من كاتب هذه السطور عرض هذا الامر على المسؤولين في اسرائيل وأن بعض المسؤولين الإسرائيليين وصلهم مثل هذا الاقتراح من صدام القادسية، ثم اهمل الأمر وبردت المبادرة.

استفسرت من بعض اصدقائي الذين اتراسل معهم منذ ان نشرت مجلة "إيلاف" الغراء ذكرياتي عن العراق (٢٠٠٦). ولحسن حظي تسلمت رسالة توضيحية من أستاذ عراقي كبير من إحدى الجامعات العراقية الحديثة ومن المتخصصين في الفكر السياسي، مجيبا على رسالتي الألكترونية إليه، قال فيها موضحا ملاسبات هذا العرض الصدامي السري: "في اثناء الحرب الايرانية العراقية أوفد صدام وزير خارجيته طارق عزيز الى لندن واجتمع سرا مع عدد من التجار ورجال الاعمال من يهود العراق عارضا عليهم التوسط لدى اسرائيل من اجل الاعتراف بها مقابل دعمها له في حربه، وقد سريت الخبر في حينها عدد من وسائل الاعلام من صحافة وراديو وتلفزيون." إلى هنا ما ورد في رسالة الاستاذ العراقي الفاضل. سألت بعض اصدقائي من التجار ورجال الأعمال من يهود العراق في لندن من امثال عائلة دنكور وعائلة خلاصجي

وعائلة شكر وغيرهم من الذين لهم مكانة ممتازة في الأوساط المالية في لندن الى اليوم، فأنكروا لقاءهم بالوزير المحنك طارق عزيز، ولم استطع حتى اليوم الوقوف على اسماء مثل هذه العوائل التي توجّه اليها الوزير العراقي لنشرها للحقيقة والتاريخ.

هل أراد صدام حسين ان يتقمص شخصية خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، الذي كان ضمّاناً للدماء وللقاتلات من النساء ، فاشتهر أكثر من سعد بن أبي وقاص بطل القادسية، ليدحر الفرس مرة اخرى، وتصرف مثل خالد بن الوليد الذي أثار غضب العرب لقسوته في حروب الردة؟ وهل حاول صدام أن يثار للعرب على تماذي الفرس الروافض بالتحرش بالدول العربية واغتصاب جزر الخليج العربي العامرة بآبار النفط، واقتسامهم لشط العرب مع العراق بالرغم من نسبة الشط للعرب منذ فجر الإسلام، وما زال الفرس حاقدين على العرب، ولا يزالون الى اليوم يعيرون يهود العراق بأنهم ساندوا العرب في إسقاط الامبراطورية الساسانية، فقد أطاح العرب الغزاة بعروش كسرى وسوا أميراتهم اللواتي كن، حسب ما تروييه إحدى المصادر العربية، يقدمن الى الخليفة العباسي قبل زفافهن الى عريسهن، فيقول المتوكل لرجال حاشيته بفخر، على ما أتذكر، بعد ان سألوه عن النخير والشهيق الذي سمعوه من مخدعه: أترون كيف أعزّ الله العرب بالإسلام، وهل هناك عزّ بعد هذا العزّ؟؟؟.

لم تستطع كبرياء صدام المصدومة برفض اسرائيل إقتراحه الحاتمي النزيه مواصلة غزله معها، وقرر أن يواصل صدامه وحده مع حكومة الخميني الصفوية وجمهوريته الإسلامية بعد أن اطاحت عام ١٩٧٩ بنظام الشاه محمد رضا بهلوي، حليف الولايات المتحدة التي خذلتها، ولم يستطع الصبر على تحرشاتها ومطالبها الإغتصابية المتحججة.

تخلى صدام عن رغبته في الاتعانة بإسرائيل، وواصل وحده حربه الدونكيشوتية العشوائية مع إيران، الى أن اضطر الى إنهاء هذه الحرب الطاحنة مع جارتة عام ١٩٨٨ عائدا فيها بخفي حنين. وكانت حصيلتها وبالا على الطرفين، مليون قتيل وأكثر من مليون نسمة من الجرحى والمعوقين والمصابين بالعاهات الجسدية والنفسية، والأرامل والأيتام المشردين، وشرذ الآلاف من زهرة الشباب العراقي المثقف، وهدرت دماء خيرة الشباب الوطني عبثا، إذ لم يحصل على اي إنجاز ملموس من ورائها سوى الدمار والشكل واليتم والترمل من الجانبين وتبذير مليارات الدولارات فيها اقتطعت من فم الشعبين المسكينين. والله درّ امرؤ القيس حين يقول:

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها ولت عجوزا غير ذات حليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت مكروهة للشم والتقبيل



شعر الحنين إلى العراق.. بمناسبة صدور ديوان الشاعرة د. / ليليان دبي - جوري (على الأنهار وعلى البحار)

شمونيل - سامي - موريه

الجمعة ١٨ أبريل / نيسان ٢٠٠٨

يشير صدور ديوان "على الأنهار وعلى البحار" عن دار "كرمل" (أورشليم - القدس، ٢٠٠٧، في ١٢٠ ص) باللغة العبرية للشاعرة والباحثة في الأدب العبري الحديث، د. / ليليان دبي - جوري تساؤلات حول شعر الحنين إلى العراق الذي يكتبه شعراء يهود هاجروا إلى إسرائيل، وهل هناك فارق بين هذا الشعر الذي يكتب باللغة العبرية والآخر الذي يكتب باللغة العبرية لشعراء اصغر سنا انهموا دراستهم الثانوية في مدارس عبرية؟ فالشعراء الذين تلقوا ثقافتهم في المدارس العراقية كتبوا شعرا ونثرا يتميزان بالتدفق العاطفي والحساسية الصوفية والهروب إلى براءة الطفولة وإلى وطن روحي ضائع، أما الذين تلقوا تعليمهم باللغة العبرية بعد هجرتهم فنلاحظ أن التفكير العلماني والمنطقي عندهم يكبح جماح العاطفة في شعرهم ومع ذلك فما زالوا يحنون إلى براءة الطفولة وإلى الإيمان الديني الذي فقدوه، وإلى النكهة الشرقية في طفولتهم أو مما رواه لهم آباؤهم، فيصورونها على أنها جزء من تراثهم الوحي، غير أن القاسم المشترك بين الجميع هو المرارة المتعلقة بذكريات "الفرهود" عند الجميع. ومعظم هؤلاء الشعراء والأدباء حين يتناولون "الفرهود" يعترفون بالجميل الذي صنعه معهم جيرانهم المسلمون الذين حاموا عرضهم وحياتهم ومالهم، والقليل منهم من يصف الأحداث الفظيعة التي شاهدها أو سمعوا عنها، وذكرياتهم عن العراق هي ذكريات تشوبها رنة التظلم والمرارة، ومن هؤلاء الشاعر سالم الكاتب (شالوم كتاب) الذي

انتقل من الكتابة باللغة العربية بعد نشره لديوان "مواكب الحرمان في بيروت (١٩٤٩)، ووشوشات الفجر (تل-أبيب ١٩٥٩)، إلى اللغة العبرية ونشره لعدة دواوين بها، تحدث فيها بأسى عن ماضيه في العراق وطفولته الضائعة وحاضره في إسرائيل، ومذكرات ابنير (يعقوب) يارون باللغة العبرية في ثلاثة مجلدات وهي مغرقة في العاطفية والأسلوب الغنائي، عن بغداد وانجازات الطائفة اليهودية فيه والشعور بالظلم والحييف الذي حاق بها مما أدى إلى الهجرة الجماعية عام ١٩٥١.

بدأ الوعي بالهوية العميقة بين الحضارتين الشرقية والغربية عند بدأ الصدام بين الإمبراطورية العثمانية حامية الإسلام السني والدول الاستعمارية الأوروبية، ورأى المسلمون فيه صراعا بين الأديان والحضارات، وتجديدا للحروب الصليبية بين الشرق والغرب في القرن الثامن عشر الميلادي. وقد أجمل السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) في صراعه مع الأفكار العلمانية التي حملها نابليون إلى مصر وسوريا، ماهية الفروق بين الحضارة الإسلامية ومبادئ الثورة الفرنسية العلمانية التي دعت إلى "الحرية والعدالة والمساواة"، والتي حاول نابليون غرسها في مصر بقول السلطان في فرمانه الذي أرسله إلى مصر والبلدان الناطقة باللغة العربية ليشيرها للجهاد ضد جيش نابليون المحتل، منمقا إياه بأسلوب السجع الذي يعلق بالأذهان وبالقلوب معا، مؤكدا على الإيمان الديني:

"فاعلموا أن الطائفة الفرنساوية ... تركوا جميع الأديان، وأنكروا الآخرة والديان ... ويقولون لا يهلكنا إلا الدهر . وما هي إلا أرحامٌ تدفع، وارض تبلع . وليس وراء ذلك بعث ولا حساب، ولا بحث ولا عقاب ."

وقامت مدراس الأليانس الفرنسية بغرس ثلوث مبادئ الثورة الفرنسية في البلاد العربية في نفوس النشء الجديد الذي درس فيها. وهذا الفارق واضح في أدب الحنين إلى العراق الذي يكتبه الكتاب والشعراء من يهود العراق باللغة العربية وخاصة أدب أسحق بار- موشيه وسمير نقاش وكاتب هذه السطور، وحينهم هو حنين روحي صوفي عاطفي وهروب إلى عالم الطفولة. أما الأدباء اليهود الذين يكتبون أدب الحنين إلى العراق باللغة العبرية، والذي يتميز بسيطرة المنطق والعقل والأحداث التاريخية على العاطفة والوجدان وغنائية الأسلوب فهم من كتاب اليسار من أمثال سامي ميخائيل وشمعون بلاص وإيلي عمير وفي الشعر العبري الذي يكتبه الشعراء د. ليليان دبي- جوري وأميرة هيس ويعره بن دافيد والشعراء: التوأمان هرتزل وبلغور حكاك اللذين ترأسا بالتوالي وإلى اليوم رابطة الكتاب العبريين في إسرائيل، وروني سوميك وشلومو شيبيرا، وغيرهم.

ولدت الشاعرة ليليان في بغداد لعائلة دبي البغدادية المعروفة وكان والدها من أطباء بغداد المعروفين في الأربعينات من القرن الماضي. وبعد هجرتها (١٩٥١) وهي في التاسعة من العمر، درست الأديبين العبري والعربي ونشرت عدة كتب ومقالات باللغة العبرية عن الشعر العبري الحديث، وحاضرت عنه في جامعات أوروبية وإسرائيلية مختلفة، ثم تفرغت لدراسة الأدب العربي الذي كتبه أدباء من يهود العراق وخاصة أدب القصاص يعقوب بلبول الذي حرر "مجلة غرفة تجارة بغداد"، خلفا لأستاذ الشاعر مير بصري، وأدب الكاتب الراحل سمير نقاش. وقد أهدت ديوانها الجديد "على الأنهار وعلى البحار"، إلى أنهار طفولتها: "على أنهار طفولتي، ذكرى لبابل". ويضم هذا الديوان قصائد حنين إلى طفولتها وإلى أنهار العراق حين كانت قريبة من الله، ثم تتحدث عن صباها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط والملح يغطي شفتيها

بتساؤلات حائرة بعد أن فقدت براءة الطفولة وسذاجتها، ثم تروي مشاعرها في مرحلة كهولتها وخوفها من الهرم والموت وهي ممزقة بين حنينها إلى العراق وحياتها في إسرائيل. وقد استطاعت الشاعرة كبح جماح الخيال والتدفق العاطفي الذي يميز شعر الحنين عامة بثقافتها العلمانية الحديثة. تقول الشاعرة عن هذه القصائد:

أقلب أوراق مجلدات حياتي

من رفّ إلى رفّ

لأنسّق نفسي

لأللملم أجزائي

فعما قليل، سيضمني الغد

إلى كنوزه!

وحينها إلى العراق منصب على أنهارها، إلى دجلة والفرات الساحرين، إلى سذاجة الطفولة وإلى الشعور الدافق ببراءة الطفولة و شوقها لتجلي الله وحنانه، ولكنها عندما تخوض مياه البحر على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تتأمل الرمال متفحصّة إياها، فإنها تعود خالية الوفاض:

(١)

وُلدتُ في وادي الرافدين

وقطفتُ في بساتينه

نرجسا وياسمينا

والآن أمام البحر

يكسو الملح شفتي اليابستين

أطأ الرمال بقدمي الحافيتين

أشق الأمواج بجرأة

فعن شمالي ويميني

ضفاف تلك الأنهار

التي ترافقني دائما

بمياها العذبة الفرات.

(٢)

أساق على أجنحة حوريات لا حصر لها

وقامتي تبدو كقمامة فزم خرافي

وشوشات تتهامس حولي

أسمعها، كغابات نخيل لا نهاية لها
تناطح السحاب أعاليها
وقاعا دجلة والفرات
يمتدان إلى ما وراء الأفق البعيد.
استطيع السير دون أن أبدي حراكا
وبدون حركة أستطيع التحرك
وحتى في مكان وقوفي، أقطع كل مسافة
وأبلغ نهاية السيل وقمم الأشجار
فقد غرست في المكان، في جميع الأزمان
كأني في حلم
أقطع المسافات والأزمان
دون أن أتحرك من المكان
ويمكنني أن أمدّ إلى الله يدي
لأحسّ بيده تأخذ بيدي
أكلمه بدون كلمات، حديثا طويلا، طويلا
أتجه بوجهي إلى الفرات القريب
وأتضحك معه وأنطلق راقصة، قافزة

على قدمي وعلى قدميه، واستلقي

على الأرض، أتحمس

نداوتها وبرودتها

وبنظرة مرحة أتطلع إلى خنفساء

وألوي رأسي إلى السماء

وأقوم بدون عناء

لأرقى الدرجات

وارقص باتجاه مائدة فطور الوالدين

وبابتسامة يسألون عن زهرة في الحديقة

لكنهم لا يرون تيارا من الزهور يسبح ورائي

وكعادتي جلست وحيدة،

أذوب حيناً للعودة إلى الحديقة!

لكي ألهو وأبلغ أقصاها،

والى اليوم لا أدري أين حدود

البداية والنهاية، وهل كانت أبدا هناك!

لعل الحديقة كلها سحر خلب

وحوض الياسمين والبرجس

زورق يسري بين هنا والآن يقين
إلى المجهول من الخيال!
اختفت الخنفساء
ويدي التي تدعم خدي
ما تزال دافئة من لمسة يد جبارة.

(٣)

تجلّي

عندما مددتُ يدي - لمن؟
ظننت آنذاك إلى الله!
أخذوني للنزهة في بساتين
في ضفاف نهر تتلوى .
أمسكُ بيدي جيدا
كي لا تفلتُ .
سباق الطفلة المرح

كي لا تسحرها المياه (مياه الموت؟)
أو مياه ما قبل الكينونة.

(٤)

ختام الرواية (ابيلوح)

بلاد الرافدين

كلها حنين إلى ألحاني الصامته

آذانها غربال

من أذان المؤذنين

مناظرها بظلمة الحجاب

سكانها يترنحون بزخارفها

يتمنون رفس الشعوب

غير أن سبلنا افتقرت

كما تفارق الروح الجسد

لمواصلة المسيرة.

(٥)

مدينة الفصام

أورشليم تمزق نفسي بفصام
أتنزه في شوارعها كأنها ملكي
ولكن مناظرها غريبة.
أهوى ارتداء ثياب
من فراء الثلج
متدثرة بألوان
تلمع في الصخور
في خبايا الشجر
هل هي الفؤاد؟ هل هي العقل؟
تخزن الأفكار؟ أم الرحمة؟

(٦)

أحب أورشليم،

غريبة والله!

وهل علي أن أهواها؟!

ولعلي اهرب!

فأصل جذوري هو وادي الرافدين

فمناظرها كانت قبل كينونتها

وبها أصبحت أورشليم

لؤلؤة مكنونة في أصدافها

وصخرة بداية الخلق.

تشرق بي وتغرب

في لحمي وشمها

مثل ورم خبيث - سليم

تلوي كياني

ولا أدرك صورتي.

ترجمها عن العبرية: شموئيل (سامي) موريه

مقالات ..

عن المذكرات

وكاتبها

شموئيل موريه .. شجون وأحلام وآمال عراقية نقية طيبة

سعد سامي نادر

الحوار المتمدن-العدد: ٣٣٢٣ - ٢٠١١ / ٤ / ١

كعراقي، وكواحد ممن ترك وطنه مرغماً وعلى مضض. متعة، ان تعيد قراءة "يهود العراق - ذكريات وشجون" للبروفيسور شموييل "سامي" مورية، ستشذك زفرة ومرارة كلمات بسيطة نابغة من قلب ووجدان ونقاء مواطن عراقي يفيض حب ووطنية صادقة يغلفها حنينٌ للوطن بلا حدود. ستجبرك لوعات شجونه على المضي معه عبر طريق أحزان وآلام روح سُبيت وأجبرت يوماً على ترك وطنها الأم مثلنا، على مضض. لوعتك وقرفك كقارئ ومهجر عراقي، أنك تعرف أدق تفاصيل أحداثها حد صغائر خلفيات وخفايا دسائس مؤامراتها. وتعلم أيضاً بأوليات ونهايات عذابات فواجعها الأليمة.

قلت انها متعة..! لا شك، ان لطعم مرارة الحزن والأسى والألم، متعة ومذاق إنساني عراقي متفرد. قدرٌ أحمق خصهم الرب وحدهم فيه .. فطعم مرارة الظلم وقسوة الألم ولوعة ساعات التهجير القاتلة ولحظات وداع الأهل ودموع الأحبة، ألم مازوخي له طعم ولدّة، هي ذاتها من تزيد إصرارك على المضي في تكملة مشارك مع ألم ولوعات سرد ذكريات وشجون سامي والسير معها لآخر مطاف جلد الذات بسياط أحداثها الأليمة الدامية. غير إن حلاوة ذكريات صباه المشوقة، تريحك حين تسرح بك مع "لشغات" لغتها الشعبية-اليهودية المحكية - الضاحكة حد القهقهة ورققة العين..

أما أحاديث لوعة الوداع والألم، فتصور وقائع وأحداث ليست بعيدة عنك كعراقي، فقد مَسَّت لسعات وجور قسوتها وأثر الكثير من فزع عنفها وهول ترويعها على صلب وتفرعات حياتك وعلاقاتك الحميمة كعراقي مُحب موشوم أصلاً بالمحبة والطيبة والود حد السداجة، يضاف إننا كمتقفين، نعي بؤس ما جرى لطليعة يهود العراق النجباء اللذين ناضلوا من اجل رفعة الوطن لكن! عته ساستنا، فَرَط بهم وبدورهم التاريخي في تأسيسهم أفضل طبقة متوسطة مهنية ومعلمة وأكاديمية في بلدنا* ١ وربما في وطننا العربي.

حلاوة ذكريات موريه، بحثه المتواصل الملتاع عن مهد صباه، في ذاكرة عراقية مفرداتها الشعبية لوحدها، تكفي منحه "هوية" شرف وطنية بامتياز، وتركية انتماء كعراقي أصيل* ٢. هوية وطن كان سعيداً وآمناً ومتحضراً بهم وبألفتهم المسالمة معنا. بذاكرة ثاقبة راح حب "موريه" يللمم أحزان أهليه، تعينه عين صبا غارت شوقاً بوجوه اقاربه وأصدقاءه واحبته المسلمين واليهود اللذين تركهم مكرها.

بلغة مؤنسة سهلة يُملئها حنينه المتواصل لبيت صباه في البتاوين، راح يصف لنا أجواء مكان اللعب على دكة باب ذاك البيت، وعن دغدغات عشق طفولته الاولى في ختلات سطحه، حيث بدايات شبق صباه، وحب المنحوت في خلد طفولته السعيدة في أيام الخير. يصف لنا سامي يامعان، فناء وصغائر منمنمات دار طفولته كفتوغراف حفظه في خاطره وشجونه لهذه الساعة.

مازوخية ألمي تملي عليّ إعادة شريط "الشجون والذكريات" مرات ومرات. فرغم كونه ألما مبرحا للقلب والنفس والوجدان، غير اني أتجاوز به فكرة "جلد ذاتي". فحين يلح عراقيّ مثلي، ويطمع لمعرفة المزيد عن نهايات عذابات وخوف وترويع

مشترك مسَّ حواشي القلب والوجدان وهُدَّ كيان الوطن بالكامل، فإنه يرجع لذاكرتي ما يترائي لي في آن واحد، آلاف مشاهد القبح والخوف، وآلاف وجوه أحببنا من العراقيين الذين عانوا من لوعة سبهم وتهجيرهم عبر عهر سياسة القمع والترويع والتهجير الطائفي، بقيادة زناة تاريخنا الوطني!! الديمقراطي الجديد...!!

يجبرك موربه على مواصلة قراءة اسطرَّ شجونه المتبلة بمحكياته العراقية العذبة، والإيغال في تذكر تساؤلات تلك الوجوه التي عاشت معك وشاركتك فركك وقلقك وخوفك وبأسك. وهل تُنسى استفهامات عيون أهلنا واصدقائنا الذين شُردوا. عيون جفَّلها الهلع وجفف الفزع والكآبة مآقيها، واخرس اصواتهم هول مشاهد زريف دم متواصل بدأ حديثاً مع جريمة الفرهود الأولى التي صنعها عملاء النازية عام ١٩٤١ . وما نحن بعد أكثر من سبع عقود من وجع وقهر وطني متواصل، نرى ما يشابهها الآن من أفعال دنيئة فاشية تمارس علينا بهويات وأجندة سافلة لا تحصى.

عودنا التاريخ إعادة مآسيه وقسوته بسخرية سوداء اشد إبلاماً. مرارة المسخرة، ان زناة تاريخنا ما زالوا يلصقون عهر أفعالهم بقدرنا المكتوب في سفر بدء الخليقة وفجر السلالات.. وكأن الرب بجبروته وتكبره وعدالته، عاد لينتقم من العراقيين الطيبين البائسين باسم (قسمتهم السوداء). وكأنه يخاف جبابرة الدنيا وطغاتها.. أليس غريبا ان الرب يخطئ في العناوين مرة ثانية وثالثة بل مرات ومرات...؟. لقد أنزل جل غضبه وعقاب جبروته في كل مرة، على ذات المظلومين والمحرومين الفقراء والثقاة الشرفاء المكاريد. ان الله كثير الغفران عن قساة وزناة الدنيا ومتكبري العصر، مزوري التاريخ. لا شك في نقاء الله من آثام عهدهم. ولا شك في عنايته الإلهية.. لكنه يمهل بلا حدود. ربما التفت أخيراً إلينا. لعله يذكرنا الآن بقوة بأسنا. أخيراً آزرنا وعرفنا

على قدرة بأسنا وصبرنا في التغيير، وصور لنا سرّ وجبروت عدم خنوعنا لوهم وأساطير
أولي الأمر منّا والولي الفقيه.!! فما يجري من تساقط طغاة وملوك الجمهوريات
في أتون لحظات صحوتنا العربية التاريخية، هو ربيع حرّيتنا وقدرنا الحقيقي المشترك.
هل نقل وداعاً لخرافة ميتافيزيقيا الوهم وصناعة الجوع والجهل والمرض واليأس؟؟
موقف "موريه" من ميتافيزيقيا اللعنة:

سابقاً، عندما سقطت الملكية وأتى تغيير عام ١٩٥٨، قالوا انها لعنة يهود العراق.
وانتقاماً لكل ما جرى بحق بناة الوطن الأوائل. وفي نكبة ١٩٦٣، رموها على لعنة
ما جرى للعائلة المالكة. بهذا، برّثوا العائلة من ذنب تهجير اليهود، وشناعة عهرهم
ذاك. واستمرت اللعنات مع مسلسل التهجير ونزيف الدم ومع استمرار رب الساسة
بميتافيزيقيات لعناته. انتقم من كل العراقيين دون استثناء: يهود وأكراد وعرب وفيليون
وتركمان وصابئة ومسيحيون وكل من ناضل بشرف من اجل عراق مواطنة حر مزدهر
سعيد.

خلافاً لكوميديا ومسخرة "رب الساسة" الغارقة بالدم والألم والآثام، وخلافاً
لميتافيزيقيا لعناته الانتقامية، يسحبك سامي موريه مع لغته المشبعة بروح محبة وطيبة
متسامحة يغذيها نُبْل إله متوازن بلا لعنات ودون وعيد وضغائن. إله يكمن في عراقية
وروح موريه الوطنية والانسانية. روح نبيل متسامح طيب يتسلل الى وجداننا، يثير
بأسى وأسف ومرارة تساؤلنا المشترك: يا إلهي، ماذا فعلنا لتتحمل كل تلك القسوة
وهذا الظلم؟ وأي قدر إلهي يحمل كل هذا الكم الهائل من الإثم والكرهية وسيول
الدم. وكل هذا الذنب؟؟.

شجون "سامي موريه". عواطف مثقف، جاشت روحه الإنسانية نبلاً ورفعة، متجاوزاً روح الانتقام والتشفي بنا. بل على العكس، ظلّ وفيّاً نظيفاً يسرد مواويل قهره ووجعه وحبّه وحنينه دون توقف وبلا شماتة منتقم حقود. سُمّو "سامي موريه"، أنه في الثمانين ظل مثقفاً لبرالياً نبيلاً يرفع يديه دوماً بالدعاء، لسلام وأمن وحرية معشوقة، كان قد ربط معها في ساعة وجد صوفي، طرف حبله السري الآخر الموجل في عمق روحها وقدم تاريخها.

لكن المؤسف إن أسوأ ما في معشوقة كهذه، انها عاهرة دون إرادة. ناكرة جميل سافرة جاحدة مفضوحة بامتياز. الغريب ان نُبل حب العاشق موريه يتجلى بأسئلة عتاب وغزل ودعاء متواصل لها بالتوبة والأمان ولا سواه. عتاب قديس لراهبة حبه الاول. عتاب من قلب ابيض راح يلهب روحنا بسياط كلماته المتبّلة ببهار بغدادي يثير الضحك حد البكاء. ينقلك فيه بشغف لتحصل على ومضات مضيئة صادحة بالنكت ولحظات رطبة ندية تسليك وتنسيك وتريحك، ثم ما تلبث ان تلهب ذاكرتك وتوخز ضميرك بلسعات سيات ومسامير تساؤلات مضيئة تفتت القلب. شدة إيلاهما، أن لديك كل أجوبتها الفاضحة لذاك العهر المثير للتقيؤ. أجوبة تنهمر من وجدانك نشيجاً ودموعاً طاهرة لا تتوقف رغم نكات ترطيب الخواطر البغدادية الخانقة التي تجعلك هي الاخرى، تنتحب أكثر وأكثر وعلى ضياع وفقدان اعز الجيران والأصدقاء، الموجلين معنا في عمق تاريخ بدأ الخليقة.

ايها العزيز سامي موريه، وطنك الآن بعيد جدا عن وطن أيام الخير. وطن خيال صباح وروحك الطيبة الحاملة به، والآملة له وللجميع بغد حر ديمقراطي أفضل.. قآمالك وأمانيك الطيبة: عشقٌ ساميٌ مترفعٌ يقدم لنا حُباً عُذرياً وعتابٌ حبيب لمعشوقة زنت ذات مرة في غفلة من تاريخنا المجيد المشترك. لكني حينما اقلب صفحات ماضينا

القريب كي أتحدث بحيادية عن ذات المعشوقة، وطن مآسينا المشتركة. وطن صبا "سامي موريه". تنازعي بأسي، زحمة ضياع فرص حريتنا وانعتاقنا وفسحات الأمل المهدورة.

ليس زنا ان نعري عشيقتنا المدماة امامنا الآن، من رمزياتها. حقيقة الامر انها رمزياتنا الوطنية الساذجة. أوثان ورموز خلدت خطأً في تاريخنا وذاكرة طفولتنا وصبانا السعيدة. المؤسف أنها الآن تسرف في ضياع الفرص وتفطر بفرصتها التاريخية الأخيرة. لا بل طاب لها الرجوع ١٤٠٠ عام الى الوراء، كي تمارس مع سبق الاصرار، عهرها الفاضح بتلذذ ومكابرة، هناك في شعاب مكة، حيث توقف تاريخنا وزمننا الحاضر..! ماذا نأمل من زانية لم تتعلم عبر أقدم تاريخ للبشرية في الكون، غير النهب والسلب وصناعة الموت والخوف والكذب وتصر على مخالفة كل وصايا واخلاق السماء؟ عار معشوقتنا، انها عنودة مكابرة..! طاب لها ان تذبح روح الله، الانسان وهي تبسمل باسم الرب. ألسنا نتكلم عن وطن الاسلام السياسي وأفعاله؟؟ أفعال أَرَحَّتْها حروف "عربية" مضيئة، وضعت لنا فوق كل منها، نقاط دم أهليك، ورسمت لنا فيها علامات استفهام مضية حتى ترجيك كان سيائماً من نشيجك الساحر لـ"جلد الذات": "كفكأك ضياعاً يا عراق".

لتوضيح المقاصد، وكى أطيّب خاطر ك يا عزيزي. فعاهرة الجسد لا تؤذي إلا حالها. لكن! هل يتغير من يكرر ممارسة عهره السياسي في العلن وفي عصرنا الحر الساحر هذا..؟ إنه الحضيض على ما أظن، فلا أمل يرجى للخلاص دون تغيير.!! دعنا نحلم سويةً بمعشوقة جميلة تلم شملنا، تقرب كل الاديان والطوائف والقوميات .. دعنا نحلم بوطن، "أم" فاضلة طاهرة حنونة ذكية يعشقها، يعيش من خيرها الجميع. وكى لا يبقى الوطن رمزا وثنيا لعبادة قادة فاسدين وطغاة قتلة.

ربما ثورة شباب الحرية الصادحة المبشرة بغدٍ حرٍ أفضل، تعيد لنا أحلامنا وآمالنا المشتركة من جديد. إنها رياح التغيير الديمقراطي...! حلم قديم بزغ نوره من تمنى نبيل لـ "رؤيا مباركة"^٣ للحبيب سامي موريه. يا لفداحة خسائر ما ضاع...!!!

١- احصائيات المؤرخ حنا بطاطو. وكذلك احصائيات وردت في كتاب فاضل البراك "المدارس اليهودية والایرانية في العراق". الذي سحب من الاسواق بعد توزيعه بحجة وجود إحصائيات اعتبرها النظام مديحا يمجّد تأريخ يهود العراق...!. أعدم "البراك" بتهمة العمالة.

٢- رفض الدكتور سامي موريه منحه الجنسية العراقية عن طريق كردستان لأنها لم تشمل كل يهود العراق. (نقلا عن مقابلة معه بثها تلفزيون روسيا اليوم).

٣- يقول موريه في "الرؤيا المباركة" من ذكريات وشجون: ما أحوج العالم اليوم الى السلام بين الدول والشعوب لخير الانسانية ومستقبل الأجيال القادمة ورفاهيتها عن طريق التعاون في ميادين العلم والتكنولوجيا الحديثة للقضاء على الفقر والجهل والمرض والتعصب الديني والتصحّر وتلوّث البيئة.

ذكريات شموئيل سامي موريه

عن حبيبته بغداد وأهل العراق

زهير كاظم عبود

بدأ يكتب نفاثات من روحه التي تعج بذكريات واحداث كان قد خزنها في عقله الصغير منذ الصغر ، ونمت معه كابدت وكافحت وتحملت الصعاب والحزن والاغتراب والمسرات.

غير انها كانت تغمر روحه التي حاولت السياسة أن تقلعها من جذورها ، وتعاونت معاول الحكام على قلعها ، وحين طفحت روح هذا العراقي اليهودي الاصيل ، تحدث عنها بلغة لا يفهمها سوى اهل العراق ، وبلكنة يهودية لم تزل محببة لدى اهل العراق ، رغم كل هذا الفراق الطويل ، تحدث عن شجونها وظلم اهله ، وتحدث عن الانكسارات التي توجهها عشقه لتراب العراق ، فقد بقي بؤبؤ العين يرسم وجوه اهله في العراق ويخزنها ، وامتلاً بياض العين بصور محلاتهم وبغدادهم واحلامهم ودجلتهم وفراتهم .

تحدث بجرأة العراقي ، وزين تلك الذكريات بالألفاظ الشعبية التي لا يمكن ان يكون لها بديل ، وابعاح لنفسه ان يتحدث بتلك الثقة والصراحة عن نفسه وعن الذين شملتهم تلك الذكريات ، وهو ينتقل ما بين شواطئ دجلة الرملية مروراً بمدرسة ثانوية شماش ومحلة حنون صغير وكنيس مثير طويق الخاص باليهود العراقيين ، وتعدي الاغبياء من المسلمين الذين لا يعرفون معاني الدين ، وثقافة الخوف والانعزال ومحلة البتاويين وبستان مامو ، وابو علوان باع الحليب والست راشيل وساحة مناحيم

دانيال في البتاويين ، ووزير المالية ساسون حسقييل ، واولاد رشيد عالي الكيلاني والفهود والهجرة القسرية الى اسرائيل .

قيل لا يؤلم الجرح الا من به الالم ، ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصباة الا من يعانها ، لم يدفن سامي موريه اسرار عمره داخل اروقة الصمت والنسيان ، ولم يتمكن من تزويقها وتلوينها بما يتناسب مع الزمان والمكان ، ولم يتمكن ان يصوغها على شكل مذكرات شخصية تقليدية ، انما جاءت على عفويتها وسجيتها كذكريات تمكنت ذاكرته الثاقبة من ان تلتقطها من بين كم كبير من الذكريات التي لا يمكن لها الا ان تظهر فوق سطح ذاكرته فيكملها يوما ، فلم تنتهي تلك الحوادث بعد اقلاع طائرته التي صعد اليها مرغما لا يملك سوى روحه وصندوق من التنك يضم بقايا ملابسه التي يستعين بها على مجهوله القادم .

ومن حياة ترف وغنج الى حياة تحت الخيام ورهبة المجهول القادم ، ومن بيوت آمنة وعيش رغيد الى اعمال الطين والبناء وحمل الاحجار ، ومن المدارس التي تمنح الشهادات والعلم الرفيع ، الى التيه والسباق و كسب لقمة العيش ، ليس هو القدر مطلقا ، انما كتب عليه ان يمشي تلك الخطى ، ومن كتبت عليه تلك الخطى ان يمشيها مرغما ، الا انه بقيت عينه على العراق .

كنت قد زرت الراحل الكبير مير بصري تغمده الله برحمته الواسعة في داره بلندن قبل رحيله ، اتذاكر معه حول ذكرياته عن المرحوم سعيد قزاز ، وكان يحدثني باسى بالغ واحترام شديد يكنه للرجل ، فطلبت منه ان يكتب لي موثقا شهادته حتى تكون سندا لي في المستقبل ، وكان يعلق لوحة تصور جسرا من جسور بغداد ، فلما انتهى من الكتابة وسلمني اياها ، اشرت له الى الصورة ، فنظر في وجهي مليا وقال انها بغداد هي وكل المدن وانتم في القلب والضمير ، مير بصري الذي بقي العراق واهله

غافين في روحه وفي ضميره لم يلق ذلك الاحتفاء الذي يليق بمكانته وما قدم
لثقافة والتاريخ العراقي الحديث ، ورحل عنا وعينه على العراق .

سامي موريه عيونه كلها على العراق ، وهو يمثل نموذجا من نماذج الاصاله والعشق
الوطني ، ويمثل ايضا دليلا من الادلة التي نتباهى بها في عمق الروح الوطنية ، وشكل
من اشكال التآخي والتسامح والانسجام الانساني ، ومن يقرأ ذكريات سامي موريه
ويدقق بين حروفها ويلمس تلك الآهات والشجن الجنوبي الطاحن الذي يغلفها ،
ومن يقرأ تلك العفوية في سرده الصادق والجميل ، يدرك ان هذا الرجل لم تستطع
لا الجغرافية ولا السياسة ولا الدين ولا حتى الزمن ان يأخذ منه تلك الخصال الذي
ميزت اهل العراق في امتدادات غربتهم ، وفي نزوحهم وهروبهم من سلطات الجور
والظلم والدكتاتوريات التي تعاقبت ، رغم تبعثرهم في مجاهل الارض ، وبؤسهم
وحزنهم وقنوطهم ، وفرحهم ونجاحاتهم وفوزهم ، الا ان العراق كان يلبس ارواحهم
، غناؤهم للعراق ودموعهم للعراق وفرحهم للعراق ولظمهم وحزنهم على العراق ،
فكان قاسمهم المشترك محبتهم للعراق ولهجاتهم البغدادية والمصلاوية والجنوبية
واليهودية كلها للعراق ، لها رنين اسم العراق وشكل العراق .

ولذا تأتي احلام سامي موريه منعشة للقلب ، ينادي طائر الشوق ان ياخذه الى بغداد
، حبيته الابدية ، والتي ما بدلها بأجمل بلدان الله ، مهد صباه واحلامه ومراهقته ،
نخيل العراق الذي لم يجده في كل الدنيا ، وكيف سيعود ومع من؟؟ . والى اين ان
بقيت لهم ديار ؟ لكنه يبحث عن تلك الشعرات التي لصقت بطين العراق الحري ،
وعامت فوق شواطئ الفرات ودجلة ، واكتشف ان جنسيته ليست تلك الوثيقة الورقية
التي تمنحها الحكومات الزائلة ، انما هي تلك الأواصر الروحية التي لا يتخلص منها
الأنسان بسهولة .

سيعود يوما للعراق وتستقبله كل الصدور التي كانت تحلم مثله بعراق لا يضع خطوطا حمراء على الأديان والقوميات والمذاهب، سيعود للعراق ليجد ان الناس معجونين بطين الفرات ودجلة ، لم تزل تلك السحنات السومرية والأكدية والآشورية والبابلية في وجوههم ، وان الناس متساوين في الحقوق والواجبات ، وان ما قاله الأمام علي بن ابي طالب (ع) من أن الناس صنفان اما اخا لك في الدين او نظير لك في الخلق مبدأ يتمسك به الجميع وتتخذة الدولة في الزمن الديمقراطي عنوانا لمواطنيها.

سيعود الى عراقه ضاجا بالضحك ومنشراحا ليس لأن حقوقهم اعيدت اليهم، بل لأن ذكرياته التي جاشت وطفحت على العراق ولم يتحمل تكدها فوق صدره ، وجدت لها اساسا لتستقر عليه ، يطير مثل حمامم الأضرحة وينتقل خفيفا فوق المنارات ، ويحط فوق جزرات الرمل وسط دجلة ، وهو يشاهد السمك يلبط قريبا منه ، وشوايات ((المسكوف)) تعبر ابي نؤاس لتحط في كل شوارع العاصمة ، يعدو بين ازقة الكراةة والبتاويين ودموعه تنهمر دون ان يدري انها دموع العودة .

رحلة سامي موريه ليست رحلة للسندباد ولارحلة للاستكشاف العلمي ، انما هي اغتراب دون سلاح ، تمكن سامي ان يصنع له سلاحه ، وتمكن بالمحبة والصبر والتمسك بالسلام ، والاصرار على التعليم ، ان يكبر وتكبر معه احلامه ، وما بين الدعبل والطيارات الورقية ومزارات الاولياء والانبياء والتفسير وتسقيط الجنسية واكمال الدراسة ، ذكريات وشجون يهودي عراقي تبرعم كما ورق الورد الجهنمي تكبر، فتصير شجوننا لعراقيين يضعون اياديهم على صدور الوطن معه ، يتشاركون المحنة فيغادرون واسم العراق منقوش بوشم اعرابي شذري كقباب الأولياء فوق ضمائرهم ، ينتقلون الى اقاصي الأرض فينامون فوق حروفه الأربعة ويتدثرون بحرارة

اسمه ورسومه ، وما بين اللهجة البغدادية واللهجة اليهودية ينتقي سامي موريه عبارات والفاظ لا يتذكرها الا جيل عاش المحنة والحزن والفقر والموت الرخيص والتجنيد الإجباري ، عبارات يتداولها بسطاء الناس والطيبين منهم ، لغة الشارع والسوق وبيوت الحارات الشعبية ، وبالرغم من الموت المتلاحق الذي لحق بعائلة سامي في غربتهم واراضهم التي اجبروا على ان تكون ميعادهم ، بقي حنينه يطغى على احلامه ، فبات ولهانا بارض يقال لها العراق .

ليس فقط مير بصري وسامي موريه وسمير نقاش وابراهيم خياط وأنور شأوول ونعيم جلعادي وغيرهم الكثير ممن شملهم السبي الاخير ، فقد انتزعت قلوبهم من اجسادها وتم ترحيلهم دون قلوب ، تحجرت مآقي العيون ، كانوا ينظرون لصفحة الماء فوق جسر الشهداء وهم منكسرين ، يتحسرون على ايام مضت وقد لا تعود او لن تعود مطلقا ، ورائحة تراب الدرايين والمحلات العتيقة الذي يملأ انوفهم وصدورهم ، وعكد اليهود ومحلاتهم ، وبما عرفوا عنه من صدق ونبيل ورجاحة عقل وتسامح وقدرة على التسامي فوق الجراح ، ليس فقط تلك الطاقات والمواهب والقدرات والكفاءات ، بل شمل قسرا كل تلك العوائل التي امتزجت في تراب العراق وانغرسوا في قلوب العراقيين .

يقول سامي موريه ان العراق ظل يلاحقه في كل مكان يحل به ، دون ان يدري انه يحمل العراق في تلافيف القلب ، فيكون معه اينما يحل ، وليس فقط حبة بغداد التي نقشت دمعها على خده ، انما حل معه حتى في عمله كرئيس لرابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، وحمل كل يهود العراق عراقهم معهم ، ليكون مقهاهم وناديتهم ومطاعمهم ومحلاتهم والعبابهم واغانيتهم وحفلاتهم ونجواهم واستذكارهم وتجمعاتهم ، وحسبهم ان كل هذا الزمن المرير لم ينسهم منه شيء فيتابعون صلواته

ومحنته وانقلاباته وزعاماته التي يفرضها عليه الزمن ، ويتمنون ان يتحدثوا مع اخوتهم بلهجة اهل العراق لتهدأ حرقة قلوبهم ، لم يلاحقهم العراق كما قال سامي لأنه كان في ضمائرهم قبل الولادة وبعدها ، وبقيت هذه المحنة تلاحق حتى من لم يشاهد اصلا العراق منهم ، فكيف تصير العلاقة بين الفاتن والمفتون وبين الوطن والمواطن ؟؟

حينما ترجل سامي موريه ليكتب ذكرياته الشخصية تلقى عطور الورود التي ارسلها اخوته العراقيين الذين تسلحوا بالمحبة وحقوق الانسان يبحثون عنهم خارج اسوار الوطن الذي حرموا علينا اسمه ، ثم حرموا علينا مصافحة اخوتنا ، ثم حرموا علينا اللقاء بهم ، وحرموا علينا محبتهم ، وحرموا علينا اعادة حقوقهم المسلوبة ، غير انهم مدوا ايديهم من تحت الستائر الى حكوماتهم ، وبقينا نحن نبحث عنهم ، كان سامي موريه من قلائد العراق وحبات الرازي التي تشم عطرها عن بعد ، لقيت كلماته ليس فقط الأعجاب والاستحسان ، انما جعلت كل منا يستعيد تلك الأيام معهم ، ربما تناسيناها ، وربما خشينا السلطات الكاذبة ، وربما صدقنا انهم انسلخوا عن العراق ، غير ان الدم لا يصير ماء ، والأخوة ترتبط بالنخوة والشهامة والمحبة والسلام وحق الآخر في الحياة ، الأخوة المشاعر المتبادلة ، والأحلام المشتركة ، والجيران الأهل ، والزمن المشترك ، الأخوة التي افتقدناها لزمنا طويل فابقظ سامي جمراتها من تحت الرماد .

ولعل اعتراف الكاتب سامي موريه بان ذكرياته هذه كتبت بصورة عفوية اثارها الكاتب والشاعر عبد القادر الجنابي ، فنشرها عبر صفحات ايلاف الالكترونية ، كان صادقا مع نفسه صريحا مع ذاته ، عبر بحيادية مخلصه ، وبعبارات جميلة تمكن من ان يستلها من قواميس اللهجة الشعبية ، يعكس لنا صورة دقيقة وصادقة عن العلاقات

الاجتماعية و حياة الناس في تلك الفترة الجميلة من عمر العراق ، ولنتذكر بان سامي موريه غادر العراق قسرا عام ١٩٥١ بعد ان انهى دراسته الثانوية في مدرسة شماش وقبلها المتوسطة في مدرسة فرنك عيني والابتدائية في مدرسة السعدون النموذجية المختلطة وجميعها في بغداد ، ليلتحق بالجامعة العبرية ليدرس الادب العربي وعلوم الشرق الاوسط ، وحصل على شهادة الماجستير منها عام ١٩٦١ ، ونال الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٦٥ ، بقي وفيا للعراق ، حالما مثل كل العراقيين الذين شردتهم حكوماتهم بان يروا العراق معافى يفتح صدره لأولاده وأولادهم ، ويعيد لهم حقوقهم المعنوية قبل المادية ، وان يروا الأنسان فيه اغلى من النفط ومن كل الأشياء .

علينا ان نتذكر الدور المهم والكبير الذي تؤديه الرابطة (رابطة اليهود الجامعيين النازحين من العراق في اسرائيل) حيث اصدرت ٣٤ كتابا باللغة العربية توزعت بين المذكرات الشخصية والذكريات التي اضافت للتاريخ العراقي الحديث اضافات مهمة ، وبين القصص والروايات وقصائد الشعر والدراسات السياسية والموسيقية ، ولم يغب عن بال المؤلف ان يهدي ذكرياته العبقرة الى اخوته واخوانه العراقيين في كل مكان ، كان سامي موريه كبيرا مثلما هو كبير ، منسجما مع ذاته ، وفيا لحبيته بغداد.

علاقة الكرد الفيليين بفرهود اليهود

عصام اكرم الفيلي

السبت ٢٠١٢/١٠/٢٠

مقدمة

في الحلقة السادسة من سلسلة مذكراته (ذكريات وشجون) ، وفي حادثة تعود الى اليوم الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، ذكر البروفيسور العراقي الاصل الاستاذ (شموئيل موريه) او (سامي ابراهيم معلم) كما هو اسمه العراقي ، ذكر ان (الكرد الفيليين هم اول من بدأ فرهود اليهود) ، ولأن البروفيسور موريه ليس شخصاً عادياً فلا يمكن والحال هذه المرور على كلامه مر الكرام ، ولا بد من وقفة ومراجعة للتاريخ ، ولا بد من الاستشهاد بشخوص من ذلك الزمن او من زمن قريب عليه ، لا لدحض القول باعتباري كردياً فيلياً ولكن للوصول الى شهادة للتاريخ بحق اهلي الفيليين الذين هم قوم تمتد جذورهم في عمق التاريخ نفسه .

التعرف الى البروفيسور شموئيل موريه

منذ نشر الحلقة المذكورة قبل عدة سنوات وانا لا أألو جهداً الا وبحثت عن اصل هذا الرأي الذي ذكره بروفيسور موريه ، ومن الطبيعي ان تكون اولى الخطوات هي التعرف الى البروفيسور شموئيل موريه ، ولأن الموضوع يستحق التعب فقد قررت اللوج الى هذه المتاهة علي اصل في نهاية المطاف الى الحقيقة ايأ كانت ، ان كانت تجعل من اجدادي مجرمين او كانت ستبرؤهم من هذه التهمة الشنيعة ، ورغم اني التقيت خلال ثلاث سنوات بالكثير من كبار السن والعديد ممن كان لهم دور مشهود في تلك الحقبة من تاريخ العراق ، ولكن للأسف جميعهم طلبوا عدم الاشارة الى اسمائهم لأنهم اناس بسطاء يخشون من اي شيء اسمه يهودي في واقع العراق الحالي الذي لا يتوانى البعض فيه ان يقتلوا اخوتهم على لا شيء ، ولكنهم اجمعوا على براءة الكرد الفيليين من هذه التهمة وكذلك اشاروا الى ان العديد من المحاور هي التي ادت الى ما بات يعرف بـ (فرهود اليهود) ، منها ما هو داخلي كالتنظيمات القومية العربية ومجاميع العروبيين المسلحة ، ومنها الخارجي المتمثل بقيام الاسرائيليين (غير العراقيين) انفسهم بعدد من التفجيرات في دور العبادة اليهودية والاماكن التي لها مساس مباشر بالحياة اليومية ليهود العراق لأجبارهم على المغادرة نحو اسرائيل .

اول الطريق كان الدكتور مردخاي كيدار (استاذ الادب العربي في جامعة بار ايلان) الذي تعرفت اليه قبل عدة سنوات بسبب مقال كتبه في حينه ، ومنه عرفت ان بروفيسور موريه هو من اساتذة الدكتور كيدار ، وهكذا تعرفت قبل حوالي سنة من الان الى ابن بغداد البار البروفيسور شموئيل موريه .

مجموعة مراسلات

كتبت لبروف موريه الرسالة الالكترونية التالية:

الأخ العزيز بروفيسور شموئيل المحترم

تحية وبعد

كنت اليوم في جلسة مع عدد كبير من اهلي الفيليين وتطرقت فيها الى عبارة كنتم قد ذكرتموها في احدى حلقات مذكراتكم الشخصية تقول (ان الفيليين هم اول من بدأ الفرهود في منطقة باب الشيخ) ، وللحقيقة اقول ان هذه العبارة تطلبت مني في حينها (قبل ثلاث سنوات) بحثاً لمدة اكثر من سنة ولكن لم اصل الى اي شهادة أو دليل تثبت ماتفضلتم بذكره .. ولا يخفى عليكم ان هذا الموضوع حساس للغاية ومهم جداً، أأمل اني استطيع تحفيز ذاكرتكم وارجو تفضلكم بذكر التفاصيل التي تعرفونها بخصوص ذلك لأقوم باعادة البحث من جديد في اوساط كبار السن في منطقة باب الشيخ .. فهذا شأن اجتماعي وتاريخي يخص مئات الالاف من الفيليين ويخص اجيالاً منا .. وكن واثقاً اني في حالة توصلي الى الحقيقة (ايأ كانت) سوف انشرها بكل تجرد .

عصام

والان اليكم رد البروفيسور موريه الذي اجاب :

الاستاذ الجليل والباحث المدقق الاخ عصام الفيلي المحترم، حفظه الله تعالى

إن الخبر عن الفيليين والفهود هو عن طريق الباحث الكبير في تاريخ العراق الحديث الدكتور نسيم قزاز وقد قتل والده في باب الشيخ في اول ساعات الفهود وكان في الباص الذي انزل منه شريكه في خيول السباق المرحوم خليف ، وكان والده القزاز المرحوم له عمال كثيرون من فيلية باب الشيخ ويعرفهم ونزل من الباص لانه يعرفهم جيدا وظن انه بواسطة الصداقة معهم سيستطيع انقاذ صاحبه ، والدكتور نسيم قزاز هو استاذ في تاريخ العراق الحديث ويتوخى الدقة والنزاهة ، ارسل نسخة من رسالتي هذه اليه ليرد عليكم كشاهد عيان غير متحيز ولاسيما موضوعيته العلمية والتاريخية ، وقد كتب عن ذكرياته ومساعدة الفيلية لعائلته بعد مصرع المغفور له والده ، وارجو ان تستمر في ابحاثك ولعلكما تصلان الى الحقيقة فنحن نكتب للحقيقة والتاريخ كشهود عيان وليس لنا اي غرض سوى الحقيقة وآمل ان تتوصفون الى الحقيقة .

مع شكري وتحياتي وبانتظار ردكم

المخلص

سامي

الرسالتين اعلاه كانتا في شهر كانون الثاني من هذه السنة ٢٠١٢ ، إذن الان يجب ان اتعرف الى صاحب الشهادة واقصد به الاستاذ (نسيم قزاز) ، وقد سهل لي بروف موريه هذا الأمر ، ثم وصلتنا انا والدكتور موريه رسالة مشتركة من السيد قزاز مكتوبة باللغة العبرية التي علاقتي بها كعلاقة الاعرابي بوكالة ناسا !! وارجو ان تظهر خطوط اللغة العبرية لديكم حيث قال :

שמואל ליקירי

תודה על החומר ששלחת לי.

סלים

هاي هي دوامة اخرى ادخل فيها مصمماً على كشف اصل الحكاية .. تلك الحكاية التي تتهم الفيليين بأنهم اول من بدأ الفرهود، انا لا ابريء الاولين من المشاركة في الفرهود ولكن ان يكونوا (أول) !! تلك هي الكارثة الاخلاقية التي لا يمكن السكوت عنها او التهاون في كشف ابعادها وملابساتها، وهكذا كان لا بد من شهادة معنونة لي من السيد نسيم قزاز وباللغة العربية وهذا الذي حصل .. فقد تفضل مشكوراً وارسل لي شهادته للتاريخ، وانا هنا اقتطع من الرسالة ما يخص موضوع البحث الذي قال عنه بالنص:

الأخ الكريم البروفسور شموئيل (سامي) موريه والأستاذ الجليل السيد عصام الفيلى
المحترم

تحيات وتمنيات

أحداث الفرهود في منطقة باب الشيخ

في الأول من حزيران عام ١٩٤١ تنفس اليهود الصعداء بعد هروب حكومة رشيد عالي الكيلاني وعودة الوصي على عرش العراق الأمير عبدالإله إلى بغداد، وخرجوا في ذلك اليوم للتنزه والترفيه بعد شهر من المعاناة قبعوا خلاله في ديارهم وامتنعوا عن مزاوله أعمالهم خارج محلات سكناهم طيلة هذا الشهر الذي صار يعرف ب"شهر رشيد عالي" حيث كثرت فيه الاعتداءات على اليهود في الشوارع والطرق من قبل الرعاع وكتائب الفتوة وحتى من رجال الأمن. فاليهودي في هذا الشهر كان عرضة للضرب والإهانة والإبتزاز من قبل هؤلاء الذين الصقوا به تهمة واهية سيق بسببها الى مراكز الشرطة بعد أن أشبعوه ضربا ولكما وأحيانا طعنا بالسكاكين والخناجر مما أدى إلى جرح البعض وقتل آخرين.

وخلال هذا الشهر امتنع والدي من مزاوله أعماله والذهاب إلى دكانه في سوق القزازين كما امتنع من الذهاب لتفقد أحوال الخيول التي كانت له في طولة (اسطبل) حماد الشكرة بمحلة باب الشيخ. وسافرنا في ضحى ذلك اليوم المشؤوم إلى طولة حماد الشكرة بعربانة قوج (حنطور) التي أقلتنا في شارع غازي (اليوم على مأظن شارع الكفاح) من (طاطران) محلة سكنانا إلى باب الشيخ. وبعد التطلع على أحوال الخيول وتناول أطراف الحديث مع حماد والسياس عدنا بعد الظهر قافلين. ركبنا سيارة أم العانة التي انطلقت بنا باتجاه محلتنا وبعد أن تجاوزنا جامع عبد القادر

الجيلاني أعترض السيارة رعاك كانوا قد تجمعوا في الشارع عند عكك الأكراد. كنا في السيارة أربعة: الوالد ومثير شريكه في الدكان بسوق القزازين ونعيم أخو مثير وأنا (كنت آنذاك في سن الحادي عشر) بالإضافة إلى مسافرين آخرين لم نعرفهم. أوقف الرعاك السيارة وفتحوا الباب القدامي حيث كان مثير جالسا جنب السائق وسحبوه خارج السيارة وأشبعوه لكما وركلا وكنت حينها جالسا جنب والدي في المقعد الخلفي وإذا بي أرى والدي قد تسلل من الشباك وأخذ يشق طريقه في الجهة المعاكسة للجمهور وقررت الإلتحاق به وأخرجت رأسي وأكتافي وإحدى ساقني من الشباك ولم يبق إلا إخراج الساق الثانية كي أستطيع النزول إلى الشارع والإلتحاق بالوالد. وفي هذه اللحظة حرك السائق وأقلع من المكان مما اضطرني للبقاء في السيارة التي أنزلتنا بالقرب من محلة سكنانا. ولم نعد بعدها رؤية الوالد وشريكه مثير ولم نعتز على أثر منهما.

وكانت أحداث باب الشيخ فاتحة الفرهود الذي ذهب ضحيته ما يقارب الـ ٢٠٠ من اليهود أضافة إلى عدد غير من الجرحى ومئات البيوت والمحلات التي فرهدت. تلك كانت شهادة الدكتور نسيم قزاز ، ورغم انه استاذ في التاريخ العراقي الحديث ، الا انني اتمس في شهادته بعض النقاط التي اريد الوقوف عندها :

بدءاً فأن المعروف ان منطقة باب الشيخ لا يسكنها الكرد الفيليون فقط ، بل يسكنها منذ القدم الكثير من العشائر العربية وكذلك العديد من الجاليات الاسيوية وخاصة الهنود والباكستانيين والافغان الذين كانوا ولا زالوا يجاورون مرقد الشيخ (عبد القادر الكيلاني) ولا زال منهم من يعرفون ببيت الهندي لحد الان ، وكذلك كانت تسكن المنطقة بعض العوائل المصرية الاصل ولا زال احفادهم موجودين الى الان وانا اعرف منهم شخصياً عائلة متكونة من فروع واصول وينتمون الان الى قبيلة عربية معروفة (

ذبايين جرش) ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الاستاذ نسيم قزاز لا يعرف بالتحديد من اعتدى على السيارة التي تقلهم في ذلك اليوم ، خاصة وانه اطال الله في عمره كان في سن الحادية عشرة فقط من عمره وهذه الحادثة التي يرويها مر عليها الان (واحد وسبعون سنة) ، بقي هنالك شيء جدير بالملاحظة والتدقيق في شهادة السيد قزاز ، واقصد هنا العبارة التي يقول فيها (كثرت فيه الاعتداءات على اليهود في الشوارع والطرق من قبل الرعاع وكتائب الفتوة وحتى من رجال الأمن) ، فيا ايها المنصفون متى كان الفيليون من الرعاع ومتى كانوا من رجال الأمن ؟؟؟ كما اريد التنويه الى خطأ بالتوقيت وقع فيه الدكتور نسيم قزاز ربما لأنه نقل ما عايشه شخصياً وهو بعمر صغير ، حيث ان الاحداث لم تبدأ في باب الشيخ اساساً ولم تبدأ بعد الظهر (سوف ابين ذلك لاحقاً) كما اشار في رسالته ، كما ان ما يرويها لا يتعدى كونه اعتداء من بعض الهمج الرعاع على سيارة تقل بعض اليهود وليس حادثة فرهود لا من بعيد ولا من قريب ، وجددير بالملاحظة ان البروفيسور شموئيل موريه ذكر في رسالته اعلاه عن السيد قزاز عبارة "وقد كتب عن ذكرياته ومساعدة الفيلية لعائلته بعد مصرع المغفور له والده" .. قال مساعدة الفيلين ولم يقل تسليب او نهب وفرهود ، كما ان اياً من الاستاذين قزاز وموريه لم يبين للقراء وللحقيقة انه في هذا اليوم كان العراق بلا حكومة اصلاً !! وكان الهرج والمرج يسودان بغداد على وجه الخصوص مدة شهر كامل ، كما لم يبين ان يوم الفرهود (الاحد ١/٦/١٩٤١) كان يصادف عيداً لليهود (عيد النبي يوشع) ويصادف كذلك عودة الوصي عبد الاله الى العراق بعد فشل محاولة رشيد عالي الانقلابية (وكل هذا سوف نبينه لاحقاً) ، ولكني ادعو القراء الاكارم الى ملاحظة ان منطقة باب الشيخ التي اشار اليها السيدين قزاز وموريه سميت نسبة الى وجود مرقد الشيخ بعد القادر الكيلاني الجد الاعلى لرشيد عالي الكيلاني المعادي لليهود والقائم بالمحاولة الانقلابية في تلك

الايام وللمجمهور الكريم ان يستنتج من هذا الربط ما يشاء ، ولكن الثابت والواضح انه لا علاقة للكرد الفيليين لا كنسب بعائلة الكيلاني الكرام ولا كانتماء بمحاولة العروبيين الانقلابية .

وقفه مع التاريخ

لغرض الوقوف على احداث اليومين الداميين الاول والثاني من حزيران سنة ١٩٤١ ، لابد من مراجعة الاحداث وخاصة خلال الايام القليلة (او الشهر) الذي سبق اليوم الاول من حزيران، ذلك اليوم الطويل الذي ابتدأت فيه الحوادث ضد اليهود ليس في بغداد فحسب وانما في منطقة العشار بالبصرة ايضاً.

قبل شهر (تماماً) من حوادث الفهود اي في يوم ١ / مايس / ١٩٤١ ، قام رشيد عالي الكيلاني بمحاولته الانقلابية التي نتج عنها عزل الوصي عبد الاله وهروبه (كان الملك طفلاً في عمر السادسة) الى البصرة اولاً وبعدها قامت القوات البريطانية بتهدية الى الاردن على متن المدمرة (فالمون)

وكذلك هروب نوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي، واصبح البلد في حالة فوضى وفراغ دستوري بسبب هروب الوصي واستقالة وزارة الفريق طه الهاشمي وهروب عدد من الوزراء من كتلة نوري السعيد الى خارج البلد، فقام رشيد عالي الكيلاني بتشكيل حكومة مصغرة اطلق عليها اسم (حكومة الانقاذ الوطني) حفاظاً على امن البلاد من التصدع (!!) وهو الذي قام بمحاولة انقلابية تسبب في أكبر فوضى وانفلات امني عرفه العراق في تاريخه الحديث، وتم انتخاب الشريف شرف وصياً على عرش العراق بدل الوصي الهارب.

في ظل هذه الاوضاع المصيرية المتسارعة والمهمة وغير المستقرة في نفس الوقت كان من الطبيعي ان تعم الفوضى وتعرض البلاد الى هرج ومرج ، وعند ربط العلاقة بين اليهود وتأيدهم للوصي الهارب وللبريطانيين باعتبارهم اعداء النازية وبين العروبيين والتيار القومي القائمين بالمحاولة الانقلابية ، يكون من الطبيعي ايضاً ان اول المتضررين من هذه الفوضى سيكون اليهود انفسهم ، اما عند التوضيح انه بعد فشل محاولة رشيد عالي الكيلاني وعودة الوصي عبد الاله الى بغداد في اليوم الذي صادف خروج اليهود للاحتفال بعيد النبي يوشع (عيد نزول التوراة على اليهود) ، فيكون كذلك من الطبيعي جداً ان يتعرضوا الى اعتداءات من بقايا انصار الانقلابيين ، حقداً عليهم وانتقاماً منهم وظناً بأن اليهود انما خرجوا فرحين بفشل انقلاب الكيلاني وخسارة الجيش العراقي لمعاركه مع القوات البريطانية ومحتفلين بعودة الوصي عبد الاله ، خاصة وان مكان احتفال اليهود بعيدهم كان عند مرقد النبي يوشع المجاور والقريب جداً من المطار المدني (مطار المشنى) الذي حطت فيه طائرة الوصي عبد الاله في صباح نفس اليوم .

في بحث قيم للبروفيسور كاظم حبيب نشره قبل سنة بمناسبة الذكرى السبعين لفجاعة الفرهود، تناول بجهد واضح كما تعودنا منه الاحداث السياسية التي سبقت فرهود اليهود وأدت في بعض تداعياتها الى الفرهود، واستعرض العديد من الامور التي انقل لكم منها ما يتعلق باليومين الاخيرين قبل الفرهود حيث يقول:

انتهت الحركة الانقلابية بمغادرة مجموعة القيادة العسكرية والسياسية البلاد، ولاسيما القيادة الحزبية التي قادت العملية سياسياً وعسكرياً، وكانت تقف على رأس الحركة أثناء العمليات العسكرية بين القوات البريطانية والقوات العراقية. وعقد آخر اجتماع لمجلس الوزراء برئاسة رشيد عالي الكيلاني في ٢٧ مايس/أيار من عام ١٩٤١. ثم

صدر عنه القرار رقم س ٣٦٤٦ بتاريخ ١٩٤١/٥/٢٨ القاضي بتشكيل لجنة الأمن الداخلي في العاصمة والطوارئ) حيث تم انتخاب أمين العاصمة رئيساً لها. وهي اللجنة التي وقعت اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية، والتي بدأت مفاوضاتها لوقف زحف القوات البريطانية على بغداد التي تمت في ١٩٤١/٥/٣١. وفي التاسع والعشرين من ميس/أيار، غادر رشيد عالي الكيلاني بغداد، وكذلك المفتي الحاج أمين الحسيني باتجاه إيران. وكان آخر من غادر العراق من المجموعة القيادية على الأرجح، هو السياسي البارز والتميز في الحركة الانقلابية ووزير الاقتصاد محمد يونس السبعوي. إذ أنه واصل العمل في بغداد، وأعلن نفسه حاكماً عسكرياً لمنطقة بغداد والمنطقة الجنوبية، وطالب باستمرار المقاومة ضد القوات البريطانية. ولكن لجنة الأمن الداخلي، استطاعت إقناعه بعدم جدوى المقاومة، وطلبت منه مغادرة البلاد باتجاه إيران. ثم بدأت بعدها التفاوض مع القوات البريطانية لغرض إعلان شروط الاستسلام. وعلى أثر ذلك حلت كتائب الشباب، ومنها مجموعة الدفاع عن السبعوي (حرس السبعوي-الفدائيون). وجدير بالذكر هنا أن السبعوي، عمد إلى تشكيل ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية لحمايته، والدفاع عن الحركة الانقلابية، والتصدي للقوات البريطانية الزاحفة صوب بغداد، وهي (كتائب الشباب) و (الحرس الحديدي) و(فدائيو يونس السبعوي). وهذه الكتائب كانت في طليعة القوى التي هاجمت اليهود، ونفذت فاجعة الفرهود في بغداد.

اما بخصوص الفرهود فيمضي البروفيسور كاظم حبيب قائلاً:

في الأول من حزيران عام ١٩٤١ أطلقت القوى الشوفينية المتطرفة ذات العلاقة الوثيقة بقوى حركة رشيد عالي الكيلاني المناهضة لليهود؛ حملات عدوانية شرسة منظمة وواعية وهادفة ضد المواطنين والمواطنين اليهود في بغداد، تميزت بالعنف

والشراسة واستخدام السلاح، تساندها جمهرة جاهلة غير واعية من الأوساط الشعبية ومن الرعاع الذين يتحينون أي فرصة للمشاركة في عمليات النهب والسلب والقتل التي تحركها تلك القوى المنظمة، وعصابات الجريمة، أي تلك القوى التي تأثرت كثيراً بالدعاية الفاشية في العراق، والتي أصابتها خيبة انهيار الانقلاب، وعودة قوات الاحتلال البريطانية للسيطرة الكاملة على العراق، وإرغام العراق على عقد اتفاقية الهدنة المذلة. أطلق على هذه الحملة (فاجعة الفرهود) . وكان المشاركون في حملات العنف هذه التي اقترنت بعمليات السلب والنهب والقتل والتدمير ضد العائلات اليهودية والمحلات والمصالح التابعة لليهود في بغداد، يهزجون في شوارع بغداد "حلو الفرهود كون يصير يومية" والتي تعني (حلوة عمليات السلب والنهب والقتل وإشعال الحرائق ضد اليهود عسى أن تتكرر يومياً). ولم تكن جمهرة من الجنود وحدها وراء هذه العمليات الإجرامية فحسب، بل كانت أيضاً جمهرة من الشرطة المسؤولة عن أمن المواطنين والمواطنين والمدنيين والمدعومة من بعض الضباط وبعض رجال السياسة من المعسكر القومي الشوفيني، فضلاً عن كتائب الشباب التابعة للحركة الانقلابية. كتب السيد مير بصري عن هذه الفاجعة يقول: "كان الحاج طاهر محمد سليم من أشرف بغداد عائداً إلى داره المطلة على شارع غازي (الذي سمي بعدئذٍ شارع الكفاح) فرأى شباب يهود ينزلون من السيارات العامة ويذبحون، فتجري دماؤهم البريئة على قارعة الطريق. أسرع في سيره ودخل مركز الشرطة وقال لرجاله: ألا ترون المذبحة أمامكم، فأين شهادتكم المسلكية وغيرتكم العربية؟ لكنهم سخروا منه وقالوا له: أذهب إلى دارك، أيها الحاج، فلا شأن لك في الأمر، وخرج يجر أذيال الخيبة، وحاول عبثاً ردع الرعاع، ولم يجد بداً من المضي إلى داره كئيباً".

وقد راسلت البروفيسور كاظم حبيب قبل سنة من الان سائلاً عن الربط بين الفيليين
وبين فرهود اليهود وانقل لكم ادناه نص المراسلات الاربعة :

(١)

مساء الورد بروفيسور..

هل في ذاكرتكم اي شيء بخصوص ان الفيليين هم (اول) من بدأ الفرهود في باب
الشيخ ؟

لست اسأل يا سيدي هل شاركوا أم لا وانما هل هم الاول ام لا

ما الذي تستطيع افادتي به بخصوص هذا الموضوع

شكراً على سعة صدركم وبانتظار ردكم الكريم

عصام

(٢)

أخي العزيز الأستاذ عصام أكرم الفيلي المحترم

تحية طيبة

هذه أول مرة في حياتي اسمع بأن كرداً فيليين بدأوا الاعتداء على اليهود في عمليات ومجزرة الفرهود في بغداد.

لم يكن هم الأول ولا الآخر حسب علمي.

بل كانت حثالة من التنظيمات الشبابية التي شكلها يونس السبعوي، وهي:

ثلاث منظمات شبابية شبه عسكرية لحمايته، والدفاع عن الحركة الانقلابية، والتصدي للقوات البريطانية الزاحفة صوب بغداد، وهي (كتائب الشباب) و (الحرس الحديدي) و(فدائيو يونس السبعوي) وهذه الكتائب كانت في طليعة القوى التي هاجمت اليهود ، ونفذت فاجعة الفرهود في بغداد. كما شاركت مجموعة من العرب الأوباش الذين كانوا ينتظرون سرقة أموال اليهود أو الاعتداء على أعراسهم أو حتى قتلهم.

إقرأ رجاءً كتابي عن يهود العراق الصادر في السليمانية، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر.

مع خالص الود والتقدير.

كاظم حبيب

شكراً جزيلاً على تكرمكم بعناء الرد

في الحقيقة انا ابحت في موضوعة تقول بأن الكرد الفيليين في شارع الكفاح هي اول من بدأ الفرهود ، وهذه المعلومة اوردها احد الاخوة من يهود العراق وبغداد على وجه التحديد قبل عدة سنوات .. فأخذت بالبحث والتقصي عن اساس هذه المعلومة في اوساط اهلنا في (عكد الاكراد) والمناطق المجاورة وفي اوساط كبار السن في اماكن عدة .. وقبل يومين عاد هذا الموضوع من خلال احدى المجموعات على الفيس بوك .

اتصلت يوم أول امس بالدكتور شموئيل (تربطني معرفة سابقة به) وطلبت منه تفاصيل هذه الحالة أو الاتهام ، فقال ان المعلومة وصلته من احد الاشخاص الذين يثق فيهم وعرفني اليه وانا حالياً ارسله خاصة وقال انه شخص معروف بالدقة واختصاصه التاريخ العراقي وهو ايضاً من الاخوة يهود العراق قد تجاوز عمره الثمانين عاماً ، وسوف انشر النتائج قريباً ان شاء الله .

وبخصوص كتابكم فهو الباعث الاساسي الذي دعاني الى مراسلتكم بالاضافة الى اسمكم الغني عن التعريف .

تفضلوا بقبول وافر احترامي وتقديري لشخصكم الكريم واشكركم جزيل الشكر على المعلومات القيمة التي رقدتموني بها .

دمت سالماً

عصام

أخي العزيز الأستاذ عصام الفيلبي المحترم

تحية طيبة

أود أن أشير لك بأن عملية الفرهود لم تكن عفوية, بل كانت منظمة من قبل قوى اليمين المتطرف المناهض لليهود.

والقوى الرئيسية التي مارسته تلك التي أشرت اليكم فيها.

انقلاب مايس ١٩٤١ ايدته الكثير من القوى السياسية في حينها باعتباره ضد الإنجليز. والأحداث التي جرت يمكن ان يكون قد انجر إليها احد الكرد الفيلية, سواء جهلاً أو كراهية لأن الفيلية ايضاً من المسلمين ويمكن أن يكون قد تأثر بالدعاية ضد اليهود التي راجت حينذاك. ولهذا لا يمكن التعويل على هذا الشخص حتى لو كان صحيحاً ولا يمكن أن يكون هو البادئ, إذ أن العملية كانت بايدي القوى المنظمة لها.

لهذا ورغم تحريككم عن الموضوع, وهو أمر يخصكم طبعاً, لأن السؤال الأساسي هو من هم المنظّمون ومن هم الفاعلون بأكثريتهم. لم يكن السنة فقط من شارك, ربما الكثير من الشيعة ايضاً. ولهذا لا يجوز التعويل على رأي شخص واحد مهما كان ثقة ولا لمشاركة الكرد الفيلية ولو كان شخصاً أو حتى عدة اشخاص.

مع التقدير

كاظم حبيب

شهادات

(١) شهادة شيخ المؤرخين العراقيين السيد عبد الرزاق الحسني :

صادف يوم الاحد اول حزيران ١٩٤١ عيد زيارة النبي يوشع عند اليهود فخرج لفييف منهم الى المطار المدني للتنزه وللتفرج على مهرجان الامير عبد الاله ، وكان فريق من المسلمين والمسيحيين قد خرج الى هذا المطار للغرض نفسه ، فحدثت مشادة كلامية بين احد اليهود واحد المسلمين أدت الى ضرب ولكم اشترك فيهما لفييف من الفريقين واسفر عن جرح سبعة عشر يهودياً ووفاة اثنين من المجروحين فأسف الجميع لهذا الحادث غير المنتظر ، واعتبر حادثاً اعتيادياً انتهى باعتقال المعتدين ، فلما كان مساء اليوم المذكور اذاعت متصرفية لواء بغداد البيان الاتي بناءً على طلب من لجنة الامن الداخلي (يسمح للجمهور التجول في العاصمة وضواحيها ليلاً كالسابق بدون تحديد الوقت اعتباراً من مساء الاثنين الموافق ١٩٤١/٦/٢) .

(١)

شهادة المحامي العراقي اليهودي انور شاؤول :

وكما تكشف حركة رشيد عالي الكيلاني الفاشلة وملاساتها الهوجاء ، بالنسبة ليهود العراق ، عن ضراوة في طباع بعض الناس وخسة في أخلاقهم فلا رادع من قانون ولا وازع من ضمير ، فقد روت الأحداث أعمالاً طيبة قام بها أناس طيبون من المسلمين لنصرة من يعرفونهم ولا يعرفونهم من جيران لهم يهود كانوا في أمس الحاجة إلى حمايتهم . وأن أنس لا أنس المبادرة الفريدة الحميدة التي قام بها الواعظ الشيخ

المفضال الأستاذ جلال الحنفي إذ توجه عن طريق الإذاعة إلى جماهير الشعب العراقي ظهر اليوم الثاني من حزيران، والنظام في بغداد وسائر مدن العراق ما زال سائباً والغوغاء ما زالت تتحين الفرص، بندااء بليغ حذر فيه الناس من مغبة الاعتداء على اليهود .

(٢)

شهادة طه الهاشمي :

١ حزيران ١٩٤١ / جائي عزيز سامي واخبرني بمهاجمة الجماهير لدور اليهود وعلى رأسهم الجنود وان الشرطة عجزت عن صدهم وان حسام الدين جمعة مدير الشرطة العام يشرف على الامن ويطلب الينا ان نسد الابواب وان نكون على حذر. ٢ حزيران ١٩٤١ / استمرت الجماهير على النهب والسلب والنفت حولها جماعات من الشرفاويين واهل العمارة الذين نزحوا الى بغداد وعملوا في اعمال امانة العاصمة ويظهر ان اكثر الجنود شجعوهم على اعمالهم وان الشرطة اصبحت عاجزة عن صدهم وقيل ايضاً ان الشرطة اشتركت معهم .

(٣)

شهادة أمين المميز :

عندما هاجم بعض الاهالي على بيوت اليهود ومحلاتهم التجارية وفرهدها استطاعت قوات الشرطة من استعادة بعض الاشياء وكدستها امام المخافر وفي شارع ابي نؤاس وامام باب وزارة الدفاع في شارع الرشيد لعدة اسابيع .

شهادة محمود الدرة

دعاني العقيد الركن نور الدين محمود انا والمقدم حقي عبد الكريم وطلب منا ان نتعاون معه على ايقاف الفوضى والفرياد في بغداد فاقترحت ان يعلن منع التجول ما بين الخامسة بعد الظهر والسادسة صباحاً وان يطلق الرصاص على اي شخص يخالف هذا الامر ، فوافق مدير الحركات العميد محمود نور الدين على الفكرة فكتبت بياناً بالمعنى المذكور وطلبت منه توقيعها لاعلانه في الاذاعة فرفض لأن هناك في الجيش من هو اعلى منه رتبة بعد ان عاد اللواء اسماعيل نامق من المنصورية الى بغداد وقبع في ديوانه برئاسة اركان الجيش ، فقصدنا انا وحقي عبد الكريم وعرضنا عليه البيان فخاف من المسؤولية وبعد الاتصالات الهاتفية التي كان قد اصدرها الوصي الذي وصل بغداد وقع اللواء نامق البيان فاذيع بواسطة سيارة متنقلة فيها ميكروفون . ولعدم توفر القطعات الكافية لحفظ النظام فلقد عادت الفوضى ليلاً وعمت مدينة بغداد بعد ان اشترك الجنود العائدين من جبهات القتال بالانتقام من اليهود .

(٥)

شهادة مديحة سلمان (زوجة محمود سلمان احد العقداء الاربعة وقائد القوة الجوية في حركة مايس ١٩٤١) :

بعد يومين من اعلان الهدنة دخلت القوات البريطانية بغداد وكان اليهود في استقبال القطعات ينثرون عليها الازهار والاوراق ويتحدون الشعور الوطني بل يسمعون الاهالي كلمات التشفي بكل صلافة فتحرك ابناء الشعب ضدهم ونزلوا بهم تقتيلاً وتجريحاً ونهباً وسلباً وتحولت بغداد في تلك المرحلة الى قطعة من الجحيم فالنار لاهبة في محلات وميادين عديدة وازيز الرصاص يدوي هنا وهناك والدماء تسيل في الشوارع واستمرت هذه الفوضى ثلاثة ايام بلياليها .

(٦)

شهادة طاهر البياتي (احد افراد كتاب الشباب التابعة ليونس السبعوي) :

اما الفرهود الذي وقع في بغداد وزمرت له الدعايات الصهيونية فهو باختصار كما شهدته انا شخصياً ان الجنود العراقيين رجعوا من جبهات القتال منهوكي القوى ومتعبين نفسياً لخسارتهم المعركة مع الانكليز وان بعضاً من العناصر العسكرية الصهيونية قدمت العراق برفقة القوات البريطانية وكنا قد سمعنا بمقتل قائد صهيوني كبير في الحبانية وعندما خرج اليهود بكامل زينتهم لاستقبال عبد الاله كانوا شامتين بخسارة الجيش وتحرش بعض اليهود بالجنود العائدين ونشبت معركة .

الدور البريطاني

رغم ان القوات البريطانية التي كانت على مشارف بغداد كانت تستطيع التدخل لوقف ومنع الاعتداءات ضد اليهود الا انها لم تفعل ربما كجزء من الخطة الساعية الى اجبار يهود العراق على الهجرة الى اسرائيل ، وكان السفير البريطاني في بغداد كنهان كورنواليس يعلم بالحوادث التي بدأت ضد اليهود الا انه لم يحرك ساكناً ولم يوعز بالتدخل ، ويشير البروفيسور كاظم حبيب نقلاً عن الدكتور داود سلمان الى الدور البريطاني في تلك الاحداث قائلاً ان القوات البريطانية التزمت بالتعليمات التي اصدرها القائد العام للقوات المسلحة للحلفاء الجنرال ويغل ولم تحرك ساكناً عندما حصل الاعتداء ، بل إنها كانت سبباً في فسح المجال أمام العرب للاعتداء على اليهود ، ويلخص بروف حبيب تلك التعليمات بالنقاط التالية مبيناً انها ساعدت الاعراب المحيطين بالعاصمة على مهاجمة بيوت اليهود ونهبها :

١ - الوصول إلى السفارة البريطانية في الكرخ في الوقت المناسب، لرفع الحصار الذي فرضه عليها الجيش العراقي، وليتسنى للسفير السر كنهان كورنوال حرية الحركة.

٢ - السيطرة على رؤوس الجسور من جانب الكرخ والكاظمية لمنع وصول الغوغاء إليها.

٣ - عدم التدخل في الاعتداءات الدموية الدائرة في شوارع الرصافة في بغداد ضد اليهود.

٤ - عدم التدخل في الشؤون العراقية الإدارية والداخلية وعدم النيل من استقلاله.

٥ - تشجيع العراقيين على الاستمرار في ممارسة مسؤولياتهم المدنية كما كانوا عليه قبل قيام رشيد عالي الكيلاني وضباطه الأربعة بانقلابهم

كما يشير الى تأكيد الدكتور سلمان درويش لذلك الدور البريطاني المساعد على الاحداث ضد اليهود بنقله محادثة هاتفية جرت بين ضابط عراقي وبين مرافق السفير البريطاني (كورنواليس) الكابتن هولت الذي امتنع عن إيقاظ السفير وإبلاغه بالمجزرة الجارية ضد اليهود في جانب الرصافة بقوله : إن السفير يعرف ما يجري من إطلاق نار وسلب . ولكنه يعتبر ذلك مسألة داخلية لا يجوز للقوات البريطانية التدخل فيها .

الرواية الرسمية للحكومة العراقية

بناءً على قرار مجلس الوزراء المرقم (٣٢٨٨) في ٧/حزيران/١٩٤١ تشكلت لجنة رسمية حكومية للتحقيق في حوادث الفهود وكانت برئاسة السيد (محمد توفيق النائب) وعضوية ممثل عن وزارة الداخلية هو السيد (عبد الله القصاب) وكذلك بعضوية ممثل عن وزارة المالية هو السيد (سعدي صالح) ، وبعض الجهد حصلت قبل ايام على النص الكامل للتقرير الذي رفعته هذه اللجنة وما توصلت اليه على مدار اثنتي عشرة جلسة تحقيقية ، على الصفحة الاولى من التقرير نقراً عنواناً يقول (خلاصة القضية) وهذا هو ما ابحت عنه ، وانقل لكم ادناه النص كما ورد في المحضر :

انه في يوم ١/٦/١٩٤١ اعلن على الملأ خبر تشريف صاحب السمو المعظم فخرج الناس لاستقبال سموه ، وقد خرج بعض افراد اليهود مستبشرين فرحين بمناسبة حلول عيد النبي يوشع ، وانفراج ازمة الاصطدام المسلح ، وعندما وصلوا جسر الخر صادفهم بعض الجنود وشاهدوهم على تلك الحالة فلم ترق لهم واثارت حفيظتهم فانهاؤوا عليهم ضرباً ولكمأً وجرحاً بالسكاكين ، فهرب منهم من استطاع الهروب

ومن لم يستطع فقد جرح ، وشاركهم في هذا الحادث بعض الاهلين ووقع هذا الاعتداء على مرأى من الشرطة ومن رجال الانضباط العسكري ، ثم اخذت الشرطة تجمع المجروحين وتنقلهم الى المركز (في الكرخ) وقد بلغ عدد الجرحى ستة عشر شخصاً وقتيلاً واحداً ، وقد ارسلوا الى المستشفى ، فتجمهر الناس امام المستشفى بغية الهجوم عليه والفتك بالمرضين والممرضات من اليهود فخرج عليهم مدير المستشفى السيد (جميل دلالي) ورجاهم ان يتفروا فطلبوا اليه ان يسلمهم اليهود من رجال ونساء فأجابهم بأن النساء خادמות الانسانية فطالبوا بالرجال وخاصة اليهودي (حسقيل المضمند) فوعدهم وذهب واخبر الشرطة فحضر فصيل من القوة السيارة وبدد الجمهور وقبض على عدة اشخاص منهم ، ولم تجري آنذاك التعقيبات ضد الجنود والاهلين وقد شاع ذلك بطبيعة الحال بين الطبقات ومن في قلوبهم مرض فحصل اعتداء آخر في جانب الرصافة وشوهدت جثة قتيل على رصيف شارع غازي (الكفاح حالياً / عصام) بالقرب من السينما فاخبرت الشرطة وحضر المعاون ولم يعرف القاتل وفي هذه الاثناء جاء يهودي مجروح وسقط على الارض ومات قبل ان يخبر عن الذي قتله ، ولقد لحق علم الشرطة آنذاك بوجود عدة قتلى في محلة (ابو سيفين) فذهبت وجمعت القتلى وكان عددهم ثمانية ، وتبين ان الفاعلين هم بعض افراد الجنود وشاركهم بعض الاهلين.

مما ذكر اعلاه تبين لنا بوضوح التفاصيل الدقيقة لما جرى وكيف بدأ واين ، ولا يرد كما لاحظتم بالتأكيد اي ذكر للغيليين لا من بعيد ولا من قريب ، وننتقل الى صفحات اخرى من التقرير الحكومي فننتوقف عن بعض النقاط والتفاصيل ونقرأ :

١. ان متصرف بغداد كان يتجول في شارع الامين ومعه مدير شرطة بغداد فصادف بعض افراد الجنود ومعهم رشاش وكانوا يطلقون النار على دور اليهود وادعى أنه أمر

الشرطة بعدم اطلاق النار مع ان بعض الجنود اطلقوا نيرانهم على المتصرف (!)
ومدير الشرطة (!) فلذا خلف جدار هناك ولولا ذلك لاصابهم وابل الرصاص .

٢ . شوهدت سيارة للجيش في شارع الامين تنقل اثاثاً بيتية من بعض دور اليهود
فتعرض لها السيد علي خالد الحجازي (من كبار ضباط الشرطة وكان مدعوماً من
البلاط الملكي ، تولى فيما بعد منصب مدير الشرطة العام / عصام) فأجيب بأن هنا
مقر للطيران قد انتقل وانهم ينقلون ااثاته !

٣ . جاءت سيارة لوري عائدة للجيش لمحلة السنك وكانت بدون رقم وفيها ضابط
برتبة ملازم أول ومعه اربعة جنود مسلحين وحاملين بأيديهم الهيمات (الات حديدية
ضخمة تستعمل للقطع والكسر) ووقفت عند مقر مدرسة الصنائع واجتمع عليها
تلامذة المدرسة المذكورة و (كتائب الشباب) ثم هجموا على دور الحي العائد
 لليهود وكسروا ابواب تسعة منها واخلوا ما فيها من متاع واثاث وتركوها تنهب .

٤ . كان بعض افراد الشرطة يلج بيوت اليهود ويطلب منهم أجر المحافظة
عليهمفيدفعون ما كان موجوداً لديهم الا ان الشرطة لم تكن تكتفي بذلك بل كان
بعض افرادها يساعدون الاهلين على السلب والنهب وشاركهم في هذا الاعتداء
بعض تلامذة المدرسة الثانوية العسكرية .

٥ . حوادث السلب والنهب في الكرخ وقعت في بادىء الامر من قبل بعض افراد
الجيش وقد شاركهم (بتحريض منهم) بعض الهمج من الاهلين فنهبوا اربعة دور
وثلاثة عشر دكاناً .

٦ . في الاعظمية هجم بعض الجنود على البيوت وقد نهبوا عشرة دور أو اكثر .

٧. في الكراة الشرقية في الساعة التاسعة والنصف صباحاً باشر بعض افراد الجيش بالقتل والنهب والسلب وجرحوا ستة اشخاص من اليهود وقتلوا واحداً من المسلمين عند قيامه بحراسه دار احد اليهود ، وقد عرف منهم اربعة اشخاص هم حسون ابن مجيد رقم ١٦٧ من الفوج الثالث - سرية الاسناد ورئيس عرفاء عبد محمد الضاحي من نفس الوحدة وحارساً يعمل في القطارات يدعى مصطفى وجندي آخر من الطيران .

٨. نهب الدور في الكراة الشرقية وقع من قبل بعض الضباط والجنود وشاركهم بعض الاهلين فتم نهب احدى وستين داراً وثلاثة حوانيت .

وفي صفحة اخرى من تقرير اللجنة التحقيقية الحكومية وتحت عنوان (المسؤولون عن الاضطرابات) نقرأ التالي :

يظهر مما تقدم ان البدء في الاضطرابات كان قد وقع من قبل بعض الجنود مباشرة واشترك معهم الاهلون وكان في الامكان توقف هذه الحركة لو كانت دائرة الانضباط العسكري قبضت عليهم في اليوم الاول في (الكرخ) وواقفتهم وبث رجال الانضباط للحيلولة دون وقوع الحوادث لتمكنت بذلك من دفع وقوعها في اليوم الثاني في (الرصافة) ، غير ان اهمالها وتقاعسها وتغاضيها واشتراك بعض رجال الانضباط في الحركة قد شجع الباقي على تسرب الحوادث الى الرصافة ، كما ان الشرطة لو كانت حازمة وقائمة بواجباتها في المحافظة على الامن والقبض على المعتدين الذين قاموا بأول حركة في الكرخ لكانت قمعتها من فورها ومنعت تسربها الى الرصافة .

وعليه تجد اللجنة ان المسؤولية في الدرجة الاولى تقع على مدير الشرطة العام السيد حسام الدين جمعة ومتصرف بغداد السيد خالد الزهاوي ومدراء الشرطة السيد ابراهيم الشاوي في الكرخ والسيد عبد الله عوني في السراي والسيد درويش لطفي في منطقتي العبخانة والكرادة ومدير شرطة بغداد السيد عبد الرزاق فتاح ، كما تقع المسؤولية في الدرجة الثانية على آمر الانضباط العسكري المقدم مظفر ابراهيم والذين تحت امره من الضباط والجنود وكذلك آمر الفرقة الاولى عبد الحميد رأفت الذي كان بإمكانه منع الجنود من الخروج من ثكناتهم بعد ان وقعت حادثة الكرخ.

ومن الجدير بالذكر انه تم في ٢٨ / ايار / ١٩٤١ وقرار لمجلس الوزراء يحمل الرقم (س / ٣٦٤٦) تم تشكيل لجنة الامن الداخلي والطوارئ في العاصمة وهي التي وقعت اتفاقية الهدنة مع القوات البريطانية بعد معارك الشعبية والحبانية وهي التي بدأت مفاوضاتها لوقف زحف القوات البريطانية على بغداد ، وبخصوص لجنة الامن الداخلي هذه يذكر تقرير اللجنة التحقيقية ما يلي :

ان لجنتنا لا تستطيع تبرئة اعضاء لجنة الامن مبدئياً لا سيما وانها قد ارتكبت غلطة كبيرة لا يستبعد ان يكون لها نصيب كبير في هذه الاضطرابات وذلك باخراجها يونس السبعواوي وصديق شنشل من العراق واعطاء الاول مائة دينار (باعتباره راتب شهري) وبذلك فقد شجعت جماعة يونس السبعواوي وكتائب الشباب والحرس الحديدي والقوة السبعواوية وغيرهم من المجرمين الاشرار الذين كانوا ملتفتين حوله والذين اشتركوا جميعهم في هذه الحوادث المؤسفة .

كما يوضح التقرير ان الاسس التي احدثت هذه الاضطرابات هي الدعاية النازية عن طريق المفوضية الالمانية ومفتي القدس أمين الحسيني وحاشيته (الذي كان زعيماً لحزب سري اسمه حزب الشعب ويضم في عضويته كلاً من رشيد عالي الكيلاني والعقداً الاربعة) ، والمعلمون الفلسطينيون والسوريون في العراق ، ومحطة الاذاعة الالمانية باللغة العربية ، والاذاعة العراقية (سيطرت عليها في تلك الفترة جماعات موالية للانقلابيين) ، وكتائب الفتوة والشباب .

ويعود التقرير ليشير بالنص الى :

" ان اهم العوامل التي شابت هذا الاضطراب وان الذي ابتدأ بها هم بعض الجنود وضباط الحيش وهم الذين بدأوا بالقتل والنهب والسلب وقد شاركهم بعض افراد وضباط الشرطة وشجعوا بذلك العامة على تلك الافعال الشائنة "

فيا ايها الاخوات والاخوة الاكارم .. اين الكرد الفيليين من كل هذا ؟؟؟!!

الخاتمة

يتبين لكم مما ذكر اعلاه ان لا علاقة اطلاقاً بين الكرد الفيليين وبين فرهود اليهود ولايجاز ذلك نقول :

١ . الحملة ضد اليهود من وجهة نظري لم تبدأ في ١ / حزيران / ١٩٤١ ، بل بدأت منذ صدور القانون المسمى بـ (قانون الطائفة الاسرائيلية) المرقم (٧٧) لسنة ١٩٣٩ ، ذلك القانون المتكون من عشرين مادة تنفرع الى عشرات الفقرات التي تعزل ما اسمته (الطائفة الاسرائيلية) عن باقي فئات الشعب العراقي وتتدخل في كل خصوصياته ومجالسه ورؤسائها واعضاءها وتقسمها الى مجالس عمومية ومجالس روحانية ومجالس جسمانية (كذا) ، ويتدخل هذا القانون ايضاً في المحاكم الدينية لليهود وتشكيلها واعضاءها ، بل يتدخل في قضايا النكاح والمهر والطلاق والفرق والنفقة الزوجية !!

٢ . الموضوع اكبر من قيام بعض الافراد (من أي انتماء او جهة كانوا) بالاعتداء على سيارة في عكد الاكراد وانما هو فوضى عارمة لها تداعيات دولية ومحاوله انقلابية وهروب للوصي والقيادات المرتبطة به وحرب بين الجيش العراقي والبريطاني واحتلال القوات البريطانية للبصرة والحبانية وزحفها على بغداد وبلد كان في تلك الايام بلا حكومة وبلا ملك وبلا وصي على العرش وكان الرعاع يملتون شوارع بغداد بلا اي رادع .

٣ . الفاعلين الرئيسيين لحوادث الاعتداء على اليهود هم من الجيش وبقايا اتباع رشيد عالي الكيلاني ويونس السبعوي .

٤ . الشاهد الرئيسي والمسبب لنظرية بدأ الفيليين لفرهود اليهود وهو الدكتور نسيم قزاز ، ظهر انه كان يتحدث عن حادثة اعتداء بعض الهمج على سيارة تقل يهوداً لا أكثر من هذا .

٥ . بداية الاحداث لم تكن في باب الشيخ (في رصافة بغداد) اساساً وانما كانت قرب المطار المدني في جانب الكرخ.

وختاماً .. اذكر الدكتور نسيم قزاز والأخ العزيز البروفيسور شموئيل موريه بكتاب المرحوم الاستاذ اسحاق بار موشيه (تولد ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٧ - توفي ٢٠٠٣) المطبوع سنة ٢٠٠٤ (يومان في حزيران) الذي تكفي قراءته حتى لو كان مصدراً وحيداً لمعرفة الا علاقة للفيليين لا من بعيد ولا من قريب بفرهود اليهود ، إذ على امتداد (١٥٤) صفحة لم يرد ذكر الفيليين ولا مرة واحدة رغم ان الكتاب يتناول انطلاق شرارة الفرهود ويتناول احداث اليومين الاول والثاني من حزيران ١٩٤١ فقط .

واتمنى من الاستاذ موريه ان يصحح اللبس الذي حصل في الحلقة السادسة من مذكراته ، خاصة وانه أكد لي شخصياً انه ينوي توضيح بعض الافكار حول تسجيل صوتي لجلسة بغدادية جرى قبل شهر من الان وتناولت فيها مذكرات بروف موريه وخاصة ما نقله حول علاقة الفيليين بالفرهود وارسلته له ، حيث جرت بيني وبينه قبل ايام قلائل (٨ / تشرين الاول / ٢٠١٢) المراسلات التالية :

(١)

اخي العزيز عصام، حفظه الله تعالى

شكرا على رسالتكم المفصلة ، وارجو نقل ما دار في الجلسة البغدادية هو حول
الفرهود وحولي، لاني مهتم بها واريد توضيح بعض الافكار فيها
مع شكري وتحياتي وبانتظار ما تخبؤه الاقدار من مفاجآت سارة،

اخوكم وجاركم

سامي

(٢)

اوكي سيدي اتفقنا .. ولكن امهلني بعض الوقت لأنني سوف ادراج مع موضوع
التسجيل رأي الاستاذ نسيم قزاز الموجود لدي منذ فترة طويلة حيث راسلته سابقاً
بخصوص نفس الموضوع ولا زالت اجابته موجودة عندي وكذلك ادراج رأي بروفيسور
كاظم حبيب والموجود عندي ايضاً ..

دمت سالماً

عصام

الاستاذ الفاضل عصام الفيلي المحترم

شكرا على ردكم السريع ولكل الوقت ، الاساتذة الذين ذكرتهم من كبار الباحثين الموثق بهم ، وانا بانتظار مقالكم الحضيف لكي نجعله مدار نقاش بين باقي القراء العراقيين والذين عاصروا الاحداث، وآراؤهم وتعليقاتهم مهمة جدا للحقيقة والتاريخ.

المخلص والشاكر لكم تفهمكم

سامي

.....

والان وقد اكملت المادة التي عملت عليها طيلة الفترة الماضية ، اقول للعزير بروف موريه .. يا سيدي العزيز .. الفيليون اناس بسطاء كادحين مسالمين ، الفيليون ليسوا عصابات سرقة ونهب و (فرهود) ، الفيليون عانوا مثلما عانيتم وهم اهل البلاد الاصليين ولكن الانظمة الحاكمة هجرتهم وقتلت اولادهم وشنتت بقاياهم في المنافي ، افلا يكفي كل هذا الظلم حتى يقع عليهم ظلم آخر ويتهمون بعد سبعين سنة بأنهم سب فرهود اليهود؟؟

عصام اكرم الفيلي

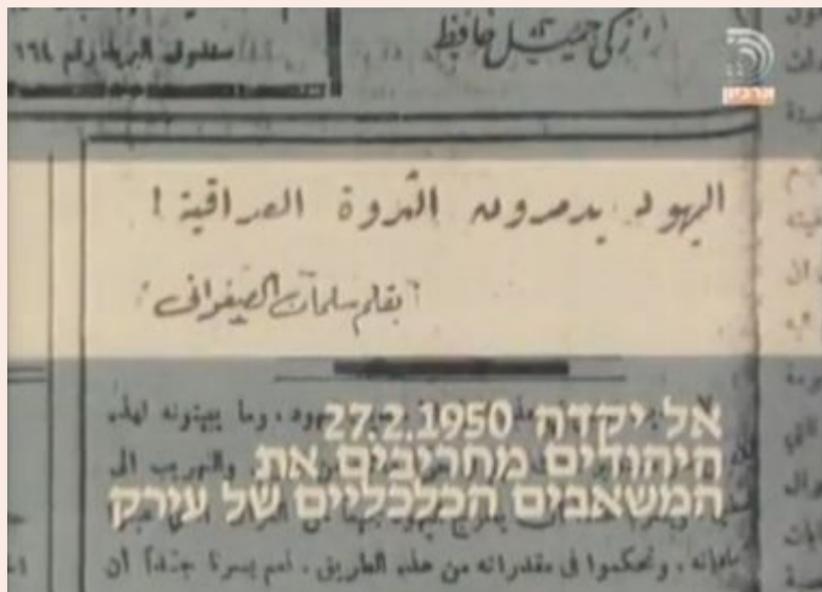
٢٠١٢/١٠/١٩

المصادر :

- مجموعة من المقابلات واللقاءات والمراسلات الشخصية
 - حركة مايس الانقلابية والفروود ضد اليهود / أ.د. كاظم حبيب
 - الاسرار الخفية في حركة مايس التحررية / عبد الرزاق الحسيني
 - تاريخ الوزارات العراقية / عبد الرزاق الحسيني
 - الحرب البريطانية العراقية / محمود الدرّة
 - مذكرات طه الهاشمي
 - بغداد كما عرفتھا / امين المميز
 - الاسيرة رقم ٩٣ / مذكرات مديحة السلیمان
 - تقرير اللجنة التحقیقیة الحكومية المشکلة بشأن الفروود بقرار من مجلس الوزراء والصادر في ٨ / تموز / ١٩٤١
 - قانون الطائفة الاسرائيلية رقم (٧) لسنة ١٩٣٩
 - مجلة الف باء / العدد ١٤٤٩ - تموز ١٩٩٦
- ملحق فوتوغرافي :



Baghdad, Iraq - 1941
 עיראק, 1941 - בגדאד









يتحدث الكاتب عن ذكرياته منذ ولادته في بغداد القديمة وانتقال عائلته الى حلة البتاوين الجديدة ودراسته في مدرسة السعدون وذكرياته عن الفهود والحرب العالمية الثانية والصداقات التي ربطته باصدقائه في دراسته الابتدائية والثانوية والاضطهاد الذي عانى منه اليهود بعد حرب 1948، وهجرته الى إسرائيل والمصاعب التي واجهته ثم إرسال الجامعة العبرية له في بعثة دراسية في جامعة لندن ولقائه مع طلبة وشخصيات عربية مختلفة وعودته للتدريس في الجامعة، إلى إحالته الى التقاعد. سرد الكاتب ذكرياته بأسلوب غنائي سلس يتراوح بين مأساة قلع الجذور وشجونها والمزاج والفكاهة اللاذعة، ترميزه اللهجات العراقية المختلفة في الحوار والتصانيد والأمثال العربية والأغاني العراقية، مازجا التاريخ العربي الإسلامي وقيمه الانسانية بالحاضر.